منتدى مكتبة الاسكندرية

أعمال خالدة
٤

د. هـ. لورنس

قوس قزح

مراجعة
سعدي يوسف

فا[illegible]ني

Bibliotheca Alexandrina
01800072

د . هـ . لورنس

قوس قزح

قوس قزح

أعمال خالدة

٤

قوس قزح

د. هـ. لورنس

ترجمة

فاضل السعدوني

مراجعة

سعدي يوسف

٤

أعمال خالدة

Author : D. H. Lawrence	اسم المؤلف : د. هـ لورنس
Title : Rainbow	عنوان الكتاب : قوس قزح
Translator: Fadhil Al-Saadouni	ترجمة : فاضل السعدوني
Al- Mada : P. C.	الناشر : المدى
First Edition 1998	الطبعة الأولى : ١٩٩٨
Copyright © Al- Mada	الحقوق محفوظة

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون ٧٧٧٢٠١٩ - ٧٧٧٦٨٦٤ - فاكس ٧٧٧٣٩٩٢
بيروت - لبنان صندوق بريد ٣١٨١ - ١١
فاكس ٤٢٦٢٥٢ - ٩٦١١

Al Mada Publishing Company F.K.A
Nicosia - Cyprus , P O Box : 7025
Damascus - Syria , P O Box 8272 or 7366 Tel: 7776864 , Fax 7773992
P O Box . 11 - 3181 , Beirut - Lebanon, Fax . 9611- 426252

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means , electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing, of the publisher.

مقدمة

ليس لديّ وأنا في حضرة (قوس قزح) ، أقدمها للدارسين والقراء العرب ، سوى القول إن ترجمة هذه الرواية قد وفرت لي متعة ذهنية ، كالهوى الأول كما يقولون ، لا أعتقد أنها ستتكرر مرة أخرى ، وحرّكت الدماء في عشرات المعاجم التي كانت تغفو على رفوف مكتبتي .

كانت ترجمة (قوس قزح) ، الرواية الثانية بعد (يولسيس) في الأدب الإنكليزي ، أمنية تراودني منذ فترة طويلة ، بيد أني كنتُ أجد لنفسي الأعذار في كل مرة أقدم فيها على الشروع بالترجمة ، لكن الإغراء كان أشد ، وكان أن ابتدأتُ ، وانشغلت بها انشغالا يكاد يكون تاماً مدة سنة ونصف السنة . ولقد عملت في البداية على طبعة (بنغوين) وهي الطبعة القياسية الموجودة في الأسواق من الرواية . وكان عليَّ أن أستشير ، في أثناء ذلك ، عدداً كبيراً من البشر بين مختصين في أدب لورنس وبين عجائز الشمال الإنكليزي ، وأن أستعين بمعاجم عدة ، تراوحت ما بين معاجم في علم النبات ومعاجم الكنائس والقديسين . ولأن الرواية هي إعادة كتابة للعهد القديم من الكتاب المقدس ، وبغياب معجم عربي لآيات العهد القديم ، فإن توثيق الآيات التي أوردها لورنس أو اقتطعها استغرق وقتا إضافيا . وبعد إنجاز الترجمة بحمد الله ، وقعت في يدي طبعة كمبرج من الرواية وهي طبعة محققة قام بإعدادها البروفيسور مارك كينكيد ـ ويكس ، وكان العثور على تلك الطبعة مصدر نكد وفرح في آن ، فلو وقعت بيدي تلك الطبعة المحققة لوفرت علي كل الجهد الشاق الذي بذلته في تحقيق غوامض النص وشوارده ،

وتجلت الفرحة في أني قد وصلت إلى الاستنتاجات ذاتها التي توصل إليها البروفيسور ويكس ، وليس في النسخة العربية التي حققتها خطأ كبير بيد أني مع ذلك راجعت الترجمة مرة أخرى مع طبعة كمبرج ، وأضفت ، حيثما وجدت ذلك مناسبا ، هوامش وشروحاً .

وبذلك تحققت أمنية العمر هذه بحمد الله ، وها آنذا أزفها ، عروسا عربية ترفل بثوب زفاف قشيب ، بعد ثلاثة أرباع القرن من صدورها بالإنكليزية إلى القراء العرب ، يراودني الأمل بأن تستقطب الاهتمام والرعاية التي تستحق ، والحمد لله رب العالمين

فاضل السعدوني

إربد ـ شتاء ١٩٩٥

إلى

جبرا إبراهيم جبرا

الذي

أشعل

شمعة

فاضل السعدوني

إلى إلزا

* أهدى لورنس رواية قوس قزح إلى إلزا ، أخت زوجته فريدا الكبرى ، وللإهداء دوافع كثيرة من بينها المساعدة التي أبدتها أثناء الأشهر الأولى بعد سفرهما الى ألمانيا عام ١٩١٢

الفصل الأول

كيف تزوج توم برانغوين من سيدة بولونية

(١)

عاش آل برانغوين طوال أجيال عدة في حقل مارش على المروج ؛ حيث يتلوى نهر إريواش متكاسلاً بين أشجار جار الماء ؛ فاصلاً دربي شاير عن نوتنغم شاير . وعلى مبعدة ميلين ، ينتصب برج كنيسةٍ على التل . وكانت بيوت المدينة الريفية الصغيرة تتسلق دون كلل نحوه . وأنىّ رفعَ أحدٌ من آل برانغوين رأسه من عمله ، رأى برج الكنيسة في اليكستون سامقاً في السماء الفارعة ؛ حتى إذا استدار مرة أخرى نحو الأرض المنبسطة ، أدرك أن ثمة شيئاً ما ينتصب فوقه ، وما وراءه في الأفق .

كانت في عيون آل برانغوين نظرة كما لو أنهم ينتظرون شيئاً مجهولاً ، متلهفين لقدومه كانوا متأهبين لما يمكن أن يقع لهم ؛ بنوع من الطمأنينة والترقب نظرة أحد ورثة الأرض .

كانوا أناساً طلقي المحيا ، شقر الملامح ، بطيئي الكلام ، يعبرون عن أنفسهم بوضوح ، لكن ببطء ، حتى يمكن للمرء أن يراقب التغّير في عيونهم من الضحك إلى الغضب ؛ من الضحكة الزرقاء المضيئة إلى الغضب الجاف ذي الحملقة الكئيبة ، مروراً بكل مظاهر السماء المتداخلة عندما يكون الجو متقلبا

ولأنهم كانوا يعيشون على أرض خصبة ، على أرضهم ، قرب مدينة مزدهرة ، فأنهم نسوا ماذا يعني أن يعيش المرء في فاقة . بيد أنهم لم يصبحوا أغنياء البتة ، ذلك لأن ثمة أطفالاً يولدون دائماً ، وكان الإرث يقسم باستمرار ، لكنّ في حقل مارش على الدوام وفرةً من الرزق .

لذلك كان آل برانغوين يغدون ويروحون دون خشية من الإملاق ، يعملون بجد بسبب الحياة التي في داخلهم لا بداعي الحاجة إلى النقود ، غير انهم لم يكونوا مسرفين ، فهم حريصون على آخر نصف شلن لديهم ، وعلمتهم العريزة ألاّ يهدروا قشور تفاحهم لأنها ستنفع في إطعام المواشي ، لكن الأرض والسماء تموران من حولهم ، وأنىّ لهذا أن يتوقف ؟ كانوا يشعرون باندفاع النسغ في الربيع ، ويعرفون الموجة التي لا يمكن أن تتوقف ، لكنها تنثر كل سنة البذور لتعشب ، ثم تتراجع تاركة البراعم الصغيرة على الأرض كانوا يعرفون الجماع بين السماء والأرض ، وضوء الشمس الذي اجتُذب إلى النهود والشرايين ، والمطر الذي امتُص في ساعات النهار ، والعري الذي يتكشف للريح في الخريف ، مظهراً أنه لم تعد فائدة في إخفاء أعشاش الطيور كانت حياتهم وعلاقتهم بعضهم ببعض كما لو أنهم يشعرون بنبض الأرض وجسدها ، تلك التي فتحت التجاويف بانتظار الحبوب ، والتي تصبح ناعمة ولينة بعد الحرث ، وتلتصق بأقدامهم بثقل يسحبهم مثل رغبة ، وتستقر صلبة وهامدة عندما يحين حصاد الحبوب . تمَوّج القمحُ الفتي ، وكان أملس مثل الحرير ، وانزلق البريق على أطراف الرجال الذين رأوه . أمسكوا ضروع البقرات ، أغدقت البقرات الحليب والنبض في أيدي الرجال ، وخفق نبض الدم في حلمات ضروع البقرات مع النبض في أيدي الرجال ، وامتطوا خيولهم ، وأمسكوا بالحياة بين ركبهم ، وشدوا خيولهم الى العربة ، واليد على اللجام ، ساحبين لهاث خيولهم وفق رغباتهم .

في الخريف ، حلّقَ الحجل إلى الأعلى ، وأقلعت الطيور في حشود مثل رذاذ عبر أرض محروثة ، وظهرت غربان القيظ في السماء الرمادية الرطبة ، وطارت وهي تنعق في الشتاء عندها تحلّق الرجال حول النار في البيت حيث النسوة يتجولن بطمأنينة ، وكانت أطراف الرجال وأجسادهم مشبعة بالنهار والماشية والأرض والعشب والسماء . تحلّق الرجال حول النار وعقولهم خاملة ، بينما كان دمهم ينساب متثاقلاً بتراكمات النهار الحي

كانت النسوة مختلفات ، يبدو عليهن أيضا نعاس حميمية الدم ، وثمة عجول ترضع ودجاج يركض زرافاتٍ معاً ، وإوزات صغيرات ترتجف في الأيدي بينما كان الطعام يُقحم في حناجرها ، ولكن النساء أطللن خارجات من الجماع الساخن الحار بين الحقل والحياة إلى العالم المحكي ما وراء ذلك كنّ على معرفة بشفاه العالم وعقوله التي تتحدثِ وتتفوه كن يسمعن الأصوات في البعد ، وكن يجهدن أنفسهن في الإصغاء .

كان يكفي الرجال أن الأرض قد تنهدت وفتحت تجاويفها لهم ، وأن الريح قد هبت لتجفف القمح الرطب ، وتجعل سنابل القمح الشابة تدور من حولها ، مفعمة بالحيوية . كان يكفيهم أنهم ساعدوا البقرات في أثناء الولادة ، أو أنهم أخرجوا الفئران من تحت الحظائر ،

أو كسروا ظهر أرنب بضربة يد قوية   كانوا يدركون أن هنالك الكثير من الدفء والولادة والألم والموت في دمائهم ، وفي الأرض والسماء ، وفي البهائم والنباتات الخضر ، هنالك الكثير من التبادل والتداخل الذي شهدوه مع هذه ، حتى أنهم عاشوا ممتلئين مشحونين بإفراط ، وأحاسيسهم شبعى تماما ، ووجوههم ميممة دوماً صوب حرارة الدم ، يحملقون الى الشمس منذهلين من النظر تجاه مصدر الولادة ، غير قادرين على الاستدارة .

لكن المرأة أرادت نوعا من الحياة غير هذا ، شيئا غير حميمية الدم . كان بيتها يشيح بوجهه عن بنايات الحقل والمزارع ، ينظر خارجاً نحو الطربق والقرية ذات الكنيسة والبنايات والعالم الذي وراءها . وقفت لترى إلى عالم المدن والحكومات البعيد ، وإلى مشهد الرجال الحي ، الأرض السحرية في تصورها ، حيث تُكشف أسرار وتُلبّى رغبات   كانت تيمم وجهها إلى الخارج ، حيث يتحرك الرجال مسيطرين ومبدعين ، وقد أداروا ظهورهم لحرارة الخَلق النابضة ، وبينما كانت هذه خلفهم شرعوا في اكتشاف ما وراء ذلك ، كي يوسعوا من أفقهم ومداهم وحريتهم ، بينما كان رجال آل برانغوين يممّوا وجوههم نحو الداخل ؛ إلى حياة الخلق المموّارة التي كانت تصب غامضة في عروقهم ، تنظر ، مثلما لابد أنها فعلت ، من أمام بيتها صوب فعالية الرجل في العالم الشاسع ، بينما كان زوجها ينظر إلى الخلف ؛ إلى السماء والمحصول والبهائم والأرض . كانت تُجهد عينيها كي ترى ماذا فعل الرجل في قتاله من أجل المعرفة ، وأجهدت نفسها لتصيخ السمع إلى كيف يتفوه فيه أثناء فتوحاته ، كانت رغبتها الأعمق تحوم حول المعركة التي سمعتها بعيدة تدور على حافة المجهول   كانت تريد أن تعرف أيضاً ، وأن تكون مع الحشد المقاتل .

في المنطقة ، حتى في منطقة قريبة مثل قرية كوسثي ، كان القس هو الذي يتكلم اللغة السحرية الأخرى ، والذي له الهيئة الأخرى ، الأكثر نبلاً . وكان بمقدورها أن تستوعب هاتين الصفتين ، لكن ليس بمستطاعها أن تبلغهما   كان القس يتحرك في عوالم تقع ما وراء المكان الذي يوجد فيه رجالها   ألم تكن تعرف أن رجالها · معافون ، بطيئون ، سليمو البنية ، محبون للترؤس بما يكفي ، لكنهم سهلون معتادون على الأرض ، فاقدو التطلع نحو الخارج ومدى العواطف . وبينما كان القس معتماً وجافاً وضئيلاً قياساً على زوجها ، إلا أنه كان يمتلك مع ذلك سرعة ومدى كينونة من النوع الذي جعل برانغوين ، في بشاشته الظاهرة ، يبدو معتماً ومحلياً . كانت تعرف زوجها لكن في طبيعة القس ما يفوق معرفتها . ومثل ما كان للبرانغويني سلطة على الماشية ، كان للقس سلطة على زوجها . ما الذي يرفع القس فوق النوع الشائع من الرجال مثل ما يرتفع الرجل فوق البهيمة ؟

كانت تتوق الى معرفة ذلك   كانت تود أن تكون ذلك الكائن الأعلى إن لم يكن في نفسها ، ففي أطفالها إذن . ذلك الذي يجعل الرجل قوياً حتى إن كان ضئيلاً ، هزيل البنية ، مثل ما يكون أي رجل ضئيلاً وهزيل البنية بجانب الثور ، ومع ذلك فهو أقوى منه   ما هو ذلك الشيء ؟ إنه لم يكن النقود أو السلطة أو الموقع . أية سلطة للقس على توم برانغوين ؟ لا شيء ، ومع ذلك ، اخلع ملابسهما ، وأطلقهما على جزيرة مقفرة ، عندها سيكون القس هو السيد   كانت روحه سيدة روح الآخر . ولكن لماذا ؟ لماذا ؟ وقررت أن المسألة تتعلق بالمعرفة .

كان راعي الأبرشية فقيراً بما فيه الكفاية ، ولم يكن مؤثراً كرجل أيضاً ، ومع ذلك فأنه كان يشغل مكانة مع أولئك الآخرين المتفوقين . راقبت أطفاله وهم يولدون ، ورأتهم يركضون مثل كائنات ضئيلة إلى جانب أمهم ، وكانوا منفصلين مسبقاً عن أطفالها ، متميزين . لماذا يوضع أطفالها تحت أولئك الآخرين ؟ لماذا يأخذ أطفال راعي الأبرشية الأفضلية حتماً على أطفالها . لماذا تُعطى لهم الغلبة منذ البداية ؟ ولم يكن سبب ذلك النقود و لا حتى الطبقة ، فقررت أنها التعلم والتجربة .

هو هذا التعلم ، هذا الشكل الأسمى من الوجود ، ما تمنت الأم أن تمنحه لأطفالها حتى يستطيعوا هم أيضاً أن يعيشوا الحياة الأسمى على الأرض . وذلك لأن أطفالها وأطفال حشاشتها في الأقل ، يتوافرون على الطبيعة المكتملة التي يجب أن تجعلهم مكافئين للناس الأحياء المفعمين بالحيوية على الأرض ، ويجب ألا يتركوا مهملين بين الكادحين . لماذا يجب أن يبقوا مجهولين ومغمورين طوال حياتهم ، لماذا عليهم أن يعانوا من فقدان حرية الحركة ؟ كيف يمكن أن يتعلموا الدخول إلى دائرة الحياة الأروع والأكثر إشراقا ؟

كان زناد ذهنها قُدِحَ من قبل امرأة مالك الأرض في شيلي هول التي أمّت الكنيسة في كوسثي مع أطفالها الصغار ؛ فتيات يرتدين أردية فضفاضة أنيقة ذات فراء سمّور وقبعات صغيرة أنيقة ، وكانت هي أشبه بوردة شتائية بجمالها ورقتها ؛ جد جميلة ؛ ذات قوام رائع ، وحد مشرقة . ما الذي تشعر به السيدة هاردي ولا تحسُّ به السيدة برانغوين ؟ كيف تختلف طبيعة السيدة هاردي عن النساء العاديات في كوسثي . ما هو الشيء الذي يجعلها فوقهن ؟ كانت نساء كوسثي جميعاً يتحدثن بلهفة عن السيدة هاردي وعن زوجها وأطفالها وضيوفها وملابسها وعن خدمها وإدارتها بيتها . كانت سيدة القصر حلم حياتهن الحي ، وكانت حياتها الذروة التي تلهم حياتهن   يعشن فيها بخيالهن وفي نميمتهن عن زوجها الذي يعاقر الخمرة ، وعن شقيقها الذي يسبب الفضائح ، وعن صديقها اللورد وليم بنتلي عضو مجلس

النواب عن تلك الأنحاء . كانت لهن أوديستهن التي تعرض أمامهن ، وبنلوبي ويوليسيس أمامهن ، والخنزير والغزل الذي لا نهاية له لذلك كانت نسوة القرية محظوظات ، إذ كنّ يشاهدن أنفسهن في سيدة الضيعة ، وكانت كل واحدة منهن تحيا اكتفاءها من الحياة في حياة السيدة هاردي . ولقد أُلهمت زوجة برانغوين في حقل مارش إلى ما وراء نفسها ؛ نحو الحياة الأبعد للمرأة الرائعة ، نحو الكائن الأكثر امتداداً الذي كشفت عنه ، مثل ما يكتشف مسافر بطريقته الخاصة بلداناً بعيدة موجودة في داخله ، ولكن لماذا تجعل المعرفة ببلدان بعيدة حياة المرء شيئاً مختلفاً ، شيئاً أروع وأكبر ؟ ولماذا يكون أكثر إنسانية من البهيمة والمواشي التي تخدمه ؟ إنها الشيء نفسه . كان الجزء الذكوري من القصيدة مُلئ برجال من أمثال القس واللورد وليم ، رجال هزيلي البنى ، متلهفين ، ذوي حركات غريبة ، رجال سيطروا على الحقول الأبعد ، ممن تمتد حياتهم إلى مدى شاسع . آه ، كان أمراً ترغب في معرفته كثيرا ، لمسة الرجال الرائعين ، تلك التي لها قدرة الفكر والفهم . إن نسوة القرية ربما كنّ اكثر غراماً بتوم برانغوين وأكثر تبسطا معه ، ومع ذلك لو أن حياتهن سُلبت من قبل القس ولورد وليم ، لكان شعاع حياتهن الرئيسي قُطع عنهن ، ولأصبحن عندئذ ثقيلات ضجرات ميالات إلى الكره ، وبما أن عجائب عالم الماوراء كانت أمامهن ، فإن بمقدورهن الاستمرار بغض النظر عن قدرهن . وكانت السيدة هاردي والقس واللورد وليم يتحركون في عجائب الما وراء ، وكانوا ظاهرين في حركتهم لعيون كوسثي .

(٢)

في نحو عام ١٨٤٠ شُقت قناة عبر مروج حقل مارش ، رابطةً المناجم التي افتتحت لتوها في وادي إريواش . وامتدت سدّةٌ مرتفعة على امتداد الحقول كي تحمل القناة ، فمرت بالقرب من بيت الأسرة ، ووصلت إلى الطريق متحولةً إلى جسر ثقيل ، وبذلك عُزل حقل مارش عن اليكستون ، وانغلق في بطن الوادي الصغير الذي ينتهي بتل مشجر وببرج مدينة كوسثي .

حصل ال برانغوين على مبلغ طيبٍ من المال مقابل هذا التجاوز على أراضيهم وبعد ذلك بفترة قصيرة ، حُفر منجم اخر على الجانب الاخر من القناة . وبعد برهة امتدت سكة حديد المدلاند على امتداد الوادي ؛ عند قاعدة تل اليكستون ، وبذلك اكتمل الاحتلال ، ونمت المدينة بسرعة وظل ال برانغوين مشغولين بإنتاج المؤن ، واصبحوا اكثر غنى ، حتى تحولوا إلى تجار تقريباً .

ومع ذلك ظل حقل مارش نائياً وأصيلاً على الجانب القديم الهادئ من سدة القناة ، في الوادي المشمس حيث يتجول الماء البطيء بصحبة أشجار جار الماء الصلبة ، وكان الطريق يمر تحت أشجار المرّان من أمام بوابة حديقة آل برانغوين

وعند النظر من بوابة الحديقة إلى الطريق الممتد إلى اليمين ، عبر انحناء القناة المظلم ، يلوح منجم يمتد على مقربة ، ووراءه بيوت خشنة ، حمراء ، تلتصق كتلاً على الوادي ، وما وراء هذا كله تل المدينة المدخن المعتم .

بيت الأسرة يكاد يقع على الجانب الآمن من الحضارة ، خارج البوابة . كان البيت ينتصب مكشوفاً من الطريق ، يمكن الوصول إليه عبر ممر حديقة مستقيم ، ينتشر على امتداده النرجس البري ؛ كثيفاً بألوانه الخضراء والصفراء وقت الربيع . وعلى جوانب البيت كانت هنالك شجيرات من الليلك وبلسان الماء والياسمين تخفي بنايات الحقل خلفها تماما .

وفي المؤخرة تقاطع من ظلال تنتشر في جوار المنزل من فناءين أو ثلاثة غير منفصلة بعضها عن بعض أما بركة البط فإنها تقع خلف الجدار الأبعد . وكانت البطات تلطخ ريشها الأبيض على السدات الترابية المبطنة ، ناثرة ريشها الملطخ المتناثر على العشب وشجيرات الرتم تحت سدة القناة التي ترتفع مثل متراس مرتفع قريب ، حيث يمر ظل رجل عليه بين آن وآخر ، أو يقطع ظل رجل يسحب حصانه السماء .

في البداية تملكت الدهشة آل برانغوين بسبب تلك الفوضى التي من حولهم ، ولكن بناء القناة عبر أراضيهم جعلهم غرباء في عقر دارهم . إن هذه السدة الخام من التراب التي أحاطتهم كانت تشعرهم بالارتباك وبينما كانوا يعملون في الحقول ، كان يأتيهم من خلف السدة التي أصبحت منظراً مألوفاً ، إيقاع المكائن الذي أجفلهم في البداية ، ولكنه تحول بعد ذلك إلى مخدر للدماغ ، ثم تردد بعد ذلك صفير القطارات الصاخب خلال القلب بمتعة ممزوجة بالفزع ، معلنة أن ما كان بعيدا اصبح قريباً وشيكاً

وعندما كانوا يعودون بعرباتهم من المدينة ، كان المزارعون يشاهدون عمال المناجم الملطخين ، وهم يخرجون زرافات من فتحة المنجم ، وبينما كانوا يجنون المحاصيل ، جلبت الريح الغربية رائحة كبريتية واهنة لحريق فضلات المناجم . وعندما كانوا يقلعون اللفت في تشرين الأول ، تردد صرير العربات الفارغة الحاد ، وهي تتجول على السكة الحديد ، في قلوبهم ، بحقيقة أن فعالية أخرى تستمر ما وراءهم

تزوج ألفريد برانغوين الذي عاش في تلك الفترة امرأة من هينور ، ابنة «الحصان الأسود» كانت امرأة رشيقة ، جميلة ، سمراء اللون ، طريفة الحديث ، متقلبة الأطوار ،

بحيث أن الأشياء الحادة التي كانت تتلفظ بها ، لم تكن تؤذي مشاعر أحد . كانت منصرفة الى نفسها على نحو غريب ، ولم تكن نكدة في طبعها ، بيد أنها كانت منعزلة ولا مبالية حقاً ، إذ أنها عندما كانت ترفع عقيرتها بالشكوى من زوجها خصوصاً ، أو أي شخص آخر غيره ، فان ذلك كان يجعل أولئك الذين يسمعونها يدهشون ويشعرون بالتأثر نحوها ، حتى عندما يكونون منزعجين أو نافدي الصبر نحوها كانت تشكو كثيراً ، وبصوت عال ، من زوجها ، لكن ذلك كان دوما بصوت متوازن ومنساب ، وبطريقة في الحديث كانت تدفئ أحشاءه بالكبرياء وتفوّق الذّكر ، بينما كان يقطب بسبب من شعور بالإهانة من الأشياء التي كانت تقولها .

ونتيجة لذلك اصبح لبرانغوين نفسه نجاعيد ساخرة حول عينيه ؛ نوع من الضحكة البدينة ، هادئة تماماً وممتلئة . وكان مدللاً مثل إله الخلق . كان يتصرف بهدوء مثل ما يهوى ويضحك بسبب شكواها ويعتذر بطريقة تعشقها ، وكان يتبع أهواءه الفطرية . وفي بعض الأحيان ، وعندما يكون قد وخز في صميمه تقريباً ، كان يخيفها ويحطمها برعب شديد يتملكه ويسيطر عليه أياماً عدة ، وعندها كانت تعطي أي شيء كي تهدئ سريرته كانا كائنين منفصلين تماماً ، مرتبطين بحيوية ، لا يعرف أحدهما عن الآخر شيئاً ، ومع ذلك ، يعيشان بطريقتيهما المختلفتين ، على جذر واحد .

كان لهما أربعة أبناء وبنتان . ولقد هرب الابن الأكبر مبكراً إلى البحر ولم يعد . بعد هذا أصبحت الأم قطب الجذب ومركزه في البيت اكثر من قبل . أما الابن الثاني : الفريد الذي كانت الأم مولعة به ، فكان الأكثر تحفظاً ، إذ أرسل إلى المدرسة في اليكستون ، وأحرز بعض التقدم ، وعلى الرغم من إصراره وتوقه ، فإنه لم يستطع أن يتقدم ما وراء أوليات أي شيء باستثناء الرسم . وفي هذا ، الذي كانت له فيه بعض المقدرة ، عمل كما لو أن ذلك مبتغاه . وبعد الكثير من التذمر والتمرد الوحشي ضد كل شيء ، وبعد الكثير من المحاولات والتنقلات وبعد أن أثار حفيظة والده ضده ، ويأست أمه منه تقريباً ، اصبح رساماً في معمل للحياكة في نوتنغم .

ولقد ظل ثقيلاً ، أخرق بعض الشيء ، يتحدث بلهجة دربي شاير العامية ، متمسكاً بكل إصرار بعمله ووظيفته ، منتجاً تصاميم جيدة ، واصبح ميسور الحال بعض الشيء ، وفي الرسم كانت يده تندفع بالفطرة في خطوط كبيرة واضحة غير دقيقة بعض الشيء . لذلك كانت مهمة قاسية عليه أن ينكب على تصميم المخرمات ، مشتغلاً على مربعات الورق الصغيرة ، عاداً ، راسماً ، متذمراً . كان ينجز الأمر بعناد وتبريح ، طاحناً أحشاءه ، متمسكاً بقدره الذي

اختاره مهما كلف الأمر . ولقد عاد إلى الحياة مستعداً صلباً قليل الكلام ، ويكاد يكون رجلاً واثقاً من نفسه . تزوج من ابنة صيدلاني أحرز بعض التفوق الاجتماعي ، فاصبح متأبهاً بطريقته العنيدة ، وسيطرت عليه رغبة في الإصلاحات الظاهرية لأثاث المنزل ، وكان الجنون يتملكه عندما يحدث أي شيء اخرق أو فظ أمامه . وبعد ذلك ، وعندما كبر أولاده الثلاثة ، وبدا رجلاً وقوراً في أواسط عمره ، تعلق بامرأة غريبة ، واصبح تابعاً غامضاً وصامتاً للمتعة المحرمة ، مهملاً زوجته الغنية الوقور ، دون إحساس بتأنيب الضمير .

رفض فرانك ، الابن الأوسط ، أن تكون له أدنى علاقة بالتعلم . ومنذ البداية ابتدأ يتردد على المسلخ الذي شيد في الساحة الثالثة في مؤخرة الحقل . كان آل برانغوين يذبحون مواشيهم بأيديهم ، ويزودون جيرانهم باللحم . ومن ذلك التقليد ، نشأت مهنة قصابة منتظمة مرتبطة مع الحقل . ومنذ أن كان طفلاً ، اجتُذب فرانك بمجرى الدم الأسود الذي يجري على الرصيف من المسلخ إلى الحظيرة ، وبمنظر الرجال وهم ينقلون إلى كوخ اللحم قطعة كبيرة من لحم البقر ، حيث تظهر الكلى مدفونة في ثنايا الدهن السميكة .

كان فتى وسيماً ، ذا شعر بني ناعم وملامح منتظمة ، مثل شاب روماني من العصور المتأخرة . وكانت تسهل إثارته ، وكان اكثر استعداداً للاندفاع من البقية ، واضعف في السمات . تزوج في سن الثامنة عشرة من عاملة مصنع ؛ مخلوقة شاحبة ، ممتلئة ، هادئة ، ذات عينين ماكرتين ، وصوت متملق ، أقحمت نفسها على حياته ، وحملت له طفلا كل عام ، وجعلت منه أحمق . وعندما استلم عمل القصابة ، كان اصبح غليظ القلب تجاهها ، وجعله نوع من الاحتقار لها يهملها . وابتدأ يعاقر الخمرة ، وغالبا ما يُعثر عليه في الحانة يثرثر ، كما لو انه على بينة بكل شيء ، بينما كان في الحقيقة أحمق مهذاراً .

من بين البنات تزوجت كبراهن ؛ أليس ، من عامل مناجم ، وعاشت بعض الوقت حياة عاصفة في اليكستون ، قبل أن تنتقل إلى يوركشاير مع أطفالها الكثيرين أما ايفي الصغرى ، فقد ظلت في البيت . أما آخر العنقود توم ، فلقد كان اصغر كثيراً من إخوته ، لذلك كان ينتمي إلى مجموعة شقيقاته على نحو اكثر ، وكان أثير أمه .

حزمت الأم أمرها حد الإصرار ، وأرسلته بالقوة إلى مدرسة ثانوية في دربي عندما كان في سن الثانية عشرة . ولم يكن يريد الذهاب ، وكان والده سيذعن للأمر ، لكن السيدة برانغوين كانت عزمت على الأمر ، إذ اصبح ولدها الرشيق ، الجميل ، ذو الجسد الملتفع بالتنورات الضيقة الطويلة ، هدف القرار في البيت ، وكانت عندما تصمم على أمر ما ، وهو أمر لا يحدث غالباً ، فان العائلة تفشل في ثنيها .

وهكذا ذهب توم إلى المدرسة . فاشلاً مجبراً منذ البداية ولقد آمن أن أمه على حق في أن تفرض عليه الذهاب إلى المدرسة ، لكنه كان يدرك أنها على حق فقط ، لأنها لا تعترف بكيانه كان يشعر ، بتنبؤ الطفل الغريزي العميق ، بما سوف يحدث له ، من انه سيكون إنساناً فاشلاً في المدرسة ، ولكنه عدّ البلية باعتبارها شراً لا بد منه ، كما لو انه مذنب بطبيعته ؛ كما لو أن كيانه خطأ ، وان تصور أمه صحيح ، فلو أنه استطاع أن يكون ما يريد لأصبح مثل ما أملت منه أمه وتوهمت . لأصبح ذكياً عندئذ ، وقادراً على أن يصبح رجلاً نبيلاً ، فلقد أدرك أن إلهامها له كان الإلهام الحقيقي لأي صبي ، ولكنك لا تستطيع أن تصنع جيباً حريرياً من أذن خنزير ، كما أخبر أمه مبكرا جداً ، وكان يعني نفسه ، وهو أمر أحزنها وكدّرها وعندما انخرط في المدرسة ناضل نضالاً عنيفا ضد عوقه الفيزيائي تجاه الدراسة ، إذ كان يجلس منكمشاً ، متخذاً مظهراً شاحباً ، ولاهثاً في محاولاته التركيز على الكتاب ، كي يستوعب ما عليه أن يتعلمه . بيد أن ذلك لم يجد نفعاً ، فإذا ما تغلب على نفوره المبدئي ، وتوجه في ما يشبه الانتحار الى المادة فانه لا يتقدم إلا قليلاً لم يكن بمقدوره أن يتعلم بالإكراه ، وببساطة لم يكن ذهنه يعمل .

أما من ناحية الإحساس ، فلقد نشأ حساساً بالمحيط من حوله ، وربما كان قاسياً ، بيد انه كان رقيق القلب أيضاً ؛ رقيقاً جداً لذلك كان سيئ الظن بنفسه كان يعرف قصوره ، ويدرك أن ذهنه كان بطيئاً عادم الفائدة لا يصلح لأي شيء ، لذلك كان متواضعاً ، ولكن في الوقت نفسه ، كانت أحاسيسه اكثر تميزاً من بقية الصبيان ، وكان ذلك يربكه كان تطوره الحسي ازداد ، واصبح اكثر تهذيباً في الغريزة منهم . وبسبب غبائهم الآلي ، كرههم وعانى من احتقار قاس نحوهم ، ولكن عندما تأتي الأمور إلى المسائل الذهنية ، فإنه يكون الخاسر عندئذ ، إذ كان تحت رحمتهم ، وكان أحمق ليس له القدرة على أن يجادل في اكثر الحجج غباء ، لذلك كان مجبرا على الاعتراف بأشياء لا يؤمن بها مطلقا . وبعد أن يعترف بها ، لم يكن يعرف إن كان يؤمن بها أم لا ، بل كان يعتقد انه يؤمن بها ، ولكنه كان يحب أي امرئ بمقدوره أن ينقل إليه تبصيراً عبر الإحساس . إذ جلس ، وقد خانته العاطفة ، عندما قرأ مدرس الأدب بطريقة مؤثرة ، قصيدة « يولسيس » لتينسون ، أو قصيدة « إلى الريح الغربية » لشيلي . كانت شفتاه تفتران ، وتمتلئ عيناه بضوء متوتر يكاد يكون موجعاً واستمر المعلم يقرأ مدفوعاً بسيطرته على الصبي ، ولقد تأثر توم برانغوين بهذه التجربة بما يتجاوز كل الحسابات ، فلقد كاد يفزع منها ، إذ أنها كانت تجربة عميقة جداً ، ولكنه عندما أخذ الكتاب خفية وبخجل تقريباً ، وابتدأ يقرأ الكلمات : «أوه أيتها الريح الغربية ،

أنت يا نفسَ كائن الشتاء » فان الحروف المطبوعة في حد ذاتها سببت لديه إحساساً واخزاً من الرفض في جلده ، وتدفق الدم إلى وجهه ، وامتلأ قلبه بإحساس متفجر من الغضب والهشاشة ، فاسقط الكتاب وداس عليه ، وخرج إلى ساحة الكريكت ، ولقد كره الكتب كما لو أنها أعداؤه . لقد كرهها أكثر من أي شيء آخر .

لم يكن بمقدوره أن يسيطر طوعاً على نواياه ، فلم يكن لذهنه عادات ثابتة يسير على هداها ، ولم يكن لديه شيء يتمسك به ، ولا بداية يبدأ منها . وليس من شيء واضح له ، ولا شيء معروفاً داخل نفسه يستطيع أن يستعمله في التعلم . لم يكن يعرف كيف يبدأ ، لذلك كان عديم الحيلة عندما تصل الأمور إلى الفهم المتعمد أو التعلم المتعمد . كان لديه فهم غرّزيّ في الرياضيات ، ولكن إذا لم يجده ذلك نفعاً ، عندها يكون عديم الحيلة مثل أبله ، لذلك أحس أن الأرض لم تكن ثابتة تحت قدميه أبداً ، ولم يكن لديه موقع ثابت وكان سقوطه النهائي هو عجزه التام عن الإجابة عن سؤال يطرح عليه دون إلماح ، فإذا كان عليه أن يكتب إنشاء رسمياً عن الجيش ، فلقد كان بمقدوره أن يكرر في النهاية الحقائق القليلة التي كان يعرفها : «إن بمقدورك أن تلتحق بالجيش في سن الثامنة عشرة . يجب أن يتجاوز طول قامتك الخمسة أقدام وثلاث بوصات» ولكن طوال الوقت كان يتملكه إحساس حي بان هذا مجرد احتيال ، وان ملاحظاته المبتذلة لا تستحق حتى الازدراء . عندئذ يحمرُّ غضباً ، ويشعر أن أحشاءه تُغمر بالعار ، ويخربش ما كتب ، ويبذل جهدا مرتبكاً كي يفكر في شيء ما بشكل إنشائي حقيقي فيفشل ويمتلئ بالغضب والاحتقار ويركن القلم المفتوح ، ثم يمزق إرباً ما كتب بدلاً من أن يحاول أن يكتب كلمة أخرى .

وسرعان ما اعتاد على المدرسة الثانوية واعتادت المدرسة الثانوية عليه ، مبقين عليه باعتباره ابله لا أمل في تعليمه ، لكنهم كانوا يحترمونه لطبعه الكريم الأمين باستثناء شخص مستبد ضيق الأفق هو مدرس اللغة اللاتينية الذي كان يتنمر عليه ، ويجعل عينيه الزرقاوين مفزوعتين بالغضب والخجل . ثم وقع مشهدُ مرعبُ عندما شجَّ الفتى رأس المدرس بصخرة إردواز ، ثم سرعان ما عادت الأمور إلى مجاريها ، فلم يحصل المدرس إلاّ على القليل من التعاطف ، لكن برانغوين فزعَ ، ولم يعد بمقدوره أن يطيق التفكير في تلك المأثرة حتى بعد ذلك بفترة طويلة عندما اصبح رجلاً ناضجاً .

كان سعيداً بأن يغادر المدرسة بيد أنها لم تكن غير مُسَّرة بالنسبة إليه ، فلقد استمتع برفقة الشباب الآخرين ، أو اعتقد انه استمتع بها . ولقد مر الوقت سريعاً في فعالية لا نهاية لها ، لكنه كان يدرك طوال الوقت انه في موضع شائن ، في مكان التعلم . ظل شاعراً بذلك

الفشل طوال حياته ؛ بعدم قدرته ، لكنه كان معافى جداً ومتورد الوجنتين فلا يشعر بالبؤس . كان ممتلئاً جداً بالحياة ، ومع ذلك فإن روحه كانت بائسة إلى درجة اليأس تقريباً .

كان أحب فتى ذكياً رقيقاً هش البُنية من النوع الذي يكون عرضة للإصابة بالسل ، ونشأت بينهما صداقة وطيدة مثل داود وجوناثان ، حيث كان داود هو البرانغويني الخدوم ، لكنه لم يشعر قط انه كفء لصديقه لأن عقل الآخر كان يسبقه تاركاً إياه خجلاً بعيداً في المؤخرة ، لذلك انفصل الصبيّان حال تركهما المدرسة ، لكن برانغوين كان يتذكر ذاك الذي كان صديقه دائما مبقياً عليه كنوع من الضوء ، وتجربة رائعة يتذكرها .

كان توم برانغوين سعيداً بعودته إلى الحقل ، إذ عاد إلى عالمه من جديد : « إن هنالك لفتاً على كتفي فدعوني مع الأرض المبوّرة » هكذا قال لأمه الساخطة . كان لديه تصور سيئ عن نفسه هو الآخر أيضاً ، بيد انه استمر يعمل في الحقل ، سعيداً سعادة كافية ، فرحا بالعمل الحي ورائحة الأرض مرة أخرى ، ممتلئاً بالشباب والحيوية والفطنة الساخرة ، ممتلكاً الرغبة والقدرة على نسيان عيوبه ، ومكتشفاً العنف داخل نفسه ، وكانت تنتابه نوبات غضب بين آن وآخر ، لكنه في العادة على علاقة طيبة مع الجميع ومع كل شيء .

عندما كان في سن السابعة عشرة سقط والده من كدس حطب ودُقّت عنقه . بعد ذلك استمرت الأم والابنة والابن في العيش في الحقل ، وكان ذلك يقاطع بين آن وآخر بنواح صاخب ، وزيارات سببها الغيرة من قبل القصاب فرانك الذي كان يشعر بالتذمر تجاه العالم الذي كان يعطيه حسب اعتقاده اقل مما يستحق كان فرانك خصوصاً ضد توم الشاب الذي كان يدعوه بالطفل المدلل ، وكان توم يرد على ذلك الكره بعنف إذ يحمر وجهه وتحملق عيناه الزرقاوان ، وكانت إيفي تؤازر توم ضد فرانك ، وعندما عاد الفريد من نوتنغم ، وقد تهدل لُغدُه واكفهرت ملامحه ولم يعد يتفوه إلا قليلاً ، لكنه كان يعامل أولئك الموجودين في البيت ببعض الازدراء ، اتفقت إيفي والأم معه ، واضعتين توم في الظل . ولقد أزعج الشاب أن يعامل أخوه كبطل من قبل المرأتين لمجرد انه لم يعش في البيت ، وانه كان مصمم مطرزات ورجلاً نبيلاً تقريباً . لكن الفريد كان فيه شيء من نزوة بروميثيوس* ، لذلك أحبته المرأتان ، لكن توم لم يفهم أخاه جيداً إلا متأخراً .

---

* مأساه من تأليف أسخيلوس (٥٢٥ ـ ٤٥٦ ق .م) يتغلب فيها بروميثيوس على الإله زيوس بالمكر ، ويسرق النار الأزلية من عربة الشمس ، ولأجل ذلك يحكم عليه بالعذاب الأزلي ، فيقيّد إلى صخرة ويعذّب من قبل صقر زيوس . وفي كانون الأول من عام ١٩١٤ وكانون الثاني ١٩١٥ عدّه لورنس مثالاً على الإعجاب بالنفس وحاجه الإنسان المعاصر للتحرر . (المترجم)

باعتباره الابن الأصغر ، أحسّ توم ببعض الأهمية عندما أوكلت إليه مهمة العناية بالحقل . كان عندها في الثامنة عشرة حسب ، بيد انه كان قادراً على فعل كل شيء فعله أبوه ، وبالطبع بقيت أمه مركز البيت .

نشأ الشاب نشطاً وحذراً فيه توق للاستمتاع بكل لحظة من لحظات الحياة . كان يعمل ويركب ويسوق العربات إلى السوق ، وكان يخرج مع أقرانه . وبين آن وآخر ،كان يسكر ويلعب لعبة القناني الخشبية والكرة ، ويرتاد المسارح الصغيرة الجوالة . وفي إحدى المرات عندما سكر في إحدى الحانات صعد إلى الطابق العلوي مع مومس أغرته ، وكان عندها في التاسعة عشرة من عمره .

كان ذلك الأمر بمثابة صدمة له ، ففي حميمية مطبخ الحقل الصميمية ، كانت المرأة تشغل الموقع الأعلى والرجال ينصاعون لأوامرها في البيت في كل الأمور المتعلقة به ، وفي كل أمور الأخلاق والسلوك كانت المرأة رمز تلك الحياة الأخرى التي تشمل الدين والحب والأخلاق . ولقد وضع الرجال ضميرهم بين يديها وقالوا لها : «كوني المؤتمنة على ضميري ، كوني الملاك على الباب تحرسين ذهابي وإيابي »* . ولقد أوفت المرأة الأمانة ، وسكن الرجال على نحو مطلق إليها ، مصغين لمدحها أو ذمها بمتعة أو غضب ، متمردين هائجين بيد انهم في الواقع لا يهربون بأرواحهم لحظة من حقها المشروع ، انهم يعتمدون عليها ضماناً لاستقرارهم ، فمن دونها يشعرون انهم مثل قشة في مهب الريح ، ترمى هنا أو هناك على غير هدىً .

والآن وقد اصبح توم برانغوين في التاسعة عشرة ، شابا يافعا مثل نبات تمتد جذوره إلى أمه وأخته ، اكتشف انه قد نام مع بغي في حانة وضيعة ، فأذهله ذلك كثيراً . إذ كانت النسوة في تصوره حتى ذلك الوقت ، من نوع واحد : أمه وأخته .

ولكن ماذا الآن ؟ انه لا يدرك كنه مشاعره . فثمة دهشة خفيفة ونوبة غضب أو خيبة أمل . وفي البداية أحس بطعم الرماد والخوف البارد خشية أن يكون هذا هو كل ما سيحدث له ، خشية ألا تكون علاقاته مع المرأة أكثر من هذا الشيء . ولقد اعتراه إحساس طفيف من الخجل أمام البغي مخافة أن تحتقره بسبب عدم كفاءته .

اعتراه إحساس باشمئزاز بارد تجاهها ، وخوف منها ، وكانت هناك لحظة رعب مشلول عندما شعر انه قد يلتقط مرضاً منها . وفوق كل اضطراب العاطفة المفزوع هذا ، وضعت يد

---

* قارن مع كتاب (الملاك في البيت) من تأليف كوفنتري باتمور (١٨٢٣ ـ ١٨٩٦) صديق حميم لأليس مينيل التي كَتبت رواية (فوس ترح) في كوخ ابنتها . (المترجم)

التعقل الثابتة التي قالت ن الأمر لا يهم كثيراً جداً ، مادام لم يلتقط أي مرض وسرعان ما استعاد توازنه ولم يعد الأمر يهم كثيراً جداً .

لكن الأمر كان بمثابة صدمة له ، وزرع الشك في قلبه ، وأكد مخاوفه مما هو كامن في دواخل نفسه . لكنه مع ذلك ، كان ، وبعد بضعة أيام ، عاد مرة أخرى إلى طريقته المهملة السعيدة الطليقة في الحياة ، وعادت عيناه الزرقاوان صافيتين أمينتين مثل ما كانتا ، وعاد وجهه إلى رونقه ، وعادت شهيته حادة مثل ما كانت عليه . أو كان الظاهر كذلك ، بيد انه في الحقيقة فَقَدَ بعضا من قدرته على الطفو ، وعرقل الشك انطلاقته

فلفترة من الزمن بعد ذلك ، كان اكثر هدوءاً ، واكثر صحواً عندما يحتسي الخمر ، واكثر عزلة عن رفاقه إن وهم تماسه الجسدي الأول مع المرأة الذي تغذى برغبته الفطرية في أن يجد في المرأة تجسيداً لكل اندفاعاته الدينية العنيفة البكماء سبب له غصة في حلقه . إن لديه شيئا عليه أن يفقده ، وكان يخشى فقدانه بل انه لم يكن متأكدا من امتلاكه له أن هذا الأمر الأول لا يهم كثيراً ، لكن مسألة الحب في قاع روحه . كانت هي الأكثر جدية وإرهاباً له من بين كل الأمور الأخرى .

كان ممزقاً حينئذ بالرغبات الجسدية ، وكان خياله ينساق دائما إلى مشاهد مثيرة ، لكن ما منعه حقاً من العودة إلى امرأة مبتذلة ، اكثر واقل من الاحتشام الطبيعي ، هو استعادة قحط التجربة الأخيرة ، فلقد كانت فارغة ونزرة وآلية إلى درجة انه كان يخجل من أن يعرض نفسه إلى مجازفة تكرارها

ولقد خاض قتالاً غرّزيّاً قوياً كي يستعيد نقاء سريرته الطبيعي ؛ إذ كان له بالفطرة تدفق غزير من الحياة والمرح ، إحساس بالكفاءة والوفرة والعطاء ، ولكن ذلك يقلقه الآن فثمة ضوء مجُهِد يتسرب إلى عينيه ، وثمة تقطيبة خفيفة في حاجبيه ، وتخلى مرحه الصاخب لصمت واطئ . ومرت الأيام في نوع من الانتظار

لم يكن يعرف أن ثمة اختلافاً في داخله ، بسبب انه في الجزء الأكبر ممتلئ باستياء وغضب بطيئين ، لكنه كان يدرك انه يفكر في النساء دائماً ، أو في امرأة واحدة آناء الليل وأطراف النهار ، وكان ذلك يجعله يستشيط غيظا إذ لم يكن بمقدوره التخلص من ذلك الإحساس ، وكان خجلا منه . كانت لديه صديقة أو اثنتان ، ابتدأ معهما على أمل أن تتطور العلاقة بسرعة ، لكنه عندما تعرف على فتاة لطيفة اكتشف انه غير قادر على الدفع باتجاه التطور المطلوب ، إذ أن الوجود المجرد للفتاة إلى جانبه ، جعل ذلك الأمر مستحيلاً ، فلم يكن بمقدوره أن يفكر فيها على ذلك النحو . انه لا يستطيع التفكير في عريها الحقيقي .

كانت فتاة ، وقد أحبّها ، وكان يرتعد وجلاً من فكرة أن يرفع ملابسها . كان يعرف ذلك ، يعرف أنه في آخر لحظات العري تلك ، لا يعود موجودا في نظرها ولا تعود موجودة في نظره

ومرة أخرى ، لو حصل على فتاة مبتذلة وابتدأت الأمور تتطور ، لكانت ستحرحُ مشاعره حتى انه لن يعرف أبداً إن كان سيتخلص منها بأسرع ما يمكن ، أو انه سوف ينال وطره منها بسبب الرغبة المتأججة . ومرة أخرى ، تعلّمَ درسه ، فان أخذها فإن ذلك سيكون قحطاً يجبر على احتقاره . ولم يكن يحتقر نفسه أو الفتاة ، لكنه كان يحتقر محصلة التجربة داخل نفسه ، كان يحتقرها بعمق وبمرارة .

بعد ذلك ، وعندما اصبح في الثالثة والعشرين ، توفيت أُمه ، وبقي في البيت مع إيفي . وكان موت أمه لطمة اخرى من الظلام ، لم يستطع أن يفهمها . وكان يعلم ألا فائدة من محاولة ذلك ، إذ أن على المرء أن يستسلم لهذه اللطمات التي لا مرد لها ، والتي تأتي خلسة وتترك جروحاً تبقى وتظل تؤذي في أي وقت تُنكأ فيه ، وابتدأ يخاف من كل شيء ضده ، فلقد احب أمه كثيراً .

وابتدأ بعد ذلك يتشاجر مع إيفي بعنف . كانا يعنيان كثيراً أحدهما للآخر ، لكنهما معاً كانا تحت تأثير قلق غريب استثنائي . واخذ يبقى خارج البيت قدر استطاعته ، وانتبذ لنفسه زاوية في حانة «الريد لايون» في كوسثي ، وأمسى وجهاً مألوفاً قرب الموقد هناك . فتى يافع أشقر ذو أطراف ثقيلة ، ورأس مستندٍ إلى الخلف ، صامت رغم حذره وانتباهه ، ودود جداً في تحياته مع كل من يعرفه ، وخجول من الغرباء . وكان يمازح كل النساء اللواتي كن يحببنه كثيراً ، وكان يصغي إلى حديث الرجال باحترام شديد . ولقد جعل الشراب وجهه يتورد بسرعة شديدة ، ومنحه مظهر تأنيب الضمير والقلق ، بل الحيرة تقريباً في عينيه الزرقاوين . وعندما كان يعود إلى البيت في حالة الارتباك المخمور هذه ، كانت أخته تكرهه وتسيء معاملته ، فيخرج عن طوره مثل ثور هائج .

ومع ذلك ، كانت له جولة أخرى مع علاقة حب عابرة . ففي أحد أسابيع العنصرة ، ذهب في نزهة مع رفيقين شابين آخرين على الخيول إلى ماتلوك ، ومن هناك إلى باكويل ، وكانت ماتلوك في ذلك الوقت توشك على التحول إلى بقعة جميلة شهيرة يؤمها الناس من مدن مانجستر وستافورد شاير . وفي الفندق حيث تناول الشبان طعام الغداء كانت هناك فتاتان ، ونشأت بين الجماعتين صداقة .

كانت الفتاة التي توددت إلى توم برانغوين فتاة طائشة جميلة في الرابعة والعشرين من عمرها ، أهملها ذلك الأصيل ، الرجل الذي اصطحبها في تلك الرحلة . ولقد وقع بصرها على

برانغوين ، وأعجبت به مثل ما فعلت كل النساء ؛ بسبب دفئه وطبيعته الكريمة ، وتلك الرقة الفطرية فيه ، ولكنها لاحظت انه امرؤ يجب أن يعاد إلى نقطة البداية . ومع ذلك كانت مثارة وغير مكتفية وتصنعت التعاسة ، وبذلك تجرأت على فعل أي شيء ، فهو سيكون فاصلاً سهلاً تستعيد به كبرياءها

كانت فتاة جميلة ذات نهدين بارزين وشعر فاحم وعينين زرقاوين ؛ فتاة ممتلئة بالضحكة السهلة ، توَرّدَ وجهها من الشمس ، وكانت تميل إلى مسح وجهها الضحوك بطريقة طبيعية ومؤثرة جداً .

كان برانغوين في حالة دَهَش . كان يعاملها بمجاملته المازحة مهتاجاً ، بيد انه لم يكن واثقاً أبداً من نفسه ، خائفاً حتى الموت ، من أن يكون مندفعاً جداً ، خجلاً مع ذلك ، من أن يكون متخاذلاً ، مجنوناً بالرغبة ، ومع ذلك مكبوحاً باحترامه الغرّزيّ للنساء من القيام بأية حركة محددة ، شاعراً طوال الوقت أن موقفه أحمق ، وكان يحمرُ إلى أعماقه بالحيرة ، أما هي ، فكانت تزداد صلابة وجرأة كلما ازداد حيرة ، ولقد كان يسرها أن تراه يتعلق بها . وسألته :

ـ متى عليك أن تعود ؟

فأجابها :

ـ لستُ مقيداً بوقت معين .

وهنا انقطعت المحادثة مرة أخرى وكان رفاق برانغوين مستعدين للمغادرة ، فنادوا عليه :

ـ هل أنت قادم معنا يا توم أم انك تنوي البقاء ؟

فأجابهم وهو ينهض مجبراً ، وإحساس غاضب من اللا جدوى وخيبة الأمل يتملكه

ـ نعم أنا قادم .

وواجه نظرة الفتاة الممتلئة التي تكاد تكون متوترة ، وارتجف من عدم التعود . وقال لها بمشاعره القلبية الملتهبة التي اهتزت الآن بالارتعاش :

ـ هل تأتين لتلقي نظرة على فرسي ؟

فردت قائلة وهي تنهض :

ـ أوه إني أودُ أن أفعل ذلك

ولقد تبعته بكتفيه المنحنيتين ومشدي الركوب القماشيين ، وهما يخرجان من مكانهما ، وأخرج الشبان خيولهم من الإسطبل ، وسألها برانغوين .

ـ هل تستطيعين الركوب ؟

فردت قائلة ·

ـ أود أن افعل ذلك لو أستطيع ، فأنا لم أُجرّبْ ذلك من قبل .

فقال لها :

ـ تعالي إذن وجرّبي .

ثم رفعها إلى السرج ، فتورد وجهه بينما كانت تضحك ، وهتفت :

ـ سأسقط ، انه ليس سرج سيدات .

فقال لها :

ـ تمسكي جيداً .

وقادها خارج بوابة الفندق .

جلست الفتاة في وضع غير مستقر تماما ، متمسكة بشدة ، فوضع يده على خصرها كي يسندها ، ثم امسكَ بها عن قربٍ وشبكها كما لو أنه يحتضنها . كانت رغبته قد تملّكته ، بينما كان يخطو مسرعاً إلى جانبها . وسار الحصان بجانب النهر ، وقال لها :

ـ هل تريدين أن تفردي ساقيك على ظهر الفرس ؟

فقالت ·

ـ اعرف أن افعل ذلك .

كان ذلك وقت التنورات الطويلة جدا ، ولقد نجحت في أن تفرد ساقيها على الحصان باحتشام ، مظهرة اهتماماً متعمدا لتغطية ساقيها الجميلتين . وقالت وهي تنظر إليه من عل

ـ هذه الطريقة افضل بكثير

فرد عليها وقد أحسَّ أن النخاع قد ذاب في عظامه من نظرة عينيها :

ـ أجل إنها كذلك   لا أعرفُ لماذا صنعوا للمرأة ذلك السرج الذي يقسمها إلى اثنين .

وهتف رفيقا برانغوين به من الطريق :

ـ هل نتركك إذن ، يبدو انك التصقت هناك ؟

فاحمرَّ وجهه غضبا وردَّ عليهم قائلاً :

ـ نعم ، لا تقلقوا بشأني .

فسألاه ·

ـ إلى متى تبقى هنا ؟

فرد قائلاً :

ـ ليس إلى ما بعد عيد الميلاد

وأطلقت الفتاة ضحكة رنّانة بينما هتف أصدقاؤه

ـ حسنٌ ، وداعاً .

وابتعدا على ظهري حصانيهما ، تاركينه محمراً جداً ، محاولا أن يكون طبيعياً تماماً مع الفتاة ، ولكنه بعدئذ عاد إلى الفندق ، وسلم الحصان إلى السائس ، وغادر الفندق مع الفتاة إلى الغابات دون أن يعرف تماماً ما كان يفعله أو ينوي أن يفعله . كان قلبه ينبض ، وفكر أنها اكثر مغامراته روعة وكان مجنوناً برغبته في الفتاة .

بعد ذلك توهج بالمتعة . يا لله لكن هذا شيء رائع! وبقي مع الفتاة طوال الأصيل ، وأراد أن يبقى معها طوال الليل* ، بيد أنها أخبرته أن ذلك مستحيل ، إذ أن رجلها سيعود مع هبوط الظلام ، ويجب أن تكون معه ، وأن على برانغوين إلا يدع له مجالاً كي يشك أن ثمة شيئاً بينهما .

منحته ابتسامة حميمة جعلته يشعر بالحيرة والرضا ، ولكن لم يكن بمقدوره أن يبتعد عنها على الرغم من انه وعد بألاّ يتدخل في شؤونها ، وظل في الفندق تلك الليلة ، ورأى الرجل الآخر على مائدة العشاء ؛ رجلاً ضئيل البنية ، متوسط العمر ، ذا شعر رمادي غامق ، ووجه يثير الفضول مثل وجه قرد ، بيد انه مثير ، ويكاد يكون جميلاً بطريقته الخاصة . حزرَ برانغوين انه أجنبي ، وكان بصحبة رجل آخر ، رجل إنكليزي جاف وصلب . جلس الأربعة إزاء المائدة ، رجلان وامرأتان ، وراقبهم برانغوين بملء عينيه .

لاحظ كيف يعامل الغريب المرأة بهوان مهذب ، كما لو انهما حيوانات مؤنقة واتخذت فتاة برانغوين مظهر سيدة ، بيد أن صوتها خذلها أرادت أن تكسب رجلها مرة أخرى وعندما وصلت الحلويات ، مع ذلك ، استدار الأجنبي الضئيل من المائدة ، ومسح القاعة بعينيه هادئاً ، مثل شخص يشغله شيء وذهش برانغوين من ذكاء الوجه الحيواني البارد . كانت عيناه البنيتان مدورتين ، كاشفتين عن البؤبؤ البني كله مثل عيني قرد ، وكان يكتفي بالنظر الهادئ ، يراقب الشخص الآخر دون أن يشير إليه على الإطلاق . واستقرت عيناه على برانغوين ، ودهش الأخير من الوجه العجوز وقد استدار مدوراً نحوه ، ناظراً إليه دون أن يعد أن من الضروري أن يعرفه على الإطلاق . وكان حاجبا العينين المدورتين

---

* في الطبعة الأمريكية الأولى حذفت هذه العبارة وأبدلت بالجملة التالية : «كانت تلك تجربة محتلمة ، وأراد أن يرى المزيد من الفتاة» وحذت الطبعات اللاحقة الطبعة الأمريكية (المترجم)

المراقبتين غير المهتمتين مرتفعين قليلاً ، وثمة تجعدات قليلة فوقهما مثلما عند القرد كان وجهاً قديماً لا يقدر له عمر

كان الرجل نبيلاً طوال الوقت ، رجلاً أرستقراطياً ، وحملق برانغوين إليه دهشاً ، وكانت الفتاة تنفض الفتات من الشرشف غاضبة ، ومحمرة بانزعاج . وعندما جلس برانغوين ساكناً في الصالة بعد ذلك ، متأثراً جداً ، وضائعاً لا يدري ما يفعل ، جاء الغريب الضئيل صوبه ، وابتسامة جميلة على محياه ، وبأدب عرض عليه سيجارة ، وقال له :

ـ هل تدخن ؟

لم يكن برانغوين دخن سيجارة من قبل ، ولكنه اخذ تلك التي عُرضت عليه ، متجمجماً بألم بأصابعه السميكة ، محمراً إلى جذور شعره ، ثم نظر بعد ذلك ، بعينيه الزرقاوين الدافئتين إلى عيني الأجنبي المتهكمتين تقريباً ، ذواتي الجفنين البارزين ، وجلس الأخير إلى جانبه ، وابتدأا يتحدثان عن الخيول بصورة رئيسية .

أحبّ برانغوين الرجل الآخر لمعشره اللطيف ، بسبب تحفظه وكياسته ، وبسبب ثقته بنفسه ، التي تشبه ثقة القرد بنفسه ، والتي لا يحدّها عمر أو زمان . تحدثا عن الخيول وعن دربي شاير وعن الزراعة . تحدث الغريب بدفء حقيقي إلى الشاب ، وقد أثار برانغوين ذلك ، واستخفه الطرب بسبب لقائه الشخصي مع هذا الرجل الغريب ، متوسط العمر ذي الجلد الجاف . كان الحديث ساراً ، لكن ذلك لم يكن يهم كثيراً ، بل كان المهم هو ذلك السلوك المهذب ، واللقاء الرائع .

تحدثا معا فترة طويلة ، وكان برانغوين يحمر خجلاً مثل فتاة عندما لا يفهم الآخر لهجته . بعد ذلك ، تمنى أحدهما للآخر ليلة سعيدة ، وتصافحا وانحنى الأجنبي مرة أخرى ، وكرّر تمنياته بقضاء ليلة سعيدة وقال : « ليلة سعيدة ، ورحلة طيبة » ، وردد الكلمتين الأخيرتين بالفرنسية ، ثم استدار متجهاً صوب السلالم .

صعد برانغوين إلى غرفته ، وأضطجع يحملق بنجوم ذلك الليل الصيفي ، فلقد كان كل كيانه في دوامة . ترى ما كنه الأمر ؟ أن هنالك حياة مختلفة عما يعرفه . ماذا هناك خارج معرفته وما مقداره ؟ ما هذا الشيء الذي لمسه ؟ ومن هو في هذا التأثير الجديد ؟ وماذا يعني كل شيء ؟ وأين كانت الحياة ؟ في ذلك الذي عرفه أم أنها كانت خارجه تماماً ؟

استغرق في نومه . وفي صباح اليوم التالي ، غادر قبل أن يستيقظ أيٌ من الزوار الآخرين ، فلقد أجفل من احتمال رؤية أي منهم مرة أخرى في الصباح

تحول ذهنه إلى إثارة ضخمة ، ولم يكن يعرف اسم الفتاة أو الأجنبي ، ومع ذلك ، فقد

أشعلَ النار في سويداء طبيعته ، ولسوف ينكشف عنه ستاره ، ومن بين التجربتين ربما كان لقاؤه مع الأجنبي أكثرها أهمية ، لكن الفتاة... لم يكن حزم أمره بشأن الفتاة

لم يكن يعرف . كان عليه أن يترك الأمر كما كان عليه هناك ، إذ لم يكن بمقدوره أن يجمل تجاربه .

كانت نتيجة هذين اللقاءين أنه ظل يحلم ليل نهار ، مستغرقا بامرأة مغرية ، ولقاء رجل أجنبي ضئيل ذابل من نسل قديم . وحالما تحرر ذهنه ، فأنه سرعان ما فارق رفاقه ، وابتدأ يتخيل مخالطة أناس ذوي بشرة ملساء وأخلاق رفيعة ، مثل ذلك الأجنبي في ماتلوك . ووسط هذه الحميمية الخفية ، كان هناك دائما الوجود المرضي لامرأة مغرية .

وظل مستغرقاً في منفعة حلمه وحقيقته . كانت عيناه تتوهجان ، وكان يسير وقد رفع رأسه إلى الأعلى ، ممتلئاً بالمتعة الرقيقة التي تميز اللطف والحذق الأرستقراطيين ، ممزقاً برغبته في الفتاة .

وابتدأ بعد ذلك التوهج بالخفوت ، وعادت مادة حياته الباردة المعتادة الى الظهور ، لكنه رفضها . هل يا ترى خُدع في أوهامه ؟ وحرن عند بوابة الواقع الوضيع ، واقفاً بعناد مثل ثور أمام بوابة ، رافضاً أن يدخل مرة أخرى إلى حلبة حياته المألوفة .

وراح يشرب أكثر من المعتاد كي يديم التوهج ، لكنه مع ذلك ، خفت شيئاً فشيئا . وأطبق أسنانه على المألوف الذي لا يريد أن يستسلم له ، لكن ذلك نفسه مثُلَ تماماً ، رغم كل شيء أمام عينيه

أراد أن يتزوج ، أن يستقر قليلاً . أن يخرج من الحيرة التي وجد نفسه فيها ، لكن كيف ؟ وجد نفسه عاجزاً عن تحريك أطرافه ، وكان رأى طيراً صغيراً عالقاً في الدبق ، وتحول ذلك المنظر إلى كابوس يؤرقه ، وابتدأ يشعر بالجنون غضباً من العجز أراد شيئاً يمسك به ، أن يُلَملِم شتاتّ نفسه ، فلم يكن هناك من شيء . وظل ينظر باستمرار إلى الفتيات عله يجد واحدة يستطيع الزواج منها ، بيد انه لم يرد أياً منهن ، وأدرك أن فكرة الحياة بين أناس مثل ذلك الأجنبي لهي فكرة حمقاء . ومع ذلك ، ظل يحلم به ، وانتبذ إلى أحلامه ، رافضاً واقع كوسثي واليكستون ، إذ كان يجلس بإصرار في زاويته في حانة الريد لايون ، يدخن ويفكر ويرفع قدح الجعة أحياناً دون أن يتفوه بكلمة واحدة لأن العالم كله ، كما قال ، مثل عامل زراعة فاغر الفم دهشاً . ثم تملكته بعد ذلك حمى غضب قلق أراد أن يسافر بعيدا وفي الحال ، إذ كان يحلم بأصقاع غريبة ، لكن لم يكن له تماس معها بطريقة ما . وكان جذراً قوياً جداً ذلك الذي يشده إلى حقل مارش وإلى بيته وأرضه .

ثم حدثَ أن تزوجت ايفي فبقي وحيداً في البيت مع تيلي ؛ الخادمة الحولاء التي كانت معهم منذ خمسة عشر عاما ، وأحسَّ أن الأشياء تدرك ختامها ، إذ ظلَّ طوال الوقت يقاوم بعناد تأثير واقعية المألوف الذي أراد أن يمتصه . أما الآن فالأحرى به أن يفعل شيئاً

كان متعففاً بطبيعته ، ولأنه كان حساساً وعاطفياً ، فلقد منعه الغثيان من الإفراط فى الشرب ، لكن في لحظات غضبه غير النافع وبأقصى درجات الإصرار ، وبمزاح طيب في الظاهر ، ابتدأ يشرب ليسكر ، وكان يردد مع نفسه : «اللعنة لابد أن تحصل عليها بطريقة أو أخرى ، فليس بمقدورك أن تعقل حصانك إلى ظل عضادة الباب ، فإذا كان لك ساقان فعليك أن ترفع مؤخرتك في يوم من الأيام» .

لذلك نهض وذهب إلى اليكستون ، وبتصرفٍ أخرق اتخذ له مكاناً وسط مجموعة من الشباب ، وتعود الإفراط في الشرب بصحبتهم ، واكتشف أن بمقدوره أن يفعل ذلك بيسر كانت فكرته أن أي امرئ في الغرفة يتصرف على هواه ، وان كل شيء رائع ، وكل شيء مكتمل وعندما نبهه أحدهم محذراً من أن جيب سترته كان يحترق ، لم يكن بمستطاعه أن يفعل أكثر من أن يهشَّ بوجهه الأحمر الطافح بالبشر ، ويقول : «ك... ك... كل.. ل ش... شيء على ما ي... يررام ، كل شيء على ما يرام ، دعه يحترق» ثم ضحك بمتعة معتقداً أن من الجور أن يفكر الآخرون بأنه أمرٌ غريب أن يحترق جيب سترته ـ إذ أن ذلك أسعد شيء وأكثره طبيعية في العالم ـ ماذا ؟

عاد إلى البيت يتحدث مع نفسه ، ومع القمر الذي كان شاهقاً جداً وصغيراً ، متعثراً تحت ومضات القمر ، بالحفر التي عند قدميه متسائلاً ماذا يعني الجحيم! ثم ضحك مع القمر مطمئناً إياه أنه في أحسن حال . استيقظ في الصباح ، وفكر في الأمر ، وللمرة الأولى في حياته شَعَرَ بمعنى أن تحسَّ بانزعاج فعلاً ، بتعاسة أن تكون في مزاجٍ سيئ فعلاً وبعد صراخه على تيلي وزجره لها ، خرج كي ينفرد بنفسه خجلاً جداً ، وبينما كان ينظر إلى الحقول الرمادية اللون والطرق المدحوة تساءل عما يمكن أن يفعلهُ كي يتخلصَ من هذا الإحساس الواخز بالتقزز والنفور الجسدي ، وعرف أن هذا هو نتيجة الأمسية الرائعة الفائتة .

ولم تعد معدته تتحمل المزيد من الشراب ، فخرج بتشبثٍ وإصرار عبر الحقول مع كلبه الزغاري ، وتأمل كل شيء بعين الريبة . وفي الأمسية التاليةِ ، وجد نفسه مرة أخرى في ركنه في حانة الريد لايون معتدلاً وقوراً . جلسَ هناك منتظراً بعناد ما يمكن أن يحدث له .

أكان يؤمن بأنه ينتمي إلى عالم كوسثي واليكستون أم لا ؟ فليس فيهما شيءٌ يريده ومع ذلك ، هل بمقدوره أن يخرج منهما ؟ أهناك شيء ما في داخله يمكن أن يحمله

خارجهما ، أم انه طفل مغفل ثقيل الظل ، وليس رجلاً بما فيه الكفاية مثل الشباب الآخرين الذين يشربون كثيرا ويلهون قليلاً دون أي سؤالٍ ، وهم راضون بحالهم

استمر على تلك الحال معانداً فترة من الزمن ، لكن الإجهاد أخذ منه كل مأخذ ، فثمة إحساسٌ حارٌ متراكمٌ يقظ طوال الوقت في صدره ، وأحسَّ أن رسغيه منتفخان ومترجرجان ، وأن ذهنه أصبح ممتلئاً بخيالات شبقة ، وأن عينيه تبرقان دماً ولقد تصارع مع نفسه بعنف كي يحافظ على طبيعته ، ولم يبحث عن أية امرأةٍ ، بل استمر كما لو انه في وضعه المعتاد إلى أن يُقرر إن كان سيتخذ إجراءً أم يضرب رأسه بالجدار .

ثم توجه بعد ذلك إلى اليكستون عن قصد ، صامتاً ، متعمداً مهزوماً . وشربَ كي يسكرَ ، وظل يجرع الشراب والمزيد منه حتى شحب لونه ، وأخذت عيناه تحرقانه ومع ذلك ، لم يكن بمقدوره أن يشعر بالحرية ، وذهب كي ينام مخموراً ، فاقد الوعي ، واستيقظَ في الساعة الرابعة فجراً كي يعاود الشراب ، متوهماً أنه سيتحرر . ابتدأ القلق في داخله يخفت شيئاً فشيئاً ، وأخذَ يشعر بالسعادة ، وأنفرج صمته المسمّر ، فابتدأ يتحدث ويثرثر كان سعيداً متصالحاً مع العالم بأسره ، متوحداً مع كل اللحم البشري في علاقة دم حار ، وهكذا بعد ثلاثة أيام من الشرب المستمر ، أحرق الشباب من دمه ، وحققَّ حالةً رائعةً من التوحد مع العالم ، وهي أكثر رغبات الشباب حدة ، ولكنه حققَّ رضاه بتغيير فرديته تلك التي اعتمدت على رجولته كي تصونها وتربيها .

وهكذا أصبح يشرب في فترات معينة ، إذ تمرُّ عليه تلك النوبات التي تمتد لثلاثة أو أربعة أيام يشربُ خلالها ، وعندها يصبح مخموراً طوال الوقت ، وهو يفكرُ فيها ، فلقد احترقَ في داخله اشمئزازٌ عميق ، وظل يتحاشى أية امرأة ، مناوئاً لها .

عندما بلغ الثامنة والعشرين ، كان تحول إلى رجلٍ أشقر ، صلب ، ثقيل الأطراف ، ذي بشرة ناعمة ، وعينين زرقاوين تحملقان أمامهما مباشرة كان في طريق عودته من كوستي أحد الأيام بحمولة من البذور من نوتنغم ، وكان يستعدُ حينئذ لنوبةٍ أُخرى من الشراب ، مراقباً ، بيد أنه كان مستغرقاً ، يرى كل شيء ، بيد أنه لم يكن مدركاً أي شيء ، متقوقعاً داخل نفسه . وكان الوقت بداية عام جديد .

كان يسير بثباتٍ قرب الحصان ، وكانت الحمولة تخشخش في الخلف كلما ازداد انحدار التل . وكانت الطريق تنحني أسفل التل ، أمام ناظريه ، تحت أكماتٍ وحواجزَ لا ترى إلا لبضع أذرعٍ أمامه حسب

بينما كان يستدير ببطء عند المنحنى في الجزء الأكثر انحداراً من الطريق ، وحصانه

يستند على سيور عدته بين سدتي الطريق ، رأى امرأة تقترب منه ، بيد انه كان في تلك اللحظة يفكر في الحصان .

ثم استدار بعد ذلك لينظر إليها . كانت ترتدي ثياباً سوداً ، فبدت صغيرة ناحلة تحت ثوبها الفضفاض الطويل ، وكانت ترتدي قبعة سوداء أيضاً ، وهي تسير مسرعة كما لو أنها لا ترى إذ كان رأسها متجهاً الى الأمام ، كانت حركتها المثيرة للفضول ، المستغرقة ، الخاطفة ، التي تبدو كما لو أنها كانت تمرُّ دون أن يراها أحد ، هي التي جذبته إليها . كانت سمعت صوت العربة ، ونظرت إليها . كان وجهها شاحباً وصافياً ، لها حاجبان كثّان غامقان ، وفم واسع مرسوم بطريقة مثيرة للانتباه . رأى وجهها بوضوح كما لو أن هناك ضوءاً في الجو ، رأى وجهها متميزاً لدرجة أنه توقف عن التقوقع داخل نفسه ، وتعلق بها ، وهتفَ دون إرادته : «ها هي» ، وعندما مرت العربة ، ناثرة قليلاً من الوحل ، تنَحتْ إلى الخلف ، مستندة الى حافة الطريق ، عندها ، وبينما كان ما يزال يمشي ساكنا خلف حصانه ، التقت عيناه بعينيها . أبعد عينيه بسرعة عنها ، ضاغطاً رأسه إلى الخلف ، وسرى في داخله ألم من المتعة ، ولم يكن قادراً على تحمل التفكير في أي شخص

استدار في اللحظة الأخيرة ، ورأى قبعتها وهيئتها في الثوب الفضفاض الأسود ، وحركتها وهي تمشي ، ثم اختفت في انعطافة الطريق . لقد مرت ، وأحس كما لو انه عاد يسير مرة أخرى في العالم البعيد ، وليس في كوسثي ، العالم البعيد الواقع الهش . واستمر هادئاً ، مترقباً ، مخلخلاً ، ولم يكن قادراً على التفكير أو التحدث أو إصدار أي صوت أو إشارة أو تغيير حركته الرتيبة . لم يكن قادراً على تذكر وجهها إلا قليلا وكان يتحرك ضمن معرفته بها في عالم ما وراء الواقع . تملكه إحساسه من أنهما قد تعارفا ، مثل رجل مجنون ومثل ألم مبرح ، وأنىّ له أن يتأكد من ذلك ، وأي إثباتٍ لديه ؟ وكان الشك مثل إحساس بفراغ نهائي باللاشيء ، مدمراً . وكتم في صدره الرغبة في التأكد من أنهما قد تعارفا . ظلَّ على هذه الحال طوال بضعة الأيام التي تلت ذلك ، ومرة أخرى ، كان ثمة ما هو مثل ضباب ، ابتدأ ينقشع كي يسمح للعالم العاري المألوف . كان لطيفاً جداً مع الإنسان والحيوان لكنه كان يرهب إطباق الوهم عليه ، وهو يزحف خلاله مرة أخرى .

وبينما كان يقف معطياً ظهره للنار بعد الغداء بعد بضعة أيام ، رأى المرأة تمر ، فأراد أن يعرف إن كانت تميّزه ؛ إن كانت شاعرة بوجوده . أرادها أن تقول إن ثمة شيئاً مشتركاً بينهما ، لذلك وقف متلهفاً يراقبها وينظر إليها بينما كانت تهبط الطريق ، ثم نادى نيلي وسألها :

ـ من تكون هذه ؟

ركضت تيلي ، المرأة الأربعينية الحولاء التي كانت مغرمة به ، فرحة إلى الشباك كي تنظر . كانت الفرحة تتملكها عندما يطلب منها أي شيء . اشرأبت بعنقها فوق الستائر القصيرة ، بينما كانت عقدة شعرها الأسود ناتئة بصورة تثير الشفقة ، وهي تنطنط متفرجة رفعت رأسها وحملقت بعينيها البنيتين الحولاوين وقالت .

ـ عجبا ، ألا تعرفها ؟ أنها من بيت خوري الأبرشية ـ ألا تعرف ؟

فصرخ بها :

ـ وكيف لي أن اعرف أيتها الدجاجة ؟

احمرت تيلي ، وسحبت عنقها إلى الداخل ، ونظرت إليه نظرتها الحادة الشزرة الموبخة تقريبا :

ـ ولماذا تريد أن تعرف ؟ إنها مدبرة المنزل الجديدة .

ـ نعم وماذا يعني ذلك ؟

وكررت تيلي التي كانت ساخطة :

ـ حسنٌ ، وماذا يعني ذلك ؟

ـ إنها امرأة أليس كذلك ، سواءً أكانت مدبرة منزل أم لا ، ولابد أنها تمتلك اكثر من ذلك . من هي ؟ هل لها اسم ؟

ردت تيلي بحدة كي لا يضجرها هذا الفتى الذي اصبح رجلاً .

ـ حسنٌ ، إذا كان لها اسم فأنا لا أعرفه

فسألها بلطف اكثر :

ـ ما اسمها ؟

وردت تيلي مترفعة .

ـ أنا واثقة من أني لا أستطيع أن أخبرك به .

ـ وهل هذا كل ما عرفته ، من أنها مدبرة منزل الخوري ؟

ـ لقد ذُكر اسمها أمامي ، لكنني لا أستطيع تذكره مهما حاولت .

ـ لماذا تحشين جمجمتك المنخورة بالهراء ، لماذا أُعطيت رأساً إذن ؟

فردت تيلي بحدة وهي التي كانت لا تحب شيئا أكثر من تلك المشاجرات عندما ينابزها :

ـ للغرض الذي يستعملها له الآخرون نفسه .

وتلا ذلك سكون مطبق واستمرت الخادمة محاولة أن تجس نبضه :

ـ لا أعتقد أن بمقدور أي امرئٍ أن يتذكره .

فسألها :

ـ ماذا ؟

ـ لماذا ، اسمها ؟

ـ ولم ذلك ؟

ـ إنها راهبة أجنبية أو شيء من هذا القبيل .

ـ من أخبرك بهذا ؟

ـ هذا اعرفه كله ، كما هي .

ـ ومن أيِّ البلاد جاءت في تصورك ؟

ـ لا اعرف . انهم يسمونها الراهبة البولونية عندما تحييهم . لا أعرف .

استدركت تيلي مضيفة مدركة أنه سيهاجمها .

ـ الراهبة البولونية ، لماذا تحيّين الراهبة البولونية ؟

ـ مَن الذي ابتدع هذه الخرافات .

ـ هذا ما يقولونه ، أنا لا أعرف .

ـ من يقول ؟

ـ تقول السيدة بنتلي إنها راهبة بولونية ، ويقول آخرون إنها بولونية أو شيء من هذا القبيل .

كانت تيلي خائفة من أنها ابتدأت تورّطُ نفسها أكثر الآن .

ـ من قال إنها بولونيه ؟

ـ إنهم يقولون ذلك كلهم .

ـ إذن ، ما الذي جاء بها إلى هذه الأنحاء ؟

ـ لا أدري ، معها طفلة صغيرة .

ـ معها طفلة صغيرة ؟

ـ في الثالثة أو الرابعة ، ولها رأس تشبه الكمأة .

ـ أهي سوداء ؟

ـ بيضاء ويمكن أن تُعدّ شقراء ، وكلها تشبه الكمأة .

ـ هل هناك أب إذن ؟

ـ ليس هناك حسب علمي . لا أعرف .

ـ فما الذي أحضرها إذن ؟

ـ لا يمكنني أن أحزر ذلك ، ودون أن يطلب الخوري منها ذلك

ـ هل الطفلة طفلتها ؟

ـ أعتقد ذلك ، انهم يقولون ذلك

ـ من أخبركِ عنها ؟

ـ لماذا ؟ ليزي يوم الاثنين . لقد لمحناها وهي تمرّ .

ـ لابد أنك تثرثرين إذا ما مرَّ من أمامك أي شيء .

وقف برانغوين مفكراً . وفي ذلك المساء ، ذهب إلى كوسثي ، قاصداً حانة الريد لايون ، شبه متعمدٍ أن يسمع المزيد . عرف أنها أرملة طبيب بولوني ، مات زوجها لاجئاً في لندن ، وهي تتحدث بلكنة أجنبية قليلاً ، ولكن من السهل معرفة ما تقول ، ولها طفلة صغيرة وحيدة اسمها آنا ، وكان أسم المرأة لينسكي . أحسّ برانغوين أن الواقع يؤسس نفسه في النهاية ، وشعر كذلك بثقة غريبة بشأنها ، كما لو كان مقدراً لها أن تكون له ، ولقد منحه كونها أجنبية إحساساً برضا عميق

حدث تغير حثيث له على الأرض ، كما لو أن خلقاً جديداً قد اكتمل ، وله فيه وجود حقيقي ، وكانت الأشياء قبل ذلك موحشة ووهمية وجرداء ومجرد عدم ، أما الآن فإنها حقائق يمكن أن يتعامل معها . ولقد تجرأ على أن يفكر في المرأة قليلاً كان خائفاً بيد أنه كان شاعراً بوجودها طوال الوقت ليس بعيدا عنه . ولقد عاش فيها ، لكنه لم يتجرأ على أن يعرفها ، بل حتى أن يعرف نفسه بها بمجرد التفكير بها .

في أحد الأيام التقاها وهي تسير صحبة ابنتها الصغيرة في الطريق . كانت طفلة ذات وجه بشبه برعم زهرة التفاح ، ولها شعر أشقر يشبه الوبر ، يبرز في خصلات متوهجة ، متوحشة ، مستقيمة ، ولها عينان غامقتان جداً تعلقت الفتاة بغيرة بجانب أمها عندما نظر إليها ، محملقة فيه بعينين سوداوين شزرتين ، بيد أن الأم ألقت عليه مرة أخرى نظرة فارغة تقريباً ، وكان فراغ نظرتها بالضبط هو الذي ألهب مشاعره . كانت لها عينان واسعتان بنيتان رماديتان ولهما إنسانان غامقان جداً لا غور لهما أحسّ باللهب الرائع يجري تحت جلده كما لو أن حريقاً شبَّ في عروقه على السطح ، واستمرَّ يسير دون أن يدري

كان يعرف أن قدره قادم ، وكان العالم يستسلم للتغير ، ولم تصدر منه أدنى حركة . إنه سيأتي ، ترى ما الذي سيأتي ؟

عندما جاءت أخته إيفي إلى حقل مارش مدة أسبوع ذهب معها مرة واحدة إلى الكنيسة . وفي ذلك المكان الصغير الذي يزيد عدد مصطباته على اثنتي عشرة ، جلس ليس بعيداً عن المرأة الأجنبية . كان ثمة شيء رائع فيها ، ثمة تبريح للقلب في الطريقة التي تجلس بها ، وترفع رأسها . كانت غريبة ، ومن مكان بعيد ، ومع ذلك قريبة جداً كانت من مكان قصي ووجود قريب جداً من روحه ، لم تكن هناك حقاً جالسة في كنيسة كوسثي قرب طفلتها الصغيرة ، إنها تعيش حياة أيامها الظاهرة ، بل إنها تعود إلى مكان آخر أحسّ بها بشجن ، كما لو أنها شيء حقيقي وطبيعي ، لكن وخزة من الخوف على حياته الحقيقية التي هي كوسثي حسب ، آذته ومنحته إحساساً بالتعاسة . كان حاجباها الكثّان يكادان يلتقيان فوق أنفها المتعرج ، وكان لها فم واسع مكتنز قليلاً ، بيد أن وجهها كان مرفوعاً إلى عالم حياةٍ آخر ، ليس إلى السماء أو الموت ، بل إلى مكان ما حيث ما تزال تعيش رغم غيابها الجسدي .

كانت الطفلة التي إلى جانبها تراقب كل شيء بعينيها السوداوين الواسعتين . كانت لها نظرة غريبة متحدية قليلاً ، وكان فمها الأحمر الصغير مغلقاً ، متشنجاً . كانت تبدو كأنها تحرس شيئا ما بغيرةٍ ، وأن عليها أن تكون متيقظة دوماً للدفاع عنه . والتقت عيناها بتحديقة برانغوين القريبة ، الفارغة ، الحميمة . وظهر في العينين الغامقتين المتيقظتين عداء خافق يشبه لهب الألم تقريباً .

واستمرّ رجل الدين العجوز مهمهماً ، بينما جلس سكان كوسثي دون حراك كالعادة . وكانت هناك المرأة الأجنبية ، وثمة أرض مزهرة من حولها* لا يمكن انتهاك حرمتها ، والطفلة الغريبة ، أجنبية أيضا ، تحرس بغيرة شيئاً ما . وعندما انتهت الصلاة ، سار في طريق وجود آخر خارج الكنيسة ، وبينما كان يهبط ممشى الكنيسة بصحبة أخته خلف المرأة وطفلتها ، تركت الفتاة الصغيرة فجأة يد أمها ، وانزلقت إلى الخلف بحركة سريعة غير منظورة تقريبا ، وكانت تلتقط شيئا من تحت قدمي برانغوين تقريباً . كانت أصابعها الصغيرة رقيقة وسريعة ، ولكنها لم تستطع التقاط الزر الأحمر .

قال لها برانغوين :

ـ هل عثرت على شيءٍ ما ؟

وانحنى هو الآخر لالتقاط الزر ، ولكنها حصلت عليه ، وتراجعت إلى الخلف ، ضاغطة

* أخطأت كاتبة الطابعة التي طبعت مسوده الرواية في قراءة (والرجل مشرق) فطبعت (الأرض) بدلاً من كلمة (الرجل) ، وبذلك أصبحت الجملة عديمة المعنى ، ولقد حاول لورنس إصلاحها لاحقاً دون تحسن كبير (المترجم)

إياه على سترتها الصغيرة ، وكانت عيناها السوداوان تقدحان عليه ، كما لو أنها تمنعه من أن يلحظها . وبعد أن أسكتته ، استدارت بسرعة نحو أمها ، وقالت : أمي ثم هبطت الممشى

كانت الأم وقفت تراقب بلامبالاة ، ولم تكن تنظر إلى الطفلة بل إلى برانغوين ، وأدركَ أن المرأة تنظر إليه ، تقف هناك رغم أنها معزولة عنه ، لكنها مسيطرة في وجودها الأجنبي

لم يكن يدري ماذا يفعل ، فاستدار إلى أخته ، ولكن العينين الماديتين الواسعتين الفارغتين تقريبا ، والمؤثرتين جداً مع ذلك ، أمسكتا به ما وراء نفسه ، وجاءت نبرات الطفلة الفضية المتكبرة : «يا أمي ، أستطيع الاحتفاظ به ، أليس كذلك ؟» .

كانت على ما يبدو تنادي أمها باستمرار كي تتذكرها : «يا أمي» . ولم يكن لديها ما تضيفه ، فردّت الأم الآن قائلةً : «نعم يا طفلتي» ، ولكن بفرية جاهزة . تعثرت الطفلة .

وظلت تسير قائلة : «ما اسم هؤلاء الناس ؟» وسمع برانغوين الجواب المختصر : «لا أعرف يا عزيزتي» .

استمر هابطاً الطريق كما لو أنه لم يكن داخل نفسه ، بل في مكان آخر خارجها ، وسألته أخته إيفي :

ـ من هذه ؟

ـ أجاب دون أن يدري :

ـ لا اعرف .

فردت إيفي في نوع من الإدانة تقريبا :

ـ إنها إنسانة غريبة الأطوار ، وتلك الطفلة تبدو مسحورة .

فكررَّ قائلاً :

ـ مسحورة ، كيف تكون مسحورة ؟

ـ بإمكانك أن ترى بنفسك يجب أن أقول إن الأم امرأة بسيطة ، ولكن تلك الطفلة تبدو مثل طفل دسيس ، إنها في الخامسة والثلاثين تقريبا .

بيد انه لم يهتم بما قالت ، بينما استمرت أخته قائلة :

ـ هذه هي المرأة المناسبة لك . من الأفضل أن تتزوجها

بيد أنه لم يزل غير مهتم بما كانت تقول . وبقيت الأشياء مثل ما كانت عليه .

في يوم آخر ، وقت تقديم الشاي ، وبينما كان يجلس وحيداً إزاء مائدة ، سمع طرقاً على الباب الأمامي ، وقد أجفله كأنه إنذار مشؤوم ، فلم يطرق أحد الباب الأمامي أبداً

نهض وابتدأ يسحبُ رتاجات الباب ، ويدير المفتاح الكبير . وعندما فتح الباب ، كانت المرأة الغريبة تقف على عتبته .

سألته بطريقة غريبة منفصلة من التحدث بلغة أجنبية :

ـ هل يمكن أن تعطيني رطلا من الزبدة ؟

حاول أن يُركّزَ على سؤالها ، وكانت تنظر إليه مستفهمة ، لكن ماذا تحت هذا السؤال ، في حركتها الساكنة ، ما أثر فيه ؟ تنحى جانباً ، ودخلت البيت في الحال ، كما لو أن الباب قد فتح كي يسمح لها بالدخول ، ولقد أجفله ذلك ، إذ كان المعتاد أن ينتظر الناس على عتبة الباب حتى يطلب منهم الدخول ، وتوجه إلى المطبخ فتبعته . كانت أواني الشاي متناثرة على المائدة المدلوكة كثيراً ، وثمة نار كبيرة تضطرم ، ونهض كلب من على الأرضية ، واتجه صوبها فوقفت ساكنة داخل المطبخ .

هتف بصوت عال :

ـ تيلي هل لديك زبدة ؟

وقفت الغريبة هناك ، وكأن الصمت في عباءتها السوداء ، وجاءته الصرخة الحادة من بعيد :

ـ ماذا ؟

فصرخ بسؤاله مرة أخرى ، وأجابه صوت تيلي الحاد من الملبنة :

ـ لدينا ما موجود على المائدة .

نظر برانغوين إلى المائدة وكانت هناك قطعة كبيرة مسطحة من الزبدة على طبق ، يبلغ وزنها الرطل تقريبا . كانت مدورة وقد التصقت على حافاتها قطع البلوط وأوراقه .

وهتف قائلاً :

ـ ألا تستطيعين المجيء عندما يراد منك ذلك ؟

فاحتجت تيلي ، وقد جاءت تحدق شزراً خلال الباب الآخر :

ـ ماذا تريد ؟

رأت المرأة الغريبة ، فحدقت إليها بعينيها الحولاوين بيد أنها لم تنبس ببنت شفة . سألها برانغوين مرة أخرى ، نافد الصبر ، كما لو انه يأمر أحداً بسؤاله :

ـ أليس لديك زبدة ؟

ردت تيلي نافدة الصبر لأنها لم تكن قادرة على تلبية ما يريد :

ـ لقد أخبرتك أن ما عندنا موجود على المائدة وليس لدينا قطعة إضافية .

ثم خيم الصمت بعد ذلك لحظة ، وتحدثت المرأة الغريبة بطريقتها المنفصلة المميزة على نحو غريب ، بطريقة امرئ يعتقد أن كلامه يأتي في المقام الأول .

ـ أوه ، أشكرك كثيرا وأنا متأسفة لأني جئت لإزعاجك .

لم تستطع أن تفهم قلة الأدب وكانت مرتبكة قليلاً ، فلقد كان أي قدر من الدماثة كافياً لجعل الموقف شخصياً تماماً ، ولكن كانت هناك رغبات في حالة ارتباك . احمر وجه برانغوين من حديثها الدمث ، ومع ذلك لم يدعها تذهب بل قال لتيلي وهو ينظر إلى الزبدة على المائدة :

ـ اجلبي شيئاً ما ولُفّي تلك لها .

ثم أخذ سكيناً نظيفة ، وقطع جانب الزبدة التي أكل منه اخترقتها كلمته ببطء ، ووصلت إلى المرأة الأجنبية ، أغضبت تيلي وقالت الخادمة التي لا يمكن إسكاتها :

ـ إن حصة القس من الزبدة تعطى بالتمام إلى الراهبة براون ، وسنمخض الزبد غدا صباحاً .

ـ نعم .

كانت نعماً طويلة أجنبية ؛ نعم قالت المرأة البولونية ، وأردفت : لقد ذهبت إلى السيدة براون ولم يبق لديها المزيد .

زمّت تيلي برأسها ، وكادت تنفجر فتقول أن السلوك المعتاد للناس الذين يشترون الزبد لا يشبه من يأتي لا مبالياً إلى منزل ليطرق الباب الأمامي ويطلب رطلاً منه سَدّ عوز بينما يكون أناس آخرون في حاجة إليه ؛ إذ كان المفروض أن تذهبي إلى السيدة براون . كان عليك أن تذهبي إليها ، وأن زبدي ليس البديل عندما يكون هناك منه عند السيدة براون .

فهم برانغوين حديث تيلي الأبكم تماماً ، لكن السيدة البولونية لم تفهم ، ولأنها كانت تريد زبدة للقس ، ولأن تيلي ستمخض الزبدة في الصباح فإنها انتظرت .

قال برانغوين بعد أن انكسر حاجز الصمت بصوت عال :

ـ أسرعي الآن

واختفت تيلي خلف الباب الداخلي .

قالت المرأة الغريبة ، وهي تنظر إليه مستفهمة كما لو أنها تشير إليه بما هو مسلك معتاد :

ـ كان المفروض أن لا آتي بهذه الطريقة .

وأحسَّ بارتباك ، وقال لها محاولاً أن يكون بشوشاً ، ويظهر لها أنه كان حريصاً فقط :

ـ كيف هذا ؟

وابتدأت متعمدة : هل... ؟ بيد أنها لم تكن واثقة من أرضها ، ووصلت المحادثة إلى نهايتها ، وكانت عيناها تنظران إليه طوال الوقت لأنها لم تكن تحسن اللغة

وقفا متقابلين ، وابتعد عنهما الكلب في طريقه فانحنى عليه وسألها :

ـ كيف حال كلبك الصغير .

وكان الجواب مجرد عبارة من حديث مؤدب بلغة أجنبية :

ـ نعم ، شكراً لك ، إنه في أحسن حال .

قال لها :

ـ اجلسي .

وجلست على الكرسي ، وكان ذراعاها الناحلان يخرجان من فتحتي عباءتها ويستقران على حضنها :

ـ إنكِ لستِ معتادةً على سلوك البشر في هذه الأنحاء .

قال لها ذلك ، وهو ما يزال واقفا على سجادة الموقد ، وقد أدار ظهره للنار دون أن يرتدي سترة ، ينظر إلى المرأة نظرة مباشرة غريبة . كان تملكها لنفسها قد أسره وألهمه وجعله حراً على نحو غريب ، وبدا له أن من القسوة أن يشعر بهذا القدر من السيادة على نفسه وعلى الموقف . استقرت عيناها عليه لحظة مستفهمة ، كما لو أنها كانت تفكر في معنى كلامه وقالت وقد فهمت مقصده : «لا ، لا ، انه غريب» .

قال لها :

ـ إنك تجدينه فظاً قليلاً .

توقفت عيناها عنده ، فكان عليه أن يعيدَ ما قاله مرة أُخرى . فكرر قائلاً :

ـ إن تصرفاتنا تبدو لك فظة .

ـ نعم ، نعم . أنا افهم . إنها صعبة وغريبة ، ولكني كنت في يوركشاير .

ـ آه ، حسنٌ إذن ، فالأمور هنا ليست أسوأ مما هي عليه هناك

لم تفهم قصده بالضبط . كان سلوكه الحريص وثقته بنفسه وحميميته يحيرانها ماذا يقصد بذلك ؟ إذا كان نداً لها فلماذا يتصرف دون التزام بالعرف ؟

ردت بغموض وعيناها تستقران عليه : «لا» .

رأتهُ يافعاً ساذجاً أخرقَ بعيداً تماماً من أن يكون على علاقة معها ، ومع ذلك كان

وسيماً ، شعره أشقر ، وعيناه الزرقاوان ممتلئتان بالحيوية ، وجسده معافى ، وكان ذلك يجعله نداً لها . راقبته باستمرار وكان يصعب عليها أن تفهمه ، فإذا كان دافئا أخرقَ واثقاً من نفسه مثل ما كان ، واثقاً من موطئ قدميه ، كما لو أن الإحساس بالقلق لم ينتّبه في يوم من الأيام ، فما ذلك الذي منحه إذن هذا الاستقرار الغريب ؟

لم تكن تعرف ، وسألت نفسها ، وطافت عيناها في الغرفة التي يعيش فيها . كانت لها حميمية قريبة أدهشتها وأخافتها تقريبا . كان الأثاث قديماً جداً ومألوفاً مثل العجائز ، وكان المكان بأكمله قريبا إليه ، كما لو أنه يشترك معه في كيانه ، لذلك كانت مضطربة وسألته :

ـ لابد انك عشت فترة طويلة في هذا البيت ، أليس كذلك ؟

فرد قائلاً :

ـ لقد عشت هنا دائماً .

ـ نعم ، ولكن أهلك ، عائلتك ؟

قال لها :

ـ إننا نقيم هنا منذ ما يزيد على مائتي سنة .

وكانت عيناها مسمرتين عليه طوال الوقت ، مفتوحتين على اتساعهما ، تحاولان الإمساك به ، وأحسَّ انه كان موجودا هناك لها .

ـ هل المكان لك ؛ البيت والحقل ؟

فقال لها :

ـ نعم .

نظر إليها ، والتقت عيناه بعينيها ، ولقد أربكها هذا ؛ إذ كان غريبا بالنسبة إليها ، وليس لهما علاقة معاً . ومع ذلك ، فان نظرته أربكتها كي تقر به . كان واثقاً من نفسه ومباشراً على نحو غريب .

ـ إنك تعيش وحيدا ؟

ـ نعم ، إذا كنتِ تعدّين ذلك وحدة .

لم تفهم ما قال ، إذ كان ذلك أمرا استثنائيا بالنسبة لها ، فما معنى ذلك ؟

وحيثما حدث أن التقت عيناهما بعد أن تراقبه فترة من الزمن ، كانت تشعر بحرارة تلسع وعيها . جلست ساكنة ومضطربة من هذا الرجل الذي أصبح قريبا منها جدا في الحال ؟ ما الذي يحدث لها ؟ أن ثمة شيئاً ما في عينيه الشابتين اللتين كانتا تشعان

الدفء . إنه على ما يبدو يفترض الحق عليها ، والتحدث إليها ، ويسدل عليها حمايته ولكن كيف ؟ لماذا تحدث معها ؟ لماذا عيناه واثقتان بهذا القدر ؛ ممتلئتان بالضوء والثقة ، لا تنتظران ثقة أو إشارة .

عادت تيلي بورقة نبات كبيرة* ، ووجدت الاثنين صامتين . وفي الحال أحسّ أن من الواجب عليه أن يتحدث بعد عودة الخادمة فسألها :

ـ ما عمر ابنتك الصغيرة ؟

فردت قائلة :

ـ أربع سنوات .

وسألها :

ـ لابد أن والدها لم يمت منذ فترة طويلة إذن ؟

ـ كان عمرها سنة واحدة عندما مات .

ـ ثلاث سنوات ؟

ـ نعم ، مات منذ ثلاث سنوات ، نعم .

الغريب جداً في الأمر أنها كانت منشدهة تقريباً ، وهي تجيب عن هذه الأسئلة . نظرت إليه مرة أخرى وقد تفتحت بعض العذرية في عينيها ، وأحسّ أن ليس بمقدوره أن يتحرك سواء نحوها أو بعيداً عنها . كان شيء ما في وجودها يؤذيه ، حتى انه كان يتصلب أمامها ، ورأى نظرة الفتاة المندهشة ترتفع في عينيها .

ناولتها تيلي الزبدة ، فنهضت قائلة :

ـ شكرا جزيلاً ، كم ثمنه ؟

قال لها :

ـ سنعطيه هدية للقس ، فذلك سينفعني عند الذهاب إلى الكنيسة .

قالت تيلي ملحة في مطالبها .

ـ سيكون الأمر افضل لو انك ذهبت إلى الكنيسة ، وأخذت ثمن الزبدة .

فقال لها :

ـ لابد أن تتدخلي . أيجبُ عليكِ ذلك ؟

قالت المرأة البولونية لتيلي :

---

* ربما ورقة كرنب إد كانت تستعمل أوراقه للف الربدة قبل استعمال الورق المقاوم للدهن (المترجم)

ـ ما ثمنه رجاء ؟

نهض برانغوين ، وأفسح لها المجال فقالت :

ـ إذن ، شكراً جزيلاً .

قال لها :

ـ احضري طفلتك إلى هنا في يوم من الأيام كي تنفرج على الدجاج والخيول إذا أحبت ذلك

فقالت الغريبة :

ـ نعم إنها تود ذلك

ثم ذهبت وقف برانغوين مكتئباً لمغادرتها ، ولم يستطع ملاحظة تيلي التي كانت تنظر إليه مضطربة ؛ في حاجة لكي تعاد الطمأنينة إليها . لم يكن قادراً على التفكير في أي شيء ، وأحسّ انه أقام علاقة خفية مع المرأة الغريبة .

تملك ذهنه انبهار ، واصبح له مركز وعي آخر في صدره ، أو في أحشائه . في مكان ما من جسده هناك ، إذ ابتدأ بفعالية جديدة . كان الأمر كما لو أن ضوءا قوياً كان يشتعل هناك ، وانه كان أعشى فيه ، غير قادر على معرفة أي شيء عدا هذا التحول الذي اشتعل بينه وبينها ، رابطا إياهما مثل قوة سرية .

منذ أن جاءت إلى المنزل ظل يتجول منبهراً ، يكاد لا يقوى على رؤية حتى الأشياء التي يمسكها ، طافيا هادئا في حالة تحول . لقد استسلم لذلك الذي يحدث له ، تاركا نفسه تسير حسب رغبتها ، معانيا فقدان نفسه ، مستكناً دائما على حافة النشوة مثل مخلوق يتطور إلى ولادة جديدة

جاءت مرتين صحبة ابنتها إلى الحقل ، وكانت تلك الهدأة بينهما ، إنه هدوء كثيف واستئخاذ ، كما لو أن هنالك غشاوة فوقهما فليس ثمة تغير حي يحدث ، كان غير شاعر بوجود الطفلة تقريبا ومع ذلك ، فان مزاحه الطيب الفطري قد أكسبه ثقتها ، بل حتى حنانها إذ كان يجلسها على الحصان كي تركب ، ويعطيها الذرة كي تطعم الدجاج .

وفي إحدى المرات ، نقل الأم والطفلة من اليكستون بعد أن التقطهما من الطريق ، وتمسكت الطفلة به كما لو أنها تحبه ، بينما جلست الأم ساكنة تماماً . كان هناك غموض مثل ضباب هش فوقهم جميعاً ، وصمت كما لو أن رغباتهما قد عُلّقت لم يرَ إلاّ يديها حسب ، عاريتين من القفاز ، ومطويتين في حضنها ، وشاهد خاتم الزواج على إصبعها . أن ذلك يطرده كان حلقة مغلقة ، وهو يحيط حياتها ؛ خاتم الزفاف ، أنه يقف شاهدا على

حياتها التي لا يمكنه أن يكون جزءاً منها . ومع ذلك ، وما وراء كل هذا ، فان هناك نفسه ونفسها اللتين يجب أن تلتقيا .

عندما ساعدها على النزول من العربة ، وكان يرفعها تقريباً ، أحسَّ أن له بعض الحق في أن يمسكها على هذا النحو بين يديه . ومع ذلك ، فأنها مازالت تعود إلى ذلك الآخر ، إلى ذلك الذي في الخلف ، ولكن عليه أن يهتم بها أيضاً ، أنها حيّةٌ جدا فلا تُهمل .

في بعض الأحيان ، كان غموضها الذي ضاع فيه ، يغضبه ويؤجج غيظه بيد انه كان يتماسك طوال الوقت . لم تكن ثمة استجابة ولا وجود نحوه منها ولقد حيّرهُ ذلك ، وأثار حنقه ، ولكنه استسلم فترة طويلة من الزمن . ومن ثمَّ ، ومن الانزعاج المتراكم الناتج من إهمالها له تفجر غضبه تدريجاً وكان غضبا مدمّراً ، ولقد أراد أن يذهب بعيدا ؛ أن يهرب منها .

ولقد صادف أن جاءت إلى حقل مارش بصحبة ابنتها وهو في تلك الحالة ، بيد انه أرجأ الأمر . وكان قويا ثقيلاً في ثورته ، وعلى الرغم من انه لم ينبس ببنت شفة ، غير أنها مع ذلك ، أحسّت بغضبه ونفاد صبره الثقيل وهما يمسكان بتلابيبها . ولقد صدمت كما لو أنها خرجت من تحت غشاوة . ومرة أُخرى ، اختضَّ قلبها بنبضٍ سريعٍ لاهث ، فنظرت إليه ؛ إلى الغريب الذي لم يكن رجلاً حسن السلوك ، ومع ذلك ، فهو الذي أصرَّ على دخول حياتها . ولقد ربط ألم ولادتها الجديدة في داخلها كل عروقها وفق ترتيب جديد . كانت ستبدأ من جديد ؛ أن تجد كائناً جديداً وشكلاً جديداً ، وان تستجيب لذلك الإنسان الأعمى اللحوح الذي يقف في مواجهتها .

وأحست برعشة الولادة الجديدة وغثيانها ، وقفز اللهب إليه ؛ تحت جلده لقد أرادتها هذه الحياة الجديدة منه ومعه ، ومع ذلك ، يجب أن تحمي نفسها منه لأنه كان تدميراً وبينما كان يعمل وحيدا في أرضه ويجلس مع أغنامه وقت الولادة كانت حقائق حياته اليومية ويومياتها تتهاوى ، تاركة لب غرضه نظيفا . ثم خطر له انه سوف يتزوجها ، وستصبح زوجته . وتدريجاً ودون أن يراها ، ابتدأ يعرفها . كان يود أن يفكر بها باعتبارها شيئا وضع تحت حمايته مثل طفل يتيم ، لكنها كانت ممنوعة عليه . إن عليه أن يتنازل عن تصوره المسر للقضية ، إذ أنها قد ترفضه إلى جانب انه كان خائفا منها .

بيد أنه خلال ليالي شهر شباط الطويلة ، عندما كان مع الأغنام التي كانت تلد ، وبينما كان يتأمل النجوم البراقة من مخبئه ، أدرك انه ليس ملك نفسه ، وان عليه أن يعترف بأنه مجرد شيء مفكك ؛ شيء ناقص ومحكوم .كانت النجوم تسافر في السماء المظلمة ، وكان

حشد النجوم بأكمله يمر في نوع من رحلة سرمدية ، لذلك جلس ضئيلاً ، مستسلماً للأوامر العليا

ما لم تأتِ إليه بنفسها ، فإنه يجب أن يبقى مثل لا شيء . كانت تجربة مريرة ، ولكن بعد إهمالها المتكرر له ، وبعد أن رأى مراراً انه ليس موجوداً في تصورها ، بعد أن استشاط غيظا ، وحاول الهرب ، وقال إنه جيد بما فيه الكفاية من دونها ، وإنه رجل ، وإن بإمكانه أن يقف وحيداً ، يجب عليه ، وتحت نجوم الليل المتكاثرة ، أن يخفض جناح الذل ، وأن يعترف أنه لا يساوي شيئاً من دونها . كان لا شيء ، لكن بمقدوره أن يكون شيئا حقيقياً معها . فإذا كانت تمشي الآن عبر الحشيش المتجمد ، قرب حظيرة الأغنام بين ثغاء النعاج والحملان المهموم ، فإنها ستجلب له الاكتمال والكمال وإذا كان الأمر كذلك ، أي أنها يجب أن تأتي إليه ، فلابد أن يكون الأمر كذلك ـ لقد قدر أن عليها أن تفعل ذلك .

لقد قرر منذ فترة طويلة أن يطلبها للزواج ، وكان يعرف انه إذا سألها ذلك ، فإن عليها أن تستجيب له حقا يجب أن تفعل ذلك ، إذ لا يمكن أن يكون الأمر خلاف ذلك

لقد عرف القليل عنها . كانت فقيرة وحيدة تماما ، ومرت عليها ظروف صعبة في لندن قبل وفاة زوجها وبعدها ، بيد أنها كانت في بولندا سيدة نبيلة المحتد ، ابنة ملاك أراضٍ .

لم تكن تلك الأمور اكثر من مجرد كلمات في نظره ، حقيقة منبتها المتفوق ، وحقيقة أن زوجها كان طبيبا لامعاً ، وحقيقة انه كان دونها مرتبة في كل جوانب التّميّز ، لكن ثمة حقيقة داخلية ، منطق الروح هو ما كان يربطه معها .

وفي إحدى الأمسيات ، وبينما كانت الريح تعوي في الخارج ، جاءت اللحظة التي يسألها فيها . كان يجلس وقد وضع يديه أمامه ، مستنداً قرب النار ، وبينما كان يراقب النار دون أن يفكر تقريباً انه ذاهب هذا المساء . سأل تيلي ٠

ـ هل لديكِ قميصٌ نظيف لي ؟

فردت قائلة ؛

ـ أنتَ تعرف أن لديك قمصانا نظيفة

ـ نعم ، اجلبي لي قميصاً ابيضَ .

أحضرت تيلي أحد قمصان الكتان وكان ورثه عن والده ، ووضعته قرب النار كي يتهوى لقد أحبته حباً اعجم موجعاً ، بينما كان يجلس مستنداً على ذراعه المثبت على

ركته ساكناً ومستغرقاً غير شاعر بوجودها . وأخيراً تملكتها رغبة مرتعشة في أن تصرخ ، عندما تفعل أي شيء في وجوده ، وكانت يداها ترتجفان الآن وهي تنشر القميص . انه لم يعد يصرخ ويمزح الآن ، وجعلها صمت البيت العميق ترتجف

ذهب كي يغتسل ، وكانت توقعات صغيرة غريبة في وعيه ترتفع على ما يبدو ، ثم تنفجر خارجة من أعماق السكون

قال وهو ينحني ليأخذ القميص من الحاجز : « يجب أن ينجز ذلك يجب إنجازه فلم التأخير ؟ » .

وبينما كان يمشط شعره أمام المرآة المثبتة على الجدار ردّ على نفسه بحدة ظاهرية : « أن المرأة ليست بكماء فهي ليست طفلة ترضع ، وان لها الحق في أن تسلي نفسها ، وتزعج من تريد » .

ولقد حمله خطل المنطق هذا ابعد قليلاً :

ـ هل أردت شيئا ؟

سألته تيلي التي ظهرت فجأة بعد أن سمعت حديثه . وقفت تراقبه وهو يمشط شعره الأشقر ، وكانت عيناه هادئتين وساهمتين :

فقال لها :

ـ نعم أين وضعت المقص ؟

جلبته له ، ثم وقفت تراقبه ، بينما رفع ذقنه وابتدأ يقص لحيته . قالت متلهفة :

ـ لا تقصّنّ شعرك كما لو انك في مسابقة جزّ الصوف .

نفخ الشعر المجعد قليلاً عن شفتيه .

ارتدى ملابس نظيفة ، وثنى ربطة عنقه بعناية ، وارتدى احسن معطف لديه ، ثم وبعد أن اصبح جاهزاً ، بينما كان الغسق الرمادي يهبط توجه صوب الحديقة كي يجمع زهور النرجس الصفراء ، وكانت الريح تعوي في أشجار التفاح والأزهار الصفراء تتأرجح بعنف إلى الأعلى والأسفل ، بل انه سمع همس أشواكها الرقيق ، بينما كان ينحني كي يكسر سيقان الأزهار الهشة المسطحة .

هتف به صديق التقاه ، وهو يغادر بوابة الحديقة ، فرد برانغوين :

ـ شيء يشبه المغازلة .

وسمحت تيلي للريح وهي في حالة هلع وإثارة أن تحملها فوق الحقل صوب البوابة الكبيرة ، حيث يمكنها أن تراقبه وهو يغادر . تسلق التل واستمر باتجاه بيت الخوري ،

وكانت الريح تعوي في الأكمات ، بينما حاول أن يحمي باقة النرجس بجانبه . لم يكن يفكر في أي شيء ، وكان جل ما يعرفه هو أن الريح كانت تهب .

ابتدأ الليل يخيم ، وكانت الأشجار العارية تقرع وتصفر ، وهو يعرف أن الخوري سيكون في مكتبه ، والسيدة البولندية في المطبخ وهي غرفة مريحة مع طفلتها وفي ظلام الغسق ، عَبَرَ البوابة ثم هبط الممر ، حيث كانت نباتات النرجس القليلة ، تنحني أمام الريح وزهور الزعفران وقد تحولت إلى هشيم شاحب عديم اللون كان هناك ضوء ينثال على الشجيرات المنتصبة خلف المنزل من شباك المطبخ ، وابتدأ يتردد : كيف يمكنه أن يفعل ذلك ؟ وعندما نظر من خلال الشباك ، رآها تجلس في كرسي هزاز مع ابنتها التي ارتدت ملابس النوم ، جالسة على ركبتيها وكان الرأس الأشقر بشعره المتوحش القاسي ينحني صوب دفء النار التي كانت تنعكس على الوجنتين اللامعتين ، وعلى جلد الطفلة الصافي التي كانت تتأمل على ما يبدو مثل شخص ناضج تقريبا ، وكان وجه الأم معتماً ساكناً ، ورأى بحرقة أنها قد عادت إلى حياتها التي كانت . وكان شعر الطفلة يتوهج مثل ألياف زجاجية ، ووجهها مضاء حتى كأنه شمع أضيء من الداخل . وصفرت الريح بشدة وجلست الأم وطفلتها ساكنتين صامتتين ، كانت الطفلة تحدق بعينين غامقتين فارغتين الى النار ، بينما كانت الأم تنظر إلى الفراغ . كانت الفتاة نائمة تقريبا ، وكانت إرادتها حسب هي التي تبقي عينيها مفتوحتين . وفجأة نظرت من حولها منزعجة ، بينما هزت الريح البيت ، ورأى برانغوين الشفتين الصغيرتين تتحركان . طَقْطَقَت الأم تهز كرسيها ، وسمع جَرْش الهزازات الخفيف ، ثم سمع بعد ذلك ، الدندنة الرتيبة لأغنية بلغة أجنبية ، ثم حدثت هبة ريح قوية ، وكانت الأم ، على ما يبدو ، ابتعدت في تفكيرها ، وكانت عينا الطفلة السوداوان متسعتين ، ونظر برانغوين إلى الأعلى حيث الغيوم التي ابتدأت تتراكم في حشد عظيم مهدد عبر السماء المظلمة .

وجاء صوت الطفلة العالي الشاكي الآمر ، مع ذلك :

ـ لا تغني تلك الأغنية يا أمي ، لا أريد أن اسمعها .

واختفى الغناء ، وقالت الأم :

ـ ستذهبين إلى الفراش

ورأى احتجاج الفتاة وتعلقها ، واستغراق الأم التي لم تتأثر ، والجهد الذي بذلته الطفلة ملتصقة متمسكة ، ثم ظهر فجأة التحدي الطفولي الواضح :

ـ أريد أن تحكي لي قصة .

وهبّت الريح ، وابتدأت القصة ، واستكنت الطفلة في حضن أمها ، وانتظر برانغوين في الخارج ، ينظر إلى تموّر الأشجار المتوحشة في الريح ، وتجمع الظلام . إن أمامه قدرا يجب أن يتبعه ، وها هو ذا يتلكأ على عتبته .

انكفأت الطفلة متبينة ساكنة ملتوية في حضن أمها ، وكانت عيناها غامقتين ساهمتين ، بين خصلات شعرها الحادة مثل حيوان مضطجع نائم ، لكنه ليس مغمض العينين . وجلست الأم كما لو أنها في ظل ، واستمرت الحكاية كما لو أنها تحكي لنفسها . ووقف برانغوين في الخارج ، يرى إلى هبوط الليل ، ولم يلحظ مرور الوقت . وكانت اليد التي تمسك أزهار النرجس الأصفر ثابتة باردة . وصلت القصة إلى نهايتها ، ونهضت الأم في النهاية ، والطفلة متعلقة بعنقها ، لابد أنها كانت قوية كي تحمل طفلة كبيرة بهذه السهولة ، وتعلقت آنا الصغيرة بعنق أمها ، وكان وجه الطفلة الأشقر الغريب يطل من فوق كتف الأم نائماً كله باستثناء العينين . وكانت هاتان واسعتين غامقتين تديمان المقاومة والقتال مع شيء خفي .

عندما ذهبتا ، تحرك برانغوين للمرة الأولى من المكان الذي كان يقف فيه ، ونظر من حوله إلى الليل ، وتمنى أن تكون جميلة ومألوفة حقا مثل ما تبدو في لحظات التحرر القليلة هذه . ومع الطفلة ، أحسَّ بإجهاد غريب عليه ، معاناة تشبه المصير .

عادت الأم مرة أخرى ، وابتدأت تطوي ثياب الطفلة . طرق الباب ففتحت متسائلة ، محرجة قليلاً مثل أجنبي ، قلقة ، قال لها :

ـ مساء الخير ، سأدخل لدقيقة واحدة فقط .

حدث تغير في ملامح وجهها ، إذ أنها لم تكن مستعدة . نظرت إليه بينما كان يقف في الضوء الصادر من الشباك ، ممسكاً بباقة النرجس الأصفر ، والظلام من خلفه وفي ملابسه السود لم تميزه مرة أخرى ، كانت خائفة تقريباً .

لكنه كان تخطى العتبة مسبقاً ، وهو يغلق الباب خلفه استدارت إلى المطبخ فزعة من هذا الاحتلال الليلي . خلع قبعته واتجه نحوها ، ثم وقف في الضوء في ملابسه السود وربطة عنقه السوداء ؛ القبعة في يد والأزهار الصفر في الأخرى . وقفت بعيدة تحت رحمته ، مختطفة من نفسها . لم تعرفه ، كانت تعرف فقط انه رجل جاء إليها . لم تكن تستطيع أن ترى سوى شكل رجل يرتدي ملابس سوداً ، يقف هناك في مواجهتها ، والقبضة الممسكة بالأزهار لم تكن قادرة على رؤية الوجه والعينين المفعمتين بالحياة .

كان يراقبها دون أن يعرفها ، مدركاً ما تحت وجودها حسب قال لها وهو يخطو صوب المائدة ، واضعاً قبعته والأزهار التي تناثرت في كومة مفككة . فزعت من تقدمه ، لم

تكن عندها إرادة ولا كيان . وجأرت الريح في المدخنة ، وانتظر . كان أراح يديه ، أما الآن فقد اغلق قبضتيه

كان مدركاً وقوفها هناك مجهولة فزعة ، ومع ذلك ، مرتبطة به وقال لها ، متحدثاً بطريقة واقعية وصريحة على نحو مثير :

ـ جئت كي اطلب منك أن تتزوجيني . أنت حرة ، أليس كذلك ؟

خيم صمت طويل ، بينما كانت عيناه اللتان لم يكن لهما مظهر شخصي ، على نحو غريب ، تنظران الى عينيها بحثاً عن إجابة عن الحقيقة . كان يبحث عن الحقيقة عندها ، وأنها يجب ، كما لو أنها منومة ، أن تجيب باطراد :

ـ نعم أنا حرة ويمكنني الزواج .

تغير تعبير عينيه ، واصبح اقل لا شخصيا بحثا عن الحقيقة منها . كانتا ثابتتين متعمدتين وازليتين ، كما لو انهما لن تتغيرا قط . كانت على ما يبدو تثبتانها وتذيبانها . ارتجفت وأحست بنفسها تخلق ، ترتكس مسلوبة الإرادة فيه ؛ في إرادة مشتركة معه .

قالت له :

ـ أنت تريدني ؟

وخيمت غمامة فوق وجهه ، وقال لها : نعم .

ولم يزل هناك ترقب وصمت .

قالت وهي تعني ما تقول : أنا اعرف .

أحس بالإجهاد يتفجر فيه ، وارتخت قبضتاه ، ولم يكن قادراً على الحركة . وقف ينظر إليها ، عديم الحيلة في انهياره الغامض . وفي اللحظة ، أصبحت وهمية في عينيه ، ثم رآها تأتي إليه مباشرة على نحو غريب ، كما لو أنها دون حركة ؛ في انسياب مفاجئ وقالت له : «نعم أريد ذلك» .

كانت تنظر إليه شخصياً بعينين واسعتين مخلصتين مفتوحتين لتوهما ، مفتوحتين الآن بحقيقة عليا . اصبح شاحباً جداً ، بينما كان يقف هناك ولم يتحرك ، بل أمسكت عيناه بعينيها حسب ، وأحسّ بالتبريح . كانت على ما يبدو تراه بعينيها الواسعتين المفتوحتين لتوهما ، كأنهما عينا طفل . وبحركة غريبة ، كانت بمثابة تبريح له ، قربت ببطء وجهها المظلم وصدرها نحوه بتزلف بطيء لقبلة جعلت شيئا ما ينكسر في دماعه ، وخيم عليه الظلام بضع لحظات ، واحتضنها بين ذراعيه ، وكان يقبلها ممحوقاً . كان تبريحاً محضاً مكفهراً أن ينفصل عن نفسه كانت هناك صغيرةً خفيفة جداً ومناسبة بين

ذراعيه مثل طفل ، ومع ذلك ، فانه لا يطيق تزلف العناق ، العناق اللانهائي ، ولا يستطيع أن يطيقه .

استدار باحثاً عن كرسي ، مبقيا عليها ساكنة بين ذراعيه ، وجلس وهي قريبة منه ، مضمومة إلى صدره ، ومن ثم ، ولبضع لحظات ، استغرق في النوم تماما . نائماً ومغلقاً في نوم مظلم مطبق ، نسيان نهائي .

استيقظ تدريجاً منه ، ممسكاً بدفئها أبداً ، وقرّبها منه ، وكانت صامتة مثل ما كان يلفها النسيان نفسه ؛ الظلام الخصيب .

عاد تدريجاً ، وكان مخلوقاً من جديد ، كما لو انه مولود جديد بعد حبل في رحم الظلام . كل شيء كان رقيقاً وخفيفاً وجديداً مثل صباح عذب . وفي بدايته مثل فجر ممتلئ بالجدة والبركة . وجلست ساكنة تماماً معه كما لو أنها في الوضع نفسه . ثم نظرت إليه ، وكانت العينان الواسعتان الشابتان تتقدان بالضوء ، وانحنى عليها ، وقبّلها على شفتيها ، وتوهج الفجر فيهما ، وجاءت حياتهما الجديدة ، كي تمر . وكانت ما وراء كل الخير الذي يمكن تخيله . كانت رائعة تماما إلى درجة أنها بدت مجرد عبور ؛ موت وفجأة سحبها أقرب إليه .

وسرعان ما ابتدأ الضوء يخفت داخلها تدريجاً ، وبينما كانت بين ذراعيه ، غطس رأسها فأسندته عليه ، وتمددت ساكنة ورأسها منحن متعبة قليلاً ، منعزلة لأنها كانت متعبة ، وفي تعبها كان ثمة قدر من الإنكار له ، وقالت بعد صمت طويل : «هناك الطفلة» .

ولم يفهم ما رمت إليه ، إذ مرَّ وقتٌ طويل منذ أن سمع صوتاً ، وسمع الآن الريح وهي تدوي ، كما لو أنها قد ابتدأت من جديد ، وقال لها دون أن يفهم : «نعم» ، وأحسَّ بانقباض ألم في قلبه ، وقطوب طفيفٍ في حاجبيه ، شيء ما أراد الإمساك به ، ولم يستطع .

قالت له :

ـ هل ستحبها ؟

وتملكه الانقباض السريع مثل الألم مرة أخرى ، وقال لها : «أنا احبها الآن» .

اضطجعت ساكنة ، مستندة إليه ، ممتصة دفئه الجسدي ، بلامبالاة ، وكان توكيداً عظيماً له أن يشعر بها هناك ، وهي تمتصّ الدفء منه ، معيدة إليه وزنها وثقتها الغريبة ، ولكن أين كانت إذ بدت غائبة إلى هذا الحدّ ؟ كان ذهنه مفتوحاً بالتساؤل ، ولم يتعرف عليها وقالت له :

ـ لكني أكبر منك كثيراً

وسألها .

ـ ما عمرك ؟

فقالت :

ـ أنا في الرابعة والثلاثين

فرد عليها :

ـ وأنا في الثامنة والعشرين* .

ـ ست سنوات .

كانت مهتمة بالأمر بطريقة غريبة ، كما لو أن ذلك يسرها قليلاً ، وجلس ، وأصغى واندهش ؛ كان أمرا رائعا حقا أن تهمله ، بينما تستند إليه ، ورفعها بأنفاسه ، وأحسّ بوزنها فوق وجوده حيث انه حصل على القوة والكمال اللذين لا ينتهكان ، انه يتداخل معها ، بل انه حتى لا يعرفها . كانت غريبة حتى أنها تضطجع هناك بكل وزنها ، وقد اهملته . كان صامتاً ، مستمتعاً . وأحسّ انه قوي الجسد ، وهو يحملها على أنفاسه وجعله كمالها الغريب الذي ينتهك يشعر انه واثق ومستقر ، كأنه إله مسرور ، سأل نفسه عما يمكن أن يقوله الخوري لو عرف .

قال لها :

ـ لا داعي لأن تبقي مدبرةَ منزل هنا فترة أطول .

فردت قائلة :

ـ أنا احب المكان هنا . عندما يكون المرء عاش في العديد من الأمكنة يجد أن المكان هنا لطيف جدا .

وصمت مرة أخرى عند سماعه ذلك ، واضطجعت قريبة جدا منه ، ومع ذلك أجابته من مسافة بعيدة جدا ، بيد انه لم يهتم وسألها :

ـ كيف كان بيتك عندما كنت صغيرة ؟

أجابته :

ـ كان أبي ملاك أراضٍ** ، وكان بيتنا قرب نهر .

---

* هذان هما عمر فريدا ولورنس عندما ابتدأ يكتب رواية (الشقيقتان) التي تخلى عنها لاحقاً ليكتب (قوس قزح) . (المترجم)

** أعطى لورنس (ليديا) اسم أمه الأول ، لكنه ربما اعتمد في رسم خلفية حياتها على حياة حدة (فريدا) التي كانت بولونية أيضاً ، وكانت ثمة خلافات حول إدمان أبيها لعب القمار (المترجم)

لم يوصل ذلك إليه الكثير من المعلومات ، وظل كل شيء غامضاً مثل ما كان ، بيد انه لم يهتم مادامت قريبة منه جداً ، وقال لها :

ـ أنا مالك أرض ؛ مالك أرض صغير .

قالت :

ـ نعم .

ولم يجرؤ على التحرك ، فجلس هناك وذراعاه حولها ، بينما كانت تضطجع ساكنة على أنفاسه . وطويلاً لم يتحرك ، ومن ثم وبرقة ، وحين استقرت يده على استدارة ذراعها ، على المجهول ، وبدت وكأنها تضطجع اقرب إليه لسعه لهب حاد في بطنه ،بيد أن ذلك كان مبكراً جداً . نهضت وذهبت عبر الغرفة إلى درج ، وأخرجت منه صينية قماشية صغيرة كان ثمة شيء متميز ودقيق فيها . كانت عملت ممرضة مع زوجها في وارشو ، وكذلك أيام التمرد بعد ذلك ، واستمرت ترتب الصينية ، وكانت كما لو أنها قد أهملت برانغوين ، فجلس غير قادر على تحمل التناقض فيها ، وكانت تتحرك بطريقة لا يمكن إدراك كنهها ، ومن ثم ، وبينما كان يجلس هناك وكل كيانه مندهش ومتسائل . اقتربت منه ، وهي تنظر إليه بعينين رماديتين واسعتين كانتا مبتسمتين تقريباً بضوء خفيف ، لكن فمها القبيح الجميل كان جامداً وحزيناً ، وكان هو خائفاً .

أُجهدت عيناه وأثيرتا من عدم الاستعمال ، متخاذلاً قليلاً معها ، أحسَّ بنفسه يجبن ، ومع ذلك نهض كما لو أنه يطيعها . انحنى وقبّل فمها المكتنز الحزين الواسع ، وكان ذلك قد قبُل ولم يتغير ، وكان خوفه قوياً في داخله . ومرة أخرى لم يحصل عليها .

استدارت مبتعدة عنه ، ولم يكن مطبخ الخوري مرتباً ، ومع ذلك ، كان جميلاً في تصوره ؛ في فوضاها هي وابنتها ، كان مثل ذلك البعد المدهش من حولها هناك ، ثم مسّه شيء ما جعل قلبه ينبض في صدره ، فوقف هناك ، وانتظر قليلاً .

ومرة أخرى اقتربت منه بينما وقف في ملابسه السود ؛ بعينيه الزرقاوين : براقتين ومرتبكتين جداً منها . كان وجهه حيّاً جدا ، وشعره مشعثاً . اقتربت منه إلى جسمه المتحفز ، المكسو بالملابس السود ، ووضعت يدها على ذراعه ، وظل ساكناً ، وكانت عيناها بسواد الذكرى ، تتصارعان مع الهوى ؛ بدائية ومشحونة من خلفهما ، رافضة إياه ، وممتصة إياه في الوقت نفسه ، لكنه احتفظ برباطة جأشه . كان يتنفس بصعوبة ، ونزَّ العرق من عروق شعره على جبينه .

سألته ببطء غير مطمئنة دائماً :

ـ هل تريد أن تتزوجني ؟

كان خائفاً من انه لن يستطيع الكلام ، فسحب نفسه بصعوبة وقال : «نعم»

ومن ثم ، ومرة أخرى ، وبما كان تبريحاً له ، وإحدى يديها تستقر على ذراعه ، انحنت إلى الأمام قليلاً ، وبنداء بدائي غريب للعناق ، سلّمته فمها . كان قبيحا ـ جميلاً ، ولم يستطع تحمل منظره . وضع فمه على فمها ، وببطء ، وببطء ، جاءت الاستجابة مستجمعاً القوة والهوى حتى بدا له وكأنها كانت ترعد فيه حتى لم يعد قادراً على تحمل المزيد . انسحب منها شاحبا مقطوع الأنفاس ، وفي عينيه الزرقاوين حسب ، كان ثمة شيء مركز منه ، وفي عينيها ابتسامة صغيرة بسبب خوانه الأسود .

وابتدأت تسرح من جديد منه ، وأراد أن يغادر فذلك أمر لا يطاق ، ولم يعد قادراً على تحمل المزيد . يجب عليه أن يذهب ، ومع ذلك ، كان خائر العزم ، بيد أنها ابتعدت عنه ، وبحرقة تبريح صغيرة بسبب الإنكار تقرر رحيله ، فقال لها وهو يتناول قبعته :

ـ سآتي واتحدث مع الخوري غداً .

نظرت إليه بعينين خاليتين من التعبير وممتلئتين بالظلام ، ولم يكن يستطيع رؤية جواب ، فقال لها :

ـ ذلك مناسب ، أليس كذلك ؟

أجابت مجرد صدى دون جسد أو معنى : «نعم» .

قال لها : «ليلة سعيدة» .

ـ ليلة سعيدة .

تركها هناك واقفة عديمة التعبير خاوية مثل ما كانت ، ثم ذهبت تعد الصينية للخوري ، ولأنها كانت تحتاج للمائدة ، فلقد ركنت أزهار النرجس الأصفر جانباً على صوان الصحون دون أن تلحظها . برودتها فقط ؛ تلك التي لمست يدها ، هي التي ظلت تتردد هناك فترة طويلة من الزمن .

كانا غريبين حتى أن عليهما أن يبقيا غريبين أحدهما عن الآخر على هذا النحو إلى الأبد ، وان هواه كان عذاباً ملتصقاً به مثل حميمية العناق ، ومثل غرابة الاتصال التامة هذه ، كان ذلك أمراً لا يطاق . إنه لا يطيق أن يكون قريباً منها ، ويعرف الغربة التامة بينهما ، يدرك انهما كانا غريبين الواحد عن الآخر . خرج في الريح ، وثمة ثقوب كبيرة تهب في السماء ، وكان ضوء القمر يهب من حوله . وفي بعض الأحيان كان قمر عار براق ، مثل سائل ، ينزلق عبر فراغ أجوف ، ويختبئ تحت حافات سحب مشحونة بنية مشعة ، ثم لطخة

غيوم وظل ، ومن ثم ، وفي مكان ما في الليل ، جاء شعاع مرة أخرى ، مثل بخار ، وكانت كل السماء تمور وتتمزق ، وثمة فوضى شاسعة من أشكال محلقة وظلام وأبخرة ضوء مشعثة ، وثمة هالة بنية كبيرة منغلقة ثم رعب القمر ، وهو يجري براقاً مثل سائح إلى الفضاء مؤذياً العيون لحظة كي يندفع تحت غطاء الغيوم مرة أخرى

الفصل الثاني

الحياة في حقل مارش

كانت ابنة مزارع بولوني مثقلٍ بالديون لليهود ، تزوج من ألمانية ثرية أتت قبيل التمرد ، تزوجت ، ولما تزل صغيرة إلى بول لينسكي ، وهو مثقف تعلم في برلين ، وعاد إلى وارشو متحمساً لوطنه . أما أمها فلقد تزوجت من تاجر ألماني ، ورحلت معه . تزوجت ليديا لينسكي الطبيب الشاب ، وأصبحت معه وطنية وداعية تحرر . كانا فقيرين بيد انهما كانا مزهوين بنفسيهما كثيراً ، وتعلمت هي التمريض كدليل على وطنيتها ، وكانا يمثلان في بولندا الحركة الجديدة التي ابتدأت لتوها في روسيا ، ولكنهما كانا وطنيين جداً ، وفي الوقت نفسه أوربيين جداً* .

كان لهما طفلان ، ثم حدث ، بعد ذلك ، التمرد الواسع . ولأن لينسكي كان متحمساً جداً ، وصدره يفيض بالكلام ، فلقد ظل يتجول ، وهو يحرض مواطنيه ، ونزل البولونيون الصغار إلى شوارع وارشو في طريقهم لقتل أي روسي . وهكذا عبروا إلى جنوب روسيا ، وكان منظراً مألوفاً ، أن يركب ستة متمردين صغار ، ويدخلوا قرية يهودية شاهرين سلاحهم وكلماتهم ، مؤكدين حقيقة أنهم سيقتلون كل روسي حي**

وكان لينسكي متسرعاً أيضاً ، أما ليديا فلقد كان يبردها دمها الألماني ، ولأنها كانت تنحدر من عائلة مختلفة ، فلقد كانت مشوهة ، انقادت إلى تأكيد زوجها على الأعلى ووطنيته العاصفة . كان رجلاً شجاعاً بحق ، ولكن ليس هناك من شجاعة توازي روعة خطبه وكان يعمل بجد حتى لم يبق فيه حياً سوى عينيه ، أما ليديا ، وكما لو أنها مخدرّة ، فلقد

---

* أي ينتمون إلى أوربا الغربية لا العالم السلافي وخصوصاً السلافي الروسي . (المترجم)

** الجملة تهكمية لأن الروس كانوا يضطهدون اليهود أيضاً (المترجم)

تبعته كظل تخدمه وتردد ما يقوله مثل صدى وفي بعض الأحيان يكون طفلاهما بصحبتهما ، وفي أحيان أخرى كانا يتركانهما خلفهما .

ولقد عادت في إحدى المرات لتجد أن الطفلين كليهما قد ماتا بالخناق وبكى زوجها بصوت عال غير مكترث بوجود الجميع ، ولكن الحرب استمرت ، وسرعان ما عاد إلى عمله .

خيم ظلام على ذهن ليديا ، وظلت تمشي دائما في الظل صامتة وقد امسك بتلابيبها رعبٌ ريب عميق ، وكانت رغبتها هي أن تبحث عن الرضا في الرهبنة ؛ أن تنخرط في دير كي ترضي غرائز الرهبة في داخلها من خلال خدمة دين مظلم ، ولكن ذلك لم يكن في مقدورها .

ثم جاءت بعد ذلك الرحلة إلى لندن ، إذ أن لينسكي الرجل الضئيل النحيل قد رهن كل حياته في المقاومة ، ولم يعد بإمكانه أن يسترخي ثانية ، فعاش في نوع من النزق المجنون ، فكان سريع الانفعال ، متعجرفاً إلى أقصى حد . وكان شكساً حتى أنه أصبح لا يطاق باعتباره طبيباً مساعداً في أحد المستشفيات . وكانا متسولين تقريباً ، بيد انه احتفظ بتصورات عظيمة عن نفسه ، إذ كان يبدو كأنه يعيش في هلوسة تامة حيث كان يعدُّ نفسه شخصاً فطناً عظيماً ، ولقد حرس زوجته بغيرة ضد هوان منصبها ، فكان يندفع من حولها مثل سلاح مشرع* ، وهو منظر مدهش للعين الإنكليزية ، وأبقاها تحت سلطته ، كما لو انه نوّمها ، وكانت سلبية ومظلمة وفي الظل دائماً .

وكان يضيع نفسه ، ولم يبق منه أساساً عندما ولدت الطفلة سوى جلد وعظم وفكرة راسخة . راقبته يحتضر فمرّضته ومرّضت الطفلة ، ولكنها لم تلحظ أي شيء . في الحقيقة كان هناك ظلام يخيّم عليها مثل ندم أو مثل تذكر رحلة رعب صوفية وحشية مظلمة للموت** ، أو لظل الانتقام . وعندما مات زوجها ، أحستّ بالتحرر فلم يعد يحارب من حولها .

ولقد ناسبت إنكلترا مزاجها وتباعدها وغربتها . كانت تعرف قليلاً من الإنكليزية قبل مجيئها ، ولقد ساعدتها ذاكرتها التي تشبه ذاكرة الببغاء أن تتعلمها بسهولة ، ولم تكن تعرف شيئاً عن الإنكليز أو عن حياتهم . والحقيقة أن هذه الأشياء ليست موجودة بالنسبة لها ، بل كانت أشبه بامرئ يمشي في العالم السفلي ، حيث تحتشد الظلال ظاهرة ، لكن

---

* ربما كان لورنس يفكر بالسيف الملائكي في سفر التكوين (الدي يستدير في كل اتجاه) . (المترحم)

** إما أن يكون المقصود بذلك الخيالة في رؤيا القديس يوحنا (سفر الرؤيا) أو رحلة الفالكاريات ؛ حوريات فالهالا اللواتي يخترن أولئك الذين يوشكون على الموت . (المترجم)

ليست ثمة علاقة في ما بينها . وأحست أن الإنكليز قوم باردون ذوو شوكة وضيوف ، معادون قليلاً ، عندما كانت تمشي بينهم معزولة

وكان الإنكليز أنفسهم يحترمونها . ولقد شهدت الكنيسة أنها لم تكن راغبة في ذلك ، إذ أنها كانت تمشي سالبة مثل ظل ، ممزقة بلحظات حب الطفلة وكان زوجها الميت بعينيه المعذبتين وجلده المنكمش بشدة فوق وجهه ؛ كان رؤيا بالنسبة لها ، وليس حقيقة وفي رؤيا كان قد دفن وابعد ، ثم توقفت الرؤيا ولم تنزعج ، ومرَّ الزمن رمادياً عديم اللون مثل رحلة طويلة حيث كانت تجلس غير واعية ، بينما تمر المشاهد بجانبها ، عندما تهز طفلتها في المساء . ربما كانت تنغمس في تنويمة بولونية أو تتحدث إلى نفسها بالبولونية ، وباستثناء ذلك فإنها لم تكن تفكر في بولونيا أو تلك الحياة التي كانت تنتمي إليها كانت لطخة كبيرة تلوح فارغة في ظلامها وفي الفعالية السطحية لحياتها كانت إنكليزية صرفاً ، بل أنها كانت تفكر بالإنكليزية بيد أن فراغاتها الطويلة وظلام الإنشداه كانا بولونيين

وهكذا عاشت على هذا النحو فترة من الزمن ، ومن ثم ، وبانزعاج طفيف ، اعتادت أن تكون شبه متيقظة في شوارع لندن ، وأدركت أن ثمة شيئاً من حولها غريباً جداً ، وعرفت أنها كانت في مكان غريب ، ومن ثم أرسلت بعد ذلك إلى الريف ، وهنا عاودتها مرة أخرى ، ذكرى البيت الذي عاشت فيه عندما كانت طفلة صغيرة ؛ البيت الكبير وسط الأرض وفلاحو القرية . أُرسلت إلى يوركشاير كي تمرض خورياً عجوزاً في داره التي تطل على البحر ، وكانت تلك الهزة الأولى للمشكال هي التي وضعت أمام عينيها شيئا يجب أن تراه ، ولقد شده عقلها منظر الريف الشاسع والبراري ؛ آذاها ، وآذاها ومع ذلك ، فرضت تلك الأشياء نفسها عليها كما لو أنها كانت شيئاً حيّاً ، ولقد أثار ذلك بعض قوة طفولتها في داخلها ، وكان لها علاقة من نوع ما معه .

كانت هناك ألوان خضر وفضية وزرقاء في الهواء من حولها الآن ، وثمة إصرار غريب من الضوء يتسرب من البحر ، وهو ما يجب أن تتنبه إليه وتلألأت زهور الربيع من حولها ؛ الكثير منها ، وانحنت على الحفيف الصادر من قرب قدميها ، بل إنها قطعت وردة أو اثنتين متذكرة على نحو ضعيف لون الحياة الجديد ما كانت عليه .

وطوال النهار ، بينما كانت تجلس إزاء الشباك العلوي ، والضوء ينثال من البحر دائماً وأبداً دون رفض حتى كأنه يحملها بعيداً ، وولدت ضوضاء البحر النعاس في داخلها ، استرخاء يشبه النوم ، وتخلى وعيها التلقائي قليلاً ، وكانت تتعثر أحياناً ، وشهدت رؤى آنية ممضة لطفلتها الحية ولقد آذاها ذلك أذى لا يوصف . وارتفعت روحها حد إثارة الانتباه

كان غريباً تلألؤ البحر المستمر ، وقد أُخرج من غمده في السماء ، والمقبرة دافئة جداً وعذبة ، وفي زاوية التل ممسكة بضوء الشمس ومحتفظة به ، مثل ما يمسك المرء نحلة بين راحتي يديه عندما تكون مخدرة ؛ العشب الرمادي والحزّاز والكنيسة الصغيرة وقطرات الثلج بين العشب الخشن ، وملء كوب من ضوء شمس دافئ رائع .

كانت روحها منزعجة ، وعندما كانت تسمع اندفاع الوكائد تحت الأشجار ، كانت تجفل وتتساءل عن ماهية ذلك . وعندما تجولت رأت أزهار المكحلة حولها تتوهج مثل وجود بين الأشجار . حلّ الصيف ، وازدحمت البراري بأزهار الجريسة ، مثل ماء في أخاديد الطرق واصبح الخلنج وردي اللون تحت السموات موقظاً العالم بأجمعه . وكانت مضطربة . مرت أمام شجيرات القنديل منكمشة من وجودها ، وخطت بين الخلنج ، كما لو أنها دخلت حماماً سريعاً يؤذيها ، وتحركت أصابعها على أصابع الطفلة المتشابكة ، وسمعت صوت الطفلة المتلهفة ، بينما كانت تحاول حثها على الكلام ؛ منشدهة .

وتقلصت مرة أخرى ، وعادت إلى ظلامها ، وظلت ، طويلاً ، مختفية بأمان بعيداً عن الحياة ، لكن الخريف جاء بالبريق الأحمر الواهن لطير أبو الحناء ، وكسا الشتاء البراري بلون غامق ، وبوحشية تقريباً . استدارت إلى الحياة مرة أخرى مطالبة أن تعود حياتها ثانية ، راغبة في أن تكون مثل ما كانت ، عندما كانت فتاة على الأرض ، عند البيت ، تحت السماء . وامتدّ الجليد في مساحات شاسعة ، وتوزعت أعمدة البرق فوق الأرض البيضاء بعيداً تحت تجهم السماء ، وارتفعت رغبتها الوحشية فيها من جديد ، طالبة أن تكون هذه بولونيا شبابها ، وان هذا كله ملكها مرة أخرى

ولكن لم تكن هناك زلاجات ولا أجراس ، ولم تر الفلاحين حين يخرجون مثل أناس جدد في ستراتهم المصنوعة من جلد الغنم ، ووجوههم البراقة المتوردة اليانعة التي كانت تبدو جديدة حيّة ، عندما يضيء الثلج الأرض . لم يتوارد إلى ذهنها أن حياة شبابها لم تعد إليها ، وكان ألم تبريح صغير من الصراع ، ثم انغمست في ظلام الدير حيث يصرخ الشيطان والعفاريت حول الجدران ، بينما كان المسيح أبيض على صليب النصر . راقبت من غرفة المريض دوامة الثلج ، وهي تمر مثل قطيع من الظل في عجلة من أمرها ، تطير في مهمة نهائية خارجة صوب البحر المعتم الذي يتغير ما وراء البياض النهائي للساحل المقوس ، وسواد الصخور شبه المغمورة بالمياه المتشحة بالثلوج ، ولكن قريباً منها على الأشجار ، كان الثلج هشاً نضراً ، ولم يكن سوى صوت الخوري المحتضر رمادياً متضجراً من خلفها . وفي الوقت الذي أصبحت فيه قطرات الثلج خارج نظرها ، كان مات ، كان مات ، ولكن بهدوء غريب .

راقبت المرأة العائدة قطرات الثلج على حافة العشب في الأسفل ، تنثرها الريح بيضاء ، لكنها ترفض أن تتناثر راقبتها وهي ترفرف ، وترتفع إلى الأعلى وتنخفض إلى الأسفل والأزهار البيض المغلقة مثبتة بخيط إلى العشب الرمادي المخضر ، ومع ذلك تذروها الريح ، ولا تنساب معها .

عندما نهضت في الصباح ، كان الفجر يبعث فورات من الضوء الأبيض ، وهي تهب مثل عواصف ثلجية هزيلة من الشرق ، تهب أقوى وأضرى حتى ظهر اللون الوردي والذهبي ، وأضاء البحر في الأسفل كانت ساكنة الجوارح ولا مبالية ، ومع ذلك ، كانت خارج انغلاق الظلام .

مرَّ من هناك فراغ الظل مرة أخرى ؛ عبادة الرعب المألوفة التي انتقلت خلالها ساهية إلى كوستي ، ولم يكن هناك شيء في البداية ، بل مجرد فراغ رمادي ، ولكن في أحد الصباحات بعد ذلك ، كان هناك ضوء من الياسمين الأصفر الذي شدَّ انتباهها ، وبعد ذلك في الصباح والمساء ، كان هناك التغريد المتواصل لطير الدج من الأحراش وقد ألح عليه ، أُجبر أن يرفع صونه في مباراة وجواب ، وترددت ألحان صغيرة في ذهنها . كانت ممتلئة بأسى يشبه التبريح تقريباً . مقاومة ، وكانت تعرف أنها قد هزمت ، ومن الخوف ، من الظلام ، تحولت إلى الخوف من الضوء . كانت ستخفي نفسها وراء الأبواب لو كانت تستطيع ذلك ، وفوق كل شيء تاقت إلى السلام والى النسيان التام لحالتها السابقة . لم تعد تطيق أن تصبح قادرة على التمييز ، وكانت أولى وخزات هذه الوردة الجديدة حادة جداً ، وعرفت أن ليس باستطاعتها تحملها ، وفضلت أن تبقى خارج الحياة من أن تمزق وتقطع في هذه الوردة التي لا تستطبع اجتيازها ، فلم تكن لديها القوة لأن تعيش الآن في إنكلترا ، غريبة على هذه الصورة ، والسموات معادية لها بهذا الشكل وعرفت أنها ستموت مثل زهرة مبكرة ، عديمة اللون والرائحة من تلك التي تقدمها نهاية الشتاء دون رحمة . وكانت تريد أن تصون بعضاً من ومض الحياة .

ولكن نهاراً مشرقاً حلَّ مليئاً برائحة زيتون الأرض* بينما كان النحل يحتشد بين زهور الزعفران الأصفر . لقد نسيت وأحست ، مثل أي شخص آخر ، وليس نفسها ، شخصاً جديداً سعيداً تماما ، لكنها كانت تدرك أن ذلك هش ، وكانت ترهبه . وزرع الخوري زهور البسلى** في الزعفران كي تطير عليها نحلاته ، وضحكت ، ثم جاء الليل بنجوم براقة ، وكانت تعرفه

* هذه إحدى هفوات لورنس النادره في النبات ، فزيتون الأرض ليست شجرة بل شجيرة نفضية ذات أزهار معطرة (المترجم)

** أو وجبة البسلى (أو البسلة أو البزلياء) دقيق يصنع من البسلى يوضع في أولى زهور الزعفران المتفتحة كإضافة لحبوب الطلع التي يحتاجها النحل لتغذية الصغار عندما تكون خلية النحل عرضة لنضوب طعامها قبل فترة التزهير في الربيع (المترجم)

منذ القدم ، منذ طفولتها ، وكانت تبرق ، وعرفت أنها ظافرة منتصرة . لم يكن بمقدورها أن تستيقظ أو تنام ، كما لو أنها سُحقت بين الماضي والمستقبل مثل الوردة التي تطلع على سطح الأرض كي تجد صخرة عظيمة تتمدد فوقها ، وكانت عديمة الحيلة .

ولقد استمرت الحيرة وانعدام الحيلة ، فكانت محاطة بكتل كبيرة متحركة لابد أن تسحقها ، ولم يكن مهرب آمن في نسيانها القديم ، والظلام البارد الذي كانت تجاهد للاحتفاظ به ، لكن الخوري أراها بيضات في عش طائر الدج قرب الباب الخلفي ، ورأت نفسها أنثى الدّج فوق العش ، والطريقة التي تنشر فيها جناحيها ؛ متلهفة على سرها ، ولقد أثارتها حركة أجنحة التعشيش المتلهفة إلى ما فوق قدرتها على التحمل ، ففكرت فيها في الصباح ، عندما سمعت تغريد الدج ، وهو يستيقظ وفكرت : « لماذا لم أمت هناك ؟ لماذا جلبت إلى هنا ؟ » .

كانت تشعر بالناس الذين يمرون من حولها لا كأشخاص بل كوجود عارض . كان من الصعب عليها أن تكيّف نفسها في بولونيا . كان الفلاحون ؛ الناس مواشٍ تعود إليها ، كانوا مواشيها التي تملكها وتستخدمها ، ما هؤلاء الناس ؟ أما الآن فقد بدأت تستيقظ وكانت ضائعة ، لكنها أحست أن برانغوين عندما مرَّ بها كأنما أزال الغبار عنها . أحسّت بوخز في جسدها كلما تسلقت الطريق . وبعد أن بقيت معه في مطبخ مارش ارتفع صوت جسدها قويا ملحاحاً ، وسرعان ما رغبت فيه كان هو الرجل الذي اقترب لإيقاظها ، بيد أنها كانت تنغمس بين آن وآخر في اللاوعي القديم واللامبالاة . وكانت رغبة في داخلها كي تنقذ نفسها من العيش فترة أطول ، لكنها كانت تستيقظ صباحاً في أحد الأيام لتجد دمها يركض مسرعاً ، وتشعر بنفسها وهي تضطجع مفتوحة مثل زهرة تتفتح في الشمس ملحة ومعاندة بالمطالب . أرادت أن تعرفه على نحو افضل ، وركزت غريزتها عليه ؛ عليه حسب . كان نبضها قوياً ضده ، لأنه لم يكن من نوعها ، لكن غريزة عمياء واحدة قادتها كي تأخذه وتمتلكه ، ومن ثم ترخي نفسها فيه . سيكون ذلك أماناً لها . أحست بالأمان المتجذر فيه ، والحياة فيه ، وكان شاباً وطرياً جداً ، إذ كانت تستعذب حيوية عينيه الزرقاوين الثابتتين اللتين تشبهان الصباح ، وكان فتياً .

ثم انزلقت مرة أخرى إلى السبات واللامبالاة ، ولكن ذلك مقدر له أن يمر . وانساب الدفء خلالها ، وأحست بنفسها تتفتح وتتكشف متسائلة كما تتفتح الزهرة بأكملها تحت الشمس مثل ما تنفتح مناقير الطيور الصغيرة ، وتستوي كي تستسلم وتسلم . واستدارت متكشفة صوبه ؛ نحوه مباشرة . ولقد جاء هو ببطء خائفاً محبطاً ، بخوف أخرق ، مَسوقاً برغبة أكبر من نفسه .

عندما تفتحت واستدارت نحوه ، فإن كل ذلك الذي جرى وكل الذي كان ، اختفى بالنسبة لها ، وأصبحت جديدة مثل الوردة التي تفتح نفسها وتقف دائما مستعدة ، منتظرة ، مستقبلة . ولم يكن بمستطاعه أن يفهم هذا ، فأجبر نفسه ، في غياب الفهم ، على التمسك بخط الغزل الشريف والزواج المرخص المأذون ، ولذلك بعد أن ذهب إلى الخوري وطلب يدها ، ظلت طوال بضعة أيام في تلك الحالة متفتحة مستقبلة له ، أمامه . ولقد أثير إلى حد الفوضى . تحدث إلى الخوري ، واعلمه بالزواج ثم وقف ينتظر

ظلت متنبهة ومتوقعة بالغريزة أمامه ، متكشفة ، مستعدة لاستقباله ، ولم يكن بمقدوره التصرف بسبب خوفه من نفسه وبسبب تصوره عن الشرف تجاهه ، لذلك ظل في حالة فوضى .

وبعد بضعة أيام انغلقت مرة أخرى تدريجاً ، بعيداً عنها ، دخلت في غمدها مغلقة تجاهه ، ناسية . عندها ظهر يأس اسود حقيقي لا قرار له في عينيه ، وعرف ما فقد أدرك انه فقدها إلى الأبد ، وكان يعرف ماذا يعني أن يكون على اتصال معها ، وان يُنبذ مرة أخرى . وظل يتجول فاقد الإحساس بالحياة ، تعيساً وقلبه مثل صخرة ثقيلة ، حتى أصبح يائساً تدريجاً ، وفقد فهمه ، وانغمس في ثورة لا تعرف الحدود ، وانتقل معها مغتماً إلى بيت مارش في هوى عنيف كئيب أبكم ، كارهاً إياها تقريباً ، حتى أصبحت واعية وجوده تدريجاً ، واعية وجودها بالنسبة إليه ، وتحرك دمها للحياة ، وابتدأت تتفتح نحوه ، وتنساب صوبه مرة أخرى . انتظر حتى عاد السحر بينهما مرة أُخرى ، واصبحا معا في لهب مستعجل ، مندفع واحد ، ومن ثم حار مرة أخرى . كان مقيداً ، كما لو بأسلاك . ولم يكن باستطاعته أن يتحرك نحوها ، لذلك جاءت هي إليه ، وفتحت صدر سترته وقميصه ، ووضعت يدها عليه ، محتاجة أن تعرفه ، لأنه كان أمراً قاسياً عليها أن تكون مفتوحة ومعروضة عليه . ومع ذلك لا تعرف كيف كان ، بل حتى إن كان موجوداً هناك . وسلمت نفسها للزمن بيد أنه لم يستطع ، وكان متردداً في أخذها ، لذلك عاش قلقاً كما لو أن نصف قدراته يعمل حسب حتى الزفاف لم تفهم ، ولكن الغموض تملكها مرة أخرى ، ومرت الأيام أمامها ، ولم يكن بمقدوره أن يلمسها على نحو محدد ، وفي ذلك الوقت ، تركته يذهب مرة أخرى .

عانى كثيرا جدا من فكرة الزواج الحقيقي ؛ من حميمية الزواج وعريه ، وكان لا يعرفها إلاّ قليلاً جداً ، وكانا غريبين جداً أحدهما عن الآخر . كانا غريبين تماماً ، ولم يكن بمقدورهما تبادل الحديث . عندما تحدثت عن بولونيا ، أو عما حدث ، كان كل شيء غريباً كلياً ، وكانت نادراً ما توصل أي شيء إليه وعندما كان ينظر إليها كان التهيب المفرط والخوف من المجهول يغيران طبيعة رغبته إلى نوع من العبادة ، يجعلانها بمنأى عن رغبته الجسدية . وكان ذلك

بمثابة إحباط للنفس ، ولم تكن تعرف هذا أو تفهمه . لقد نظر أحدهما إلى الآخر ، وقّبل أحدهما بالآخر . كان الأمر كذلك ، ولم يكن هناك ما يمنعه . كان أمراً مكتملاً بينهما .

في يوم الزفاف كان وجهه متصلباً وجوارحه ساكنة ، أراد أن يشرب ، وان تتخلص من تنبؤاته وتدابيره ، أن يطلق حرية تلك اللحظة ، لكنه لم يستطع ، بل اشتد الضيق على قلبه ، ولم ينفع مزاح الضيوف وخفة روحهم ، وغبطتهم ، ولمزهم ، كثيراً ، سوى أن ينعزل اكثر لم يكن يستطيع أن يسمع فلقد تملّكه ما كان ينتظره ، ولم يكن بمقدوره أن يتحرر . جلست هادئة تلوح على محياها ابتسامة غريبة ساكنة ، لم تكن خائفة فبعد أن قبلته أرادت أن تأخذه ، وكانت بأكملها ملك تلك الساعة ؛ لا مستقبل ولا ماضٍ ، بل هذا حسب . ساعتها ، مع أنها لم تلحظه كانت تجلس إلى جانبه عند رأس المائدة . كان قريباً جداً واصبح لقاؤهما معاً وشيكاً جداً ، فماذا تريد اكثر .

وعندما حان وقت مغادرة كل الضيوف ، أضاء وجهها المظلم بنعومةٍ ، وكانت انحناءة شعرها متفاخرة ، وكانت عيناها الرماديتان صافيتين متسعتين ، حتى أن الرجال لم يستطيعوا النظر إليها ، والنسوة مزهوات بها يخدمنها . كانت رائعة جداً ، وهي تودع الضيوف . وكان فمها القبيح الواسع يبتسم بكبرياء وتميّز ، وصوتها يتحدث بنعومة وغنى بلهجتها الأجنبية ، وكانت عيناها المتسعتان تهملانه ، وكل الضيوف المغادرين كان سلوكها ودوداً مدهشاً ، بيد أنها أهملت كيان من منحته يدها .

وقف برانغوين إلى جانبها يصافح كل أصدقائه بمودة ممتنا لتحياتهم ، سعيدا باهتمامهم ، وكان قلبه يتمزق في داخله ، ولم يحاول الابتسام ، إذ أن وقت محاكمته والسماح له بالدخول* واستسلامه ودخوله كالمنتصر ، واحد ، وقد آن أوانه الآن

كان هناك الكثير من المجهول خلفها . عندما تقدم منها انتابه ألم فظيع مجهول ، كيف يمكن أن يحتضنها ويصل إلى قراراتها ؟ أنىّ له أن يشبك ذراعيه حول كل هذا الظلام ويضمه إلى صدره ويسلمه نفسه ؟ ما الذي يمكن أن يحدث له ؟ إذا ما شد وأرهق إلى الأبد ، فلن يكون قادرا أبدا أن يمسك بها أبدا ، وان يسلم نفسه عاريا خارج متناول يديه إلى قوة مجهولة . كيف يمكن أن يكون الرجل قويا بما فيه الكفاية كي يأخذها ، وان يضع ذراعيه حولها ويمتلكها ، ويمكن أن يكون بمقدوره أن يهزم هذا المجهول المرعب الذي يسكن إلى جانب قلبها ؟ ما هو الشيء الذي يجب أن يسلم نفسه إليه فيها إذن ويحتضنه ويحتويه في الوقت نفسه ؟

---

* قارن مع محاكمة السيد المسيح أمام (بيلات) ، الكرب والتبريح في الحديقة والدخول إلى القدس (إنجيل مرقص) (المترجم)

كان عليه أن يكون زوجها وهذا أمر تقرر ، ولقد أرادها اكثر مما أراد الحياة ، أو أي شيء آخر . وقفت إلى جانبه في ثوبها الحرير تنظر إليه نظرة غريبة حتى أن قدرا معيناً من الخوف والرعب قد تملكه لأنها كانت غريبة ، منتظرة . ولم يكن لديه خيار آخر ، فلم يكن بمقدوره أن يواجه نظرتها من تحت حاجبيها الغريبين الكثّين . قالت له

ـ هل الوقت متأخر ؟

فنظر إلى ساعته وقال : الساعة الآن الحادية عشرة والنصف .

واختلق عذرا كي يذهب إلى المطبخ ، تاركا إياهاً ، واقفة في الغرفة بين الفوضى وأقداح الشراب . كانت تيلي جالسة جنب النار في المطبخ ، وقد وضعت رأسها بين يديها ، فوثبت عندما دخل ، فقال لها :

ـ لماذا لم تذهبي إلى النوم ؟

قالت له :

ـ ظننت أن من الأفضل أن اقفل الأبواب وأرتّب .

ولقد هدأه هيجانها ، فأعطاها أمرا صغيرا ، ثم عاد متماسكاً الآن ؛ خجلاً قليلاً ، إلى زوجته . وقفت تراقبه لحظة ، بينما كان يتحرك ، وقد أشاح بوجهه ، ثم قالت له :

ـ ستحسن معاملتي ، أليس كذلك ؟

كانت صغيرة متعبة متدلهة ، ذات نظرة غريبة واسعة في عينيها ، وقفز قلبه في صدره بسبب تبريح الحب والرغبة ، فذهب مغمض العينين نحوها ، وأخذها بين ذراعيه قال لها وهو يسحبها نحوه أقرب فأقرب : «أريد ذلك» . ولقد هدأت بضغط احتضانه لها ، وبقيت هادئة ساكنة ، مسترخية ، مستندة إليه ، ممتزجة به ، وترك نفسه يتحرر من الماضي والمستقبل وان يشغل نفسه بتلك اللحظة معها التي أخذها فيها . وكان معها فيها ، ولم يكن ثمة شيء آخر وراء ذلك . كانا معا في عناق طبيعي ما وراء غربتهما السطحية ، لكنه في الصباح تملكه الاضطراب مرة أخرى ، فلم تزل غريبة ومجهولة ، لكن كان هناك كبرياء داخل الخوف وإيمان بنفسه كندٍ لها ، أما هي فلقد نسيت كل شيء في ساعة قدومها الجديد إلى الحياة ، فكانت تشع بالحيوية والمتعة لدرجة انه كان يرتجف إذا أراد أن يلمسها .

ولقد غير الزواج الكثير من الأمور لديه إذ أصبحت الأمور نائية جداً وقليلة الأهمية عندما عرف مصدر حياته القوي ، وتفتحت عيناه على كونٍ جديد ، ودهش عندما فكر في تفاهة الحياة الماضية ، إذ ظهرت له علاقة جديدة هادئة في الأشياء التي يراها وفي المواشي التي يربيها ، وفي القمح الغض عندما نداعبه الرياح .

وفي كل مرة يعود فيها إلى البيت ، كان يذهب بثبات وتوقع ، مثل امرئ يذهب إلى رضا مجهول عميق . وفي وقت الغداء كان يظهر في المدخل ، يتأخر قليلاً قبل الدخول ، كي يرى إن كانت هناك ، فيراها تضع الصحون على المائدة البيضاء البراقة ، وذراعاها نحيفان ، وكان لها جسم نحيل ، وترتدي تنورة طويلة ، ولها رأس جميل غامق ، وشعر مجدول ، وبطريقة ما فإن رأسها الجميل الرائع ، هو الذي يجعلها تبدو امرأته ، وعندما كانت تتحرك محتشمة الملابس بتنورتها الطويلة ، مرتدية مئزرها الحريري الصغير . وشعرها الغامق مفروق بنعومة ، كان رأسها يظهرها في ناظريه بكل جمالها الغامض الحقيقي ، ويعرف أنها امرأته ، ويعرف جوهرها ، وأنها له كي يمتلكها . وكان على ما يبدو ، يعيش في تماس مع المجهول ، مع ما لا يمكن توقعه أو احتسابه . ولم يكونا يلحظ أحدهما الآخر في وعيهما ؛ كان يقول لها : أأنا مبكر ؟ فتجيبه : نعم ، عندها يستدير نحو الكلاب ، أو إلى الطفلة إذا كانت موجودة . كانت الصغيرة آنا تلعب في الحقل ، وتعود دائما في زيارات خاطفة كي تحضر شيئا لأمها ، أو تضع ذراعيها حول تنورة أمها كي تحسَّ بوجودها ، أو تلاطف ثم تُنسى ، فتتسلل خارجة مرة أخرى .

عندها يكون برانغوين ، وهو يتحدث إلى الطفلة أو إلى الكلب بين ركبتيه ، شاعراً بوجود زوجته ، وهي تمد يدها مرتدية صدارها الغامق الضيق ولفاحها المخرم إلى الخزانة الموجودة في الزاوية ، ويدرك بوخز حاد أنها تعود إليه ، وانه يعود إليها ، ويدرك انه يعيش بها . هل يمتلكها ؟ هل ستظل هنا إلى الأبد أم أنها قد تذهب بعيدا ؟ إنها لم تكن خاصته حقا ، فلم يكن زواجاً حقيقياً هذا الزواج الذي بينهما . أنها قد تذهب أيضا ، انه يشعر مثل السيد أو الزوج أو الأب لأطفالها ، إنها تنتمي إلى مكان آخر ، وفي أية لحظةٍ ، يمكن أن تذهب وها هو منجذب إليها دوماً ، منجذب وراءها برغبة متأججة دوما ؛ غير مشبعة دوماً ، أن عليه أن يعود إلى البيت دائما ، أنّى تقوده خطواته إليها دائما ، وهو لن يكتفي تماما أبدا ، ولن يكون في سلام أبدا ، لأنها يمكن أن تذهب بعيدا

أما في المساء فانه يكون سعيداً عندها ، عندما ينتهي من عمله في الساحة ، ويدخل كي يغتسل . وعندما توضع الطفلة في فراشها ، يُصبح بإمكانه أن يجلس على الجانب الآخر من النار ، ويضع قدح الجعة على الرف ، وغليونه الأبيض الطويل بين أصابعه ، واعياً وجودها قبالته هناك ، بينما تعمل في مطرزاتها أو تتحدث إليه ، عندها يكون في أمانٍ معها حينئذ حتى الصباح . كانت مكتفية بنفسها على نحو غريب ، ولم تكن تتحدث كثيراً . وفي بعض المناسبات ، كانت ترفع رأسها ، وتشرق عيناها الرماديتان بضوء غريب لا علاقة له به ، أو بهذا

المكان ، وتخبره شيئاً عن نفسها   كانت على ما يبدو ، تعود القهقرى مرة أخرى إلى الماضي ؛ إلى طفولتها ، وأيام صباها ، بصورة رئيسية مع والدها   وكانت نادراً ما تتحدث عن زوجها الأول ، بيد أنها في بعض الأحيان ، وعيناها مشرقتان تماما ، تعود إلى بيتها ، فتحكي له عن أيام الاضطرابات ، والرحلة إلى باريس مع والدها ، وتقصُّ عليه تصرفات الفلاحين المجنونة ، عندما سرت في البلاد حمى اندفاع ديني مؤذية . كانت ترفع رأسها عندئذ ، وتقول :

ـ عندما نصبوا السكة الحديد عبر البلاد ، أقاموا بعد ذلك سكة حديد أصغر منها ، ذات عرض اقل كي تصل إلى مدينتنا ـ مسافة مائة ميل . وعندما كنت صغيرة ، كانت (كيسلا) ؛ مربيتي الألمانية ، قد صُدمت بالأخبار ، بيد أنها لم تخبرني ، لكنني سمعت الخدم يتحدثون واتذكر انه كان بيير ؛ سائق العربة . ولقد استأجر أبي وبعض من أصدقائه من ملاكي الأرض مركبة ، مركبة قطار كاملة ـ تلك التي تسافر فيها ، فقال لها برانغوين مصححا : عربة قطار ، فضحكت لنفسها : أعرف ، أنها كانت فضيحة كبيرة ، نعم مركبة كاملة ، وكانت هناك فتيات* ، أنت تعرف عاريات . كانت المركبة غاصّة بهن ، وهكذا جاءوا إلى قريتنا ؛ مروا عبر قرى اليهود . كانت فضيحة كبيرة   هل يمكن أن تتخيل ذلك ؟ كل أرجاء الريف ، ولم يعجب الأمر أمي ، وقالت (كيسلا) لي : يجب ألاّ تعرف سيدتي انك سمعت مثل هذه الأشياء يا سيدتي .

ولقد اعتادت أمي على أن تبكي باستمرار ، وتتمنى لو تضرب أبي ؛ تضربه حقاً وكان يقول لها عادة عندما تبكي لأنه باع الغابة كي تصلصل النقود في جيبه ، فيذهب إلى وارشو أو باريس أو كييف ، وعندما تقول إنه يجب أن يتراجع عن كلامه وألاّ يبيع الغابة ، فأنه كان يقف ويقول لها : أنا اعرف ، ولقد سمعت كل هذا ؛ لقد سمعته كله من قبل ، أخبريني شيئاً جديداً ، أعرف ، أعرف ، أعرف   ولكن هل تستطيع أن تفهم ؟ لقد أحبّته عندما وقف هناك عند الباب ، وهو لا يقول شيئا غير أنا اعرف ، اعرف ، اعرف ، كل ذلك مسبقا . لم يكن بمقدورها أن تغيره أبدا حتى لو قتلت نفسها من أجل ذلك ، وكانت تستطيع أن تغير أي شخص آخر سواه ، لكنها لم تستطع تغييره .

لم يستطع برانغوين أن يفهم الأمر . كانت في ذهنه صور لعَجَلة مواشي مملوءة بفتيات عاريات ، ينتقلن من مكان مجهول إلى آخر مجهول أيضاً ، ولليديا وهي تضحك ، لأن والدها استدان مبلغاً كبيراً من المال ، وقال أنا اعرف ، أنا اعرف ، واليهود يركضون في الشارع ،

---

* المقصود «عاهرات» تحديداً وليس مجرد فتيات (المترجم)

ويصرخون باللغة اليديشية : لا تفعلْها ، لا تفعلْها ، يقاطعهم مزارعون معتوهون - أسمتهم مواشي - ، بينما كانت تتفرج مهتمة ، بل حتى مسرورة ، وصور لمدرسين ومربيات ولباريس ولدير . وكان ذلك كثيراً جداً عليه ، وها هي تجلس هناك تقص حكاياتها في الفضاء المفتوح ، ليس له ؛ مدعية لنفسها تفوقا غريباً عليه ، واضعة مسافة بينهما ، شيء غريب وأجنبي وخارج حياته ، يتحدث ويثرثر دون إيقاع أو سبب ، ويضحك عندما يكون مصدوماً ، أو ذهلاً . لا يستنكر شيئاً ، يبلبل أفكاره ، محولاً العالم بأكمله إلى فوضى دون ترتيب أو استقرار من أي نوع . وعندما يأويان ، بعد ذلك ، إلى فراشهما ، كان يعرف أن لا علاقة تربطه بها ، إذ أنها عادت إلى طفولتها ، وهو مزارع وفلاح ومملوك وخادم وعشيق وخليل وظل ولا شيء . كان يضطجع ساكناً مندهشاً ، يحملق في الغرفة التي يعرفها جيداً ، ويتساءل إن كانت هناك حقا ، الشباك ، خزانة الأدراج ، أو أنها مجرد وهم في الفضاء . وتدريجاً ابتدأ غضبه يتأجج عليها ، لأنه كان مندهشاً جداً ، ولأن مسافة تفصل بينهما حتى ذلك الوقت ، ولأنها كانت شيئاً مدهشاً بالنسبة إليه ، مع كل تلك العجائب التي تتفتح خلفها ، فأنه لم يرد عليها ، بل اضطجع هناك ساكناً ، فاتحاً عينيه على اتساعهما : غضباً أعجم ، غير فاهم ، لكنه متصلب بالعداء .

وظلَّ حانقا عليها ، متباعداً عنها ، لا يبدو عليه التغير في الظاهر ، ولكن من الداخل كانت هناك قوة صلبة من المناوأة لها ، وهو أمر أصبحت تدركه تدريجاً ، ولقد أزعجها أن تُجعل شاعرة به باعتباره قوة منفصلة ، وانغمست في نوع من العزلة الكئيبة ، تواصل غريب مع قوى غريبة ، حالة صوفية مظلمة قادته ، هو والطفلة ، إلى حافة الجنون . وظلَّ يتجول عدة أيام ، متصلباً بمقاومتها ، متصلباً برغبة في تدميرها ، كما كانت . وفجأة ، ومن دون أن يعرف من أين ، حدث ترابط بينهما مرة أخرى . اعتراه الأمر عندما كان يعمل في الحقول ، إذ اندفع الإجهاد والوشيجة وانفجار الهوى وطوفانهِ إلى الأمام ، في اندفاع هائل رائع بحيث أحسَّ أن بمقدوره أن يقتلع الأشجار بينما كان يمر عليها وان يجعل العالم عذباً . وعندما وصل إلى البيت ، لم تكن هناك علامة بينهما ، وانتظر وظل ينتظر حتى جاءت ، وبينما كان ينتظر ، بدت أطرافه قوية ورائعة في عينيه ، وبدت يداه مثل خادم حنون إليه ؛ رائعة ، وأحسَّ بقدرة هائلة في داخل نفسه من الحياة ، ومن دم قوي سريع .

كانت متأكدة من المجيء في النهاية ومن لمسه ، وعندها تحول إلى لهب لها ، وأضاع نفسه . تبادلا النظرات ، وثمة ضحكة عميقة في قاع محجري عينيهما ، وذهب كي يأخذها مرة أخرى ، شراء بالجملة ، مجنوناً كي يستمتع بثروتها التي لا تنضب ، كي يدفن نفسه في

أعماقها ، في استكشاف لا ينتهي ، وكانت طوال الوقت تستمتع بما يستمتع به فيها ، مزيحة كل أسرارها جانبا ، وغاطسة في ذلك الذي كان سرا بالنسبة إليها أيضا ، وكانت ترتجف من الخوف وتبريح المتعة الأخير . ماذا يهم من يكونان وما إذا كان يعرف أحدهما الآخر أم لا ؟

ومرت الساعة مرة أخرى وكان هناك انفصام بينهما ، وغضب وتعاسة وفجيعة لهما وإنزال وشقاء عند الطاحونة مع العبيد له* ، ولكن لا يهم ، لقد حصلا على ساعتهما ، وإذا حدث أن التأمت مرة أخرى ، فأنهما مستعدان لها ؛ مستعدان لتجديد اللعبة عند النقطة التي غادراها فيها ، على حافة الظلام الخارجي** ، عندما تصبح الأسرار داخل المرأة لعبة للرجل ، يتبعها بإصرار . وعندما تصبح أسرار المرأة مغامرة للرجل ، ولقد اسلما نفسيهما للمغامرة .

كانت مع الطفلة ، وكان هناك مرة أخرى الصمت والمسافة بينهما . لم تكن تريده ولا تريد أسراره أو لعبه ، لقد خُلع ونفي ، وكان يحتدُ غضباً على المرأة الضئيلة ذات الفم القبيح التي لا علاقة له بها . وفي بعض الأحيان ، كان غضبه يتفجر عليها ، لكنها لم تكن تبكي بل كانت تستدير نحوه ، مثل نمر ، ثم تنشب معركة .

كان عليه أن يتعلم أن يسيطر على نفسه مرة أخرى ، ولقد كره ذلك . ولقد كرهها لأنها لم تكن هناك له ، وانتبذ بنفسه في مكان ما . لكن غريزة امتنان ومعرفة بأنها سوف تأخذه مرة أخرى ، وأنها ستكون له في النهاية مرة أخرى ، منعته من أن يهيم بعيداً جدا ، لذلك لم يذهب بعيداً جدا ، بسبب الحذر . كان يعرف أنها قد تستغرق في إهماله وتغطس بعيدا عنه ابعد فأبعد حتى تضيع منه ، لكن كان لديه ما يكفي من الإحساس والإرهاص في داخله كي يكون مدركاً هذا ، وان يقيس نفسه وفق ذلك ، لأنه لم يكن يريد أن يفقدها ، لم يكن يريدها أن تغطس بعيداً . عَدّها باردة ، أنانية ، لا تهتم إلاّ بنفسها ، أجنبية ذات طبع سيئ ، لا تهتم بشيء أبداً ، ليس لديها مشاعر حقيقية في قرارة نفسها ، ولا لطافة اعتيادية ، ولقد اججَّ غيظا وراكم اتهامات فيها جميعا قدر من الصحة ، بيد أن نبلاً معينا في داخله ، منعه من أن يشتط بعيدا . كان يعرف ، وكان يرتجف غيظاً وكراهية ، إذ كانت تمثل كل تلك الأشياء الشنيعة ، تمثل كل شيء شنيع وممقوت ، لكن كان ثمة نبل في قرارة نفسه ، اخبره أن فوق كل شيء ، انه لا يريد أن يفقدها ، وهو لن يفقدها ، لذلك احتفظ ببعض الاعتبار لها ، وأبقى بعض الروابط معها . وابتدأ يخرج اغلب الأوقات إلى حانة (الريد لايون) مرة أخرى كي

---

* قارن مع فكرة الطاحونة والعبيد لجون ملتون ، وأن فكرة (الإنزال) لا علاقة لها على نحو مؤكد بإنزال السيد المسيح من الصليب ولكن قد تعني تخلي ملك عن عرشه أو فقدان السلطة مثل ما حدث لشمشون بعد خيانة دليلة

** عبارة إنجيلية قلب لورنس عواقبها التدميرية .

يهرب من جنون أن يجلس إلى جانبها بينما لا تعود إليه ، وعندما تكون غائبة مثل ما يمكن أن تكون أية امرأة مخاصمة ، لم يكن بمقدوره البقاء في البيت ، لذلك كان يذهب إلى حانة (الريد لايون) ، وفي بعض الأحيان ، كان يسكر ، لكنه كان يحافظ على حدوده ، فثمة أشياء بينهما لم تُفقد البتّة ، وطفت في عينيه نظرة معذبة ، كما لو أنّ شيئاً يلح عليه . ألقى عليها نظرة حادة وسريعة ، فلم يكن بمستطاعه أن يجلس ساكنا دون أن يقول شيئا . عليه أن يخرج ؛ أن يجد رفقة ؛ أن يطلق العنان لنفسه هناك . إذ ليس من مهربٍ آخر له ، فلم يكن بمقدوره أن يعمل كي يشغل نفسه ، ليس لديه المعرفة .

وبينما كانت شهور حملها تمر ، تركته إلى مزيد من الوحدة ، وازداد عدم إحساسها به . ولقد أُلغي وجوده تماماً ، وأحسّ انه مقيد إلى الأسفل ، مربوط ، غير قادر على الحركة . وابتدأ يفقد صوابه ، يوشك أن يهذي ، لأنها كانت هادئة مؤدبة جداً ، كما لو انه غير موجود بالمرة ، مثل ما يكون المرء هادئاً محبوباً مع خادمه .

ومع ذلك ، كانت رائعة مع طفله . كان عليه أن يعترف بذلك ، كانت تجلس قبالته تخيط ، ووجهها الأجنبي لامبالٍ ولا يخترق حجابه . شَعَرَ انه يريد أن يروضها كي تقرَّ به ، أن تشعر بوجوده . كان أمراً لا يطاق أن تشوهه على هذا النحو . كان يريد أن يحطمها كي تنتبه إليه . وكان غضب متأجج من الرغبة يتملكه كي يفعل ذلك ، لكنّ هناك شيئاً اكبر في داخله يمنعه ، يجعله عديم العاطفة . لذلك كان يخرج من البيت بحثاً عن الراحة ، أو أن يتجه نحو الطفلة الصغيرة بحثاً عن عطفها وحبها ، فتوجه بكل طاقته للصغيرة (آنا) ، وأصبحا مثل عاشقين ؛ أباً وطفلته .

ولأنه كان يخشى زوجته ، وهي تجلس هناك ورأسها منحنٍ ، صامتة تعمل ،أو تقرأ ، لكنها صامتة بطريقة تفوق الوصف ، حتى أن قلبه ذاب تحت رحاها ، وأصبحت مثل الطبقة العليا لرحى* تجثم عليه وتسحقه ، مثل ما تضطجع سماء ثقيلة على الأرض في بعض الأحيان ، ومع ذلك ، كان يدرك أن ليس بمستطاعه أن يقتلعها من الغموض الثقيل الذي كانت غاطسة فيه . عليه ألاّ يحاول أن يمزقها كي تقر بوجوده ، ويرضي نفسه ، فذلك فعل جامح أثيم ، لذلك دعه يغضب قدر ما يستطيع ، لكن عليه أن يمسك نفسه ، بيد أن قبضتيه ارتجفتا ، كأنه فقد صوابه ، كما لو أنه سوف ينفجر .

وفي تشرين الثاني ، عندما ابتدأت أوراق الأشجار تنقر على ستائر الشبابيك بصوت

---

* عبارة إنجيلية تحولت إلى قول مأثور

يشبه وقع السياط ، فزّ وطرفت عيناه متوهجتين ، رمقه الكلب ، وغطس برأسه نحو النار ، لكن زوجته أجفلت ، وشعر أنها كانت تصغي . قال :

ـ إنها تنفح مصدرة خشخشة .

فسألته :

ـ ما هي ؟

ـ الأوراق

وغطست مرة أخرى ، واقتربت الأوراق التي كانت تطرق في الريح على الخشب منه أكثر منها ، وكان التوتر في الغرفة لا يقاوم ، وكان من الصعب عليه أن يحرك رأسه . وجلسَ ، وكل عصبٍ وعرقٍ ونسيجِ عضلةٍ في جسده مشدود توتراً أحسَّ انه مثل قوس مكسور ، يندفع قرفاً من طول الاستناد إليه ، لأن استجابتها قد ولّت ، فاندفع على اللاشيء ، وأبقى على نفسه ، وحافظ عليها من الهبوط إلى اللاشيء ، من أن يتبعثر إلى كسارة بالتوتر المجرد ، مجرد مقاومة معاكسة .

خلال اشهر حملها الأخيرة ، ظلَّ يدور في حالة مشحونة موشكة على الانفجار ؛ لم تستنفد نفسها . وكانت هي الأخرى مكتئبة ، وتبكي في بعض الأحيان . كانت تحتاج إلى قدر كبير من الحياة كي تبدأ معافاة بعد أن وهنتْ بإفراط . كانت تبكي في بعض الأحيان ، عندها كان يقف متيبساً ، شاعراً أن قلبه سينفجر لأنها لم تكن تريده ، بل أنها لم تكن تريد أن تحس بوجوده . ومن تغضن وجهها حسب ، أدرك أن عليه أن يتراجع إلى الخلف ويتركها وشأنها وحيدة . ذلك لأن الحزن القديم عاودها ، الضياع القديم ؛ ألم الحياة القديمة ، الزوج الميت والأطفال الموتى . كان ذلك أمراً مقدساً بالنسبة إليها ، ويجب ألاّ ينتهكه براحته ، لأنها ستأتي إليه إن رغبت ، لذلك وقف منتبذاً بقلبٍ متورم . كان عليه أن يرى دموعها تنزل ؛ تتساقط فوق وجهها الذي لم يكن يتحرك إلاّ لماماً ، بل كان يتغضن في بعض الأوقات حسب ، نازلة إلى الأسفل على نهديها اللذين كانا ساكنين تماماً ونادرا ما كانا يتحركان . ولم تكن هناك أية ضوضاء إلا حين تتناول بين آن وآخر منديلها فتمسح وجهها ، وتنخر ، ثم تستمر في بكائها الصامت . كان يعرف أن أي عرض من جانبه لتهدئتها سيكون ضرره اكثر من منفعته ، مكروها عندها ، مثيراً لأعصابها . يجب أن تبكي ، لكن ذلك كان يفقده صوابه ، وكان قلبه يكتوي ، ومخه يؤلمه في رأسه ، لذلك ولّى مبتعدا خارجاً من المنزل . كان مصدر سلوته الأعظم والأهم الطفلة . كانت في البداية تتحاشاه متحفظة ، ومع ذلك ، ومهما كانت تبدو ودودة في يوم من الأيام ، فإنها كانت تستغرق في اليوم التالي في عدم اهتمامها به ، باردة ، منعزلة ، مبتعدة

في صباح يوم زواجهما الأول اكتشف أن الأمور لن تكون هينة مع الطفلة فعند انبلاج الفجر ، استيقظ مجفلاً عند سماعه صوتاً واطئاً خارج البيت ، ينادي نائحا : أمي!

نهض من فراشه ، وفتح الباب . كانت تقف على العتبة بثوب نومها ، بينما تسلقت خارجة من الفراش ، وعيناها السوداوان محملقتان ، مدورتان ، وعدوانيتان وكان شعرها الأشقر مندفعا في خصلات متوحشة . وتواجه الرجل والطفلة . قالت له بغيرة مشددة على الكلمات :

ـ أريد أمي .

فردّ عليها بلطف :

ـ ادخلي إذن .

ـ أين أمي ؟

ـ إنها هنا ، ادخلي .

لم تتغير عينا الطفلة اللتان كانتا تحملقان الى الرجل الأشعر ، وذي اللحية الشعثاء .

وناداها صوت الأم بنعومةٍ ، فدخلت القدمان الصغيرتان العاريتان الغرفة بفزع :

ـ أمي!

ـ تعالي يا عزيزتي .

واقتربت القدمان الصغيرتان العاريتان بخفة ، وجاء صوتها الشاكي : «تساءلتُ ، أينَ كنتِ» .

مدت الأم ذراعيها إليها ، فوقفت الطفلة الى جانب السرير العالي . رفع برانغوين الطفلة الضئيلة بخفة إلى ما فوق رأسه ، ثم عاد مرة أخرى إلى مكانه في السرير ، وهتفت الطفلة بحدة ، كما لو أنها كانت حزينة :

ـ أمي!

ـ ما الأمر يا صغيرتي ؟

انكمشت آنا بين ذراعي أمها ، متعلقة بها بشدة ، مختفية من حقيقة وجود الرجل . واضطجع برانغوين ساكناً ، منتظراً ، وخيّم بعد ذلك ، صمت طويل . وفجأة نظرت آنا من حولها ، كما لو أنها ظنت انه قد ذهب ، فرأت وجه الرجل مضطجعاً على ظهره ينظر إلى السقف . حملقت عيناها السوداوان معارضة من وجهها الجميل ، وتعلقت ذراعاها بشدة بأمها خائفة . وظل ساكناً فترة من الزمن دون أن يعرف ما يقول . كان وجهه ناعماً ، وجلده رقيقاً بالحب ، وعيناه ممتلئتين بضوء هش . نظر إليها دون أن يحرك رأسه إلاّ لماماً ، وكانت عيناه تبسمان . وقال لها :

ـ هل استيقظت لتوك ؟

فردت عليه بحدة ، وقد دفعت رأسها إلى الأمام قليلاً ، مثل أفعى :

ـ أُغرب!

فأجابها :

ـ لن أذهب   بإمكانكِ أنْ تذهبي أنتِ .

وجاءه الأمر الحاد الصغير :

ـ أُغرب!

قال لها :

ـ هناك غرفةٌ لكِ .

قالت لها أمها بلطف :

ـ لا يمكنك أن تطردي أباكِ من فراشهِ يا عصفورتي الصغيرة .

حملقت الصغيرة إليه تعيسة ، لأنها كانت عديمة الحيلة .

قال لها .

ـ هناك متسعٌ لكِ أيضاً ، إنه سرير كبير بما فيه الكفاية .

حملقت إليه دون أن تجيب ، ثم استدارت وتعلقت بأمها   إنها لن تسمح بذلك .

في أثناء النهار سألت أمها مراراً :

ـ متى نعود إلى بيتنا يا أمي ؟

ـ إننا في بيتنا يا عزيزتي ، نعيش هنا الآن . هذا هو منزلنا . إننا نعيش هنا مع أبيك .

كانت الطفلة مجبرة على قبول ذلك ، بيد أنها ظلت معادية للرجل .

وعندما حل الليل سألتها :

ـ أين ستنامين يا أمي ؟

ـ إني أنام مع أبيك الآن .

وعندما دخل برانغوين ، سألته الطفلة بعنف :

ـ لماذا تنام مع أمي ؟ أمي تنام معي .

كان صوتها يرتجف . فقال لها مطيبا خاطرها .

ـ بإمكانك أن تأتي وتنامي معنا

هتفت مستديرة نحوها شاكية إياه إليها :

ـ أمي!

ـ ولكن يجب أن يكون لي زوج يا عزيزتي . كل امرأة يجب أن يكون لديها زوج .

قال برانغوين :

ـ وأنت تريدين أن يكون لك أب مع أمك أليس كذلك ؟

حملقت آنا إليه ، وبدت كأنها تفكر في الأمر ، ثم هتفت بحدة ، ولفترة طويلة .

ـ لا أريد .

ثم تغضن وجهها تدريجاً ، ونشجت بمرارةٍ ، ووقف يراقبها متأسفاً ، ولكن ليس هناك من بديل ، لذلك ، وهو أمر عندما أدركته ، عادت إلى هدوئها ، كان يتسامح معها ، ويتحدث إليها ، ويصحبها كي ترى المخلوقات الحية ، ويجلب لها في قبعته أول الصيصان التي تفقس ، ويأخذها كي تجمع البيض ، ويدعها ترمي القشور للحصان كانت تصحبه بيسر ، وتأخذ كل ما يعطيه ، بيد أنها تبقى مع ذلك حيادية

كانت تغار على أمها غيرة غريبة لا يمكن فهمها ؛ متلهفة القلق بشأنها ، فإذا ما اصطحب برانغوين زوجته إلى نوتنغم ، كانت آنا تمرح سعيدة بما فيه الكفاية ، أو تكون غير مهتمة لفترة طويلة من الزمن ، ولكن عندما يحل الأصيل لن يكون هناك من شيء آخر سوى صرخة واحدة : «أُريد أُمي ، أُريد أُمي» ، ونشيج مر يثير الشجى في النفس سرعان ما يجعل (تيلي) ذات القلب الرقيق تنشج هي الأُخرى ، إنَّ ما يثير كرب الطفلة هو أن تكون أمها ذهبت واختفت .

ومع ذلك ، وفي العادة ، كانت آنا تبدو باردة ، تنتقد أمها ، وتوجه لها اللوم كانت تقول : «أنا لا أحب أن تفعلي ذلك يا أمي ، أو لا أُحب أن تقولي ذلك» . كانت مشكلة موجعة لبرانغوين ، ولكل الناس في حقل مارش ، لكنها في العادةِ أيضا ، نشطة تمرح بخفة في ساحة المزرعة ، ولا تظهر إلاّ بين آن وآخر كي تطمئن نفسها بوجود أمها . لم تكن تبدو سعيدة أبداً ، بيد أنها كانت سريعة ، مرهفة الإحساس مستغرقة ممتلئة بالخيال والتقلب . كانت (تيلي) تقول إنها مسحورة ، لكن ذلك لا يهم مادامت لا تبكي ، فثمة شيء ما يقطع نياط القلب في بكاء آنا ، إذ أن حزنها الطفولي كان يبدو مطلقاً ، ولا يحده زمان كما لو انه شيء ينتمي إلى كل العصور .

أقامت علاقات رفقة مع كائنات ساحة المزرعة ، تتحدث معها وتقص عليها الحكايات التي سمعتها من أمها ، تتشاور معها ، وتصحح لها . وجدها برانغوين ، ذات مرة ، عند البوابة المؤدية إلى حظيرة الخيول وبركة البط . كانت تحملق من خلال القضبان ، وتصرخ بالإوزات البيض المجفلة التي كانت تصطف في خط منحن :

ـ يجب ألاّ تصرخوا بالناس عندما يريدون المجيء ، يجب ألاّ تفعلوا ذلك

كانت الطيور الثقيلة المتوازنة تنظر إلى وجهها العنيف الصغير وإلى خصلات شعرها النافرة ، وهي تندفع بين القضبان ، ثم رفعت رؤوسها ، وتمايلت مبتعدة مصدرة ضجة الإوزات الراقصة المحتجة ، هازّةً أجسامها الجميلة البيض التي تشبه السفن في خطرٍ ما وراء البوابة صرخت آنا ودموع الرثاء والامتعاض تملأ عينيها :

ـ إنكم عنيدون ، إنكم عنيدون .

وخبطت الأرض بنعليها .

قال لها برانغوين :

ـ لماذا ، ماذا يفعلون ؟

قالت له ، وقد أدارت وجهها المتورد الصغير نحوه :

ـ انهم لا يدعونني أدخل .

ـ نعم سيقبلون . بإمكانك الدخول إن أردت .

ثم دفع البوابة كي يفتحها لها .

وقفت مترددة ، تنظر إلى مجموعة الإوزات البيض المزرقة ، وهي تقف ، جليلةً ، تحت السماء الرمادية الباردة

قال لها :

ـ هيا ادخلي .

تقدمت ببسالة بضع خطوات نحو الداخل ، وأجفل جسمها الصغير مختلجاً من ضجيج الإوزات المستهزئ ، وغشاها انشداه تام ، وابتعدت الإوزات ، وقد رفعت رؤوسها تحت السماء الرمادية الواطئة .

قال لها برانغوين :

ـ إنهن لا يعرفنك . يجب أن تخبريهن باسمك .

فردت بسرعة :

ـ إنهن عنيدات لأنهن يصرخن في وجهي

قال لها .

ـ لأنهن يعتقدن أنك لا تعيشين هنا

بعد ذلك وجدها عند البوابة تصيح بصوت حاد ملح :

ـ اسمي آنا ؛ آنا لينسكي ، وأنا أعيش هنا لأن السيد برانغوين هو والدي الآن ، إنه كذلك ، نعم ، أنه كذلك ، وأنا أعيش هنا .

ولقد سَرَّ برانغوين هذا كثيرا ، وتدريجا ودون أن تعرف هي نفسها ذلك ، تعلقت به في لحظات وحدتها الطفولية الضائعة ، عندما يكون من المناسب أن تزحف إلى شيء كبير دافئ ، وتدفن نفسها الصغيرة في هذا الكائن الكبير الذي لا حدود له . وبالغريزة كان يعتني بها كثيرا ، وكان جادا في أن يميزها وان يجعل نفسه تحت تصرفها

كانت صعبة العواطف ، إذ كان موقفها من تيلي نوعا من الازدراء الأساسي الطفولي ، يكاد أن يكون بغضاً ، لأن المرأة المسكينة كانت خادمة ، فلم تكن الطفلة تسمح للخادمة أن تعتني بها ، أو أن تفعل أشياء حميمة لها ، ليس قبل مضي فترة طويلة من الزمن كانت تعاملها وكأنها تنتمي إلى جنس وضيع ، ولم يعجب برانغوين ذلك .

سألها :

ـ لماذا لست مغرمة بتيلي ؟

ـ لأنها ـ لأنها ـ لأنها تنظر إلي بعينين حولاوين .

ثم قبلت بعد ذلك أن تعود تيلي لتصبح جزءاً من أثاث البيت ، ولكن ليس كشخص فيه أبدا . وطوال الأسابيع الأولى ، كانت عينا الطفلة السوداوان ، تراقبان على الدوام ، وكان برانغوين الذي كان لطيف المزاج ، بيد أنه نافد الصبر بسبب تدليل تيلي له ، سريع الإثارة . فإذا أزعج البيت لبضع دقائق بنفاد صبره الصاخب ، فإنه كان يجد في النهاية ، الطفلة ، وهي تحملق إليه بعينين سوداوين كثيفتين . وكانت تدفع واثقة رأسها الصغير إلى الأمام مثل أفعى في أثناء لدغتها :

ـ أغرب .

وكان يصرخ منزعجاً في النهاية :

ـ أنا لن اغرب ، اخرجي أنتِ ، أسرعي ، تحركي أنت ، أغربي .

وكان يشير إلى الباب ، فتتراجع الطفلة إلى الخلف بعيدا عنه ، شاحبة رعباً ، ثم تستجمع بعد ذلك شجاعتها ، بعد أن تراه وقد اصبح متنداً وكانت تقول له وهي تدفع رأسها الصغير نحوه :

ـ لماذا نعيش معك ؟ إنك ، إنك ، إنك كريه* .

فيصرخ فيها :

ـ أنا ماذا ؟

---

* الكلمة الإنكليزية المستعملة قد تكون مجرد كلام أطفال لأننا لم نعثر عليها حتى في معجم (أوكسمورد) الكبير ولكن محقق طبعة (كمبرج) من الرواية اقترح هذا المعنى (المترجم)

فيرنجف صوتها لكنه يخرج :

ـ كريه

ـ نعم ، وأنتِ مضحكة .

وكانت تتأمل الأمر ثم تحرك رأسها نحو الأمام :

ـ أنا لست كذلك .

ـ لست ماذا ؟

ـ مضحكة .

ـ وأنا لست كريهاً .

ويكون غاضباً حقاً

وفي بعض الأحيان كانت تقول :

ـ إن أمي لا تعيش هنا .

ـ أوه ، حقاً ؟

ـ أريدها أن تغادر .

وكان يرد متهكماً ·

ـ إذن فأنت تريدين حصتكِ؟

وهكذا تقاربا . كان يصحبها عندما يخرج لنصب الفخاخ ، ويكون عندها الحصان مسرجا عند البوابة ، ويدخل هو مصدراً ضوضاء صاخبة في البيت الذي يبدو هادئاً ومسالماً حتى يظهر فيوقظ كل شيء .

ـ والآن ارتدي قبعتكِ أيتها السوداء الصغيرة .

تستجمع الطفلة نفسها ، رافضة عدم وقار الملبس ، وتقول متعجرفة :

ـ لا أستطيع أن أشدّ قبعتي بنفسي .

فيقول لها محاولاً شدّ الأشرطة تحت حنكها بأصابعه الخرقاء ·

ـ لم تصبحي رجلاً بعد .

فكانت تقرّبُ وجهها منه ، وتتحرك شفتاها الصغيرتان البراقتان الحمراوان بينما يعبث تحت حنكها وكانت تقول له مرددة إحدى عباراته :

ـ ما تقوله هراء .

وكان يقول لها :

ـ هذا الوجه ينادي طلباً للماء .

ثم يُخرج منديله الأحمر الكبير الذي تفوح منه رائحة التبغ النفاذة ، ويبدأ مسح المنطقة الواقعة حول فمها ، وكانت تسأله :

ـ هل كيتي في انتظاري ؟

فيقول لها :

ـ نعم ، ولكن دعينا ننتهي من مسح وجهكِ ، سينتهي الأمر بلعقة قطة .

وكانت تستسلم له بطريقة رائعة . وفي النهاية ، وعندما يدعها تذهب ، تبدأ تثب بقفزات مثيرة ، وإحدى ساقيها إلى الخلف ، فكان يقول لها :

ـ والآن ها هي أرنبتي الوثابة ، ويضيف : أسرعي .

جاءت وابتدأت ترتجف وقد دخلت في معطفه ، وأبتدأ الاثنان رحلتهما . جلست قريبة جداً منه في العربة ، ملتفعة تماماً ، شاعرة بجسده الكبير يتأرجحُ صوبها . كان إحساساً رائعاً ، وأحبت اهتزاز العربة عندما يتأرجح جسمه الكبير الحي باتجاهها ، ويستند عليه ، وضحكت ضحكة عالية حادة ، وتوهجت عيناها السوداوان .

كانت صلبة على نحو غريب ، غير أنها كانت تبدو أحياناً رقيقة القلب حنوناً . كانت أمها مريضة ، فأنسلت الطفلة على أطراف أصابعها إلى غرفة النوم ، وظلت طوال ساعات تمرضها ، وتنجز الأشياء باعتناء واجتهاد . وفي يوم آخر ، كانت أمها تعيسة ، فكانت آنا تقف وقد فردت ساقيها محملقة ، محاولة أن توازن نفسها على جانبي نعليها ، وكانت تضحك عندما تتلوى أفراخ الإوز بين يدي تيلي ، بينما كانت حبات الطعام تدفع عبر حناجرها بسيخ . كانت تضحك بعصبية ، وكانت صلبة ومستبدة مع الحيوانات . ولم تكن تنثر الحَبَّ لهم ، راكضة وسطهم مثل عشيقة قاسية .

حلّ الصيف ، وحان موسم الحصاد . كانت آنا قملة جنية بنية اللون ترقص . وكانت تيلي مندهشة طوال الوقت منها ، أكثر من أنها قد أحبتها . لكن دائماً كان في الطفلة بعض الارتباط المقلق مع الأم ، فمادامت السيدة برانغوين على ما يرام ، فإن الطفلة الصغيرة كانت تمرح ولا تهتم إلاّ لماماً بها ، ولكن مرَّ موسم حصاد القمح وزحف الخريف ، وعندما ابتدأت أشهر الحمل الأخيرة ، وأصبحت الأم منعزلة غريبة الأطوار ، وأبتدأ برانغوين يقطب حاجبيه ، خيم القلق المرضي والإحساس المرهف على الطفلة مرة أخرى ، فإذا ما ذهبت إلى الحقول مع والدها ، فإنها ، بدلاً من اللعب على هواها كانت تردد :

ـ أريد أن أعود إلى البيت

ـ البيت ، لماذا ، لقد جئنا لتونا ؟

ـ أريد العودة إلى البيت .

ـ لماذا ، ماذا هناك ؟

ـ أريد أُمي .

ـ أُمكِ لا تريدكِ

ـ أُريد أن أعود إلى البيت .

ثم تغرورق عيناها بالدموع في الحال .

ـ ألا تعرفين الطريق إذن ؟

وكان يراقب عدوها ، صامتاً متعمداً على امتداد قاع الروابي ، بخطوة ثابتة قلقة حتى تستدير وتدخل عبر البوابة ، ثم يرى بعد ذلك قدميها وهما ماتزالان تندفعان نحو الأمام ، صغيرتين ، مسرعتين ، وكان الكرب يخيم على وجهه عندما يستدير كي يحرث الحقل الحصيد

ومرت الأيام ، وفي أسوار الشجيرات ، أشرق التوت الأحمر ، وشوهد أبو الحناء يرفرف فوق الأغصان العارية ، وظهرت حشود كبيرة من الطيور ، اندفعت مثل رذاذ من الأرض المبّورة ، وظهر طائر الغداف ، أسود اللون ، يخفق بجناحيه صوب الأرض ، وكانت الأرض باردة عندما قُلع اللفت ، ومخضت الطريق إلى طين عميق ، ثم دُفِن اللفت ليخزن للشتاء ، وتباطأ العمل . كان داخل البيت مظلماً وهادئاً ، وكانت الطفلة تدور من حولها مضطربة ، وبين حين وآخر ، كانت تصرخ صرخة مجفلة شاكية .

ـ أمي!

كانت السيدة برانغوين مكتئبة وغير مستجيبة وتعبة ومستغرقة ، بينما استمرَّ برانغوين في العمل في الخارج .

وفي المساء ، عندما يعود ليحلب الأبقار ، كانت الطفلة تركض خلفه . وفي سقيفة الأبقار الدافئة ، عندما تكون الأبواب موصدة ، ويبدو الهواء دافئاً بضوء الفوانيس المعلقة فوق قرون الأبقار المتفرعة ، كانت تقف وهي تراقب يديه وهما تضغطان بإيقاع حلمات ثدي الحيوان الهادئ ، وتراقب رغوة الحليب وانبجاس قطراته القافزة ، تراقب يده وهي تمسح أحيانا ، ببطء وتفهم ، على الضرع المتدلي . وهكذا حافظا على رفقتهما ، لكن من بعد ، ونادراً ما كانا يتبادلان الكلام .

وحلّت أشدّ أيام السنة ظلاماً ، وأصبحت الطفلة مشاكسة ، متنهدة ، كما لو أن شيئاً ما يُثقل عليها ، تركض من مكان لآخر دون أن تستريح ، بينما ظل برانغوين يعمل مهموماً ، وكان قلبه مهموما أيضاً مثل التربة المشبعة بالماء .

وحلّت ليالي الشتاء مبكرةً ، وكان المصباح يضاء قبل وقت الشاي ، وتُسدل الستائر ، وكان الجميع يجلسون في الغرفة مع القلق والإجهاد . وكانت السيدة برانغوين تأوي مبكرة إلى فراشها ، بينما تلعب آنا على الأرضية إلى جانبها . أما برانغوين ، فكان يجلس في فراغ الغرفة بالطابق الأسفل يدخن ، ونادرا ما يشعر حتى بتعاسته الخاصة ، وكان غالباً ما يخرج كي يهرب من ذلك .

مرَّ عيدُ الميلاد ، وعادت أيام كانون الثاني المبللة الرطبة على نحو يثير الملل ، وبين آن وآخر ، كان تألق برق أزرق ، عندما يخرج برانغوين إلى الصباح الذي يشبه البلورة ، وعندما يرن كل صوت مرة أخرى ، وعندما تكون الطيور كثيرة ومفاجئة وفظة في أسوار الشجيرات . بعد ذلك ، تملكه جذل رغم كل شيء ، سواء كانت زوجته غريبة وحزينة أو أنه كان يتوق لأن تكون معه ، فإن ذلك لا يهم ، فلقد كان الهواء يقرع بضوضاء واضحة ، والسماء مثل بلورة ؛ مثل ناقوس ، وكانت الأرض صلبة . عندها ابتدأ يعمل ، وكان سعيداً ؛ عيناه مشرقتان ، وخداه متوردان ، وكانت رغبته في الحياة قوية في داخله .

كانت الطيور تنقر من حوله بهمة ، والخيول نشيطة متوثبة ، وأغصان الأشجار العارية تندفع إلى الأعلى مثل رجل يتثاءب ، متوترة بالطاقة ، والأماليد تشعُ في الضوء المتألق . كان حيّاً وممتلئاً بالرغبة في كل ذلك . وإذا كانت زوجته كئيبة ومنفصلة عنه ، ومنطفئة فدعها في حالها ، ودعه يبقى على حاله ، فالأشياء ستكون كما هي عليه . وفي هذه الأثناء ، سمع صوت ديك صغير في البعد ، ورأى ، مصادفة ، القمر الشاحب متوارياً في السماء الزرقاء .

نادى الخيول وكان سعيداً . وبينما كان في طريقه إلى (اليكستون) ، كانت ثمة امرأة شابة نضرة ذاهبة إلى هناك كي تتسوق ، فحياها وكبح حصانه وأصعدها ، تملكته السعادة لأن تكون إلى جانبه ، والتمعت عيناه ، وكان صوته يضحك ويمزح بطريقة دافئة ، جعلت توازن رأسها يبدو أكثر جمالاً وركض دمها أسرع . كان الاثنان مثارين ، فلقد كان الصباح رائعاً

ماذا يهم إن كان همّ وألم في سويداء قلبه ؟ إن ذلك في السويداء ، فدعه يتوقف هناك ، فزوجته ومعاناتها وألمها القادم ـ حسنٌ ، يجب أن يكون الأمر على ذلك النحو ، فلقد عانت ، لكنه كان خارج البيت ، ممتلئاً بالحياة ، وسوف يكون أمراً سخيفاً وغير لائق ، أن يرتدي وجهاً منكفئاً ، وأن يصرَّ على كونه تعيساً . كان سعيداً ذلك الصباح ، متوجهاً إلى المدينة ، وحوافر حصانه تصفع الأرض الصلبة ، حسن ، لقد كان سعيداً ، حتى لو كان نصف العالم يبكي في مأتم النصف الآخر ، فإلى جانبه تجلس فتاة رائعة ، والمرأة

ليست مخلدة ، ومهما حدث ، وأياً كان ذلك الذي استدار صوب الموت ، دع الشقاء يأتي في اللحظة التي لا تمكن مقاومته فيها .

حلَّ المساء متأخراً وجميلاً جداً ، وبريق وردي يحوم فوق غروب الشمس ، متحولاً تدريجاً إلى لون قرمزي وخزامي ، وكان الشمال والجنوب في السماء بلون أخضر فيروزي . وفي الشرق ، قمر أصفر كطير يتدلى ثقيلاً ومشعاً . كان أمراً رائعاً أن يمشي المرء بين غروب الشمس والقمر ، على طريق حيث تندفع شجيرات الآس البري سوداء اللون وسط الورد والخزامي ، وتخفق الزرازير في حشود عبر الضوء ، لكن ما نهاية الرحلة ؟ جاء الألم في اللحظة المناسبة تماماً . بعد ذلك ، وعندما ثقلت قدماه وقلبه ومات مخه ، توقفت حياته .

في أصيل أحد الأيام ، ابتدأت آلام المخاض . وضعت السيدة برانغوين في الفراش ، وجاءت القابلة . حلَّ الليل ، وأُغلقت النوافذ ، وجاء برانغوين لشرب الشاي ؛ إلى الخبز وإبريق الشاي القصديري . كانت الطفلة صامتة مرتجفة ، تلعب بخرزات زجاجية ، وبدا البيت فارغاً ، أو مكشوفاً لليل الشتوي ، كأنه جدران .

وفي بعض الأحيان ، كانت تتردد صرخة مواء طويلة ونائية في البيت ، مترددة خلال كل شيء لامرأة تلد . وكان برانغوين ، الذي يجلس في الطابق السفلي ، موزعاً . كانت نفسه العميقة معها ؛ مرتبطة بها ؛ تعاني ، بيد أن صدفة جسمه الكبيرة تذكرت صوت البوم الذي اعتادت أن تطير حول المنزل الريفي عندما كان صبياً . عاد إلى شبابه ، صبياً تسكنه أصوات البوم ، موقظاً أخاه كي يتحدث معه ، وطافت ذاكرته بعيداً إلى الطيور ، بوجوهها الوقورة الكئيبة ، وكان طيرانها ناعماً بأجنحة عريضة ، ومن ثم إلى الطيور التي اصطادها أخوه ، كومة ميتة مجعدة مغبرة من النعومة ذات وجوه نائمة بطريقة سخيفة . كان منظراً غريباً ، بوماً ميتاً .

رفع كوبه إلى شفتيه ، وراقب الطفلة وهي تلعب بالخرزات ، بيد أن ذهنه كان منشغلاً بالبوم ، ومناخ صباه ، مع أخواته وإخوته . وفي مكان آخر أساسي ، كان مع زوجته في مخاض ، فالطفل كان يستخرج من لحمهما* ، وهو وهي لحم واحد ، يجب أن تستخرج الحياة منه . لم يكن التمزق في جسده ، لكن من جسدها ، عليها سقطت الضربات ، بيد أن الارتجاف مرَّ من خلاله ، إلى آخر عصبٍ فيه . يجب أن تتمزق إرباً كي تخرج الحياة ، ومع

---

* إنجيل القديس مرقص عندما يشير السيد المسيح إلى التكوين .

ذلك ، ما يزال لحماً واحداً ، وما يزال ، من منطقة أبعد ، كانت الحياة تخرج منه إليها ، وما يزال هو الذي لم يُكسر والذي يمسك الصخرة المكسورة من ذراعيها* ، وكان لحمها صخرة واحدة ، تتدفق الحياة خارجة منها ، هي التي كانت تُضرب وتتمزق ، منه هو الذي كان يرتجف ويستجيب .

صعد إليها في الطابق العلوي ، وعندما وقف إلى جانب سريرها ، خاطبته باللغة البولونية فسألها :

ـ هل الأمر سيئ جداً ؟

نظرت إليه ، آه ، يا لتعبها من الجهد الذي تبذله كي تفهم لغة أخرى ؛ تعب سماعه ، الإصغاء إليه ، ومعرفة من يكون ، بينما كان يقف هناك غريباً بلحيته الشقراء ، ينظر إليها . كانت تعرف شيئاً منه ؛ من عينيه ، بيد أنها لا تستطيع الإمساك به ، فأغمضت عينيها ، وأشاح بوجهه ممتقعاً حدّ البياض . قالت القابلة : ـ لم يكن الأمر سيئاً جداً .

كان يَشعر أنه يجهد زوجته ، لذلك نزل إلى الطابق الأسفل .

ألقت الفتاة نظرة عليه ، مرعوبة ، وتهدج صوتها قائلةً :

ـ أريد أمي .

فقال لها بلطف وانشداه :

ـ نعم ، لكنها ليست على ما يرام .

نظرت إليه بعينين زائغتين خائفتين :

ـ هل انتابها الصداع ؟

ـ لا ، إنها ستلد طفلاً .

نظرت الطفلة من حولها ، ولم يكن شاعراً بوجودها ، وكانت وحيدة وهلعة مرة أخرى ، ثم جاءت صرخة الرعب .

ـ أريد أمي .

قال لها :

ـ دعي تيلي تخلع ملابسكِ فأنت متعبة .

وخيم الصمت مرة أخرى . وجاءت صرخة طلق ثانية

ـ أريد أمي .

* حلب موسى الماء من الصخرة عندما ضربها بأمر الرب ، وهذا يكافئ في الإنجيل الدم المانح للحياة والماء الذي تدفق من جسد السيد المسيح عندما ثقبه الجندي بالرمح على الصليب . (المترجم)

خرجت تلقائياً من الطفلة المجفلة التي انتابها الذعر والتي أحست أنها قد قُطعت وضاعت في هلع العزلة .

جاءت تيلي وقد نمزقت نياط قلبها ، ودندنت قائلة :

ـ هيا تعالي ودعيني أخلع ملابسكِ ، وسترين يا حملي الوديع أمكِ في الصباح ، لا تخافي يا إوزتي ، لا تهتمي يا ملاكي .

ولكن آنا وقفت على الأريكة ، وقد أسندت ظهرها إلى الجدار ، وصرخت ، وكان صوتها الصغير يرتجف بدموع حزن طفولي مطبق ، كبيرة في عينيها :

ـ أريد أمي .

ـ إنها ليست على ما يرام يا حملي ، إنها ليست على ما يرام الليلة ، ولكنها ستكون أفضل في الصباح ، لا تبكي ، لا تبكي يا عزيزتي ، إنها لا تريدكِ أن تبكي ، أيها القلب الصغير الثمين ، لا ، إنها لا تريد ذلك .

أمسكت تيلي بلطف تنورة الطفلة ، فأعادت آنا بسرعة ملابسها على جسمها ، وهتفت في شيء من الهلع :

ـ لا ، لا تخلعي ثيابي ، أريد أمي .

وابتدأ الحزن والدموع تنهمر على وجهها الطفولي ، وكان جسدها يرتجف .

ـ أوه ، دعي تيلي تخلع لكِ ثيابكِ ، دعي تيلي التي تحبكِ تخلع لكِ ثيابكِ ، لا تكوني عنيدة هذه الليلة ، فأمكِ مريضة ، ولا تريدكِ أن تبكي .

نشجت الطفلة منشدهة ، ولم يكن بمقدورها أن تسمع ، وبكت قائلة :

ـ أريد أمي .

ـ عندما تخلعين ثيابكِ ستصعدين إلى الأعلى كي تري أمكِ ، عندما تخلعين ثيابكِ يا حبيبتي ، عندما تدعين تيلي تخلع لكِ ملابسكِ ، عندما تصبحين جوهرة صغيرة في منامتكِ يا حبيبتي ، لا تبكي.. لا

جلس برانغوين متيبساً في مقعده ، وأحسَّ أن دماغه بدأ يضيق شيئاً فشيئاً . ذرع الغرفة غير شاعر إلاّ بالنشيج الذي يثير الجنون . قال لها :

ـ لا تصدري ضوضاء .

وهزَّ رعب جديد الطفلة من نبرة صوته ، فصرخت تلقائياً ، وكانت عيناها ترقبان بحذر خلال دموعها ، متنبهة لما يمكن أن يقع . تهدج الصوت الناشج الأعمى :

ـ أريد... أمي .

سرت رجفة من الانزعاج في أعطاف الرجل . كان ذلك بسبب الحماقة الملحة التامة ، عمى الصوت والبكاء الذي يقود إلى الجنون . قال لها بصوت هادئ رفيع من الغضب :

- يجب أن تأتي لتخلعي ثيابكِ

ثم مدَّ يده وأمسك بها . أحسَّ بجسمها وقد تملكه نشيج متشنج ، لكنه هو الآخر كان أعمى ومتعمداً ومنزعجاً ومندفعاً في تصرف آلي . ابتدأ يفتح منزرتها الصغيرة ، وكانت ستنكمش منه بيد أنها لم تستطع ، لذلك ظلَّ جسدها الصغير في قبضته ، بينما كان يعبث بالأزرار والأشرطة الصغيرة ، غير مفكر ، متعمداً ، غير شاعر بأي شيء باستثناء إزعاجها . كان جسدها يبدو متوتراً ومقاوماً . خلع الثوب الصغير والتنورة كاشفاً ذراعيها الأبيضين . ظلت متيبسة ، مهزومة ، منتهكة ، بينما استمر يؤدي مهمته ، وطوال الوقت ظلت تنشج مختنقة :

- أريد أمي

كان صامتاً ، لامبالياً ، وكان وجهه متصلباً . أصبحت الطفلة غير قادرة على الفهم .

الآن ، إذ تحولت إلى شيء آلي صغير ذي رغبة ثابتة ، بكت وتشنج جسدها ، وكان صوتها يعيد الصيحة ذاتها .

وهتفت تيلي ، وقد شُدِهَت هي الأخرى :

- يا إلهي

خلع برانغوين بطيئاً ، أخرق ، أعمى ، متعمداً ، كل ملابس الصغيرة ، وأوقف الطفلة عارية في قميصها الداخلي على الأريكة ، وسأل :

- أين منامتها ؟

جلبتها تيلي ، فألبسها لها . لم تحرك آنا أطرافها استجابة لرغبته ، بل كان عليه أن يدفعها إلى مواضعها وقفت برغبةٍ عمياء ، ثابتة . كائن مقاوم ، متشنج ، مصرٌّ يبكي طوال الوقت ، ويعيد العبارة ذاتها . رفع قدميها ؛ الواحدة بعد الأخرى ، ساحباً النعلين والجوربين ، وبذلك أصبحت جاهزة ، فسألها :

- هل تريدين شراباً ؟

لكنها لم تتغير ، لامبالية ، غير مهتمة . وقفت على الأريكة ، مستندة إلى الخلف وحيدة ، ويداها مغلقتان ، مرفوعتان إلى النصف ، ووجهها مغطى بالدموع ، مرفوع ، ومغمض العينين وخلال النشيج ، والاختناق ، جاء الصوت المتكسر :

- أريد أمي .

سألها ثانية :

ـ هل تريدين شراباً ؟

لم تحر جواباً رفع الجسد المتصلب الرافض بين ذراعيه ، أصدر عماها المتصلب ومضة من الغضب ، سرت خلاله . كان راغباً في تحطيمها . وضع الطفلة على ركبتيه ، وجلسَ مرة أخرى في كرّسيه قرب النار ، واستمرت الضوضاء الرطبة الناشجة البكماء قرب إذنه . كانت الطفلة تجلس متيبسة ، غير مستجيبة له أو لأي شيء ، غير شاعرة بشيء .

اعترته درجة جديدة من الغضب . ماذا يهم كل هذا ؟ ماذا يهم إذا تحدثت الأم بالبولونية ، وصرخت في أثناء مخاضها ، أو إذا كانت هذه الطفلة متصلبة مقاومة باكية ؟ لماذا يأخذ الأمر على محمل الجد ؟ دع الأم تصرخ في المخاض ، ودع الطفلة تبكي معاندة لأنهما سيفعلان ذلك ، فلماذا يحارب ضده ؟ لماذا يقاوم ؟ دع الأمر كما هو ، إذا كان كذلك ، دعهما وشأنهما إذا أصرتا على ذلك .

وجلس مصاباً بالدوار ، غير مستعد للقتال . استمرت الطفلة تبكي ، ومرت الدقائق ، وكان شيء أشبه بالغمامة فوق رأسه . مرَّ وقتٌ قبل أن يعود ويستدير ، ليعتني بالطفلة ولقد صُدم بوجهها الصغير المبلل ، مغمض العينين . دائخاً قليلاً دفع الشعر المبلل إلى الخلف ، ومثل تمثال حي من الحزن ، استمر وجهها الأعمى يصرخ .

قال لها :

ـ ليس الأمر بهذا السوء . ليس الأمر بهذا السوء يا طفلتي . آنا تعالي . ما الذي تبكين من اجله بهذا القدر ؟ تعالي توقفي ، إن ذلك سيجعلك تمرضين ، سأجفف وجهك ، فلا تبلليه اكثر . لا تبكي بالدموع ، لا تفعلي . من الأفضل ألاّ تفعلي . لا تبكي . إن الأمر ليس بهذا السوء أبداً اهدئي ، اهدئي الآن ، هذا يكفي .

كان صوته غريباً وبعيداً وهادئاً . نظر إلى الطفلة وأصبحت شاعرة بنفسها الآن . لقد أرادها أن تتوقف أراد أن يتوقف كل شيء ، أن يصبح طبيعياً .

قال وهو ينهض كي يغادر :

ـ تعالي ، سنذهب لنعلف الحيوانات .

أخذ شالاً كبيرا ، ولفّهُ من حولها ، وذهب إلى المطبخ كي يجلب فانوساً .

قالت له تيلي :

ـ لن تأخذ الطفلة إلى الخارج في ليلة مثل هذه .

أجابها :

ـ بلى ، إن ذلك سوف يهدئها .

كانت الدنيا تمطرُ . وفجأة سكنت الطفلة مصدومة ، بعد أن اكتشفت المطر والظلام على وجهها   كان برانغوين يقول لها ، وهو يمسك بها قريباً ومطمئناً .

ـ سنعطي الأبقار شيئا تأكله قبل أن تأوي الى النوم .

كان هناك وشل من الماء في البرميل ، ثم دفقٌ من قطرات المطر تناثر على شالها . وكان ضوء الفانوس يتأرجح ويومض على الرصيف المبلل ، وعلى قاعدة الجدار الرطب ، وباستثناء ذلك ، كان كل شيء ظلاماً دامساً ؛ ككتلة ظلام واحدة تتنفس . فتح الأبواب العليا والسفلى ، ودخل إلى الحظيرة المرتفعة الجافة التي كانت تشع بالدفء حتى إن لم تكن دافئة . عَلّقَ الفانوس على المسمار ، وأغلق الباب . لقد اصبحا في عالم آخر الآن ، وسقط الضوء ناعماً على الحظيرة الخشب ، وعلى الجدران البيض الصقيلة وكومة القش الكبيرة . وأسقطت الأشياء ظلالاً هائلة ، وارتفع سلّمٌ إلى قوس مخزن التبن المظلم . وفي الخارج ، كان مطر متدفق ، وفي الداخل سكون وهدوء الحظيرة المضاء بنعومة   بدأ ، ممسكا الطفلة بإحدى ذراعيه ، يجهز العلف للبقرات ، مالئا وعاء المعلف بالقش المقطع والحبوب المخمرة* مع قليل من الطحين . راقبت الطفلة مندهشةً ما كان يفعله ، وخُلق كائنٌ جديدٌ داخلها للظروف الجديدة . وفي بعض الأحيان ، كان تشنج طفيف يرتدُّ من عاصفة النشيج التي مرت فيهزّ جسدها الصغير . كانت عيناها واسعتين متسائلتين حزينتين ، كانت صامتة ساكنة تماما في نوع من الحلم . غطس قلبه إلى القرار تاركاً سطحه ساكناً ؛ ساكناً تماماً ، فنهض وقد امتلأ المعلف بالطعام ، موازناً الطفلة بعنايةٍ على إحدى ذراعيه ، ووعاء المعلف في اليد الأخرى ، وتمايلت حافة الشال الحريرية بنعومة ، وتناثرت الحبوب والقش على الأرضية ، وسار على امتداد الممر ذي الضياء المعتم خلف المعالف حيث تبرز قرون الأبقار من الظلمة . تقلصت الطفلة ، فتوازن متيبساً ، واضعا الوعاء على جدار المعلف ، وقسم العلف بين البقرتين ، وكان ثمة صليل سلاسل تُسحب عندما كانت الأبقار ترفع أو تخفض رؤوسها بحدة . تلا ذلك صوت سعيد مهدئ ؛ استنشاقٌ طويلٌ ، بينما كانت الحيوانات تأكل بصمت . كان لابد أن تؤدى المهمة عدة مرات   وتردد صوت المجرفة الإيقاعي في الحظيرة ، بعدها عاد الرجل يمشي متصلباً بين الوزنين ، ووجه الطفلة يحدّقُ من الشال . وفي المرة التالية ، وبينما كان ينحني حَررّت ذراعها ، ووضعتها حول عنقه ، ملتصقةً به ناعمة دافئة جاعلة كل الأمور أسهل . أكلت

---

* الحبوب المتبقية في قاع البرميل بعد تخمر الجعة

الحيوانات ، وأسقط الوعاء ، وجلس على صندوق كي يرتب الطفلة ، فقالت وهي تلتقط أنفاسها ، بينما كانت تتحدث .

ـ هل تنام البقرات الآن ؟

ـ نعم .

ـ هل يأكلن كل طعامهن أم لا ؟

ـ نعم أصيخي السمع إليهن .

وجلس الاثنان ساكنين ، يصيخان السمع لاستنشاق الأبقار وتنفسها ، وهي تتغذى في السقائف المتصلة مع هذه الحظيرة الصغيرة ، وكان الفانوس يلقي ضوءا ناعماً ثابتاً من أحد الجدران ، بينما الخارج كله ساكن تحت المطر نظر إلى طيات الشال الحريرية المتعرجة فلقد ذكره ذلك بأمه* ، إذ اعتادت الذهاب إلى الكنيسة ، وهي ترتديه . وعاد مرة أخرى إلى عدم الاستحابة والطمأنينة القديمة ؛ صبيٌ في منزله .

جلس الاثنان هادئين تماما ، وكان ذهنه في نوع من الغيبوبة ، وابتدأ يصبح اكثر غموضاً ، امسك الطفلة قريبا منه ، وسرت رعشة مرتجفة صغيرة مترددة من نشيجها في أطرافه ، وسحبها أقرب إليه . وتدريجا استرخت ، وأبتدأ جفناها يهبطان فوق عينيها السوداوين الحذرتين ، وعندما استغرقت في النوم ، أمسى ذهنه فارغاً .

وعندما استعاد وعيه كما لو من نومٍ ، بدا كأنه يجلس في سكون لانهائي . ما الذي كان يصغي إليه ؟ يبدو انه كان يصغي إلى صوت ما بعيد جدا جدا ، من وراء الحياة . تذكر زوجته يجب أن يعود إليها . كانت الطفلة مستغرقة في النوم ، بيد أن جفنيها لم يكونا منطبقين تماماً ، مظهرين شريطاً صغيراً من بؤبؤ أسود بينهما . لمَ لم تغمض عينيها ؟ كما أن فمها كان مفتوحا قليلاً . نهض بسرعة ، وعاد إلى البيت .

همست تيلي .

ـ آه نائمة ؟

هزَّ رأسه مؤكداً . جاءت الخادمة كي تنظر إلى الطفلة التي نامت في الشال ، ووجنتاها محمرتان ساخنتان ، وبياض محاق حول العينين . همست تيلي وهي تهز رأسها :

ـ يا رحمة الرب .

خلع حذاءه الطويل ، وصعد إلى الأعلى مع الطفلة . شعر باللهفة التي أمسكت بخناقه

* ذكره الشال بأمه لأنه كان يصنع في مدينة (بيزلي) في اسكتلندا ، وكان موضة حديثة في ثلاثينيات القرن التاسع عشر .

بسبب زوجته ، لكنه ظل ساكناً . كان البيت هادئاً باستثناء الريح التي كانت تهب في الخارج ، وتساقطِ الماء وتناثره في البراميل ، وكان هناك شق من الضياء تحت باب زوجته . وضع الطفلة في الفراش ، ملفوفة مثل ما كانت بالشال لأن الشراشف ستكون باردة عليها ، ثم خاف من أنها قد لا تكون قادرة على تحريك ذراعيها ، لذلك أرخى الشال من حولها . فتحت عينيها السوداوين ، وسقطتا عليه فارغتين ، ثم انغلقتا مرة أخرى . غطاها ، وهزّت آخر رجفة صغيرة من النشيج تنفسها . كانت هذه هي غرفته ؛ الغرفة التي ألفها قبل أن يتزوج وتذكر معنى أن تكون شاباً لم تمس

ظل قلقا نامت الطفلة مخرجةً قبضتيها الصغيرتين من الشال . بمستطاعه أن يخبر المرأة أن طفلتها نائمة ، لكن عليه أن يذهب إلى منبسط السلم الثاني . ولقد أجفله ذلك ، ثم جاءه صوت البوم ؛ نواح المرأة ، أي صوت موحش! لم يكن صوتاً إنسانياً ليس لرجل على الأقل . هبط إلى غرفتها ودخل بهدوء . كانت تضطجع ساكنة ، وعيناها مغمضتان شاحبة ، متعبة . قفز قلبه مخافة أن تكون ميتة . ومع ذلك ، كان يشعر أنها لم تكن كذلك . رأى الطريقة التي كان شعرها يتناثر فيها فوق صدغيها ، وفمها المغلق بمعاناة تشبه التكشيرة . وبدت جميلة في عينيه ، لكنها لم تكن إنسانية . كان خائفاً منها وهي متمددة هناك ما علاقتها به ؟ إنها شيء آخر غير نفسه . جعله شيء ما يذهب ويلمس أصابعها التي لم تزل تمسك بالشرشف . فتحت عينيها البنيتين ونظرت إليه ، لم تعرفه في شخصه ، بيد أنها عرفته باعتباره الرجل . نظرت إليه مثل ما تنظر المرأة التي تلد إلى الرجل الذي وضع الطفل في داخلها ؛ نظرة شخصية في الساعة القصوى ؛ أنثى أم ذكر ؟ وأغمضت عينيها مرة أخرى . وحل عليه سلام عظيم محرق ، حارقاً قلبه وأمعاءه ومجتازا إياه إلى اللانهاية

عندما ابتدأت آلامٌ جديدة تمزقها . استدار ولم يكن بمقدوره أن ينظر إليها ، لكن قلبه المعذب كان في سلام ، وكانت أحشاؤه مسترخية . هبط إلى الأسفل ، ثم توجه نحو الباب فالخارج ، ورفع وجهه إلى المطر ، وأحسَّ بالظلام يضرب خفياً ، مستمرا عليه . أسكته اندفاع الليل الناعم الخفي عليه ، وهزمه . لقد طرد العالم الداخلي بتواضع ، وكان هناك العالم اللانهائي الأزلي المتغير فضلاً عن عالم الحياة.

الفصل الثالث

طفولة آنا ليتسكي

لم يحب توم برانغوين ابنه مثل ما أحب ابنة زوجته آنا . عندما أخبروه انه رزق بمولود ذكر ، تملكته دهشة فرح . فلقد أحبَّ توكيد الأبوة هذا ، ومنحه ذلك رضا في أن يكون له ابن ، لكنه لم يشعر بالكثير من الانجذاب نحو الطفل نفسه . إنه والده ، وكان هذا كافياً . كان سعيداً لأن زوجته هي أم طفله . وكانت ساكنة ؛ مبهمة قليلاً ، كما لو أنها كانت مزدرعة وبولادة الطفل بدت كأنها فقدت الارتباط بحياتها السابقة . أصبحت الآن امرأة إنكليزية حقيقية ؛ السيدة برانغوين بحق . ومع ذلك ، فأن حيويتها على ما يبدو ، قد وهنت

كانت ماتزال في تصور برانغوين جميلة على نحو لا يقاس ، وماتزال حادة الطبع ، وثمة لهب في كيانها ، بيد أن اللهب لم يكن قوياً ولا موجوداً . أشرقت عيناها له ، وتوهج وجهها ، لكن مثل زهرة تفتحت في الظل ، لم يكن بمقدورها أن تطيق ضوء النهار . أحبّت الطفل ، لكن حتى هذا الإحساس ، كان يخالجه نوع من التجهم ، غياب ضئيل من حولها ، ظلال حتى في حبها الأمومي . وعندما رآها برانغوين تعتني بطفله سعيدة ومستغرقة في الأمر ، سرى فيه ألم أشبه بلهبٍ رقيق ، لأنه كان يدرك كم عليه أن يُخضع نفسه عند اقترابه منها . ولقد أراد مرة أُخرى تبادل الحب القوي الأزلي والهوى الذي كان يكنّه لها في البداية . وبين آن وآخر ، عندما يتكافآن في أعلى درجات الإحساس ، كانت تلك هي التجربة الوحيدة في تصوره الآن . ولقد أرادها دائما بتوق لا يرحم .

وعادت إليه مرة أخرى ، بطريقة رَفْعِها لفمها ذاتها ، مثل ما كادت أن تفقده صوابه بالهوى المكبل في البداية . عادت إليه مرة أخرى ، وكان قلبه مهتاجاً بالمتعة والاستعداد فأخذها ، وكان الأمر بينهما كما كان بينهما من قبلُ تقريباً .

ربما كان الأمر مثل ما كان من قبل . وعلى أية حال ، جعله ذلك يعرف الاكتمال ، وأسَّس

في داخله معرفة ثابتة أزلية . لكنها تلاشت قبل أن يريدها أن تتلاشى . لقد انتهت ولم يعد بمقدورها أن تأخذ المزيد ، ولم يكن استُنفد بعد ، أراد الاستمرار ، لكن ذلك محال

لذلك كان عليه أن يبدأ الدرس المرّ ، أن يُلغي نفسه ، وأن يأخذ أقل مما يريد ، ولأنها كانت امرأته ، فان كل النساء الأخريات كن مجرد ظلال لها ، لأنها هي التي أرضته ، وهو يريدها أن تستمر ، وهذا محال . ومع ذلك ، اغتاظ وأصبح بعد أن امتلأ بالكبت حاداً وقاسياً ، كرهها في سويداء روحه لأنها لم تكن تريده ، ومع ذلك ، كانت تتملكه نوبات جنون وسكر ، وخلق مشاهد قبيحة ، بيد أنه كان يعرف انه كان ينطح الصخر* . كان عليه أن يتعلم أن الأمر ليس لأنها لا تريده بما فيه الكفاية ، مثل ما يطالب أن تريده ، بل لأنها لا تستطيع ذلك . إن باستطاعتها أن تريده بطريقتها الخاصة ، وبمقاييسها الخاصة ، ولقد أنفقت قدراً كبيراً من حياتها قبل أن يجدها مثل ما كانت عليه ؛ المرأة التي باستطاعتها أن تأخذه ، وتمنحه كفايته . لقد أخذته ومنحته كفايته ، وأنها ماتزال تفعل ذلك ، في أوقاتها ووفق طريقتها ، لكن يجب أن يسيطر على نفسه ، وأن يقيس نفسه عليها .

أراد أن يعطيها كل حبه وهواه ، وكل طاقته الحيوية ، لكن ذلك محال . عليه أن يجد أشياء أخرى غيرها ؛ مراكز حياة أُخر . جلست قريبة وحصينة مع الطفل ، وكان يغار منه

لكنه أحبّها ، وقد حان الوقت كي يحدد اتجاهاً لتيار حياته المزعج كي لا يزبد ويفيض ويسبب التعاسة ، لذلك كوّنَ مركز حب آخر في طفلتها آنا . وتدريجاً ، تحول رافدٌ من جدول حياته إلى الطفلة ، مخففاً من الفيضان الرئيسي تجاه زوجته ، وكذلك بحث عن صحبة الرجال ، وكان ينغمس كثيراً في الشراب بين آن وآخر .

توقفت الطفلة عن امتلاك هذا القدر من اللهفة تجاه أمها بعد مجيء الطفل ، وبعد أن رأت الأم مع الطفل الرضيع مسرورة هادئة منيعة . ارتبكت آنا في البداية ، ولكنها أصبحت ناقمة تدريجاً . وفي النهاية ، استقرت حياتها الصغيرة على مرودها الخاص ، فلم تعد مجهدة محطمة كي تساعد أمها . أصبحت أكثر طفولية ، ليست استثنائية جداً ، وليست مشحونة بهموم لا تستطيع فهمها . لقد آلت رعاية الأم وعنايتها إلى شخص آخر غيرها ، وتحررت الطفلة تدريجاً ، وأصبحت مستقلة ؛ روحاً صغيرة ، متسامحة تحب من مركزها الخاص

وبمحض اختيارها أحبت برانغوين أكثر أو أكثر في الظاهر ، لأن هذين الاثنين خَلفا معاً حياة صغيرة ، وكانت لهما فعالية مشتركة . كان ما يسليه في المساء ، أن يعلمها

---

* مَثَلٌ في الأصل ندلُّ على التمرد ضد القوى والظروف الخارجية (المترجم)

الحساب ، أو لفظ الحروف ، وتذكرّ من أجلها كل ترانيم التنويم وأغاني الأطفال التي كانت تستقر مهملة في قاع دماغه .

في البداية عدتها مجرد هراء ، بيد أنه ضحك فضحكت ، وتحولت عندها إلى نكتة كبيرة ، فلقد ظنت أن الملك العجوز كول هو برانغوين نفسه ، وأن الأم هوبارد هي تيلي ، وأن أمها هي العجوز التي عاشت في الحذاء كان هذا الهراء متعة هائلة تبعث على الاهتياج في تصور الطفلة ، بعد السنوات التي قضتها مع أمها ، بعد الحكايات الشعبية المحزنة التي سمعتها من أمها والتي أزعجت روحها وأربكتها .

كانت تشارك أباها في نوع من الطيش ، لامبالاة تامة مختارة ، تحوي في داخلها ضحكة الحمق .

وكان يحبُّ أن يجعل صوتها عالياً ، فتصرخ ويمتلئ صوتها بالضحكة متحدياً ، وكان للطفل الرضيع بشرة وشعر غامقان مثل الأم وله عينان بلون البندق ، ولقد أسماه برانغوين · الطير الأسود . كان برانغوين يصرخ عندما يسمع عويل الطفل معلناً أنه يريد أن يخرج من مهده :

ـ مرحبا هذا هو الطير الأسود ابتدأ يناغي .

وكانت آنا تصرخ بمتعة :

ـ الطير الأسود يغني ، الطير الأسود يغني .

وكان برانغوين يصرخ بصوته العالي الجهير متجهاً نحو المهد :

ـ عندما فُتحت الفطيرة ابتدأ الطير يغني .

وتهتفُ آنا وعيناها تبرقان بالمتعة ، وهي تلفظ الكلمات الملغزة ، وتنظر إلى برانغوين للتأكد :

ـ ألم يكن طبقاً لذيذاً ، كي يقدم أمام الملك* ؟

وكان برانغوين يجلس مع الطفل ، وهو يقول بصوت عال :

ـ غنِ عالياً يا ولدي ، غنِ عالياً .

ويصرخ الطفل بصوت عال ، وتصرخ آنا بتوق ، وهي ترقص في سعادة متوحشة :

غنِ أغنية الشلنات الستة ،

وملء جيب من الزهور ،

أشا! أشا!

---

* مقطعٌ من أغنية ترقيص للأطفال (المترجم)

ثم تتوقف صامتة فجأة وتنظر إلى برانغوين مرة أخرى ، وعيناها تبرقان ، بينما تصرخ بصوت عال وبمتعة :

ـ لقد أخطأت ، لقد أخطأت .

وتقول تيلي وهي تدخل :

ـ أوه يا سادتي ، أية ضوضاء!

يُسكتُ برانغوين الطفل ، وتنقلبُ آنا وترقص . لقد كانت تحب نوبات المشاكسة مع والدها ، وكانت تيلي تكره ذلك . أما السيدة برانغوين فلم تكن تهتم . ولم تكن آنا تهتم كثيرا بالأطفال الآخرين ، بل كانت تستبد بهم ، وتعاملهم كما لو أنهم كانوا صغاراً وعاجزين جداً ، وهم بالنسبة لها مجرد بشر صغار ، وليسوا بأقرانها . كانت أغلب الأوقات بمفردها ، تحلق حول المزرعة ، تُسلي عمال المزرعة وتيلي والفتاة الخادمة ، وتتحرك باستمرار كالدوامة دون أن تتوقف أبداً .

كانت تهوى ركوب العربة مع برانغوين ، إذ تجلس حينئذ منتصبة ، والعربة تسرع بها . عندها تشبع هواها للسمو والسلطان . كانت مثل متوحش صغير في عجرفتها ، وتعتقد أن أباها شخص مهم ، لذلك كانت تجلس إلى جانبه مرتفعة ، وكانا يغذّان السير إلى جانب قمم أشجار السور النامية المرتفعة ، يتأملان ما يجري في المزارع ، وعندما يهتف الناس به محييه من الطريق في الأسفل ، ويردُّ عليهم برانغوين بنشاط ، عندها يسمع صوتها الصغير يرتفع مع صوته متبوعاً بضحكتها الخافتة . ثمَّ تنظر إلى والدها بعينين براقتين ، ويضحكان أحدهما للآخر ، وسرعان ما أصبحت عادة بالنسبة للمارين ، أن يهتفوا : «كيف حالك يا توم ؟ هل أنتِ على ما يرام يا سيدتي ؟ أو صباح الخير يا توم ، صباح الخير يا فتاتي! أو إنكما مسافران اليوم معا إذن ؟ أو إنكما تبدوان رائعين أنتما الاثنين»

وكانت آنا تردُّ مع والدها : «كيف حالك يا جون ؟ صباح الخير يا وليم! ، نعم نحن ذاهبان إلى دربي» . وهي تصرخ بأعلى ما تستطيع ، ولو أنها غالباً ما ترد على عبارة «إنكما مسافران لفترة قصيرة إذن» ، بقولها : «نعم ، نحن كذلك» ، مما يسبب متعة للجميع ، بيد أنها لم تكن تحب الناس الذين يحيونه ولا يحيونها .

كانت ترافقه عندما يذهب إلى الحانة إذا كان عليه الذهاب ، وغالباً ما تجلس إلى جانبه في صالة الشراب ، وهو يحتسي الجعة أو البراندي . وكانت السيدات يمازحنها بطريقتهن المتملقة المميزة :

ـ حسن يا سيدتي الصغيرة ما اسمك ؟

ويجيئهن الجواب السريع :

ـ آنا برانغوين .

ـ هل تحبين قيادة العربة مع والدك ؟

ـ نعم .

ترد آنا خجلى ، لكن ضجرة من هذه التوافه . كانت لها طريقة مترفعة في التخلص من أسئلة البالغين التافهة .

وكانت السيدة تقول لبرانغوين :

ـ يا للغرابة ، إنها لمخلوق صغير فطن .

وكان يرد بنعم ، غير مشجع للملاحظات بشأن الطفلة . ويتبع ذلك عادة هدية من البسكويت أو الكعك الذي تقبله آنا باعتباره أجراً لها .

وتسأل الفتاة الصغيرة بعد ذلك .

ـ ماذا عنت بقولها إني مخلوق صغير فطن ؟

ـ لقد قَصَدتْ أنَّ لك عظاماً حادة*

تتردد آنا ولا تفهم ، ثم تضحك بعد ذلك لبعض السذاجة التي وجدتها في ذلك .

وسرعان ما كان يصطحبها كل أسبوع إلى السوق معه . «أستطيع المجيء ، أليس كذلك ؟» . كانت تسأل صباح كل سبت أو خميس عندما يرتدي ملابس المزارع النبيل الفاخرة ، وكان وجهه يتجهم إذا ما رفض طلبها وهكذا يتغلب في النهاية على خجله ويرفعها إلى جانبه مسافرا إلى نوتنغم ويستقران في حانة (بلاك سوان) وبقي الأمر على مايرام حتى تلك اللحظة ، ثم أراد أن يتركها في الحانة ، ولكن رأى وجهها وأدرك أن ذلك محال ، لذلك استجمع شجاعته ، وسافرا معاً ، ممسكاً بيدها إلى سوق المواشي .

أجفلت مرتبكة متنقلة بسرعة وبصمت إلى جانبه ، لكنها في سوق المواشي تقلصت من ضغط الرجال ؛ كل الرجال ، وهم يرتدون أحذيتهم الطويلة القذرة الجلدية ، وكان الطريق تحت الأقدام قذراً بروث الأبقار ولقد أفزعها أن ترى المواشي في الحظائر المربعة ، الكثير من القرون والقليل من الأسيحة ، وجنون الرجال وصراخ التجار . وأحسّت أيضاً أن والدها كان محرجاً بسببها ، ومنزعجاً .

جلب لها كعكة من دكان المرطبات ، وأجلسها على مقعد . حيّاه رجلٌ قائلاً :

---

* لهجة عامية تعني هزيل وضئيل ولكنه قوي وغالباً ما تطلق على الصقر (المترجم)

ـ صباح الخير يا توم ، أهذه ابنتك إذن ؟
وحرك المزارع الملتحي رأسه باتجاه آنا . وردّ برانغوين مستنكراً :
ـ نعم .
ـ لم أكن أدري أن ابنتك في هذه السن .
ـ لا ، إنها ابنة زوجتي .
ـ أوه ، هكذا إذن .
ونظر الرجل إلى آنا كما لو أنها بقرة صغيرة غريبة ، وحملقت فيه بعينين سوداوين .
تركها برانغوين هناك في عهدة ساقي المشرب ، بينما ذهب ليستفسر عن بيع بعض العجول الصغيرة . وكان ثمة مزارعون وقصابون وتجار ورجال خرقاء قذرون ممن كانت تتقلص غريزياً منهم ، يحملقون إليها وهي تجلس على مقعدها ، ثم يذهبون ليشتروا شراباً ، وهم يتحدثون بنبرات مرتفعة . كان الجميع من حولها ضخاماً وعنيفين ، وكانوا يسألون الساقي :
ـ طفلة من تكون هذه ؟
ـ إنها تعود إلى توم برانغوين .
جلست الطفلة مهملة تراقب الباب بانتظار والدها ، بيد انه لم يأت أبداً ، وجاء العديد والعديد من الرجال ، ولكن ليس هو . وظلت جالسةً مثل ظل . كانت تعرف أن المرء يجب ألاّ يبكي في مكان مثل هذا . وكان جميع الرجال ينظرون إليها بتساؤل ، لذلك انكمشت بعيداً عنهم ، وتجمع عليها سحاب عميق من برودة العزلة . لن يعود أبداً . وجلست هناك متجمدة ساكنة ، وعندها أصبحت فارغة الذهن ، وقد فارقها الإحساس بالزمن . وثم عاد إليها ، وتركت مقعدها متوجهة نحوه ، مثل ما يعود شخص من الموت . لقد باع المواشي بأسرع ما يستطيع ، لكن العمل لم ينته كله ، لذلك اصطحبها معه مرة أخرى في فوضى سوق المواشي وتدافعه . وفي النهاية استدارا وخرجا من البوابة . وكان دائماً يحيّي رجلاً أو آخر وظل يتوقف دائما كي يثرثر بشأن الأرض والمواشي والخيول وأشياء أخر لم تكن تفهمها ، واقفة في القذارة والرائحة الكريهة بين سيقان الرجال وأحذيتهم الضخمة . وكانت تسمع دائماً السؤال :
ـ فتاة من تلك ، لم أكن أعرفُ أن لك ابنة بهذا العمر ؟
ـ إنها ابنة زوجتي .
كانت آنا مدركةً تماماً انحدارها من أمها ، في النهاية ، وتحوّلها . بيد أنهما غادرا في النهاية ، وذهب برانغوين معها إلى مطعم صغير قديم مظلم في (بردلسميث كيت) ، وتناولا

حساء ذيل البقر واللحم والكرنب والبطاطس وجاءَ رجالٌ آخرون ؛ ناسٌ آخرون جاءوا إلى الظلام ، إلى ذلك القبو كي يأكلوا وكانت آنا صامتةً ، وعيناها متسعتان دهشة ثم ذهبا بعد ذلك إلى السوق الكبير ، وإلى سوق مقايضة الحبوب ثم إلى الدكاكين اشترت كتاباً صغيراً من دكانٍ . كانت تحبُّ شراء الأشياء ، أشياء غريبة كانت تظن أنها ستكون مفيدة ، ثم ذهبا بعد ذلك ، إلى حانة (بلاك سوان) ، وشربت الحليب بينما احتسى البرانديي ، ثم جهزا الحصان ، وعادا على طريق دربي .

كانت متعبة انشداهاً وتعجباً ، لكن في اليوم التالي ، وعندما فكرت في الأمر ، وثبت فرحاً ، وخبطت ساقها في الرقصة الغريبة التي تؤديها ، وتحدثت طوال الوقت عما حدث لها ، أو عما رأته . ولقد استغرق ذلك منها أسبوعاً بأكمله . وفي السبت التالي ، كانت متلهفةً جداً كي تذهب مرة أُخرى

وأصبحت وجهاً مألوفاً في سوق الماشية ، جالسة تنتظر في الحجرة الصغيرة ، لكنها كانت تحب كثيرا أن تذهب إلى دربي ، فلقد كان لوالدها هناك أصدقاء كثيرون . ولقد أحبت إلفة المدينة الصغيرة ، وقربها من النهر ، وغرابتها التي لا تخيفها كانت صغيرة جداً ، وأحبّت السوق المسقوف والعجائز ، وأحبّت حانة (جورج) حيث كان يتردد والدها ، إذ كان مالكها صديقاً قديماً لبرانغوين . ولقد استفادت آنا من ذلك ، إذ كانت تجلس وقتاً طويلاً في الصالة الدافئة ، تتبادل الحديث مع السيد (وكنتون) صاحب الحانة ؛ وهو رجل بدين ذو شعر أحمر . وعندما يتجمع المزارعون عند الساعة الحادية عشرة لتناول الغداء ، كانت هناك بمثابة بطلة صغيرة

في البداية ، كانت تكتفي بأن تحملق أو تهمس ؛ أولئك الرجال الغرباء بلهجتهم الخرقاء ، لكنهم كانوا طيبي المزاج . وكانت كائناً غريباً صغيراً بشعرها المتوحش الأشقر الذي يشبه الزجاج المجدول المندفع في هالة متوهجة حول وجهها الذي يشبه زهرة التفاح ، وعينيها السوداوين ولقد أحبَّ الرجال هذا الكائن الغريب ، إذ كانت تثير انتباههم . ولقد غضبت كثيراً ، لأن (ماريوت) ، وهو مزارع نبيل من (امبيركيت) أسماها ابن عرسٍ صغيراً . قال لها .

ـ لماذا أنتِ ابن عرس ؟

فردت بحدة :

ـ لست كذلك .

ـ إنكِ كذلك ، فهكذا يبدو ابن عرس .

فكرت في الأمر وقالت :

ـ أنت ، أنت...

ـ أنا ماذا ؟

نظرت إليه من الأعلى إلى الأسفل وقالت .

ـ إنك رجل أفحج .

وكان كذلك فعلاً .

وتلت ذلك ضجة من الضحك . لقد أحبوها لأنها لم تكن تستسلم .

قال ماريوت :

ـ آه ، لا يقول ذلك إلاّ ابن عرس .

فردت متوهجة :

ـ حسنٌ ، أنا أبن عرس .

وصدرت ضجة ضحك أُخرى من الرجال .

وكانوا يحبون ممازحتها ، إذ كان (برثويت) يقول لها :

ـ حسن يا عذرائي الصغيرة ، كيف حال صوف الحمل ؟

ويشدُّ خصلة متلألئة شاحبة من شعرها ، فتردُّ آنا ، وهي تعيد خصلة شعرها المزاحة بوقار :

ـ إنه ليس صوف حمل .

ـ أهو صوف قطة إذن ؟

ـ إنه شعر .

ـ شعر ، وأين يربون هذا النوع ؟

وكانت تردُّ عليه بالعامية ، وقد تغلب عليها الفضول :

ـ وأين يربون ؟

وبدلاً من أن تجيب ، كانت تصرخ مستمتعة ، إذ كان انتصاراً لها ، أن تتحدث بلهجتهم .

كان لها عدو واحد ؛ وكان الرجل يدعى (نت نات) أو (نات نت) ، مشوه معقوف القدم ، وكان يأتي مراكباً قدميه ، وكتفه ترتفع في كل خطوة يخطوها . وكان هذا الكائن البائس يبيع البندق في الحانة حيث كان معروفا هناك . ولم يكن لحلقه سقف ، لذلك اعتاد الرجال أن يسخروا من طريقة كلامه . وفي المرة الأولى التي جاء فيها إلى حانة (جورج) عندما كانت آنا هناك ، سألت بعد أن غادر ، وكانت عيناها دهشتين :

ـ لماذا يفعل ذلك عندما يمشي ؟

ـ لقد خُلق على هذا النحو يا بطتي ، وليس بمقدوره أن يُغير ذلك

فكرت في الأمر ، ثم ضحكت بعصبية ، ومن ثم تأملت الأمر ، واحمرت وجنتاها ، وقالت :

ـ إنه رجل مقزز

ـ لا ، إنه ليس مقززاً . وليس بمقدوره أن يفعل شيئاً إن أراد أن يقطع ذلك الطريق

ولكن عندما عاد نات المسكين يتكفأ ماشياً ، ابتعدت ، ولم تكن تأكل البندق ، الذي يبيعه إذا ما اشتراه لها الرجال . وعندما يقامر الرجال على البندق ، وهم يلعبون (الدومينو) ، كان الغضب يعتريها ، إذ كانت تصرخ

ـ إنه بندق الرجل القذر

وهكذا حدث اشمئزاز من نات الذي كان عليه الانخراط ، بعد ذلك بفترة قصيرة ، في مهن للفقراء .

ونمت في قلب برانغوين رغبة خفية في أن يجعل منها سيدة نبيلة . ولقد أثار أخوه الفريد ، فضيحة كبيرة في نوتنغم ، عندما أصبح عشيقاً لامرأة متعلمة ؛ سيدة نبيلة ، وأرملة طبيب . وكان الفريد برانغوين غالباً ما يتردد على بيتها الذي كان في (دربي شاير) بصفة صديق ، تاركاً زوجته وعائلته ليوم أو اثنين ، ثم يعود إليها . ولم يجرؤ أحدٌ على أن يوبخه لأنه كان رجلاً قوي الإرادة ، صريحاً ، وقال إنه صديق هذه الأرملة .

وفي أحد الأيام ، قابل برانغوين شقيقه في المحطة ، وسأل الأخ الأصغر :

ـ إلى أين أنت ذاهبٌ الآن ؟

ـ أنا ذاهب إلى (ويركسورث) .

ـ أخبروني أن لك أصدقاء هناك .

ـ نعم ، سأبحث عنك عندما أمرُّ بذلك الطريق

ـ افعل ما يحلو لك .

انتاب توم برانغوين الفضول بشأن تلك المرأة ، لذلك فلقد سأل عن بيتها في المرة التالية التي كان فيها في (ويركسورث) . وجد بيتاً صغيراً على منحدر تل حاد ، يطلُّ نظيفاً على المدينة التي تقبع في قعر الحوض ، بعيداً عن المقالع القديمة ، على الجانب المقابل من الخلاء كانت السيدة فوربس في الحديقة ، وهي امرأة طويلة ذات شعر أبيض ، جاءت ماشية في الممر ، وهي تخلع قفازيها السميكين راكنة مقصها . كان الوقت خريفاً وهي ترتدي قبعة عريضة ذات حواف . احمرَّ برانغوين حتى جذور شعره ، ولم يكن يعرف ماذا يقول ، وقال لها :

ـ فكرّتُ أن أطل عليكِ عندما حللت بـ(ويركسورث) عارفاً أنكِ من أصدقاء أخي

وميزّت في الحال أنه من آل برانغوين ، قالت له :

ـ هل تريد الدخول ، فوالدي نائم .

قادته إلى غرفة الجلوس التي كانت ممتلئة بالكتب ، وثمة بيانو وحامل كمان ، ثم تبادلا الحديث . تحدثت ببساطة وسهولة ، وكانت ممتلئة وقاراً ، وكانت الغرفة من النوع الذي لم يألفه برانغوين من قبل . وبدا الفراغ واسعاً مثل قمة جبل في نظره ، سألها :

ـ أيحبُّ أخي القراءة .

ـ بعض الأشياء . كان يقرأ هربرت سبنسر ، ونحن نقرأ براوننغ* أحياناً .

كان برانغوين ممتلئاً بالإعجاب ، وتملكته دهشة عميقة ؛ إعجاب وقور تقريبا . نظر إليها بعينين مضيئتين عندما قالت نقرأ . وفي النهاية ، انفجر وهو ينظر من حوله في الفراغ :

ـ لم أكن أعرفُ أن لأخي فريد مثل هذه الميول .

ـ إنه رجل استثنائي بكل معنى الكلمة .

نظر إليها دهشاً ، فمن الواضح أن لها تصوراً جديداً عن أخيه ، من الواضح أنها تجلّهُ . نظر إلى المرأة مرة أخرى ، كانت تقترب من الأربعين ، مخلوقة صريحة قليلاً ، غريبة ، منفصلة . لم يكن نفسه مغرماً بها ، إذ أن ثمة شيئاً فيها يثير قشعريرته ، لكنه امتلأ بإعجابٍ لا متناه بها . عندما حان وقت تقديم الشاي ، عرّفته بوالدها ؛ وهو رجل عاجز يحتاج إلى من يساعده ، بيد أنه كان متورد اللون ، حلو المعشر ، ذا شعرٍ بلون الثلج ، وعينين زرقاوين بلون الماء ، وخلق كيّسٍ بسيط ، وهو أمر كان جديداً وغريباً على برانغوين أيضاً ، إذ كان دمثاً جداً ومرحاً جداً وبريئاً جداً . إذن فإن شقيقه عشيق هذه المرأة . كان أمراً مدهشاً جداً . وعاد برانغوين إلى البيت محتقراً نفسه ، بسبب طريقة حياته البائسة ، فلقد كان جلفاً ، فظاً ، معتماً ، منغرزاً في الوحل . وأكثر من إي وقت مضى ، أراد أن يتسلق خارجاً إلى هذا العالم المتحضر الحالم .

كان ميسور الحال ، كان ميسور الحال مثل الفريد الذي ليس بمقدوره أن يكسب أكثر من ستمائة جنيه في السنة بكل الوسائل ، وهو يستطيع أن يكسب أربعمائة ، ويمكن أن يزيدها ، واستثماراته تتحسن كل يوم ، لم لا يفعل شيئاً ، فزوجته سيدة نبيلة أيضا ؟

---

* هربرت سنسر (١٨٢ ـ ١٩٠٢) فيلسوف من المدرسة الواقعية وأحد دعاة التطور ، وروبرت براونبغ (١٨١٢ ـ ١٨٨٩) شاعر ، ربما يوصف في هذا السياق باعتباره «تقدمياً» (المترجم)

لكنه عندما عاد إلى حقل مارش ، أدرك ثبات كل شيء ، وكيف أن شكل الحياة الأخرى كان بعيداً عن متناول يده ، وندم للمرة الأولى لأنه ورث الحقل ، وأحسَّ نفسه سجيناً ، جالساً في أمان وارتياح وطمأنينة . كان بمقدوره ، ببعض المجازفة ، أن يفعل المزيد لنفسه . ليس بمقدوره أن يقرأ براوننغ أو هربرت سبنسر ، وليس بإمكانه الحصول على غرفة مثل غرفة السيدة فوربس ، فكل نمط الحياة ذاك كان بمنأى عنه ، لكنه قال بعد ذلك ، إنه ليس راغباً فيه . وابتدأت إثارة الزيارة تخفت وفي اليوم التالي ، عاد إلى نفسه ، وإذا ما فكر بالمرأة الأخرى ، فلقد كان شيء ما يتعلق بها وبمكانها لم يكن يعجبه ، شيء ما بارد غريب ، كما لو أنها لم تكن امرأة ، بل كائناً لا إنسانياً ، يستعمل الحياة لأغراض باردة تعوزها الحياة .

حلَّ المساء ، ولعب مع آنا ، ثم جلس بعد ذلك مع زوجته وحيدين كانت تخيط ، بينما جلس ساكناً تماماً يدخن مشوشاً . كان واعياً هيئة زوجته الساكنة ، ورأسها الهادئ الغامق ، منحنٍ فوق إبرتها . كان الوضع هادئاً جداً له . كان المكان ساكناً جداً ، وأراد أن يهدَّ الجدران ، ويدع الليل يدخل فلا تكون زوجته آمنة وهادئة ، وهي تجلس هناك . تمنى لو أن الهواء ليس حميماً وضيقاً إلى هذا الحد . كانت زوجته أُزيلت من عالمه ، وكانت في عالمها هادئة مطمئنة ، لا ترى أحداً ولا أحد يراها ، وكان سجينها .

نهض ليخرج فلم يكن بمقدوره أن يجلس ساكناً فترة أطول ، إذ يجب أن يخرج من مأوى المرأة المغلق الكئيب هذا . رفعت زوجته بصرها ونظرت إليه ثم سألته ·

ـ هل أنت خارج ؟

نظر إلى الأسفل فالتقت عيناه بعينيها ، فكانتا أشد ظلاماً من الظلام ، يشعان بفراغ أعمق . أحسَّ بنفسه يتراجع أمامها مدافعاً ، بينما كانت عيناها تتبعانه وتلاحقانه ، قال لها :

ـ كنت أريد الذهاب إلى كوسثي حسب .

ظلت تراقبه ثم قالت :

ـ لماذا تريد الذهاب ؟

ازداد وجيب قلبه ، وجلس ببطء ، وقال لها ، وقد ابتدأ يملأ غليونه مرة أخرى بطريقة آلية ·

ـ ليس هناك من سبب محدد

فقالت له :

ـ لماذا تخرج كثيراً ؟

فرد قائلاً :

ـ لكنك لا تريدينني .

صمتت لحظة ، ثم قالت :

ـ لا تريد أن تبقى معي فترة أطول .

أجفلته بقولها . كيف عرفت هذه الحقيقة ؟ لقد ظنَّ ذلك سِرّه ، فقال لها :

ـ نعم .

وردت قائلة :

ـ تريد أن تجد شيئاً آخر .

فلم يجب ، بل سأل نفسه : أهو كذلك حقا ؟

قالت له :

ـ المفترض أنك لا تحتاج إلى الكثير من الاهتمام ، فإنك لست طفلاً .

ـ أنا لا أتذمر .

رَدَّ عليها ، بيد أنه أدرك أنه كان كذلك .

قالت له :

ـ هل تعتقد أنك لم تحصل على كفايتك ؟

ـ أية كفاية ؟

ـ تعتقد أنك لم تحصل على كفايتك مني ، لكن كيف تعرفني . ما الذي تفعله كي تجعلني أحبك .

اعترته الحيرة ، ورد قائلاً :

ـ لم أقل إني لم أنل كفايتي منك . وأنا لم أعرف أنك تريدين أن أجعلك تحبينني . ماذا تريدين ؟

ـ لم تعد تحسن وصالي ، ولست مهتماً بي ، ولا تجعلني أريدك .

ـ وأنتِ لا تجعلينني أُريدكِ ، أليس كذلك ؟

خيّمَ الصمت بعد ذلك . وكانا غريبين أحدهما عن الآخر تماماً سألته :

ـ هل تريد أن تحصل على امرأة أخرى ؟

تملكته الحيرة ، ولم يكن يعرف مكانه أنى لها ، وهي زوجته ، أن تقول شيئاً مثل هذا ؟ ولكنها جلست هناك ضئيلةً ، وغريبةً ، ومنفصلة . وتراءى له أنها لا تعدُّ نفسها زوجة له ، ما عدا أنهما كانا متفقين على ذلك . إنها لا تشعر أنها قد تزوجته وعلى أية حال فإنها

راغبة في أن تسمح بأن تكون له امرأة أخرى ، وانفتح أمام عينيه فراغ وتجويف ، ورد ببطء ـ أية امرأة أخرى أريد ؟

قالت له :

ـ مثل أخيك .

صمت بعض الوقت خجلاً أيضاً ، وقال :

ـ ماذا بشأنها ؟ لم تعجبني تلك المرأة .

فردت بإلحاح :

ـ أجل ، لقد أحببتها .

حملق دهشاً إلى زوجته إذ تخبره بما في قلبه بتلك الطريقة القاسية ، وكان ساخطاً أي حق لها في أن تجلس هناك وتخبره بهذه الأشياء ؟ لقد كانت زوجته فبأي حق تتحدث معه بهذه الطريقة ، كما لو أنها كانت غريبة ؟ قال لها .

ـ لم أحبها ، أنا لا أريد امرأة أُخرى

ـ أجل ، أنت تود لو تكون مثل الفريد .

كان غضبه من نوع الإحباط الغاضب ، وكان دهشاً . لقد أخبرها بزيارته إلى (ويركسورث) لكن باختصار ودون اهتمام كما ظن كانت عيناها تراقبانه ، غامضتين ، تلفظانه . وابتدأ يعارضها . وكانت مرة أُخرى المجهول الحيّ الذي يواجهه هل عليه أن يسمح لها ؟ وقاوم مجبراً .

قالت له :

ـ لماذا تريد أن تجد امرأة أُخرى تليق بكَ أكثرُ مني ؟

ـ لا أريد .

وأعادت :

ـ لماذا تريد ؟ لماذا تريد أن تتخلى عني ؟

وفجأة ، وخلال ومضة ، لحظ أنها يمكن أن تكون وحيدة ، معزولة ، غير مطمئنة كانت تبدو له مطمئنة وقانعة تماماً ، متخلية عنه . هل يمكن أن تحتاج إلى أي شيء ؟

ـ لماذا لستَ قانعاً بي ، السْتُ قانعةً بكَ ؟ لقد اعتاد بول أن يأتي إليَّ ويتحدث معي مثل ما يفعل الرجل ، أما أنت فتتركني وحيدة ، أو تأخذني مثل ماشيتك ، بسرعة كي تنساني مرة أُخرى ، كي تستطيع أن تنساني مرة أُخرى

قال برانغوين :

ـ ما الذي أتذكره منكِ ؟
ـ أُريدك أن تعرف أن ثمة شخصاً آخر غير نفسك .
ـ ألا أعرفُ ذلك ؟
ـ عندما تأتي إليَّ فكما لو أنك تأتي إلى لا شيء ، كما لو أني لا شيء هناك وعندما كان بول يأتي إلي ، كنت شيئاً بالنسبة إليه . لقد كنتُ امرأة أما بالنسبة إليك ، فأنا لا شيء ، أنا مثل الماشية ، أو أي شيء آخر .
قال لها :
ـ أنت تجعلينني أشعر كأني لا شيء .
خيّم الصمت بعد ذلك . وكانت تراقبه ، ولم يكن بمقدوره أن يتحرك ، كانت روحه تغلي وتتخبط . وعادت إلى خياطتها مرة أخرى ، لكن منظر انحنائها أمامه أمسك به ، ولن يحرره . كانت شيئاً غريباً ، عدائياً ، مُسيطراً . ومع ذلك ، لم تكن عدائية تماماً ، وعندما جلس أحسَّ أن أطرافه قوية صلبة ، فجلس بعزم .
صمتت فترة طويلة من الزمن ، وهي تدرز . وكان شاعراً بصورة لا تقبل اللبس ، بشكل رأسها المدور ؛ حميماً جداً ، رافضاً ، مجبراً . رفعت رأسها ، وتنهدت ، واحترق الدم في داخله . وركض صوتها فيه ، مثل النار ، فقالت غير واثقة :
ـ تعال هنا .
لم يتحرك ، لحظة ، ثم نهض بعد ذلك ببطء ، وسار عبر الموقد . ولقد تطلب ذلك منه جهداً مميتاً من الإرادة أو الإذعان . وقف أمامها ، ونظر إلى الأسفل باتجاهها ، وأبتدأ وجهها يتلألأ من جديد ، وكانت عيناها تبرقان مثل ضحكة رهيبة . كان أمراً فظيعاً له أن يلاحظ الطريقة التي تتغير بها هيئتها . ولم يكن بمستطاعه أن ينظر إليها ، إذ كانت تحرق قلبه ، وقالت :
ـ حبيبي!
ووضعت ذراعها حوله ، بينما كان يقف أمامها ، حول فخذيه ، ضاغطةً إياه على صدرها . وبدا كأن يديها المستقرتين عليه تكشفان له ، كان عاشقاً حنوناً لنفسه ، ولم يستطع أن يتحمل النظر إليها ، قالت له .
ـ عزيزي!
كان يدرك أنها تتحدث لغة أجنبية ، وكان الخوف مثل سعادة في قلبه . نظر إليها ، وكان وجهها يتلألأ ، وعيناها ممتلئتين بالضياء . كانت بغيضة ، وعانى من رفضه لها كانت المجهول البغيض ، فانحنى عليها ، معانياً ، غير قادرٍ على تحريرها ، وغير قادر على تحرير

نفسه ومع ذلك ، كان منشدهاً ، مستغرقاً . إنها المتحولة الآن ، وكانت رائعة غير أنها لم تكن في متناول يده . لقد أراد أن يذهب ، لكنه لم يستطع أن يقبلها حتى الآن . كان ممزقاً ، وكان أسهل عليه أن يقبّل قدميها ، لكنه كان خجلاً جداً من المهمة الحقيقية التي كانت مثل إهانة ، انتظرته كي يلاقيها ، لا لينحني أمامها ويخدمها . أرادت مشاركته الفعالة ، استسلامه . وضعت أصابعها عليه ، وكان ذلك تعذيباً بالنسبة إليه أن يسلّم نفسه لها بحيوية ، يساهم فيها ، وأن عليه أن يلاقيها ويعانقها ويعرفها ، هي التي كانت شيئاً آخر غير نفسه . كان في داخله ذلك الشيء الذي يتشنج من الاستجابة لها ، مقاوما الاسترخاء تجاهها ، معارضاً الاختلاط معها حتى عندما يكون في أشد حالات الرغبة فيها كان خائفاً وأراد أن ينقذ نفسه .

مرت بضع لحظات من الصمت ، ثم ابتدأ التوتر الذي كان يمسك به بالاسترخاء في داخله تدريجاً ، وابتدأ ينساب تجاهها ، ولم تكن في متناول يده . كانت المرأة التي لا يمكن الحصول عليها ، بيد أنه أطلق إسار نفسه ، وتخلى عنها ، وعرف القوة التحتية لرغبته في أن تتجه نحوها ، وأن يكون معها ، أن يختلط بها ، وأن يفقد نفسه كي يجدها ، أن يجد نفسه فيها ، وابتدأ يقترب منها ، ويتقدم نحوها . خفق دمه في موجات من الرغبة ، أراد أن يأتي إليها ، ويلتقي بها . وكانت هناك إن استطاع الوصول إليها ، وقد امتصته حقيقتها التي لم تكن في متناوله . أعميَ ومحطماً ، تقدم إلى الأمام ؛ أقرب فأقرب كي يستلم اكتمال نفسه ، وأن يستلمه الظلام الذي يجب أن يبتلعه ويسلمه لنفسه ، لو استطاع حقاً أن يأتي في سويداء الظلام المتوهجة ، لو يمكن أن يُدمّر حقاً ، أن يحُرق حتى يضيء معها في اكتمالٍ واحدٍ ، لكان ذلك رائعاً ، رائعاً .

كان لقاؤهما الآن معاً ، بعد سنتين من الحياة الزوجية ، أكثر روعة لهما ، أكثر من أي وقت مضى كان الدخول إلى دائرة وجود أُخرى كان تعميداً لحياةٍ أُخرى . وكان التوكيد المكتمل . وخطت أقدامهما على أرض معرفة غريبة ، وكان وقع أقدامهما يُضاء بالاكتشاف . وحيثما سارا ، كان كل شيء يبدو حسناً وردد العالم من حولهما في اكتشاف ، وذهبا سعيدين ، ناسيين . ضاع كل شيء ، ووجد كل شيء . اكتُشف العالم الجديد ، ولم يتبق إلاّ أن يستطلعاه

اجتازا البوابة إلى فضاء أرحب ، حيث كانت الحركة كبيرة جداً ، حتى أنها احتوت على أواصر ومثبطات وجهود . ومع ذلك ، ظلت حرية كاملة . كانت بوابته ، وكان بوابتها ، وأخيرا فتحا الأبواب على مصاريعها ؛ أحدهما للآخر . ووقفا عند الأبواب ، متواجهين ، بينما كان الضوء ينهمر من خلفهما ، وعلى وجهيهما . لقد كان ذلك التحول ، والتمجيد ، والقبول .

ودائماً كان ضوء التحول يحترق باستمرار في قلبيهما ، وذهب في طريقه مثل ما كان ، وذهبت في طريقها ، ولم يكن على ما يبدو ثمة تغيير لدى بقية العالم ، بل لهما كليهما ، كانت هناك معجزة التحول الأزلية .

لم يعرفها على نحو أفضل ، أو أكثر دقة في الماضي ، أما الآن فأنه يعرفها جملة ؛ بولونيا وزوجها ، والحرب . لم يفهم المزيد من هذا في داخلها ، ولم يفهم طبيعتها الأجنبية ؛ نصفها الألماني ونصفها الآخر البولوني ، أو حديثها الأجنبي ، لكنه عرفها ؛ عرف معناها ، دون أن يفهم ما تقول ، وما تنطق به . كان هذه إيماءة عمياء من جانبها ، وفي داخلها . مشت قوية ، وواضحة كان يعرفها ، ويحييها ، وكان معها . ما كان ذكرى ، بعد كل شيء ، غير عدد الإمكانات التي لم تلب ؟ وماذا كان بول لينسكي غير إمكانية لم تلب ، والذي كان لها ؛ هو برانغوين الواقع والتلبية ؟ لكن ماذا يهم إن كانت آنا قد ولدت من ليديا وبول ؟ كان الله أباها وأمها ، لقد مر خلال زوجين دون أن يدعهما يشعران بوجوده .

أما الآن ، فلقد أعلن لبرانغوين وإلى ليديا برانغوين بينما يقفان معاً ، عندما وضعا أيديهما معاً في النهاية . كان البيت انتهى* وأخذ الرب مقامه ، وكانا سعيدين .

مرت الأيام مثل ما كانت عليه . كان برانغوين يخرج إلى عمله ، بينما كانت زوجته تعتني بطفله ، وترعى إلى حد ما الحقل . لم يكونا يفكران أحدهما في الآخر ، ولماذا يفعلان ذلك ؟ عندما تَلْمَسه فقط ، كان يعرفها في الحال . كانت معه ، قريبة منه ، وهي بوابته ، وطريق خروجه ، وإنها ماوراء إمكاناته ، وإنه كان مسافراً خلالها عبر الماوراء . إلى أين ؟ كان يستجيب دائماً عندما تناديه ، ويجيبها . وعندما يسألها ، كانت استجابتها إما أن تأتي في الحال أو في نهاية المطاف .

وضعت روح آنا بينهما في سلام . كانت تجيل بصرها بينهما ، وكانت تراهما متضامنين من أجل أمانها . وكانت حرة . كانت تلعب بين عمود النار وعمد السحاب بأمان** بعد أن ضمنت الاطمئنان على ميمنتها ، والاطمئنان على ميسرتها . لم يعد ينادى عليها كي تمسك بقوتها الطفولية نهاية القوس المكسور ، فوالدها وأمها يلتقيان الآن كي يسندا امتداد السماء ، وهي الطفلة ، حرة في أن تمرح في الفراغ تحتهما وبينهما .

---

* قارن مع سفر الملوك ، لقد خلق السيد المسيح معبدا دون استعمال يديه في أرواح المؤمنين وأجسادهم (المترجم)
** سفر الخروج . (المترجم)

الفصل الرابع

صبا آنا برانغوين

عندما بلغت آنا سن التاسعة عشرة ، أرسلها برانغوين إلى مدرسة تديرها معلمة في كوسثي . وهناك استمرت تتشقلب وترقص بطريقتها التي يعوزها الاتساق ؛ تعمل الأشياء مثل ما تحبُ ، مثيرة حيرة الآنسة كوتس العجوز ، بسبب لامبالاتها تجاه الاحترام ، وافتقادها التبجيل . كانت آنا تكتفي بالسخرية من الآنسة كوتس حسب . وقد أحبّتها ورعتها بطريقة طفولية رائعة .

كانت الطفلة خجلى ومتوحشة في آن ، تزدري بطريقة غريبة السوقة من الناس ، ويتملكها إحساس بتفوق خيّر كانت خجلى جداً ، تمزقها التعاسة عندما يحبها الناس ومن جانب آخر لم تكن تهتم إلاّ قليلاً بأي شخص باستثناء أُمها ، التي لم نزل تعبدها بامتعاض ، ووالدها الذي كانت تحبُ وترعى . لكن هذين الاثنين اللذين تعتمدُ عليهما ، كانا يقيدانها مقابل أتعابهما ، بيد أنها كانت مترفعة عن الآخرين ، الذين تتخذ منهم بشكل عام ، موقفاً مجبولاً على حبّ الخير . ومع ذلك كانت تكره القبح أو التطفل أو التكبر بعمق ، وكطفلة كانت متكبرة وظليلة ومتحفظة مثل نمر ، باستطاعتها أن تمنح العطف بيد أنها لم تكن تقبل عطف أحد باستثناء أمها وأبيها . وكانت تكره الناس الذين يبالغون في التقرب إليها ، ومثل مخلوق متوحش ، كانت تريد الإبقاء على مسافة ، فلم تكن لتثق بالألفة الشديدة .

وفي كوسثي واليكستون كانت غريبة تماماً ، كان لها الكثير من المعارف ، لكن لم يكن لديها أصدقاء ، وهناك قلة جداً من الناس الذين كانت تلتقيهم ممن كانت لهم أهمية لديها . كانوا يبدون جزءاً من قطيع ، غير متميزين . ولمْ تكن تأخذ الناس مأخذ الجد .

أصبح لها أخوان اثنان ، توم وهو غامق الشعر ، ضئيل البنية ، متقلب المزاج ، كانت ترتبط به بصورة حميمية ، بيد أنها لم تكن تختلط به أبداً ، وفريد ، أشقرُ ، حساسٌ كانت تعبده ، لكنها لا تعده كائناً حقيقياً منفصلاً . كانت مركز كونها ، ولم تكن تشعر بالخارج إلاّ قليلاً .

كان الشخص الأول الذي التقته ، فأثر فيها باعتباره شخصاً حقيقياً حياً ، والذي اعتبرت أن له وجوداً محدداً هو البارون سكربينسكي ؛ صديق أُمها ، وهو مهاجر بولوني أيضاً ، كان يأخذ الأوامر من السيد كلادستون* ويحصل على ما يوفر له حياة ريفية بسيطة في يوركشاير . عندما كانت آنا في نحو العاشرة من عمرها ، ذهبت مع أمها كي تقضي بضعة أيام مع البارون سكربينسكي ، وكان تعيساً جداً في بيته المشيّد من القرميد الأحمر . وكان يعمل خورياً لكنيسة القرية ، ويقتات بما لا يتجاوز المائتي جنيه في السنة ، بيد أنه كان يتولى أمور أبرشية كبيرة ، تضمُ العديد من المناجم ، سكانها جدد ، وخام ، ووثنيون . ولقد ذهب إلى شمال إنكلترا متوقعاً التقدير من الناس البسطاء ، لأنه كان أرستقراطياً ، لكنهم عاملوه بخشونة ، بل بقسوة ، بيد انه لم يفهم ذلك أبداً ، وظل أرستقراطياً ، متحمساً . وجُلّ ما تعلمه هو أن يتجنب أفراد أبرشيته .

كانت آنا معجبة كثيراً به . وكان رجلاً ضئيلاً ، ذا وجه صارم ، مجعد قليلاً ، وعينين زرقاوين عميقتين ، ومتوهجتين ، بينما كانت امرأته طويلة ، نحيفة ، تنحدر من عائلة بولونية ، نبيلة ، مجنونة بالكبرياء . وهو مازال يتحدث بإنكليزية ضعيفة ، ذلك لأنه بقي قريباً جدا من زوجته وكلاهما مهجور في تلك البلاد الغريبة المعادية . وكانا يتحدثان البولونية معاً . ولقد خاب أمله من إنكليزية السيدة برانغوين الطبيعية الهشة ، وخاب أمله جداً عندما عرف أن ابنتها لا تعرف البولونية .

أحبّت آنا أن تراقبه ، وأحبت مقر الخوري الكبير الجديد ، متعدد الغرف والدهاليز ، الذي كان منعزلاً ، وعارياً على تلة كان مكشوفاً جداً ، معتماً جداً ، واضحاً جداً مقارنة بحقل مارش . وتحدث آل بارون دون توقف بالبولونية مع السيدة برانغوين ، وأومأ إيماءات غاضبة بيديه ، وكانت عيناه الزرقاوان ممتلئتين بالنار أما آنا ، فكانت ترى أهمية لحركاته الحادة ، المندفعة . واستجاب شيء ما في داخلها لتطرفه ، ومسلكه المتحمس ، وعدّته

---

* وليم إيورات كلادستون (٩ ١٨ ـ ١٨٩٨) رجل دولة ورئيس وزراء في بريطانيا . (المترحم)

رجلاً رائعاً ، وكانت خجلى منه . وأحبّت أن يتحدث معها ، إذ كان ينتابها إحساس من الحرية عندما تكون قريبة منه

لا يمكنها أن تفسر كيف عرفت الأمر ، بيد أنها عرفت أنه فارس مالطه* ، ولم يكن بمقدورها أن تتذكر أبداً إن كانت نجمته ، أو صليبه ، أو وسامه ، أم لا ، ولكن الأمر كان يومض في ذهنها مثل رمز   وعلى أية حال ، كان يمثل للطفلة العالم الحقيقي حيث يتحرك الملوك والأسياد والأمراء ، ويملأون حياتهم المشرقة ، في حين كانت الملكات والسيدات النبيلات والأميرات يحافظن على المرتبة النبيلة .

لقد أدركت أن البارون كربينسكي شخص حقيقي ، وأنه يكنُّ لها قدراً من الاحترام ، لكنها عندما لا تراه فترة طويلة من الزمن ، يضمحل في ذاكرتها ، ويصبح مجرد ذكرى ، لكنها ذكرى حية دائماً في تصورها . أصبحت آنا فتاة طويلة خرقاء ولما تزل عيناها غامقتين وسريعتين جداً ، بيد أنهما أصبحتا لامباليتين ، وفقدتا نظرتهما العدائية الحذرة ، وتحول شعرها المتوحش المجدول إلى لون بني ، وأصبح أشدّ كثافة ، وعقدته إلى الخلف   ولقد أُرسلت إلى مدرسة للآنسات النبيلات في نوتنغم .

وفي هذه الفترة ، حزمت أمرها على أن تصبح شابة نبيلة . كانت ذكية بما فيه الكفاية ، لكنها لم تكن تهتم كثيراً بالتعلم . وفي البداية اعتقدت أن كل الفتيات الموجودات في المدرسة نبيلات رائعات ، ورغبت في أن تقتدي بهن ، ولكنها وصلت إلى وهم سريع ، فلقد كُنَّ يناكدنها ، ويثرن جنونها ، إذ كن تافهات ، وضيعات . وبعد الجو المتسامح ، الكريم ، في بيتها ، حيث لا تعدُّ عليها الأشياء الصغيرة ، أصبحت منزعجة دائماً في العالم الذي يعض ويلدغ عند وقوع أي أمر تافه .

وحلَّ تغير سريع في داخلها ، فلم تعد تثق بنفسها ولا بالعالم الخارجي . ولم ترد أن تستمر ، ولم تكن ترغب في الخروج إليه . ولم تكن تريد الذهاب إلى أي مكان   وكانت تقول لأبيها بازدراء .

ـ لماذا أهتم بذلك الحشد من الفتيات ، إنهن لا شيء ؟

لكن المشكلة أن الفتيات لم يكن يقبلن آنا بكل مقاييسها . كن يردنها وفق مقاسهن وإلا فلا ، لذلك كانت مرتبكة ، ومغوية ، وأصبحت مثلهن فترة من الزمن . ومن ثم ، وفي ردة فعل مفاجئة ، كرهتهن بعنف   وكان والدها يقول لها .

---

* عضو منظمة عسكرية دينية تأسست في القدس في القرن الثاني عشر ، وأُعيد تأسيسها كجمعية شرَفية عام ١٨٧٩ من قبل (ليو الثالث عشر) (المترجم)

ـ لماذا لا تدعين بعضاً من صاحباتك إلى هنا ؟

فكانت تصرخ .

ـ إنهنَّ لا يأتين إلى هنا .

ـ ولم لا ؟

وكانت تردُّ مستعملة إحدى عبارات أمها النادرة :

ـ لأنهن تافهات .

ـ سواء كن تافهات أو بليارد* ، فإن ذلك لا يهم ، فإنهن فتيات شابات لطيفات بما فيه الكفاية .

ولكن لم يكن من السهل الفوز على آنا ، فلقد كان عندها انكماش من السّوقة من البشر وخصوصاً من شابات زمانها ، فلم تكن تذهب صحبتهن بسبب الإحساس بالانزعاج الذي يسببه الآخرون لها . ولم يكن بمقدورها أبداً ، أن تقرر إن كان الخطأ منها أو منهن . كانت تكاد أن تحترم أولئك الآخرين ، وكان الوهم المستمر يكاد يفقدها عقلها . كانت تريد أن تحترمهم . وكانت تعتقد أن الناس الذين تعرفهم رائعون ، وان أولئك الذين تعرفهم ، كانوا يضيقون الخناق عليها دائماً ، ويجهدونها في أكاذيب صغيرة تزعجها ، الى درجة تفوق قدرتها على التحمل ، لذلك كانت تفضل البقاء في البيت ، وتتجنب بقية العالم ، تاركةً إياه متوهماً ، ذلك لأن الحياة في حقل مارش ، كان لها حقاً حرية واتساع عظيمان فلم يكن هناك قلق بشأن النقود ، وليس هناك تدافع جشع هزيل ، ولا أهمية لما يعتقده الآخرون ، ذلك لأن السيدة والسيد برانغوين قادران على إدراك أي قرار يمر أمامها من الخارج ، فلقد كانت حياتهما منفصلة جدا .

لذلك كانت آنا مرتاحة في البيت حسب ، حيث ينتج التعقل والعلاقة السامية بين والديها ، مقياساً للوجود أكثر حرية من أي مكان آخر في الخارج . إذ أين خارج حقل مارش ، يمكن أن تجد الوقار المتسامح الذي ربيت عليه ؟ كان والدها يقفان محتفظين بقوتيهما ، وغير شاعرين بالنقد . أما الناس الذين كانت تلتقيهم في الخارج ، فكأنهم يحسدونها على وجودها المجرد وكأنهم يريدون أن يصغّروها أيضاً ، وكانت رافضة تماماً أن تختلط بهم . كانت معتمدة على أمها وأبيها ، ومع ذلك ، أرادت الخروج .

---

* هذا تلاعب بالألفاظ إذ أن كلمة Bagatelle لها معنيان ، فهي تدلُّ على لعبة تسمى (الطاولة) شبيهة بالبليارد وقد تعني أمراً أو شيئاً تافهاً (المترجم)

في المدرسة ، أو في العالم ، كانت على خطأ عادة . أحسّت أن عليها أن تنسلّ خلسة ، مجللة بالعار لم تكن متأكدة أبداً داخل نفسها إن كانت على خطأ ، أو أن الآخرين هم المخطئون . إنها لم تحضّر دروسها ، حسنٌ ، إنها لم ترَ سبباً يجعلها تحضر دروسها ، إذا لم تكن راغبة في ذلك . هل هناك سبب سحري يجعلها تفعل ذلك ؟ هل أولئك الناس ، ومديرات المدارس ، ممثلون لحق صوفي ، قوة خير عليا من نوع ما ؟ إنهم يبدون كأنهم يظنون أنفسهم هكذا ، لكنها مقابل حياتها لا ترى سبباً يجعل امرأة تتنمر عليها ، وتهينها لأنها لا تعرف ثلاثين سطراً من مسرحية «مثل ما تحبها»* ، فبعد كل شيء ، وسواء كانت تعرفها أم لا ، فلا شيء يمكن أن يقنعها بأن لهذا أدنى أهمية ، لأنها كانت تحتقر في داخلها الطبيعة العاملة الخشنة للمديرة ، لذلك كانت دائماً في إجازات دون إذن ومن الحديث المستمر ، ابتدأت تعتقد تقريباً برداءتها ، ودونيتها الغرزيّة ، لذلك أحسّت أن عليها دائماً أن تكون في حالة خزي صامت ، إذا لبت ما يتوقع منها ، لكنها تمردت فلم تكن تؤمن أبدا برداءتها . ففي سويداء قلبها ، كانت تحتقر الآخرين الذين يعيبون ويرفعون أصواتهم بصدد أمر تافه . كانت تحتقرهم ، وأرادت أن تنتقم منهم ، ولقد كرهتهم بينما كانوا يمتلكون سلطة عليها .

ومع ذلك ، حافظت على مثال أعلى ؛ سيدة حرة متفاخرة في حلٍ من القيود التافهة ، نعيش ما وراء التصورات التافهة وكانت ترى مثل أولئك السيدات في الصور . وكانت ألكسندرا أميرة ويلز من نماذجها . كانت تلك السيدة متفاخرة ، وملكية . وكانت تدوس بلامبالاة على كل الرغبات الضئيلة الوضيعة . هكذا فكرت آنا في داخل قلبها ، ورتبت الفتاة شعرها مكللاً تحت قبعة صغيرة مائلة . وكانت تنوراتها تتجمع نحو الأعلى وفق الموضة ، كما ارتدت سترة أنيقة ضيقة كان والدها مسروراً بها أيما سرور .

وكانت آنا متفاخرة جدا بموقفها ، لا مبالية على نحو طبيعي جدا بالروابط الصغيرة لكي ترضي اليكستون التي كانت تود أن تذلها ، ولكن برانغوين لم يكن يضمر أمراً مثل هذا ، فإذا ما اختارت أن تكون ملكية فملكية ستكون ، ووقف مثل الصخرة بينها وبين العالم . ومثل بقية أفراد العائلة أصبح بديناً وسيماً وكانت عيناه الزرقاوان ممتلئتين بالضوء ، تطرفان إحساساً ، وكان سلوكه متعمداً ، بيد أنه كان ودوداً ودافئاً ، كما أن قدرته على الحياة دون اهتمام من جيرانه جعلتهم يجلّونه ، وكانوا مستعدين لفعل أي شيء

---

* مسرحية لوليم شكسبر (المترجم)

من أجله ، لكنه لم يكن يهتم بهم ، بيد أنه كان كريماً تجاههم ، وبذلك حققوا ربحاً من استعدادهم للمساعدة . لقد كان يحب الناس ماداموا في الخلفية .

واستمرت السيدة برانغوين في حياتها بطريقتها الخاصة كان لها زوج وولدان فضلاً عن آنا . لقد تكوم هؤلاء ووسموا أفقها ، أما الآخرون فلقد كانوا خارجيين . ففي داخل عالمها كانت الحياة تمر مثل حلم في نظرها . كانت تمرُّ ، وكانت تعيش في مرورها ؛ نشيطة ومسرورة دائما ، ومتنبهة . ومن النادر أن تلاحظ الأشياء الخارجية على الإطلاق ، فما كان خارجياً هو خارجي ؛ غير موجود . ولم تكن تهتم إذا ما تقاتل الصبيان ، مادام ذلك في غيابها ، لكن إذا تقاتلا عندما تكون حاضرة ، فإنها تغضب . وكانا يخافان منها ، ولم تكن تهتم إذا ما كسرا شباك عربة القطار أو باعا ساعتيهما ، لكي يمرحا في معرض الإوز . وربما كان برانغوين يغضب من مثل هذه التصرفات ، أما الأم فلم تكن تهتم . كانت أشياء صغيرة غريبة تلك التي تزعجها . كان غضبها يشتد عندما يتسكع الصبيان حول المسلخ ، وكانت تنزعج عندما تكون علاماتهما واطئة في المدرسة ، فلم يكن يهمها عدد الأخطاء التي يتهم ولداها بارتكابها ، ماداما ليسا غبيين أو دونيين . فإذا ما ظهر أنهما يتحملان الإهانة ، فلقد كانت تكرههما ، ولم يكن يزعجها من جانب آنا إلاّ نوع من عدم الكياسة والرعونة ، وكانت أنواع معينة من الخرق والابتذال تجعل عيني الأم تتوهجان بغضب غريب ، وباستثناء ذلك ، كانت سعيدة لامبالية .

وتقليداً لمثالها في السيدة النبيلة الرائعة ، أصبحت فتاةً متغطرسة في السادسة عشرة ، منزعجة من مثالب العائلة . وكانت حساسة جداً تجاه والدها ، إذ كانت تعرف أنه كان يشرب ، حتى إن لم يؤثر فيه ذلك إلاّ قليلاً . ولم تكن تطيق ذلك . وكان يحمر عندما يشرب ، وتنتفخ أوردة صدغيه ، ويكون هناك طرف وصخب شهم في عينيه ، ويكون مسلكه مستبداً ، جذلاً ومستهزئاً . وكان ذلك يثير غضبها . وعندما تسمع سخريته الشهمة الصاخبة الهادرة ، تمتلئ بغضب رافض ، وكانت سريعة في إحباطه لحظة دخوله . كانت تصرخ به :

ـ منظرك يبدو غريباً ، فوجهك أحمر

وكان يرد قائلاً :

ـ قد أبدو في مظهر أسوأ لو كنتُ أخضر اللون .

ـ كنت تثمل في اليكستون .

ـ وما عيب اليكستون ؟

وكانت تنتفض ، ويراقبها بعينين مسرورتين طارفتين . ومع ذلك ، كان حزيناً رغما عنه ، لأنها أهانته . كانوا عائلة غريبة ، وكانوا قانوناً لأنفسهم ، منفصلين عن العالم ، منعزلين ، جمهورية صغيرة مؤسسة بأواصر غير مرئية . كانت الأم لا مبالية تماماً بشأن اليكستون وكوسثي ولا بأي مزاعم تثار بشأنها من الخارج . كانت خجلى من أي زائر خارجي ، دمثة إلى حد كبير ، بل حتى فاتنة . لكن في اللحظة التي يغادر فيها الزائر ، تضحك وتطرده فلا يعود موجوداً كان كل ذلك تسلية بالنسبة لها ، فهي ماتزال غريبة ، غير واثقة من الأرض تحت قدميها ، أما وحدها مع أطفالها وزوجها في حقل مارش ، فإنها كانت سيدة أرض بدائية صغيرة ، لا يعوزها شيء .

كانت تؤمن بأشياء معينة ، لا يمكن تحديدها مطلقاً . لقد ربيت باعتبارها رومانية كاثوليكية ، ولقد التجأت إلى الكنيسة في إنكلترا طلبا للحماية ، فالشكل الخارجي لم يكن مهماً بالنسبة لها ومع ذلك ، كان عندها دين أساسي ، كان الأمر كما لو أنها تعبد الرب باعتباره شيئا غامضا ، لا تحاول مطلقاً أن تعرف كنهه .

وفي داخلها ، كان الإحساس الحاذق بالمطلق العظيم حيث كان وجودها قوياً جداً . ولم تؤثر العقيدة الإنكليزية فيها مطلقاً ، فلقد كانت اللغه غريبة عليها تماما ، وخلال ذلك كله ، أحسّت بالفاصل العظيم الذي يمسك الحياة بين يديه ، وامضاً أقرب من حبل الوريد ، رهيباً ، وأن السر الأعظم فوري بشكل لا يُمكن وصفه .

ولقد أشرقت وومضت للسر الذي كانت تعرفه بكل جوارحها ، ولمحته بسحر صوفي غريب لا يمكن التعبير عنه في اللغة الإنكليزية ، ولم تحاول أبداً أن تفكر بالإنكليزية ، بيد أنها عاشت على ذلك النحو باعتقاد حسّي راسخ شمل عائلتها واحتوى قدرها .

وإلى هذا ضاءلت زوجها ، فلقد عاش معها لامبالياً تماماً بقيم العالم العامة ، إذ كانت أساليبها الخاصة وعلامات حاجبيها في حد ذاتها رموزاً واشارات له . وهناك عاش معها في الحقل خلال خفايا الحياة والموت والخلق برضا عميق نشوي لا يمكن التواصل معه ، لا يعرف عنه بقية اِلبشر شيئاً ، وهو الذي فصل بين الاثنين ، واحترم في القرية الإنكليزية لأنهما كانا موسرين أيضاً

ولكن آنا لم تكن إلاّ نصف مطمئنة بمعرفة أمها المجردة من التفكير . كانت عندها مسبحة من عرق اللؤلؤ تعود في الأصل لوالدها ، ولم يكن بمقدورها أن تعبر عما تعني لها ، لكن مسبحة ضوء القمر والفضة عندما تسبح بها بين أصابعها ، تملأها بهوى غريب . ولقد

تعلمتْ في المدرسة قليلاً من اللاتينية ، وتعلمت صلاة أمنا مريم والصلاة الربانيّة ، وتعلمت كيف تقول صلاتها على خرزة المسبحة ، لكن ذلك لم ينفع .

«السلامُ عليكِ يا مريم يا ممتلئة نعمةً ، الربُّ معكِ ، مباركةٌ أنتِ في النساء ، ومباركةٌ ثمرة بطنكِ يسوع المسيح ، يا قديسة مريم ، يا والدة يسوع ، صلي لأجلنا ؛ نحن الخطاة ، الآن ، وفي ساعة موتنا ، آمين»

لم تكن تلك صحيحة بطريقة ما . فما كانت هذه الكلمات تعنيه لم يكن ما قصدته المسبحة الشاحبة بالضبط . كان هناك تناقض وزيف ، ولقد أزعجها أن تقول : «الرب معكِ ، مباركةٌ أنتِ في النساء» . ولقد أحبّت الكلمات الصوفية : «أمنا مريم القديسة ؛ مريم» ، وتأثرت بعبارة «ومباركة ثمرة بطنك يسوع» ، و«وفي ساعة موتنا» . بيد أن أياً من ذلك ، لم يكن حقيقياً تماماً . ولم يكن مقنعاً بطريقة ما .

تجنبت مسبحتها لأن تسبيحها بها بهوى غريب مثل ما فعلت ، كان لا يعني سوى تلك الأشياء التافهة ، لذلك ركنتها كانت غريزتها هي التي تبعد كل هذه الأشياء كانت غريزتها هي التي تجعلها تتجنب التفكير ، وأن تتجنبه ، أن تنقذ نفسها .

أصبحت في السابعة عشرة ، سريعة الغضب ، ممتلئة بالنزوات ، متقلبة المزاج جداً ، سريعة الغضب ، ومنزعجة ، وقلقة طوال الوقت . ولسبب أو آخر ، اتجهت أكثر صوب والدها ، إذ كانت تشعر بنوبات مما يشبه الكره تجاه أمها ؛ كَبْت أمها المظلم ، وطرقها الخفية الغريبة ، ثقة أمها ، ووثوقها التام ، رضاها الغريب ، بل حتى انتصارها ، طريقة أمها في الضحك على الأشياء ، وتجاهل أمها الصامت للاقتراحات المغيظة . وكانت معظم قدرة أمها المنتصرة تطيّر صواب الفتاة .

أصبحت سريعة الغضب لا يمكن توقع تصرفاتها . وكانت غالباً ما تقف في الشباك تنظر إلى الخارج ، كما لو أنها تودُّ الخروج . وفي بعض الأحيان ، كانت تذهب فتختلط مع الناس ، بيد أنها كانت تعود دوماً إلى البيت غاضبة ، كما لو أنها تضاءلت وصغرت ، كأنها أُهينت تقريباً .

خيّم على البيت نوع من الصمت والكثافة المظلمين أدّى فيها الهوى قراراته الحتمية . كان في البيت نوع من الغنى ، وتبادل عميق مبهم جَعَل الأماكن الأُخرى تبدو هزيلة ولا مقنعة . كان بإمكان برانغوين أن يجلس صامتاً ، يدخن في كرسيّهِ ، وكان بمقدور الأم أن تتحرك بطريقتها الهادئة الخفيفة ، وكان الإحساس بوجود الاثنين قوياً وثابتاً ، كان الحضور بأكمله أبكم وكثيفاً وحميماً ، ولكن آنا كانت مضطربة . أرادت أن تذهب بعيداً ، ومع

ذلك ، فإنها أنّى ذهبت ، كان يتملكها ذلك الإحساس بالهزال ، كما لو أنها خُلقت أصغر وأضأل ، فكانت تتعجل العودة إلى البيت

وهناك كانت تتور وتقاطع التبادل القوي المستقر وفي بعض الأحيان ، كانت أمها نستدير نحوها بغضب عنيف مدمّر لا أثر فيه لشفقة أو اعتبار ، فكانت آنا تنكمش خائفة ، وربما كانت تلتجئ إلى والدها ، وكان ما يزال يصغي إلى الكلمة المحكية التي تسقط عقيمة على الأم اللامبالية . وفي بعض الأحيان ، كانت آنا تتحدث إلى والدها ، وتحاول أن تُناقش مسلك الناس ، وتريد أن تعرف ما المقصود منه ، لكن والدها كان ينزعج ، فلم يكن يريد أن تسحب الأشياء إلى الوعي ، فلم يكن يصغي إليها إلاّ خارج الوعي. وكان هناك نوع من الإثارة العدائية في الغرفة . نهضت القطة ، ومطّت نفسها ، وتوجهت قلقة نحو الباب . كانت السيدة برانغوين صامتةً ، وبدت منذرة بالسوء

ولم تكن آنا قادرة على الصبر على تصيدها الأخطاء ونقدها وتعابير عدم الرضا التي تظهرها ، بل أحستّ أن والدها ؛ حتى والدها ، يقف ضدها . كانت له آصرة قوية مظلمة مع أمها ، الفة فعالة موجودة ومبهمة ومتوحشة ، تتبع مجراها الخاص ، وتكون متوحشة لو قوطعت أو كُشفت . ومع ذلك ، كان برانغوين قلقاً بشأن الفتاة ، واستمر البيت بأكمله مشوشاً . كان لها مظهر مرضي محير ، وكانت عدائية تجاه والديها حتى وهي تعيش بينهما ، وتحت تأثيرهما .

جرّبت طرقاً عديدة للهرب ، وأصبحت مترددةً مواظبةً على الكنيسة ، بيد أن اللغة لم تكن تعني شيئاً لها ، إذ كانت تبدو زائفة . كانت تكره سماع الأشياء التي يُعّبر عنها وتصاغ في كلماتٍ ، بينما كانت المشاعر الدينية في داخلها مؤثرة على نحو حنون ، لكنها في فم القس كانت تبدو زائفة وتفتقد الوقار . حاولت أن تقرأ ، لكن مرةً أخرى ، أبعدها الضجر والإحساس بزيف الكلمة المنطوقة أبعداها عن ذلك ذهبت لتعيش مع صديقةٍ لها وفي البداية أحستّ أن الأمر رائع ، لكن بعد ذلك ، جاء الملل الداخلي ، وبدا كل شيء خاوياً ، وكانت تشعر دوما بالضآلة ، كما لو أن ليس بمقدورها أبداً أن تشُدّ قامتها ، وتخطو خطواتها .

كان ذهنها غالباً ما يرتد إلى زنزانة تعذيب أحد أساقفة فرنسا التي لا يستطيع الضحية أن يقف أو يضطجع متمدداً فيها أبداً ، ليس لأنها كانت تفكر بنفسها بأي ترابط مع هذا ، لكن غالباً ما يتوارد إلى ذهنها العجب عن الكيفية التي بنيت بها تلك الزنزانة وكان بمقدورها أن تشعر برعب الحصر كما لو أنه شيء حقيقي جداً

وكانت في الثامنة عشرة حسب ، عندما وصلت رسالة من السيدة الفريد برانغوين في نوتنغم ، تقول فيها أن ابنها وليم قادم إلى اليكستون كي يشغل وظيفة رسام متدرب ، ليس اكثر من تدريب في معمل للمخرمات . كان في العشرين من عمره ، وتود أن يلقى الترحاب في حقل مارش .

كتب توم برانغوين في الحال عارضاً على الفتى الإقامة في حقل مارش ، وهو عرض لم يُقبل بيد أن آل برانغوين في نوتنغم عبروا عن امتنانهم .

وكان هناك الكثير من الود المفقود بين آل برانغوين في نوتنغم وفي حقل مارش . والحقيقة أن السيدة الفريد قد ورثت ثلاثة آلاف جنيه ، ولم تكن راضية عن زوجها في بعض الأحيان ، وانعزلت عن آل برانغوين جميعاً . ومع ذلك ، فإنها كانت تكنُّ بعض الاحترام للسيدة توم كما كانت تسمي المرأة البولونية قائلة إنها على أية حال سيدة نبيلة .

أثيرت آنا قليلاً بأنباء قدوم ابن عمها ويل إلى اليكستون . كانت تعرف الكثيرين من الشبان ، لكن لم يتحول أحدهم إلى شيء حقيقي لديها ولقد رأت في هذا الشاب أنفاً أحبته ، وشارباً لطيفاً ، وطريقة لطيفة في ارتداء الملابس ، وخصلة شعر حمقاء ، وطريقة ساخرة في الحديث . كانت تلك الأمور تثير تسلية ودهشة ضئيلة لديها أكثر من الأشياء الحقيقية وأكثر من الشاب نفسه .

كان أبوها الرجل الوحيد الذي تعرفه ، ولأنه كان شيئاً كبيراً ظاهراً للعيان ، نوعا من إله ، فأنه كان يمثل الرجولة كلها بالنسبة لها ، وكان كل الرجال الآخرين مجرد طارئين .

تذكرت ابن عمها ويل . كان يرتدي ملابس سكان المدينة ، نحيف البنيه ، وله رأس غريب ، أسود مثل الكهرمان ، وشعر مثل فرو رقيق أملس . كان رأساً غريباً ، يذكّرها بشيء لا تعرفه ، بحيوانٍ ما ، أو حيوان غامضٍ عاش في الظلام تحت الأوراق ولم يخرج أبداً ، لكنه عاش بحيوية خفيفاً وشديداً . كانت تتذكره دائما بذلك الرأس الأسود الحميم الأعمى . وكانت تعده متفرداً ظهر في حقل مارش في صباح يوم أحد ؛ شاب طويل القامة قليلاً ، نحيف ذو وجه مشرق ، واعتداد غريب بالنفس ، مع خجل ، وعنده غفلة فطرية عما يمكن أن يكون عليه الآخرون ، إذ كان نفسه .

وعندما هبطت آنا إلى الطابق الأسفل بملابس يوم الأحد مستعدة للذهاب إلى الكنيسة ، نهض وحيّاها بطريقة تقليدية ، مصافحاً إياها . كان سلوكه أفضل من سلوكها فتوردت ، ولاحظت أن له الآن ريشاً أسود على شفته العليا ؛ خطاً أسود ، دقيق الشكل

يحدد فمه الواسع ، ولقد نفّرها ذلك إذ كان يذكرها بفرو شعره النحيف الدقيق . كانت مدركة وجود شيء ما غريب فيه .

كان صوته ذا نبرة مرتفعة قليلاً ، ونبرات متوسطة رنانة جديدة . صوت غريب وتساءلت لماذا يفعل ذلك بيد أنه كان يجلس بصورة طبيعية جداً في غرفة المعيشة في حقل مارش . كان فيه بعض الخرق ، نوع من الاعتداد الطبيعي بالنفس الذي يسم آل برانغوين ، والذي جعله يشعر أنه في بيته هناك .

ولقد انزعجت آنا من الطريقة الحنون الحميمة الغريبة التي كان والدها يعامل بها الشاب . كان يبدو نبيلاً تجاهه ، ولقد ركنَ نفسه جانباً كي يبرز الشاب ، ولقد أزعج آنا ذلك .

قالت له بطريقة مفاجئة .

ـ أبي اعطني نقوداً للتبرع .

فسألها برانغوين :

ـ أي تبرع ؟

فصرخت متوردة :

ـ لا تكن أحمق

فقال لها :

ـ أي تبرع هذا ؟

ـ أنت تعرف ، إنه الأحد الأول من الشهر .

وقفت آنا مرتبكة ، لماذا يفعل هذا ، لماذا يكشفها أمام هذا الغريب ؟ فأكدت مرة أخرى :

ـ أريد نقوداً للتبرع .

فأجاب لامباليا ، وهو ينظر إليها ، ثم يستدير نحو ابن أخيه :

ـ إذن هذا ما تقولينه .

اندفعت إلى الأمام ودسّت يدها في جيب بنطاله ، بينما كان يدخن متبلداً ، دون أن يظهر أية مقاومة متحدثاً إلى ابن أخيه .

بحثت يدها في جيبه ، ثم سحبت محفظته الجلدية . كان لون خديها الصافيين براقاً ، وتلألأت عيناها . وكانت عينا برانغوين تطرفان ، بينما جلس ابن أخيه خاملاً جلست آنا بملابسها ، ودلقت كل النقود في حضنها ، وكانت هناك قطع فضية ومعدنية ، ولم يستطع

الفتى منع نفسه من مراقبتها . كانت منحنية فوق كومة النقود ، تحرك بإصبعها القطع المختلفة :

ـ يراودني ميل شديد لأن آخذ نصف جنيه ذهبي .

قالت ذلك وهي تنظر بعينين متوهجتين غامقتين فالتقت بعيني ابن عمها البنيتين البراقتين ، قريبتين وشاخصتين إليها ، فجفلت ثم ضحكت ، واستدارت نحو أبيها ، وقالت :

ـ يراودني ميل شديد لأخذ نصف جنيه ذهبي يا أبي .

فقال لها :

ـ نعم يا رشيقة الأصابع ، إنكِ تأخذين ما تملكين .

وسألها شقيقها من الباب :

ـ هل أنتِ قادمة معنا يا آنا ؟

وفجأة فترت عائدة إلى حالتها الطبيعية ، ناسية أباها وابن عمها :

ـ نعم أنا قادمة .

قالت وهي تأخذ قطعة البنسات الستة من كومة النقود ، معيدة البقية إلى المحفظة التي وضعتها على الطاولة . قال والدها :

ـ أعطينيها .

وبسرعة دفعت المحفظة في جيبه ، وكانت في طريقها إلى الخارج .

وقال الوالد لابن أخيه :

ـ من الأفضل يا فتى أن تذهب معهم . أليس كذلك ؟

نهض ويل برانغوين متردداً . كانت له عينان بنيتان ، ذهبيتان ، سريعتان ، ثابتتان مثل عيني طير ، مثل عيني صقر ، لا يمكنُ أن يظهر فيهما الخوف .

قال الأب :

ـ سيذهب ابن عمكما ويل معكما .

ألقت آنا نظرة على الشاب الغريب مرة أخرى ، وأحستّ أنه كان ينتظرها هناك كي تلاحظه . كان يحلق على حافة وعيها مستعداً للدخول . ولم ترد آنا أن تنظر إليه . كانت معادية له .

انتظرت دون أن تتحدث . أخذ ابن عمها قبعته ، والتحق بها . كان الجو صيفاً في الخارج ، وكان شقيقها فريد يقطف غصين كشمش مزهر كي يثبته في سترته من الشجيرة التي عند زاوية المنزل ، ولم تلحظ آنا ذلك . وكان ابن عمها يتبعها في الخلف مباشرة .

أصبحا في الشارع العام ، وكانت واعية بالغرابة في كيانها ، وكان ذلك يجعلها غير متأكدة وقع بصرها على الكشمش المزهر في عروة سترة أخيها ، فهتفت به :

ـ أوه يا فريد لا تضع مثل هذه الأشياء عندما تذهب إلى الكنيسة

نظر فريد بحرص إلى الحلية قرنفلية اللون على صدره وقال لها :

ـ لماذا ، إنها تعجبني ؟

فردت قائلة :

ـ إذن فأنا متأكدة من أنك الشخص الوحيد الذي يعجبه ذلك .

واستدارت إلى ابن عمها ، وقالت له :

ـ هل تحب رائحتها ؟

كان هناك إلى جانبها طويل القامة ، اخرق ، معتداً بنفسه مع ذلك . ولقد أثارها ذلك ورد قائلاً :

ـ لا أستطيع الجزم .

فقالت لأخيها الصغير :

ـ أعطنيها يا فريد ، لا تدعها تنشر رائحتها في الكنيسة .

سلمها شقيقها الصغير الأشقر الوردة مذعناً ، فشمتها ثم أعطتها دون أن تنبس بكلمة واحدة إلى ابن عمها لكي يحكم ، فشمَّ الوردة المتدلية على نحو غريب وقال :

ـ إنها لرائحة مسلية

وفجأة ضحكت ، وبان شعاع سريع على كل وجهها وكان هناك خطو مرح في مشية الفتى الصغير . كانت الأجراس تقرع ، بينما راحوا يتسلقون التل الصيفي في ثياب يوم الأحد . وكانت آنا تبدو رائعة جداً في قميص حرير مخطط بالبني والأبيض ضيّق حول ذراعيها وجسمها ، وملتم بأناقة مفرطة خلف التنورة ، وكان ثمة شيء من صفات الفرسان في ويل برانغوين ، وكان أنيق الهندام .

كان يمشي وغصين براعم الكشمش يتدلى بين أصابعه ، ولم يكن أيٌّ منهم يتحدث ، وأشرقت الشمس متلألئة على انهمارات صغيرة من عشب رجل الغراب أسفل الضفة . وفي الحقول ، كان بقدونس الحمقى مزبداً ، عالياً ، متفاخراً على عدد من الزهور التي كانت تنتقل في شفق العشب المقصوص الأخضر في الأسفل .

وصلوا الكنيسة ، وتقدمهم فريد نحو المقعد الخشبي الطويل ، يتبعه ابن العم ، ثم آنا . أحست أنها ظاهرة للعيان ، ومهمة جداً ، فبطريقة ما كشفها هذا الشاب للآخرين .

ولقد تنحى جانبا كي تمر إلى مكانها ، ثم جلس إلى جانبها . وكان إحساساً غريباً أن تجلس إلى جانبه

تدفق اللون من الشباك المصبوغ فوقها ، وأضاء على خشب المقعد الغامق ، وعلى الحجر ، وعلى الممر البالي ، وعلى العمود خلف ابن عمها ، وعلى يدي ابن عمها ، وهما مستقرتان على ركبتيه . جلست وسط الضوء ، ضوء وظلال براقة من حولها . وكانت روحها براقة جداً . جلست دون أن تدرك الأمر ، واعية يدي ابن عمها ، وركبتيه الساخنتين . شيء غريب دخل عالمها ، شيء ما غريب تماماً ، لا يشبه ما تعرفه .

أحسّت بالتفاخر على نحو غريب . جلست في عالم متموج من اللا واقع ، مسرورة جداً ضوء إستيلادي مثل ضحكة كان في عينيها . وكانت تشعر بتأثير غريب يدخل فيها ، وهو أمر استمتعت به . كان تأثيراً مظلماً ، ومغنياً لم تألفه من قبل . لم تفكر بابن عمها ، بيد أنها أجفلت عندما تحركت يداه .

تمنت لو أنه لا يستجيب على هذا النحو الواضح لأن ذلك يلهيها عن متعتها الغامضة ، لماذا يكون متطفلاً ويجلب الاهتمام لنفسه . كان طعماً رديناً ، بيد أنها استمرت على ما يرام حتى حان موعد التراتيل . وقفت إلى جانبه كي تغني . ولقد سرّها ذلك ، ثم فجأة ، وعند الكلمة الأولى ، جاء صوته قوياً ، ومتغلباً ، مالئاً الكنيسة كان يغني بصوت عالٍ . وتفتحت روحها دهشة ، ملأ صوته الكنيسة! وكان يهدر مثل بوق ، وهدر مرة أخرى . ابتدأت تتهقه على كتاب تراتيلها ، لكنه استمر ثابتاً تماماً ، وكان صوته يتذبذب إلى الأعلى والأسفل ، شاقاً طريقه . ولم تستطع منع نفسها من أن ترتجف ضاحكة ، وبين لحظات الصمت الميت في نفسها ، كانت ترتجف ضاحكة . واستمر الضحك أمسك بها وهزّها حتى اغرورقت عيناها الدموع . كانت مندهشة ، ولقد أمتعها ذلك في الحقيقة ، واستمرت التراتيل ، واستمرت تضحك . انحنت فوق كتاب التراتيل متوردة من الارتباك ، لكن مازال جانباها يرتجفان من الضحك . تظاهرت أنها تسعل ، وأن ثمة غصّة في حنجرتها . وكان فريد يحملق إليها بعينيه الزرقاوين الصافيتين . وكانت تستعيد نفسها بيد أن جَمجَمَةً في الصوت القوي الأعمى إلى جانبها أعادت الأمر من جديد ، فانفجرت في ضحكة مجنونة .

انحنت للصلاة في إنكار بارد لنفسها ومع ذلك ، وبينما كانت تركع ، استمرت دوامات من القهقهة تسيطر عليها . وكان مرأى ركبتيه المجرد على سجادة الصلاة يرسل هزة صغيرة من الضحك فيها . استجمعت نفسها ، وجلست بوجه نقي متزمت ، أبيض

وقرنفلي وبارد مثل وردة عيد الميلاد . يداها في القفازين الحرير ، مطويتان فوق حضنها ، وعيناها الغامقتان غامضتان ومنشدهتان في نوع من الحلم ، ناسية كل شيء .

استمرَّ القدّاس غامضاً في موجة سلام حبلى . وأخرج ابن عمها منديله من جيبه ، وكان على ما يبدو مستغرقا في القداس ، ووضع منديله على وجهه ، ثم سقط شيء ما على ركبتيه ، ومن ثم سقط غصن الكشمش المزهر! كان ينظر إليه في دهشة حقيقية ، وصدرت نوبة ضحك متوحشة من آنا سمعها الجميع . وكان ذلك تعذيباً . وأخفى الزهرة المغضنة في يده ، وابتدأ ينظر إلى الأعلى مرة أخرى بالانتباه المستغرق للقداس ذاته . وتلت ذلك ضحكة أخرى من آنا ، فلكزها فريد بمرفقه مذكراً ، بينما جلس ابن عمها ساكناً . وبطريقة ما عرفت أن وجهه كان محمراً . كان بمقدورها أن تشعر بذلك . وظلت يده المطبقة على الزهرة ساكنة تماماً ، متظاهراً أنه على مايرام . تلا ذلك صراع متوحش في صدر آنا ، تلته ضحكة أخرى . انحنت إلى الأمام ، وهي تهتز من الضحك . إن الأمر لم يعد نكتة الآن . وكان فريد يلكزها باستمرار ، فوكزته بعنف بدورها ثم سيطرت عليها نوبة ضحك أثيمة جديدة ، حاولت أن تتفاداها بسعال ضئيل ، وانتهى السعال بشهيق مكبوت . أرادت أن تموت ، وزحفت اليد المغلقة إلى الجيب ، بينما جلست في توتر شديد ، واندفعت الضحكة مرتدة إليها ، عارفة أنه كان يعبث في جيبه كي يدفع الوردة بعيداً .

في النهاية ، أحسّت أنها ضعيفة ومنهكة ومحبطة تماماً ، وخيّمَ عليها فراغ اكتئاب مجفل ، كرهت وجود الناس الآخرين ، وأصبح وجهها متغطرساً تماماً ، ولم تَعد مدركة وجود ابن عمها لفترة أطول وعندما وصل التبرع مع الترنيمة الأخيرة ، كان ابن عمها يغني مرة أخرى بصوت مدو ، وكان ذلك مايزال يسليها رغم المظهر المخزي الذي وضعت نفسها فيه . ومع ذلك ، فإن الأمر كان يسليها . أصغت إليه في نوبة سعادة ، ورُميت الحقيبة أمامها ، ودفنت قطعة الشلنات الستة بين طيات قفازها ، وفي غمرة استعجالها لتخرجها ، سقطت القطعة النقدية ، وأخذت تتدحرج على المقعد المجاور . وقفت تضحك ، فلم يكن بمستطاعها منع ذلك فضحكت بغير تحفظ ، وكان مظهراً يثير العار .

سألها فريد لحظة خروجهم من الكنيسة :

ـ ما الذي كان يضحكك يا آنا ؟

قالت بطريقتها اللامبالية ، شبه المخادعة :

ـ أوه ، لم أستطع منع نفسي . لا أعرف لماذا جعلني غناء ويلي أضحك

وسألها :

ـ ما الذي يضحكك في غنائي ؟

فردت قائلة :

ـ إنه عال جداً .

لم يتبادلا النظر ، بيد أنهما ضحكا مرة أخرى ، وكلاهما محمّر الوجه ، وسألها توم ؛ شقيقها الأكبر على مائدة الغداء ، بعينين بلون البندق ، تزهوان بالمتعة :

ـ توقف الجميع كي ينظروا إليك .

وكان توم في جوقة المنشدين ، وكانت شاعرة بعينيي ويل تشرقان بثبات عليها ، منتظرتين أن تتحدث ، فقالت :

ـ كان غناء ابن عمي ويل هو السبب .

عندها انفجر ابن عمّها في ضحكة مكبوتة مختنقة مفاجئة ، كاشفاً كل أسنانه الصغيرة المنتظمة الحادة قليلاً ، وبالسرعة ذاتها أغلق فمه مرة أخرى .

فسألها برانغوين :

ـ إن له صوتاً متميزاً إذن ؟

وردّت آنا :

ـ ليس الأمر كذلك ، إنه يدغدغني حسب . لا أستطيع أن أُخبركَ عن السبب

ومرة أخرى سرت موجة ضحك على المائدة . دفع ويل برانغوين وجهه الغامق إلى الأمام وعيناه ترقصان وقال :

ـ أنا في جوقة منشدي القديس نيقولا .

قال برانغوين :

ـ أوه ، فأنت تتردد على الكنيسة إذن ؟

فأجاب الشاب :

ـ أمي وأبي يترددان .

كانت الأشياء الصغيرة ، حركته مثلاً ، نبرات صوته المسلية هي التي كانت تبدو متضخمة لآنا . أما الأشياء الحقيقية التي يقولها ، فقد كانت على نقيض ذلك ؛ سخيفة ، وكانت الأشياء التي يقولها أبوها تبدو تافهة وحيادية . في فترة الأصيل جلسوا في الشرفة ، واستنشقوا عطر وردة الرعي ، وأكلوا الكرز ، وتبادلوا الأحاديث . ولقد دعي ويل برانغوين كي يتحدث عن نفسه ، وسرعان ما ابتدأ يكشف عنها .

كان مهتماً بالكنائس وبمعماريتها ، وأن تأثير رسكن* كان يثير المتعة في نفسه ، كما يظهر في أبنية القرون الوسطى كان حديثه متناثراً وشبه واضح حسب ، بيد أن الإصغاء إليه وهو يتحدث عن كنيسة بعد أخرى ، وعن صحن الكنيسة والمذبح وجناحها وعن ستارة الصليب وجرن المعمودية ، عن النحت بالفؤوس والقوالب والزخرفة التشجيرية ، متحدثاً دوماً بهوى حميم لأشياء وأماكن معينة ، فاحتشد في قلبها سكون الكنائس المتضخم ، غموض ، أهمية فخمة لصخرة منحنية ، ضوء معتم يجري تحته شيء بصورة غامضة ، عابرة إلى الظلام ؛ إطار مسر مرتفع لستارة صوفية ، وما وراء ذلك ، في ما هو ابعد ، كان هناك المذبح ، كانت تجربة حقيقية تماماً . ولقد استغرقت فيها كلياً ، وبدت الأرض وكأنها مغطاة بكنيسة صوفية شاسعة متحفظة في عتمة مندهشة بوجود مجهول .

وكاد يؤذيها أن تطل من الشباك فترى الليلك يتهادى في ضوء الشمس المشرق ، أم أن هذا هو الزجاج المطعم بالجواهر ؟

تحدث عن البناء القوطي وعصر النهضة والهندسة المعمارية الإنكليزية في القرن الخامس عشر ، والبناء الإنكليزي والنورماندي المبكر ولقد أدهشها كلامه . قال لها :

ـ هل زرت ساوث ويل ؟ كنت هناك الساعة الثانية عشرة عند منتصف النهار ، وكنت أتناول طعامي عندما عزفت الأجراس ترنيمة .

ـ نعم ، إنها كنيسة رائعة تلك التي في ساوث ويل ، متينة ولها أقواس مدورة ثقيلة ، وواطئة قليلاً على أعمدة متينة ، إنها لطريقة فخمة تلك التي تندفع بها الأقواس إلى الأمام .

ـ وهناك مقاعد الكهنة أيضاً إنها رائعة ، بيد أني أحب مبنى الكنيسة الرئيسي ، وذلك الممر الشمالي المسقوف .

كان مثارا جدا ، وممتلئا بنفسه ذلك الأصيل ، وثمة لهب يضاء من حوله ، جاعلاً تجربته متوهجة وحنوناً ، محرقة على نحو حقيقي .

وكان عمه يصغي إليه بعينين طارفتين ، شبه متأثر . وكانت عمته منحنية إلى الأمام ، ووجهها الغامق شبه متأثر ، لكنه يحتفظ بمعلومات أخرى ، أما آنا فلقد رحلت معه .

عاد إلى مسكنه في الليل بخطوات سريعة ، عيناه تومضان ، ووجهه يتلألأ بظلام كما لو أنه عاد لتوه من موعد حنون مهم .

---

* رسكن ، جون (١٨١٩ ـ ١٩٠٠) ناقد ومحاضر وكاتب مقالات إنكليزي ، اهتمَّ بالفن والعمارة . من مؤلفاته (مصابيح العمارة السبعة) الذي صدر عام ١٨٤٩ و(أحجار البندقية) الذي صدر بين ١٩٥١ ـ ١٩٥٣

وظل التوهج في داخله ، واضطرمت النار ، وكان قلبه ضاريا مثل الشمس . واستمتع بحياته المجهولة وبنفسه ، وكان مستعدا للعودة إلى حقل مارش .

ودون أن تعرف ذلك ، كانت آنا تريده أن يعود ، فلقد هربت فيه ، وفيه تقدمت أواصر تجربتها : إنه ثقب في الجدار ، ووراءه تشرق الشمس على عالم خارجي .

ولقد جاء ، في بعض الأحيان ، وليس غالبا ، لكن في بعض الأحيان متحدثا مرة أخرى ، حيث عاود الواقع الغريب النائي الذي حمل كل شيء أمامه . وفي بعض الأحيان كان يتحدث عن والده الذي كان يبغضه بغضا محرقا اقرب إلى الحب ، وعن أمه التي كان يحبها حبا حميما قريبا جدا من الكره أو الثورة . كانت جمله خرقاء ولم يكن إلاّ شبه واضح حسب ، بيد أن صوته كان رائعا ، إذ يمكن أن يقرع بذبذباته خلال روح الفتاة ، فينقلها إلى مشاعره . وفي بعض الأحيان يكون حارا وحماسيا ، وفي أحيان أخرى تكون له نبرة غريبة خنّاء ، كأنها مواء قطة . وفي بعض الأحيان ، كان يتردد ويرتبك أحيانا ، أو يتوقف ليضحك ضحكة صغيرة في أحيانٍ أُخر . وكانت آنا مأخوذة به ، فلقد أحبت اللهيب الجاري الذي يسري خلالها عندما تصغي إليه ، وأصبح أمه وأبوه بالنسبة إليها شخصين منفصلين في حياتها .

وطوال أسابيع ، كان الشاب يزورهم غالبا ، وكانوا يرحبون به محتفين جميعا ، وكان يجلس بينهم ووجهه الغامق متوهج وثمة لهفة ولمسة سخرية على فمه الواسع ، شيء مكشر ومعوج ، وعيناه تشرقان دوما مثل عيني طير دون عمق أبدا . وفكر برانغوين منزعجا أن ليس ثمة ما يمسك الفتى ، فلقد كان مثل قط صغير مكشر يجيء عندما يريد دون علم الشخص الآخر .

في البداية ، كان الشاب ينظر صوب توم برانغوين عندما يتحدث ، ثم ينظر بعد ذلك تجاه عمته تقديرا لها ، لأنه كان يجلها اكثر من عمه ، ثم يعود ببصره إلى آنا لأنه يحصل منها على ما يريد ، ولم يكن ليجدنّ هذا عند الناس الكبار .

وهكذا فإن الشابين بعد أن كانا يلازمان الكبار دائما ، راحا ينسحبان جانبا مؤسسين مملكة مستقلة . وفي بعض الأحيان ، كان ذلك يزعج توم برانغوين ، كان ابن أخيه يزعجه ، إذ كان الفتى يبدو له خاصا جدا وكتوما . كانت طبيعته عنيفة كفاية ، بيد انه كان مشغول الذهن كثيرا مثل شيء منفصل ، مثل طبع القط ، فبمقدور القطة أن تضطجع مستسلمة تماما على السجادة ، بينما يتلوى سيدها أو سيدتها ألما على مبعدة ذراع منها ، فليس لها علاقة بمتاعب الآخرين . هل يمكن أن يهتم هذا الفتى بأي شيء آخر غير غرائزه ؟

كان برانغوين منزعجا ، ومع ذلك ، احب ابن أخيه واحترمه . وكانت السيدة برانغوين منزعجة من آنا التي تغيرت فجأة تحت تأثير الشاب ولقد أحبت الأم الصبي فهو ليس غريبا تماما ، بيد أنها لم ترد أن تكون ابنتها تحت تأثير سحره إلى هذه الدرجة

وهكذا انسحب الشابان تدريجا هاربين من الكبار كي يخلقا شيئا جديدا بأنفسهما . وكان يعمل في الحديقة كي يسترضي عمه ، ويتحدث عن الكنائس كي يستعطف عمته ، وكان يتبع آنا مثل ظل ؛ مثل ظل أسود طويل ملحّ ، لا يحيد ، كان يمشي وراء الفتاة . وكان ذلك يزعج برانغوين كثيرا ، ويغضبه إلى حد يفوق التحمل ، عندما يرى التكشيرة المضاءة ؛ تكشيرة القطة كما كان يسميها ، على وجه ابن أخيه .

أصبح لآنا محمية جديدة ؛ استقلال جديد ، وابتدأت تتصرف بطريقة مستقلة عن والديها ؛ أن تعيش وراءهما ، وانتابت الأم نوبات من الغضب . لكن المغازلة استمرت وكانت آنا تجد مناسبة كي تذهب للتسوق في اليكستون في الأمسيات ، وكانت تعود دائما مع ابن عمها . وكان يمشي ورأسه فوق كتفها ، خلفها قليلاً ، مثل عفريت يتفحص لنكولن* ، كما لاحظ برانغوين ذلك بغضب ، ومع ذلك برضا .

ولدهشته ، وجد ويل برانغوين نفسه في حالة حب مشحونة ، ولدهشته أوقفها عند البوابة وهما عائدان من اليكستون في إحدى الليالي وقبلّها . سد طريقها وقبّلها بينما أحس كما لو أنه تعرض لضربة في الظلام وعندما دخل تملكه غضب حاد لأن والديها تمعنا فيهما . بأي حق يفعلان ذلك؟ لماذا ينظران إليهما ؟ ليذهبا أو لينظرا إلى شيء آخر!

وعاد الشاب إلى بيته والنجوم في السماء تدور في دوامة سريعة حول اسوداد رأسه ، وكان قلبه قاسيا مصرا ، غير انه كان عنيفا ، كما لو انه شعر أن ثمة شيئاً يعيقه وأراد أن يحطم شيئا ما .

ثم تملكتها نوبة ، وكم تملك القلق والديها بينما كانت تدور في أرجاء البيت دون أن تلحظ شيئا ، دون أن تلحظهما ، تتحرك مفتونة كما لو أنها غير مرئية من قبلهما ، وكانت غير مرئية منهما ، ولقد أغضبهما ذلك . ومع ذلك كان عليهما الاستسلام ، واستمرت مستغرقة غامضة لفترة من الزمن

---

* عبارة تشبه المثل استعملت على سبيل المثال من قبل سكوت في (كنيلورث) ، لكن اعتمادا على كندريك في كتابه (كاتدرائية لنكولن) فإنها ذات اصل مجهول . ويعتقد أن الزخارف الموحودة على الكنيسة قد تكون مناسبة لوصف موقف توم ذلك لان تلك القاعة كانت مخصصة للتحرشات الجنسية .

خيم ظلام الغموض فوقه أيضا ، كأنه يختفي في ظلام مشحون كثيف كانت فيه حياته حية بشدة لكن دون مساعدته أو اهتمامه ، وكان ذهنه غامضا وعمل بهدوء وبطريقة آلية ، وانتج بعض الأشياء الجميلة .

كان عمله المفضل حفر الخشب ، وأول شيء صنعه لها ختم للزبدة حفر فيه طائرا أسطوريا ؛ هو العنقاء ، شيء يشبه النسر يرتفع على جناحين متناظرين من دائرة ذات لهب جميل خافق يصعد إلى الأعلى من حافة الكوب .

لم تفكر آنا في الهدية مساء اليوم الذي أعطاها فيه إليها . وفي الصباح ، عندما حضر الزبد أخذت ختمه محل الختم الخشبي القديم المصنوع من خشب البلوط وأوراقه ، ولقد دهشت جدا عندما رأت النتيجة ؛ إذ تقولب الطائر الغريب الأخرق هناك في التجويف الشبيه بالكوب ، وظهرت له تعرجات سميكة غريبة الشكل تجري نحو الداخل من الحافة الملساء ، وضغطت قالبا آخر ، وكان أمرا غريبا أن ترفع الختم لترى الطائر ذا المنقار الصقري يرفع صدره نحوها ، وأحبت أن تصنعه مرة تلو أخرى . وفي كل مرة تنظر فيها كان يبدو وكأن شيئا جديدا يبعث إلى الحياة وأصبحت كل قطعة من الزبدة ذلك الرمز الغريب المفعم بالحيوية ، ولقد أرته لأمها وأبيها .

وقالت أمها وقد سطع ضوء ضئيل على وجهها :

ـ هذا جميل!

وهتف الوالد مندهشا مهتاجا :

ـ جميل! ماذا يسمى هذا الطائر ؟

وكان هذا هو السؤال الذي ظل الزبائن يوجهونه طوال الأسابيع التي تلت ذلك .

ـ أي نوع من الطيور تسمي ذلك الذي على الزبدة ؟

وعندما زارهم في المساء ، اصطحبته إلى الملبنة كي تريه ، وسألته بصوت مرتفع متذبذب ، يبدو غريبا دائما ، مترددا في أماكن وجودها المظلمة :

ـ هل أعجبك ؟

كانا نادرا ما يتلامسان . ولقد رغبا في أن يكونا وحدهما ؛ متقاربين ، لكن ماتزال ثمة مسافة بينهما .

وفي الملبنة لطيفة البرودة ، كان ضوء الشمعة يضيء قدور القشدة الكبيرة البيضاء . أدار رأسه بحدة . كان المكان هناك باردا ونائيا ؛ نائيا جدا ، وقد فغر فمه في ضحكة صغيرة مجهدة وقفت وقد حنت رأسها ، وأشاحت بوجهها . أراد أن يقترب منها . وكان

قبّلها مرة من قبل . ومرة أخرى استقرت عينه على كتل الزبد المدورة حيث يرفع الطائر في الختم صدره من الظل الذي يسقطه لهب الشمعة ترى ما الذي كان يكبله ؟ كان صدرها قريبا منه ورأسه مرفوع مثل رأس صقر . ولم تصدر أدنى حركة . وفجأة ، وبسرعة مذهلة وبحركة رقيقة ، وضع ذراعيه حولها وسحبها نحوه . كانت حركة سريعة ؛ رشيقة مثل طائر ينقض ويغطس شيئا فشيئا .

كان يقبل حنجرتها ، فاستدارت ونظرت إليه . كانت عيناها غامقتين ، والنار تنساب منهما . وكانت عيناه صلبتين وبراقتين بغرض وسعادة حادين ؛ مثل عيني صقر ، وأحست به يطير نحو فراغ لهيبها المظلم ؛ مثل جمرة ؛ مثل صقر يومض .

تبادلا النظر ، ورأى أحدهما الآخر غريبا عن الآخر ، ومع ذلك قريبين ؛ قريبين جدا ، مثل صقر يهبط ويهبط ، فيسقط في لهب الظلام لذلك رفعت الشمعة وقفلا عائدين إلى المطبخ .

استمرا على هذه الحال بعض الوقت ؛ يأتيان معا دوما وقلما كانا يتبادلان القبلات . وعندما يحدث ذلك ، فإنه غالبا ما يكون مجرد تلامس للشفاه ؛ مجرد علامة ، بيد أن عينيها ابتدأتا تستيقظان بنار ثابتة ، وكانت غالبا ما تتوقف وسط تحولها ، كما لو أنها تلتقط شيئا ما أو أن تكتشفه .

وكان وجهه عندها يصبح وقورا منشغلا ، ولم يكن يسمع أساسا ما يقال له . وفي إحدى أمسيات شهر آب ، جاء بينما كانت الدنيا تمطر . دخل وقد قلب ياقة سترته ، وسترته مزررة بشدة ، ووجهه مبلل ، ولقد بدا نحيفا ومخصرا ، خارجا من المطر البارد ، وفجأة أعماها حبها له ومع ذلك ، جلس وتحدث إلى أبيها وأمها دون هدف ، بينما كان دمها يغلي من التبريح في داخلها . أرادت أن تلمسه الآن . أن تلمسه حسب .

كانت النظرة الغامضة الغريبة على وجهها الفضي المشع هي التي اطارت صواب والدها ، وكانت عيناها الغامقتان مخفيتين ، بيد أنها رفعتهما للشاب . كانتا مظلمتين بوهج جعله يجبن لحظة .

ذهبت إلى المطبخ الثاني ، وأخذت فانوسا ، وراقبها والدها عندما عادت وقالت لابن عمها :

ـ تعال معي يا ويل . أريد أن أرى إن كنت وضعت الطابوقة فوق الجحر الذي تخرج منه الفئران .

فرد والدها بحدة :

ـ ليس هناك من داع لأن تفعلي ذلك .

بيد أنها لم تعر ذلك اهتماما ، وكان الشاب موزعا بين ارادتين وتصاعد الدم الى وجه الأب ، وحملقت عيناه الزرقاوان . ووقفت الفتاة قرب الباب ، وقد أرجعت رأسها إلى الخلف قليلا كعلامة على أن الشاب يجب أن يأتي معها . نهض بطريقته الصامتة ؛ المنشغلة وذهب معها ، وانتفخت عروق جبين برانغوين بالدم .

كانت الدنيا تمطر . وومض ضوء الفانوس على الممر المرصوف بالحصى ، وعلى اسفل الحائط . وصلت إلى سلم صغير فتسلقته ، ومد لها يده الفانوس ثم تبعها ، وهناك في قن الدجاج تكومت الطيور في مجموعات كبيرة فوق المجاثم ، وكانت أعرافها الحمر تتلألأ مثل النار وعيونها البراقة الحادة مفتوحة ، وحدث صياح معترض حاد عندما أُزيحت إحدى الدجاجات من موضعها . وجلس الديك يراقب وريش رقبته الأصفر براق كالزجاج . اجتازت آنا الأرضية القذرة ، بينما جثم برانغوين في القن مراقبا . وكان الضوء يبدو هشا تحت القرميد الأحمر العاري . جثمت الفتاة في زاوية ، ثم تلت ذلك ضجة متفجرة أخرى صادرة من دجاجة قفزت من مجثمها .

عادت آنا منحنية تحت المجاثم ، وكان ينتظرها قرب الباب . وفجأة وضعت ذراعيها حوله والتصقت عن قرب به ، متعلقة بجسمه هاتفة في صوت هامس ، ناشج :

ـ ويل ، أنا احبك ، أنا احبك يا ويل

وبدا وكأن ذلك الأمر يمزقها .

لم يبدُ عليه أنّ الأمر قد أدهشه كثيرا ، واحتضنها بين ذراعيه ، وأحس أن عظامه قد ذابت استند على الجدار ، وكان باب القن مفتوحا . وفي الخارج ، هطل المطر بسرعة غريبة ، دقيقة ، صلبة ، خارجا من خليج الظلام . احتضنها بين ذراعيه ، وكانا يبدوان معا كما لو انهما يتأرجحان في ذبذبات كبيرة غاطسة . وتشابك الاثنان معا في الظلام ، وخارج باب القن المفتوح الذي كانا يقفان فيه ، ما وراءهما ، وتحتهما ، كانت الدنيا ظلاما بقناع مسافر من المطر .

وأنّت قائلة :

ـ أحبك يا ويل ؛ أحبك .

وهصرها حتى اصبحا كما لو انهما شخص واحد ، وكان صامتا .

في البيت ، انتظر برانغوين لحظة ثم سرعان ما نهض وخرج . توجه نحو الساحة ، ورأى عمود الضوء المغبش الصادر عن باب القن ، ولم يتبين إلاّ بالكاد انه كان ضوءا تحت

المطر ، وتقدم حتى سقط الضوء معتما عليه ، وعندما رفع بصره إلى الأعلى ، رأى عبر الغشاوة الشاب والفتاة معا ؛ الشاب وظهره مستندا على الحائط ، ورأسه منحن فوق رأس الفتاة . رآهما الرجل الكبير مغبشين خلال المطر ، ولكنهما كانا مضيئين . ظنا نفسيهما مدفونين في الظلام تماما ، بل انه تبين حتى جفاف القن المضيء خلفهما ، والظلال ومجاميع الدجاجات الجاثمات ، هناك في الأعلى ، في الليل ، كانت ظلال غريبة تسقط من الفانوس على الأرض . وتصارع في قلبه ظلام ، غضب اسود مع حنان الصفح ، فلم تكن تعي ما تفعل . لقد خانت نفسها . كانت طفلة ، مجرد طفلة ، فلم تكن تعرف مقدار ما تبدده من نفسها ، وأصبح تعيسا بطريقة غاضبة وكئيبة . أهو رجل عجوز إذن ، وأن عليه أن يدعها تتزوج ؟ اهو رجل عجوز حقا ؟ انه ليس عجوزا بل هو اكثر شبابا من ذلك الشاب عديم الإحساس الذي رمت نفسها بين ذراعيه . من يعرفها ؛ أهو أم ذلك الشاب الأعمى ؟ وإلى من تعود إن لم تكن إليه ؟

وفكر مرة أخرى بالطفلة التي حملها في إحدى الليالي إلى الإسطبل ، بينما كانت الأم تعاني من ألم المخاض بالصغير توم ، وتذكر ثقل الفتاة الصغيرة الناعم الدافئ على ذراعه وحول عنقه . أما الآن فإنها ستقول إنه قد انتهى ، وإنها ذاهبة كي تنكره ، كي تترك فراغا لا يطاق داخله ، فراغ لا يتحمله . وأحس بما يشبه الكره تجاهها ، كيف تجرأت أن تقول إنه عجوز . واستمر في السير تحت المطر يتعرق ألما من رعب أن يكون قد شاخ ، ومن تبريح التخلي عما تعني الحياة إليه

عاد ويل برانغوين إلى البيت دون أن يقابل عمه . عَرّض وجهه الساخن للمطر ، ومشى في ما يشبه النشوة : «احبك يا ويل ، احبك» . أعادت الكلمات نفسها إلى ما لانهاية لقد انتزعت الأقنعة ، وأطلقته عاريا في الفضاء الذي لا قرار له فارتجف لقد دفعته الجدران خارجا ، ومنحته فراغا شاسعا كي يسير فيه ، فإلى أين يسير في هذا الفراغ اللانهائي وهو أعمى ؟ أهناك في نهاية الظلام كله يجلس الإله الجبار في الظلام يدفعه إلى الأمام ؟ «أحبك يا ويل ، أحبك» . ارتجف من الرعب بينما ترددت الكلمات في قلبه مرة أخرى . ولم يجرؤ على التفكير في وجهها أو عينيها اللتين أشرقتا ، أو في وجهها المتحول الغريب ، واندفعت يدا الجبار الذي لا تراه الأبصار وهي تتحرك براقة ، اندفعت خارجة من الظلام وأمسكت به ، فخضع مرعوبا وانكمش قلبه واحترق من اللمسة .

ومرت الأيام ، وركضت على أقدام مبطنة بالظلام في صمت . ذهب كي يرى آنا ، لكن التحفظ حل بينهما مرة أخرى . كان توم برانغوين مكتئبا ، وعتمت عيناه الزرقاوان .

وكانت آنا غريبة الأطوار ومنشدهة ، وكان وجهها أبكم في تلونه الرقيق ، وبدت خرساء حادة . وحنت الأم رأسها وتحركت في عالمها المظلم الذي كان مشبعا بالرضا مرة أخرى .

استمر ويل برانغوين يعمل في نحت الخشب ، وكان ذلك بمثابة هوى . كان هواه أن يكون الأزميل في قبضته . ومن غير ريب ، رفع هوى قلبه قطعة الحديد الرقيقة . كان ينحت مثل ما أراد دوما ؛ قصة خلق حواء . وكان ذلك على لوحة بارزة يهديها لإحدى الكنائس . كان آدم يضطجع نائما كما لو انه يتألم ، والرب على هيئة شكل كبير معتم ينحني باتجاهه ، مادا إلى الأمام يده العارية ، وحواء التي كانت أنثى صغيرة حية عارية ، تخرج مثل اللهب باتجاه يد الرب ، من الجزء الممزق من آدم .

في هذه الأثناء ، كان توم برانغوين يعمل في لوحة خلق حواء . كانت شيئا نحيفا حميما غير ناضج وبهوى مرتجف رقيق مثل تنفس الهواء ، أرسل الأزميل فوق بطنها ، فوق بطنها الصغير الصلب غير الناضج . كانت شكلا صغيرا صلبا ذا خطوط حادة في الآم وتعذيب ونشوة خلقها ، بيد انه ارتجف عندما لمسها . انه لم ينه أيا من أشكاله ، وكان ثمة طير على غصن فوق الرأس ، رافعا جناحيه ، مستعدا للطيران . وهناك أفعى تتلوى باتجاهه . إنها لم تنته بعد ، وارتجف بالهوى بعد أن تمكن في النهاية من خلق جسد حوائه الجديد ، حاد التقاطيع

وعند الجانبين ، الجانبين البعيدين ، في كلتا النهايتين ، كان هناك ملكان يغطيان وجهيهما بأجنحتيهما ، وكانا يشبهان شجرتين . وعندما ذهب إلى حقل مارش في الشفق ، أحس أن الملكين اللذين غطيا وجهيهما كانا يتراجعان إلى الخلف عندما مر بهما . وأن الظلام يصدر من ظليهما وتغطية وجهيهما . وعندما عبر جسر القناة ، توهج المساء في آخر ألوانه الغامقة ، وكانت السماء زرقاء معتمة ، وتلألأت النجوم عن بعد ، نائية جدا ، ومقتربة من فوق بنايات الحقل المظلمة ، وفوق ممرات البلور على امتداد حافات السموات .

انتظرته مثل وهج الضوء ، وكما لو أن وجهه كان مغطى . ولم يتجرأ على أن يرفع وجهه كي يرى إليها

حل موسم الحصاد . وفي إحدى الأُمسيات ، خرجا عبر بنايات الحقل ، عند حلول الظلام . وكان قمر ذهبي كبير يتدلى ثقيلا في الأفق الرمادي ، وتأرجحت الأشجار طويلة ، منتصبة في الخلف ، في ساعة الغسق ، منتظرة . وظلت آنا والشاب يسيران بهدوء حول سياج الأشجار ، حيث تركت عربات الحقل آثارا غامقة على العشب . اجتازا بوابة تؤدي إلى

حقل واسع مفتوح ، حيث ما يزال هناك الكثير من الضوء المنتشر على وجهيهما . وفي الطل التحتي ، كانت الحزم تتمدد على الأرض حيث تركها الحاصدون . وكان العديد من الحزم مثل أجساد منطرحة ، في كتل مظلمة ، في حين تراكم بعضها الآخر بهيئة مغبشة في أكداس ، مثل سفن تمخر في ضباب ضوء القمر ، والغسق في البعد . لم يرغبا في أن يعودا أدراجهما ، لكن إلى أين ييممان وجهيهما ، اشطر القمر ؟ ذلك لأنهما كانا منفصلين ومنفردين .

ـ ألا كدست بعض الحزم .

قالت آنا كي يكون بمقدورهما البقاء في الفراغ المفتوح الواسع .

سارا عبر بقايا سيقان القمح المحصود إلى حيث تنتهي صفوف أكداس القمح المقلوبة على نهايتها ولقد بدا ذلك الجزء من الحقل مسكونا على نحو غريب حيث تنتصب قضبان الأكداس ، أما بقية الحقل فلقد كانت مفتوحة مضطجعة

كان الهواء فضيا أشيبَ . نظرت حولها ، كانت الأشجار تقف غامضة على مبعدة منها ، كما لو أنها تنتظر مثل رسل ، تنتظر الإشارة كي تقترب في الفراغ البلوري الغامض هذا ، بدا قلبها مثل ناقوس يدق ، وخشيت أن يسمع صوته .

ـ خذ هذا الصف .

قالت للفتى مجتازة إياه ، ثم انحنت على صف الحزم المنطرحة الأخرى ، مقحمة يديها في جدائل القمح ، رافعة القمح الثقيل بكلتا يديها ، حاملة إياه بينما تعلق ثقيلا بها إلى المكان الفارغ ، حيث أسقطت الحزمتين إلى الأسفل بحدة ، مسندة إحداها على الأخرى ، بضربة حميمة خفيفة ، فانتصبت حزمتاها متساندتين . وكان قادما ، يمشي معتما في غلالة الغسق الرقيقة ، حاملا الحزمتين ، وانتظرت هناك ، ورتب حزمتيه بضربة حميمة خفيفة إلى جانب حزمتيها ، فتراكبت الحزمتان قلقتين ، وشبك جدائل القمح فهسهست مثل نبع ثم نظر إليها وضحك . استدارت بعد ذلك شطر القمر الذي كان يتوهج على ما يبدو كي يكشف نهديها في كل مرة تواجهه فيها ، وتوجه نحو فراغ الحقل المقابل الغامض مذعنا .

انحنيا وامسكا بشعر القمح الرطب الناعم ، ورفعا الحزم الثقيلة ، وعادا . كانت السبّاقة دائما . رتبت حزمها صانعة بيتا ضيقا بالحزم الأخرى ، وجاء معتما عبر الحقل المحصود ، حاملا حزمه . استدارت ، لا تسمع سوى هسهسة القمح المختلط الحادة ، ومشت بين القمر وشكله المعتم . أخذت حزمتيها الجديدتين ، ومشت نحوه ، بينما كان

يرفع قامته من انحناءة فوق الأرض . كان يأتي من المسافة القريبة . رتبت حزمها كي تصنع كدسا جديدا . كانا قلقين ، وكانت يداها ترتجفان . ومع ذلك ابتعدت ، ويممت وجهها شطر القمر الذي كشف نهديها ، فأحست كما لو أن نهديها كانا يلهثان ، ويتنهدان ضوء القمر . وكان عليه أن يسند حزمتيها اللتين سقطتا . وعمل بصمت ، وحمله إيقاع العمل مرة أخرى ، بينما كانت تقترب منه .

عملا معا يغدوان ويروحان في إيقاع كان يحمل اقدامهما وجسديهما في تناغم ، انحنت ورفعت الحزم ثم أدارت وجهها نحو العتمة حيث كان هناك وتوجهت بحملها فوق القمح المحصود ترددت وألقت بحزمها ، وكان هناك حفيف وهسهسة القمح المختلط ، كان يقترب منها . كان عليها أن تستدير مرة أخرى ، وهناك القمر المتوهج يعري نهديها مرة أخرى ، جاعلا إياها تتقدم وتتراجع ، مثل موجة

عمل بثبات ، منهمكا ، شاقا طريقه جيئة وذهوبا مثل مكوك ، عبر شريط القمح المحصود ، ناسجا خطوط الحزم المتراكبة الطويلة أقرب فأقرب نحو الأشجار الظليلة ، ناسجا حزمه مع حزمها .

وكانت تذهب قبل أن يأتي ، وعندما يأتي تنسحب ، وعندما ينسحب تأتي . الن يلتقيا أبدا ؟ وتدريجا تذبذبت رغبة واطئة عميقة الغور في داخله نحوها ، حاول أن يضعها في تناغم معه ، حاول أن يجلبها تدريجا إليه ، إلى لقاء ، حتى يصبحا معا ، حتى يلتقيا ، حتى يلتقيا مثل الحزم التي تهسهس معا .

واستمر العمل ، وازداد القمر بريقا وصفاء ، وتلألأ القمح ، وانحنى فوق الحزم الراقدة ، وكانت ثمة هسهسة عندما لمست الحزم الأرض ، انسحاب أجسام ثقيلة عليه ، وسدور من ضوء القمر على عينيه . ومن ثم كان يضع القمح معا عند الكدس ، وكانت تقترب منه .

انتظرها ، وتعثر عند الكدس . ولقد جاءت بيد أنها تراجعت حتى انسحب بعيدا ، ورآها في غلالة ، عمودا مظلما ، وتحدث إليها ، فأجابت ، ورأت ضوء القمر يبرق سؤالا على وجهه ، لكن ثمة فجوة بينهما ، لذلك ذهب ، وحملها العمل على إيقاع .

لماذا الفجوة بينهما دائما ، لماذا هما منفصلان ؟ لماذا كلما جاءت من تحت القمر توقفت وابتعدت عنه ؟ لماذا يبعد عنها ؟ وقرعت رغبته بإلحاح ، وبظلام ، وأغرقت كل شيء آخر .

وفي إيقاع عمله دخل نبض وهدف ثابت . توقف ورفع الثقل ، رفعه نحوها ووضعه ،

كما لو في داخلها ، تحت فضاء ضوء القمر وعاد مرة أخرى لجلب المزيد . وباقتراب متزايد ، رفع الحزم واندفع متخطيا نحو المركز معها ، ساحبا إياها اقرب إلى اللقاء ، وأنجز حصته ، واتجه صوبها متغلبا عليها . كانا يتحركان إلى الأمام والخلف حسب ، تحت ضوء القمر ، منهمكين في تأرجح صامت لا يظهر إلاّ بتناثر الحزم ، والصمت ، وتناثر الحزم . وما أن يصبح تناثر حزمه اهدأ ، فانه سرعان ما يخفق نحوها ، ويعاود تناثر الحزم رتيبا ثابتا دائما ، وكان تناثر حزمه ينبض دوما أقرب فأقرب .

حتى التقيا ، في النهاية ، عند الكدس يواجه أحدهما الآخر ، والحزم في أيديهما . وكان فضي اللون تحت ضوء القمر ، وبوجه ظليل مضاء بضوء القمر ، أثار رعبها وانتظرته قائلة

ـ ضع حزمك!

ـ لا ، انه دورك .

كان صوته رنانا ملحا

أسندت حزمها على الكدس ، ورأى يديها تلمعان وسط توهج حبات القمح ، واسقط حزمه وارتجف عندما أخذها بين ذراعيه . لقد تغلب عليها ، وان من حقه أن يقبلها . كانت عذبة وطازجة بالهواء الليلي ، وعذبة برائحة القمح ، ونبض كل إيقاعه في قبلاته ، وظل يتبعها بقبلاته ، ولم تكن مهزومة تماما . واندهش من سقوط ضوء القمر على انفها! كل ضوء القمر عليها ، وكل الظلام في داخلها! كان كل الليل بين ذراعيه ، الظلام والشروق ، انه يمتلكه كله! كل الليل من حصته الآن ، كي يكشفه ، ويغامر فيه ، أن يدخل في كل الخفايا ، وان يحقق كل الاكتشافات مرتجفا بانتصار حميم ، كان قلبه أبيض مثل نجم بينما كان يقترب بقبلاته اكثر فاكثر .

هتفت بصوت واطئ عن بعد : «حبيبي» . كان الصوت الواطئ كأنه يناديه من مكان بعيد ، تحت القمر . ولم يكن شاعرا به ، وتوقف مرتجفا ، وأصغى .

وجاء النداء الواطئ الحزين ، مثل طير لا يرى في الظلام :

ـ حبيبي

كان خائفا ، وارتجف قلبه وتحطم . لقد أُوقف .

قال لها ، كما لو أنه يجيبها من مسافة ؛ غير واثق من نفسه :

ـ آنا!

ـ حبيبي .

واقترب منها ، واقتربت منه

قال لها في دَهَش ، وفي ألم مخاض الحب ·

ـ آنا!

وردت عليه بصوت ابتدأ يصبح جذلا :

ـ حبيبي!

وتبادلا القبل على فميمهما في جذل ودهشة ، قبلات طويلة حقيقية . واستمرت القبلة هناك تحت ضوء القمر ، وقبلها مرة أخرى وقبلته ، وراحا يتبادلان القبل مرة أخرى حتى حدث شيء ما في داخله . وكان غريبا . لقد أرادها ، أرادها على نحو يتجاوز الحدود . كانت شيئا جديدا . ووقفا هناك منحنيين معلقين في الليل ، وارتجف كيانه كله دهشة ، كما لو من اثر ضربة . لقد أرادها ، ورغب في أن يخبرها بذلك ، بيد أن الصدمة كانت كبيرة بالنسبة إليه ولم يدرك ذلك من قبل أبدا . ارتجف من الانزعاج وعدم التعود ، ولم يكن يعرف ما يفعل . امسكها برقة اكثر ، برقة ، برقة اكثر بكثير . لقد ولى الخلاف ، وكان سعيدا متقطع الأنفاس يكاد أن يشهق بالبكاء ، بيد انه عرف انه أرادها . شيء ما ثبت في داخله إلى الأبد . انه لها ، وكان سعيدا وخائفا جدا . ولم يعرف ما يفعل ، بينما وقفا هناك ، في الحقل المفتوح المضاء بضوء القمر . نظر من خلال شعرها إلى القمر الذي كان يسبح صافيا براقا . تنهدت وبدت ، كأنها تستيقظ ، وقبلته مرة أخرى ، ثم أرخت نفسها بعيدا عنه ، وأخذت يده . لقد أمضته عندما انسحبت بعيدا عن صدره ، أمضته بمرارة . لماذا تنسحب بعيدا عنه ؟ بيد أنها أمسكت يده

قالت له ، وهي تنظر إليه بطريقة لم يستطع أن يفهمها :

ـ أريد الذهاب إلى البيت .

أمسك يدها بشدة . كان منبهرا ، ولم يستطع أن يتحرك ، ولم يعرف كيف يتحرك . لقد سحبته بعيدا . مشى عديم الحيلة إلى جانبها ؛ ممسكا يدها ، ومشت ورأسها منحن ، وفجأة قال عندما قدم الحل البسيط نفسه له

ـ سنتزوج يا آنا .

كانت صامتة .

ـ سنتزوج يا آنا ، هل نفعل ذلك ؟

توقفت في الحقل مرة اخرى ، وقبلته متعلقة به بهوى بطريقة لم يستطع فهمها . لم يستطع أن يفهم ، بيد أنه ترك كل شيء الآن ، إلى الزواج . إن ذلك هو الحل الآن ، ثابتا

أمامهما لقد أرادها ، أراد أن يتزوجها ، أن يمتلكها بأكملها كخاصته إلى الأبد . وانتظر مصمما إنجاز ذلك ، غير انه كان هناك طوال الوقت توتر بسيط من الانزعاج .

وتحدث إلى عمه وإلى عمته تلك الليلة .

قال :

ـ أنا وآنا نفكر بالزواج يا عمي .

فقال برانغوين :

ـ أوه ، حقا!

وقالت الأم :

ـ ولكن كيف ، إنكما لا تمتلكان نقودا ؟

شحب الشاب ، لقد كره هذه الكلمات ، بيد انه كان مثل حصباء براقة كئيبة ، شيء ما براق ، ولا يمكن تغييره . ولم يفكر ، بل جلس في بريقه الصلب ، ولم يحر جوابا .

وسأله برانغوين :

ـ هل ذكرت الأمر لأمك ؟

ـ لا ، لكنني سأخبرها يوم السبت .

ـ وهل ستذهب لتراها ؟

ـ نعم .

ثم تلا ذلك توقف طويل .

ـ وكيف ستتدبر أمر زواجك ـ هل ستعتمد على مصروفك الذي هو جنيه في الأسبوع ؟

ومرة أخرى شحب الشاب ، كما لو أن الروح قد جرحت داخله . وقال وهو ينظر إلى عمه بعينيه البراقتين اللا إنسانيتين اللتين تشبهان عيني الصقر :

ـ لا اعرف

وأثير برانغوين في بغض قائلا :

ـ إن الأمر يحتاج إلى أن تعرف .

قال ابن أخيه .

ـ سأحصل على النقود لاحقا . سأدبر بعضها بطريقة ما ثم أسددها بعد ذلك .

ـ أوه ، نعم ، ولم هذا الاستعجال اليائس ؟ إنها طفلة في الثامنة عشرة ، وأنت صبي في العشرين ، إنكما الاثنين لستما في عمر يؤهلكما لأن تفعلا مثل ما تريدان .

أحنى ويل برانغوين رأسه ، ونظر إلى عمه بعينين براقتين هادئتين مشككتين مثل صقر حبيس قائلا :

ـ وماذا يهم في أي عمر تكون وفي أي عمر أكون ، ما الفرق بيني الآن وعندما ابلغ الثلاثين ؟

ـ دعنا نأمل في أن يكون هناك فرق كبير .

وسألته العمة .

ـ لكنك تفتقد التجربة ، ليس لديك تجربة ولا نقود .

وسألها الصبي :

ـ أية تجربة تلك التي احتاجها يا عمتي ؟

ولو لم يكن قلب برانغوين صلبا وسويا بالغضب ، مثل حجر كريم لكان وافق .

عاد ويل برانغوين إلى البيت غريباً منبوذاً أحس أن لا فرار مما هو مكتوب على الجبين ، وأن إرادته قد تحددت ، ولكي يغيرها فان عليه أن يتحطم ، وهو لن يتحطم . ليس لديه نقود ، لكنه سيحصل على قدر منها من مكان ما فذلك لا يهم . واضطجع يقظا عدة ساعات ، صلبا واضحا دون أن يفكر ، وكانت روحه تتبلور بطريقة لا يمكن تغييرها ، ثم سرعان ما استغرق في النوم .

كان الأمر يشبه كما لو أن روحه تحولت إلى بلورة صلبة ، فهو قد يرتجف ويتشنج ويعاني ، لكن ذلك لن يغير شيئا .

وفي صباح اليوم التالي ، تحدث توم برانغوين وقد أفقده الغضب إنسانيته ، إلى آنا وسألها .

ـ ما أمر رغبتك في الزواج ؟

وقفت شاحبة قليلا ، وقد جحظت عيناها في نظرة عدوانية مجفلة لكائن متوحش سوف يدافع عن نفسه ، لكنه ارتجف من فرط التأثر ، فردت من وعيها :

ـ أنا أريد ذلك .

أثير غضبه ورغب في أن يحطمها ، وزأر ساخطاً :

ـ أنت تريدين ، أنت تريدين ، من أجل ماذا ؟

الكرب الطفولي القديم ، العمى الذي لا يستطيع أن يميز أحدا ، العداء النابض ، كما لو أن شيئا غضا ، عديم الحيلة ، مهيض الجناح ، قد عاودها مرة أخرى ، فصرخت به بطريقة طفولتها الهستيرية الثابتة :

ـ أريد لأني أريد ، إنك لست أبي ، فأبي ميت . إنك لست أبي .

كانت مانزال غريبة فلم تتعرف عليه ، وقطع النصل البارد عميقا في روح برانغوين لقد قطعه منها .

وسألها :

ـ وماذا يعني إن لم أكن أباك ؟

بيد أنه لم يطق ذلك ، فلقد كانت عزيزة عليه بطريقة حنون : «أبي ، والدي» ظل عدة أيام يتجول منذهلا ، وقد ارتبكت زوجته فلم تفهم الأمر ، وظنت أن الزواج معرقل بسبب الحاجة إلى نقود والعثور على مهنة

وخيم صمت فظيع على البيت ، واختفت آنا عن الأنظار قدر ما تستطيع ، إذ كانت تبقى وحدها عدة ساعات .

عاد ويل برانغوين بعد مواقف غبية في نوتنغم . كان شاحبا ومنذهلا جدا ، بيد انه لم يتغير . ولقد كرهه عمه . كره شبابه الذي كان لا إنسانيا وعنيدا جدا . ومع ذلك كان إلى برانغوين ، أن سلّم العم ، في إحدى الأمسيات الحصص التي حولت إلى آنا لينسكي . كان المبلغ ألفين وخمسمائة جنيه . نظر ويل برانغوين إلى عمه كان جزءا كبيرا من رأس مال حقل مارش قد تم التخلي عنه ، لكن الشاب ، مع ذلك ، كان اكثر ثباتا وبرودا حسب كان منشدها ، مجرد رغبة نقية ثابتة ، وأعطى الحصص إلى آنا . بعد ذلك ، بكت آنا طوال يوم كامل ، تذرف الدموع .

وفي الليل ، وعندما سمعت أمها تأوي إلى فراشها ، تسللت وتوقفت عند الباب كان والدها يجلس في صمته العميق ، مثل نصب . وأدار رأسه ببطء ، وصرخت من الباب : «أبي» ، وركضت نحوه ، وهي تنشج ، كما لو أن قلبها سينفطر : «أبي ، أبي» .

تكومت على السجادة ، وطوقته بذراعيها ، ودفنت وجهها فيه . كان جسده كبيرا ومريحا جدا ، ولكن شيئا ما كان يؤلم رأسها على نحو لا يطاق ، لذلك نشجت بهستيريا تقريبا .

كان صامتا ، وقد وضع يده على كتفها . كان قلبه مكتئبا . إنه ليس والدها ، تلك الصورة الجميلة التي حطمتها من هو إذن ؟ رجل عزل مع أولئك الذين لن تتطور حياتهم . كان معزولا عنها ،هناك جيل بينهما ، انه كبير . لقد مات من الحياة النابضة . ثمة قدر كبير من الرماد في ناره ، رماد بارد . وأحس بالبرد الذي لا مرد له ، وبمرارة نسي النار ،

وجلس في برودة عمره وعزلته . إن لديه زوجته ولام نفسه ، وزأر عليها بسبب تعلقه بالشباب ، راغبا في أن يكون الشباب له .

وكانت الطفلة المتعلقة به تريد زوجها الطفل ، كما هو الأمر الطبيعي ، ومنه ؛ برانغوين ، كانت تريد المساعدة بحيث تترتب حياتها بطريقة مناسبة ، لكنها لا تريد الحب . لماذا يكون هناك حب بينهما ، بين الرجل البدين في أواسط العمر وبين هذه الطفلة ؟ كيف يمكن أن يكون هناك أي شيء بينهما غير الرغبة الإنسانية المجردة في أن يساعد أحدهما الآخر ؟ إنه الوصي عليها ، وليس اكثر من ذلك . وكان قلبه مثل الجليد ، ووجهه بارداً وجامداً . ولم تستطع أن تحركه اكثر من أن تحرك تمثالا

زحفت إلى الفراش وبكت ، لكنها ستتزوج ويل برانغوين ، ولن تحتاج أن تنزعج لفترة أطول وأوى برانغوين إلى الفراش بقلب صلب بارد ، ولعن نفسه . نظر إلى زوجته أنها ما تزال زوجته ، وكان شعرها الغامق قد شابه لون رمادي ، وكان وجهها جميلا في ذروة عمرها ، إنها في الخمسين حسب . كم رآها حادة ، وأراد أن يقطع جزءا من قلبه الذي لم يكن عفيفا ، ولم يزل راغبا في أن يساهم في حياة الشباب السريعة ، وكم كره نفسه من اجل ذلك . كانت زوجته حادة جدا وفي أوانها . وكانت ما تزال شابة وساذجة ، وفيها شيء من عذوبة الفتيات ، بيد أنها لم تعد ترغب في المزيد من القتال أو المعارك أو السيطرة مثل ما فعل في لاعفته . كانت طبيعية ، وكان قبيحا ، غير طبيعي في عدم قدرته على الانسحاب . كم هو شرير هذا الرجل المتوسط العمر ، الجشع الذي يصر على الوقوف في طريق الحياة ، مثل عفريت ضخم .

ما الذي يفتقده في حياته كي يكون غير راض في سويداء نفسه الضارية ؟ كان عنده ذلك الصديق في المدرسة وأمه وزوجته وآنا ، فما الذي فعله ؟ لقد فشل مع صديقه ، وكان ولدا مسكينا ، لكنه عرف الرضا مع زوجته ، وليكن ذلك كافيا . واشمأز من نفسه بسبب موقفه من آنا ، ومع ذلك ، لم يكن راضيا ، وكان ذلك يسبب له التبريح عندما يعرفه .

هل كانت حياته عدما ؟ أليس لديه ما يريه . لا عمل ؟ انه لا يقيم وزنا لعمله ، إذ أن بمقدور أي امرئ أن يفعله . ما الذي عرفه غير العناق الزوجي الطويل مع زوجته! هذا ويا للغرابة ما آلت إليه حياته . على أية حال ، كان ذلك شيئا أزليا ، وهو سيقول ذلك لأي شخص ويتفاخر به . إنه يضطجع وزوجته بين ذراعيه ، وهي ما تزال مبتغاه ، مثل ما كانت عليه دوما . وكان ذلك كل شيء ، ونهاية كل شيء ، نعم وهو فخور به .

لكن المرارة الخفية هي التي أبقته توم برانغوين الذي لم يشعر بالاكتفاء ، الذي عانى من الكرب بسبب فتاة لم تعره اهتماما قط . لقد احب أولاده وهم خاصته أيضا ، لكن الحياة الخلاقة الأبعد مع الفتاة هي التي رغب فيها أيضا . أوه ، ولقد كان خجلا من نفسه . وداس على نفسه ، كي يطفئها

يا له من تعب! فليس ثمة سلام مهما تقدم العمر بالإنسان! حدد برانغوين موعد زواجه يوم السبت الذي يسبق عيد الميلاد . ولقد انتظرها بطريقته البراقة غير المتسائلة حتى ذلك الوقت . لقد أرادها ، وهي له ، فعلّق كيانه حتى يحين ذلك اليوم ؛ يوم الزفاف الثالث والعشرون من كانون الأول . واصبح ذلك بالنسبة إليه مثل شيء مطلق ، ولقد عاش فيه .

لم يعد الأيام ، بيد انه مثل رجل يبحر على ظهر سفينة ، تعلق حتى الوصول إلى الميناء

انكب على نحت الخشب ، وعمل في مكتبه ، وجاء ليراها كان كل شيء نوعا من الانتظار حسب ، دون تفكير أو سؤال

أما هي ، فلقد كانت اكثر حياة . أرادت أن تستمتع بالمغازلة ، بينما كان يجيء ويروح كأنه الريح ، دون أن يسأل لماذا وإلى أين ، بيد أنها أرادت أن تستمتع بوجوده ، لأنه كان لها لُبّ الحياة ، فكان ملمسه المجرد بركة ، لكنها كانت له جوهر الحياة ، فهي موجودة معه بالقدر نفسه عندما ينحت في منزله في اليكستون ، مثلما هي كذلك عندما تجلس ، وهي تنظر إليه في مطبخ حقل مارش ، وفي داخل نفسه كان يعرفها ، لكن قدراته الخارجية كانت تبدو معلقة فلم يكن يراها بعينيه ولا يسمعها بصوتها

ومع ذلك ، كان يرتجف في بعض الأحيان في نوع من الإغماء عندما يحتضنها بين ذراعيه . كانا يقفان متعانقين في مخزن الغلة ، في صمت . وعندما تتحسس جسمه الشاب المشدود بيديها ، كانت النعمة لها أمرا لا يطاق ، فلم تكن تطيق فكرة أنها تمتلكه ذلك لأن جسده كان حميما ، ومدهشا جدا . وكان الحقيقة الوحيدة في عالمها . في عالمها هناك جسد الرجل الحي المشدود هذا حسب ، وهناك أيضا العديد من الرجال الوهميين ، وجميعهم غير حقيقيين ، ففيه لمست مركز الواقع ، وكانا معا ، هي وهو في سويداء السر . كيف ربطته بها ، وجسده هو الجسد المركزي للحياة كلها ، فمن صخرة هيئته تنساب نافورة الحياة .

لكنها كانت لهباً يفترسه كان اللهب يتدفق إلى أعلى أطرافه . ينساب خلاله حتى ينفد ، حتى ينتفي وجوده ، ويتحول إلى انتقال مظلم ، لا واع من اللهب ، خارجا منها .

في بعض الأحيان ، في الظلام ، كانت بقرة تسعل . وهناك في الظلام صوت اجترار طعام بطيء . وكان كل شيء يبدو ، وكأنه ينساب من حولهما وفوقهما ، مثل ما ينساب الدم الساخن خلال الرحم ، غاسلا الصغير الذي لم يولد بعد .

في بعض الأحيان ، عندما يكون الجو باردا كانا يتعانقان في الإسطبلات ، حيث يكون الهواء دافئا ، ومشبعا بالأمونيا . وخلال تلك السهرات المظلمة ، تعلم أن يعرفها : جسدها مقابل جسده ، وكانا يقتربان أكثر فأكثر أحدهما من الآخر . وأصبحت القبلات أشد حميمية ، وأكثر ملاءمة على نحو غامض . لذلك عندما ينهض حصان على قدميه ، على نحو مفاجئ في الظلام ، مصدرا صوتا معتما يشبه الرعد ، كانا يصيخان السمع ، وكأنهما شخص واحد . كانا يعرفان ، وكأنهما شخص واحد . كانا مدركين وجود الحصان .

أجّر لهما توم برانغوين بيتا في كوسثي مدة إحدى وعشرين سنة . وأضاءت عينا ويل برانغوين عندما رآه . كان البيت المجاور للكنيسة ، فيه أشجار سرو غامقة اللون ؛ أشجار قاتمة السواد ، على جانب البيت ، وحديقة العشب الأمامية ؛ بيت أحمر مربع ذو سقف إردوازي واطئ ، وشبابيك واطئة ، ويحتوي على ملبنة ، وحجرة غسل أطباق طويلة ، ومطبخ واسع مرصوف ، وشرفة واطئة ترتفع درجة واحدة عن المطبخ . وكانت عوارض بيض عبر السقوف ، وزوايا غريبة وخزانات . وعندما يطل المرء على الخارج ، عبر الشبابيك ، يرى الحديقة المعشبة ، وموكب أشجار السرو السود ، على أحد الجوانب ، وعلى امتداد الجوانب الأخرى جدار احمر ، ونبات لبلاب يفصل المكان عن الطريق العام ، وفناء الكنيسة . وكانت الكنيسة الصغيرة القديمة ببرجها الصغير على المنارة المربعة كأنها تطل على شبابيك البيت .

قال ويل برانغوين وهو ينظر إلى وجه الساعة الأبيض على البرج المجاور له :

ـ لن نحتاج إلى ساعة .

وفي مؤخرة البيت كانت هناك حديقة تلاصق الحظيرة ، وزريبة أبقار تتسع لبقرتين وزريبة خنازير وقن دجاج . وكان ويل برانغوين سعيدا جدا ، وكانت آنا تشعر بالسعادة عندما تفكر في أنها ستكون ربة بيتها الخاص بها .

أصبح توم برانغوين الآن العراب الخرافي ، فلم يكن يشعر بالسعادة أبدا إن لم يشتر شيئا . وكان ويل برانغوين ، بكل اهتمامه بالنجارة ، مكلفا بالحصول على الأثاث . ولقد تركت له مهمة شراء مناضد وكراسي مدورة القواعد ، وخزانات مواد اعتيادية تماما ، ولكن لتتناسب مع بيته .

أما تـوم برانغوين ، وبفكرة اكثر تحديدا ، فلقد كـان ينتقي لهـا ما يسـميهـا بالأشيـاء الـصغيـرة العمـلية . فـكان يظهـر بطقـم من قدور الطبخ مـن طـرز جديـد أو بـنوع خاص من المصابيح المعلقة رغم أن سقوف الغرف كانت واطئة ، أو مكائن اقتصادية صغيرة لفرم اللحم أو هرس البطاطا أو خفق البيض

كانت آنا تبدي اهتمـاما حادا بالأشيـاء التي كان يـشتريها رغم أن ذلك لم يكن يـسرها دائـما ، إذ أن بـعض الاختراعات الصغيـرة التي ظنها اقتصادية جدا ، تركتهـا في حيـرة من أمرهـا . ومع ذلك ، فأنها كانت في توقع دائـم . ففي أيام السوق ، كـانت هناك دوما دهـشة تـوقع تـمتد فتـرة طـويلة . وكان يصـل مع أول الظلام ، ومصابـيح عربـته الـنحاسيـة تـتوهـج ، وكانت تـركض نحو الباب ، بينما ينحني شكل مظلم مغبش على الرزم في العربة .

ـ إنه حب المصلحة هو الذي يجلبك بهذه السرعة .

كـان يقـول لـهـا ، وصـوتـه يـتـردد فـي الـظـلام البـارد ، ومع ذلك كـان مثـارا . وتـأخذ أحـد مصابيح العـربة ، وتحمـلق وتتفحص الأشياء المـتراكمة التـي جلبهـا ، مزيحة جانبا الـزيت أو الأدوات التي يكون قد اشتراها لنفسه .

سحبت زوجا من وسـائد قـوية صغيـرة ، وسجلتها في ذهنها ثم سحبـت مترددة شيئا آخر كان له مقبض طويل وقطعة من الورق البني حول الوسط مثل صدرية ، وقالت محملقة :

ـ ما هذا ؟

وتوقـف كـي يـنظـر إليـها ، وتـوجهـت نحـو ضوء الـمصبـاح قـرب الحـصان ، ووقـفت هـناك منحنية على الشيء الجديد ، بينما كان شعرها مثل برونز ، ومنزرها ابيض ساطعا واقتلعت أصابـعهـا الـغلاف الـورقي ، وسحبـت إلى الأمـام عصارة صغيـرة ذات بـكرات من الـمطـاط ، وتفحصتها متشككة غير عارفة كيف تعمل .

رفعت بصرها إليه ، بينما وقف معتما ما وراء الظل ، وسألته :

ـ كيف تعمل ؟

فأجابها :

ـ إنها لعجن اللفت

نظرت إليه ، وقد أقلقها صوته :

ـ لا تكن أحمق ، إنها معصرة صغيرة ، ومع ذلك ، كيف تثبتها ؟

ـ تثبتينها على جانـب حوض غسيلك .

ثم جاء وأخرجها لها :

ـ أوه ، نعم!

هتفت باحدى حركاتها الواثبة الصغيرة التي ماتزال تصدرها عندما تكون سعيدة على نحو مفاجئ . ودون المزيد من التفكير ، ركضت صوب البيت ، تاركة اياه يفك الحصان وعندما دخل إلى الحجرة ، وجدها هناك ، والعصارة الصغيرة مثبتة على حوض الغسيل ، تدير المقبض مبتهجة ، وإلى جانبها وقفت تيلي وهي تهتف :

ـ يا لله ، هذا شيء صغير انيق ، انها ستوفر عليك ان تحملي داخلك إلى الخارج ، هذا آخر انواع الفخاخ .

وادارت آنا المقبض باستمتاع هائل بالتملك ، ثم سمحت لتيلي ان تجرب .

قالت تيلي وهي تدير المقبض :

ـ إنها تدور وحدها ، ستعصر ملابسك حتى لتُعلق على الحبل مباشرة .

زفاف في حقل مارش

كان يوماً جميلاً مشمساً مناسباً للزفاف ؛ أرض موحلة وسماء براقة . وكانت هناك ثلاث عربات وعجلتان كبيرتان مغلقتان تجمع الجميع في الشرفة مستثارين . وكانت آنا ماتزال في الطابق العلوي ، واستمر والدها يحتسي جرعات من البراندي ، وكان مظهره وسيماً في السترة السوداء والبنطال البني . وكان صوته محباً لكنه منزعج . نزلت زوجته مرتدية ثوباً من الحرير الرمادي الغامق المخرّم ، وثمة لمحة من لون أزرق زاهر في قلنسوتها . كان جسمها الصغير واثقاً ومحدداً جداً ، ولقد كان برانغوين ممتناً لأنها كانت هناك كي تؤازره وسط كل أولئك الناس .

- «العربات» هتفت السيدة برانغوين من نوتنغم ، مرتدية ثوبا من الحرير وهي تقف في المدخل محددة أسماء الذين يجب ان يذهبوا معهم . وكانت هناك ضجة صاخبة ، وفُتح الباب الأمامي ، وسار ضيوف الزفاف عبر ممر الحديقة ، بينما كان المنتظرون يحملقون عبر الشباك . وكان الحشد الصغير عند البوابة يتثاءب ويتمطى . كم يبدو هؤلاء الناس المتهندمون مضحكين تحت ضياء الشمس الشتائية .

ولقد ذهبوا - جماعة أخرى . وابتدأ المكان يشغر . ونزلت آنا الى الطابق الأسفل متوردة وحجلى جداً ، كي يراها الناس في ثوبها الحرير وخمارها . تفحصتها أم زوجها بموضوعية ، ثم شدّت الحاشية ورتبت طيّات الخمار ، وأكدّت وجودها .

صدرت هتافات مرتفعة من الشباك الذي إجتازته عربة الزفاف لتوها .

- أين قبعتكَ يا والدي ، وأين قفازاك ؟

هتفت العروس وهي تدقُّ الأرض بنعليها الأبيضين ، وبرقت عيناها خلال الخمار تلفت حوله باحثاً ، وكان شعره مشعثاً . تفرق الحشد بأكمله عدا العروس وأباها ، ثم أصبح

جاهزاً ، وكان وجهه متورداً جداً ، ومثبطاً . تجولت تيلي في الرواق الصغير ، منتظرة كي تفتح الباب ، وكانت هناك امرأة منتظرة ، تمشي حول آنا التي سألت :

ـ هل أنا على ما يرام ؟

كانت جاهزة ، وشمخت بنفسها ، وبدا مظهرها ملوكياً . لوحت بيدها الى والدها .

ـ تعال هنا .

ذهب صوبها . وضعت يدها بخفة على ذراعه ، ممسكة باقة ورد مثل غيمة مطر ، متخطية برقة ، نافدة الصبر قليلاً من أبيها لأنه كان متورد الوجه قليلاً ، وتهادت ببطء من أمام تيلي المبتهجة ثم هبطت الممر . وكان هناك هتاف أجشُ عند البوابة ، ومرَّ كل بياضها الطافي المزبد ببطء داخل العربة .

لحظ والدها قدمها وكاحلها الرشيق عندما صعدت الى العربة . كانت قدم طفلة ، وكان قلبه متصلباً من الحنان ، بيد أنها كانت في نشوة مع نفسها ، لأنها خلقت مثل هذا المشهد الرائع . وطوال الطريق ، جلست متوهجة بالسعادة لأن الأمر بأكمله كان رائعاً . تأملت بتوق باقة وردها : ورود بيض وزنابق الوادي والمسك الرومي وضفائر الجن ـ باقة غنية جداً تشبه شلالاً صغيراً .

جلس الوالد حائراً بكل غرابته ، وكان قلبه ممتلئاً حتى أحسَّ به متصلباً ، ولم يعد قادراً على التفكير في أي شيء .

كانت الكنيسة مزينة لعيد الميلاد ، مظلمة دائمة الخضرة ، باردة مثلجة وبأزهار بيض . توجه منشدهاً صوب المذبح . كم مرَّ عليه من الزمن منذ أن ذهب كي يتزوج ؟ لم يكن متأكداً إن كان سيتزوج الآن ، أو من سبب مجيئه الى هناك . كانت في ذهنه فكرة مزعجة هي أن عليه أن يفعل شيئاً معيناً أو آخر ، وشاهد قلنسوة زوجته ، وتساءل مندهشاً لماذا لم تكن هناك معه .

وقفا أمام المذبح ، وكان يحملق الى الشبّاك الشرقي الذي كان يتوهج بضوء شديد ؛ نوع من الضوء القرمزي المزرق . كان لوناً أزرق عميقاً هو الذي يتوهج ، وبعض اللون القرمزي . كانت الأزهار الصفر الصغيرة موثقة في عروق الظل ، في رحم الظلام الثقيل . كيف احترقت حية مشعة وسط رحمها الأسود .

ـ من أعطى هذه المرأة أن تتزوج من هذا الرجل ؟

أحسَّ بشخص يلمسه فأجفل . وكانت الكلمات ماتزال تتردد في ذاكرته ، بيد أنها كانت تنسحب مبتعدة .

ردّ على عجل :

ـ أنا .

أحنت آنا رأسها ، وابتسمت من وراء خمارها :

ـ كم كان سخيفا .

كان برانغوين يحملق بعيدا في الشباك الأزرق المتوهج عند مؤخرة المذبح ، ويتساءل على نحو غامض ، وبألم إن كان سيشيخ في يوم من الأيام ، إن كان سيشعر أبداً بأنه قد وصل وتأسس .

كان هناك في زفاف آنا . حسن بأي حق يشعر أنه مسؤول مثل أب ؟ إنه مايزال غير واثق وغير ثابت مثل ما كان الأمر عندما تزوج زوجته . وهو وبلفحة من الكرب أدرك كم كانا غير واثقين . كان رجلاً في الخامسة والأربعين ، خمس وأربعون ، وخلال خمس سنوات أخرى سيبلغ الخمسين ثم الستين والسبعين ثم ينتهي كل شيء . يا إلهي! ومايزال المرء غير ثابت على هذ النحو .

كيف يشيخ المرء ، كيف يمكن للمرء أن يصبح واثقا ؟ تمنى لو يشعر بتقدم السن ، لكن لماذا ؟ ما الفرق بينه الآن وبينه ساعة زفافه مادام أحس أنه ناضج ومكتمل؟ قد يتزوج مرة أخرى ، هو وزوجته . وأحس نفسه ضئيلا ، شكلا صغيرا منتصبا على سهل تطوقه السماء الشاسعة الهادرة : هو وزوجته ، شكلان صغيران منتصبان عبر ذلك السهل ، بينما كانت السماء تهدر وترتجف من حولهما . متى يصل المرء الى النهاية ؟ وفي أي إتجاه تنتهي ؟ ليس هنالك نهاية ولا إنتهاء ، بل هذا الفراغ الواسع الهادر . هل سيشيخ المرء ، هل يموت أبدا ؟ كانت تلك هي العلامة . تهلل على نحو غريب بألم سوف يستمر مع زوجته ، هي وهو مثل طفلين يخيمان في السهول . أهناك أكثر مدعاة للطمأنينة من السماء المتناهية ؟ بيد أن هذه كانت مطمئنة جدا ولا تحدها الحدود .

مايزال اللون الملكي يتوهج ويضيء ويسلي نفسه في رحم الظلام أمامه ، غني ورائع دون أن يناله الكلل . كم كانت حياته غنية ورائعة ، حمراء ، ومشتعلة ومتوهجة وتسلي نفسها في شبكات جسده المظلمة ، وزوجته ، كيف توهجت واحترقت مظلمة داخل هذه الشبكات! كانت دوما غير منتهية وغير متشكلة!

صدرت ضجة صاخبة من الأورغن ، وكان الحشد كله يتجه نحو حجرة التجمع ، وكان ثمة سجل ملطخ ومخربش . وتلك الفتاة الشابة التي أعادت خمارها مرة أخرى في خيلائها

ومدت يدها المزينة بخاتم الزفاف رائعة على وعي بنفسها ، ووقعت إسمها بكبرياء بسبب المنظر المختال الذي صنعته .

ـ آنا تيريزا لينسكي .

ـ آنا تيريزا لينسكي .

أية فتاة مستقلة مزهوة كانت! وكان العريس نحيلا في سترته السوداء ذات الذيل والبنطال البني ، وقورا مثل قط شاب وقور ، يكتب اسمه بجدية :

ـ وليم برانغوين .

وبدا ذلك مألوفا أكثر .

هتفت الشابة الملحة :

ـ تعال ووقع يا أبي .

ـ توماس برانغوين ، صاحب الرسغ الأخرق .

قال لنفسه وهو يوقّع .

ثم كتب أخوه ، وهو رجل ضخم الجثة ، شاحب الوجه له سبلتان سوداوان من الشعر على جانبي وجهه :

ـ الفريد برانغوين .

قال توم برانغوين خجلا من التكرار الممل لاسم عائلته :

ـ كم هنالك المزيد من آل برانغوين!

عندما خرج الى ضوء الشمس ورأى الجليد أشيب وأزرق بين العشب الطويل تحت شواهد القبور ، وثمر الآس البري فوقها ، يطرف قرمزي اللون عندما تقرع الأجراس الصغيرة وأشجار السرو تدلي أغصانها الرثة الساكنة السوداء ، بدا كل شيء شبيها بحلم .

مرت جماعة الزواج الصغيرة عبر المقبرة متجهة صوب الجدار ، فتسلقته عبر المدرجات الصغيرة ثم هبطت . أوه ، ثمة عروس تشبه طاووسا أبيض مختالاً تجثم على الجدار وتمد يدها للعريس على الجهة الأخرى ، كي يساعدها على النزول! يا لزهو قدمها الصغيرة الرشيقة أنيقة الخطوات وجمال عنقها المقوس ووقاحتها التي تخلصت بها من الآخرين . الآخرون! أهلها وضيوف الزفاف ، عندما ذهبت صحبة زوجها الشاب

في البيت كانت نار كبيرة تتوهج ، وطائفة من الأقداح على المائدة وأغصان من الآس البري والهدال معلقة . تجمع حشد الزفاف ، وابتدأ توم برانغوين ، وقد أصبح صاخبا ، يسكب الشراب . يجب أن يشرب الجميع ، وكانت الأجراس تقرع بعيدا عبر الشبابيك .

هتف توم برانغوين من الشرفة :

ـ إرفعوا أقداحكم ، إرفعوا اقداحكم واشربوا نخب البيت والموقد ، البيت والموقد ، وعسى أن يستمتعا بهما .

ـ عسى أن يستمتعا بهما ليل نهار

وهتف الفريد برانغوين الكئيب :

ـ عسى أن يستمتعا بهما بحماسة وصخب!

وهتف توم برانغوين :

ـ املأوا أقداحكم ودعونا نعيد الكرة ثانية

ـ عسى أن يستمتعا بهما ؛ الموقد والبيت!

وردت الجماعة عليهما بهتاف مشوش .

وهتف فرانك برانغوين :

ـ الفراش والبركة ، عسى أن يستمتعا بهما .

ورددت الجوقة بصوت متزايد الارتفاع :

وهتف الفريد برانغوين الكئيب :

ـ في المجيء والذهاب ، عسى أن يستمتعا بهما

وضج الرجال الآن بصوت عال ، واكتفت النسوة بالقول :

ـ إخرسوا الآن فقط .

فلقد كانت ثمة دلائل على وجود فضيحة في الجو

ثم عادت الجماعة بالعربات وبسرعتها القصوى الى حقل مارش حيث الوجبة الضخمة مع الشاي التي دامت ساعة ونصف الساعة . تصدرت العروس والعريس المائدة ، شابان مشرقان جدا وصامتان بينما إنقضّت المجموعة على المائدة

احتسى الرجال من آل برانغوين البراندي مع الشاي ، وابتدأوا يخرجون عن أطوارهم ، وكان لألفريد الكئيب عينان متوهجتان لا تريان ، وطريقة حادة غريبة في الضحك تكشف أسنانه كلها . حدقت زوجته به ودفعت رأسها صوبه مثل أفعى ، بيد أنه كان لامباليا . أما فرانك برانغوين القصاب فلقد كان متورد الوجه ومتنمقا ووسيما . كان بمثابة تردد أجش لأخويه . وكان توم برانغوين بطريقته الصلبة قد سمح لنفسه أن تتحرر في النهاية .

سيطر الإخوة الثلاثة على الجماعة كلها . أراد توم برانغوين أن يلقي خطابا ، لأول مرة في حياته ، كان عليه أن يعّرض نفسه عن طريق الكلام .

ـ الزواج...

ابتدأ الحديث وعيناه تطرفان ، وكان ، مع ذلك ، متمأزقا تماما لأنه كان جادا تماما ومسرورا جدا في الوقت نفسه :

«الزواج...»

قال متحدثا بطريقة آل برانغوين البطيئة وبملء فمه : «هو ما خلقنا من أجله...» .

وقال الفريد برانغوين ببطء وغموض :

ـ دعه يتحدث ، دعه يتحدث!

وحملقت السيدة الفريد بعينين ساخطتين الى زوجها بينما استطرد توم برانغوين .

«فالرجل يستمتع في أن يكون رجلا ، فلأي غرض خلق الرجل إن لم يكن لغير الاستمتاع بذلك ؟...» .

وقال فرانك متنمقا :

ـ هذه كلمة صادقة .

واستمر توم برانغوين :

«وبطريقة مماثلة فالمرأة تستمتع بكونها امرأة ، في الأقل تظن أنها كذلك...» .

وهتفت امرأة أحد المزارعين :

ـ أوه ، لا تزعج نفسك بذلك .

وقالت زوجة فرانك :

ـ يمكنك أن تحلف بحياتك على أنهن يفترضن ذلك .

واستمر توم برانغوين :

ـ «والآن ، فلكي يكون الرجل رجلا ، فان ذلك يتطلب امرأة...» .

ورددت امرأة مكتئبة :

ـ الأمر يتطلب ذلك .

واستمر توم برانغوين :

ـ ولكي تكون المرأة امرأة ، فإن ذلك يتطلب رجلا ..

رنّ صوت نسائي :

ـ إرفعوا أصواتكم يا رجال .

واستمر توم برانغوين :

ـ لذلك يحدث الزواج...

وقال الفريد برانغوين :
ـ تمهل ، تمهل ، لا تجعلنا نهرب من سيقاننا .
وفي صمت مخيم ، مُلئت الأقداح ، وجلست العروس والعريس ، طفلين بوجهين منتبهين مشرقين عند رأس المائدة ، منشدهين .
واستمر توم برانغوين :
ـ ليس هنالك من زواج في السماء لكن هناك زواج على الأرض...
وقال الفريد برانغوين ماكرا :
ـ وهذا هو الفرق بينهما .
قال توم برانغوين .
ـ إحتفظ بتعليقاتك يا فرانك الى النهاية ، وبعدها سنشكرك عليها . ليس ثمة شيء آخر على الأرض الا القليل غير الزواج . إن بإمكانكم الحديث عن كسب النقود او خلاص النفس . أن بامكان المرء أن يخلص نفسه سبع مرات ، وبمقدوره أن يكسب مبلغا كبيرا من المال ، بيد أن روحه تظل تنق وتنق وتنق ، وتقول إن ثمة شيئاً ينقصها . في السماء ليس هناك زواج لكن هناك زواج على الأرض ، وإلا لانطبقت السماء فلا يعود لها من قرار .
قالت زوجة فرانك :
ـ إخرس أنت الآن .
وقال الفريد ساخرا :
ـ استمر يا ثوماس
واستمر توم برانغوين يخطب في الجماعة بأكملها :
ـ «لو قدر لنا أن نكون ملائكة وليس هناك من شيء اسمه رجل أو امرأة بيننا ، عندها يبدو لي أن الزوجين معاً يكونان ملاكا...» .
وقال الفريد برانغوين تعبا :
ـ إنه تأثير البراندي .
وقال توم برانغوين ، وكانت المجموعة تصغي الى الموعظة .
ـ لأن الملاك لا يمكن أن يكون أقل شأنا من الكائن البشري ، واذا كان يساوي الإنسان من دون روحه ، فإنه سيكون عندها أقل من الكائن البشري...
قال الفريد :
ـ بالتأكيد .

وسرت ضحكة عبر المائدة ، بيد أن توم برانغوين كان ملهما فاستمر قائلا :

ـ لابد أن يكون الملاك أكثر من الكائن البشري ، لذلك أقول إن الملاك هو روح الرجل والمرأة معا ، وهما يبعثان متحدين يوم القيامة كملاك واحد .

وقال فرانك : تبارك الرب!

وأعاد توم : تبارك الرب!

وسأله الفريد ساخرا :

ـ وماذا بشأن النساء المتبقيات .

وابتدأ الانزعاج يسيطر على الجماعة .

ـ هذا ما لا أعرفه . فأنّى لي أن اعرف أن هناك شخصا قد ترك يوم القيامة ؟ وليكن كذلك . أقول إنه عندما تتحد روحا رجل وامرأة معا فإنهما يكونان ملاكا .

ـ أنا لا أعرف شيئا عن الأرواح ، بيد أني أعرف أن حاصل جمع واحد زائد واحد يساوي ثلاثة في بعض الأحيان .

قال فرانك لكن ذلك لم يضحك أحدا سواه .

فرد توم قائلا :

ـ الأجساد والأرواح كلها سواء .

وسأله فرانك وقد اثار الخطاب عصبيته :

ـ ولكن ماذا بشأن زوجتك التي تزوجت قبل أن تعرفها ؟

ـ هذا ما لا أعرفه . إذا ما قدر لي أن أصبح ملاكا ، فإن تلك ستكون روحي المتزوجة وليست روحي المنفردة . إنها لن تكون روحي عندما كنت صبيا ، لأني لم أكن أمتلك عندئذ روحا تصلح لأن تكون ملاكا .

قالت زوجة فرانك :

ـ أستطيع التذكر دائما أن ابننا هارولد عندما كان مريضا ، لم يكن يفعل سوى النظر الى ملاك في المرآة ، وكان يقول : «انظري يا أماه ، ذاك ملاك» وكنت أقول له ليس هناك من ملاك يا بطتي لكنه لم يكن يصدق ، لذلك رفعت المرآة عن طاولة الزينة ، لكن ذلك لم يفرق كثيرا ، إذ ظل يقول إنه هناك . يا الهي ، لقد صدمني كثيرا ، وظننت أني سأفقد الصبي بكل تأكيد .

وقال رجل آخر ، هو زوج شقيقة توم :

ـ أتذكر أن أمي ضربتني ضربا مبرحا مرة لقولي إن هناك ملاكا على أنفي . فلقد رأتني

مرة أحملق وسألتني · لماذا تحملق الى أنفك ؟ كف عن ذلك . فقلت لها إن ثمة ملاكا عليه ، فجلدتني جلدا مبرحا ، لكنه كان هناك . ولقد اعتدنا أن نسمي الملائكة حسكا عندما تهب من حولنا ، وكنت أدفع أحد هذه الأشياء من على أنفي لسبب أو آخر .

قالت زوجة فرانك :

ـ هناك أشياء مدهشة تقف على أنوف الأطفال . أتذكر أن ابنتنا (هيمي) دفعت وردة كشتبان في وسط شمعة ثم وضعتها على أنفها ، ولقد سبب لنا ذلك هما كبيرا . رأيتها تلصقها على نهاية أنفها أيضا ، لكن لم يتبادر الى ذهني ابدا أن جلدها سيكون هشا فيرتفع الى الأعلى . كانت فتاة في الثامنة أو أكثر من العمر ، اوه ، يا إلهي ، حصلنا على كلأب صنارة حياكة ولا أعرف ماذا...

ابتدأ إلهام توم برانغوين يتلاشى ، ونسي كل ما يتعلق بالأمر ، وسرعان ما عاد يصخب ويصرخ مع البقية . وفي الخارج ، جاءت جماعة الإيقاظ تنشد أغنية عيد الميلاد ، وكانوا مدعوين الى البيت المحتشد ، وكان هناك كمانان وناي صغير . وفي الشرفة عزفوا أغنية عيد الميلاد وغنت المجموعة بأكملها بأعلى أصواتها ، ما عدا العريس والعروس فلقد جلسا بعينين مشرقتين ووجهين غريبين براقين ونادرا ما شاركا في الغناء ، أو أنهما اكتفيا بتحريك شفاههما .

غادرت جماعة الإيقاظ وجاءت عصبة الشباب . وكان هناك تصفيق حاد وصراخ وإثارة ، بينما إستمر عرض مسرحية سانت جورج القديمة الغامضة التي يمثل فيها كل رجل حاضر دور صبي مع دوي وقرع الهراوات ومقلاة التقطير .

قال توم برانغوين وعيناه ممتلئتان بالماء والضحك :

ـ والله لقد خارت قواي عندما كنت أمثل دور بعل زبول* ، ولقد أفقدتني الإحساس كأنما كسرت بيضة . ولكن لعلمكم ، عندما افقت ، أديت دور جوني روجر العجوز مع سانت جورج . لقد فعلت ذلك .

وكان يهتز من الضحك ، ثم سمعت قرعة أخرى على الباب وخيم الصمت .

قال أحدهم من الباب :

ـ إنها العربة .

فهتف توم برانغوين :

---

* إله فلسطيني قديم كان إلها للذباب

ـ ادخل .
ودخل رجل متورد الوجه مبتسما .
ـ والآن استعدا أنتما الإثنان كي تذهبا الى معرض الملحف .
صرخ توم برانغوين وأضاف :
«اقطفا الأقحوانة ولكن إذا لم تنهيا الأمر في لمح البصر فستنتهيان وتنامان منفصلين» .
نهضت آنا بصمت وذهبت كي تغير ملابسها ، وكان ويل برانغوين ينوي المغادرة لكن تيلي جلبت له قبعته ومعطفه وساعدته على ارتدائهما .
ونصحه خاله فرانك :
ـ عندما يكون الدهن في النار دعه يحترق!
وهتفت عمته ؛ زوجة فرانك ، مناقضة :
ـ إفعل الأمر بلطف ونعومة ، إفعله بلطف ونعومة .
وقال له زوج عمته :
ـ لا تلح على نفسك فإنك لست ثورا عند البوابة .
وقال توم برانغوين بحدة :
ـ دعوا الرجل يفعل الأمر على هواه ، لا تغدقوا عليه النصح ، فهذا يوم زفافه هذه المرة وليس يومكم .
وقال والده :
ـ إنه لن يحتاج الى العديد من العلامات ، فهناك طرق يجب أن يقاد المرء خلالها ، وهنالك بعض الطرق التي يمكن للأحول أن يسلكها وأحدى عينيه مغمضة ، لكن هذه الطريق لا يتيه فيها رجل أعمى أو أحول أو مشلول ، وهو ليس أحد هؤلاء ، حمدا لله .
وهتفت زوجة فرانك :
ـ لا تكن واثقا هكذا أيتها القدرات الماشية ، فهناك العديد من الرجال الذين لم يصلوا الا الى منتصف المسافة ، وليس بمقدورك أن تنقذ حياته ، فدعه يعيش الى الأبد .
وقال الفريد :
ـ لماذا ، وكيف تعرفين ؟
فردت ليزي ، شقيقة زوجته :
ـ ذلك واضح في مظهر بعضهم أحيانا .

وقف الفتى وعلى وجهه ابتسامة شاحبة وهو شبه منصت اليهم كان متوترا منشدها ، ونادرا ما كانت هذه الأشياء أو غيرها يمكن أن تؤثر فيه .

نزلت آنا في ملابسها النهارية ، مبهرة جدا قبّلت الجميع نساء ورجالا ، وصافح ويل برانغوين الجميع ، وقبّل أمه التي أجهشت بالبكاء ، وتوجهت الجماعة بأكملها نحو العربة .

أغلق الباب على العروسين ، وأطلقت آخر التوصيات عليهما ، وهتف توم برانغوين : تحرك!

تحركت العربة وشاهدا الضوء يتضاءل تحت شجرة الدردار . بعد ذلك هدأت الجماعة بأكملها ودخلت المنزل .

قال توم برانغوين وهو ينظر الى ساعته : ستكون هنالك ثلاث نيران جيدة مشتعلة في بيتهما ، لقد أخبرت إيما أن توقدها في التاسعة ثم تغلق الباب . إنها التاسعة والنصف الآن . سوف يكون لديهما ثلاث نيران متوهجة ومصباح مضاء ، وستدفئ إيما الفراش بقنينة الماء الدافئ ، لذلك أعتقد أنهما سيكونان على مايرام .

أصبحت المجموعة أكثر هدوءا ، وتحدثوا عن الزوجين الشابين وقال توم برانغوين

ـ قالت إنها تريد خادمة ، لكن البيت ليس كبيرا بما فيه الكفاية ، لذلك ستكون الخادمة تحت أنفها دائما . إن إيما ستفعل ما يطلب منها وعندها سيتفرغ الواحد منهما للآخر .

وقالت ليزي : ذلك أفضل ، إذ يكون المرء عندها أكثر تحررا .

واستمرت الجماعة تتحدث ببطء ، ونظر برانغوين الى ساعته وقال .

ـ دعونا نذهب وننشد لهما أغنية عيد الميلاد ، سنجد الكمانات في حانة « كوك آند روبن » .

وقال فرانك :

ـ نعم ، هيا .

نهض الفريد بصمت كما نهض زوج أخته وأحد إخوة ويل أيضا

خرج الرجال الخمسة ، وكان الليل مرصعا بالنجوم ، وكان نجم « الشعرى » يتوهج مثل إشارة عند جانب التل . أما « الجبار » فلقد كان وقورا رائعا وهو ينحدر نحو الأسفل .

تمشى توم مع أخيه ألفريد ، وكانت أعقاب الرجال تدق الأرض .

قال توم : ليلة رائعة .

ورد الفريد : نعم

ـ من الرائع أن يخرج المرء

ـ نعم .

تمشى الأخوان متقاربين ، وكانت آصرة الدم قوية بينهما . ولقد أحسّ توم دائما أنه الأصغر جدا قياسا الى ألفريد فقال له :

ـ لقد مر وقت طويل منذ أن تركت البيت

ورد الفريد :

ـ نعم ، اعتقدت أني شخت قليلا ، ولكني لست كذلك . إن الأشياء التي تملكها هي التي تبلى أما أنت فلا .

ـ لماذا ، ما الأشياء التي بليت ؟

ـ أغلب الأصحاب الذين كنت على علاقة بهم ، مثل ما حدث مع أي شيء له علاقة بي . لقد تفرق شملهم . على المرء أن يمضي وحيدا حتى لو كان ذلك الى جهنم حسب ، فليس ثمة امرؤ يمشي الى جانبك حتى الى هناك .

تأمل توم برانغوين تلك العبارة ثم قال :

ـ ربما لم تروّض أبدا .

فقال الفريد مزهوا :

ـ لا ، لم أكن هكذا أبدا .

أحسّ توم أن أخاه الأكبر يحتقره قليلا ، ولقد أجفل من تأثير ذلك بعض الشيء ، وقال له بعناد :

ـ لكل امرئ طريقته الخاصة ، فالكلب وحده هو الذي ليس له طريقة ، وماداموا غير قادرين على أن يأخذوا ما يعطون أو يعطوا ما يأخذون ، فيجب أن يستمروا وحدهم أو أن يحصلوا على كلب يتبعهم .

فقال له أخوه :

ـ بإمكانهم تدبير الأمر دون الحاجة الى الكلب .

ومرة أخرى أحسّ توم برانغوين بالتواضع ، معتقدا أن أخاه أكبر منه ، لكنه كان كذلك . وإذا كان رائعا أن يسير المرء بمفرده ، وهو كذلك ، فإنه لا يريد أن يذهب كل تلك المسافة .

اجتازا الحقل حيث كانت ريح حميمة تهب حول كتلة التل ، تحت ضوء النجوم . وصلا الى المرقى والى جانب بيت آنا . كانت الأضواء مطفأة ما عدا على ستائر الغرف في الطابق الأسفل وفي غرفة النوم بالطابق الأعلى ، وكان لهيب النار يتلألأ .

قال ألفريد برانغوين ·

ـ من الأفضل ألا نزعجهما .

فرد توم ·

ـ لا ، لا سنغني لهما أغنية عيد الميلاد للمرة الأخيرة .

وخلال ربع ساعة تسلق أحد عشر رجلا صامتين يترنحون من الثمل فوق الجدار ثم الى الحديقة قرب أشجار السرو ، خارج الشبابيك ، حيث كان وهج النار ضئيلا يتلألأ فوق الستائر ، بعدها جاء الصوت الثاقب ، كمانان وناي ينعبان في الهواء المتجمد .

وابتدأت جوقة مهتاجة من أصوات الرجال تغني في تناعم رث ·

ـ في الحقول مع قطعانهم باقون

أجفلت آنا برانغوين مصغية عندما ابتدأت الموسيقى ، وكانت خائفة ، فهمس لها · إنها جوقة الإيقاظ .

ظلت منقبضة ، قلبها ينبض بتثاقل ، وقد تملكها خوف غريب قوي بعدها تدفق غناء الرجال ، غير منظم ، وظلت مجهدة تصغي .

قالت بصوت واطئ :

ـ إنه والدي .

كانا صامتين ، وقال لها ·

ـ ووالدي

أصغت ساكنة بيد أنها كانت مطمئنة ، وعطست في السرير مرة أخرى بين ذراعيه ، فاعتصرها بشدة وهو يقبلها ، واستمرت الترنيمة في الخارج ، وكان كل الرجال يغنون أفضل ما يستطيعون وقد نسوا كل شيء آخر تحت تأثير الكمانين واللحن ، وتوهج ضوء النار وسط ظلام الغرفة ، وكان بمقدور آنا أن تسمع والدها يغني باستمتاع

فهمست أليسوا سخفاء ؟

وزحفا أقرب فأقرب متقاربين ، وقلباهما ينبضان أحدهما للآخر .

وحتى بعد أن عادت الترنيمة ، لم يعودا يسمعانها!

الفصل السادس

آنا منتصرة

تمتع ويل برانغوين بعطلة أمدها بضعة اسابيع بعد زواجهما ، وهكذا استمتع الإثنان بشهر العسل وحدهما في بيتهما .

وكانت الأيام تمر عليه كما لو أن السماء انطبقت على الأرض ، وأنه يجلس معها وسط الخرائب ، في عالم جديد ، وكل شيء آخر يبدو مغبشا ، وأنهما ناجيان مباركان ، وكل شيء يبدو مثل ما يحبان . في البداية ، لم يستطع التخلص من الإحساس الجديد بالذنب بسبب الحرية التي يتمتع بها أليس ثمة واجب في الخارج يناديه وهو لا يلبي النداء ؟

كان كل شيء على ما يرام عندما يحل الليل ، عندما تقفل الأبواب ويسحب الظلام من حولهما ، عندها يصبحان الساكنين الوحيدين للأرض المرئية ، أما البقية فهم تحت الطوفان ، ولأنهما وحيدان في العالم ، فلقد كانا شريعة نفسيهما ، فبمقدورهما أن يستمتعا ويبددا ويضيعا مثل إلهين دون وازع

أما في الصباح ، عندما تقعقع العربات ، ويتصايح الأطفال في الطرقات ، ويأتي البائعون المتجولون وهم ينادون على بضاعتهم ، وتدق ساعة الكنيسة معلنة الحادية عشرة ، وهما لم ينهضا من نومهما بَعد كي يتناولا طعام الإفطار ، فلا يستطيع أن يمنع نفسه من الإحساس بالذنب ، كما لو أنه يخرق القانون ، خجلا لأنه ليس مستيقظا ولا يعمل

وكانت تجيبه قائلة :

ـ تفعل ماذا ؟ ما هنالك حتى تفعله ، لن تفعل شيئا سوى التسكع .

ومع ذلك ، حتى التسكع كان محترما ، فهو على الأقل يبقي المرء على إتصال بالعالم في حين يتمدد الآن ساكنا مسالما ، بينما يتسلل ضوء النهار عبر الستارة المسدلة ، لقد انفصل عن العالم ، عزل نفسه ، في إنكار ضمني للعالم ، ولقد أزعجه ذلك .

بيد أنه لأمر رائع ومرضٍ أن يتمدد متبادلاً معها حديثا عابراً . كان ذلك أحلى مذاقا من شروق الشمس ، وهو ليس سريع الزوال . كان منزعجا حتى من الطريقة التي تستمر فيها ساعة الكنيسة بالرنين ، حتى ليبدو وكأن ليس من فراغ بين الساعات ، مجرد لحظات ، ذهبية وساكنة ، بينما كانت تمسح ملامحه بأطراف أصابعها ، لامبالية وسعيدة تماما ، ولقد أحب أن تفعل ذلك .

لكنه كان غريبا وغير معتاد على ذلك ، فكان كل شيء يختفي فجأة ويذهب . في يوم ما كان أعزب ، يعيش مع العالم ، وفي اليوم التالي ، كان معها ، نائيا عن العالم ، كما لو أن الاثنين مدفونان مثل بذرة في الظلام . وفجأة مثل ثمرة كستناء تسقط من غلافها ، كان يطرح اهابه عاريا متلألئاً على أرض هشة خصبة ، تاركا خلفه قشرة المعرفة والتجربة الكونية الصلبة سمعها في صياح الباعة المتجولين ، وضجيج العربات ، وهتافات الأطفال . وكان كل شيء مثل القشرة العارية الصلبة المنبوذة . وفي الداخل ، في نعومة الغرفة وسكونها ، كانت النواة العارية التي تنبض في حيوية صامتة ، ومستغرقة في الواقع .

داخل الغرفة كان ثبات هائل ، نواة أزلية حية . وبعيدا في الخارج حسب ، عند الحافة ، استمر الضوء والتهديم . أما هنا ، في المركز ، فأن العجلة العظيمة كانت ساكنة ، متمركزة حول نفسها . هنا سكون متوازن غير متصدع ما وراء الزمن ، لأنه بقي على حاله ، لا يستنفد ولا يتغير ولا ينتهي .

وعندما اضطجعا قريبين معا ، كاملين وبعيدين عن لمسة الزمن والتغير ، كانا كما لو أنهما مركز كل دوران الكون البطيء واضطراب الحياة السريع ، عميقا ، عميقا في داخلهما معا ، في المركز ، حيث كان هناك إشعاع كامل وكينونة أزلية ، واستغرق الصمت في ثناء . اللب الثابت لكل الحركات ، النوم الأزلي لكل يقظة . وجدا نفسيهما هناك ، وبقيا متمددين ساكنين متعانقين ، لأنهما حتى لحظتها كانا في سويداء الأزل ، بينما كان الزمن يهدر بعيدا ، بعيدا ، الى الأبد ، باتجاه الحافة .

ثم شرعا يعبران تدريجا من المركز العظيم الى أسفل دوائر الثناء والمتعة والسرور ، باتجاه الخارج شيئا فشيئا صوب الضوضاء والاحتكاك ، ولكن قلبيهما احترقا ولُطفا بالواقع الداخلي ، وكانا سعيدين على نحو لا يتغير .

وتدريجا شرعا يستيقظان ، وأصبحت الضوضاء في الخارج أكثر واقعية . ولقد فهما النداء الخارجي وردا عليه . وعدّا دقات الناقوس ، وعندما عدّا دقات منتصف النهار ، فهما أن الوقت هو منتصف النهار في العالم ، وكذلك بالنسبة إليهما .

تبين لها أنها كانت جائعة ، وبدا كأن جوعها طوال عمرها ، لكنه حتى تلك اللحظة لم يكن حقيقيا بما فيه الكفاية كي يوقظها ، فمن مسافة بعيدة كان بمقدورها أن تسمع الكلمات : « إني أتضور جوعا » ، ومع ذلك ، اضطجعت ساكنة ، منفصلة ، في سلام ، وكانت الكلمات لا تنطق ، وتلت ذلك نوبة استغراق أخرى .

ومن ثم ، وبهدوء تام ، بل وهي مندهشة قليلا ، وجدت نفسها في الحاضر ، قائلة :

ـ إني أتضور جوعا

فرد بهدوء :

ـ وأنا كذلك .

كما لو أن ذلك ليس مهما على الإطلاق ، واستغرقا في السكون الذهبي الدافئ ، وانسابت الدقائق غير مبالية أمام الشباك في الخارج

لكنها اهتاجت فجأة ضده وقالت له :

ـ إني أتضور جوعا يا عزيزي

ولقد سبب له ألماً طفيفاً أن يوقظ على هذا النحو ، فرد دون أن يتحرك :

ـ سننهض .

وأسندت رأسها عليه مرة أخرى ، وتمددا ساكنين مستغرقين . وفي حالة شبه واعية ، سمع رنين الساعة لكنها لم تسمعها ، فهمهمت مكررة :

ـ إنهض واعطني شيئا آكله .

ـ نعم

قال لها ووضع ذراعه حولها ، وتمددت ووجهها نحوه . كانا مندهشين قليلا لأنهما لم يتحركا ، وصلصلت الدقائق بصوت أعلى عند الشباك ، وقال :

ـ إذن دعيني أنهض .

رفعت ذراعها عنه متخلية ، منفصلة قليلا ، فتحرك من السرير ، وكان يتناول ملابسه ، فمدت يدها إليه وقالت :

ـ إنك رائع جدا .

وعاد مرة أخرى لحظة أو اثنتين

وفي النهاية ، ارتدى بعض الملابس ، وكان ينظر إليها بسرعة ، ثم ما لبث أن خرج من الغرفة . اضطجعت متحولة مرة أخرى الى سلام شاحب أكثر صفاء ، كما لو أنها روح ، وأصاخت السمع الى الضجة التي يصدرها من الطابق الأرضي ، كما لو أنها لم تعد جزءاً من العالم المادي .

كانت الساعة الواحدة والنصف . نظر الى المطبخ الصامت الذي لم تلمسه يد منذ الليلة الماضية ، مكتئبا بسبب الستارة المسدلة ، واسرع يسحب الستائر كي يعرف الناس أنهما لم يعودا في الفراش لفترة أطول ، حسن ، إنه بيته ، وهو أمر لا يهم . وبسرعة ، وضع الخشب في الموقد وأشعل النار ، وكان جذلا في داخله ، مثل مغامر على جزيرة غير مستكشفة توهجت النار فوضع الإبريق عليها . يا للسعادة التي غمرته ، كم كان البيت ساكناً ومنعزلاً ، فليس هناك أحد سواه وسواها في العالم .

لكنه عندما فتح الباب ونظر الى الخارج وهو نصف عار ، أحسّ أنه مختلس ومذنب ، فالعالم كان موجودا هناك على أي حال . ولقد تملكه من قبل الإحساس بأنه في أمان تام ، كما لو أن بيته كان سفينة نوح وسط الفيضان ، وأن الآخرين قد غرقوا جميعا ، غير أن العالم كان هناك ، والوقت هو الأصيل ، فلقد إنصرم الصباح واختفى ، وها هو ذا النهار يشيخ . أين ذلك الصباح البراق العذب ؟ أحسّ أنه متهم ، هل ولّى النهار ، بينما كان مضطجعا والستائر مسدلة ، وتركه دون أن يلحظه ؟

نظر مرة أخرى الى ذلك الأصيل الرمادي البارد ، وهو هش ودافئ ومتوهج . كان هناك املودان من الياسمين الأصفر في الصحن الصغير الذي يغطي إبريق الحليب ، وتساءل من كان هنا وترك هذه العلامة . أخذ الإبريق وأغلق الباب في عجلة . دع النهار وضوءه يختفيان ، دعه يمر دون أن يُرى ، فهو لا يهتم . ماذا يهم يوم أكثر أو أقل بالنسبة إليه ؟ إن بإمكان ضوء النهار هذا أن يسقط في النسيان غير مقضى إن أراد ذلك

قال لها عندما صعد الى الأعلى بصينية الإفطار :

ـ جاء أحدهم ووجد الباب مقفلا .

ثم أعطاها أملودي الياسمين . ضحكت وهي تجلس في السرير ، مثبتة الزهور بطريقة طفولية في صدر منامتها ، وكان شعرها البني مندفعا الى الخارج ، متوحشاً ، مثل هالة نورانية برّاقة حول وجهها ، وكانت عيناها الغامقتان تراقبان الصينية بلهفة

وهتفت وهي تستنشق الهواء البارد : ما أروعه ، أنا سعيدة لأنك فعلت الكثير . ثم مدت يدها متلهفة لمكانها :

ـ عد الى فراشك بسرعة فالجو بارد .

ثم دلكت إحدى يديها بالأخرى .

تخلص من الملابس القليلة التي كان يرتديها ، وجلس الى جانبها في السرير .

قالت له :

ـ تبدو مثل أسد ، وخصلة شعرك مندفعة الى الأمام ، وأنفك مندفع نحو طعامك
ورنت ضحكتها ، وتناولت إفطارها سعيدة .

غطس الصباح مبتعدا غير مرئي ، وكان الأصيل يمر بثبات أيضا ، وكان يدعه بذهب محطة ضوء نهاري واحدة مرت دون أن يشعر أحد بها . كان ثمة شيء لارجولي منابذ في الأمر ، ولم يكن بمقدوره أن يروض نفسه على الحقيقة . أحسَّ أن المفترض أن ينهض ، وأن يخرج بسرعة الى ضوء النهار ، ويعمل أو يستنفد نفسه بحيوية في هواء الأصيل الطلق ، مسترجعا ما تبقى له من النهار .

لكنه لم يذهب . حسنٌ ، إن المرء يمكن أن يُشنق من أجل شاة كما يمكن أن يشنق من أجل حمل صغير ، فإذا فقد هذا النهار من حياته ، فلقد أضاعه ، وتخلى عنه ، وهو لن يحصي خسائره ، فهي لا تهم ، إنها لا تهم إطلاقاً ، فلم يهتم إذن ؟ أعليه أن يكون خلفها في الإهمال والاستقلال ؟ كانت رائعة في لا مبالاتها وهو يريد أن يكون مثلها

كانت تأخذ الأمور على محمل الراحة ، فعندما كانت تسكب شايها على الوسادة فإنها تمسحه بإهمال بمنديل ثم تقلب الوسادة ، ولو حدث ذلك معه لأحس بالذنب ، بيد أنها لا تشعر بذلك ، ولقد سرّه ذلك . سرّه كثيراً أن يرى كيف أن هذه الأمور لا تعني لها شيئاً .

عندما انتهت الوجبة ، مسحت فمها بالمنديل بسرعة ، راضية وسعيدة ، واستقرت على الوسادة مرة أخرى ، وغرست اصابعها في شعره القريب الغريب الذي يشبه الفرو

ابتدأ المساء يخيم ، وكان الضوء شبه حي ، مزرقاً ، فأخفى وجهه في جسمها ، وقال لها :

ـ لا أُحب الغسق .

فأجابت :

ـ أنا أعشقه .

أخفى وجهه في جسمها الذي كان دافئاً ، شبيهاً بضوء الشمس . كانت تبدو وكأن ضوء الشمس في داخلها ، وكان وجيب قلبها شبيها بضوء الشمس وهو يسقط عليه . في داخلها كان نهار أكثر مما يمكن أن يمنحه النهار الحقيقي : كانت دافئة وثابتة ومجددة ، وأخفى وجهه في جسمها بينما كان الغسق يخيم ، واضطجعت وهي تحملق بعينيها الغامقتين غير المبصرتين ، كما لو أنها كانت تتجول الى الأمام دون أن يعوقها شيء من الغموض ، ولقد أعطاها الغموض المدى وأطلق إسارها .

أما هو ، وقد استدار نحو وجيب قلبها ، فكان كل شيء لديه ساكناً دافئاً جداً وقريباً جداً ، مثل مد الظهيرة . كان سعيداً بأن يكتشف هذا الدفء ، ظهيرة مكتملة ، أنضجته ورفعت عنه مسؤوليته وبعضاً من وعيه .

نهضا عندما أظلمت الدنيا تماما ، وبسرعة جدلت شعرها في عقدة وارتدت ملابسها في طرفة عين ، ثم هبطا الى الطابق الأسفل . اقتربا من النار وجلسا صامتين ، لا يتفوهان إلا بكلمات قليلة بين آن وآخر .

كان والدها على وشك القدوم ، فركمت الصحون بعيدا ، وهرولت من حولها ورتبت الغرفة ، واتخذت شخصية أخرى ، واجلست نفسها مرة أخرى . وجلس يفكر في نحته لحواء . كان يحب أن يتذكر نحته ، متأملا كل ضربة وكل خط . كم يحبها الآن! وعندما عاد الى تمثال الخلق مرة أخرى ، أحب أن يكمل حواءه ، رقيقة ومتوهجة ، بيد أنه لم يقتنع بها حتى الآن . إن الرب يجب أن يبذل جهدا إضافياً في هوى الخلق الصامت ، وأن آدم يجب أن يبدو متوترا كما لو أنه في حلم الأزلية ، وأن حواء يجب أن تتخذ شكلا وامضا مظللا كما لو أن الرب يصارع روحه من أجله ، ومع ذلك كانت إشراقاً .

وسألته :

ـ بم تفكر ؟

وجد صعوبة في الرد عليها ، إذ تملك روحه الخجل عندما حاول الاتصال بها .

ـ كنت أفكر في أن تمثال حوائي كان صلبا وحيا جدا .

ـ لماذا ؟

ـ لا أعرف ، يجب أن تكون أكثر...

أصدر إيماءة تدل على رقة لامتناهية .

خيم بعد ذلك سكون ممزوج بمتعة صغيرة . لم يكن بمقدوره أن يخبرها بالمزيد . لماذا لا يستطيع أن يخبرها بشيء أكثر ؟ أحسّ بنوبة من الحزن البائس ، لكن لم يكن هناك شيء ، فذهبت نحوه .

جاء والدها ، ووجد الأثنين متوهجين جدا ، مثل وردة متفتحة وأحب أن يجلس معهما ، فحيثما يكون عطر الحب ، فالأولى بكل من يأتي أن يستنشقه . كان كلاهما سريعا وحيّاً جداً ، يضيء من العالم الآخر ، وكانت تجربة رائعة لهما أن يدركا أن بإمكان أي شخص آخر أن يوجد هو أيضاً .

ومع ذلك ، كان الأمر يزعج ويل برانغوين قليلا ، في ذهنه التقليدي المرتب ، لأن

نسق الأشياء قد تغيّر تماما . وعلى المرء أن ينهض في الصباح ويغسل نفسه كي يكون كائنا بشريا محترما ، وبدلا من ذلك بقي كلاهما في الفراش حيث خيم الظلام ، ثم نهضا ، ولم تغسل وجهها أبدا ، بل جلست تتحدث الى والدها متألقة وعديمة الحياء مثل أقحوانة تفتحت للندى ، أو أنها تنهض عند العاشرة لتعود الى الفراش مبتهجة عند الثالثة أو الرابعة والنصف ، معرية إياه في وضح النهار ، وهي تفعل كل ذلك بمنتهى السعادة والاكتمال متجاهلة ارتيابه ، ولقد تركها تفعل به ما تشاء ، وأشرق بمتعة غريبة ، وكانت تتخلص منه مثل ما تريد ، وتسعى بسعادة كي يكون طوع يديها . وذهب ارتيابه أدراج الرياح ، كذلك بديهياته وقواعده ومعتقداته الصغيرة ، لقد نثرتها مثل لاعب القناني الخشبية الماهر ، وكان مندهشا جدا ومسرورا وهو يراها تتناثر .

وقف وحملق وكشّر في دهشة ، بينما كانت الواحة الصخرية تثب وترتطم وتتشظى أسفل التل ، منبوذة الى الأبد . صحيح حقاً القول إن الرجل لم يولد قبل أن يتزوج ، أي تغيير حقا!

تأمل قشرة العالم : بيوت ومصانع وقطارات ، القشرة المهملة ، أناس يعدون بسرعة ، عمل مستمر ، كل ذلك على السطح المهمل . هزة أرضية فجرته كله من الداخل . كأن سطح العالم قد تحطم كليا ؛ اليكستون والشوارع والكنيسة والناس والعمل وتقاليد النهار ، كلها سليمة ، ومع ذلك ، تقشرت الى اللاواقع ، تاركة الداخل المتعري ؛ الواقع ، كيان المرء الخاص ، الأحاسيس الغريبة والهوى والتوق والاعتقاد والإلهام ، فجأة أصبحت موجودة ، متكشفة ، صخور القاع الثابتة ، ناسجة صخرة مع المرأة التي يحبها . كان ذلك مربكا ، فالأشياء ليست كما تبدو! عندما كان طفلا ، اعتقد أن المرأة هي امرأة من مجرد مظهر تنورتها وملابسها التحتية ، والآن أنظر ، فإن العالم كله يمكن أن يعرى من ثوبه ، والثوب يمكن أن يقبع هناك مخلوعا سليما ، ويمكن للمرء أن يقف في عالم جديد ، وارض بكر ، عارياً في عالم جديد عار . كان أمرا صاعقا وإعجازيا .

هذا هو الزواج إذن . لم تعد الأشياء القديمة تهم فترة أطول . قد ينهض المرء الساعة السابعة ، ويعد حساءً وقت تقديم الشاي ، ويصنع الحلوى منتصف الليل ، ولا يرتدي ملابسه ويمكن أن يرتديها لم يزل غير متأكد تماما إن كان ذلك ليس إجراما ، بيد أنه كان اكتشافاً أن يجد المرء نفسه في حلٍّ من كل شيء ، وأن كل ما يهم هو أنه يجب أن يحبها وأنها يجب أن تحبه ، وأنهما يجب أن يعيشا يضيئان

أحدهما للآخر ، مثل الرب في شجرتين محترقتين لا تلتهمهما النار* ، وعلى هذا النحو عاشا في تلك الأثناء .

كانت أقل تقيّدا منه ، لذلك كانت تصل الى إمتلائها أسرع منه بكثير ، وسرعان ما تكون مستعدة ، بعد ذلك ، كي تستمتع بالعودة الى العالم الخارجي . كانت تهم بإقامة حفلة شاي ، فغطس قلبه أراد أن يستمرا مثل ما كانا ، أراد أن يقاطع العالم الخارجي ، أن يعلن انتهاءه الى الأبد . تملكته رغبة عميقة ولهفة في أنها يجب أن تبقى معه ، حيثما كانا في الكون عديم الزمان ، ذي الأطراف المكتملة والصدر الأزلي ، مؤكدا أن النظام القديم قد انتهى . وأن النظام الجديد قد بدأ كي يستمر الى الأبد ، الحياة الحية ، نابضة من اللب الوامض ، الى الفعل ، دون قشرة أو غطاء أو كذبة ظاهرية ، لكن لا ، ليس بمقدوره الاحتفاظ بها ، لقد أرادت العالم الميت مرة أخرى ، أرادت أن تمشي الى الخارج مرة أخرى ، أنها ستقيم حفلة شاي ، ولقد جعله ذلك خائفا وغاضبا وتعيسا ، كان خائفا من أن يضيع كل شيء جديد دخل فيه لتوه ؛ مثل الشاب في القصة الخرافية الذي يصبح ملكا مرة واحدة في كل عام وراعياً مضطهداً بقية السنة ؛ مثل سندريلا في المأدبة ايضا . كان متجهما ، بيد أنها ابتدأت بمرح تعد العدة لحفلة الشاي . كانت مخاوفه قوية جدا ، وكان منزعجا وكره فيها حدسها الضحل ومتعتها . ألم تكن تصادر الواقع ؛ الواقع الوحيد ، لأن كل ذلك كان ضحلا عديم القيمة ؟ ألم تكن تخلع بإهمال تاجها كي تكون شكلاً زائفا بدعوتها نساء زائفات أخريات لتناول الشاي ، بينما يمكنها أن تكون مكتملة معه وتبقيه مكتملا في أرض الترابط الحميم ؟ أما الآن فيجب أن يُخلع وتدمر متعته ، ويجب أن يوضع على الموت الضحل المبتذل للوجود الخارجي .

سجن نفسه في قلق ورعب ، بيد أنها نهضت الى تدفق حقيقي من العمل المنزلي ، طاردة إياه بينما كانت تدفع الأثاث جانبا كي تكنس . وقف منتظرا تعيسا قريبا منها ، أرادها أن تعود إليه . رعب ورغبة فيها لأن تبقى معه ، وقاده خجله من اعتماده عليها الى الغضب ، وابتدأ يفقد عقله ، وأخذت الدهشة تنحسر تدريجا . وأوشك كل الحب والنظام الجديد الرائع أن يضيع . إنها تصادر كل شيء مقابل الأشياء الخارجية ، إنها ستسمح للعالم الخارجي بالدخول مرة أخرى ، وسوف تلقي خارجا الثمرة الحية مقابل القشرة الزائفة . وابتدأ يكره هذا فيها ، مَسوقاً بالخوف من مغادرتها الى حالة انعدام الحيلة ، لذلك كان يطوف في البيت ببلاهة تقريبا

---

* اقتباس من الفصل الثالث من سفر الخروج في العهد القديم عندما كان موسى عليه السلام يرعى الغنم فتجلى له ملاك الرب في لهيب من نار من وسط العليقة فنظر فاذا العليقة تتوقد بالنار وهي لا تحترق (المترجم)

بينما انسابت في عملها ، مستغرقة ، وقد رفعت تنورتها الى الأعلى ، وقالت له :

ـ انفض السجادة إذا كنت ستظل تدور من حولي .

ذهب كي ينفض السجادة مغتاظا ومستاء . كانت غير فاهمة له بطريقة مرحة ، ولقد عاد كي يتسكع قريبا منها . قالت له نافدة الصبر ، كما لو أنها تتحدث الى طفل :

ـ ألا تستطيع أن تفعل شيئا ، ألا تستطيع أن تنحت ؟

فسألها بقسوة نتيجة الألم :

ـ وأين أفعل ذلك ؟

ـ في أي مكان!

وكم أغضبه ذلك الرد ، واستمرت قائلة .

ـ أو اخرج لتتجول أو اذهب الى حقل مارش ، لكن لا تتسكع من حولي ، كما لو أنك نصف إنسان هناك فقط .

أجفل منها وكرهها ، وذهب كي يقرأ . لم يسبق لروحه قط أن أحست أنها موبخة وغير مخلوقة على هذا النحو .

وسرعان ما وجب عليه أن يعود إليها . كان تحليقه من حولها ، ورغبته في أن تكون معه ، ولاجدواه ، والطريقة التي تدلت بها يداه ، ازعجتها فوق قدرتها على التحمل ، فاستدارت صوبه على نحو اعمى ومدمر ، وتحول الى مخلوق مجنون اسود ، مشحون بالغضب ، وارتفعت العواصف المظلمة في داخله ، وتوهجت عيناه سوداوين شريرتين كان متوحشا في روحه المخذولة .

مرَّ بعد ذلك يومان أسودان لاهثان وكانت شاعرة بالتبريح منه ، وأحس كما لو أنه في عالم سفلي عنيف اسود ، وارتجف رسغاه بطريقة مميتة ، ولقد قاومته . بدا شيء مظلم شرير تقريباً يلاحقها ، ويتسكع من حولها ويثقلها ، وكانت مستعدة أن تُعطي كل شيء مقابل أن يزاح عنها .

قالت له :

ـ يجب أن تجد شيئا تفعله . المفترض أن يكون لديك عمل ، أليس بمقدورك أن تفعل شيئا ؟

لم تزد روحه إلاّ اسوداداً ، وأصبح ظرفه مكتملا الآن ، واكتمل ظلام روحه . لقد وَلّى كلُّ شيء ، وبقي مكتملاً في رعبته السوداء الكثيفة ، إنه غير شاعر بها الآن ، إنها غير موجودة . لقد تكورت روحه المظلمة العاشقة حول نفسها ، وهي الآن مثبتة ومتمركزة حول

نواة حقد ، وجدت بتأثير قوته . كان ثمة شحوب قبيح على نحو غريب ، وجمود في وجهه ولقد ارتجفت رعبا منه ، كانت خائفة منه ، إذ كان يبدو كأنه يطبق عليها .

تراجعت أمامه ، وذهبت الى حقل مارش ، ودخلت مرة اخرى في حصانة حب والديها لها ، بينما بقي في بيت السرو أسود متماسكاً ، وذهنه ميت . كان غير قادر على العمل في نحت الخشب ، لذلك استمر يعمل في الحديقة دون كلل مثل فأر الخلد .

وعندما عادت الى البيت ، على التل ، ونظرت الى المدينة من على التل ، معتمة زرقاء ، استرخى قلبها وتملكه التوق . لم تعد تريد قتاله بعد الآن . أرادت الحب ، أوه ، الحب ، وابتدأ قدماها يغذان السير . أرادت أن تعود إليه ، وضاق قلبها من شوقها إليه .

كان يرتب الحديقة ، ويقطع حافات العشب ، ويرصف الممر بأحجار كان رجل عمل قادراً وممتازاً .

- لقد أنجزت عملاً رائعاً .

قالت وهي تقترب متفحصة متمشية في الممر ، بيد أنه لم يهتم ولم يسمع . كان عقله صلباً ميتاً .

أعادت القول ، حزينة قليلاً ؛

- لقد أنجزت عملاً رائعاً .

رفع بصره إليها ، بذلك الوجه الجامد ، عديم الملامح ، وعينيه اللتين لا تريان ، وقد صدمها ذلك ، وجعلها تصاب بالدوار والعمى ، ثم استدار بعيدا عنها بعد ذلك ، ورأت قامته الهزيلة وهي تنحني ، وتملكها تغير مفاجئ ، فأسرعت داخلة الى البيت .

بينما كانت تخلع قبعتها في حجرة النوم وجدت نفسها تبكي بمرارة وقد تملكها بعض من تلك العزلة الطفولية القديمة الحزينة ، فجلست ساكنة واستمرت تبكي . لم تكن تريده أن يعرف . كانت خائفة من حركاته القاسية الشريرة إذ كان رأسه مطرقا قليلا ، صلبا بطريقة منحنية قاسية . كانت خائفة منه ، إذ كان على ما يبدو يؤذي أنوثتها الحساسة ، ويؤذي ، على ما يبدو ، رحمها ، ويجد متعة في تعذيبها

دخل الى البيت ، فملأها وقع حذائه الثقيل رعباً ؛ صوت قاس صلب حقود . كانت خائفة من أنه سيصعد الى الطابق الأعلى ، لكنه لم يفعل ذلك ، فانتظرت قلقة لكنه خرج .

لقد ألحقَ بها الأذى في نقطة ضعفها . أوه ، إنه على ما يبدو يؤذيها ويدنسها في ما أُرسلت به إليه ؛ في أنوثتها الرقيقة جدا . ضغطت بيديها فوق رحمها بتبريح ، بينما كانت دموعها تسيل على وجهها . لماذا ، ولماذا ؟ لماذا يتصرف على هذا النحو ؟

وفجأة كفكفت دموعها ، يجب أن تعد الشاي ، فنزلت الى الطابق الأسفل ، وجهزت المائدة ، وعندما أصبحت المائدة معدة ، نادته :

ـ لقد أعددت الشاي يا ويل ، هل ستأتي ؟

كان بمقدورها أن تسمع نبرةالدموع في صوتها ، وابتدأت تبكي مرة أخرى ، لكنه لم يجب ، بل استمر في عمله انتظرت بضع لحظات في تبريح ، وزحف الخوف عليها ، وتملكها القلق والرعب مثل طفل ، ولم يكن بمستطاعها الذهاب الى بيت ابيها مرة اخرى ، فلقد أُمسكت بقوة بهذا الرجل الذي أخذها..

دخلت في الغرفة كي لا يرى دموعها ، وجلست إزاء طاولة وفي هذه الأثناء دخل الى غرفة غسل الأطباق ، وكانت حركاته تضايقها عندما تسمعها . كم كانت مرعبة الطريقة التي يضخ بها الماء . كانت قاسية جدا ، وتزيد الأمر سوءاً . كم كرهت أن تسمعه! وكم كرهها! وكم كان كرهه مثل ضربات عليها! وهطلت دموعها مرة أخرى

ثم دخل وكان وجهه خشبيا عديم الحياة ، ثابتاً ملحّاً . جلس لتناول الشاي ، ورأسه منحن فوق الكوب بطريقة قبيحة ، وكانت يداه حمراوين من الجو القارس ، وثمة حافات من التراب في أظافره ، واستمر يشرب الشاي .

كان عدم إحساسه السالب بها هو الذي لم تستطع احتماله ، شيء ما لزج وقبيح . كان ذكاؤه منهمكاً في نفسه . كم كان أمراً غريباً الجلوس مع امرئ منهمك مع نفسه ، مثل شيء سالب مستكين مقابل شخص آخر ، لا شيء يمكن أن يلمسه ، بل كان بمقدوره أن يمتص الأشياء الى داخل نفسه حسب .

كانت الدموع تنهمر على خديها . ولقد اجفله شيء ما ، وكان ينعم النظر إليها بعينيه الكارهتين الصلبتين البراقتين ، عينيه الصلبتين الثابتتين مثل عيني الطير الكاسر

وجاء الصوت ذو الصرير :

ـ ما الذي يبكيك ؟

أجفلت داخل رحمها ولم تستطع التوقف عن البكاء .

ـ ما الذي يبكيك ؟

حاء السؤال مرة اخرى بالنبرة ذاتها ، ولم يزل هناك صمت ، وليس ثمة شيء آخر غير استنشاق الدموع .

ومضت عيناه كما لو برغبة مؤذية ، فتقلصت وأصابها العمى . كانت مثل طير أسقط

الى الأرض ، وخيم عليها نوع من الإغماء الناتج من انعدام الحيلة ، أنها من مرتبة غير مرتبته ، وليس في حوزتها ما تدافع به عن نفسها ضده .

وإزاء مثل هذا التأثير لم تكن إلاّ سريعة العطب ، ولقد هزمت .

نهض وخرج من البيت ، وقد تملكته الروح الشريرة ، ومزقته وحولته حطاما ، وتصارعت في داخله ، وبينما كان يعمل في الغسق الذي ابتدأ يزداد ظلاما ، غادرته تلك الروح ، وأدرك فجأة أنها قد تألمت فلم يرها من قبل إلاّ منتصرة . وفجأة تمزق قلبه بهواها وانبعثت فيه الحياة من جديد في تبريح الهوى ، ولم يكن بمقدوره أن يفكر بدموعها فهو لا يطيق ذلك . أراد أن يذهب إليها ، ويسكب دم قلبه لها ، أراد أن يعطيها كل شيء ؛ دمه ، حياته الى آخر رشفة ، يسكب كل شيء من اجلها ، وتاق برغبة حنون كي يقدم نفسه إليها كلياً .

بزغت نجوم المساء والليل ، ولم تشعل المصباح ، واحترق قلبه بالألم والحزن ، وارتجف كي يذهب إليها .

وفي النهاية ، ذهب مترددا ، مثقلا بتضحيات عظيمة . لقد ولت القسوة منه ، وأصبح جسده حساسا ، مرتجفا قليلا . كانت يده حساسة بطريقة غريبة متقلصة ، بينما اغلق الباب ، وثبّت الرتاج برقة تقريباً . ولم ير في المطبخ غير توهج النار ، ولم يكن بمستطاعه أن يرى ، فارتجف رعبا خشية أن تكون ذهبت ، وهو يجهل مكانها ، وبخوف متقلص ، ذهب الى الشرفة ، والى نهاية السلالم ، وهتف :

ـ آنا!

ولم يكن هناك من مجيب . تسلق السلالم في خوف من البيت الفارغ ، الفراغ المرعب الذي جعل قلبه يقرع بالجنون . فتح باب غرفة النوم وبرق قلبه متأكداً أنها قد رحلت ، وأنه وحيد الآن .

لكنه رآها على السرير ، تضطجع ساكنة تماما ، وتصعب ملاحظتها ، وقد أولته ظهرها . ذهب ووضع يده على كتفها بهدوء شديد ، مترددا في خوف رهيب ، وتضحية بالنفس ، بيد أنها لم تتحرك ، فانتظر . ولقد آلمته اليد التي مست كتفها ، كما لو أنها تطردها ووقف متجهما بالألم وقال لها :

ـ آنا!

لكنها لم تزل ساكنة ، مثل مخلوق ملتف منسي . دق قلبه بنوبات ألم غريبة ، وفجأة ، وبحركة تحت يده ، أدرك أنها كانت تبكي ، بيد أنها كانت تمسك نفسها بشدة ، بحيث لا

تُكتشف دموعها . انتظرها ، واستمر التوتر ـ ربما لم تكن تبكي ـ ثم انخرطت فجأة في نوبة نشيج حادة ، وتوهج قلبه بالحب والمعاناة من اجلها ، راكعا بهدوء على السرير حيث يمسها حذاؤه الملوث بالطين . أخذها بين ذراعيه كي يهدئها . تجمع النشيج في داخلها ، وكانت تنشج بمرارة ، لكن ليس له فلم تزل بعيدة عنه .

أمسكها قريباً من صدره بينما كانت تنشج ، مبتعدة عنه . وكان جسده كله يتذبذب على جسدها

قال لها بالبساطة القديمة : لا تبكي ، لا تبكي .

كان قلبه هادئا ومخدرا في نوع من براءة الحب عندئذ ، لكنها استمرت تنشج مهملة إياه ، متجاهلة أنه قد أمسك بها ، وكانت شفتاه جافتين .

قال لها بالطريقة المنشدهة ذاتها :

ـ لا تبكي يا حبيبتي!

وفي صدره ، احترق قلبه مثل مصباح بالمعاناة . لم يستطع أن يطيق كآبة بكائها ، وكان بوده أن يخفف عنها بدمه ، وسمع ساعة الكنيسة تقرع ، كما لو أنها لمسته ، وانتظر بقلق كي تتوقف . وخيم الهدوء مرة أخرى .

ـ حبيبتي!

قال لها وقد انحنى كي يلمس وجهها المبلل بفمه .كان خائفا من أن يلمسها . كم كان وجهها مبللا! وارتجف جسده عندما أمسكها أحبها حتى أحسَّ أن قلبه ، وكل عروقه سوف تنفجر ، وتغرقها بدمه الساخن الشافي . كان يعرف أن دمه سوف يشفيها ويرممها

أخذت تهدأ تدريجاً ، وشكر الرب على رحمته لأنها ابتدأت تهدأ في النهاية . وأحس أن رأسه غريب متأجج ، وكان مايزال يحتضنها بذراعين مرتجفتين ، وبدا أن قلبه القوي جدا يغلفها .

في النهاية ، ابتدأت تقترب منه ، واستكانت إليه . اشتعلت اطرافه وجسده بالنار والتهبت . تعلقت به ، والتصقت بجسده ، فكنسه اللهيب ، وامسك بها في اوتار النار ، لو أنها تقبله! أحنى فمه الى الأسفل ، واستقبله فمها الرطب الهش ، وشعر أن عروقه سوف تنفجر من التبريح والشكر ، وكان قلبه مجنونا بالعرفان ، وكان بمستطاعه أن يسكب نفسه عليها الى الأبد .

عندما عادا الى نفسيهما ، كان الليل مظلماً جداً ، ومرت ساعتان من الزمن . تمددا ساكنين دافئين ضعيفين ، مثل مولودين جديدين معا ، وكان هناك صمت الذين لم يولدوا

تقريبا . كان قلبه فقط يبكي فرحا بعد الألم . لم يفهم ، ولكنه استجاب ، واعطى . لم يكن هناك من فهم . فلا يمكن أن يكون هناك سوى الإذعان والتسليم ، ودهشة الاكتمال المرتعدة

عندما استيقظ صباح اليوم التالي ، كانت الدنيا أثلجت ، وتساءل عما يكون ذلك الشحوب الغريب والرائحة الغريبة في الهواء . كان الثلج على العشب ، وعلى عتبة الشباك ، وقد أثقل أغصان السرو الرثة السوداء ، وكلّل المقابر في ساحة الكنيسة .

وسرعان ما ابتدأت تثلج من جديد ، وانعزلا في البيت ، وكان مسرورا بذلك لأنهما أصبحا منيعين في الصمت الظليل ، فليس ثمة عالم ولا زمان .

استمر هطول الثلج بضعة أيام . وفي يوم الأحد ذهبا الى الكنيسة ، وخلفا وراءهما خطاً من آثار الأقدام عبر الحديقة ، وترك أثراً منبسطاً ليده في الثلج على الجدار ، عندما وثب فوقه ، وتتبعا الثلج عبر ساحة الكنيسة . وطوال ثلاثة أيام كانا محصنين ، وفي حالة حب تام

كان ثمة نفر قليل من الناس في الكنيسة ، ولقد سرّها ذلك فلم تكن تهتم بالكنيسة كثيرا ، ولم تتساءل أبدا عن أي من المعتقدات . وكانت بحكم العادة والتقاليد مواظبة على حضور القداس الصباحي ، بيد انها توقفت عن المجيء دون أي تدبير مسبق . أما اليوم ، في غرابة الثلج ، وبعد هذا القدر من استهلاك الحب ، فقد أحست بالتوقع مرة اخرى ، وكانت مسرورة إنها لم تزل في العالم الأزلي .

بعد التحاقها بالمدرسة الثانوية ، ورغبتها في أن تصبح سيدة نبيلة ، وتقمصها مثالا خفيا ، اعتادت أن تصغي الى القداس ، وتجمع بعض الملاحظات ، ولقد سار ذلك سيرا حسنا فترة من الزمن ، وسألها الخوري أن تكون طيبة في هذه الطريقة او تلك . واستمرت تحس أن هدفها الأسمى هو أن تلبي هذه الوصايا .

لكن هذا سرعان ما انقشع . وبعد فترة قصيرة لم تعد مهتمة كثيرا في أن تكون طيبة ، وكانت روحها تبحث عن شيء ما ، ولم يكن ذلك موجودا في أن يكون المرء طيبا ، وان يبذل قصارى جهده . لا ، لقد أرادت شيئا آخر ، شيئا لم يكن واجبها المعد سابقا ، وبدا لها أن كل شيء هو مجرد واجب اجتماعي ، وليس فيه اي شيء من نفسها تحدثوا حول روحها ، بيد أنهم لم ينجحوا أبداً في أن يثيروا أو أن يضمنوا روحها ، وحتى ذلك الوقت لم تشمل روحها في الأمر أبداً

لذلك بينما كانت تشعر بالاحترام تجاه الخوري السيد لوفرسيد ، وباحساس دفاعي

عن كنيسة كوسثي ، راغبة دوما في مساعدتها والدفاع عنها ، إلاّ أنها لم تكن لتمثل إلاّ شيئا ضئيلا في حياتها .

ولم تكن شاعرة إلاّ ببعض السخط وعندما أثير اهتمام زوجها بالكنائس ، أصبحت بعد ذلك معادية للكنيسة المدعية ، وكرهتها لأنها لا تلبي اي شيء في داخلها لقد أخبرتها الكنيسة أن تكون طيبة : حسن جدا ، ليس لديها نية لمناقضة ما قيل . لقد تحدثت الكنيسة عن روحها ، حول رعاية الجنس البشري ، كما لو أن خلاص روحها يكمن في ادائها بعض الأفعال المفضية الى رعاية الجنس البشري ، حسن وطيب ، هكذا الأمر إذاً

ومع ذلك ، جلست في الكنيسة تلوح على وجهها علائم الرثاء والحدة . هل هذا ما جاءت كي تسمعه : كيف يمكنها بفعل هذا الشيء وعدم فعل ذلك الشيء أن تخلص نفسها ؟ إنها لا تنكر ذلك ، بيد أن ملامح الرثاء على وجهها كذبته ، ثمة شيء آخر أرادت أن تسمعه ، كان شيئا آخر أرادته من الكنيسة

ولكن من تكون حتى تقرر هذا ؟ وما الذي ستفعله بالرغبات غيرالملباة ؟ وانتابها الخجل ، فاهملت وتجاهلت رغباتها الخفية قدر استطاعتها ، ولقد اغضبها ذلك ارادت أن تكون مثل الآخرين ، راضية بطريقة لائقة .

ولقد أغضبها أكثر من اية مرة أخرى ، فللكنيسة تأثير جذب لا يقاوم عليه ، ولم يكن ليهتم كثيرا بذلك الجزء من الصلاة الذي كانت الكنيسة تمثله بالنسبة لها ، فلم يكن ببساطة يصغي الى الموعظة او الى معنى الصلاة . كان شيء سميك ومظلم وكثيف ومؤثر يتعلق به يزعجها كثيرا ويمنعها من الحديث بشأنه ، فلم تكن تعاليم الكنيسة في حد ذاتها تعني شيئا بالنسبة إليه ، «اغفر لنا خطايانا كما نحن نغفر لمن أساء إلينا»* . إن جملة مثل هذه ببساطة لا تؤثر فيه . ولو أنها كانت مجرد أصوات لكانت أثرت عليه بالطريقة نفسها ، لم يكن يريد أن تكون الأشياء مفهومة ، ولم يكن مهتما بشأن تجاوزاته ولا بشأن تجاوزات جاره عندما يكون في الكنيسة . دع ذلك لبقية ايام الأسبوع ، عندما يكون في الكنيسة ، يهمل تماما حياته اليومية ، فذلك عمل بقية ايام الأسبوع ، وبقدر تعلق الأمر بالعناية بالجنس البشري ، فهو لا يدرك ببساطة أن ثمة شيئاً من هذا القبيل إلاّ خلا ل أيام الأسبوع الأخرى عندما يكون مزاجه رائقا بما فيه الكفاية . أما في الكنيسة ، فإنه يريد عادة مظلمة لا اسم لها ، عاطفة كل خفايا الهوى العظيمة .

---

* حافظنا على النصوص الواردة من العهدين القديم والجديد كما وردت في الترجمة العربية المتوافرة رغم الصياغة العربية المرتبكة أحيانا (المترجم)

لم يكن مهتما بأفكاره او أفكارها ؛ أوه ، كم كان يزعجها ذلك! أهمل الموعظة ، أهمل عظمة الجنس البشري ، لم يعترف بالأهمية الآنية للجنس البشري ، ولم يكن يهتم بنفسه باعتباره انسانا ، ولم يكن يعطي اية اهمية لحياته في مكتب الرسم الهندسي ، او لحياته بين الرجال ، فلقد كان ذلك مجرد هوامش لمتن الكتاب . والحقيقة هي ارتباطه بآنا والكنيسة ، فكيانه الحقيقي يكمن في تجربته اللانهائية العاطفية السوداء ؛ تجربة المطلق ، والخفايا العظيمة هي الحروف الكبيرة المضاءة في النص ، هي احاسيسه مع الكنيسة .

لقد أغضبها الأمر بما يتجاوز اية مقاييس ، فلم يكن بمستطاعها أن تحصل من الكنيسة على الرضا الذي يحصل عليه ؛ فكرة أن روحها قد اختلطت على نحو حميمي مع فكرة نفسها . وفي الحقيقة كانت روحها ونفسها شيئاً واحداً ومتطابقا في داخلها ، بينما كان يهمل حقيقة نفسه ، كما لو أنه يدحضها تقريبا . كانت له روح ـ شيء مظلم ولاإنساني لا يهتم البتة بالإنسانية ، هكذا فهمت الأمر . وفي عتمة الكنيسة وغموضها ، عاشت روحه وانطلقت حرة مثل شيء غريب سري مجرد

كان غريبا جدا بالنسبة لها ، وفي هذه الروح الكنسية ؛ في تصوره لنفسه باعتبارها روحا ، كان على ما يبدو يهرب ويجري متحررا منها . وبطريقة ما حسدته على ذلك ، هذه الحرية المظلمة واحتفال الروح ، وجود غريب فيه ، ولقد ادهشها ، بيد أنها كرهته مرة أخرى . ومرة أخرى احتقرته ، وأرادت أن تدمر ذلك فيه .

في ذلك الصباح الثلجي ، جلس بوجهه البراق المظلم الى جانبها غير شاعر بها ، وبطريقة ما ، أحست أنه كان ينقل الى امكنة غريبة سرية الحب الذي تفجر فيه نحوها . جلس بوجه مستغرق مظلم ، شبه مسرور ، ينظر الى شباك صغير ملوّن الزجاج . رأت الزجاج ذا اللون الياقوتي ، والظل يتكوم على امتداد جزئه الأسفل من الثلج في الخارج ، وتمثال الحمل الأصفر المألوف ممسكا بالراية التي قتمت قليلا الآن ، لكنها في الداخل المظلم ، كانت مضيئة على نحو غريب ، وجلي

لقد أحبت دوما الشباك الصغير الأحمر والأصفر ، وكان تمثال الحمل يبدو ساذجا جدا ومتنبها ، ويرفع الى الأعلى حافره الأمامي ، ويثبت في الشق وبطريقة خطرة راية صغيرة عليها صليب احمر . كان الحمل أصفر ، شديد الشحوب ، ذا ظلال خضر . ومنذ أن كانت طفلة ، أحبت هذا المخلوق بالإحساس ذاته الذي تشعر به تجاه الحملان الصوفية الصغيرة ذات الأرجل الخضر التي كان الأطفال يعودون بها الى بيوتهم من المعرض في كل سنة . لقد أحبت دوما تلك الدمى ، وظلت تشعر بالحب الطفولي المسر نفسه لحمل الكنيسة هذا .

ومع ذلك ، كان ثمة شيء يزعجها فيه . لم تكن متأكدة قط من أن هذا الحمل الذي يحمل علما لا يريد أن يكون اكثر مما يظهر ، لذلك لم تثق به تماما ، وكان خليط من الكره في موقفها تجاهه .

والآن بجمعه عينيه وعقدهما بطريقة غريبة ، وبالتوتر الضئيل الناتج من النشوة على وجهه ، منحها الإحساس المزعج بأنه على اتصال مع الكائن ؛ الحمل الذي في الشباك . وخيمت عليها دهشة باردة ، وارتبكت روحها ، إذ جلس هناك ساكنا ، غير شاعر بالزمن ، والتوتر البراق الضئيل على وجهه . ما الذي كان يفعله ؟ أية علاقة بينه وبين الحمل في الشباك ؟

وفجأة تجهمت للمهيمن عليها ؛ هذا الحمل الذي يرفع الراية وفجأة تعرضت لتجربة صوفية مؤثرة ، وأمسكت بها قوة التقاليد ، ونقلت الى عالم آخر ، ولقد كرهت الأمر وقاومته .

وفي الحال ، لم يعد سوى حمل ساذج في الشباك مرة اخرى ، وأزيح الكره المظلم العنيف نجاه زوجها في داخلها . ما الذي يفعله جالسا هناك مكتئبا ، مستغرقا روحانيا ؟

تغيرت بحدة ، وضربته وهي تتظاهر بالتقاط قفازها ، وتلمست بين قدميه . وعاد الى وعيه مرتبكا بعض الشيء ، متكشفا كان اي امرئ آخر غيرها سيرثي له ، غير أنها أرادت أن تنتزعه بعنف ، ولم يكن يعرف ما الخطأ ، وما الذي كان يفعله ؟

وعندما جلسا لتناول العشاء في بيتهما ، انبهر من برودة العداء الصادرة عنها . لم تكن تعرف سبب غضبها ، بيد أنها كانت غاضبة .

سألته وهي تغلي بالعداء والانتهاك :

ـ لماذا لا تصغي الى الموعظة أبداً ؟

فأجابها :

ـ بل أفعل .

ـ إنك لا تفعل ، فأنت لا تسمع كلمة واحدة .

انكمش داخل نفسه كي يستمتع باحساسه الخاص . كان شيء تحتي يميزه ، كما لو أن عنده ملجأ سفلياً يقبع تحت العالم . ولقد كرهت الفتاة الشابة أن تكون معه في البيت عندما يكون على هذا الحال .

بعد العشاء انتبذ لنفسه مكانا في الشرفة ، مستمرا في حالة التجرد ذاتها التي كانت تمثل عبءاً لا يطاق بالنسبة لها ، ثم ذهب نحو رف الكتب ، وأخرج بضعة كتب كي يتصفحها ، وهي كتب لم تكن لتلقي عليها نظرة إلاّ لماماً .

جلس مستغرقاً يتصفح كتابا عن الإضاءة في كتب صلوات القداس ، ثم كتابا عن الرسوم في الكنائس الإيطالية والإنكليزية والفرنسية والألمانية . كان اكتشف ، وهو في سن السادسة عشرة ، مكتبة كاثوليكية رومانية ، حيث كان بمقدوره أن يجد فيها مثل هذه الأشياء .

تصفح الكتاب في استغراق ، مستغرقا في النظر لا في التفكير . كان مثل رجل عيناه في صدره ، هكذا قالت له بعد ذلك . وانضمت إليه كي تتفرج على الأشياء معه ، ولقد ادهشتها قليلا .كانت مرتبكة ومهتمة وغاضبة .

وعندما وصلت الى صور السيدة العذراء وهي تحمل جسد السيد المسيح ، انفجرت هاتفة :

ـ أعتقد أنها كريهة .

قال لها منشدها منذهلا :

ـ ماذا ؟

ـ هذه الأجساد ذات الجروح المعروضة كي تعبد .

فقال لها ببطء :

ـ إنها تعني القربان ، الخبز .

فهتفت :

ـ أهي كذلك! إذن فإنها أسوأ . أنا لا أريد أن أرى شقا في صدرك ، ولا أريد أن آكل جسدك الميت حتى لو عرضته علي ، ألا ترى ذلك أمراً فظيعاً .

ـ إنه ليس أنا ، بل يسوع .

ـ وماذا يهم إذا كان ، إنه أنت! وهذا أمر فظيع ، إنك تتمرغ في جسدك الميت وتعتقد أنك تأكله في القربان .

ـ يجب أن تقبلي به لما يعني .

ـ إن ذلك يعني أن جسدك الإنساني قد خلق كي يشق ويقتل ليعبد بعدها ، هل من شيء آخر ؟

خيم الصمت عليهما وابتدأت روحه تغضب وتنكمش

قال :

ـ وأعتقد أن ذلك الحمل في الكنيسة هو النكتة الكبرى في الأبرشية .

ثم انفجرت في ضحكة حمقاء .

فقال لها .

ـ قد يكون كذلك لأولئك الذين لا يرون شيئا فيه . انك تعرفين أنه رمز ليسوع لبراءته تضحيته .

فقالت له .

ـ بغض النظر عما يكون فهو حمل ، وأنا أحب الحملان جداً فأعاملهم كما لو أنهم عنون شيئا . أما بخصوص علم شجرة الميلاد ـ لا ـ .

وضحكت مرة اخرى بمكر .

فقال لها بعنف وعداء :

ـ هذا لأنك لا تعرفين شيئا   إضحكي مما تعرفين لا مما لا تعرفين

ـ وما الذي لا اعرفه ؟

ـ ما تعني هذه الأشياء .

ـ وما تعني الأشياء هذه ؟

كان كارها أن يجيبها ، إذ وجد الأمر صعباً فألحت :

ـ ماذا تعني ؟

ـ إنها تعني انتصار الانبعاث .

وترددت مرتبكة ، وتملكها الخوف   ما هذه الأشياء ؟ إذ أن ثمة شيئاً مظلماً ومؤثراً متد على ما يبدو امامها . اهي رائعة بعد كل شيء ؟

لكن لا ، رفضت الأمر :

ـ مهما اريد لها أن تعني ، فإنها مجرد دمية حمل ساذجة سخيفة ، وقد نتأ من ظلفه لم شجرة عيد الميلاد ، واذا أريد لها أن تعني شيئا آخر ، فيجب أن تتخذ مظهراً آخر ختلفاً عن ذلك .

كان في حالة انزعاج عنيف ضدها ، لأنه كان جزئيا خجلاً من حبه هذه الأشياء ، قد أخفى تعلقه بها ، وخجل من النشوة التي يرمي نفسه فيها مع هذه الرموز ، ولبضع حظات ، كره الحمل والصور الصوفية للعشاء المقدس كرها عنيفا رمادي اللون . ولقد نطفأت ناره إذ سكبت ماء باردا عليها ، وأصبح الشيء بأكمله عديم الطعم في نظره ، امتلأ فمه بالرماد .

خرج باردا بغضب يشبه الجثة ، تاركا اياها بمفردها . ولقد كرهها ، وتمشى خلال ثلج الأبيض تحت سماء من رصاص .

وبكت مرة أخرى بتكرار ممل للكآبة القديمة ، بيد أن قلبها كان مسترخيا ـ أوه ، أكثر استرخاء من قبل .

كانت راغبة تماماً في أن تفض الخلاف معه عندما عاد الى البيت مرة أخرى . كان متجهما وفظا ، غير أنه كان خامداً . لقد كسرت قليلا من شيء في داخله . وفي النهاية ، كان سعيداً لأن يخسر من روحه كل رموزه ، أن يجعلها تمارس الحب معه . احبها عندما وضعت رأسها على ركبته دون أن يطلب او يريد منها ذلك . احبها عندما وضعت ذراعيها حوله وأعلنت حبها له دون أن يمارس الحب معها ، وأحس بدم قوي في أطرافه مرة أخرى .

وأحبت نظرة عينيه المتعمدة ، البعيدة عندما استقرتا عليها : متعمدتين ، بعيدتين مع ذلك ، ليستا قريبتين ، ليستا معها . وأرادت أن تقربهما منها ، أرادت أن تأتي عيناه إليها وتعرفاها ، لكنهما لم تفعلا ذلك ، بل بقيتا متعمدتين بعيدتين متكبرتين مثل عيني صقر ساذجتين ولاإنسانيتين مثل عيني صقر ، لذلك أحبته وداعبته واثارته مثل صقر حتى اصبح حميما وتلقائيا ، لكن من دون رقة . جاء اليها مثل صقر عنيفا وصلبا ، مثل صقر يضرب ويأخذها . لم يعد صوفيا لفترة اطول ، واصبحت هدفه وحاجته وفريسته ، ولقد استغرقت ، وأشبع رغبته منها ، او هكذا آل الأمر في النهاية .

ثم ابتدأت بعد ذلك تردُّ عليه ، وأصبحت هي الأُخرى صقراً أيضاً وإن حاكت طير الزقزاق الحزين راكضة كئيبة صوبه ، فإنما كان ذلك جزءاً من اللعبة ، وعندما شبع منها ، اصدر حركة متفاخرة متغطرسة من جسده ، وقد أطرق رأسه في شبه ازدراء ، غير شاعر بوجودها ، مهملا وجودها الحقيقي . عندها انتفضت روحها ، واصبح جناحاها مثل الفولاذ ، وانقضت عليه . وعندما جلس على مجثمه ، يحملق بحدة من حوله بكبرياء متغطرسة ، وبكبرياء بارزة وحادة ، اندفعت نحوه واسقطته من موقعه بوحشية ، ونخزته من وقار الذكر الحميم ، وانهكته من كبريائه الواثقة ، حتى جنَّ جنونه ، والتهبت عيناه البنيتان الفاتحتان بالسخط ، ورأتاها الآن ، وقدحتا عليها مثل لهب من الغضب ، وميزتا فيها العدو .

حسن جداً ، إنها العدو ، حسن جداً . ولقد راقبته بينما كان يجوس من حولها ، وعندما ينقض عليها كانت تنقض عليه .

كان غاضبا لأنها أبعدت بلامبالاة معداته حتى اعتلاها الصدأ . قالت له :

ـ لا تتركها مثل النفايات في طريقي .

فصرخ بها :

ـ سأتركها حيث أحب .

ـ إذن فسأرميها حيث أحبّ .

حملق أحدهما الى الآخر ، هو بغضب في يديه ، وهي بروحها حادة بالإنتصار . كانا متناسبين تماما ، وها هما يظهران ذلك في القتال .

ركنت الى خياطتها ، وفي الحال ، أزيحت معدات الشاي ، وأخرجت موادها ، وثارت نفسه غضبا كره بما يتجاوز الحدود أن يسمع صرير القماش القطني ، وهي تمزق النسيج بحدة كما و باستمتاع ، ثم صوت ماكنة الخياطة الذي راكم الهياج في داخله في النهاية ، فصرخ بها :

ـ ألن توقفي هذا الضجيج ، ألا تستطيعين أن تفعلي ذلك أثناء النهار ؟

نظرت إليه بحدة عدائية وهي منهمكة في عملها :

ـ نعم لا أستطيع أن أفعله في النهار لأن لدي أشياء أخرى يجب أن افعلها ثم إنني أحب خياطة ، ولن تستطيع أن تمنعني من ذلك .

ومن ثم استدارت الى ترتيبها وتثبيتها وتطريزها ، وهاجت اعصابه غضبا عندما ابتدأت ماكنة الخياطة وتمتمت وأنّت .

لكنها كانت تسلي نفسها . وكانت منتصرة سعيدة بينما كانت الأبرة السريعة ترقص نشوة ، وهي تثقب هدبا ، راسمة الخطوط تحت طعناتها الحية ، دون مقاومة ، وجعلت ماكنة تهمهم ، واوقفتها بطيش ، وكانت اصابعها رشيقة سريعة مسيطرة .

إذا ما جلس خلفها متصلبا بغضب عنين ، فإن ذلك لا يسبب لها إلا حيوية مرتجفة تدفق الى طاقتها ، واستمرت تعمل . وفي النهاية ، آوى الى الفراش ، مستشيطا ، واضطجع متيبسا بعيدا عنها ، واعطته ظهرها . وفي الصباح لم يتبادلا الحديث إلا بكياسة باردة

وعندما عاد الى البيت ليلا ، وقد رقّ قلبه ، وسخن حبّاً لها ، وعندما أصبح مستعداً أن يشعر أنه على خطأ ، وعندما توقع الشيء ذاته منها ، كانت تجلس هناك ، على ماكنة خياطة ، والبيت بأكمله مغطى بالقماش الأبيض المشبك ، ولم تضع حتى ابريق الشاي على النار ، وظلت تحملق إليه مظهرة القلق ، وهتفت :

ـ أليس الوقت متأخراً ؟

لكن وجهه تصلب بالغضب ، فمشى الى الشرفة ثم عاد وخرج من البيت مرة اخرى ، فغطس قلبها ، وبسرعة شديدة طفقت تعد الشاي .

سار مثقل القلب عبر الطريق المؤدي الى اليكستون ، فعندما يكون في هذه الحالة فانه لا يفكر ابدا . وأطلق سهم عبر بوابات ذهنه ، وانغلق في داخله أسيراً . عاد الى اليكستون ، احتسى قدحا من الجعة . ترى ما الذي سيفعله ؟ إنه لا يريد أن يرى أحداً!

سيذهب الى نوتنغم ؛ الى مدينته . توجه الى المحطة واستقلّ قطارا ، وعندما وصل الى نوتنغم ، لم يكن لديه ، مع ذلك ، مكان يأوي اليه ورغم ذلك ، ناسبه أكثر أن يغذ السير في شوارع مألوفة لديه . ذرع الشوارع بقلق مجنون ، كما لو كان يركض مهتاجا ثم استدار نحو مكتبة ، ووجد كتابا عن كاتدرائية بامبرك . هذا اكتشاف! هنا شيء من أجله! دخل الى مطعم هادئ كي يتفحص كنزه ، واضيء بنوبات من السعادة وهو يتنقل من صفحة الى أخرى .

لقد وجد شيئاً ما في النهاية في تلك النقوشات ، وكانت روحه في حالة رضا هائل . لم يجئ باحثا عن شيء ، ولم يجد . كان في هوى الامتلاء ؛ تلك كانت أروع المنحوتات والتماثيل التي رآها . واستقر الكتاب بين يديه مثل باب ، وكان العالم من حوله مجرد انغلاق ؛ غرفة ، بيد أنه ذاهب . تلكأ عند تمثال امرأة رائع ؛ كونٌ مدهشٌ مشكلٌ بدقة ، متبلور من حوله كلما نظر مرة اخرى الى التيجان والى الشعر المجدول والى وجوه النساء ، وأحب أكثر من أي شيء آخر النص الألماني الذي يستعصي عليه فهمه . كان يفضل الأشياء التي لا يستطيع أن يفهمها بعقله ، لذلك احب غير المكتشف ، وغير القابل للاكتشاف تأمل الصور بكثافة ، وكانت تلك تماثيل خشبية ، ورأى الكلمة الألمانية هولز ، واعتقد أنها تعني الخشب . تماثيل صممت كي تروق لروحه! وزاد سروره مليون مرة . كم كان العالم غير مكتشف ، وكيف يكشف عن نفسه لروحه! وكيف كانت حياته شيئا رائعا مثيرا ، وفي متناول يده . الم تجعل كاتدرائية بامبرك العالم ملكه ؟ واحتفل بقوته المنتصرة ، وبالحياة والحقيقة ، واحتضن الخزائن الشاسعة التي ورثها .

لكن الوقت قد حان للذهاب الى البيت . إن من الأفضل له أن يلحق بالقطار ، فطوال الوقت ، كان ثمة سجن دائم في قاع روحه ؛ أزلي حتى لا يمكن أن ينساه . وهكذا استقل قطارا عائدا الى اليكستون .

كانت الساعة العاشرة عندما تسلق التل المؤدي الى كوسثي ، حاملا كتابه ذا الجلد اللين عن كنيسة بامبرك . ولم يكن فكر في آنا حتى تلك اللحظة ، ليس على نحو محدد ، فلقد كان الإصبع المظلم الذي يضغط على الخدش قد سيطر عليه دون تفكير

أجفلت آنا من الشعور بالذنب عندما غادر البيت ، إذ اسرعت الى اعداد الشاي ، آملة أنه سيعود ، كما أعدت بعض الخبز المقدد ، وجهزت كل شيء ، لكنه لم يرجع ، فصرخت بغبط وبخيبة أمل : لماذا يجب أن يذهب ؟ لماذا لا يعود الآن ؟ لماذا تنشب مثل هذه المعركة بينهما ؟ لقد أحبته ، وهي تحبه الآن فلماذا لا يكون أكثر رقة ولطفاً معها ؟

انتظرت بأسى ، وابتدأ مزاجها يسوء ، وخرج من دائرة افكارها إذ فكرت بطريقة غير ُثقة بأي حق يتدخل في خياطتها ؟ وأنكرت بطريقة غير لائقة عليه حق التدخل في ؤونها على الإطلاق . يجب ألاّ يتدخل احد في شؤونها ، الم تكن هي نفسها وهو الغريب يها ؟

ومع ذلك سرت رعدة خوف في داخلها ماذا لو هجرها ؟ وجلست تستحضر المخاوف لمعاناة حتى بكت من شفقتها على نفسها ، فلم تكن تعرف ماذا تفعل إن هجرها أو تحول دها . ولقد اصابتها الفكرة بالقشعريرة ، وجعلتها مهجورة متصلبة . وظلت محصنة بصورة بتة ضده ، هو الغريب الخارجي ؛ الكائن الذي أراد أن ينتحل السلطة . ألم تكن نفسها ؟ تى لامرئ ليس من نوعها أن يتلبس السلطة ؟ كانت تدرك أنها ثابتة لا تتغير ، ولم تكن ائفة من كيانها ، بل كانت خائفة من كل ما هو موجود خارج نفسها ، يضغط من حولها ، تي اليها ويحتل جزءا منها ، متلبسا شكل زوجها ، هذا العالم الشاسع الضاج الغريب الذي س نفسها ، وهو يمتلك اسلحة كثيرة ، ويمكن أن يضرب من عدة جبهات .

عندما وصل الى الباب ، توهج قلبه بالرثاء والحنان ، فلقد بدت ضائعة مهجورة شابة . قت عليه نظرة مفزوعة ، ودهشت إذ رأته مشرق الأسارير ، صافيا جميل الحركات ، كما ـ أنه قد نُقي . وسرت خلالها نوبة مجفلة من الخوف ، وخجلت من نفسها .

قالت له

ـ هل تريد أن تأكل شيئا ؟

أجابها غير راغب في أن تخدمه .

ـ سأحضره بنفسي .

لكنها جلبت الطعام ، ولقد سره أن تفعل ذلك من أجله ، وأصبح مرة أخرى سيداً تألقاً .

قال لها بلطف :

ـ ذهبت الى نوتنغم .

فسألته بنبرة ازدراء :

ـ الى أمك ؟

ـ لا ، لم اذهب الى البيت .

ـ لمن ذهبت كي تراه إذن ؟

ـ لم أذهب لرؤية شخص معين .

ـ فلم ذهبت الى نوتنغم إذن ؟

ـ ذهبت لأني اردت الذهاب .

وابتدأ يغضب لأنها طفقت تناكده بينما هو رائق ومشرق .

ـ ومن رأيت ؟

ـ لم أر أحداً .

ـ لم تر أحداً ؟

ـ ومن المفترض أن أراه ؟

ـ ألم تر أحداً تعرفه ؟

فأجابها منزعجا :

ـ لا ، لم أر أحداً .

صدقته وبرد مزاجها .

ـ اشتريت كتابا . وسلمها المجلد استرضاء .

نظرت بكسل الى الصور . كانت النسوة نقيات جميلات بأثوابهن المسدلة ، وأصبح قلبها أبرد . ماذا يعنين له ؟

جلس وانتظرها وانكبت على الكتاب .

قال لها وصوته مثار وسعيد :

ـ ألسن رائعات .

وتدفق دمها غير أنها لم ترفع رأسها .

ـ نعم .

ردت عليه رغم نفسها . كانت مجبرة إذ كان غريبا جذابا ، يسلط عليها نوعا من القوة .

اقترب منها ، ولمسها برقة ، ودق قلبها بهوى متوحش ؛ هوى نابض متوحش ، بيد أنها قاومت حتى تلك اللحظة . كان المجهول دائما ، المجهول دائما . وتشبثت بنفسها التي تعرفها . غير أن الطوفان المرتفع حملها بعيدا .

لقد أحب كلاهما أن يطفوا مرة اخرى بحنان واكتمال

سألته مشعة مثل زهرة متفتحة لتوها ودموعها مثل الندى :

ـ أليست هذه أروع من أية مرة سبقتها ؟

احتضنها قريبا منه ، وكان غريباً ومنشدهاً .

رد جازماً بصوت طفولي سعيد ، متذكرا خوفها الذي لم تتخلص منه حتى الآن :

ـ إنها تزداد روعة في كل مرة .

وهكذا استمرت الحال بهما ، تكرار الحب والخصام . ففي يوم ما يبدو ، كل شيء وكأنه قد تناثر ، وافسدت كل الحياة ، وتحطمت وعزلت والقيت في القمامة . وفي اليوم التالي ، يبدو كل شيء رائعا مرة اخرى ، رائعاً حسب . وفي يوم ما تظن أنها ستفقد عقلها من وجوده المجرد ، وكان صوت شربه يبدو غير مستساغ لها . وفي اليوم التالي كانت تحب وتستمتع بالطريقة التي يجتاز بها ارضية البيت ، وكأن الشمس والقمر قد اجتمعا في شخص واحد .

لكنها اغتاظت في النهاية من فقدان الاستقرار ، وعندما تحل الساعات المكتملة ، لم يعد قلبها ينسى انها ستمر مرة اخرى . كانت متوترة . الاطمئنان ، الاطمئنان ، الاطمئنان الداخلي ، الإيمان بديمومة الحب ، هو ما ارادته ، وهو مالم تحصل عليه . ولقد أدركت أنه لم يحصل عليه ايضا .

ومع ذلك ، كان عالما رائعا . وكانت طوال الجزء الأعظم منه مستغرقة في روعته ، بل حتى ويلاته الشديدة ، كانت رائعة في نظرها .

كان بمقدورها أن تكون سعيدة ، ولقد أرادت أن تكون كذلك . وكانت تستاء منه عندما يتسبب في تعاستها ، فيصبح في مستطاعها أن تقتله ؛ أن ترميه خارجا . وفي العديد من الأيام ، كانت تنتظر الساعة التي يغادر فيها لعمله ، عندها تطلق اسار انسياب حياتها الذي يبدو أنه يغلقه ، وعندها تصبح حرة ، وكانت حرة ممتلئة بالبهجة . كان كل شيء يثير سعادتها أخذت السجادة وخرجت كي تنفضها في الحديقة ، وكانت بقع من الثلج تغطي الحقول ، والهواء عذب . وسمعت البطات تنعق عند البركة ، ورأتها وهي تنزل الى الماء وتبحر عبره كما لو أنها تشرع في غزو العالم . راقبت الخيول المتوحشة ، وقد قص شعر احدها الناعم عند البطن ، فكأنه ارتدى سترة وجوارب طويلة من الفرو البني ، وكانت الخيول تقف ، وهي تتبادل القبلات في ذلك الصباح الشتوي ، قرب جدار الكنيسة . كان كل شيء يثير بهجتها بعد أن ذهب الآن العازل ، وازيل العائق ، اصبح العالم ملكها ، وفي ترابط معها .

أنت نشطة باستمتاع فلا شيء يجلب السرور الى قلبها أكثر من أن تنشر الغسيل في الريح القوية ، تلك التي تهب بكل عنفوانها على استدارة التل ، ممزقة قطع القماش الرطبة من بين يديها ، وهي تخفق باستمرار . ضحكت وتصارعت معها ، وابتدأ الغضب ينتابها ، غير أنها أحبت أيام عزلتها .

بعدها عاد الى البيت في الليل ، وقطبت حاجبيها بسبب تلك المنافسة التي لا نهاية لها بينهما . وما ان وقف عند عتبة الباب حتى تغير قلبها ، وتحول الى فولاذ ، وتلاشت ضحكات النهار ونكهته منها . لقد تيبست .

كانا يخوضان معركة مجهولة دون وعي منهما . كانا متحابين إذ كان الهوى موجودا ، غير أن الهوى كان يستنفد في المعركة ، والمعركة العميقة الشرسة التي لا اسم لها مستمرة ، وكان كل شيء يتوهج بشدة من حولهما . وخلع العالم ملابسه ، وبان كريها بعريه البدائي الجديد .

حل يوم الأحد ، عندها خيمت عليها نوبة غريبة منه ، ولقد احبتها قليلا . إذ ابتدأت تصبح اكثر شبها به . فطوال ايام الأسبوع يكون هناك ومض السماء والحقول ، وتبدوالكنيسة الصغيرة تثرثر مع البيوت طوال الصباح ، لكن في ايام الآحاد ، عندما يبقى في البيت ،كان ظلام غامق اللون كثيف يتجمع على وجه الأرض ، وتبدو الكنيسة كأنها تملأ نفسها بالظل ، وتصبح كونا كبيرا بالنسبة لها ، ويتوهج احتراق بلون ازرق وياقوتي ، وصوت عبادة من حولها . وعندما تفتح الأبواب ، وتخرج الى العالم ، كان يبدو عالما جديد الخلق ، فتخطو نحو انبعاث العالم ، وقلبها يدق لذكرى الظلام والهوى .

فإذا ما ذهبا الى حقل مارش ، وهو مايحدث غالبا جدا لشرب الشاي ايام الآحاد ، عندها تكتسب عالما آخر جديدا خفيفا ، لا يعرف ابدا الظلام والزجاج الملوّن ولا نشوة الترتيل . كان زوجها يمحق وتعود مع ابيها الذي كان عذبا حرا طوال النهار مرة اخرى . اما زوجها بكثافته وظلامه ، فلقد انمحى فتركته ونسيته ، وقبلت والدها .

ومع ذلك عندما عادت مع الشاب الى البيت مرة اخرى ، وضعت يديها على ذراعه متوجسة خجلى قليلا ، وتوسلت به يدها الاّ يؤاخذها على منابذتها ، بيد أنه اصبح غامضا ، وبدا كأنه فقد بصره ، كما لو أنه لم يكن معها .

بعد ذلك اعتراها الخوف ، تريده عندما ينساها . كان الخوف يكاد أن يفقدها صوابها ، واصبحت هشة مكشوفة للأذى ، واصبحت على اتصال حميم جدا ، واصبحت كل الأشياء المتعلقة بها حميمة ، عرفتها عن كثب ومحبة ، مثل،موجودات تحلق فوق رأسها . ماذا يحدث لو عادت جميعها صلبة منفصلة مرة اخرى متخلية عنها ، مزعجة ، متميزة وتصبح وقد عرفتها جيدا تحت رحمتها .

أثار هذا خوفها ، فلقد كان زوجها دائما بمثابة المجهول الذي أُرسلت اليه . كانت الزهرة التي اغويت كي تبرعم ، وليس ثمة فسحة للتراجع . فهو يمتلك عريها بين

يديه . ومن هو ، وما هو ؟ شيء أعمى ؛ قوة مظلمة دون معرفة . وأرادت أن تحمي نفسها .

بعد ذلك جمعته الى نفسها مرة أخرى . ولقد ارضاها ذلك لحظة ، لكن ما إن مر الوقت ، حتى ابتدأت تدرك اكثر فأكثر ، أنه لم يتغير وأنه شيء ما مظلم وغريب عنها كانت قد ظنته مجرد انعكاس براق لنفسها ، وعندما مرت الأسابيع والشهور ، ادركت أنه نقيضها المظلم ، وانهما نقيضان وليسا متكاملين .

لم يتغير ، وظل على حاله منفصلا ، وعلى ما يبدو توقع منها أن تكون جزءا من نفسه ، امتدادا لأرادته ، وأحست أنه يحاول اكتساب القدرة عليها دون أن يعرفها . ترى ماذا يريد ؟ هل يتنمر عليها ؟

ما الذي تبغيه ؟ واجابت نفسها بأنها أرادت أن تكون سعيدة وطبيعية مثل ضوء الشمس ، وساعات النهار المزدحمة وفي قرارة نفسها أحست أنه يريدها مظلمة وغير طبيعية . وفي بعض الأحيان ، كان يبدو كأنه الظلام ، وهو يخمدها ويغطيها ، وثارت مفزوعة تقريبا ، وانقضت عليه انقضت عليه ، وجعلته ينزف ، واصبح شريرا ، ولأنها كانت تخشاه وتبقيه مرعوبا ، فلقد اصبح شريرا ، واراد أن يحطم . وعندها كان القتال بينهما قاسيا .

ابتدأت ترتجف . أراد أن يفرض نفسه عليها ، وابتدأ هو الآخر يرتعد ، ورغبت في أن تهجره ، أن تتركه فريسة في العراء ، وتطلق عليه كلاب الظلام غير النظيفة كي تفترسه عليه أن يضربها ، ويجبرها على ان تبقى معه ، بينما قاتلت كي تبقي نفسها حرة منه .

وسلك كل منهما الآن طريقه ، وكانا معتمين وملطخين بالدم ، شاعرين أن العالم بعيد عنهما تماما ، غير قادر على نجدتهما ، حتى ابتدأ التعب يساورها . وعند نقطة معينة اصبحت جامدة ومنفصلة عنه تماما ، وكان دائم الاستعداد كي ينفجر بنيّة القتل ضدها . ولقد نهضت روحها ، وتركته وسلكت طريقها ، ومع ذلك ، وفي مرحها الظاهر الذي جلب التعاسة لروحه بسبب المعارضة ، ارتجفت كما لو أنها تنزف .

ومثل ما هو الأمر دائما وأبدا ، حل الحب الصافي مثل أشعة شمس بينهما عندما كانت مثل زهرة له في الشمس جميلة ، مشرقة جدا ، محبوبة بصورة رائعة ، لدرجة أنه لم يكن بمستطاعه أن يتحمل الأمر ، وعندها ، وكما لو نبتت لروحه ستة أجنحة من السعادة ، وقف مستغرقا في الضوء ، شاعرا أن إشعاعه المستمد من الخالق يخفق خلاله مثل نبض ، بينما كان يقف في لهيب السناء المتقد ، ناقلا نبض الخلق .

ومثل ما هو الأمر دائما وابدا ، ظهر لها مثل لهب القوة المخيف . وفي بعض الأحيان ، عندما كان يقف عند الباب ، ووجهه مضاء ، كان يبدو مثل عيد البشارة لها ، فينبض قلبها بسرعة ، وتراقبه متعلقة كان له كيان مظلم ، مشتعل تخشاه وتقاومه . كانت تابعة له كأنه ملاك الوجود . صبرت عليه ، وانقادت لرغبته ، وارتجفت في خدمته .

ثم اختفى كل ذلك بعيدا ، فأحبها لطفولتها ولغرابتها عنه . ومن أجل دهشة روحها التي كانت مختلفة عن روحه ، والتي جعلته أصيلا عندما كان المفترض أن يكون زائفا ، واحبته للطريقة التي يجلس بها ، مسترخيا على الكرسي ، او الطريقة التي يدخل فيها من الباب ، ووجهه متفتح متلهف . أحبت الطريقة التي يقرع بها جرس الباب ، وأحبت صوته المتلهف ، ولمسة المجهول فيه وبساطته المتناهية .

ومع ذلك ، لم يكن اي منهما مقتنعا تماما ، وأحس أنها في مكان ما داخل نفسها تحترمه ، وأنها كانت تحترمه بقدر ارتباطه بنفسها ، وأما ما كان عليه ، ماوراءها ، فلم يكن ليهمها . فلم تكن تهتم بما يمثله بنفسه . كان أمرا صحيحا أنه لم يكن يعرف ما يمثل لنفسه ، لكن بغض النظر عما يكون ، فإنها لا تعترف به ، وهي لا تحترم عمله كمصمم مخرمات ، ولا نفسه باعتباره من يكسب لقمة العيش ، ولأنه يذهب الى المكتب كل يوم ويعمل ، فذلك لا يؤهله لأي احترام او تقدير من جانبها . وكان يدرك ذلك ، بل بالعكس ، كانت تحتقره من اجل ذلك ، وكان يحبها تقريبا من اجل هذا رغم أن الأمر افقده رشده في البداية كأنه اهانة .

غير أن الذي كان أكثر عمقا هو أنها سرعان ما ابتدأت تصطدم بأعمق مشاعره ، فأفكاره حول الحياة والمجتمع والجنس البشري لم تكن تهمها كثيرا ، وكان مستقيما الى درجة تجعله غير ذي أهمية . وكان هذا مرة اخرى مصدر غيظ له ، إذ أنها كانت تحكم على هذه الأشياء دون أن تستطلع رأيه بشأنها ، بيد أنه كان ، في النهاية ، يقتنع باحكامها مكتشفا إياها ، كما لو أنها قد صدرت عنه ، ولم يكن هذا لب المشكلة العميقة ، فجذور عدائه العميقة تكمن في حقيقة أنها كانت تسخر من روحه ، فلقد كان عاجزا وغبيا في التعبير عن افكاره ، غير أنه كان يتعلق ببعض الأشياء مشغوفاً ، إذ أحب الكنيسة ، فإذا ما حاولت أن تخرج منه ما آمن به ، فسرعان ما يخيم عليهما معا غضب ساطع .

هل يؤمن بأن الماء يتحول الى نبيذ في أرض كنعان ؟ عندها كانت تقوده الى الأمر باعتباره حقيقة تأريخية . انظر الى مياه الأمطار هل يمكن أن تتحول الى عصير عنب ؛ الى نبيذ ؟ ويرى ، لحظة ، بعيني ذهنه الصافي ويقول ، ويجيبها ذهنه الصافي لحظة ، ويرفض

الفكرة ، وفي الحال ، تصرخ روحه في كره مجنون ، غير مكتمل النشوء ضد إنهاكه لنفسه كان ذلك صحيحا في تصوره ، وينطفئ ذهنه في الحال ، ويتدفق دمه في دمه وفي عظامه ، أراد المشهد ، الزفاف ، الماء الذي قدم من البراميل باعتباره نبيذا أحمر . «فقال لها يسوع مالي ومالك يا امرأة ، لم تأت ساعتي بعد ، فقالت امه للخدام مهما يأمركم به فافعلوه»* .

لقد أحب برانغوين ذلك بكل جوارحه ، وهو لا يستطيع أن يتركه يضيع منه . ومع ذلك اجبرته على أن يتركه ، إذ كرهت تعلقه الأعمى . هل يمكن للماء ، الماء الطبيعي أن يتحول فجأة وبصورة غير طبيعية الى نبيذ ؟ أن يفارق كينونته ، وأن يتخذ مصادفة كينونة اخرى ؟ اوه ، لا ، وهو يعرف أن ذلك ليس صحيحا .

وأصبحت مرة اخرى الطفلة العدائية النابضة الكارهة التي تدمر الأشياء ، وأصبح اخرسَ ميتاً . لقد أعطاه كيانه الكذبة وهو يعرف أنها كذلك . النبيذ نبيذ ، والماء ماء والى الأبد . الماء لم يصبح نبيذا ، والمعجزة لم تكن حقيقة واقعة ، كانت على ما يبدو تدمره ، فخرج مظلما محطما ، وروحه تنزف دمها ، وتذوق الموت ، ذلك لأن حياته تشكلت في هذه الأفكار التي لم تمتحن .

واختلت بنفسها مرة اخرى ، مثل ما فعلت عندما كانت طفلة ابتعدت ونشجت . لم تهتم . لم تهتم إن كان الماء قد تحول الى نبيذ أم لا دعه يؤمن بذلك إن أراد ، لكنها عرفت أنها قد انتصرت . وخيمت عليها عزلة رمادية .

وأصبحا تعيسين فترة من الزمن ، بعدها بدأت الحياة تعود الى مجاريها من جديد ولم يكن شيئا آخر ان لم تكن عنودا . وفكر مرة اخرى في فصل القديس جون : «أما أنت فأبقيت الخمرة الجيدة الى الآن»** ، النبيذ الأفضل ، واستجاب قلب الشاب في توق ، وفي انتصار ، رغم أن إدراكه لعدم صحة ذلك ، قد عضه مثل ابن عرس في قلبه . أيهما أقوى ألم الإنكار أم رغبة التوكيد ؟ كان عنيد الروح منقادا برغبته ، لكنه لن يؤكد بعد الآن المعجزات باعتبارها حقيقة .

حسن جدا . لم يكن ذلك صحيحا ، ولم يتحول الماء الى نبيذ ، الماء لم يتحول الى نبيذ ، ولكن من أجل هذا كله ، سيعيش في وجدانه ، كما لو أن الماء قد تحول الى نبيذ ، فلأجل صدق الحقيقة ، فإنه لم يتحول ، لكنه من أجل روحه قد تحول ، وقال :

ـ سواء تحول الى نبيذ أم لا ، فإن ذلك لا يزعجني . فأنا آخذ الأمر كما هو .

---

* إنجيل يوحنا ، الفصل الثاني ، الآيات ٤ و٥ (المترجم)

** إنجيل يوحنا ، الفصل الثاني ، جزء من الآية العاشرة (المترجم)

وسألته متسرعة آملة :

- وما هو ؟

فقال لها :

- الإنجيل .

أغضبها ذلك الجواب ، واحتقرته فهي لا تستطيع أن تشكك في الإنجيل ، ولكنه قادها الى ازدرائه .

ومع ذلك ، فهو لم يهتم بشأن الإنجيل ؛ الكلمة المكتوبة رغم أنه لم يستطع ارضاءها ، غير أنها كانت تدرك في قرارة نفسها ، أن لديه شيئا حقيقيا ، وأنه ليس جزميا ، فهو يؤمن بحقيقة أن الماء قد تحول الى نبيذ ولم يرغب في أن يخلق حقيقة من ذلك ، وفي الواقع كان موقفه بمنأى عن النقد ، ذلك لأنه شخصي صرف ، فلقد أخذ ما له قيمة في نفسه من الكلمة المكتوبة ، واضافه الى روحه . أما ذهنه ، فلقد تركه نائما ، ولقد تخاصمت معه بمرارة ، لأنه ترك ذهنه ينام ؛ ذلك الجزء الإنساني الذي يعود الى الجنس البشري ، والذي لم يكن يجهده . ولم يكن يهتم إلاّ بنفسه . إنه لم يكن مسيحيا ، ففوق كل شيء ، أكد يسوع على أخوّة البشر . كانت ضد نفسها تقريبا ، متمسكة بعبادة المعرفة الإنسانية إن المرء يمكن أن يموت جسديا ، بيد أنه أزلي في معرفته . هكذا كان اعتقادها في مكان ما من روحها ، غامض وغير واضح تماما . لقد آمنت بقدرة الذهن البشري الكلية .

أما هو ، من جانب آخر فلقد كان أعمى مثل شيء تحتي ، إذ أهمل الذهن البشري ، وركض وراء رغبات روحه المظلمة ، تابعا أنفه في الأنفاق ، وكانت غالبا ما تشعر أنها قد تختنق . ولقد حاربته .

ومن ثم ، مدركا أنه أعمى ، حارب بجنون مرة أخرى ، مسعوراً بخوف حسي ، وارتكب أشياء حمقاء ، وأكد سلطته على حقوقه ، وانتحل لنفسه الموقع القديم كسيد للبيت .

صرخ بها :

- يجب أن تفعلي ما أريد .

وأجابت : أحمق! أحمق!

فصرخ بها :

- سأجعلك تعرفين من هو سيد البيت .

وأجابت :

ـ أحمق ، أحمق ، لقد عرفت والدي الذي بمقدوره أن يضع طائفة من أمثالك في عليونه ، ويدفعهم الى الأسفل بنهاية إصبعه ، ولا أعرف أي أحمق تكون!

وكان يعرف مقدار حماقته ، وكان يوبخ بهذه المعرفة . ومع ذلك استمر محاولا قيادة سفينة حياتهما المزدوجة ، واكد موقعه كربان للسفينة . ولقد اضجرتها السفينة وربانها اراد أن يبدو مهما كسيد إحدى الحرف المحلية التي تكون أسطول المجتمع العظيم ، وبدا لها ذلك أسطولا أحمق من أحواض استحمام تتدافع عبثا لم تشعر بالإيمان به قط ، وسخرت منه كسيد للبيت وسيد لحياتهما المزدوجة ، وكان مكفهرا من الخجل والغضب ، وكان يُدرك خجلا كيف أن والده كان رجلا دون أن ينتحل أية سلطة .

لقد سلك الطريق الخطأ واحس أن من الصعب عليه أن يتخلى عن المهمة ، فهناك تدفق وخزي عظيمان ، ثم استجاب بعد ذلك ، وتخلى عن فكرة سيد المنزل .

ومع ذلك ، اراد شيئا آخر ، نوعا من أنواع السيادة . فالى الأبد ، وفي الحال تقريبا ، وبعد انهياراته في ما يثير الخزي والرثاء ، نهض مرة أخرى ؛ عنيد الروح ، قويا في قدرته على البدء من جديد . بدأ مرة أخرى في كبرياء وجوده الذكوري ، كي يرضي هوى روحه الخفي .

ولقد ابتدأ الأمر على ما يرام غير أنه انتهى دوما الى حرب بينهما ، حتى اوشكا أن يفقدا صوابهما . قال إنها لا تحترمه ، وضحكت من ذلك بازدراء أجوف ، إذ كان كافيا في تصورها أنها قد أحبته ، فسألته :

ـ أحترم ماذا ؟

لكنه كان دائما يجيب الإجابة الخطأ ، ورغم أنها أجهدت ذهنها غير أنها لم تستطع أن تعرف الأمر ، فقالت له :

ـ لمَ لا تتابع هوايتك في نحت الخشب . لمَ لا تنهي تمثال آدم وحواء ؟

بيد أنها لم تكن لتهتم بآدم وحواء ، وهو لم ينحت فيه خطا إضافيا آخر ، وسخرت من حواء قائلة إنها تشبه دمية صغيرة . لماذا هي صغيرة جدا ؟ لقد خلقت آدم كبيرا كأنه الرب ، وجعلت حواء مثل الدمية ، وأضافت قائلة :

«من الصفاقة القول إن المرأة خلقت من جسد الرجل ، بينما يولد كل رجل من امرأة فأي صفاقة يمتلك الرجال ، وأية غطرسة» .

وفي حالة غضب أحد الأيام ، وبعد أن حاول العمل على المنحوتة وفشل ، إذ تحولت أحشاؤه الى لهيب من الغثيان ، حطم التمثال كله ووضعه في النار . لم تعرف ما حدث ، وظل بعد ذلك بضعة أيام هادئا جدا وخاملا :

وسألته :

ـ أين تمثال آدم وحواء ؟

ـ أُحرق .

نظرت إليه وقالت :

ـ لكنه نحتك .

ـ لقد أحرقته .

ـ متى ؟

لم تصدقه

ـ ليلة الجمعة .

ـ عندما كنت في حقل مارش ؟

ـ نعم .

ولم تزد شيئا أكثر .

بعد أن ذهب الى محل عمله ، بكت النهار بأكمله ، ولقد عوقبت كثيرا في روحها ، حيث أن لهبا جديدا هشا من الحب قد بزغ من رماد هذا الألم الأخير .

وأدركت بصورة مباشرة أنها مع طفل . كان ثمة رعدة ناتجة من الدهشة والتوقع خلال روحها . لقد أرادت طفلا ليس لأنها تحب الأطفال الصغار كثيرا ، رغم أن كل الأشياء الصغيرة تؤثر فيها ، غير أنها أرادت أن تحمل أطفالاً ، وثمة جوع معين في قلبها ، أراد أن يوحد زوجها مع نفسها في طفل .

أرادت ابناً ، وأحست أنه سيكون كل شيء ، وأرادت أن تخبر زوجها بذلك ، لكن ذلك شيء نابض حميمي يصعب إخباره به ، وكان في ذلك الوقت متصلبا ، وغير مستجيب ، لذلك ابتعدت وبكت . كان ذلك هدرا لفرصة رائعة مثل هذا الثلج الذي يقرس برعم إحدى أجمل لحظات حياتها ، وظلت تدور مهمومة مرتجفة بسرها ، راغبة في أن تمسه ، اوه ، برقة شديدة ، وأن ترى وجهه مظلما حساسا ، يصغي لأخبارها ، وانتظرت طويلا كي يصبح رقيقا ساكنا نحوها ، بيد أنه كان قاسيا متنمرا عليها ، وهكذا ذبل البرعم من ثقتها ، وقتله البرد ، وذهبت الى حقل مارش .

قال لها أبوها عندما نظر إليها منذ اللمحة الأولى :

ـ حسن ما بك الآن ؟

وانهمرت دموعها عند ملمس حبه المترفق ، وقالت له :

ـ لا شيء .

قال لها .

ـ ألا يمكن أن تنسجما كلاكما ؟

ـ إنه عنيد جدا .

ارتجفت بيد أن روحها كانت فظة هي الأخرى .

ورد والدها :

ـ نعم وأعرف شخصا آخر فيه هذه المزية أيضا .

ولم تنبس ببنت شفة فقال لها والدها :

ـ إنكما لا تريدان أن تجعلا حياتكما تعيسة بكل هذا العناد

فقالت له :

ـ إنه ليس تعيسا .

ـ أقسم بحياتي إنك بعنادك يمكن أن تجعليه تعيسا مثل كلب ، إن لك يدا مجربة في ذلك ، يا فتاتي .

فردت :

ـ أنا لا أفعل ما يجعله تعيسا .

ـ أوه ، لا ، لا ، أنت قطعة من الحلوى .

فضحكت قليلا وهتفت :

ـ يجب ألا يدور بخلدك أني أريد تعاسته ، أنا لا أريد ذلك .

فرد برانغوين :

ـ نحن نثق بذلك تماما ، كما أنك لا تقصدين أن يقفز للتسلية مثل سمكة في بركة .

ولقد جعلها هذا تمعن في التفكير . ولقد دهشت قليلا عندما اكتشفت أنها لم تقصد أن يقفز زوجها للتسلية ، مثل سمكة في بركة .

جاءت أمها ، وجلس الجميع لتناول الشاي ، متحدثين في أمور عابرة .

قالت لها أمها :

ـ تذكري يا طفلتي أن ليس كل شيء في انتظار يدك كي تأخذيه أو تتركيه حسب ، يجب ألا تتوقعي ذلك ، فبين شخصين يكون الحب في حد ذاته شيئا مهما جدا ، وهذا ليس أنت و هو ، بل هو شيء ثالث يجب أن تخلقاه ، ويجب ألا تتوقعا أنه موجود في طريقكما .

ـ ولا أظن ذلك أنا أيضا ، فإن فعلت ذلك فإنني سأكتشف خطأي في الحال ، فإذا مددت يدي كي آخذ شيئا ، فإنها سرعان ما تعض .

فقال لها والدها :

ـ إذن يجب أن تحذري موضع يدك .

كانت آنا ساخطة قليلا لأنهما أخذا مأساة حياتها الزوجية القصيرة بمثل رباطة الجأش هذه .

قال لها والدها مقطبا جبينه في اكتئاب :

ـ إنك تحبين الرجل بما فيه الكفاية ، وكل هذا يفرق .

وهتفت :

ـ أنا أحبه فعلا ، العار له ، أريد أن أخبره بذلك . إني انتظر منذ أربعة أيام كي أخبره بذلك .

ابتدأ وجهها يرتجف ، وانهمرت دموعها ، وراقبها والدها في صمت ، لكنها لم تكمل .

قال لها والدها :

ـ تخبرينه بماذا ؟

فنشجت قائلة :

ـ بأنه سيكون لدينا طفل ، وهو لا يدعني اقول ذلك أبدا ، ولا مرة واحدة كي أخبره . لقد جئت إليه ، وكان فظا معي ، وأردت أن أخبره . لقد أردت وهو لا يدعني أفعل ذلك ، إنه قاس معي .

ونشجت كما لو أن قلبها سينفطر ، وذهبت أمها وهدأت من روعها ، ووضعت ذراعيها حولها واحتضنتها . وجلس والدها وجبينه غريب مجعد ، وكان أكثر شحوبا من المعتاد ، وضاق قلبه بالكره لصهره .

وهكذا عندما طاب خاطرها بعد البكاء ، وحلت الراحة ، واحتسي الشاي ، وأعيد شيء يشبه الهدوء الى الحلقة الصغيرة ، لم يرحب بفكرة دخول ويل برانغوين بطريقة مسرة

كلفت تيلي أن تراقبه أثناء مروره في طريقه الى البيت . وسمعت الجماعة الصغيرة المتحلقة حول المائدة نداء الخادمة الحاد :

ـ عليك أن تدخل ياويل ، إذ أن آنا هنا .

وبعد بضع لحظات ، دخل الفتى ، وسألها بصوته الجاف الصلب .

ـ أتنوين البقاء ؟

وبدا مثل شفرة تدمير تقف هناك ، وارتعدت وهطلت دموعها .

قال توم برانغوين :

ـ اجلس واصلب قليلا من قامتك .

جلس ويل برانغوين ، وأحس أن ثمة شيئاً غريباً في الجو . كان مكفهر الجبين ، لكن كانت لعينيه نظرة حادة ، مركزة حميمية ، كما لو أن ليس بمقدوره أن يرى ما في البعد . وكانت تلك سمة جمال فيه ، وكانت مصدر غضب لآنا .

قالت لنفسها :

ـ لماذا ينكرني دائما . لماذا لا أمثل شيئا له ، أنا ؟

وجلس توم برانغوين ازرق العينين دافئا ، قبالة الفتى .

وسأل الزوج الشاب زوجته :

ـ الى متى تنوين البقاء ؟

فردت قائلة :

ـ ليس لفترة طويلة .

وقال توم برانغوين :

ـ اشرب شايك يا فتى ، هل أنت متلهف للذهاب لحظة دخولك ؟

تحدثا عن أشياء تافهة وخلال الباب المفتوح كانت اشعة غروب الشمس المستوية ، تصب في الغرفة ، مشرقة على الأرضية ، وظهرت دجاجة رمادية اللون ، تخطو بخفة في المدخل ، وهي تنظر خلسة . واصدر الضوء الساقط على عرفها وعنقها لهيبا ذهبيا يتراقص هنا وهناك ، بينما كانت تسير وكان جسمها الرمادي يشبه شبحا .

كانت آنا تراقبها ، ثم نثرت لها فتات الخبز ، وأحست بلهيب الطفل في احشائها ، وبدا أنها تذكرت مرة أخرى أشياء منسية محترقة نائية .

وسألت أمها :

ـ أين ولدتُ يا أماه ؟

ـ في لندن .

ـ وهل كان والدي أسمر البشرة .

تحدثت عنه كما لو أنه مجرد اسم غريب ، إذ لم يكن بمقدورها قط أن تربط نفسها معه .

ـ كان له شعر بني غامق وعينان غامقتان وبشرة نضرة ، ولقد أصبح أصلعَ ؛ أصلعَ تماما وهو لم يزل شابا .

أجابت الأم كما لو أنها أيضا تقص حكاية هي مجرد خيالات قديمة .

ـ هل كان وسيما ؟

ـ نعم كان وسيما جدا ، ضئيل البنية قليلا لم أر إنكليزياً يشبهه أبدا .

ـ لماذا ؟

ـ كان... وأصدرت الأم حركة سريعة ، راكضة بيديها : « ... كانت هيئته حية متغيرة ، فهي لم تكن ثابتة ابدا . لم يكن ثابتا قط كان مثل ساقية جارية » .

وخطر ببال الفتى خيال ـ أن آنا أيضا مثل ساقية جارية . وفي الحال ، أحس بالحب نحوها مرة أخرى .

كان توم برانغوين خائفا ، وكان قلبه ممتلئاً بالخوف دائما ، الخوف من المجهول ، عندما سمع المرأتين تتحدثان عن رجلهما السابق كما لو أنه غريب تعرفتا عليه عرضا ، ثم غادرتا مرة أخرى .

وفي الغرفة خيم صمت واحساس بالتوحد على قلوبهم جميعا . كانوا أناسا منفصلين ذوي أقدار مختلفة ، فلماذا يجهد كل واحد منهم نفسه كي يضع يد المطالب العنيفة على الآخرين .

عاد الشابان الى بيتهما عندما اشرق قمر صغير حاد في غسق الربيع ، وارتجفت قمم الأشجار في الهواء العالي ، وسمقت الكنيسة الصغيرة معتمة على قمة التل ، واصبحت الأرض ظلا ازرق مظلما

وضعت يدها بخفة على ذراعه من مسافة بعيدة ، ومن تلك المسافة أحس أنها تلمسه . ظلا يمشيان ، يداً بيد ، على امتداد آفاق متضادة ، متلامسين عبر الغسق ، وكانت أصوات طيور الدج تنادي في الغسق الأزرق المظلم .

قالت من بعد :

ـ أعتقد أنه سيكون لنا طفل يا ويل .

ارتجف وشدت أصابعه على أصابعها ، وسألها وقلبه ينبض :

ـ لماذا ألا تعرفين ؟

قالت :

ـ أعرف .

واستمرا في المسير دون أن يزيدا حرفا واحدا ، يمشيان على امتداد آفاق متناقضة ، يداً بيد ، عبر الفراغ الفاصل . مخلوقين منفصلين . وارتجف ، كما لو أن الريح هبت عليه

في عصفات قوية من حيث لا يدري . كان خائفا ، كان خائفا من أن يعرف أنه كان وحيدا لأنها تبدو راضية منفصلة مكتفية بنصفها من العالم لم يستطع أن يطيق معرفة أنه مقطوع لماذا لا يستطيع دائما أن يكون واحدا معها ، فهو الذي اعطاها الطفل ؟ فلماذا لا تستطيع أن تكون واحدة معه ؟ لماذا يترك في هذه العزلة ، لماذا لا تستطيع أن تكون معه ، قريبة ، قريبة كشخص واحد معه ؟ يجب أن تكون واحدة معه .

ضغط أصابعها بقوة بين أصابعه ، ولم تعرف بماذا كان يفكر إذ كان ومض الضوء على قلبها جميلا ومثيرا للدوران من الحمل في رحمها . ومشت مزهوة ، وصوت طير الدج والقطارات في الوادي ، وفي البعد ، ضجة المدينة الخافتة . كانت «رائعة» .

لكنه كان يصارع في صمت ، كما لو أن أمامه جداراً صلباً من الظلام يعترض سبيله ويخنقه ويفقده صوابه . أرادها أن تأتي إليه ، أن تكمله ، أن تقف أمامه لكي لا تقع عيناه على الظلام العاري ، لا شيء يهمه غير أن تأتي وتكمله ، ذلك لأن الإحساس المرعب بمحدوديته قد أمسك بتلابيبه . كان الأمركما لو أنه انتهى غير مكتمل ، كما لو أنه لم يخلق على الظلام بعد . ولقد ارادها أن تأتي اليه وتحرره بأكمله .

بيد أنها كانت مكتملة بنفسها ، ولقد خجل من هذه الحاجة ، من حاجته الماسة اليها ، من حاجته ومن عاره من هذه الحاجة ، فاثقلت عليه مثل الجنون . ومع ذلك ، كان هادئا ونبيلا ، احتراما لحملها ولأنها مع طفله .

وكانت سعيدة تحت رذاذ اشعة الشمس . لقد احبت زوجها كوجود ، كظرف مستحب ، ولكن حاجتها قد أُشبعت الآن وهي لا تريد شيئا سوى أن تمسك زوجها من يده في سعادة مطلقة ، دون أن تفكر ، بل أن تكون سعيدة حسب كانت لديه مجموعات مختلفة من نسخ من لوحات فنية ، من بينها طبعة رخيصة للوحة الرسام فرا أنجليكو* : «دخول المباركين الى الجنة» . ولقد ملأت هذه اللوحة آنا بالبشر ، وجعلتها الطريقة الجميلة البريئة التي يمسك بها المباركون بعضهم بالأيدي ، وهم يتحركون صوب النور ، واللحن الملائكي الأصيل ، جعلها تبكي من فرط السعادة . تفتح الورد واشعة الضوء وترابط الأيدي ، كان كثيرا جدا بالنسبة اليها ، كان بريئا جدا

ويوما بعد آخر ، كانت تجيء مشرقة عبر بوابة النعيم ، ويوما بعد آخر ، تدخل الى

* فرا أنجليكو (١٣٨٧ ـ ١٤٥٥) رسام إيطالي وراهب دوميكاني إسمه الحقيقي دي بيترو واسمه الديني فرا جيوفاني دافيسول زيّن دير القديس ماركو في البندقية وكنيسة نيقولا الخامس في الفاتيكان وجزءا من كاتدرائية أورفيتو ألوانه نقية ومشرقة ، وتشكيلاته إيقاعيه ويستعمل أشكالا كبيرة . (المترجم)

البريق وأشرق الطفل في داخلها حتى تحولت الى شعاع من اشعة الشمس . وكم كانت اشعة الشمس رائعة ، تلك التي كانت تتسكع وتتجول عبر الأبواب حيث كانت أزاهير البندق تتدلى مثل ذيول القطط في نهاية الحديقة ، معلقة في هالتها الطافية المرتجفة ، وحيث كانت الروائح الطفيفة مثل ومض النار ، تقدح من أشجار السرو إذ يتعلق طير بأحد الأغصان وفي أحد الأيام ، كانت أزاهير الكشتبان على امتداد اسفل سور الشجيرات وأزاهير الأقحوان الأصفر تومض مثل المّن ؛ ذهبية وسريعة الزوال على المروج . كانت ممتلئة بنعاس ووحدة ثقيلين . كم كانت سعيدة ، وكم كان رائعا أن تعيش ، أن تعرف نفسها وزوجها وهوى الحب والإنجاب ، وأن تعرف أن كل ذلك عاش وانتظر واحترق عليها ومن حولها ، نار مطهرة رهيبة مرت خلالها مرة كي تخرج الى قطعة النور الذهبية هذه ، عندما كانت مع طفل وبريئة وفي حالة حب مع زوجها ومع كل الملائكة الكثيرين الممسك بعضهم بأيدي بعضهم الآخر . رفعت حنجرتها الى النسيم الذي هبَّ عبر الحقول ، وأحست أنه يداعبها مثل أختين تتمازحان ، فشربته مع رحيق الأقحوان الأصفر ونوّار التفاح .

وفي كل تلك السعادة ، كان ظل اسود ، خجل ، متوحش ، وحش فرائس ، يحوم ويختفي عن الأنظار ، ومثل خيوط العنكبوت يتراءى أمام عينيها ، وهناك مكمن خوفها .

كانت خائفة عندما عاد الى البيت ليلا ، ومع ذلك ، كان خوفها أبكم ، ولم يندفع الظل صوبها . كان ودودا متواضعا كابحا جماح نفسه . كانت يداه رقيقتين عندما وضعهما على يديها ، ولقد أحبتهما ، لكن سرت خلالها رعدة حادة مثل ألم ، لأنها أحست أن الظلام والعالم الآخر مايزالان كامنين في تلكما اليدين الناعمتين المغلفتين .

لكن الصيف اندفع بصوت يشبه المعجزة ، وكانت وحيدة طوال الوقت تقريبا . وطوال الوقت ، استمرت في نعاسها الطويل المحبب ، وزهور (تورد العذراء) كلها ، تنفح اريجها ، وقد غُسلت بالمطر المتساقط ، وانزاح الصيف في الخريف ، وابتدأ اليوم الذهبي الغامض الطويل بالاقتراب ، وعطرت غيوم قرمزية المغرب ، وعندما حل الليل ، كانت السماء كلها تفوح وتبخر ، والقمر بعيدا فوق نعومة البخار ، أبيض مغبشا ، وكان الليل قلقا . وفجأة اطل القمر من شباك صاف في السماء ، ينظر من عل الى الأسفل مثل أسير . ولم يغمض جفن آنا فثمة قلق غريب مظلم يتعلق بزوجها .

أدركت أنه يحاول فرض رغبته عليها ، شيء ما ، كان هناك شيء يريده ، وهو يضطجع معتما ومتوترا ، وتنهدت روحها تعبا .

كان كل شيء غامضا ومحببا ، وهو يريد أن يوقظها على الواقع المعادي الصلب ،

فتراجعت الى الخلف مقاومة ، ومع ذلك لم يقل شيئا ، غير أنها احست بقوته تلح عليها ، حتى اصبحت مدركة للجهد وصرخت محتجة على الإستنفاد . كان يجبرها ، كان يجبرها بينما أرادت كثيرا متعة حملها وغموضه وبراءته . لم ترد حبه المر الأكّال . إنها لا تريده أن يسكبه فيها ، أن يحرقها . لماذا يجب عليها أن تأخذه ؟ أوه ، لماذا لا يكون سعيدا قانعا ؟

وجلست عند الشباك ساعات عدة في تلك الأيام ، عندما كان يسوقها بقيود رغبته السوداء . وراقبت المطر ، وهو يهطل على أشجار السرو السود . لم تكن حزينة ، بل كانت كئيبة شاحبة ، إذ كان الطفل تحت قلبها بمثابة دفء أزلي ، وكانت مطمئنة ، وكان الضغط عليها من الخارج فقط ، فلم تكن روحها تحمل ندبا .

ومع ذلك ، كان في قلبها دائما هذا الجهد والتوتر واللهفة . لم تكن آمنة ، كانت معرضة دوما ، وعرضة للهجوم دائما ، وكان في داخلها توق لسلام وبركة مكتملين ، اي توق ثقيل كان ، ثقيل جدا!

عرفت بطريقة غامضة أنه ليس راضياً طوال الوقت ، وطوال الوقت ، كان يحاول أن يفرض شيئا ما عليها . أوه ، لكم تمنت لو أنها نجحت معه ، بطريقتها الخاصة! كان موجودا هناك ، محتّما عليها ، وعاشت فيه أيضا ، وأنّى لها أن تكون في سلام معه ، في سلام . لقد أحبته ، وستمنحه الحب ؛ الحب الخالص . وبسيماء مستغرقة ، غريبة ، انتظرت عودته الى البيت ليلا .

وعندما جاء ، نهضت ويداها مخضبتان بالحب ، مثلما بالورد ، مشعة ، بريئة ومرت نوبة مظلمة عبر وجهه ، وبينما كانت تراقبه ، كان وجهها مشرقا ، كالوردة بالحب البريء ، وأصبح وجهه أكثر إظلاما وتوترا . تجمعت القسوة في حاجبيه ، وأشاح بعينيه عنها ، ورأت بياض عينيه عندما أدار وجهه عنها انتظرت وهي تلمسه بيديها ، لكن خلال يديها ، ومن جسده ، تسربت الصدمة المرة الأكّالة لهواه عليها ، محطمة اياها ، وهي لم تزل برعما ، فانكمشت ونهضت على ركبتيها ، وابتعدت عنه كي تصون نفسها . وكان ذلك ألما عظيما لها .

وكان ذلك تبريحا له ايضا . ورأى الحب المتلألئ الذي يشبه الوردة في وجهها ، وكان قلبه أسود لأنه لم يرد ذلك . ليس هذا ، ليس هذا ، انه لم يرد براءة مزهرة . وكان غير مقتنع ، وثورة عدم الرضا وعاصفته تمزقانه دون توقف . لماذا لا ترضيه ، فلقد أرضاها ؟ كانت راضية وفي سلام ، بريئة على امتداد أبواب نعيمها الخاص .

وكان غير راض ، وغير مشبع ، وثار متمزقا ، مطالبا ، مطالبا . لقد حان دورها كي ترضيه ، فدعها إذن تفعل ذلك ، دعها لا تأتي بملء يديها من الحب البريء المزهر ، فإنه سيرمي هذا جانبا ، ويدوس الأزهار محولا إياها الى عدم ، سيحطم سعادتها البريئة المزهرة . ألم يكن محقا . أليس مخولا في أن ينال الرضا منها ، أوليس قلبه كله يشتعل برغبة عارمة ، وروحه تعاني من عذاب عدم الإشباع الأسود ؟ دعها تشبع ما في داخله ، مثل ما هي مشبعة في داخلها . لقد منحها اشباعها ، فدعها تنهض وتؤدي دورها .

كان قاسيا عليها ، لكنه خجل طوال الوقت ، ولأنه كان خجلا فلقد كان يزداد قسوة ، كان خجلا لأنه لم ينل كفايته منها ، وهو لا يستطيع ذلك ، وهي لن تحتاجه . كان مقيدا ، ورازحا في ظلام التعذيب .

تضرعت إليه أن يعود الى العمل مرة أخرى ، أن يقوم بنحت الخشب ، بيد أن روحه كانت في غاية الاسوداد . لقد حطَّم منحوتته عن آدم وحواء ، وهو لا يستطيع أبدا أن يبدأ مرة أخرى ، وخصوصا في الوقت الحاضر ، بينما هو في مثل هذه الظروف .

لم يكن ثمة تحرر نهائي لها ، لأن ليس بمستطاعه أن يتحرر من نفسه . عليها أن تمضي ، غريبة ، مبهمة ، تواقة خلال المصيبة مثل سحابة دافئة ، متوهجة أُلقيت وسط عاصفة . احست بالغنى الشديد في غموضها الدافئ ، حتى أن روحها كانت تصرخ فيه ، لأنه ضايقها ، وأراد أن يدمرها .

ومرت عليها لحظات من الزهو أيضا ، إعادة ولادة لحظات الزهو القديمة ، بينما كانت تجلس إزاء الشباك في غرفة نومها تراقب المطر المستديم ، وروحها تجوس في أماكن نائية .

جلست بكبرياء ، ومتعة غريبة . عندما لا يكون هناك من يبهجها ، فالروح غير المكتفية يجب أن ترقص وتمرح ، عندها يرقص المرء أمام المجهول .

وفجأة أدركت أن ذلك هو ما أرادت أن تفعله . كبيرة مثل ما كانت بالطفل الذي في بطنها ، رقصت هناك في غرفة النوم بمفردها ، رافعة يديها وجيدها الى اللامرئي ، الى الخالق اللامرئي الذي اختارها ، والذي تعود إليه

ما كانت لتدِع أحدا يعرف بالأمر . رقصت سرا ، وأثيرت روحها بالبهجة ، رقصت سرا أمام الخالق . خلعت ثيابها ، ورقصت بكبرياء ضخامتها ولقد ادهشها ذلك عندما فرغت منه . كانت متقلصة وخائفة الى أي شيء كُشفت الآن ؟ وكانت شبه راغبة في أن تخبر زوجها ، ومع ذلك ، انكمشت منه .

كانت تركض بمفردها طوال الوقت . واحبت قصة داوود الذي رقص أمام الرب وعرى نفسه جذلا لماذا كان عليه أن يعري نفسه أمام ميكائيل وهي امرأة من العامة ؟ لقد عرى نفسه الى الرب .

«تأتيني بالسيف والرمح والمزراق ، وأنا آتيك باسم رب الجنود ، لأن الحرب للرب وهو يدفعك الى يدي»*

نبض قلبها للكلمات ، ومشت مزهوة بكبريائها ، وكانت معركتها هي معركة ربها ، ولقد سلمت روحها إليه .

وفي تلك الأيام اهملته . من يكون حتى يناصبها العداء ؟ لا ، إنه لم يكن حتى ذلك الفلسطيني العملاق . كان شبيها بشاؤول الذي كان يطالب بمملكته . وضحكت في سرها ، من يكون حتى يطالب بمملكته ، وضحكت في سرها بكبرياء .

وكان عليها أن ترقص في جذل وراءه ، لأنه كان في البيت . كان عليها أن ترقص أمام خالقها في غفلة من الرجل . وفي أصيل يوم السبت ، عندما أشعلت نارا في غرفة النوم ، خلعت مرة أخرى ملابسها ، ورقصت رافعة ركبتيها ويديها في جذل ايقاعي بطيء ، وكان في البيت ، لذلك كان زهوها عنيفا . كانت ترقص احتفاءً بإلغائه ، سوف ترقص للرب اللامرئي ، وكانت تعلو عليه أمام الرب

سمعته يتسلق السلالم فجفلت ووقفت ، ووهج النار على كاحليها وقدميها ، عارية في ذلك الأصيل المتأخر الظليل ، مثبتة شعرها الى الأعلى ، فجفل ووقف في الباب ، حاجباه أسودان ومنخفضان .

قال لها وهو يصرف أسنانه ،

ـ ماذا تفعلين ستصابين بالبرد ؟

ورفعت يديها ، ورقصت مرة أخرى كي تلغيه ، وسقط الضوء على ركبتيها ، وهي تقوم بحركاتها البطيئة الرقيقة في الجانب البعيد من الغرفة ، عبر توهج النار . وقف بعيدا قرب الباب ، في عتمة الظل ، مراقبا متحجرا ، وتأرجحت بحركات بطيئة ثقيلة الى الأمام والخلف مثل كوز ذرة ممتلئ ، شاحبة في غسق الأصيل ، متلوية امام وهج النار ، راقصة انعدام وجوده ، راقصة نفسها للرب للسعادة .

راقبها واضطرمت روحه في داخله ، فأشاح بوجهه ، فلم يكن بمقدوره أن ينظر اليها ،

---

* اساس محترأ من الآية ٤٥ من سفر الملوك الأول (المترجم)

إذ كانت تؤذي عينيه ، وارتفعت أطرافها الرائعة أعلى فأعلى ، وكان شعرها يندفع كله متوحشا ، بطنها كبير وغريب ومخيف ، مرتفع صوب الرب ، وكان وجهها مستغرقا وجميلا . رقصت جذلى أمام ربها ، ولم تقم وزنا لأي رجل .

ولقد آذاه ذلك عندما راقبها ، كما لو أنه على خازوق ، وأحس أنه يحرق حيا ، ولقد استنفدته غرابة رقصها وقوته ، فأحترق ولم يعد بمقدوره أن يلتقط أنفاسه ، ولم يكن بمقدوره أن يفهم . وانتظر مشوشا ، بعدها عميت عيناه ، ولم يعد يراها . وخلال القناع المعتم بينهما ناداها بصوته الجهوري :

ـ لماذا تفعلين ذلك ؟

قالت له :

ـ أغرب عني ، دعني أرقص بمفردي .

قال لها بحدة :

ـ هذا ليس رقصا ، لماذا تريدين أن تفعلي ذلك ؟

قالت له :

ـ أنا لا أفعل هذا من أجلك ، أغرب .

كان بطنها الغريب المرتفع كبيرا بطفله! اليس من حقه أن يكون هناك ؟ أحس أن وجوده كان تدنيسا للمكان ، ومع ذلك ، فإن له الحق في أن يكون هناك ، فذهب وجلس على السرير .

توقفت عن الرقص ، وواجهته رافعة مرة اخرى ذراعيها الرشيقين ، وهي تجدل شعرها ، ولقد آذاه عريها ، عارضة نفسها .

صرخت به :

ـ أستطيع أن أفعل ما يحلو لي في غرفتي فلماذا تتدخل في شؤوني ؟

ارتدت ثوبا بسرعة ، وجثمت امام النار . ولقد شعر بالراحة بعد أن غطت نفسها ، إذ عذّبه طيفها طوال ايام حياته ، لأنها كانت عندئذ شيئا غريبا متعاليا لا علاقة له به .

بعد هذا اليوم ، بدا وكأن الباب قد أُغلق على ذهنه ، واكفهر جبينه ، واصبح صلدا ، وكفّت عيناه عن الرؤية ، وتعلقت يداه . وفي داخل نفسه ، انسحب مثل حيوان مخفي تحت الظلام ، بيد أنه نشيط يعمل طوال الوقت .

في البداية ، استمرت معه سعيدة بينما كان الى جانبها منكفئا ، ولكن بعد ذلك ، ابتدأت نوبته تمسك بتلابيبها ، وابتدأت قدرته المظلمة على الاهتياج ، قدرة المخلوق التي

تكمن مختفية وتفرض رغبتها في تدمير المخلوق الحر ، مثل ما يضطجع النمر في ظلمة الأوراق ، ويفرض بثبات سقوط وموت المخلوقات المضيئة التي تشرب من شاطئ النهر في الصباح تؤثر تدريجا فيها ، رغم أنه يضطجع هناك في الظلام لا يتحرك ، ومع ذلك ، كانت تدرك أنه يضطجع هناك في انتظارها . أحست أن إرادته تضيّق الخناق عليها ، وتسحبها نحو الأسفل ، حتى عندما يكون صامتا وغامضا .

اكتشفت أنه قد منعها في كل ذهابها ومجيئها ، وأدركت تدريجا أنه يضغط عليها بوزنه الثقيل المعلق بها ، وأنه يجذبها نحو الأسفل مثل ما يتعلق النمر ببقرة وحشية ، ويجهدها ويجذبها نحو الأسفل .

وأدركت تدريجا أن حياتها وحريتها كانتا تغطسان تحت قبضة إرادته الجسدية الصامتة ، لقد أرادها طوع بنانه ، أراد أن يفترسها على مهله . وعرفت في النهاية أن نومها كان وجعا طويلا ، وتعبا وإجهادا لأن رغبته تطبق على خناقها ، بينما يضطجع هناك الى جانبها في الليل . أدركت الأمر كله ، وتلا ذلك توقف خطير جدا ، توقف في جريها الرشيق ، توقف مهم في حياتها عندما ضاعت .

بعد ذلك استدارت نحوه بحدة وحاربته . ما كان المفترض أن يفعل هذا بها ، فهذا فعل وحشي . أية قبضة متوحشة يريد أن تكون له على جسدها ؟ لماذا يريد أن يسحبها الى الأسفل ويقتل روحها ؟ لماذا يريد أن ينكر روحها ؟ لماذا ينكرها روحيا ، ويحتفظ بها لجسدها حسب ؟ وهل يريد أن يعدها ذبيحة ؟ وبدا أنه يمثل ظلاما شاسعا ، بشعا .

وصرخت به :

ـ ماذا فعلت بي ، أي فعل وحشي ارتكبت بحقي ؟ لقد سلطت ضغطا رهيبا على رأسي ، إنك لا تدعني أنام ، ولا تدعني أعيش . في كل لحظة من حياتك ، تفعل فيها شيئا ضدي ، شيئا مرعبا يحطمني ، ثمة شيء مرعب فيك شيء مظلم ووحشي في إرادتك ؟ ما الذي تريده مني ؟ وما الذي تريد أن تفعله بي ؟

أصبح كل الدم الذي في جسده أسود قويا أكّالا عندما سمعها . كان اسود واعمى بسبب كرهها . كان في جحيم قاتم السواد ، ولم يكن بمقدوره الفرار .

كرهها بسبب ما فاهت به . ألم يعطها كل شيء أرادته . ألم تكن كل شيء بالنسبة إليه ؟ وكان الخزي نارا مرة في داخله ، لأنها كانت كل شيء بالنسبة اليه ، وأن ليس لديه شيء آخر سواها وبعد ذلك توبخه وتسخر منه من أجل ذلك ، ولأنه لا يستطيع الفرار!

تفحمت النار في عروقه ، ولم يكن باستطاعته الهرب . كانت كل شيء بالنسبة إليه ، كانت حياته ومنشأه ، ولقد اعتمد عليها ، فإذا أخذت منه ، فإنه سينهار مثل بيت رفع منه عموده الأوسط .

ولقد كرهته لأنه يعتمد عليها كليا ، ولأنه كان مزعجا جدا لها . أرادت أن تطرده ، وأن تفصله ، وكان أمرا مرعبا أن يلتصق بها بهذا القرب ، وبهذه الحميمية ، مثل نمر قفز عليها ، وضيق عليها الخناق .

واستمر على تلك الحال يوما بعد آخر في ظلام غضبه وخزيه واحباطه ، وكم عذب نفسه كي يكون قادرا على الإبتعاد عنها ، لكنه لم يستطع . كانت مثل الصخرة التي يقف عليها ومن حوله ماء عميق مضطرب ، ولم يكن قادرا على السباحة . يجب أن يقف عليها ، يجب أن يعتمد عليها .

ما متاعه من الحياة سواها ؟ لا شيء ، والمتبقي طوفان جياش عظيم . وكان رعب ليلة الطوفان الجياش الغامر ، والذي هو تصوره عن الحياة من دونها اكثر مما يطيق ، لذلك تعلق بها بتشبث وقنوط ، ولقد صدته وردته ، فأنّى يمّم وجهه وهو مثل سابح في بحر مظلم ، مطرود مما يتعلق به . فإلى أين يتوجه ؟ أراد أن يتركها ، أراد أن يكون قادرا على هجرها . من أجل روحه ، ومن أجل رجولته يجب أن يكون قادرا على هجرها .

لكن من أجل ماذا ؟ فلقد كانت السفينة ، وبقية العالم طوفان ؛ كانت المرأة الشيء الوحيد الآمن الحقيقي ، إنه لا يستطيع أن يتركها إلاّ الى امرأة أخرى ، وأين هي المرأة الأخرى ، ومن تكون هذه المرأة الأخرى ؟ الى جانب أنه سيكون في الحال نفسه ، والمرأة الأخرى هي امرأة أيضا ، ويظل الأمر على حاله .

لماذا هي الكل ؟ كل شيء . لماذا يجب أن يعيش من خلالها ، لماذا يجب أن يغرق إذا انفصل عنها ؟ لماذا يتعلق مهتاجاً بها ، كما لو أنه يريد أن ينجو بحياته ؟

إن الطريقة الوحيدة الأخرى للتخلص منها هي أن يموت . الطريق المباشر الوحيد لهجرها هو أن يموت . كانت روحه المظلمة الغاضبة تعرف ذلك ، لكن لم تكن لديه رغبة في الموت .

لمَ لا يستطيع أن يتخلى عنها ؟ لمَ لايستطيع أن يلقي بنفسه في المياه الخفية حتى يعيش أو يموت مثل ما قُدِّر له ؟ إنه لا يستطيع ذلك ، لا يستطيع . لكن افترض أنه ذهب بعيدا في الحال ، ووجد عملا ، وعثر على سكن مرة اخرى . إن باستطاعته أن يبدأ مرة اخرى مثل ما كان من قبل . ولكنه عرف أنه لن يستطيع فعل ذلك . امرأة! يجب أن تكون

عنده امرأة ، ولكي تكون عنده امرأة ، يجب أن يكون متحررا منها ، وسوف يكون الوضع نفسه ، لأنه لن يستطيع أن يتحرر منها .

كيف يمكن للرجل أن يقف بلا شيء ثابت تحت قدميه ؟ هل يستطيع الرجل أن يجوس في المياه المضطربة طوال حياته ، ويسمي هذا وقوفا ؟ من الأفضل له أن يستسلم ويغرق في الحال .

وما الذي بإمكانه أن يستند إليه ما لم يكن المرأة ؟ ايكون إذن مثل شيخ البحر غير قادر على الحياة إلاّ على ظهر حياة أخرى ؟ هل كان عاجزا أم كسيحا أم ناقصا أم أنه مجرد شظية ؟ كان عذابا أسود ، مخزيا ، سعير الخوف ، سعير الرغبة والعار الرهيب اللاهث المرتد .

وما الذي يخيفه ؟ لماذا تبدو الحياة دون آنا مجرد اضطراب رهيب . كل شيء يصير في طوفان عديم المعنى لا قرار له ؟ لماذا لو تركته آنا ولو أسبوعاً ، يبدو كأنه يتعلق مثل مجنون بحافة الواقع ، وينزلق بالتأكيد ؛ بالتأكيد الى طوفان اللاواقع الذي سيغرقه ؟ إن هذا الإنزلاق الرهيب الى اللاواقع يقوده الى الجنون ، وصرخت روحه بالخوف والتبريح .

ومع ذلك ، كانت تبعده عنها ، تدفعه بعيدا ، تكسر أصابعه في قبضته عليها ؛ بإصرار وبقسوة . أرادها أن ترق لحاله ، وفي بعض الأحيان ، كانت ترثي لحاله لحظة ، بيد أنها تبدأ مرة اخرى تبعده الى المياه العميقة ، الى سعار اللاواقع وتبريحه .

وبدت مثل الغضب بالنسبة إليه ، دون إحساس به . كانت عيناها براقتين بكره بارد جامد ، بعدها بدا كأن قلبه قد مات في خوفه الأخير ، وأن بمستطاعها أن تدفعه الى الأعماق .

لم تعد تنام معه فترة أطول . قالت إنه يفسد نومها عليها ، واشتد سعار وجنون خوفه ومعاناته لقد أبعدته مثل شيطان مروع متسكع ، طرد بعيدا . وكان ذهنه يعمل بمكر ضدها ، يختلق الشر لها ، غير أنها أبعدته . وفي لحظات معاناته الشديدة ، بدت في عينيه ، مستعصية على الفهم ، وحشا ، مثالا على القسوة

ومع أن شفقتها قد تفسح المجال لحظة ، بيد أنها كانت صلبة وباردة مثل جوهرة يجب أن يبعد عنها ، ويجب أن تنام بمفردها ، وأعدت له سريرا في غرفة صغيرة .

واضطجع هناك مهانا ، وجلدت روحه الى حد الموت تقريبا ، بيد أنها لم تتغير . اضطجع في تبريح المعاناة ، ملقى مرة اخرى الى اللاواقع ، مثل رجل القي من ظهر السفينة الى البحر كي يسبح حتى يغرق ، لأن ليس ثمة شيء يتعلق به ، بل مجرد بحر واسع مضطرب

ولم ينم إلاّ نوما متقطعا ، عندما ينسحب قناع رقيق فوق ذهنه ، ولم يكن ذلك نوما . كان متيقظا ، ولم يكن كذلك ، لا يستطيع أن يكون وحيدا ، فهو يحتاج الى أن يكون قادرا على وضع ذراعيه حولها . ليس بمستطاعه أن يطيق الفراغ مقابل صدره حيث اعتادت أن تكون . ليس بمقدوره أن يتحمل ذلك . وأحس كما لو أنه معلق في الفراغ ، وأُمسك هناك بقبضة إرادته ، فإذا ما استرخى ، فإنه سيسقط ، يسقط خلال فراغ لانهائي ، الى حفرة لا قرار لها ، ساقطا دائما ، منزوع الإرادة ، عديم الحيلة ، لا وجود له ، ساقطاً فقط نحو الإنطفاء ؛ ساقطاً حتى تخفت نار الإحتراق مثل نجم هاو ، وبعدها يحل اللاشيء ، اللاشيء ، اللاشيء المكتمل .

نهض في الصباح ، كالح اللون وغير حقيقي . وبدت مغرمة به مرة اخرى ، وبدت قد تزينت له قليلا .

قالت له ببريقها الزائف بعض الشيء :

ـ لقد نمتُ جيدا ، هل نمت أنت جيدا أيضا ؟

فأجابها :

ـ على ما يرام .

لن يخبرها أبدا .

وطوال ثلاث ليال أو أربع ، اضطجع وحيدا في نوم متقطع ، ولم تتغير إرادته لم تتغير ، لم تزل مشدودة ، مثبتة في غمدها . ومن ثم ، وكما لو أنها انتعشت وتحررت ، كي تغرم به مرة أخرى ، معتمة بصمته وإذعانه الظاهر ، تأثرت بالشفقة ايضا ، فأعادته إليها مرة أخرى .

وفي كل ليلة ، رغم كل الخزي ، كان ينتظر بالتبريح ساعة النوم ليرى إن كانت ستعزله . وفي كل ليلة ، كما في بريقها الزائف ، كانت تقول له ليلة سعيدة . أحس أن عليه إما أن يقتلها أو أن يقتل نفسه ، لكنها رغبت في قبلته بحزن وظرف ، لذلك قبلها ، بينما كان قلبه كالجليد .

وفي بعض الأحيان ، كان يخرج من البيت . وفي احدى المرات ، جلس فترة طويلة في رواق الكنيسة ، قبل أن يأوي الى سريره . كان الجو مظلما ، وثمة ريح تهب جلس في رواق الكنيسة ، وأحس ببعض الأمانِ والحماية ، لكن الجو أصبح باردا ، وكان عليه أن يأوي الى فراشه .

بعد ذلك حلت الليلة التي قالت فيها ، وقد وضعت ذراعيها حوله ، وهي تقبله مغرمة

ـ ابق معي الليلة ، هل تفعل ذلك ؟

وبقي معها دون اعتراض ، لكن إرادته لم تتغير . كان ثبتها عليه .

وسرعان ما أخبرته مرة أخرى أنها يجب أن تبقى وحيدة .

ـ أنا لا أريد أن أبعدك ، وأريد أن أنام معك ، لكني لا أستطيع النوم ، إنك لا تدعني أنام .

واسودّ الدم في عروقه :

ـ ماذا تعنين بقولك هذا ؟ إنها كذبة رديئة جدا ، أنا لا أدعك تنامين...

ـ ولكنك لا تدعني أنام . اني أنام جيدا عندما أكون وحدي ، وأنا لا أستطيع النوم عندما تكون معي ، إنك تفعل شيئا ما لي ، وتسلط ضغطا على رأسي ، وأنا يجب أن أنام لأن الطفل يوشك على المجيء .

فرد عليها قائلاً :

ـ ذلك شيء في داخلك ، شيء ما خطأ فيك .

كانت مزعجة جدا تلك المنازعات الليلية حينما يكون العالم كله نائما ، وهما الإثنان وحدهما ؛ وحيدان في العالم ، يصد أحدهما الآخر . كان ذلك أمرا يصعب احتماله .

ذهب واضطجع وحيدا . وبعد فترة طويلة ؛ فترة كالحة وشاحبة ومروعة ، استرخى واستسلم شيء فيه . ترك الأمر يمر ، ولم يحفل بما حل به ، وأصبح غريبا ومتحهما مع نفسه ومعها ومع الجميع ، وخيم غموض يشبه الغرق فوق كل شيء   وكان تحررا نهائيا أن يغرق ؛ تحررا ؛ تحررا عظيما جدا . لن يصر بعد الآن ، ولن يجبرها على شيء ، ولن يجبر نفسه عليها فترة أطول ، بل سيدع الأمور تسير ، ويسترخي ويغطس ، وليكن ما يكون .

ومع ذلك ، لم يزل يريدها . لقد أرادها دائما وأبدا . وفي سويداء روحه ، كان وحيداً مثل طفل ، وكان عديم الحيلة مثل طفل مع أمه ، يعتمد عليها في حياته ، وهو يعرف ذلك ويعرف أيضاً ، أن من الصعب أن يفعل شيئا .

ومع ذلك ، يجب أن يكون قادرا على أن يظل وحيدا ، ويجب أن يكون قادرا على النوم الى جوار الفراغ ، ودعه يكن هكذا . يجب أن يكون قادراً على أن يترك نفسه للطوفان ، كي يغرق أو يعيش مثل ما قدر له ، لأنه أدرك في نهاية المطاف قصوره ومحدودية قدراته . إن عليه أن يستسلم .

كان ثمة سكون وخفوت بينهما . لقد انتهى نصف المعركة تقريبا . وفي بعض

الأحيان ، كانت تبكي وهي تتجول في البيت ، وقلبها مهموم جدا ، لكن الطفل كان دافئا طوال الوقت في رحمها .

أصبحا صديقين مرة اخرى ، جديدين ، صديقين باهتين ، ولكن ثمة خفوتاً بينهما وناما معاً مرة أخرى بهدوء شديد ، متمايزين ، وليسا معا مثل ما كانا من قبل ، وكانت حميمية معه مثل ما كانت في البداية ، غير أنه كان هادئا جدا ، وليس حميما ، كان سعيد الروح ، لكنه في تلك الأثناء لم يكن حيا .

كان بمستطاعه أن ينام معها ، وأن يدعها موجودة هناك ، وأن باستطاعته أن يكون وحيدا الآن . لقد تعلم ، تواً ، ماذا يعني أن يكون قادرا على النوم وحيدا ، وكان ذلك مناسبا وهادئا . لقد منحته حرية جديدة عميقة . إن العالم يمكن أن يكون جيشان اللاواقع ، لكنه الآن نفسه . لقد تلبس وجوده الآن ، ولد مرة ثانية ، ولد في النهاية في نفسه ، خارج جسد البشرية الشاسع . الآن ، في النهاية ، أصبحت له هوية منفصلة ، إنه موجود وحده حتى اذا كان ليس وحيدا تماما . وقبل ذلك ، كان موجودا فقط بقدر ما كانت له علاقات مع كائن آخر . اما الآن ، فإن له نفسا مطلقة ، كما أن له نفسا نسبية .

بيد أنها كانت نفسا خرساء جدا ، ضعيفة عديمة الحيلة ، رضيعا زاحفا . وتجول هادئا جدا ، ومذعنا بطريقة ما . اصبحت لديه في النهاية ، نفس تتغير حرة منفصلة مستقلة .

وتحررت ، أصبحت حرة منه . لقد اعطته لنفسه ، وبكت بعض الوقت من التعب وانعدام الحيلة ، ولكنه كان زوجا ، وابتدأت تنسى في الطفل الذي يوشك على القدوم ، إذ أنه على ما يبدو ، يجعلها دافئة وسنى ، واستغرقت في تأمل طويل ، مبهم دافئ غامض ، غير راغبة في أن تخرج من غموضها ، واستقرت عليه أيضاً

كانت تجيء إليه أحيانا بضوء غريب في عينيها ، حادة حزينة ، كما لو أنها تطلب شيئا ، وكان ينظر ولا يستطيع أن يفهم .كانت جميلة جدا ، حالمة جدا ، وكان يخرج من صدره إليها ، مثل شروق . كان هناك من أجلها ، كله لها ، وكانت تمسك صدره وتقبله مرة بعد أخرى ، وتركع الى جانبه ، هي التي كانت تنتظر ساعة مخاضها . وكان يضطجع ، وهو ينظر الى صدره ، كأن صدره لم يعد ملكه ، وأنه قد تركه مضطجعا هناك . ومع ذلك ، كان نفسه مرة اخرى ، وهو جميل ومشرق بقبلاتها . كان سعيدا بألم غريب وضاء ، بينما كانت تركع الى جانبه ، وهي تقبل صدره بحركة بطيئة ، مستغرقة ، شبه مكرسة

عرف أنها كانت تريد شيئا ، وتاق قلبه كي يمنحه لها ، وتاق قلبه لها . وعندما رفعت وجهها الذي كان وضاء ، ووردي اللون مثل سحابة صغيرة ، كان قلبه مايزال يتوق إليها ،

الآن ومن بعد ، كان مغرما بها . كان لها وجود يشبه الزهرة التي يغرم بها ، وهو يقف ىيدا وغريبا .

تصرمت الأيام ، واقترب الموعد ، وكانا ودودين جدا ، وسعيدين بطريقة رقيقة ، بدت الروح الملحة المتلهفة ، واللارضا العنيف في داخله ، ساكنين خامدين ، ونام الأسد ع الحمل في داخله

أحبته كثيرا حقا ، وانتظر الى جانبها . كانت شيئا ثمينا نائيا بالنسبة اليه في ذلك وقت ، بينما كانت تنتظر طفلها .كانت روحها سعيدة منتشية بسبب الطفل القادم ، أرادت صبيا . أوه ، أرادت صبياً بشدة .

بيد أنها بدت شابة جدا وغضة . لم تكن سوى فتاة حسب ، وعندما وقفت إزاء النار غسل نفسها ، كانت مزهوة بأن تغسل نفسها في ذلك الوقت ، ونظر إليها وامتلأ قلبه حنان مفرط تجاهها . تلك الأطراف الرائعة ، وذراعاها الرشيقان المدوران مثل اضوية طاردة ، وساقاها البسيطتان الصبيانيتان ، ومع ذلك المختالتان جدا . أوه ، انتصبت على ساقين مختالتين ، بتوازن مهمل محبب لبطنها الممتلئ ، والتدور الصغير الفاتن ، والنهدين لذين أصبحا مهمين ، وفوق كل شيء ، وجهها الذي كان يشبه سحابة وردية مشرقة .

يا لزهوها بنفسها ، ويا لها من كائن محبوب ، مختالة بجسدها الشاب ، وأحبت أن ضع يديه على امتلائها الناضج كي يُفاجأ أيضاً بالحركة والسرعة هناك كان خائفا صامتا ، بيد أنها ألقت ذراعيها حول عنقه بمتعة مزهوة طائشة .

وجاءت الآلام ، اوه ، كيف صرخت! كانت تريده أن يبقى الى جانبها . وبعد صرخاتها طويلة ، كانت تنظر إليه ، والدموع في عينيها ، وتنشج والضحكة على سيمائها قائلة :

ـ أنا لا أهتم بالأمر حقا

كان أمراً سيئاً بما فيه الكفاية ، لكنه لم يكن مميتا لها ابدا ، وحتى الألم الحاد ممزق ، كان مبهجا . صرخت وعانت ، لكنها طوال الوقت ، كانت حية ونشيطة ، بطريقة ىريبة . احست أنها حية وقوية ، وبين يدي قوة الحياة المسيطرة ، حتى أن أحاسيسها داخلية كانت من نوع الابتهاج . كانت تدرك أنها تنتصر ، تنتصر ، كانت تنتصر دوما ، مع كل نوبة ألم كانت تقترب من النصر .

ربما عانى اكثر منها . لم يكن مصدوماً أو مرعوباً ، غير أنه كان محشورا جدا في ما شبه المعاناة .

كان المولود بنتا ، ووشت لحظة الصمت التي مرت على وجهها عندما أخبروها بذلك ،

أن ظنها قد خاب ، وبزغ في قلبه ومض شديد من الرفض والاحتجاج في تلك اللحظة ادعى أبوّة الطفل .

ولكن عندما در الحليب ، وامتص الرضيع نهدها ، بدت كأنها تقفز من فرط السعادة .

وصرخت وهي تضم الوليد الى صدرها بيديها ، مغطية إياه بحنان .

ـ إنها ترضعني ، إنها ترضعني ، إنها تحبني ، أوه ، إنها تحب الرضع!

وخلال بضع لحظات اعتادت على سعادتها ، وتأملت الطفلة بعينين متوهجتين لا تريان وقالت :

ـ أنا منتصرة!

وابتعد مرتجفا ، ونام ، وكانت آلامها بالنسبة لها ألم جرح المنتصر ، وكانت هي المزهوة .

عندما تعافت مرة أخرى وأصبحت سعيدة جدا ، أسمت الطفلة أورسلا ولقد أحست آنا وزوجها ، أنهما يجب أن يطلقا على الطفلة اسماً يمنحها رضا خاصا . كانت الرضيعة سمراء ، مصفرة البشرة ، لها جلد أزغب غريب ، وخصل من شعر برونزي ، وكانت العينان الرماديتان الصفراوان تطرفان ، ثم اكتسبتا لونا بنيا ذهبيا كعيني ابيها ، لذلك اسمياها اورسلا بسبب صورة لقديس .

كانت طفلة رقيقة قليلا في البداية ، غير أنها سرعان ما اشتد ساعدها ، وكانت تهدأ مثل سمك الحنكليس الصغير ، وكانت آنا تستنفد بصراعها طوال اليوم مع نشاطها الشاب .

ومثل حيوان صغير ، أحبتها وافتتنت بها وكانت سعيدة ، ولقد أحبت زوجها ، وقبلت عينيه وأنفه وفمه ، وأطرته كثيراً ، فقالت إن اطرافه جميلة ، وإنها مولعة بمظهره الجسدي .

وكانت آنا المنتصرة بحق ، ولم يعد بمقدوره أن ينازلها ، وكان وحيدا في العراء معها . وعندما توافرت له فرصة للذهاب الى لندن تملكه الدهش ، وهو يعود مفكرا بالمتوحشين العراة المتسكعين على جزيرة ، عن الكيفية التي قيض لهم بها أن يخلقوا شارع اوكسفورد او ساحة البيكاديلي ويبنوهما . كيف استطاع متوحشون عديمو الحيلة ، يركضون وهم حاملون رماحهم على ضفاف الأنهار جريا وراء الأسماك ، كيف استطاعوا أن يبنوا لندن العظيمة ؟ بنايات الإنسان القبيحة المصمتة الخرقاء على عالم الطبيعة . أزعجه ذلك الأمر وروعه ، فالإنسان مزعج ومريع في أفعاله ، وأعمال المرء أشد هولاً من الإنسان نفسه ، تكاد أن تكون وحشية

ومع ذلك ، في جزئه الخاص ، لكيانه الحميم ، أحس برانغوين أن عالم الإنسان بأكمله ، كان خارجيا ودخيلا على حياته الحقيقية مع آنا . أكنسْ بعيدا كل مباني العالم الوحشية الحالية : مدنا وصناعات وحضارة ، واترك فقط الأرض العارية ، والنباتات تنمو ، والمياه تجري ، ولن يضيره ذلك ، مادام متكاملا ، ومادام امتلك آنا والطفل والإطمئنان الجديد الغريب في روحه ، فحتى لو كان عاريا عندئذ ، فانه سيجد قطعة قماش في مكان ما ، وسيعثر على ملجأ ، ويجلب الطعام لزوجته .

أي شيء أكثر ؟ ما هو الشيء الأكثر ضرورة من هذا ؟ فكتلة الفعالية العظيمة التي ينشغل بها البشر لا تعني شيئا له ، فهو بطبعه ليس له دور فيها . ما الذي يعيش من اجله إذن ؟ امن اجل آنا ، ومن اجل العيش المجرد حسب ؟ مالذي يريده من وجوده على هذه الأرض ؟ آنا فقط واطفاله وحياته مع الأطفال ومعها ؟ أليس هناك المزيد ؟

ولازمه إحساسه بالحاجة لشيء اكثر ، شيء ما ابعد ، ذلك الذي أعطاه وجوده المطلق . كان الأمر يبدو الآن ، كما لو أنه قد وجد في الأبدية دع الزمن يسير أنى شاء فما الذي هناك في الخارج ؟ العالم المصطنع ، وذاك لا يؤمن به ، فما الذي يمكن أن يجلبه لها من الخارج ؟ لا شيء ، فهل يكفي هذا مثل ما كان ؟ كان منزعجا من استسلامه ، ولم تكن معه ، ورغم ذلك ، لم يكن يؤمن بنفسه إلاّ لماماً بعيدا عنها ، رغم أن اللانهاية بأكملها كانت معه دع العالم باكمله ينزلق الى الأسفل من فوق حافة النسيان ، فلسوف يقف وحيدا . لكنه لم يكن واثقا منها ، ولقد وجد كذلك فيها ، لذلك لم يكن هو الآخر واثقا من نفسه .

حام قريبا منها ، غير قادر ابدا على أن ينسى اللااطمئنان الغامض الذي يلاحقه ، والذي يبدو أنه يتحداه ، والذي لن يسمعه . وكانت نوبة من الفزع ، كأنها احساس بالذنب ناتج من قصور الذات كانت تخيم عليه ، عندما يسمعها تتحدث مع الطفلة . كانت تقف إزاء الشباك والرضيعة التي لم تبلغ الشهر بين ذراعيها ، منطلقة بأغنية موسيقية شابة لم يكن قد سمعها من قبل ، كانت تدق على قلبه مثل مطلب من بعد ، او صوت عالم آخر يعلن فيه مطالبه منه . وقف قريبا منها مصغيا ، وجاش قلبه ، جاش قلبه كي يثار ويستسلم بعدها تراجع منكمشا ، وظل منعزلا . لم يكن بمستطاعه أن يتحرك ، فلقد كان الإنكار يلاحقه ، كما لو أنه لا يستطيع أن ينكر نفسه ، يجب عليه ، يجب عليه أن يكون نفسه .

ودندنت وهي ترفع الصغيرة الى الشباك حيث كانت الحديقة البيضاء تشرق ، والعصافير الزرق تتشاجر على الجليد .

ـ انظري الى العصافير ذوات القلنسوات الزرق ياحلوتي ، انظري الى العصافير الحمقى ، يا حبيبتي ، تتقاتل على الجليد . انظري إليها يا عصفورتي تضرب الجليد من حولها بأجنحتها ، وتهز رؤوسها . أوه ، أليست هذه مخلوقات شريرة ، أشياء شريرة! انظري الى تلك الريشات الصفر على الثلج هناك! سيفتقدنها ، أليس كذلك ، عندما يبردن حقا ؟

يجب أن نطلب منهم أن يتوقفوا . هل يجب أن نقول لهم يا عصفورتي : أوقفوا الشجار ، لكنهم طيور مشاكسة . انظري إليها .

وفجأة أصبح صوتها عاليا وثاقبا ، وقرعت على القضبان بحدة وهتفت :

ـ توقفوا ، توقفوا أيها المزعجون الصغار ، توقفوا . هتفت بصوت أعلى ، وقرعت القضبان بحدة ، وكان صوتها ثاقبا وآمراً .

وصرخت : كونوا أكثر تعقلا

ـ لقد ذهبوا الآن . الى أين ذهبت تلك الأشياء السخيفة ؟ ماذا سيقول بعضها لبعض . ماذا ستقول يا حملي ؟ سوف ينسون أليس كذلك ؟ سينسون الأمر برمته ويخرجونه من رؤوسهم الصغيرة الساذجة ومن قلنسواتهم الزرق .

بعد لحظة أدارت وجهها البراق الى زوجها وقالت :

ـ كانوا يتقاتلون حقا . كانوا حادين في خصامهم!

كان صوتها حميما بالدهشة والإثارة كما لو أنها تعود الى عالم الطيور ، كما لو أنها انحدرت من نسل الطيور .

ـ أجل إنها تتقاتل ، الطيور ذات القلنسوات الزرق .

قال لها سعيدا ، عندما استدارت اليه بتوهجها من مكان آخر ، ثم اقترب ووقف الى جانبها ، ونظر الى الآثار على الثلج حيث تشاجرت العصافير ، والى أشجار السرو المثقلة بأغصان بيض وسود . ما الذي كانت تلتمسه منه ، ماهو السؤال الذي كان يدور على وجهها البراق ؟ ما هو التحدي الذي استدعي من أجله ، كي يجيب عنه ؟ لم يعرف ، لكنه عندما وقف هناك ، احس ببعض المسؤولية التي جعلته سعيدا لكنه كان متوترا ، كما لو أن عليه أن يطفئ ضوءه ، ولم يكن بمقدوره أن يتحرك في تلك اللحظة .

أحبت آنا الطفلة كثيرا ، أوه ، كثيراً جداً . ومع ذلك ، لم تكن راضية تماما ، فلقد كان يعتريها إحساس متوجس طفيف مثل باب شبه مفتوح . هنا كانت آمنة ساكنة في كوسثي ، بيد أنها أحست كما لو أنها ليست في كوسثي على الإطلاق . كانت تجهد عينيها بحثا عن

شيء ابعد . ومن قمة جبل الفسجة* الذي تسلقته ، ماذا كان بمقدورها أن ترى ؟ أفقا معتما قليلا على مسافة بعيدة وقوس قزح مثل مدخل مقوس وباباً يشبه الظل ذا إفريز باهت الألوان فوقه . هل يجب أن تتحرك الى هناك ؟

ثمة شيء لا تمتلكه ، شيء لم تمسك به ، لم تستطع الرصول اليه . كان ثمة شيء بعيداً عن متناولها ، لكن لمّ عليها أن تشرع في رحلتها ؟ إنها تقف بأمان تام على جبل الفسجة .

وفي الشتاء ، عندما كانت تصحو مع شروق الشمس ، ومن الشبابيك الخلفية ، ترى الشرق يتوهج باللون الأصفر والبرتقالي فوق العشب الأخضر المتوهج ، بينما كانت شجرة الكمثرى الكبيرة بينهما ، تقف معتمة رائعة ، تشبه الوثن ، وتحت شجرة الكمثرى المظلمة ، كانت بركة الماء الصغيرة تمتد ناعمة في ضوء اصفر براق . وقالت : « إنه هنا » .

وفي المساء ، عندما يحل الغروب بتوهج احمر عبر الفتحات الكبيرة في السحب ، كانت تقول مرة اخرى : « إنه ما وراء ذلك » .

كان الفجر والغروب قدمي قوس قزح اللذين يقيسان النهار ، وكانت ترى الأمل والوعد ، فلماذا تسافر إذن مسافة أبعد من ذلك ؟

ومع ذلك ، ظلت دائما توجه الأسئلة . فما أن تهبط الشمس في استعجالها الشتوي الناري حتى كانت تواجه انتهاء المسرحية المتوهجة التي لم تؤد فيها دورها المكتمل بعد . ومع ذلك ، كانت تحدد مطالبه : ما الذي تفعلينه بخلقك هذا الاضطراب الكبير المتألق ؟ ما الذي يشغلك ، لمّ لا تدعيننا وحدنا ؟

لم تتجه نحو زوجها كي يقودها ، إذ كان بمعزل عنها أو معها ، اعتمادا على تصوراتها المختلفة عنه . إنها يمكن أن تمسك الطفل ، إنها يمكن أن تقذف الطفل في الفرن . إن الطفل يمكن أن يمشي هناك وسط الفحم المتوهج وضجة الحرارة المتألقة ، مثل ما يمشي الشهود مع الملاك في النار .

وسرعان ما أحست بالاطمئنان من زوجها . عرفت وجهه المظلم ، ومدى هواها ، وعرفت جسده الرشيق النشيط ، وقالت إنه لها ، بعدها لم يعد ينكرها . كانت امرأة غنية تستمتع بثرواتها .

* جبل الفسجة في الأغلب أحد قمم جبل نبو الذي تسلقه النبي موسى عليه السلام . (المترجم)

وسرعان ما أصبحت مع الطفل مرة أخرى ، وهو أمر جعلها راضية وحررها من تعاستها ، ونسيت أنها راقبت الشمس ، وهي تتسلق وتمر في طريقها ، مسافر رائع يندفع نحو الأمام ، ونسيت أن القمر قد نظر خلال شباك الليل المظلم العالي وهز رأسه في ما يشبه التعرف السحري ، مؤشراً لها أن تتبعه ، وارتحل القمر والشمس ، وتركاها ، اجتازاها ، امرأة غنية تستمتع بثرواتها . إنها يجب أن ترحل أيضا ، ولكن ليس بمقدورها أن تذهب عندما يدعونها لأن عليها أن تبقى في البيت الآن ، وعن طيب خاطر . عضت النظر عن مغامرة الارتحال الى المجهول ، إذ كانت تحمل أطفالها .

كان هناك طفل آخر قادم ، وغطست آنا في سعادة غامضة ، فإن لم تكن المسافرة الى المجهول ، وإن لم تكن وصلت لتوها واستقرت في بيتها المشيد ، امرأة غنية ، فإن أبوابها لم تزل مشرعة تحت قوس قزح ، وعتبتها تعكس مرور الشمس والقمر المسافرين العظيمين ، وكان بيتها ممتلئا بصدى الارتحال .

كانت نفسها باباً وعتبة . ومن خلالها ستأتي روح أخرى لتقف عليها كما تقف على العتبة ، تنظر الى الخارج مظللة عينيها لتحدد الاتجاه الذي تختاره .

الفصل السابع

الكاتدرائية

خلال السنة الأولى من زواجهما ، وقبل أن تولد أورسلا ، ذهبت آنا برانغوين وزوجها لزيارة صديق أمها البارون سكريبنسكي ، إذ حافظ الأخير على اتصال واهن مع آنا ، واحتفظ دوما بنوع من الاهتمام الفضولي بالفتاة الشابة ، لأنها كانت بولونية نقية .

وعندما كان البارون سكريبنسكي في نحو الأربعين من العمر ، توفيت زوجته وتركته حزينا مصابا بالهذيان . ولقد زارته ليديا عندئذ ، مصطحبة آنا معها . كان ذلك عندما كانت الفتاة في الرابعة عشرة من عمرها ، ومنذ ذلك الوقت لم تره أبدا كانت تتذكره بهيئة رجل دين ، ضئيل البنية ، حاد المزاج ، وكان يصرخ ويتحدث ويخيفها ، بينما كانت أمها تواسيه ، بطريقة غريبة جدا وبلغة أجنبية .

ولم يكن البارون الضئيل راضيا تماما الرضا عن آنا لأنها لم تكن تجيد الحديث باللغة البولونية ومع ذلك ، كان يعد نفسه ، بطريقة ما ، القيم عليها نيابة عن لينسكي ، وأهداها بعض المجوهرات الروسية القديمة الثقيلة ، وهي أقل المجوهرات التي خلفتها زوجته قيمة ، ومن ثم اختفى من حياة آل برانغوين مرة أخرى ، رغم أنه كان يعيش على مبعدة ثلاثين ميلاً عنهم حسب .

بعد ذلك بثلاث سنوات ، طرقت أسماعهم الأخبار المفاجئة من أنه تزوج من فتاة إنكليزية شابة تنحدر من عائلة طيبة ، ولقد كان ذلك مدعاة لدهشة الجميع ، ثم وصلتهم نسخة من كتاب (تاريخ أبرشية بريسويل) من تأليف بارون سكريبنسكي ، خوري بريسويل كان كتابا غريبا ، مفككا ، ممتلئا بالكثير من نبش القبور المثير ، وكان مكرسا «الى زوجتي ميلسنت مود بيرس ، التي احتضنتُ فيها روح إنكلترا لمعطاء » .

وعلق برانغوين على ذلك قائلا :

ـ إذا لم يكن يحتضن شيئا غير روح إنكلترا فلا أمل له بالنجاح

لكنه وجد البارونة الجديدة ، عندما قام بزيارة رسمية مع زوجته ، مخلوقة ضئيلة مخاتلة ، ذات جلد بلون القشدة ، وشعر بني محمر ، وفم من النوع الذي ينبغي على المرء أن يمسكه دائما ، لأنه كان مقوسا الى الخلف باستمرار بضحكة غريبة مبهمة تكشف عن أسنانها البارزة . ولم تكن بالمرأة الجميلة ، لكن توم برانغوين أصبح تحت تأثيرها في الحال . كانت تبدو وكأنها تتضام مثل قطة في دفئها ، بينما كانت في الوقت نفسه ، متملصة وساخرة ، مستعرضة فولاذ مخلبيها الرائعين .

كان البارون مجاملا الى حد الوله بها ، حريصا على رضاها . وكانت تدعه يتوله بها بمكر تقريبا ، بيد أنها كانت سعيدة تماما أيضا . كانت مخلوقة ضئيلة غريبة ، وكان لها ذلك الجمال المراوغ اللزج الذي يميز حيوان النمس . وكان توم برانغوين في ضياع تام ، تحت رحمتها ، ولقد ضحكت منه ، مقطوعة الأنفاس بعض الشيء ، كما لو أنها تهدف الى القسوة ، ولم تعرض البارون العجوز الى ألم شديد .

وعندما حملت بعد أشهر من ذلك بولد ، كان البارون سكريبنسكي سعيدا جدا .

وجمعت تدريجا دائرة من المعارف ، لأنها كانت تنحدر من عائلة طيبة ، نصفها من مدينة البندقية ، كما تعلمت في درسدن . ولقد احتل الخوري الأجنبي الضئيل مكانة إجتماعية أرضت تقريبا كبرياءه المجنونة .

لذلك فلقد دهش آل برانغوين عندما جاءت الدعوة من آنا وزوجها الشاب كي يزورا أبرشية بريسويل ، ذلك لأن سكريبنسكي كان متوسط الغنى عندئذ ، ولقد كانت لمليسنت سكريبنسكي ثروتها الخاصة بها .

أخرجت آنا أحسن ملابسها ، واستعادت أفضل الأخلاق التي تعلمتها في المدرسة الثانوية ووصلت برفقة زوجها . كان ويل برانغوين متورد الوجه ، براقا ، ذا أطراف طويلة ورأس صغير ، مثل طير أخرق ، لم يتغير البتة . وكانت البارونة الضئيلة تبتسم كاشفة عن أسنانها . كانت تتوافر على نوع من الفتنة الحقيقية ، نوع من البرود المستمتع ، وكانت ضاحكة مسرورة مثل إبن عرس . ولقد احترمتها آنا في الحال ، وكبحت جماح نفسها أمامها ، وانجذبت غرزياً الى ثقة البارونة الطفولية الغريبة ، ومع ذلك ، فإنها لم تكن تثق بها ، بل كانت مندهشة . كان البارون الضئيل عندئذ أشيب الشعر تماما ، هشّا جدا . كان ذبل وتجعد ، ومع ذلك ، كان حادا لم يهمد بعد . نظرت

آنا الى جسده الهزيل والى ساقيه النحيفتين الدقيفتين ويديه الضامرتين عندما جلس يتحدث ، وتورد وجهها . ميزت نوع الذكورة فيه ، عمره الضامر المركز ، ناره الخابية وقدرته على الإستجابة الحادة المتعمدة . كان منفصلا تماما ، موضوعيا بصورة كلية كانت المرأة خارج كيانه تماما ، وليس ثمة تشويش ، لذلك فإن بمقدوره أن يمنح تلك الاستجابة الدقيقة المتعمدة .

كان شيئا منفصلا ومثيرا ، وقد بري كيانه الصلب الحقيقي الى ما هو ضروري حسب ، والى مباشرة تشبه الموت تقريبا ، قاسيا كان مع ذلك واثقا دون انحراف في مسلكه ، متميزا جدا في ثقته لذلك فإنها انجذبت اليه ، وراقبت ناره الباردة الصلبة المنفصلة ، ودهشت بها . هل يا ترى تفضل أن تحصل عليها بدلا من حرارة زوجها المنتشرة ، بدلا من شبابه الساخن الأعمى ؟

بدت كأنها تتنفس هواء عاليا وحادا ، كما لو أنها خرجت لتوها من غرفة ساخنة . إن آل سكريبنسكي الغريبي الأطوار قد فتحوا عينيها على عنصر أكثر حرية ، يكون كل امرئ فيه منفصلا ومنعزلا . ألم يكن هذا هو عنصرها الطبيعي ؟ ألم تكن حياة برانغوين الحميمة تطبق على خناقها ؟

وفي تلك الأثناء ، كانت البارونة الضئيلة بالضوء الخافت الدائم الذي يدور في عينيها المفتوحتين البراقتين اللتين كانتا بلون البندق تلعبان مع ويل برانغوين . لم يكن سريعا بما فيه الكفاية كي يرى كل حركاتها ، ومع ذلك ، ظلّ يراقبها باستمرار بعينين ثابتتين مضيئتين . كانت مخلوقة غريبة في نظره ، لكن لم تكن لها قدرة عليه فاحمرت وانزعجت ، ومع ذلك ، استمرت ترمقه بالنظرات مرة بعد أخرى في وجهه الحي المعتم ، بطريقة غريبة ، كما لو أنها كانت تحتقره . لقد احتقرت طبعه غير الناقد ؛ غير الساخر ، فلم يكن يعني شيئا بالنسبة لها . ورغم كل شيء أغضبها ذلك كما لو أنها كانت غيورة ، وراقبها باهتمامه المُراعي مثلما يراقب ابن عرس يلعب ، بيد أنه لم يكن ليورط نفسه . كان مختلفا في نوعه . وتحولت باجمعها الى لهب واخز خافق ، إذ كان نارا حمراء متوهجة على الدوام . لم يكن بمقدورها أن تحصل على شيء منه ، لذلك جعلته يحمر متجمها وذلك باتخاذها موقفا خفيا واخزا متفوقا طبقيا ، فاحمرّ لكنه لم يعترض كان مختلفا تماما .

جاء طفلها الصغير بصحبة المربية كان طفلا سريعا نحيلا ذا إدراك سريع ، وتحول فاتر في إهتماماته وفي الحال عامل ويل برانغوين كشخص غريب ، وبقي الى جانب آنا

لحظة ، معترفا بها ، ثم انصرف مرة أخرى ، سريعا ، مراقبا ، قلقا يلقي نظرات اهتمام على كل شيء .

كان الأب مغرما به وتحدث بالبولونية معه . وكان سلوك الأب الأرستقراطي الجاف غريبا مع الطفل ، تلك الفجوة في العلاقة ، والأبوة التقليدية من جانب والخضوع البنوي من جانب آخر . كانا يلعبان معا ، في درجاتهما المختلفة منفصلين تماما ، كائنين مختلفين تماما ، مختلفين كما لو في المرتبة وليس في العلاقة .

وكانت البارونة لا تفعل شيئا سوى الإبتسام دائما ، مظهرة أسنانها البارزة قليلا ، ممتلكة ذلك السحر والفتنة الغامضين .

وأدركت آنا الطريقة التي يمكن أن تكون فيها حياتها مختلفة ، وكيف يمكن أن تكون معيشتها مختلفة ، واضطربت روحها ، وأصبحت كأنها شخص آخر . واختفت حميميتها مع زوجها ، حميمية برانغوين المغلقة الغريبة ، دافئة جدا ، قريبة جدا ، خانقة جدا ، عندما يبدو المرء في تماس مع الشخص الآخر ، مثل علاقة الدم ، لقد تلاشى ذلك . أنكرت الأمر ؛ هذه العلاقة الغريبة مع زوجها الشاب . لم تكن هي وهو واحداً . يجب ألاّ تغمرها حرارته دائما ، تغمرها ، خلال ذهنها وتفردها حتى أصبحت معه في حرارة واحدة ، حتى لم يعد لها قسمها الخاص بها . لقد ارادت حياتها ، فبدا كأنه يحتضنها ويغمرها بكيانه ، بحياته الساخنة ، فلم تكن تعرف إن كانت نفسها أم مخلوقا آخر ، متحدا معه في عالم من حميمية دم قريبة يتعلق عليها ويعزلها من كل البرد الذي في الخارج .

أرادت نفسها القديمة الحادة ، منفصلة ، حيّة لكن ليست ممتصة . حيّة من جانبها ، آخذة معطية ، لكن ليست ممتصة تماما أبدا . بينما أراد هذه الامتصاص الغريب معها ، وهو الذي لم تزل تقاومه ، غير أنها كانت عديمة الحيلة جزئيا ضده . لقد عاشت طويلا جدا في حب توم برانغوين سلفا .

من منزل سكريبنسكي ذهبا الى كاتدرائية لنكن ؛ أثيرة ويل برانغوين لأنها لم تكن بعيدة عنهما . لقد وعدها بأنهما سيزوران كل كنائس إنكلترا واحدة بعد أخرى . ولقد ابتدأ بكنيسة لنكن التي يعرفها جيدا . وابتدأ يزداد إثارة كلما اقترب الوقت من الإنتهاء . ما الذي غيره بهذا القدر ؟ كانت غاضبة تقريبا بعد أن خرجت على تلك الحال من منزل آل سكريبنسكي ، لكنه ها هو يركض الآن وحيدا ، إذ يبدو أن صدره قد شرع أبوابه كي يراقب الكاتدرائية العظيمة ، وهي تحتضن المدينة ، وكانت روحه تجري في سَبق أمامه

عندما رأى الكنيسة في البعد ، زرقاء غامقة ، مرتفعة مراقبة في السماء ، قفز قلبه . كانت العلامة في السماء ، وكانت الروح التي تحلّق مثل حمامة ، مثل نسر فوق الأرض ، وادار وجهه المتوهج المنتشي صوبها ، وقد انفتح فمه في تكشيرة غريبة منتشية ، وقال لها .

ـ ها هي!

ولقد أزعجتها كلمة (هي) . لماذا (هي)* وهي (تلك) ؟ ماذا كانت الكاتدرائية ، مبنى كبير ، شيء منقرض من الماضي كي تثيره الى هذا الحد ، وابتدأت تعد نفسها للمواجهة .

اجتازا التل شديد الإنحدار ، وكان متلهفا مثل حاج يصل الى الضريح ، وعندما وصلا قرب الفناء ، حيث تقع القلعة على جانب والكاتدرائية على الجانب الآخر ، بدت عروقه كأنها تنفجر الى برعم ناري ، وكان مستغرقا تماما .

اجتازا البوابة ، واصبحت الجبهة الغربية العظيمة امامها بكل عرضها وزخرفتها .

ـ إنها جبهة زائفة .

قال وهو ينظر الى الأحجار الذهبية والى البرجين التوأمين ، وأحبها بالقدر نفسه . وفي نشوة صغيرة ، وجد نفسه في الرواق ، على حافة المخفي ، ورفع بصره الى تكشف الأحجار المحبب كان سيمر داخلها الى الرحم المكتمل .

ثم دفع الباب كي يفتحه ، واصبحت العتمة العظيمة ذات الأعمدة أمامه حيث ارتجفت فيها روحه ، وارتفعت من عشها وقفزت روحه وحلقت في الكنيسة العظيمة ، وظل جسده ساكنا تماما ، مستغرقا في ارتفاعها وقفزت روحه الى العتمة ، الى التملك ، ودارت وأغمي عليها بفرار هائل ، وارتجفت في الرحم ، في السكون ، وفي عتمة الإخصاب ، مثل بذرة التناسل في نشوة .

وخيّم عليها أيضا الدهش والروع وتبعته في تقدمه . هنا ، كان الغسق جوهر الحياة الحميم ، الظلام الملون كان جنين كل الضياء ، والنهار هما ، كان الفجر الأول ينبلج ، وآخر خيط من الشمس يغطس ، والظلام الأزلي الذي تبرعم منه الحياة وتسقط بعيدة مرة أخرى ، مرددة السلام والصمت الأزلي العميق .

بعيدا عن الزمن ، خارج الزمن دائما! بين الشرق والغرب ، بين الفجر والغروب ،

---

* استعمل ويل برانغوين ضمير العاقل المؤنث She عند وصفه الكنيسة ، وكان المفروض أن يستعمل ضمير غير العاقل it للدلالة على نظرته المختلفة للكنيسة وهذا هو سبب انزعاج (آنا) (المترجم)

كانت الكنيسة تضطجع مثل بذرة في صمت ، معتمة قبل الإنبات ، صامتة بعد الموت ، محتوية الولادة والموت ، حبلى بكل صخب الحياة وانتقالها ، وبقيت الكاتدرائية صامتة ، عظيمة ، بذرة منشغلة ، حيث تكون الزهرة منها حياة مشعة لا تفهم ، ولكن بدايتها ونهايتها في دائرة الصمت ، تدور مع قوس قزح ، والعتمة المكسوة بالمجوهرات ، موسيقى مطوية على الصمت ، ضوء على الظلام ، خصب على الموت ، مثل ما تطوي البذرة الورقة على الورقة والصمت على الجذر والزهرة ، كاتمة السر بين كل أجزائها التي يسقط الموت خارجا منها ، والتي تسقط الحياة في داخلها ، والأزلية التي تتضمنها والموت الذي تحتضنه مرة أخرى

هنا في الكنيسة طوي (القبل) و(البعد) معاً ، واحتُوي كل شيء في توحد . ووصل برانغوين الى اكتماله . لقد خرج من أبواب الرحم ، راكنا جانبا أجنحة الرحم ، متجها صوب الضياء . لقد جاء خلال ضوء النهار ، ويوما بعد آخر ، معرفة بعد معرفة ، وتجربة بعد تجربة ، متذكرا ظلمة الرحم ، مُتملكا علم غيب الظلام بعد الموت . وفي أثناء ذلك ، دفع أبواب الكاتدرائية ليفتحها ، ودخل الى غسق الظلامين ، الى سكون الصمت المزدوج ، حيث يكون الفجر غروبا ، والبداية والنهاية شيئا واحدا .

هنا قفزت الصخرة من منبسط الأرض ، قفزت الى الرغبة المتضاعفة المتجمعة كل مرة الى الأعلى ، بعيدا عن الأرض المستوية ، خلال الشفق والغسق وكل مدى الرغبة ، خلال الإنحراف والإنحطاط ، آه ، الى النشوة ، الى اللمسة ، الى الإلتقاء والإكتمال ، الى الإلتقاء والتشابك والإحتضان الحميم والى الحياد والإكتمال التام المنتشي ، الى النشوة الدائمة وظلت روحه هناك ، عند ذروة القوس ، متعلقة بالنشوة الدائمة ، مكتملة

ولم يكن ثمة زمن أو حياة أو موت ، بل هذا حسب ، هذا الإكتمال الأبدي ، حيث يلتقي الإندفاع من الأرض . الإندفاع من الأرض ، حيث أقفل القوس على حجر النشوة . كان هذا الكل ، كان هذا كل شيء ، حتى عاد الى نفسه في العالم السفلي . ومرة أخرى ، لملم شتات نفسه ، في تحول ، وكل دفق فيه مجهدا وقافزا ، قافزا نقيا في الظلام الذي فوق ، الى الإخصاب والغرابة المتفردة ، الى اللمسة والتشابك والإكتمال وذروة الأزلية ، ذروة القوس .

كانت هي الأخرى متأثرة ، بيد أنها كانت صامتة ، ولم تكن متوالفة مع المكان . لقد احبته كعالم ليس خاصتها تماما ، ورفضت استغراقه ونشوته . ولقد راعها تعلقه بالكاتدرائية في البداية ، ثم أغضبها . فبعد كل شيء ، هناك السماء في الخارج ، وهنا ، في شبه الليل

الغامض هذا ، عندما قفزت روحه مع الأعمدة الى الأعلى ، لا الى النجوم أو الفضاء البلوري المظلم ، بل كي تلتقي وتشتبك مع النبض المستجيب للصخور القافزة ، هناك في الغسق وتكتم السقف . تعلق الأقواس البعيد وتزاوجها ، وقفز الصخور واندفاعها حاملة السقف العظيم ، روّعها كل ذلك وأخرسها .

لكنها مع ذلك ، تذكرت أن السماء الرحبة لم تكن قبة زرقاء ولا قبة مظلمة تتدلى منها مصابيح متألقة ، بل فراغاً تدور فيه النجوم على هواها ، وحيث الحرية فوقها أعلى دائما .

أثارتها الكاتدرائية أيضا ، بيد أنها لن ترضى أبدا بنسيج كل الأحجار القافزة في سقف هائل ينغلق عليها ، حيث لا شيء وراءه ، لا شيء ، فذلك سيكون الحاجز النهائي . إن روحه ستهوى أن يكون الأمر كذلك ، فهنا ، هنا كل شيء ، كامل وأزلي . حركة ولقاء ونشوة ولا وجود لوهم الزمن ، لليل أو نهار يمر ، بل فضاء متوازن باكتمال حسب وحركة مثبتة متجددة ، وهوى يشق طريقه بامواج هائلة نحو المذبح ، نشوة متكررة .

وحملت روحها صوب المذبح ايضا ، الى عتبة الأزلية ، في تبجيل وخوف واستمتاع ، بيد أنها كانت تتخلف دوما في التحول ، غير واثقة بتأوج المذبح . فلم تكن لتندفع الى الأمام على المصعد وعلى مصعد رحلات الهوى ، كي تلقى في النهاية على درجات المذبح مثل ما ترمى على ساحل المجهول . ثمة متعة هائلة وصدق في الأمر ، لكن حتى في أثناء إغماءة الكاتدرائية الدائخة ، كانت تطالب بحق آخر . كان المذبح مهجورا ، وقد أطفئت أنواره كلها ، فلم يعد الرب يشعل لفترة أطول في تلك الأكمة كان شيئا ميتا يضطجع هناك . طالبت بحق الحرية فوقها ، أعلى من السقف ، وكان يعتريها دائما الأحساس بأن ثمة سقفاً يحتويها .

لذلك أمسكت أشياء صغيرة ، ومنعتها من أن تزاحم الى الأمام بتهور في مد الهوى الذي يقفز الى اللانهاية في جم غفير ، منتصرة ، مندفعة في طريقها الخاص . ارادت أن تخرج من هذه الحركة الثابتة القافزة المتجهة الى أمام ، أن تنهض منها مثل طير يرتفع بقدم مبللة عرجاء من البحر ، أن ترفع نفسها مثل ما يرفع طير صدره ويدفع جسمه من نبض البحر واضطرابه الذي يحمله الى الأمام ، الى نهاية لا يرغب فيها ، أن تمزق نفسها مثل طير على أجنحة ، ومن ثم ، الى الفراغ الطلق حيث يكون الصفاء ، فترتفع الى الأعلى فوق الحركة الثابتة المثقلة ، ذرة منفصلة تتدلى معلقة ، تسلك هذا الطريق أو ذاك ، ترى وتجيب قبل أن تغطس ثابتة ، اختارت أو وجدت الأتجاه الذي ستحمل عليه الى الأمام .

وكان الأمر كما لو أن عليها أن تتعلق بشيء ما ، كما لو أن جناحيها أضعف من أن يرفعاها من الحركة المضطربة في الحال ، لذلك وقع بصرها على الوجوه الشريرة الغريبة الصغيرة المنحوتة على الأحجار ، ووقفت أمامها جامدة .

اختلست تلك الوجوه الصغيرة الماكرة النظر من مدى الكاتدرائية العظيم ، مثل شيء كان يعرف الأمور بصورة أفضل . كانت تعرف أفضل ، تلك العفاريت الصغيرة التي ترد على وهم الإنسان الخاص ، من أن الكاتدرائية ليست شيئا مطلقا ، فغمزوا بعيونهم ونظروا شزرا ، معطين اقتراحات بصدد الأشياء العظيمة التي أهملت من فكرة الكنيسة العظيمة ، وقالت الوجوه الصغيرة ماكرة : «مهما كثر في الداخل ، ففي الخارج أكثر» .

الى جانب ارتفاع النبض العظيم ووثوبه صوب المذبح ، كانت لتلك الوجوه الصغيرة رغبات منفصلة ، وعواطف منفصلة ، ومعرفة منفصلة ، كانت تتموج الى الخلف في تحد للمد ، وتضحك منتصرة بسبب ضآلتها .

وهتفت آنا :

ـ أوه ، أنظر ، أوه أنظر كم هي رائعة تلك الوجوه ، أنظر إليها .

نظر برانغوين دون رغبة . كان ذلك صوت الأفعى في جنته ، وأشارت الى وجه صغير ماكر خبيث ممتلئ منحوت في الحجر .

قالت آنا :

ـ إنه يعرفها ، الرجل الذي نحتها ، أنا متأكدة من أنها زوجته .

فرد برانغوين باقتضاب :

ـ ليس وجه امرأة على الأطلاق بل هو وجه رجل .

ـ أتظن ذلك ؟ لا ، إن هذا ليس رجلاً ، إنه ليس وجه رجل .

بدا صوتها مضحكا قليلا ، فضحك باقتضاب ، واستمر غير أنها لم تكن تريد أن تتقدم معه ، بل تخلفت قرب المنحوتات ، ولم يكن بمستطاعه أن يتقدم من دونها .

انتظر نافد الصبر من ردة فعله . كانت تفسد عليه التحامه العاطفي مع الكاتدرائية ، وابتدأ حاجباه يقطبان .

وهتفت مرة أخرى .

ـ أوه ، هذا جيد . هنا المرأة نفسها ، أنظر! ، ما عدا أنه جعلها صليبا! ليست رائعة! لم يجعلها بشعة الى حد ما ؟ وضحكت بمتعة . ألم يكرهها ؟ لابد أنه كان رجلا رائعا! انظر

اليها ، أليست جيدة في شناعتها ، مثل امرأة سليطة تماما ، لابد أنه استمتع بوضعها بهذه الصورة ، لقد انتقم منها ، أليس كذلك ؟

قال لها :

ـ إنه وجه رجل وليس امرأة على الإطلاق ، وجه راهب حليق تماما

فضحكت وقالت :

ـ إنك تكره أن تفكر في أنه قد وضع امرأته في كاتدرائيتك ، اليس كذلك ؟

هزئت به برنين ضحكة مدنسة ، وضحكت بانتصار خبيث . لقد تحررت من هوى الكاتدرائية ، بل إنها حطمت الهوى الذي تملكه . وكانت سعيدة ، أما هو ، فلقد كان غاضبا بمرارة ، فإذا أجهد نفسه كما هي الحال الآن ، فإنه لن يستطيع أن يبقي الكاتدرائية مدهشة بالنسبة اليه . لقد تحرر من الوهم ، إذ أصبحت تلك التي كانت مطلقة . تجمع السماء والأرض ، أصبحت في تصوره ، مثلما في تصورها ، كوماً مشكلاً من مادة ميتة ، لكنها ميتة ، ميتة

كان فمه محشوا بالرماد ، وكانت روحه تتسعر غضبا . لقد كرهها لأنها حطمت وهما آخر من أوهامه الأساسية . وسرعان ما يصبح متخشبا ، متخشبا ، دون أن يجد مكانا واحدا يقف عليه ، دون ايمان واحد يستريح فيه

ومع ذلك ، وفي مكان ما في داخله ، استجاب على نحو أعمق الى الوجه الصغير الماكر الذي كان يعرف الأمور على نحو أفضل ، أكثر مما فعل من قبل تجاه جيشان كاتدرائيته المكتمل .

وفي تلك الأثناء ، كانت روحه تعيسة ومشردة رغم كل شيء ، ولم يستطع أن يتحمل التفكير في طرد آنا له من حقائقه التي افتُتن بها لقد أراد كاتدرائيته ، أراد أن يشبع هواه الأعمى . ولم يعد بمقدوره أن يفعل المزيد من ذلك ، فثمة شيء ما قد طرأ لتوه .

عاد الى البيت مرة أخرى ، وقد تغّير كلاهما . كانت تمتلك احتراما جديدا لذلك الذي أراده ، بينما أحسَّ أن كاتدرائيته لن تعود الى ما كانت عليه . إذ عدّها سابقا أشياء مطلقة بيد أنه رآها الآن تجثم تحت السماء مع عالم الحقيقة الخفي الذي لم يزل معتما في داخلها ، لكن كعالم داخل العالم ، نوعا من عرض جانبي بينما كانت من قبل عالما بالنسبة اليه وسط فوضى : حقيقة ونظام مطلق ضمن التشويش عديم المعنى .

لقد أحسَّ من قبل أنه لن يستطيع سوى المرور عبر الباب الكبير وينظر خلال العتمة الى أعجوبة المذبح النهائية النائية ، ومن ثم ، والشبابيك معلقة من حوله مثل حبات جواهر

تشع تألقها ، وصل الى هناك عندئذ . هنا الرضا الذي تاق إليه وقد اقترب منه ، رواق المجهول العظيم ، كل الواقع مجتمعا ، وهناك ، كان المذبح هو الباب الصوفي الذي يجب أن يتحرك من خلاله كل شيء صوب الأبدية .

لكنه أدرك الآن ، بطريقة ما ، حزينا ومتحررا من الوهم ، أن الباب ليس بابا ، وانه كان ضيقا جدا ، وأنه كان زائفا . وأن هناك العديد من الأرواح المحلقة خارج الكنيسة التي لا يمكن أن تنخل عبر العتمة المطعمة بالجواهر . لقد فقد مطلقه

أصغى الى طيور الدج في الحدائق وسمع نغمة لا تتردد في الكاتدرائية ؛ شيء حر ومهمل وممتع . اجتاز في طريقه الى عمله ، حقلا أصفر بورود الهندباء البرية ، وكان اغتسال الوهج الأصفر ، في الحال ، شيئا مترفا منعشا ، حتى أنه كان سعيدا لإبتعاده عن كاتدرائيته المعتمة .

ثمة حياة خارج الكاتدرائية . هناك الكثير الذي لا تحتويه الكاتدرائية . فكر في الرب ، وفي كل قبة النهار الزرقاء . كان ذلك شيئا عظيما حرا . وفكر في كل بقايا العبادة الإغريقية ، وبدا له أن المعبد لا يكون مكتملا حتى يخرب ويختلط مع الهواء والسماء والأعشاب .

ومع ذلك ، ما زال يحب الكنيسة ، لقد أحبها كرمز ، إنه ينزع إليها بسبب ما تحاول أن تمثله وليس للشيء الذي تمثله حقا . ومع ذلك ، ما زال يحبها . وجذبته الكنيسة الصغيرة عبر جدار حديقته ، ومنحها اهتماما محبا ، لكنه ذهب كي يتولى مسؤوليتها ، أن يحافظ عليها . كانت تمثل شيئا قديما مقدسا بالنسبة إليه . اعتنى بالأحجار والأخشاب ، مصلحا الأورغن وصائناً قطعة زخرفة مكسورة ، مصلحا أثاث الكنيسة ، وبعد ذلك ، أصبح قائد الجوقة أيضا .

كانت حياته تزيح مركزها وتصبح أكثر سطحية . لقد فشل في أن يصبح واضحا حقا ، فشل في أن يجد تعبيرا حقيقيا ، وكان عليه أن يستمر في نمطه القديم ، لكن روحه لم تكن خلقت بعد .

انشغلت آنا بالطفلة الآن ، وتركت زوجها يسلك طريقه كانت راغبة الآن في تأجيل كل المغامرات الى العوالم المجهولة . كانت لديها الطفلة ، كانت الطفلة مستقبلها الحالي والواضح ، فان لم تجد روحها التعبير فإن رحمها قد فعل .

وأصبحت الكنيسة التي تجاور مسكنه حميمة جدا وعزيزة عليه ، لقد تعلق بها واصبحت من مسؤوليته تماما ، فان لم يستطع أن يجد فعالية جديدة ، فانه سيكون سعيدا

في التعلق بنمط العبادة القديم ، الأثير لديه ولقد عرف هذه الكنيسة الصغيرة البيضاء ، ففي جوها الظليل غطس مرة أخرى الى كيانه ، ولقد أحب أن يغطس نفسه في سكونها مثل ما يغطس حجر في الماء .

كان يجتاز حديقته ويتسلق الجدار على الدرجات الصغيرة ويدخل سكون الكنيسة وسلامها . وعندما يصر الباب الثقيل خلفه ، يتردد وقع أقدامه في الممشى ، ويتردد وجيب قلبه مع هوى الرقة الضئيل والسلام الصوفي . كان خجلا قليلا مثل رجل فاشل يغطس مرة أخرى بحثا عن كفايته .

كان يحب أن يُشعل الشموع قرب الأورغن ، ويجلس وحيدا في التوهج الصغير ، متدربا على تراتيل القداس وترانيمه ، وكانت الأقواس البيض تتراجع نحو الظلام ، وكانت أصوات الأورغن وأصوات دواساته تخفت تدريجا في سكون الكنيسة الدائم ، وثمة ضجة واهية شبحية في البرج ، وعندها ترتفع الموسيقى مرة أخرى ، عالية منتصرة .

لم يعد يقلق بشأن حياته ، وأطلق رغبته ، وترك كل شيء يمر . فما كان بينه وبين زوجته شيء عظيم ، إن لم يكن كل شيء . لقد انتصرت حقا ، فدعه ينتظر ويصمد ، ينتظر ويصمد . كانت هي والطفلة وهو واحداً وكان الأورغن يصدح باحتجاجه ، وروحه تضطجع في الظلام عندما يضغط على مفاتيح الأورغن .

كانت الطفلة بالنسبة لآنا سعادة ورضا تامين . وغطست رغبتها متعطلة ، إذ كانت روحها سعيدة بالطفلة . كانت طفلة رقيقة جدا ، ولقد واجهت المصاعب في تربيتها ، ولم يدر في خلدها لحظة ، أنها قد تموت . كانت رضيعا رقيقا ، لذلك وجب عليها أن تجعلها قوية ، فأجهدت نفسها وكانت الطفلة بمثابة كل شيء لها ، وكان خيالها هو الذي يشغلها كليا كانت أماً . وكان يكفيها أن تمسك بالأطراف الصغيرة الجديدة ، بالجسد الصغير الجديد ، وتسمع الصوت الصغير الجديد يصرخ في السكون . كان المستقبل كله يقرع لها خارجا من صوت بكاء الطفلة وهديلها ، ووازنت سنوات الحياة القادمة في يديها بينما كانت تربي الطفلة الإحساس الحنون بالاكتفاء ، بالمستقبل الذي يبذر فيها ، جعلها حية وقوية كان المستقبل كله في يديها ؛ في يدي المرأة . وقبل أن تبلغ هذه الطفلة عشرة شهور ، كانت حبلت بطفل آخر . كانت تبدو وسط عاصفة حياة خصبة ، وكل لحظة كانت ممتلئة بالإنتاج في نظرها ، أحست أنها مثل الأرض ، أم كل شيء .

شغل برانغوين نفسه بالكنيسة ، فكان يعزف على الأورغن ، ويدرب صبيان الجوقة ، ويعلم في صف للشباب في مدرسة يوم الأحد . وكان سعيدا كفاية وثمة نوع من السعادة

المتلهفة التواقة في داخله ، وهو يعلم الصبيان أيام الأحد . وكان طوال الوقت ، يمني نفسه باقتراب سر من نوع ما لم يكتشفه بعد .

وفي البيت كان يخدم زوجته والملكة الصغيرة ، ولقد أحبته لأنه كان أب أطفالها ، وكانت تشعر بهوى جسدي نحوه دائما ، لذلك توقف عن محاولة كسب تفوق عليها وسيطرة ، أو حتى الحصول على احترامها لضميره او للحياة العامة . لقد عاش ببساطة ، بحبها الجسدي له . ولقد خدم المملكة الصغيرة ، فكان يربي الطفلة ويساعد في أعمال البيت ، ولم يعد مباليا بكرامته أو أهميته ، بيد أن تخليه عن مطالبه وعيشه معزولا عن منفعته الخاصة ، جعله يبدو لاحقيقيا وفاقد الأهمية .

لم تكن آنا مزهوة به على الصعيد الإجتماعي ، غير أنها سرعان ما تعلمت أن تكون لا مبالية تجاه الحياة الإجتماعية ، فلم يكن من النوع الرجولي ، فهو لم يكن يشرب أو يدخن أو يدعي الأهمية ، بيد أنه كان رجلها ، ولامبالاته بكل ادعاءات الذكورة ، جعلتها سيدة عالمها معه . أما من الناحية الجسدية ، فلقد أحبته وقد أرضاها ، واستمر وحيدا تابعا دائما . في البداية أزعجها ذلك ، فلم يكن العالم الخارجي يعني إلا قليلا بالنسبة إليه ، فعندما كانت تنظر إليه بعينين خارجيتين فإنها كانت تميل الى أن تسخر منه ، بيد أن سخريتها كانت تتحول الى نوع من الإحترام . لقد احترمته لأنه كان يستطيع أن يخدمها ببساطة واكتمال تامين . وفوق كل شيء ، أحبت أن تحمل أطفاله ، أحبت أن تكون مصدر أطفال . لم تستطع أن تفهمه ، أن تفهم نوبات غضبه الغريبة الكئيبة وتكريسه الكنيسة كانت بناية الكنيسة هي التي يهتم بها ، ومع ذلك ، كانت روحه ميالة الى شيء ما . وكان يكدح في تنظيف المباني الحجرية والأعمال الخشبية ، مصلحا الأورغن وجاعلا الغناء مكتملا قدر الإمكان . وكانت مهمته أن يجعل نسيج الكنيسة وطقوسها سليمة ، وأن يجعل نمط العبادة مكتملا . ثمة تبريح ضنيل براق وتوتر على سيمائه ، وفي حركاته المصممة . كان مثل عاشق يدرك أنه قد غُدر به ، لكنه مايزال يحب ، الذي يكون حبه المزيد من التوتر . كانت الكنيسة زائفة ، لكنه خدمها بتصميم أكبر .

وخلال النهار ، في أثناء عمله في مكتبه ، أبقى نفسه معلقا ، فهو غير موجود ، وكان يعمل على نحو تلقائي حين يحين موعد أوبته الى البيت .

أحب بقلب حار أورسلا الصغيرة ذات الشعر الغامق ، وانتظر الطفلة كي تبلغ الإدراك . أما الآن ، فإن الأم كانت تحتكر الرضيع ، ولكن قلبه انتظر في ظلامه إن ساعته ستحين .

وعلى المدى الطويل ، تعلم أن يستسلم لآنا . لقد أجبرته أن يطيع روح قوانيها ، ينما تركت له رسالته . لقد تصارعت مع عفاريته في داخله ، وعانت كثيرا من نوبات غضبه مظلمة التي لا يمكن تفسيرها أو توقعها ، عندما يملأه الاسوداد ، ويبدو كأن ريحا سوداء كنس من الوجود أي شيء على علاقة به . كان باستطاعتها أن تشعر بأن نفسها وكل شيء خر قد محق من قلبه .

في البداية حاربته . وهو في تلك الحال ، كان يركع في الليل ، كي يصلي ، وكانت تنظر ى هيئته الجاثمة ، وتقول له بقسوة :

ـ لماذا تركع هناك متظاهرا بالصلاة . أتعتقد أن بمقدور أي امرئ أن يصلي عندما كون في المزاج الكريه الذي أنت فيه ؟

وكان يبقى جاثما جنب السرير ساكنا

وكانت تستمر قائلة

ـ هذا مريع ، ويا له من تظاهر! ما الذي تتظاهر بقوله ؟ من الذي تتظاهر بالصلاة له ؟

وكان يبقى ساكنا ، ويستعر بغضب غير مكتمل عندما يبدو وكأن طبيعته بأكملها قد لفقت تتفكك . كان يبدو كأنه يعيش مع إجهاد على نفسه . وفي بعض الأحيان ، كانت حين نوبات الغضب المظلمة المشوشة ، التوق الى التدمير ، عندها كانت تقاتله ، ويكون تالهما مريعا ، مهلكا ، وعندها يصبح الحنان بينهما أسود ومرعبا أيضا .

لكن شيئا فشيئا ، وبعد أن تعلمت أن تحبه بطريقة أفضل ، كانت تركن نفسها جانبا ، عندما تشعر أن إحدى نوباته قد تملكته ، كانت تهمله ، تاركة إياه بنجاح في عالمه ، ينما تظل في عالمها . وكان يخوض صراعا أسود في دواخله كي يعود اليها ، لأنه تعلم أنه سيكون في الجحيم حتى يعود اليها مرة أخرى ، لذلك كان يصارع كي يستسلم لها ، وكانت خائفة من الإجهاد القبيح في عينيه . كانت عندها تمارس الحب معه وتأخذه ، وعندها يكون متنا لحبها ، متواضعا

صنع لنفسه سقيفة خشبية يصلح فيها الأشياء المحطمة في الكنيسة ، لذلك كان لديه كثير مما يحب أن يفعله : زوجته وطفلته والكنيسة وأعمال الخشب وكذلك مهنته ، وكلها مور تشغله لو لم يكن ثمة حد من نوع ما أمامه ، ولو لم يكن هناك بعض الظلام في بينيه! كان عليه أن يسلم نفسه لها في النهاية . إن عليه أن يقر بعدم كفاءته ، ومحدودية كيانه ، بل كان عليه أيضا ، أن يعرف مزاجه العنيف الأسود ، وأن يرضى به ، بيد أنها كانت أكثر نبلا معه ، وأخذت تصبح أكثر هدوءاً .

وعندما كان يجلس في بعض الأحيان ساكنا جدا ، بوجه براق فارغ ، كان بمقدور آنا أن ترى المعاناة بين البريق . كان مدركا وجود حد ما داخل نفسه ، وجود شيء ما غير مكتمل في كيانه المجرد ، وجود براعم لم تنضج في داخله ، بعض مراكز ظلام مطوية لا يستطيع أن يطورها ويفتحها بينما مايزال حيا في الجسد . لم يكن مهيأ للاكتفاء ، فثمة شيء غير مكتمل في داخله يعوقه ، ثمة ظلام فيه لا يستطيع أن يفضه ، وهو لا يمكن أن يفض داخله .

الطفلة

منذ البداية ، حرّكت الطفلة في الأب الشاب عاطفة قوية ، عميقة الغور كان نادرا ما يتجرأ على الاعتراف بوجودها . كانت قوية جدا وتبزغ من ظلامه ، وعندما سمع صرخة الطفلة تملكه الرعب بسبب الصدى المرتد من أعماق لا قرار لها في داخله . هل يجب أن يسبر في نفسه مثل هذه الأعماق الخطرة وشيكة الحدوث ؟

حمل الرضيعة بين ذراعيه ، وتمشى بها جيئة وذهابا ، منزعجا من صراخ لحمه ودمه هذا دمه ولحمه يصرخ! وأثيرت روحه بالصوت ، متحررة منه ، فجأة من أعماقه

وفي بعض الأحيان ، في أثناء الليل ، كانت الطفلة تبكي وتبكي ، عندما يكون الليل مدلهما ، والنوم يخمده ، وهو شبه نائم . كان يمد يده كي يضعها فوق وجه الطفلة ، كي يمنعها من البكاء ، غير ان شيئا ما كان يوقف يده . البكاء اللانساني الذي لا يطاق ، هو الذي يوقفه في حد ذاته . كان شيئا لاشخصيا ، دون سبب او هدف . ومع ذلك ، كان يتردد إليه مباشرة ، وكانت روحه ترد على جنونه ، وتملأه بالرعب ، بل بالسعار

وتعلم أن يطاوع ذلك ، وأن يخضع الى المصادر البغيضة الملزمة التي هي مصدر أنسجته الحية ، إنه ليس ما اعتقده أن يكون ، عندها كان ما كان ، مجهولا فعالا ومظلما

اعتاد على الطفلة ، وتعلم كيف يرفع الجسد الصغير ويوازنه ، وكان للرضيعة رأس مدور جميل يثير حنانه ، وكان سيقاتل الى آخر قطرة من دمه كي يدافع عن ذلك الرأس الرائع المكتمل المدور .

وتعلم أن يتعرف على اليدين والقدمين الصغيرتين والعينين الغريبتين البنبتين – الذهبيتين ، اللتين لا تريان ، والفم الذي لا يفتح إلاّ لكي يبكي او يمص ، او ان يظهر ضحكة غريبة درداء . كان بمقدوره تقريبا ان يفهم حتى الساقين المتدليتين اللتين خلفتا

فيه ، في البداية ، إحساسا بالبغض ، فلقد كان بمقدورهما أن ترفسا بطريقتهما الغريبة الصغيرة ، وكانت لهما نعومتهما المتميزة .

وفي إحدى الأمسيات ، رأى شيئا ضئيلا حيّا يتدحرج عاريا في حضن الأم ، فشعر بالغثيان . كانت الطفلة عديمة الحيلة ، غضة وغريبة تماما . ففي عالم من سطوح صلبة ، وارتفاعات متباينة ، كانت تضطجع هناك غضة وعارية من جميع الأوجه . ومع ذلك ، كان سعيدا تماما ، ولم يكن في بكائها الأعمى المرعب ، ذلك الرعب البعيد لعريها الغض ، الرعب من كونها قد طرحت عديمة الحيلة تماما من جميع الأوجه . لم يكن بمقدوره أن يسمعها تبكي ، فلقد أجهد قلبه ، وانتصب حارسا ضد الكون بأكمله .

غير أنه انتظر أن يمر فزع هذه الأيام ، ورأى المتعة قادمة . رأى أذن الصغيرة الجميلة ، معتدلة البرودة التي بلون القشدة ، وكتلة الشعر الغامق مجدولة الى مشاطة برونزية مثل غبار برونزي ، وانتظر أن تصبح الطفلة له كي تنظر إليه وتجيبه!

كان لها كيان منفصل بيد أنها كانت طفلته ، دمه ولحمه ينبض له . كان يحتضن الطفلة الى صدره بضحكة حنون وهو يربت عليها . لقد تعرفت عليه الرضيعة .

وعندما نظرت إليه العينان اللتان تفتحتا حديثا ، اللتان بزغتا حديثا ، أرادهما أن تلحظاه ، أن تميزاه ، عندها تأكد وجوده . عرفته الطفلة ، وظهر على وجهه انثناء غريب من الضحك من أجلها ، فامسك بها قريبا من صدره ، رابتاً عليها بضحكة منتصرة

أضاءت عينا الطفلة السنيتان الذهبيتان تدريجا ، واتسعتا عند رؤية وجه الشاب المعتم المتوهج . كانت تميز أمها بطريقة أفضل وتريدها اكثر ، غير أن النشوة الصغيرة الأكثر بريقا والأشد حدة كانت من حصة الأب .

وابتدأت تصبح قوية وتدبُّ بنشاط وحيوية ، وتصدر أصواتا تشبه الكلمات . لقد أصبحت فتاة طفلة الآن ، وابتدأت تميز يديه القويتين ، وكانت تتهلل فرحا في حضنه القوي ، وكانت تضحك وتهدل عندما يلعب معها .

وابتدأ قلبه يتوهج بإحساس الحنان للطفلة . وكانت أكبر قليلا من سنة واحدة عندما ولد الطفل الثاني ، عندها أخذ اورسلا له . كانت فتاته الصغيرة الأولى ، ولقد أشرع قلبه لها .

كان للطفلة الثانية عينان زرقاوان عامقتان وجلد صاف . وقال الناس إنها أكثر شبها بآل برانغوين ، وكان الشعر أشقر ، بيد أنهم نسوا خصلة آنا الشقراء المندفعة في طفولتها ، وأطلقوا على القادمة الجديدة اسم غدرون .

هذه المرة كانت آنا أكثر قوة ، ولم تكن متلهفة كثيرا ولم تهتم لأن الطفل لم يكن ولدا . كان يكفيها أن عندها حليبا ، ويمكن ان ترضع طفلها : اوه ، اوه ، سعادة الحياة الصغيرة ، وهي تمتص الحليب من جسدها! اوه ، اوه ، اوه ، ياللسعادة عندما ابتدأت الطفلة تصبح أقوى ، واليدان الصغيرتان تحضنان وتمسكان ثدييها على غير هدى ، ولكن بحنان ، والفم الصغير يبحث عنها ، على غير هدى . معرفة مطمئنة حية من السلام المفاجئ المكتمل ، عندما يغطس الجسد الصغير والفم والحلقوم يمتصان ، ويمتصان ، ويمتصان الحياة منها لخلق حياة جديدة ، وكانت تنشج تقريبا بمتعة حنون ، وهي تستلم وجودها الخاص ، اليدان الصغيرتان تتشبثان باهتياج عندما تنسحب حلمة الثدي الى الخلف ، فليس له أن يرفض ، وكان ذلك كافيا لآنا . كانت تبدو كأنها تمر الى نوع من جذل الأمومة ، وكانت نشوة أمومتها كل شيء لها

وهكذا أخذ الأب الطفلة الكبرى ، الطفلة المفطومة ، وأصبحت عينا اورسلا الصغيرة ، المشرقتان الهائمتان البنيتان الذهبيتان له ، هو الذي انتظر خلف الأم حتى حانت الحاجة إليه ، وأحست الأم بطعنة غيرة نجلاء ، بيد أنها كانت أكثر استغراقا في الطفلة الأصغر ، إذ كانت ملكها تماما ، وكانت حاجتها إليها مباشرة .

وهكذا اصبحت اورسلا قرة عين ابيها ، وكانت البرعم الصغير ، وهو الشمس كان صبورا نشيطا مبدعا من اجلها . علمها كل الأشياء المضحكة الصغيرة ، ولقد ملأها وأثارها الى حد امتلاء قياسها الصغير ، واجابته بضحكاتها الطفولية المتهورة ، ورغبتها في المرح .

أصبح هناك طفلان في البيت الآن ، وجاءت امرأة كي تقوم بالأعمال المنزلية ، وأصبحت آنا مربية متفرغة ، ولم يكن الطفلان يشكلان عبئا كبيرا عليها ، بيد أنها كرهت أي نوع من العمل ، والآن وقد جاءت طفلتاها فلقد تولت رعايتهما .

وعندما ابتدأت اورسلا تتعلم المشي ، تحولت الى طفلة منشغلة مستغرقة تسلي نفسها على الدوام ، ولا تحتاج الى كبير اهتمام من الآخرين . وعندما يحل المساء ، عند الساعة السادسة تقريبا ، كانت آنا غالبا ما تذهب عبر الممر المؤدي الى السياج وترفع اورسلا الى الأعلى باتجاه الحقل ، وتقول لها اذهبي وقابلي بابا . وعندها يرى برانغوين ، الذي يكون عندها قادما عبر استدارة التل الحادة ، امامه على حافة الممر ، نملة صغيرة ، ذات رأس اسود ، ضئيلة مترنحة ، تحركها الريح . وحالما تراه ، كانت تأتي راكضة بطريقة ضئيلة متوحشة متمايلة ، رافعة ذراعيها الى الأعلى والأسفل اليه ، هابطة التل الحاد . وكان قلبه يقفز ويركض بأقصى سرعته نحوها كي يمسك بها لأنه يعرف انها ستسقط كانت تأتي

مرفرفة بتوحش ، وأطرافها الصغيرة طائرة ، وتتملكه السعادة عندما يحتضنها بين ذراعيه ، وعندما يرآها تسقط وهي تأتي طائرة إليه ، ويرى سقطتها الى الأمام فجأة ، بينما كانت تركض ويداها مرفوعتان نحوه ، وعندما يلتقطها ، كان فمها ينزف . لم يستطع مطلقا التفكير فيها ، وأراد دائما أن يبكي حتى عندما اصبح رجلا عجوزا ، وأصبحت غريبة بالنسبة اليه . كم أحب اورسلا الصغيرة تلك! ولقد ذبل قلبه عليها بشدة عندما كان شابا حديث الزواج .

وعندما أصبحت أكبر قليلا ، كان يراها تتسلق دون كلل قضبان المرقى مرتدية مئزرها الأحمر ، متأرجحة في خطر ومتقلبة ، رامية نفسها الى الأعلى وطائرة صوبه . وفي بعض الأحيان ، كانت تهوى ان تركب على كتفيه ، وأحيانا كانت تفضل ان تمشي مستندة على يده ، وكانت تدفع ذراعيها حول ساقيه لحظة ، ثم تنطلق مسرعة مرة اخرى ، بينما يصيح بها ويناديها . كان طفلا معها ، إذ كان طفلا . لم يزل فتى طويلا نحيفا غير مستقر في الثانية والعشرين .

وكان هو الذي صنع لها مهدها وكرسيها الصغير وكرسيها المرتفع ، وهو الذي يؤرجحها ويضعها على الطاولة ، وهو الذي صنع لها دمية من رجل طاولة قديمة بينما كانت تراقبه قائلة :

ـ اصنع عينيها يا أبي اصنع عينيها .

وصنع عينيها بسكينه .

كانت مغرمة بتزيين نفسها ، لذلك كانت تعقد قطعة قطن حول أذنها ، وتعلق خرزة زرقاء عليها من تحت كقرط ، وكانت أقراط الآذان تتغير بخرزة حمراء وخرزة ذهبية وخرزة لؤلؤ صغيرة . وعندما كان يعود الى البيت في الليل ، كان يراها شامخة بنفسها مهتمة بها لاحظ ذلك وقال لها :

ـ إذن فأنت ترتدين أحلى أقراطك الذهبية واللؤلؤية اليوم .

ـ نعم .

ـ افترض أنك ذهبت لمقابلة الملكة .

ـ بلى ، فعلت .

ـ اوه ، وماذا قالت ؟

ـ قالت ، قالت إنك لن توسخي شوكتك اللطيفة البيضاء .

وكان يعطيها أفضل القطع في صحنه ، واضعا إياها في فمها الأحمر الرطب ، وكان يصنع

لها على قطعة من الخبز المُطرّى بالزبدة ، طيرا من المربى الذي كانت تأكله بشهية استثنائية .

بعد أن تغسل معدات صنع الشاي ، كانت الخادمة تذهب تاركة العائلة حرة ، وكان برانغوين يساعد عادة في غسل الأطفال ، وكان يديرحوارا طويلا مع طفلته ، بينما كانت تجلس على ركبته ، وهو يفتح لها أزرارها ، ويبدو أنه يتحدث عن أشياء هامة وأخلاقيات عميقة الغور . ثم تتوقف فجأة عن السماع ، بعد أن يكون بصرها وقع على كرة زجاجية ندحرجت في الزاوية فتنزلق ، وبعدها لا تكون في عجلة من أمرها كي تعود اليه .

وكان يقول لها منتظرا : عودي الى هنا .

غير أنها كانت تنشغل ولا تعود تأبه به .

عندها يكرر بلمسة أمر :

ـ تعالي هنا .

فتصدر عنها ضحكة خافتة صغيرة مثارة ، بيد أنها تتظاهر بالانشغال :

ـ هل تسمعين يا ميلدي ؟

فتستدير بضحكة سريعة جذلى ، ويندفع نحوها ويرفعها الى الأعلى :

ـ من ذا الذي لا يأتي ؟

كان يقول لها مدحرجا إياها بين يديه القويتين ، وهو يدغدغها .

وكانت تضحك من كل قلبها . كانت تحب أن يجبرها بقوته وقراره إذ كان قويا : برج القوة الذي ينتصب أمام ناظرها .

وعندما يأوي طفلاهما الى الفراش ، كان وآنا يجلسان في بعض الأحيان ، ويتحدثان بطريقة عابرة ، وكلاهما متكاسل ، وكان يقرأ قليلا جدا . وكل شيء ينجذب لقراءته يصبح حقيقة خارقة بالنسبة إليه ، مشهدا اخر خارج شباكه ، وعندما تتصفح آنا كتابا لترى ما حدث ، فإنها كانت تكتفي بذلك . لذلك فإنهما غالبا ما كانا يجلسان معا ، يتحدثان بطريقة عابرة ، فما كان بينهما حقا لا يستطيعان الإفصاح عنه ، كانت كلماتهما مجرد حوادث عابرة في الصمت المتبادل ، وعندما يتحدثان فإنهما كانا يثرثران ، ولم تعد تهتم بالخياطة .

كانت لها طريقة جميلة في الجلوس : متأملة ممتنة ، كما لو أن قلبها قد أضيء . وفي بعض الأحيان ، كانت تستدير نحوه ضاحكة ، لتخبره عن حادثة وقعت في أثناء النهار ، عندها كان يضحك ، ويتحدثان برهة قبل ان يحل الصمت الفيزيائي الأساسي بينهما مرة أخرى .

كانت ناحلة ، بيد أنها ممتلئة باللون والحياة ، وسعيدة لأنها لا تفعل اي شيء ، بل تكتفي بالجلوس بوقار غريب فاتر ، لامبالية حتى تبدو ملكة ، غير مهتمة البتة ، واثقة من نفسها جدا ، وكان الوثاق الذي يربط بينهما غير قابل للتعريف ، بيد أنه كان قويا جدا ، وأبقت الآخرين على مبعدة .

لم يتغير وجهه عما كانت تعرفه ، بل أصبح أشد صرامة . كان متوردا ومظلما في انشداهه ، ليس إنسانيا جدا ، وكان له بريق حاد قوي ، وعندما تلتقي عيناه عينيها أحيانا ، كان بريق أصفر يصدر منهما يجعل الظلام يخيم على وعيها ؛ بريق مشحون ، وترتسم ضحكة طفيفة عريبة على وجهه ، عندها كانت عيناها تستديران بوقار ، ثم تنغلقان كما لو أنهما منومتان مغناطيسيا ثم تغطسان في الظلام الدامس نفسه .

كانت له مواصفات قِط أسود شابّ ، جاد ، لا تمكن ملاحظته ، ومع ذلك ، فإن وجوده يجعل نفسه محسوسا تدريجا ، فيمسك بها خلسة وبقوة . كان لا يناديها ، بل ينادي شيئاً ما في داخلها كان يستجيب له بمكر من ظلامها اللاواعي .

لذلك كانا معا في ظلام حنون مشحون يسكنان الى الأبد مؤخرة النهار المألوف ، لكن ليس في الضياء أبدا . في الضياء ، كان يبدو أنه ينام دون أن يعرف ، لم تكن تميّزه إلاّ عندما يحرره الظلام ، ويستطيع أن يرى بعينيه الذهبيتين المتوهجتين مقصده ورغباته في الظلام ، عندها تكون في نوبة ، وتجيب عندها نداءه القاسي المحترق بقفزة من روحها ، ويستيقظ الظلام مشحونا متصارعا مع المجهول ، إلماح متغلب

بعد مرور كل هذا الوقت ، أصبحا يعرف أحدهما الآخر . كانت هي النهار وضوءه ، وكان هو الظل مركونا جانبا ، لكنه في الظلام قوي بشهوانية متغلبة .

تعلمت ألا تخافه او تكرهه ، بل أن تملأ نفسها به ، ان تعطي نفسها لقدرته السوداء الحسية التي تكون مخفية طوال النهار ، وحركة العينين الغريبة ، كما لو انهما تنغمسان في غيبوبة نائية عن وعيها الاعتيادي ، أصبحت عادة بالنسبة لها عندما يهددها شيء ما ، ويعارضها في الحياة ، حياتها الواعية

لذلك ظلت منفصلة في الضياء ، متزوجة في الظلام الدامس . كان يساند سلطتها النهارية ، ويبقيها غير منتهكة في النهاية ، وهي في كل الظلام ، تعود اليه ، الى إلْفَتهِ الحميمية الحسية المنومة .

كل فعاليته النهارية ، وكل حياته العامة ، كانت نوعا من النوم . وأرادت أن تكون حرة ، أن تعود الى النهار . وركض متجنبا النهار بالعمل ، وبعد الشاي ، كان يلجأ الى

سقيفته والى نجارته او نحته للخشب . كان يصلح منبر الوعظ المبقع المفكك ويعيده الى وضعه الأصلي .

لكنه أحب أن تكون الطفلة الى جواره ، تلعب عند قدميه . كانت قطعة من الضياء تنتمي إليه حقا ، تلعب داخل ظلامه . ترك باب السقيفة مطبقا ، وعندما كان يشعر بحاسته الثانية بوجود آخر ، يعرف أنها كانت قادمة ، ويشعر بالرضا والارتياح عندما يكون وحيدا بصحبتها . لم يكن يريد أن يُلاحظ ، أن يتحدث ، كان يريد ان يعيش دون تفكير ، ووجودها يخفق من حوله .

كان يذهب في صمت دائما . وكانت الطفلة تدفع باب السقيفة لتفتحه وتراه يعمل تحت ضوء المصباح ، وقد طوى كميه الى الخلف ، وملابسه معلقة من حوله بإهمال ، كأنها مجرد دثار ، وفي داخله ، كان جسده ممتلئا بطاقته الخاصة المرنة المشحونة ، طاقة معزولة . ومنذ ان كانت طفلة صغيرة ، كان بمقدور اورسلا أن تتذكر ساعده ، بشعره الناعم الأسود ، ومرونته المشحونة ، وهو يعمل على النضد بحركات رشيقة سريعة ، مستغرقا دوما في نوع من الصمت .

كانت تتلكأ قليلا عند باب السقيفة ، منتظرة أن ينتبه الى وجودها ، ويستدير نحوها ، وحاجباه الأسودان المنحنيان مقوسان قليلا ،

ـ مرحبا آنسة الزقزقة!

وكان يغلق الباب خلفها ، عندها تسعد الطفلة في السقيفة التي تفوح منها رائحة الخشب الطري ، وتتردد منها ضجة المسحاج او الفأس او المنشار . ومع ذلك ، كانت مشحونة بصمت العامل . كانت تظل تلعب جادة ومستغرقة وسط قطع الخشب الصغيرة ونشارته ، ولم تكن لتلمسها أبدا . كانت قدماه وساقاه قريبة ، ولم تقترب منهما كثيرا .

كانت تحب أن تسرع خلفه عندما يذهب الى الكنيسة في الليل ، فإن كان سيبقى بمفرده ، فإنه كان يؤرجحها فوق الحائط ، ويدعها تلحق به .

ومرة أخرى ، كانت تستغرق عندما يغلق الباب خلفهما ، ويرثان المكان الفارغ الشاحب الكبير ، كانت عندئذ تراقبه وهو يضيء شموع الأورغن منتظرة ، بينما يبدأ بتدرب على نغماته .

ومن ثم تركض غازية هنا وهناك ، مثل قطة تلهو بمفردها بعينين متسعتين ، وكانت الحبال تتدلى بغموض متشابكة على الأرضية من الأجراس في البرج ، وكانت اورسلا تريد

دوما أن تمسك بمقابض الحبال المنقوشة بالأحمر والأبيض او الأزرق والأبيض ، بيد أنها كانت فوقها

وفي بعض الأحيان ، كانت أمها تأتي لتستردها ، عندها يتملك الطفلة الاستياء ، وكانت ترفض بحنان ، سلطة أمها السطحية . كانت نريد أن تؤكد انفصالها ، وكان هو مع ذلك ، يعرضها الى صدمات قاسية في بعض الأحيان ، إذ كان يدعها تلهو في أرجاء الكنيسة ، فكانت تعبث بمساند الأقدام وكتب التراتيل والمقاعد مثل نحلة وسط الزهور ، بينما يتردد صدى الأورغن . ولقد استمر هذا أسابيع أصيبت بعدها خادمة الكنيسة بسعار من الغضب ، حتى تجرأت على مهاجمة برانغوين . وفي أحد الأيام ، نزلت عليه كأنما لتنهشه ، فذوى وأراد أن يكسر عنق المتوحشة العجوز .

وبدلا من ذلك ، عاد الى البيت يتسعر بالغضب ، واستدار نحو اورسلا قائلا :

ـ لماذا أيتها القردة المزعجة ؟ ألا تستطيعين أن تأتي الى الكنيسة دون أن تقلبي المكان رأسا على عقب ؟

كان صوته قاسيا أشبه بمواء القطة ، وكان لا يرى الطفلة من الغضب ، فانكمشت بعيدا في كرب وفزع طفوليين ، ما الأمر ، أي أمر مريع هذا ؟

استدارت الأم بهدوئها وسلوكها الذي يكاد أن يكون رائعا .

ـ ما الذي فَعَلته ؟

ـ فَعَلت ؟ لن تذهب الى الكنيسة بعد الآن ، ساحبة ، ومزبلة ومحطمة .

أدارت الزوجة عينيها ببطء ، وخفضت جفنيها :

ـ وما الذي دمرته ؟

لم يكن يعرف .

فصرخ قائلا :

ـ لقد اشتكت الي السيدة ولكنسون بقائمة بالأشياء التي فعلتها .

ذبلت اورسلا بسبب الإزدراء والغضب عليها كما تحدث عنها .

قالت آنا :

ـ أرسل السيدة ولكنسون إلي ، الى هنا ، مع قائمة بالأشياء التي فعلتها فأنا الشخص الذي يجب أن يسمع ذلك .

وأردفت الأم قائلة :

إنها ليست الأشياء التي فعلتها الطفلة هي التي أغضبتك بهذا القدر ، بل لأنك لا تستطيع

أن تتحمل فكرة أن تلومك تلك المرأة العجوز ، لكن ليست لديك الشجاعة لترد عليها عندما تهاجمك ، فتجلب غضبك الى هنا .

استغرق في صمت ثقيل ، وأدركت اورسلا أنه كان على خطأ . وفي الخارج ، في الألم الأعلى ،كان على خطأ . ولقد خيم في الحال على الطفلة الإحساس البارد بالعالم اللاشخصي هناك . أدركت أن أمها على صواب ، لكن قلبها لم يزل يضج على والدها ، من أجله ، كي يكون على صواب ، في عالمه السفلي الحسي المظلم ، بيد أنه كان غاضبا ولقد سلك طريقه في ظلام وصمت قاس مرة أخرى .

وظلت الطفلة تلهو مستغرقة في الحياة ، هادئة ممتلئة بالمتعة ، ولم تلحظ الأشياء او التغيرات او التبدلات . ففي أحد الأيام كانت تجد الأقحوان في العشب ، وفي يوم آخر ، تجد براعم التفاح متناثرة بيضاء على الأرض ، وكانت تركض بينها للمتعة لأنها كانت هناك . ومع ذلك ، فإن الطيور تنقر الكرز مرة أخرى ، وكان والدها يرمي الكرز من الشجرة في كل مكان من حولها على الحديقة ، بعدها كانت الحقول تمتلئ بالقش .

لم تتذكر ما كان او سيكون . كانت الأشياء الخارجية هناك في كل يوم ، وكانت نفسها دائما ، والعالم في الخارج كان عرضيا ، حتى امها كانت عرضية في نظرها ، ظرف وقع كي تتحمله . والدها حسب ، هو الذي كان يشغل موقعا دائما في وعيها الطفولي ، وعندما كان يعود فإنها تتذكر على نحو غامض كيف ذهب ، وعندما كان يذهب ، فإنها كانت تعرف بطريقة غامضة أن عليها أن تنتظر أوبته ، وحينما تعود أمها من الخارج ، فإنها تصبح حاضرة حسب ، فليس ثمة سبب لربط ذلك مع مغادرة سابقة .

كانت عودة الأب او مغادرته هي الحدث الذي تتذكره الطفلة . عندما كان يجيء فإن شيئاً ما يستيقظ فيها ، توقاً من نوع معين . كانت تعرف عندما يكون مترديا او منزعجا او تعبا ، عندها تكون منزعجة ولا تستطيع أن تستريح .

وعندما يكون في البيت ، كانت الطفلة تشعر أنها ممتلئة دافئة ، غنية كمخلوق في ضوء الشمس ، وعندما يذهب ، تبدو غامضة منسية ، وحتى عندما يوبخها فإنها غالبا ما تكون أكثر إحساسا به . كان قوتها ونفسها العظمى .

كانت اورسلا في الثالثة من عمرها عندما ولدت طفلة أخرى ، بعد ذلك أصبحت الأختان الصغيرتان معا معظم الوقت ؛ غدرون واورسلا . كانت غدرون طفلة هادئة تلعب وحدها ساعات ، مستغرقة في خيالاتها . كانت ذات شعر بني ، وبشرة نقية هادئة على نحو غريب ، تكاد تكون سلبية ، ومع ذلك ، كانت إرادتها لا تقهر حين تحزم أمرها . ومنذ

البداية ، تبعت قياد اورسلا ، بيد أنها كانت شيئا لنفسها ، لذلك كانت مراقبتهما معا امرا غريبا ، كانتا مثل حيوانين صغيرين يلعبان معا ، لكن لا تهتم إحداهما جديا لوجود الأخرى . كانت غدرون المفضلة عند أمها ـ لولا أنها كانت تعيش في حب طفلها الأخير دائما .

ولقد أثقل اعتماد هذا العدد من الأحياء على كاهل الفتى وأتعبه . كان عنده عمله في المكتب ، وهو ما كان ينجزه بقوة الإرادة تماما ، وكان عنده هواه المجرد تجاه الكنيسة ، وعنده ثلاثة أطفال . كما أن صحته لم تكن على مايرام في ذلك الوقت ، لذلك كان منهكا منزعجا ، غالبا ما يكون مثل وباء في البيت ، بعدها يطلب منه أن ينصرف الى نحت الخشب ، او أن يذهب الى الكنيسة .

ونشأ بينه وبين اورسلا الصغيرة تحالف من نوع غريب . كانا شاعرين أحدهما بالآخر ، إذ كان يعرف أن الطفلة الى جانبه دائما ، لكنه لم يكن يعدها شيئا في وعيه . كانت له دائما ، وعدّ ذلك الأمر مفروغا منه . ومع ذلك ، كانت حياته مستندة إليها ، حتى بينما كانت طفلة صغيرة على مساندتها وانسجامها .

استمرت آنا في غيبوبة امومتها العنيفة ، مشغولة دائما ، وغالبا ما تكون قاسية ، بيد أنها منشغلة دائما في غيبوبة أمومتها . كانت تبدو موجودة في خصوبتها العنيفة ، وكان الأمر كما لو أن الشمس تشرق استوائيا عليها . كان لونها براقا ، وعيناها ممتلئتان بكآبة خصبة ، وشعرها البني يهفهف بحرية فوق أذنيها . وكان يبدو عليها مظهر الغنى ، لا مسؤولية ولا إحساس بالواجب يزعجها . وكان الخارج والحياة الاجتماعية أقل من لا شيء في نظرها ، حقا .

وهو في السادسة والعشرين ، وجد نفسه أبا لأربعة اطفال وزوجة كانت تعيش جوهريا مثل أكثر زنابق الحقل فظاظة ، فترك عبء المسؤولية يضغط عليه ويسحبه ، عندها جاهدت طفلته اورسلا كي تكون معه . كانت معه حتى كطفلة في سن الرابعة . وعندما يكون منزعجا ، وهو يصرخ مسببا التعاسة لسكان المنزل ، كانت تعاني من صراخه لكن بطريقة كما لو أنه ليس المقصود حقا . لقد أرادت أن ينتهي الأمر أرادت أن تعيد تعلقها الاعتيادي به . وعندما يكون راضيا ، كانت الطفلة تستجيب لصرخة حاجة ما في داخله ، وكانت تستجيب على نحو أعمى . كان قلبها يتبعه كما لو أنه يمتلك رابطة من نوع ما بها ، وبعض الحب الذي لا يستطيع أن يوصله إليها ، ولقد تبعه قلبها بإلحاح ، في حبه .

لكن كان ثمة ذلك الإحساس الطفولي المعتم بضآلتها وقصورها عن أنها لم تكن كافية . لم يكن بمقدورها أن تكون مهمة لديه . ولقد أخمدتها هذه المعرفة منذ البداية .

ومع ذلك ، كانت موجهة نحوه مثل ابرة مرتجفة . كانت كل حياتها موجهة بإحساسها به ، بضعفها تجاه كيانه ، وكانت ضد أمها .

كان والدها هو الفجر الذي يستيقظ فيه ضميرها ، أما لديه ، كان يمكن أن تستمر مثل بقية أطفاله ؛ غدرون وتيريزا وكاترين ، واحدة مع الأزهار والحشرات واللعب ، ليس لها وجود ، جانبا من المادة الأساسية لإهتمامها ، بيد ان والدها اقترب كثيرا منها فتشابك يديه وقوة صدره يوقظانها بألم تقريبا من لا وعي الطفولة العابر ، وفتحت عينيها على اتساعهما ، لا ترى ، فلقد استيقظت قبل ان تعرف كيف ترى . لقد استيقظت قبل الأوان بكثير ، جاءها النداء قبل الأوان ، عندما كانت طفلة صغيرة ، واحتضنها والدها قريبا من صدره ، وكان قلبها الحي ـ النائم ينبض يقظا بجهد قلبه الأكبر ، باحتضانه لها الى جسده طلبا للحب والرضا ، مطالبا مثل ما يطالب المغناطيس دائما . وكانت الاستجابة تتصارع منها متجهمة ، نحو كينونتها بطريقة غامضة .

كان الأطفال لا يرتدون ملابس أنيقة في الحقل ، وعندما كانت اورسلا صغيرة ، كانت تتجول بقبقاب خشبي صغير وميدعة زرقاء فوق ثوبها الأحمر السميك وشال احمر عبر صدرها مربوط خلفها ، وهكذا كانت تركض مع والدها الى الحديقة .

كان سكان البيت ينهضون مبكرين ، إذ كان يخرج ليفلح في الحقل نحو الساعة السادسة صباحا ، ثم يذهب الى عمله في الساعة الثامنة والنصف ، وعادة تكون اورسلا معه في الحديقة ، رغم أنها ليست قريبة جدا منه .

وفي عيد الفصح من احدى السنين ، ساعدته في زرع البطاطا ، وكانت تلك هي المرة الأولى التي تساعده فيها ، وظلت المناسبة مثل صورة ؛ إحدى ذكرياتها المبكرة . وكانا خرجا قبيل الفجر مباشرة ، وثمة ريح باردة تهب ، فأدخل سرواله القديم في حذائه الطويل ، ولم يرتد معطفا او سترة ، وكانت اكمام قميصه تتطاير في الهواء ، ووجهه متورد عليه سيماء الإطراق في نوع من النوم ، إذ انه عندما يكون منشغلا لا يسمع ولا يرى ؛ رجل طويل نحيل يبدو أنه لم يزل شابا ، وثمة خط شارب أسود فوق فمه المكتنز ، وشعره الناعم يهفهف على جبينه . كان يعمل في الأرض مع أول ضوء رمادي وحيدا . ولقد جذبت وحدته الطفلة مثل تعويذة .

هبت الريح مثلجة فوق الحقول الخضر الغامقة ، وركضت اورسلا وراقبته ، وهو يدفع

كتلة التسوية الحديدية على احد جوانب تربته الجاهزة ، ثم يخطو عليها ، ويدفعها الى الجانب الآخر ، ساحبا السلك بشدة ووضوح على الكتل الترابية الفاصلة . بعد ذلك اتجهت المسحاة نحوها ، مصدرة ضوضاء قطع حادة ، قاطعة جزءا من التربة الهشة الجديدة .

غرس مسحاته وعدّل من قامته قائلا لها :

ـ هل تريدين مساعدتي ؟

نظرت إليه من قلنسوتها الصوفية الصغيرة ، فقال لها :

ـ نعم إن بإمكانك أن ترقدي بعض حبات البطاطا ؛ انظري مثل هذه . هذه البراعم الصغيرة تتجه نحو الأعلى ، على هذا البعد . أترين ذلك ؟

وانحنى بسرعة ، واضعا حبات البطاطا المبرعمة بثقة في الكف الهشة ، حيث استقرت منفصلة وحزينة على التربة الباردة الثقيلة . اعطاها سلة بطاطا صغيرة ، وخطا نحو نهاية الخط الأخرى . رأته ينحني وهو يزرع باتجاهها . كانت مثارة وغير معتادة على ذلك ، فوضعت حبة بطاطا واحدة ، واعادت ترتيبها إذ جعلتها تستقر بطريقة ممتازة ، ولقد تكسرت بعض البراعم ، واعتراها الخوف ، وأثارتها المسؤولية مثل سلك يربطها . ولم تستطع منع نفسها من النظر بفزع الى السلك المدفون تحت التربة السوداء المتكومة . وكان والدها يعمل الآن منحنيا مقتربا منها ، وتغلبت عليها مسؤوليتها ، فأودعت حبات البطاطا بسرعة في التربة الباردة .

واقترب منها :

ـ ليس بهذا القرب .

قال لها ، وانحنى فوق حبات البطاطا التي زرعتها مخرجا بعضها ، ومعيدا ترتيب البقية . وقفت بإحساس من انعدام الحيلة الطفولي المؤلم المريع كان لا يراها ، واثقا من نفسه . أرادت أن تفعل الشيء ، ولم يكن بمقدورها أن تفعله ، فوقفت تتفرج وميدعتها الصغيرة الزرقاء ، تهفهف ، ونهايات شالها الصوفي الأحمر تتذبذب في الهواء . بعد ذلك هبط أسفل الخط قالبا بقسوة حبات البطاطا بمسحاته الحادة ، ولم يلحظها ، بل استمر يعمل حسب ، وكان له عالم آخر غير عالمها .

وقفت عديمة الحيلة ، مهجورة من عالمه . واستمر في عمله . عرفت أنها لا تستطيع أن تساعده ، بائسة بعض الشيء . وفي النهاية ، استدارت بعيدا ، وركضت في الحديقة مبتعدة عنه ، هاربة منه قدر ما تستطيع كي تنساه وتنسى عمله .

افتقد وجودها ، ووجهها في قلنسوتها الصوفية الحمراء ، وميدعتها الزرقاء الهفهافة . ركضت الى حيث يجري الماء ، مقطرا بين العشب والصخور ، ولقد أحبت ذلك

وعندما اقترب منها قال :

ـ لم تساعديني كثيرا .

نظرت الطفلة إليه خرساء . كان قلبها مهموما مسبقا بسبب الخيبة ، بيد أنه لم يلحظ ذلك ، وذهب في طريقه .

واستمرت في لعبها ، ذلك لأن خيبة أملها استمرت كلما لعبت اكثر . خافت من الحقل لأنها لم تستطع أن نفعل مثل ما استطاع . كانت مدركة الصدع الهائل بينهما ، وعرفت أن ليس لديها القدرة ، وكانت القدرة الناضجة على العمل بتعمد لغزا لها .

وكان سيحطم من عملها الطفولي الحساس بطريقة مدمرة . وكانت أمها متساهلة مهملة ، والأطفال يلعبون مثل ما يشاؤون طوال النهار ، وكانت أورسلا طائشة ؛ لماذا يجب عليها أن تتذكر الأ شياء ؟ فإذا رأت عبر الحديقة اشجار السور ، وقد برعمت ، وإن هي أرادت تلك البراعم الصغيرة القرمزية المخضرة لتمثل بها الخبز والجبن ، كي تلعب لعبة حفلة الشاي ، فانها كانت تذهب لتقطفها .

بعدها فجأة ، وربما في اليوم التالي ، كانت روحها تكاد تفارق جسدها ، عندما يتجه والدها نحوها صارخا :

ـ من ذا الذي كان يرقص ويدوس حيث زرعت البذور ؟ أنا أعرف أنه أنت أيتها المهملة! ألا تستطيعين أن تجدي مكانا آخر تمشين فيه إلا فوق مسكبة بذوري ؟ ولكن هذه تصرفاتك ، دون قياد ، بل تتبعين أنفك الجشع .

لقد صدمه في عالمه الجدي أن يرى الخطوط العميقة المتعرجة لآثار الأقدام الصغيرة عبر الأرض التي عمل فيها . ولقد كانت صدمة الطفلة اكثر منه بكثير ، إذ وبخت روحها الصغيرة الغضة ، وديس عليها . لماذا كانت آثار الأقدام هناك ؟ لم ترد أن تفعل ذلك ، فوقفت دائخة بالألم والخزي واللاواقع .

وبدا كأن روحها ووعيها يذوبان منها . ابتدأت تصبح منعزلة عديمة الإحساس ؛ مخلوقاً صغيراً ثابتاً أصبحت روحه صلبة وغير مستجيبة ، ولقد صلبها إحساسها بعدم واقعيتها مثل جليد ، ولم تعد تهتم .

وكان منظر وجهها منكفئا ومتعاليا بلا مبالاة ، واثقة النفس ، جعل الغضب يتملكه ، ورغب في أن يحطمها ، وكان يقول لها من بين أسنانه المطبقة ، رافعا يده :

ـ سأحطم وجهك الصغير العنيد .

بيد أن الطفلة لم تتغير البتة ، نظرة اللامبالاة واللااهتمام الظاهر ، كما لو أن ليس ثمة شيء آخر موجود سواها ، وظلت ثابتة .

ومع ذلك ، بعيدا في اعماقها ، كان النشيج يمزق روحها . وعندما كان يذهب ، كانت تذهب زاحفة تحت أريكة الشرفة ، وتضطجع جاثمة ، في تعاسة الطفولة الخفية الصامتة ، وعندما كانت تخرج زاحفة بعد ساعة او أكثر ، كانت تنصرف متصلبة ، كي تلهو . كانت تريد أن تنسى ، فلقد قطعت روحها الطفولية من الذاكرة ، فلا يعود الألم والإهانة حقيقيين . كانت تؤكد نفسها حسب ، فليس ثمة شيء آخر في العالم ، غير نفسها . لذلك سرعان ما ابتدأت تؤمن بوجود ضغينة خارجية ضدها ، ومبكرا جدا ، تعلمت أن حتى والدها المحبوب ، كان جزءا من تلك الضغينة ، ومبكرا جدا تعلمت أن تُصلّب روحها في مقاومة وإنكار كل ما هو خارجها ، وان تصلب نفسها على كيانها .

ولم تشعر بالأسف مطلقا لما فعلت ، ولم تعفُ أبدا عن أولئك الذين جعلوها مذنبة . فلو قال لها : لماذا دُست يا أورسلا على المسكبة التي حضّرتها بعناية ؟ لكان ذلك قد آلمها حد النخاع ، ولما فعلت أي شيء له ، لكنها كانت تتمزق دائما بلاواقعية الأشياء الخارجية ، فالأرض معدة كي تمشي عليها ، فلماذا يجب عليها ان تتجنب بقعة معينة لمجرد انها تسمى مسكبة البذور ؟ فالأرض هناك كي تمشي عليها . كان ذلك افتراضها الغريزي ، وعندما وبخها تصلبت ، وقطعت نفسها من كل ارتباط ، وعاشت في عالم رغبتها العنيفة الصغيرة المنفصلة .

وكلما كبرت خمس سنوات ، ستاً ، سبعاً ، كان الارتباط بينها وبين أبيها يصبح أكثر غرابة ، ومع ذلك ، كان مجهدا دائما وعلى وشك أن ينقطع كانت تنغمس دائما في رغبتها العنيفة في عالم نفسها المنعزل ، ولقد جعله ذلك يصرف على أسنانه بمرارة لأنه لم يزل يريدها ، بيد أنها كانت تستطيع أن تُصلّب نفسها ، في كونها الخاص ، متحصنة

كان مولعا جدا بالسباحة ، ويصطحبها في الأيام الدافئة الى القناة ؛ الى مكان صامت او الى بركة او خزان كبير كي يستحما . وكان يحملها على ظهره ، بينما يسبح فتلتصق به ، شاعرة بحركاته القوية تحتها ، قوية جدا ، كما لو أنها سترفع العالم بأكمله . بعد ذلك ، علمّها أن تسبح وحدها .

كانت مخلوقا صغيرا لا تخاف شيئا عندما يتحداها ، وكان يتملكه ولع غريب في ان يخيفها ، كي يرى ما هي فاعلة معه ، فكان يطلب منها أن تركب على ظهره ، بينما يقفز من جسر القناة الى الماء الذي تحتهما .

وكانت تفعل ذلك . ولقد أحب الإحساس بملمس الطفلة العارية ، وهي ملتصقة بكتفيه ، وكان ثمة صراع غريب بين إرادتيهما . وتسلق جدار جسر القناة ، وكان الماء بعيدا تحتهما ، ولكن كان للطفلة رغبة متعمدة نصبت مقابل إرادته ، وثبتت نفسها به

قفز ثم هبطا معا ، وضرب اصطدام الماء عندما نزلا ، جسد الطفلة الصغير في نوع من اللاوعي ، بيد أنها بقيت ثابتة . وعندما عادا ثانية ، وذهبا الى الضفة ، وجلسا على العشب جنبا الى جنب ، ضحك وقال إن ذلك كان أمرا رائعا . ونظرت عينا الطفلة الغامقتان المتسعتان إليه ، متسائلة مندهشة معتمة من الصدمة . ومع ذلك ، متحفظة لا يمكن سبر أغوارها ، لذلك ضج بنشيج تقريبا .

وخلال لحظة كانت تلتصق بأمان فوق ظهره مرة أخرى ، وكان يسبح في مياه عميقة . لقد اعتادت على عريه ، وعلى عري امها منذ ولادتها . كانا يلتصقان معا ، ويتكاتفان معا ضد الضربة الغريبة التي تصطدم بهما . ومع ذلك ، وخلال الأيام التالية ، كان يقفز معها من الجسر بجرأة وحقد تقريبا   وبعد مضي فترة طويلة من ذلك ، وبينما كان يقفز في احدى المرات ، سقطت الى الأمام على رأسه ، وكادت أن تدق عنقه ، وسقطا في الماء كومة واحدة ، وصارعا الموت بضع لحظات فأنقذها ، وجلس على الضفة يرتجف ، بيد أن عينيه كانت ممتلئتين باسوداد الموت . كان الأمر يبدو كما لو أن الموت قطع بين حياتيهما وفصل بينهما .

ومع ذلك ، لم ينفصلا إذ كانت بينهما تلك الحميمية الموبخة الغريبة . وعندما افتتح المعرض أرادت أن تذهب لترى الأرجوحات الزورقية ، فاصطحبها الى هناك ، وبينما كانت واقفة في الأرجوحة ، ممسكةبالقضبان ، طفقت ترتفع أعلى فأعلى بصورة خطيرة ، وتعلقت الطفلة بمقعدها متشبثة

قال لها :

ـ هل تريدين أن نرتفع أعلى ؟

وضحكت بفمها ، وعيناها مفتوحتان متسعتان ، وهما يندفعان في الهواء :

ـ نعم .

قالت شاعرة كما لو أنها ستتحول الى بخار ، وتفلت من الإمساك بكل شيء ، وتختفي ذائبة ، واندفعت الأرجوحة أبعد ، ثم هبطت مثل حجر كي ترتفع مرة أخرى بطريقة تثير الغثيان .

ـ أعلى ؟

هتف بها وهو ينظر اليها من فوق كتفه . ورأت وجهه شريرا وجميلا ، وضحكت بشفتين بيضاوين .

أرسل الأرجوحة مندفعة في الهواء في شبه دائرة واسعة حتى صرّت وتمايلت في الأفق العالي . تعلقت الطفلة به شاحبة ، وقد ثبتت عينيها عليه ، وكان الناس في الأسفل ينادونه ، وكادت الرجة في الأعلى أن تسقطهما أرضا . لقد فعل كل ما يستطيع ، وجلب له ذلك اللوم ، فهبط وترك الأرجوحة تتأرجح وحدها .

عنّفه الناس المحتشدون عندما خرج من الأرجوحة فضحك ، وتعلقت الطفلة بيده ، شاحبة ، بكماء . وبعد فترة قصيرة ، طفقت تتقيأ بعنف ، فأعطاها شراب الليمون ، فتجرعت قليلا منه .

قال لها :

ـ لا تخبري أمك أنك تقيأت

ولم تكن ثمة حاجة لأن يطلب منها ذلك فعندما وصلت الى البيت ، زحفت الطفلة تحت أريكة الشرفة ، مثل حيوان صغير مريض ، ولم تزحف خارجة إلا بعد مرور وقت طويل .

بيد أن آنا عرفت بذلك العمل الطائش ، وغضبت عليه ، وأحست بالإزدراء تجاهه ، وأومضت عيناه البنيتان الذهبيتان ، وأصدر ابتسامة صغيرة قاسية . وبينما كانت الطفلة تراقبه ، وللمرة الأولى في حياتها ، تبدد الوهم منها ؛ شيء بارد ومنعزل . فذهبت الى أمها ، وكانت روحها ميتة تجاهه ، ولقد سبب لها ذلك المرض .

ومع ذلك ، نسيت الأمر وظلت تحبه ، لكن ببرود أشد . كان في ذلك الوقت يقترب من الثامنة والعشرين من العمر ، غريباً وعنيفاً في كيانه ، عاطفياً . وكان اكتسب بعض السيطرة على آنا وعلى أي شخص يصبح على تماس معه .

وبعد فترة عداء طويلة ، اشتبكت آنا معه في النهاية . أصبح عندها أربعة اطفال الآن ؛ كلهم بنات . وطوال سبع سنوات ، كانت منشغلة في الزوجية والأمومة . وطوال سنوات كان يسير الى جانبها دون ان يتعدى عليها ابدا . بعد ذلك ، ابتدأت شخصية اخرى تفرض نفسها داخله تدريجا . كان لم يزل ساكنا ومنفصلا ، غير انها كانت تستطيع ان تشعر به طوال الوقت وهو يقترب منها ، كما لو ان صدره وجسده يهددانها ، وكان يقترب منها دائما . وتدريجا ابتدأ يصبح لامباليا بالمسؤولية إذ كان يفعل ما يسره ولا شيء أكثر .

ابتدأ يترك البيت ، إذ كان يذهب الى نوتنغم ايام السبت ، وحيدا دائما ، كي يتفرج على لعبة كرة القدم ، ويذهب الى صالة الموسيقى . وطوال الوقت ، كان يراقب مستعدا ، ولم يهتم إطلاقا في أن يشرب ، لكن بعينيه الذهبيتين القاسيتين اللتين تريان بحميمية بإنسانيهما الأسودين الصغيرين ، كان يراقب الناس كلهم ، وما يحدث كله وهو ينتظر

وفي مسرح (أمباير) ، جلس في احدى الأمسيات جنب فتاتين ، وكان مدركا وجود تلك التي الى جانبه . كانت صغيرة بعض الشيء ، سوقية ، ذات بشرة صافية ، وشفة عليا مرتفعة من أسنانها ، وعندما لا تكون منتبهة ، كان فمها ينفرج قليلا ، وكانت شفتاها تبرزان الى الخارج في نوع من توسل أعمى . وكانت شاعرة كثيرا بالرجل الجالس الى جانبها ، حتى أن كل جسدها ، كان ساكنا ، ساكنا تماما بينما يراقب وجهها المسرح ، وهبط ذراعاها في حضنها ، واعية جدا ، وساكنة .

وتوهج ومض في داخله : هل يبدأ معها ؟ هل يجب أن يبادر معها كي يعيش حياة رغبته الأخرى غير المرخص بها ؟ ولم لا ؟ لقد كان صالحا طوال الوقت ، ولم يعرف غير زوجته ، إذ كان عديم التجربة . ولم لا ، عندما تكون كل النسوة مختلفات ، لم لا إذا كان سيعيش حياة واحدة فقط ؟ لقد أراد الحياة الأخرى إذ كانت حياته جرداء وغير كافية ، وأراد الحياة الأخرى .

توسل به فمها المنفرج ، مظهرا أسنانا صغيرة بيضاً غير منتظمة . كان مفتوحا وجاهزا ، وكانت غضة جدا فلماذا لا يذهب ويستمتع بما هو موجود هناك ؟ كانت الذراع الرشيقة التي هبطت الى الأسفل ساكنة وعديمة الحركة على الحضن ، وكانت جميلة . لابد انها صغيرة ، وسيكون قادرا على الإمساك بها بين يديه ، ستكون صغيرة كطفل تقريبا ، وستكون جميلة . ولقد أثارته طفولتها على نحو حميمي . إذن ستكون عديمة الحيلة بين يديه .

ـ هذا أفضل عرض شاهدناه

قال لها مائلا عليها ، بينما كان يشبك يديه ، وأحس أنه قوي في الداخل ، ولا يمكن هزه ، مستعدا ضد العالم بأكمله . كانت روحه حميمة ومراقبة ، تومض في نوع من المتعة ، وكان مسيطرا على نفسه تماما . كان هو المطلق ، وبقية العالم الهدف الذي يجب ان يساهم في كيانه .

أجفلت الفتاة ، واستدارت نحوه ، وأضاءت عيناها بطيف ابتسامة مؤلمة تقريبا ، وتدفق الدم في وجنتيها بقوة :

ـ أجل ، هو كذلك .

قالت ذلك دون معنى تماما ، وغطت اسنانها البارزة بشفتيها ، ثم جلست تنظر الى أمامها مباشرة ، لا ترى شيئا بل واعية حسب باللون الذي يتوهج في وجنتيها

وخزته بإحساس مسر ، وتنبهت عروقه وأعصابه إليها . كانت شابة ونابضة جدا ، وقال لها :

ـ ليس بالعرض الجيد مثل برنامج الأسبوع الماضي .

ومرة أخرى أدارت وجهها نحوه نصف استدارة ، وكانت عيناها الصافيتان البراقتان مشرقتين مثل ماء ضحل ، ممتلئتين بالضوء ، خائفتين ، ومع ذلك ، تضيئان طوعا وترقصان بالاستجابة .

ـ اوه ، هل هو كذلك! لم أستطع الحضور في الأسبوع الماضي .

لاحظ لهجتها العامية ، ولقد سرته ، وعرف الطبقة التي تنحدر منها . فمن المحتمل أن تكون عاملة في مستودع لخزن البضائع ، وكان سعيدا لأنها كانت فتاة عامية .

وطفق يحدثها عن برنامج الأسبوع الماضي ، وكانت تجيبه اعتباطا ، وهي مرتبكة جدا ، وتورد الدم في وجنتيها ، ومع ذلك ، كانت تجيبه باستمرار . وجلست الفتاة التي على الجانب الآخر ، نائية ، صامتة على ما يتضح ، إذ أنه أهملها ، وكان حديثه كله موجها لفتاته بعينيها البراقتين الضحلتين ، وفمها المنفرج بطريقة غضة .

واستمر الحديث دون معنى واعتباطيا من جانبها ، ومتعمدا ومغرضا تماما من جانبه . كانت متعة له أن يقوم بهذه المحادثة ، فعالية مستمرة ، مثل لعبة حظ ومهارة رائعة . كان هادئا جدا وطلق المزاج ، غير أنه ممتلئ بالقوة وارتجف الى جانب ضغطه المستمر من الدفء والثقة .

رأى أن العرض يوشك على الانتهاء ، وأصبحت حواسه راغبة ومتحفزة . أخذ يلح في مطالبه ، فتبعها وصديقتها الصامتة ، وهما هابطتين السلالم المؤدية الى الشارع ، وكان الجو ممطرا .

قال لها :

ـ إنها ليلة مزعجة ، هل تأتين وتشربين شيئا ، قدحا من القهوة ، فالوقت مايزال مبكرا ؟

قالت له وهي تشيح ببصرها نحو الليل :

ـ اوه ، لا أعتقد ذلك .

قال لها واضعا نفسه كما لو تحت رحمتها ·

ـ أتمنى لو تأتين .

وخيمت لحظة صمت .

قال لها :

ـ هل تأتين الى رولنز ؟

ـ لا ، ليس هناك .

ـ الى كارسون إذن .

وخيم الصمت ، بينما انتظرت الفتاة الأخرى كان الرجل مركز القوة الموجبة .

ـ هل تأتي صديقتك أيضا ؟

ومرت لحظة صمت أخرى ، بينما تحسست الفتاة الأخرى موقعها وقالت :

ـ شكرا لقد وعدت أن ألتقي صديقا .

قال لها :

ـ في وقت آخر إذن .

فردت مرتبكة جدا :

ـ اوه ، شكرا

قال لها :

ـ ليلة سعيدة .

وقالت فتاته لصديقتها

ـ أراك لاحقا

قالت الفتاة :

ـ أين ؟

وردت فتاته :

ـ أنت تعرفين يا كيرتي .

ـ حسنٌ ، يا جيني .

واختفت الصديقة في الظلام ، واستدار مع فتاته الى محل لشرب الشاي ، وكانا يتحدثان طوال الوقت . كان يصوغ جمله في متعة تامة تكاد أن تكون عضلية في تمرين نفسه معها . كان ينظر إليها طوال الوقت ملاحظا ، مقيما ، مكتشفا ، مرضيا نفسه معها . كان بمقدوره أن يرى جاذبية مميزة فيها ، في حاجبيها ، في تقوسهما المميز ، ولقد منحه

ذلك إحساسا جماليا حميما . بعد ذلك ، كان سيرى عينيها البراقتين الشفافتين كماء ضحل ، وتعرف عليهما ، وبقي هناك الفم المنفرج ، المعروض ؛ أحمر ، غضاً . ولقد احتفظ بذلك حتى الآن . وطوال الوقت ، كانت عيناه مسمرتين على الفتاة تحسبان ، وتلمسان بمتعة نعومتها الشابة ، أما الفتاة نفسها ؛ مَن أو ماذا تكون ، فلم يكن يهتم بذلك أبدا . لم يكن مهتما إطلاقا . كانت أي شخص ، كانت موضع اهتمامه العاطفي حسب .

قال لها :

ـ هل نذهب إذن ؟

نهضت في صمت كما لو أنها تتصرف دون عقل ، تصرفاً جسدياً مجرداً ، وبدا كأنه يمسك بها في إرادته . وفي الخارج ، كانت الدنيا ما تزال تمطر .

قال لها :

ـ دعينا نتمشى ، فأنا لا أبالي بالمطر ، فهل تبالين ؟

فقالت :

ـ أنا لا أبالي به .

كان متحفزا في كل إحساس وفي كل عصب . ومع ذلك ، كان واثقا ، وثابتا تماما ، ومضيئا ، كما لو أنه قد تحول . كان لديه احساس حر بالسير في ظلامه ، وليس في عالم أي شخص آخر البتة . كان عالما خالصا لنفسه ، ليس له اية علاقة مع اي وعي عام ، بل كان احساسه الخاص هو المسيطر ، وكل ما تبقى كان خارجيا وتافها ، تاركا اياه وحيدا مع الفتاة التي أراد أن يمتصها ، التي أراد أن يمتص صفاتها في أحاسيسه . لم يكن يهتم بشأنها ما عدا أنه كان يريد أن يتغلب على مقاومتها ، أن يجعلها طوع بنانه ، أن يستمتع بها كليا ، وبصورة شاملة .

استدارا الى الشوارع المظلمة ، وأمسك بمظلتها فوق رأسها ، ووضع ذراعه حولها ، ومشت كما لو أنها غير شاعرة بما يجري ، لكن تدريجا ، وبينما يمشي ، كان يجذبها نحوه شيئا فشيئا ، الى حركة جنبه ووركه . وكانت تستقر هناك بطريقة مناسبة تماما ، كان مقاسا مناسبا لها تماما أن يمشي معها بهذه الطريقة ، إذ جعله ذلك واعيا جدا بجسده العضلي ، وكانت يده التي تحيط بجانبها على وعي بإحدى تقوساتها ، وكان ذلك بمثابة خلق جديد له ، واقع مطلق ، جمال ملموس ، موجود للمطلق . كانت أشبه بنجمة ، وكان كل شيء فيه مستغرقا في المتعة الحسية الناتجة من هذا التقوس الصغير الصلب في جسدها الذي كانت يده وكيانه كله يضيئان عليه .

قادها الى المتنزه حيث كاد الظلام أن يخيم ولاحظ زاوية بين جدارين تحت شجرة كبيرة ، مظللة من اللبلاب فقال لها :

ـ دعينا نقف هناك لحظة .

أنزل المظلة ، وتبعها الى الزاوية متراجعا من المطر ، ولم يكن بحاجة الى عينين كي يرى ، بل إن كل ما أراده هو أن يعرف خلال اللمس ، وكانت مثل قطعة من الظلام النابض . وجدها في الظلام ، ووضع ذراعيه حولها ، ويديه عليها كانت صامتة ومبهمة ، بيد أنه لم يكن يريد أن يعرف أي شيء عنها ، بل كان يريد أن يكتشفها فقط ، وأي جمال مطلق ذلك الذي لمسه خلال ملابسها قال لها :

ـ اخلعي قبعتك .

وبصمت وطاعة خلعت قبعتها ، وسلمت نفسها لذراعيه مرة أخرى . لقد أحبها ، أحب ملمسها ، وأراد أن يعرفها عن قرب أكثر ، فترك أصابعه تبحث بدقة مرهفة عن وجنتيها وعنقها . أي جمال وأية متعة مدهشتين! وفي الظلام ، كانت أصابعه غالبا ما تلمس من آنا الوجه والعنق بهذه الطريقة ، وماذا يهم ؟ كان رجلا واحدا هو الذي مس آنا ، وآخر هو الذي يلمس هذه الفتاة الآن ، وأحب كثيرا نفسه الجديدة ، وسُلّم مرة أخرى الى المعرفة الحسية لهذه المرأة . وفي كل لحظة ، كان يبدو أنه يلمس جمالا مطلقا ، شيئا ماوراء المعرفة .

كانت يداه قريبتين جدا ومندهشتين ومستمتعتين كثيرا في اكتشافاتهما ، وهما تضغطان عليها برقة مرهفة ، بمتعة ورغبة ، تبحثان عنها وكاد أن يغمى عليها أيضا في مطلق المعرفة الحسية . وبمتعة حسية كاملة ، أطبقت ركبتيها وفخذيها وحقويها معا! وكان ذلك جمالا مضافا في نظره .

بيد أنه كان يعمل بدأب كي تسترخي ، وكان كل كيانه مثبتا بصبر بابتسامة الإشباع المستتر ، وجسده كله مشحون بقوة حاذقة فعالة ضاغطة عليها . وهكذا قبلها في النهاية ، وكاد أن يغرر بها بقبلته الماكرة . كان فمها المنفرج ، عديم الحيلة ، وساهيا جدا ولقد أدرك هذا ، فكانت قبلته الأولى رقيقة جدا ، وناعمة ، ومطمئنة ، مطمئنة جدا . لذلك اصبح فمها الناعم غير المحروس مطمئنا ، بل حتى بارزا ، باحثا عن فمه ولقد أجابها شيئا فشيئا ، وغطست قبلته الناعمة أرق ، فأرق ، ولكن اثقل ، فاثقل ، ثم اكثر ثقلا حتى اصبحت ثقيلة جدا فلا تطيق استقبالها . وابتدأت تغطس تحتها ، وكانت تغطس ، وتغطس وابتدأت ابتسامة الإشباع المستتر تصبح أكثر توترا ، وكان متأكدا منها ، وترك كل قوة

رغبته تغطس عليها لتزيحها ، بيد أن ذلك كان صدمة كبيرة لها وبحركة مرعوبة مفاجئة ، مزقت الحالة التي احتوتهما معا

ـ لا تفعل ، لا تفعل .

كانت تبدو وكأنها صرخة مرعبة تلك التي تند عنها ، لا تمت إليها بصلة . كان نوعا من التبريح الغريب يصرخ خارجا من الكلمات . ثمة شيء ما نابض ومستشيط في الضوضاء ، وتمزقت أعصابه كالحرير .

وقال لها :

ـ ما الأمر ، ما الأمر ؟

عادت إليه بيد أنها كانت مرتجفة ومتحفظة هذه المرة .

منحته صرختها الإشباع ، بيد انه ادرك انه أخذها على حين غرة ، لذلك كان حذرا معها الآن . وللحظة ، كان يأويها حسب . وكان ثمة صدع ايضا في رغبته المكتملة أراد أن يقاوم ، أن يبدأ مرة أخرى ، أن يقودها الى النقطة التي أطلق فيها نفسه عليها ، ثم يتدبر الأمر بعناية أكثر وبنجاح ، إذ أنها قد انتصرت حتى تلك اللحظة . بيد أن المعركة لم تحسم بعد ، واستيقظ صوت في داخله ، وحثه على أن يتركها ، أن يدعها تذهب بازدراء .

آواها وهدأها وداعبها وقبلها . وابتدأ مرة اخرى يقترب شيئا فشيئا ، ولم شتات نفسه معا ، وفكر في أنه حتى اذا لم يأخذها ، فإنه سيجعلها تسترخي ، سوف يسلبها مقاومتها . لذلك ، وبرقة متناهية ، وبرقة متناهية قبلها . وكان كيانه كله ، يبدو وكأنه يدللها . ومن ثم ، وعند الحافة ، وهو مغشي عليه في نقطة الإنكسار ، صدرت منها صرخة تشبه المواء ، مهزومة غامضة :

ـ لا تفعل ، اوه ، لا تفعل .

أُذيبت عروقه بشهوة متناهية . وللحظة كاد ان يفقد السيطرة على نفسه ، ويستمر تلقائيا ، لكن كانت هناك لحظة فعل ، لحظة تعلق بارد انه لن يأخذها . جذبها نحوه ، ولاطفها وربت عليها ، بيد ان تلذذه النقي قد ولى ، وصارعت من أجل نفسها ، وأدركت أنه لن يأخذها ومن ثم ، وفي اللحظة الأخيرة ، عندما طفق أمله الخائب يقترب مرة أخرى ، ورغبته الحارة الحية تحتقرها مقابل رغبته الحسية الباردة ، انفصلت بعنف مبتعدة عنه :

ـ لا تفعل .

صرخت بحدة الآن كارهة ، ودفعت يدها نحوه وضربته بعنف .

ـ ابتعد عني .

توقف دمه ساكنا لحظة ، ثم ظهرت الابتسامة داخله مرة أخرى ؛ ثابتة قاسية قال لها بتهكم لطيف :

ـ لماذا ، ما الأمر ؟ لن يؤذيك احد

قالت له :

ـ أنا أعرف ما تريد .

قال لها :

ـ وأنا أعرف ما تريدين ، فما الغريب في الأمر ؟

ـ حسن لن تحصل عليه مني

ـ لن أحصل عليه ؟ حسن ، فلن أحصل عليه ، لا فائدة من التأسي عليه ، أليس كذلك ؟

فردت الفتاة مرتبكة من تهكمه .

ـ لا ، ليس كذلك .

ـ لكننا لسنا بحاجة لأن نختلق شجارا من أجله ، بل يمكن أن نتبادل القُبل متمنين ، أحدنا للآخر ، ليلة سعيدة ، أليس كذلك ؟

كانت صامتة في الظلام :

ـ أم هل تريدين أن تذهب قبعتك ومظلتك الى البيت في هذه اللحظة ؟

ولم تزل صامتة . وراقب شكلها المعتم بينما كانت تقف هناك على حافة الظلام الواهن ، وانتظر ، وقال لها :

ـ تقدمي وقولي بلطف ليلة سعيدة إذا كنا سنقولها .

ومع ذلك لم تتحرك ، فمد يده وسحبها الى الظلام مرة أخرى ، قائلا لها .

ـ إنها أدفأ هنا ، أدفأ كثيراً

لم تكن رغبته فيها قد هدأت بعد ، إذ أن لحظة الكره قد أبهجته .

ـ أنا ذاهبة الآن .

همهمت بينما كان يطبق يده عليها .

ـ انظري كيف تناسبين مكانك هنا .

قال لها بينما كان يسحبها الى سابق مكانها ، قريبة منه ، واضاف : فلماذا تغادرينه ؟ وغزاه الثمل تدريجا مرة اخرى ، وعاد اليه تلذذه فلم لا يأخذها بعد كل شيء ؟

بيد أنها لم تستجب كليا له ، وسألته في النهاية :

ـ هل أنت متزوج ؟

فأجابها :

ـ وماذا يهم اذا كنت كذلك ؟

ولم تحر جوابا ، فقال لها :

ـ أنا لا أسألك إن كنت متزوجة أم ؟

فأجابته بحرارة :

ـ تعرف تماما أني لست متزوجة .

أوه لو أن بمقدورها أن تهرب منه ، لو أنها لا تحتاج لأن تستجيب له حسب .

وفي النهاية بردت رغبتها نحوه مرة أخرى . لقد هربت ، بيد أنها كرهته لهروبها اكثر من كرهها له من أجل سلامتها . هل يحتقرها ببروده هذا ؟ ولم تزل في تمزق تعلقها به

قال لها :

ـ هل أراك في الأسبوع القادم ؟

غير أنها لم تحر جوابا ، قال لها :

ـ تعالي الى الأمباير معي ؛ أنت وكريتي .

قالت له :

ـ لابد أني سأبدو رائعة ، وأنا أخرج مع رجل متزوج ؟

فقال لها :

ـ هذا لا يقلل من شأني كرجل إن كنت متزوجا ، أليس كذلك ؟

ـ أوه ، إن الأمر مختلف تماما مع رجل متزوج ؟

قالت له في خطبة جاهزة أظهرت له تكدرها ، وسألها :

ـ وكيف ذلك ؟

غير أنها لم ترشده . ومع ذلك وعدت ، دون تأكيد ، أنها ستكون في مكان اللقاء مساء السبت المقبل ، وهكذا فارقها ، ولم يعرف اسمها . واستقل قطارا ، وعاد الى البيت وكان القطار الأخير ، لذلك كان متأخرا جدا ، ولم يصل الى البيت إلاّ عند منتصف الليل ، بيد أنه كان لامباليا تماما ، فلم تكن لتربطه علاقة حقيقية مع بيته . ليس هذا الرجل هو الآن . وكانت آنا جالسة بانتظاره ، ورأت النظرة الغريبة المسامحة على وجهه ، نوعا من ابتسامة مستترة شريرة تقريبا ، كما لو أنه أصبح في حلٍّ من ارتباطاته «الطيبة» .

سألته محتارة مهتمة .

ـ أين كنت ؟

ـ في الأمباير .

ـ مع من ؟

ـ وحدي ، وعدت مع توم كوبر .

نظرت إليه ، وتساءلت عما كان يفعله . ولم تكن مهتمة إن كان يكذب أم لا

ـ لقد عدت الى البيت غريبا جدا .

قالت له وثمة تحوير مقدر للظرف في الحديث .

لكنه لم يكن متأثرا ، وكان في حل من نفسه المتواضعة الطيبة ، فجلس وأكل بشهية ، ولم يكن متعبا ، ولم يبدُ أنه شاعر بوجودها .

كانت اللحظة حرجة بالنسبة لآنا ، لذلك عزلت نفسها وراقبته . تحدث معها ، ولكن بلامبالاة طفيفة لأنه لم يكن شاعرا بوجودها الا لماما . إذن فإنها لم تؤثر فيه ؟ فهنا دورة جديدة من الأمور ، فلقد كان جذابا رغم كل شيء ، ولقد أحبته افضل من الرجل الأبكم المعتاد ، شبه الممحوق ، شبه الخامل الذي اعتادته أن يكون . لذلك فإنه كان يبرعم في حياته الحقيقية ، ولقد جرح كبرياءها ذلك . حسن جدا ، دعه يبرعم! فلقد أحبت دورة الأمور الجديدة . إذ كان رجلا غريبا ذاك الذي عاد إليها ، وعندما ألقت عليه نظرة لم تستطع ان تصغره الى ما كان عليه من قبل . وفي لحظة تخلت عن ذلك ، لكن ليس دون نوبة غضب ، إذ كانت تصر على حبهما القديم المحبوب ، حميميتها القديمة المألوفة ، وسيطرتها القديمة الثابتة ، وأوشكت على النهوض كي تتقاتل معه وعندما نظرت إليه ، وتذكرت أباه ، أصبحت أشد احتراسا ، فلقد كانت هذه دورة أمور جديدة!

حسن جدا ، إذا استطاعت أن تؤثر عليه بالطريقة القديمة فإنها ستكون متساوية معه في الجديد ، وبرز عداؤها القديم الجريء ، حسن جدا ، إنها أيضا خارجة من مغامرتها الخاصة بها ، وتغير صوتها وسلوكها ، واصبحت مستعدة للعبة ، فثمة شيء تحرر في داخلها . لقد أحبته ، أحبت هذا الرجل الغريب الذي عاد إليها ، فمرحبا به كثيرا ، حقا! كانت سعيدة جدا أن ترحب بغريب ، فلقد ضجرت من الزوج القديم ، وردت على ابتسامته الخفية القاسية بتحد بارع . توقع منها أن تحافظ على القلعة الأخلاقية ، لكنها لن تفعل! إنه لدور كئيب جدا ، بل ردت عليه التحدي بنوع من التألق ، براقة ومتحررة جدا ، مناقضة له . وأومضت عيناه إذ برزت هي الى الميدان أيضا .

أصاخت حواسه السمع ، وانتبهت حواسه اليها بصورة حميمية ، فضحكت لا مبالية وسائبة تماما مثل ما كان ، فتقدم صوبها ، بيد أنها لم ترفضه ، ولم تستجب إليه في نوع من التألق ، رائعة في غموضها ، وضحكت قبله . إن بمقدورها أيضا أن ترفع كل شيء عن عاتقها ؛ الحب والحميمية والمسؤولية ماذا يعني أطفالها الأربعة لها الآن ؟ وماذا يهم اذا كان هذا الرجل والد أطفالها الأربعة ؟

كان هو الذكر الحسي الباحث عن متعته ، وكانت هي الأنثى المستعدة لأخذها ولكن بطريقتها الخاصة . إن بإمكان الرجل ان يصبح حرا ، وكذا تستطيع المرأة . إذ لم تلتزم إلا قليلاً بقدره ، بالعالم الأخلاقي أصبحت امرأة أخرى بطلب من رجل غريب كان غريبا بالنسبة إليها ، يبحث عن اهدافه الخاصة . حسن جدا ، أرادت أن ترى ما سيفعله الغريب الآن ، ومن يكون .

ضحكت وابقته بعيدا ؛ على امتداد ذراعيها ، بينما تظاهرت باهماله ، وراقبته يخلع ملابسه ، كما لو أنه غريب . وكان غريبا عنها فعلا . كانت تثيره بعمق وبعنف حتى قبل ان يلمسها ، فتلك المخلوقة الصغيرة في نوتنغم لم تقده إلا لهذا! لقد هجرا في حركة واحدة الوضع الأخلاقي ، وكان كل منهما يبحث عن الإشباع النقي البسيط . كانت امرأته غريبة عنه ، وكان الأمر كما لو أنه غريب تماما ، كما لو انها غريبة بصورة لانهائية وأساسية عنه ؛ نصف العالم الآخر ؛ نصف القمر المظلم . وانتظرت لمسته ، كما لو انه سلاّب دخل عليها ، مجهول تماما منها ، ومرغوب فيه من قبلها . وابتدأ يكتشفها ، وتوفرت له الساعة عن اتساع خزان المتع الحسية المجهولة التي كانته . وبولوع بالشهوات الذي جعله يتمعن في كل جمال صغير ؛ في نوع من سعار المتعة ، أضاء عليها : جمالها ، أنواع الجمال ، أنواع الجمال المتعددة المنفصلة لجسدها .

ولقد طرد خارج نفسه تماما ، وهام حسيا بما اكتشفه فيها . كان رجلا آخر يتجلى لها ، فلم تكن ثمة رقة ولا حب بينهما ، بل الجنون حسب . إغراء حسي للاكتشاف والنهم ، اشباع مفرط بالجمال الحسي لجسدها . وكانت مخزنا ؛ مخزنا للجمال المطلق الذي يستمتع به ، وكان له قدرة رجل واحد .

عاش في وجد الاكتشاف الحسي معها بعض الوقت ، وكانت مبارزة ، فلم يكن هناك حب ولا كلمات ولا حتى قبلات ، بل الإحساس الجنوني بالاستحواذ على الجمال ، احساس مطلق خلال اللمس . اراد ان يلمسها ، أن يكتشفها ، أراد أن بعرفها بجنون . ومع ذلك يجب ألا يستعجل وإلا أضاع كل شيء . يجب ان يستمتع بنوع واحد من الجمال في كل

مرة ، وجمال جسدها المتعدد ، والأماكن العديدة الصغيرة الجذلى ، تجعله مجنونا بالمتعة ، وبالرغبة في معرفة المزيد ، أن يمتلك القوة كي يعرف المزيد ، لأن كل شيء هناك .

كان يقول لنفسه في أثناء النهار :

ـ الليلة سأتعرف على التجويف الصغير تحت كاحلها حيث يتقاطع الوريد الأزرق . وكان التفكير في الأمر ، والرغبة فيه تخلق من حوله ظلاما سميكا من التوقع .

وكان عندها يقضي النهار بأكمله بانتظار قدوم الليل حيث يستطيع أن يسلم نفسه الى متعة بعض الجمال المطلق الفخم فيها . كانت فكرة الكنوز الخفية فيها الجمال غير المكتشف ، وامكنة المتعة التي تثير النشوة في جسدها : منتظرة . وكانت مجرد فكرة ان تكون منتظرة اياه ليكتشفها تجعله يكاد يفقد صوابه . كان ممسوسا ، فإذا لم يكتشف هذه المتع ، ويتعرف عليها ، فإنها قد تضيع الى الأبد . تمنى أن تكون له طاقة مئة رجل كي يستمتع بها ، وتمنى لو أنه قطّ كي يلحسها بلسان خشن مخشخش مغتلم . أراد أن يتمرغ فيها ، ان يدفن نفسه في لحمها ، أن يغطي نفسه بلحمها .

وكانت منفصلة ذات نظرة غريبة خطيرة وامضة في عينيها ، تستلم كل فعالياته عليها ، كما لو أنها كانت تتوقعها ، وتثيره ليفعل المزيد عندما يهدأ حتى أنه كان مستعدا في بعض الأحيان لأن يهلك بسبب عدم قدرته المجردة على الاكتفاء منها : عدم قدرته على الحصول على ما يكفيه منها .

أصبح أطفالهما مجرد نسل لهما ، بينما عاشا في ظلام فعالياتهما الحسية وموتها . وفي بعض الأحيان ، كان يشعر انه سيفقد صوابه بسبب الإحساس بالجمال المطلق الذي يلحظه فيها خلال حواسه . كان شيئا كبيرا جدا عليه . وفي كل شيء ، كان هناك الجمال المخيف الشرير ذاته تقريبا ، ولكن في انكشافات جسدها ، أثناء الاتصال مع جسده ، كان يتجسد الجمال النهائي ، وأن يعرفه كان يعني الموت في حد ذاته . ومع ذلك ، كان مستعدا لأن يتعرض الى تعذيب لا نهاية له من أجل أن يتعرف عليه . كان مستعدا لأن يخسر أي شي : أي شيء عدا أن يمنع من حقه حتى في مشط قدمها ، والمكان الذي تخرج الأصابع منه ، والمستوى الأبيض الصغير الإعجازي الذي تخرج منه اكمات الأصابع الصغيرة والتجاويف المطوية المنقرة بين الأصابع . كان يحس أنه يفضل أن يموت بدلا من أن يتخلى عن هذه .

هذا ما ال إليه حبهما : حب عنيف ومتطرف حسيا مثل الموت ، ولم تكن بينهما حميميه حسية ولا رقة حب ، بل كل ثمل الحواس المجنون اللانهائي المعزي : ولوع بالموت .

كان يتملكه دائما ، وطوال حياته فزع خفي من الجمال المطلق ، وكان هذا بمثابة تعويذة بالنسبة اليه ، شيء يخشاه حقا ، لأنه كان لا اخلاقيا وضد الجنس البشري ، لذلك فانه تحول الى الشكل القوطي الذي اكد دوما على رغبة الجنس البشري المحطمة في اقواسه الحادة ، متخلصا من الجمال المطلق الملتف للقوس المدور .

بيد أنه قد استسلم الآن ، وسلّم نفسه بعنف حسي لانهائي الى إدراك هذا الجمال المطلق الداعر الفخم في جسد امرأة ، وخيل اليه أن ذلك قد تجسّد في جسد امرأة بتأثير لمسته ، تحت لمسته ، بل كان هناك تحت بصره أيضا ، لكنه عندما لا يرى ولا يلمس المكان المكتمل ، فإنه ليس بمكتمل ، وهو ليس هناك ، ويجب أن يجعله موجودا .

لكن ذلك الشيء كان يريعه ، إذ كان مخيفا ومهددا وخطيرا حتى عندما يسلم نفسه إليه ، فلقد كان ظلاما خالصا أيضا ، فكشفت له كل أشياء الجسد المخزية عن نفسها بنوع من الجمال القائظ الشرير ؛ كل الأفعال الطبيعية وغير الطبيعية للشهوات الحسية المخزية التي تقاسماها ، هو والمرأة معا ، وخلقاها معا ، كان لهما جمالها الثقيل ومتعتها . العار ، ماذا كان هذا ؟ كان جزءا من متعة خارقة ؛ جزء المتعة الذي يخشاه الإنسان عادة ، ولم يخشاه ؟ السر ، الأشياء المخجلة هي الأكثر جمالا .

لقد ارتضيا بالعار ، وتوحدا معه في متعهما الأكثر تحريما ، كان متضمنا ، كان برعما تفتح في جمال وفي إشباع أساسي ثقيل .

واستمرت حياتهما الخارجية على المنوال نفسه ، لكن حياتهما الداخلية تثورت ، أصبح الأطفال أقل أهمية ، وانغمس الوالدان في حياتهما الخاصة .

وابتدأ برانغوين يجد نفسه تدريجا حرا في أن يصغي للحياة الخارجية أيضا ، إذ كانت حياته الحميمة حية بصورة عنيفة ، لدرجة أنها أطلقت رجلا آخر حرا داخله . ولقد استدار هذا الرجل الجديد باهتمام نحو الحياة العامة ليرى أي جزء يمكن أن يساهم فيه ، إذ أن هذا سيعطيه تصورا عن فعالية جديدة ، فعالية من نوع يخلقه الآن ويطلقه . أراد أن يكون اجتماعيا مع كل الجنس البشري الهادف .

في ذلك الوقت كان التعليم في الصدارة كموضع إهتمام ، فلقد كان هناك حديث عن طرف سويدية جديدة ؛ عن تعليمات للعمل اليدوي وما شابه ذلك . وتبنى برانغوين باخلاص فكرة العمل اليدوي في المدارس ، وللمرة الأولى ابتدأ يظهر اهتماما حقيقيا بشؤون الجمهور . ولقد طور في النهاية من فعاليته الحسية العميقة نفسا حقيقية ذات هدف محدد .

كان هناك حديث عن مدارس مسائية ، وعن صفوف خاصة بالعمل الحرفي ، وأراد أن

ينشئ صفا لأعمال الخشب في كوستي كي يعلم النجارة ونجارة الأبواب والشبابيك ونحت الخشب لأطفال القرية ، مرتين في الأسبوع . ولقد بدا له ذلك شيئا محبذا يستحق الإنجاز ، وسيكون مرتبه قليلا جدا ، وعندما يحصل عليه ، فأنه سينفقه كله على المزيد من الأخشاب والمعدات ، لكنه كان سعيدا جدا ومخلصا في روحه العامة الجديدة .

ابتدأ دروسه المسائية في أعمال الخشب عندما كان في الثلاثين من عمره . وفي هذه الأثناء ، أصبح لديه خمسة أطفال ، كان آخرهم صبيا ، لكن ذلك لم يكن يهمه الا قليلا ، فلقد كان لديه إحساس طبيعي تجاه أطفاله ، ولقد أحبهم كما هم عليه صبياناً أو بناتٍ ، بيد أنه كان مغرما بأورسلا أكثر ، وبطريقة ما كانت وراء مشروعه الجديد الخاص بالمدرسة المسائية .

أصبح للبيت الواقع إزاء أشجار السرو علاقة مع المجهود الإنساني العظيم في النهاية ، ولقد إكتسب نشاطا جديدا بسبب ذلك .

وبالنسبة لأورسلا ، وهي الطفلة في الثامنة من عمرها ، كانت الزيادة في السحر ملموسة . سمعت كل حديث ، ورأت غرفة الأبرشية ، وقد رتبت كورشةٍ . وكانت غرفة الأبرشية بناية عالية ؛ حجرية كنسية تشبه الحظيرة تنتصب وحدها في حديقة برانغوين الثانية ، عبر الممر ، وكانت تنجذب إليها بفعل عمرها وقدمها المهجور . والآن راقبت التحضيرات وهي تنجز ، وجلست على درجات السلم الحجرية التي تنزل من الفناء الى الحديقة ، وسمعت أباها والقس يتحدثان ويخططان ويعملان ، ثم جاء مفتش بعد ذلك ؛ رجل غريب ، وظل يتحدث مع أبيها طوال أحدى الأمسيات ، واستقر كل شيء ، وسجل إثنا عشر طالبا أسماءهم ، وكان أمرا مثيرا جدا .

أما أورسلا ، فكان كل شيء يفعله أبوها له مفعول السحر ؛ سواء إذا عاد من اليكستون بأخبار المدينة ، أو ذهب الى الكنيسة بموسيقاه أو معداته في إحدى الأمسيات المضيئة ، أو جلس في مدرعته إزاء الأورغن أيام الآحاد ، يقود الغناء بصوته الجهوري القوي ، أو كان في الورشة مع الأولاد . كان دائما مركز السحر والدهشة لها ، صوته يتردد مسيطرا ، مرحا ، مقنضبا . كان ثمة رنين دائم فيه يولّد دهشة في دمها وينميها كانت على ما يبدو ، تركض في ظل سر خفي مظلم ، لا تتجرأ على أن تصبح مدركة حتى لوجوده ، كان يلقي ظلاله عليها ، ويظلم ذهنها كثيرا .

الفصل التاسع

حقل مارش والفيضان

كان ثمة ارتباط دائم بين بيت السرو وحقل مارش ، ومع ذلك ، بقي سكانهما منفصلين متميزين .

بعد زواج آنا أصبح حقل مارش بيت الولدين توم وفريد . وكان توم شابا وسيما ، قصيرالقامة قليلا ، ذا شعر أسود متموج ، واهداب سود طويلة ، وعينين واثقتين سوداوين ، وكان فطنا بعد أن أنهى المدرسة الثانوية ، ذهب الى لندن كي يكمل تعليمه ، وكانت له موهبة في اجتذاب الناس من ذوي الأخلاق والحيوية ، ولقد تخلى تماما عن مكانه الى الأخ الآخر . وفي الوقت نفسه ، أبقى نفسه مستقلا . كان لا يكاد يوجد إلا من خلال الآخرين . أما عندما يكون وحيدا ، فلا يمكن تبيّن ملامحه وعندما يكون مع شخص آخر ، كان على ما يبدو ، يضيف نفسه الى الآخر ، جاعلا إياه اكبر من حجمه الحي ، لذلك احبه قلة من الناس ، ووجدوا فيه نوعا من الرضا ولقد اختار بعناية اولئك القلة .

كان له ذكاء خفي سريع ناقد ؛ ذهن يشبه المقياس او الميزان ، وكان ثمة شيء من المرأة في كل هذا .

وفي لندن ، أصبح التلميذ المفضل لمهندس ، وهو رجل ذكي اكتسب شهرة في ذلك الوقت عندما انتهى توم برانغوين لتوه من دروسه ، وخلال هذا السيد ، ظل الفتى على اتصال مع شخصيات مختلفة معروفة . ولم يكن يفرض نفسه ابدا . كان ، على ما يبدو ، قد وجد هناك كي يُقدّر ويثبت الباقين . كان مثل وجود يجعلنا مدركين وجودنا ، لذلك كان رغم أنه لم يزل شابا ، مرتبطا مع اكثر الناس العلميين والرياضيين حيوية في لندن . وكانوا يعدّونه ندا لهم ، ولأنه كان هادئا ومستوعبا ومتفرداً ، فلقد حافظ على مكانه وتعلم كيف

يقيّم الآخرين   كان هناك مثل قاض إضافة الى أنه كان وسيما جدا ، ذا بنية متوسطة ، متوازن المقاييس بطريقة جميلة ، اسمر ذو الوان رائعة ، ومعافى تماما دوما

ولقد منحه أبوه مصروف جيب سخياً الى جانب أن له مهنة من نوع ما ؛ إذ أنه كان يقوم بمهمة مساعد للمدير . وبين آونة وأخرى ، كان الشاب يظهر في حقل مارش ، جذابا بطريقة غريبة ، حسن الهندام ، متحفظا ، له بطبيعته سلوك غامض مهذب . ولقد ابتدأ التغيير في الحقل .

أما فريد ؛ الأخ الأصغر ، فلقد كان برانغويا نموذجيا ؛ خشن العظام ، ازرق العينين ، انكليرياً . كان ابن أبيه ، وكان الرجلان ؛ الأب والابن في انسجام رائع . وكان فريد هو من يرث إدارة الحقل .

وبين الأخ الأكبر والأصغر هناك ما يشبه الحب الحنون ، إذ كان توم يراقب فريد باهتمام نسوي مؤثر ، وعناية تخلو من الأنانية ، وكان فريد يعد توم شيئا إعجازيا ، يتوق الى أن يكونه ، حيث سيكون عظيما أيضا .

وهكذا أخذ حقل مارش ، بعد رحيل آنا ، يتخذ مسارا جديدا . كان الصبيان رجلين نبيلين وكان لتوم طبع نادر وتربى على خلق رفيع ، وكان فريد حساسا ، ومغرما بالقراءة . ولقد تأمل في كتابات رسكن* ثم الكتابات الغنوصية**   ومثل بقية آل برانغوين ، كان يعني الكثير لنفسه ، رغم انه كان مغرما بالناس ، متسامحا معهم ، ويكن احتراما مبالغا به لهم . وكانت صداقة مضطربة بينه وبين أحد شبان آل هاردي من القصر ، وكان أفراد العائلتين مختلفين ، ومع ذلك التقى شبابهم وفق أسس خجلى من المساواة .

كان الشاب توم برانغوين بهدبيه الغامقين ولونه الجميل وطبيعته البهمة الهشة وهدوئه الغريب وسيمائه المثقفة ، فضلا عن وظيفته في لندن ، هو الذي أكد على ما يبدو العنصر الأجنبي المتفوق في حقل مارش ، وعندما ظهر مكتمل الأناقة ، ناعما ، ودمثا ، ومع ذلك ، منعزلا تماما عن الآخرين ، خلق اضطرابا بين الناس . واحتُفظ به في اذهان المعارف في كوسثي والبكستون باعتباره منتمياً الى عالم بعيد مختلف

كان بينه وبين أمه نوع من الإلفة ، وكانت العاطفة بينهما ذات طبيعة بكماء متباعدة ، غير أنها متطرفة . كان والده لا يرتاح له دائما ويراعي قليلا أخاه الأكبر   ولقد كون توم أيضا الرابطة التي أبقت حقل مارش في ارتباط حقيقي مع آل سكربينسكي الذين أصبحوا الآن اناسا مهمين في مقاطعتهم .

---

* رسكن ، جون (١٨١٩ ـ ١٩٠٠) ناقد فني وكاتب مقالات إنكليري

** الاعتقاد بأن لا شيء يمكن أن يعرف عن وجود الله وطبيعته ، وأن المعرفة بكل الأمور نسبية .

وهكذا حصل تغير في نمط الحياة في حقل مارش ، وكلما تقدم توم برانغوين في السن ابتدأ ينضج متحولا الى مزارع نبيل ، وتغيرت هيئته فاصبح ضخما ووسيما . وظل وجهه طريا ، وعيناه زرقاوين كما لو أنهما ممتلئتان بالضياء ، وتحول شعره الكثيف ولحيته تدريجا ، الى بياض حريري . وكان من عادته أن يضحك كثيرا بطريقته العنيدة المذعنة كانت الأشياء تحيره كثيرا ، لذلك سلك طريق القبول السهل المرح ، ولم يكن مسؤولا عن إطار الأشياء . ومع ذلك ، كان خائفا من المجهول في الحياة .

كان غنيا الى حد ما ، وكانت زوجته معه ؛ مخلوقاً مختلفاً عنه . لكنه مع ذلك ، مرتبط في مكان ما ، وعلى نحو حي معه . من هو كي يفهم أين وكيف ؟ وكان ولداه رجلين نبيلين ؛ رجلين مميزين عنه ، لهما كيانان منفصلان خاصان ، ومع ذلك كانا مرتبطين به كان كل شيء مغامر ومثير للحيرة ، ومع ذلك ، يظل المرء فعالا ضمن وجوده ، بغض النظر عن الخسائر ، وهكذا ضحك وسيما وحانرا ، والتصق بنفسه لأنها الشيء الوحيد الذي يستطيع الإلتصاق به ، وبقي شبابه وفتنته كما هما في داخله تقريبا . واصبح متراخيا وتعود على راحة فخمة ، إذ كان فريد يقوم بمعظم أعمال الحقل ، وكان الأب يشرف على المعاملات الأكثر أهمية حسب . كان يركب فرسا ممتازة ، وفي بعض الأحيان يستقل عربته ، ويشرب في الفنادق والحانات مع المزارعين الا عنياء والملاك ، وكان عنده معارف اغنياء من الرجال ، لكن لم تكن ثمة طبقة تناسبه أفضل من الأخرى .

وكانت زوجته ، مثل ما كانت ، دون معارف وأصبح شعرها الآن مطرزا بالشيب ، وشاخ وجهها شكلاً دون تغير في الملامح . وبدت في الهيئة نفسها التي جاءت بها الى حقل مارش قبل خمس وعشرين سنة ، ما عدا أن صحتها اصبحت اكثر اعتلالا ، وكانت تبدو كأنها تلازم حقل مارش أكثر من كونها تعيش هناك ، فلم تكن جزءا من الحياة أبدا

ثمة شيء ما تمثله كان غريبا هناك ، وبقيت غريبة داخل البوابات ، ثابتة وكتيمة بطرق ما ، ومهذبة على نحو غريب بطرق اخرى . ولقد سببت انفصال سكنة حقل مارش وفردانيتهم وتفتتهم .

عندما بلغ توم برانغوين الثالثة والعشرين ، حدثت قطيعة بينه وبين رئيسه لم تفسر أبدا . ولقد سافر بعدها الى ايطاليا ثم الى أمريكا ، ثم عاد الى البيت فترة قصيرة ، وذهب الى المانيا . وكان دائما الشاب الوسيم ، حسن الهندام ، الجذاب نفسه ، في صحة تامة . ورغم ذلك ، كان خارج كل شيء بطريقة ما ، ففي عينيه السوداوين ، كانت تعاسة عميقة ، يحملها باليسر والسرور الذي يرتدي فيه ملابسه الضيقة كان في نظر أورسلا شخصا

عاطفيا فاتنا ، إذ كان كريما حين جلب هدايا جميلة : علبة حلويات ثمينة من النوع الذي لم تره كوستي أبدا ، او أنه كان يعطيها فرشاة شعر ومرآة طويلة رشيقة من اللؤلؤ ، كلها شاحبة ومتلألئة وذات نوعية ممتازة ، او أن يرسل إليها قلادة صغيرة من أحجار خشنة من الأمتست والأوبال والأحجار اللامعة والعقيق الأحمر وكان يتحدث بلغات أخرى بيسر وطلاقة ، وكانت طبيعته كريمة ومحفزة بطريقة غريبة ، ومع كل هذا ، كان لا منتميا على نحو لا يمكن تعريفه ، فلم يكن لينتمي الى مكان او مجتمع ما .

تركت آنا برانغوين حميميتها غير مطورة مع أبيها منذ زواجها ، إذ هجرتها عند زواجها . ولقد وضع الإثنان أرضا حراما بينهما ، ومالت آنا أكثر صوب أمها .

ثم مات الأب فجأة .

حدث الأمر في أحد فصول الربيع ، عندما كانت اورسلا في الثامنة من عمرها ، فلقد توجه توم برانغوين صباح يوم السبت الى السوق في نوتنغم قائلا إنه قد لا يعود إلا متأخرا ، لأن ثمة عرضا خاصا يتلوه اجتماع كان عليه ان يحضره . وقد فهمت عائلته انه سوف يمتع نفسه . وكان الموسم ممطرأ وكئيبا ، وفي المساء كانت الدنيا تهطل مطرا مدرارا ، وكان فريد برانغوين مضطربا وقلقا ولم يخرج مثل ما كان في نيته ، فدخن وقرأ وتململ مصغيا باستمرار الى انهمار الماء في الخارج . كانت تلك الليلة السوداء الرطبة تبدو كأنها تعزله ، وتجعله قلقا ، شاعرا بنفسه ، مدركا أنه يريد شيئا آخر ، مدركا أنه لم يكن حيا إلا بالكاد ، فهناك بدا له أن لا جذر لحياته ، ولا مكان له كي يرضى به ، وكان يحلم بالسفر الى الخارج ، بيد أن غريزته أدركت أن تغيير المكان لن يحل المشكلة . لقد أراد تغييرا ؛ تغييرا عميقا مؤثرا للحياة ، ولم يعرف كيف يحصل عليه .

جاءت تيلي التي اصبحت عجوزا الآن ، قائلة إن العمال الذين كانوا يتعشون قالوا إن الساحة ، وكل مكان آخر ، قد تحول الى دوامة من الماء . ولقد سمع ذلك دون أن يبالي ، بيد أنه كره البلل الفج المقفر في العالم ، وقرر أن يغادر حقل مارش .

كانت أمه في السرير ، وفي النهاية أطبق كتابه ، وكان ذهنه فارغا ، وصعد الى الطابق العلوي مختنقا بالكآبة والغضب ، ومختنقا بالكآبة والغضب أغلق نفسه كي ينام .

وضعت تيلي خفين أمام نار المطبخ ، وأوت الى فراشها أيضا ، تاركة الباب غير مقفل . بعدها غطس الحقل في الظلام ؛ في المطر . عند الساعة الحادية عشرة ، كانت ماتزال تمطر . وقف توم برانغوين في ساحة انجل في نوتنغم ، وزرر معطفه ، وقال جذلا :

ـ اوه ، حسن لقد أمطرت عليّ من قبل . ضعها في الداخل يا جاك ، يا ولدي ، ضعها في

الداخل ، فهذا صنبور قديم نادر ، جاك ياولدي ، وقد فتح جوفه عليك ، مثل ما يفعل الدّين لشرابك إن لم يكن لقمحك . انهض أيها الحبيب ، دعنا نرحل عن الدارة القديمة ، آه ، يا قلبي ، أي بلل في الليل! لن تكون براكين بعد هذا هَي يا جاك ، يا حطابي الرشيق الشاب الجميل ، اينّا نوح ؟ إن الأمر يبدو كما لو أن السدود قد انفجرت واذا استمرت الحال على هذا المنوال فستكون البطات ودجاجات الماء هن ملوك القلعة . حمامة وغصن زيتون وكل شيء . انهض إذن يا غلام ، فلن نبقى هنا الليل بطوله ، حتى لو ظننت أن هذا ما نحن فاعلوه ، عسى أن أتحطم إن لم يكن المطر القافز يجعل أي شخص يظن نفسه مخمورا يا جاك ، هل يغسل ماء المطر الوعي الى الداخل أم يغسله خارجا ؟ وضحك وحده للنكتة .

كان يخجل دائما عندما يكون عليه أن يقود بعد الشراب ، وكان يعتذر للحصان دوما ، ولقد جعلته طبيعته الإعتذارية ظريفا ، وكان مدركا عجزه عن السير باستقامة ، ومع ذلك ، ظلت ارادته صلبة ومتنبهة طوال سكره .

ركب العربة ، وانطلق عبر بوابات ساحة الحانة ، وجرت الفرس على ما يرام ، وجلس ثابتا ، والمطر يضرب وجهه ، وركب جسده الثقيل الساكن في نوع من النوم ، وكان ثمة مركز انتباه واحد يحترق متقطعا ، اما البقية ، فلقد كانت ظلاما ، وركز ما تبقى من انتباهه على حقيقة السير على امتداد الطريق الذي يعرفه جيدا . كان يعرفه تماما ، لذلك ظل يراقبه بتركيز وبجهد من إرادته .

وكان يتحدث بصوت عال مع نفسه ، وعظي في لهفته ، كما لو أنه كان صاحيا تماما ، بينما كانت الفرس تنطلق ، والمطر يضربه . وراقب المطر أمام مصباح العربة ، التوهج الضئيل لجسد الحصان المعتم ، ومرور أشجار السور المظلمة . قال لنفسه

- إنها ليست ليلة مناسبة لإطلاق كلب الى الخارج لقد حان الوقت كي تصحو السماء . لتحل عليّ اللعنة إن لم يحدث ذلك . كان مفيدا جدا وضع تلك الأحمال العشرة من الرماد على الطريق ، بيد انها سوف تُغسل الى دار البقاء إن لم يتغير الجو . حسن إنها من مسؤولية فريد إذا ما حدث ذلك ، فهو نشّار أخشاب من الطراز الأول قدر تعلق الأمر بهذه الأشياء لا أرى سببا أقلق نفسي من اجله . باستطاعتها أن تغسل الى دار البقاء ، وتعود من جديد مرة أخرى هذه هي حال الأشياء ، فالمطر يهطل لكي يصعد الى السحاب مرة أخرى كما يقولون ، فلم يعد هناك المزيد من الماء على الأرض ، أكثر مما هو هناك في عدم السنة . هذه هي القصة ياولدي اذا كنت تفهمها ، فليس هناك اليوم أكثر مما كان قبل ألف سنة ، كما أنه لم يكن هناك أقل أيضا . فأنت لا تستطيع أن تستنفد الماء ، إذ أنه يتحول

الى بخار ، واضعا اصابعه على انفه ساخرا منك ، ثم يتحول الى سحب ليسقط كمطر على ما يناسب وما لا يناسب ، وإني لأتساءل ما اذا كنت المناسب أم غير المناسب .

وأجفل مستيقظا عندما تمايلت العربة ساقطة في أخدود ، وتنبه الى موضعه في الطريق . لقد قطع بعض المسافة منذ أن كان واعيا آخر مرة ، لكنه بعد فترة طويلة ، وصل الى البوابة ، وتعثر مجهدا ، مترنحا ، متشبثا بالعربة بشدة . وغاص عدة بوصات في الماء .

قال غاضبا :

ـ اللعنة عليه ، اللعنة على المنحدر التعيس .

ثم قاد الحصان مندفعا خلال الباب . كان ثملا تماما الآن متخطيا على غير هدى وبحكم التعود وكان الماء في كل مكان تحت قدميه .

كانت المجازة المرصوفة المؤدية الى البيت وموضع البيت جافين ، لكن ثمة ضجيجاً غريباً في الليل الذي بدا وكأنه يصنع في ظلام ثمله . وحمل مترنحا ، اعمى ، دون وعي تقريبا ، أمتعته والسجادة والوسائد الى البيت ، ثم ما لبث أن أسقطها ، وخرج كي يفك الحصان . أصبح في البيت الآن ، وكان يمشي نائما ، منتظرا فقط ، لحظة الحيوية أن تتوقف ، وبتعمد وعناية شديدتين ، قاد الفرس أسفل المنحدر ، الى سقيفة العربة ، فأجفلت وتراجعت .

فقال وقد أصابه الفواق متهاديا باستمرار :

ـ لماذا ؟ ما الخطأ ؟

ومرة أخرى تعرض الى وابل من المطر ، فلقد نثرت الفرس الماء ، وهي تسير كان الظلام مدلهما ، باستثناء مصابيح العربة . وكانت هذه تضيء سطح الماء المتموج .

ـ حسن ، هذا شيء مدهش .

قال عندما جاء الى سقيفة العربة ، وهو يخوض في ست بوصات من الماء ، لكن كل شيء بدا مسليا ومضحكا . وضحك عندما فكر بوجود ست بوصات من الماء في سقيفة العربة

قاد الفرس الى الوراء ، وكانت حرونا . وضحك من متعة فك الفرس ، بينما يتدفق الكثير من الماء من حول قدميه ، وضحك لأن ذلك كان يزعجها . ما الخطأ ، ما الخطأ ، فقطرة ماء لن تؤذيك . وما أن فك السيرين حتى ابتعدت مسرعة .

علق عرائش العربة وأخذ مصابيحها . وعندما خرج من كومة العرائش والعجلات المألوفة في السقيفة ، اندفع الماء في موجات صغيرة بقوة على قدميه ، فترنح وكاد يسقط . فقال وهو يحملق الى الماء الجاري في الليل المائي الأسود :

ـ حسن ما الأمر بحق الشيطان ؟

ذهب لمواجهة الطوفان الجاري غاطسا اعمق فاعمق ، وكانت روحه ممتلئة بدهشة عظيمة . إن عليه أن يذهب ويعرف مصدره ، رغم أن الأرض كانت تختفي من تحت قدميه ، واستمر هابطا نحو البركة مرتعشا . ولقد استمتع بذلك قليلا . كان الماء يصل الى ركبته ، ويسحب بشدة ، فتعثر وترنح مريضا .

أمسك الخوف به ، فتمسك بالمصباح بشدة ، وترنح وأجال بصره من حوله . كان الماء يحمل قدميه بعيدا ، وكان دائخا . ولم يعرف الى أي طريق يستدير . كان الماء يدور في دوامات والليل الأسود بأكمله ينقض في هيئة حلقات ، وتمايل غير واثق على مركز الهجوم ، مترنحا في تعاسة . وفي سويداء نفسه ، أدرك أنه سيسقط ، وعندما ترنح ، اصطدم شيء ما بساقيه فسقط . وفي الحال سقط في دوامة الاختناق ، فتصارع في رعب أسود من الاختناق مصارعا ، مقاتلا ، بيد أنه كان يحمل الى الأسفل دائما ، يهبط الى الأسفل على نحو لا مرد له ، ثم تصارع وقاتل كي يحرر نفسه ، في صراع الاختناق غير المكتمل ، بيد أنه كان يسقط ، أعمق دائما . وضرب شيء ما رأسه ، فسرت خلاله دهشة كرب عظيمة ، ثم غطاه الظلام تماما . في الظلام المطبق اللاواعي ، تدحرج جسد غارق ، وكان الماء ينسكب ويتدفق ، ويملأ المكان . استيقظت الماشية ونهضت على اقدامها ، وشرع الكلب ينبح ، ودفع الجسد اللاواعي الغارق في الظلام الأسود ذي الدوامات مذعنا .

استيقظت السيدة برانغوين ، وأصاخت السمع ، وبإحساس استثنائي حاد ، سمعت كل الظلام الذي يتحرك في دوامات في الخارج . واستلقت ساكنة ، لحظة ، ثم ذهبت الى الشباك ، وسمعت المطر الحاد وجريان المطر العميق ، وأدركت أن زوجها في الخارج . وصاحت :

ـ فريد ، فريد .

وبعيدا في الليل ، كان هناك الضجيج الأجش القاسي لكتلة من الماء تندفع نحو الأسفل . نزلت الى الطابق السفلي ، ولم تستطع أن تفهم الجريان المتزايد للماء ، وهبطت الدركة الى المطبخ ، واضعة قدمها في الماء . كان المطبخ فائضا . من أين جاء الماء ؟ لم تستطع أن تفهم

كان الماء يجري داخلا وخارجا من غرفة غسل الأطباق ، وتحركت بقدمين عاريتين كي تستكشف الأمر . كان الماء يفقع بشدة تحت الباب الخارجي ، وتملكها الخوف ، ثم اندفع شيء عليها والتف شيء على قدميها ، وكان سوط الركوب على الطاولة حيث كانت السجادة والوسادة والرزمة من العربة . لقد عاد الى البيت ، فهتفت خائفة من صوتها :

ـ توم!

وفتحت الباب ، فاندفع الماء في صوت مخيف ، وكان الماء المتحرك في كل مكان صوت الماء .

ـ توم!

هتفت واقفة في منامتها ، وبيدها شمعة ، تنادي في الظلام . وفي الممر الغارق :

ـ توم! توم!

وأصاخت السمع ، وظهر فريد خلفها مرتديا بنطالا وقميصا ، وسألها :

ـ أين هو ؟

نظر الى الفيضان ثم الى أمه ، وبدت ضئيلة وشيطانية في منامتها . وقال لها :

ـ إذهبي الى الطابق العلوي ، إنه في الإصطبل .

ـ تو... م! تو.. م!

صاحت المرأة الكبيرة بنداء غريب خارق طويل أفزع ابنها الى النخاع ، فارتدى في الحال حذاءه ومعطفه ، وقال لها :

ـ اصعدي الى الطابق العلوي يا أمي ، وسأذهب أنا للبحث عنه .

ـ توم توم! ترددت صرخة المرأة الضئيلة الثاقبة الغريبة الحادة ، ولم يكن هناك سوى ضجة الماء وخوار الماشية المضطربة ونباح الكلب الطويل تضج في الظلام .

اندفع فريد برانغوين في الطوفان ، حاملا فانوسا . ووقفت امه على الكرسي في المدخل تراقبه ، وهو يذهب . كان كل شيء ماء ؛ ماء جارياً متلألئاً تحت الفانوس .

ـ توم! توم! تو . و... م!

ترددت صرختها الطويلة الغريبة مترددة فوق الليل ، فجعلت ابنها يشعر بالبرد في سويداء روحه .

وتدحرج جسد الأب اللاواعي الغارق تحت البيت ، مَسوقا بالماء الأسود صوب الطريق العمومي .

ظهرت تيلي واضعة تنورة فوق ثوبها الأسود ، ورأت سيدتها متعلقة على كرسي في الباب المفتوح ، وشمعة تشتعل على الطاولة وصرخت المرأة الخادمة العجوز : يا إلهي لقد انفجرت القناة ، لقد تهدمت تلك السدة ، ما الذي نفعله ؟

راقبت السيدة برانغوين ابنها والفانوس وهو يمشي على المجازة العليا متوجها نحو الإصطبل ، ثم رأت شكل الفرس الأسود ، وعلق ولدها المصباح في الإصطبل ، وأشرق الضوء بوهن عليها بينما كان يفك الفرس . ورأت الأم وجه الحصان الوامض يندفع الى باب

الإصطبل ، وكان الإصطبل مايزال فوق مستوى الفيضان ، لكن الماء كان ينساب بقوة الى البيت .

قالت تيلي :

ـ الماء يرتفع ، ألم يعد السيد ؟

ولم تسمع السيدة برانغوين ذلك .

فهتفت في صوتها القوي المرتعب :

ـ أليس موجودا هناك ؟

جاء جواب الليل المقتضب .

ـ إذهب وابحث عنه .

وكاد صوت الأم ان يُفقد الشاب عقله .

وضع الرسن على الحصان ، وأغلق باب الإصطبل ، وعاد ناثرا الماء من حوله ، خلال الماء ، وكان الفانوس يتأرجح .

ودفع الجسد اللاواعي الغارق أمام البيت في التيار الأعمق ، وجاء فريد برانغوين الى أمه وقال لها :

ـ سأذهب الى سقيفة العربة

ـ تو... و... م! تو... و... م!

ترددت الصيحة القوية اللاإنسانية .

ونجمد دم فريد برانغوين ، وكان قلبه غاضبا جدا ، فامسك عروقه في سعار . لماذا تنوح بهذه الطريقة ؟ إنه لا يطيق رؤيتها جاثمة على الكرسي في ثوب نومها الأبيض ، عند الباب ، شيطانية ومرعبة .

قال لها مدمدما ، متظاهرا أنه على ما يرام :

ـ لقد فك الفرس من العربة ، فهو على ما يرام إذن .

لكنه عندما نزل الى سقيفة العربة ، غطس في قدم من الماء ، وسمع الاندفاع في البعد ، وأدرك أن القناة قد كسرت ، وكان الماء يجري أعمق .

كانت العربة في موضعها على ما يرام ، لكن لم تكن ثمة علامة على وجود أبيه ، وخاض الشاب طريقه الى البركة ، وارتفع الماء فوق ركبته ، وتحول الى دوامات ، وأجبره على التراجع الى الخلف .

وجاءته صرخة الأم التي تثير الجنون :

ـ أهو هناك ؟

كان الجواب الحاد .

وتردد النداء الثاقب الحر الغريب : تو م! توم!

وبدا ذلك عاليا وغريبا ونقيا تقريبا ، ولقد كرهه فريد برانغوين ، إذ كاد أن يفقده صوابه ، لأنه كان يتردد على نحو مخيف ، مثل أغنية تقريبا .

كان الماء يجري بأقصى سرعته داخل البيت .

ـ من الأفضل أن تصعدي الى بيبي وتجلبيه هو وآرثر الى الأسفل ، واخبري السيدة بيبي أن تجلب ويلكنسون

قال فريد الى تيلي ، وأجبر أمه على الصعود الى الطابق الأعلى ، فردت في رثاء غريب :

ـ أعرف أن والدك قد غرق

ارتفع الفيضان أثناء الليل حتى جرف ابريق الشاي من على الرف في المطبخ ، وجلست السيدة برانغوين وحيدة ، إزاء شباك في الطابق العلوي . ولم تعد تنادي ، وكان الرجال مشغولين بالخنازير والماشية ، وكانوا يقتربون بزورق لنقلها .

عندما اقترب الصباح ، توقف المطر وأشرقت النجوم فوق الضجة ، وعلى خرير الماء وقرقرته المرعبة ، ثم ظهرت كوة في المشرق . وابتدأ الضوء يظهر . وفي ضوء الفجر المتورد رأت المياه وهي تنتشر متحركة بكسل ، وكانت البنايات ترتفع فوق رقعة واسعة من الماء ، وبدأت الطيور تغني ناعسة ، كما لو أنها جشاء قليلا مع انبلاج الفجر وابتدأت الدنيا تكشف قليلا ، وكانت الفتحة الفجة الكبيرة في سدة القناة تمتد حتى الحقل الثاني

كانت السيدة برانغوين تنتقل من شباك الى آخر ، تراقب الفيضان ، وجلب أحدهم الزورق الصغير ، وابتدأ الضياء يشتد ، واختفى الومض الأحمر من ماء الفيضان ، وحل النهار ، وذهبت السيدة برانغوين من مقدمة البيت الى المؤخرة ، باحثة ، مركزة ، قلقة على الصباح الربيعي الشاحب . رأت لمحة من معطف زوجها البرتقالي في الفيضان ، بينما كان الماء يدحرج الجسد على أشجار سور الحديقة ، فنادت على الرجال ، في الزورق ، ولقد فرحت لأنها عثرت عليه ، فسحبوه خارج الأشجار ، بيد أنهم لم يستطيعوا رفعه الى الزورق . وقفز فريد برانغوين الى الماء الذي وصل الى خصره ، وحمل جسد ابيه خلال الفيضان الى الطريق . كان قش وأغصان وأوساخ عالقة في لحيته وشعره . وكان الفتى يدفع خلال الماء وهو يصرخ بصوت عال ، دون دموع ، مثل حيوان جريح ، وصاحت الأم في الشباك ، دون أن تسبب مشكلات .

جاء الطبيب لكن الجسد كان ميتا فحملوه الى كوسثي ، الى بيت آنا . عندما سمعت آنا بالأخبار ، ضغطت رأسها الى الخلف ، وأجالت بصرها ، كما لو أن شيئا ما كان يمتد نحوها كي يعضها من حنجرتها . ضغطت رأسها الى الخلف ، وانسحب ذهنها الى النوم . فمنذ ان تزوجت ، وأصبحت أما ، كانت الفتاة التي كانتها نُسيت . أما الآن ، فإن الصدمة تهدد في أن تركز عليها ، وتكنس كل حياتها الطارئة ، جاعلة إياها فتاة في الثامنة عشرة من العمر مرة أخرى ؛ محبة لوالدها ، لذلك تراجعت الى الخلف ، بعيدا عن الصدمة ، وتعلقت بحياتها الحالية .

وكان عندما جلبوه الى بيتها ميتا في ملابسه المبللة ، ملابسه المبللة المشبعة ، مرتديا كل ملابسه مثل ما عاد من السوق ومع ذلك ، كان كل شيء مشبعا وخاملا ، إن انفتحت اندلعت الصدمة فيها ، وتملكها الرعب . كان كومة خاملة مشبعة بالماء ؛ ذلك الذي كان بالنسبة إليها رمزا القدرة والحياة القوية .

وفي رعب تقريبا ، ابتدأت تخلع الأشياء المبللة عنه ، تخلع عنه ملابس السوق المتنافرة لمزارع غني ، وأُرسل الأطفال الى بيت القس ، وسجي الجثمان على أرضية الشرفة . وابتدأت آنا تخلع ملابسه بسرعة ، واضعة سلسلة ساعته ، وأختامه في كومة مبللة على الطاولة ، وساعدها زوجها والمرأة . نظفوا الجسد وغسلوه ووضعوه على الفراش

هناك بدا ساكنا وكبيرا . كان هادئا تماما في الموت ، وهاهو يضطجع الآن منسجما ، لا يمكن تدنيسه او الاقتراب منه كان بالنسبة إليها الآن عظمة الذكر الذي لا يمكن الوصول إليه ؛ عظمة الموت . ولقد جعلها ذلك ساكنة مروعة تكاد أن تكون سعيدة . وجاءت الأم ، ليديا برانغوين ايضا ، ورأت جسد الرجل الميت المؤثر الذي لا تنتهك حرمته ، فاعتراها الشحوب لرؤية الموت ، وكان ما وراء أي تغيير او معرفة ، مطلقا ، على انسجام مع اللانهائي . ما علاقتها به ؟ كان تجريدا مهيبا ، جُعل ظاهرا الآن لحظة ، لا تنتهك حرمته مطلقا . ومن يستطيع ان يطالبه بشيء ، من يستطيع ان يتحدث معه ، عنه ذلك الذي تجلى في لحظة التحول العارية من الحياة الى الموت ؟ لا أحياء او أموات بمقدورهم أن يطالبوه ، كان هو الواحد والآخر ، لا تنتهك حرمته ، كان نفسه على نحو لا يمكن الوصول إليه .

قالت ليديا برانغوين وقلبها بارد ، مدركة وحدتها :

ـ لقد تقاسمت الحياة معك ، وأنا أعود بطريقتي الخاصة الى الأبدية .

وقالت آنا برانغوين مروعة تكاد أن تكون سعيدة :

ـ لم أعرفك في الحياة ، فأنت ماوراء فهمي . أنت فخم الآن في الموت .

وكان الأولاد هم الذين لم يستطيعوا تحمل الأمر . إذ ظل فريد برانغوين يتجول بوجه منشده أبيض شاحب ، ويدين مغلقتين ، قلبه ممتلئ بالكراهية والغضب لما حدث لوالده ، نازفا كذلك الرغبة في أن يحصل على أبيه مرة أخرى ، كي يراه ويسمعه من جديد . ولم يكن بمقدوره أن يتحمل الأمر .

لم يصل توم برانغوين إلا يوم الجنازة ، وكان هادئا ومسيطرا مثل ما كان دائما . قبّل أمه التي لم تزل متجهمة الوجه غامضة ، وصافح اخوته دون أن ينظر اليهم . ورأى التابوت الكبير بمقابضه السود ، بل حتى قرأ الاسم عليه : « توم برانغوين من حقل مارش ، ولد... وتوفي.. » .

تغضن وجه الشاب الوسيم الساكن لحظة ، في تكشيرة فظيعة ، ثم استعاد سكونه حمل التابوت الى الكنيسة ، وقرع ناقوس الجنازة قرعاً متقطعاً ، وحمل المشيعون أكاليلهم من الزهور البيض .

وسارت الأم البولونية بوجه معتم منذهل ، مستندة على ذراع ابنها . كان وسيم الطلعة ، مثل ما كان دائما ، وكان وجهه ساكنا تماما ، ودودا بطريقة ما . وسار فريد مع آنا ، وكانت غريبة فاتنة ، وكان وجهه كالخشب ، صلبا ، جامدا .

بعد ذلك حسب ، رأت اورسلا ، وهي تتنقل بين أشجار الكشمش في الحديقة ، خالها توم ، يقف في ملابسه السود ، منتصبا وأنيقا ، بيد أن قبضتيه كانتا مرفوعتين ، ووجهه مشوها ، وشفتاه مجعدتين بعيدا عن أسنانه في تكشيرة مريعة ، مثل حيوان يكشر ألماً ، بينما كان جسده ينبض بسرعة مثل كلب يلهث . كان يواجه الفراغ لاهثا ، ثم يسكن ليلهث بعد ذلك ، بسرعة مرة أخرى ، بيد أن وجهه لم يكن ليتغير أبدا من نظرة العذاب التي تكاد أن تكون وحشية . كانت كل أسنانه بارزة ، والأنف مجعد نحو الأعلى ، والعينان لا تريان ؛ ثابتتين

ابتعدت اورسلا مرعوبة ، وعندما عاد خالها توم الى البيت مرة أخرى ، كان حزينا وهادئا جدا ، لدرجة بدا معها وكأنه يتصنع الوقار ، ويتظاهر بالحزن . راقبت وجهه الساكن الوسيم ، متخيلة إياه في تشوهه مرة أخرى ، بيد أنها رأت الأنف سميكا بعض الشيء ، روسيّا تقريبا تحت جلده الشفاف ، وتذكرت الأسنان تحت الشارب المقرم بعناية ؛ كانت صغيرة وحادة ومتباعدة .

كان باستطاعتها أن تراه في كل سلوكه الأنيق ، بهيميا ؛ فاسدا تقريبا ، فتملكها الرعب . ولم تنس أن تنظر الى جانبه البهيمي المرعب بعد ذلك أبدا .

قال لأمه : وداعا وذهب في الحال ، وانكمشت اورسلا من قبلته تقريبا الآن ، ومع ذلك ، أرادتها أيضا ، وذلك الرفض الطفيف أيضا .

أثناء الجنازة وبعدها ، كان ويل برانغوين مجنونا بحب زوجته . لقد هزَّه الموت ، بيد أن الحب ، وكل شيء على ما يبدو ، قد تجمع في داخله ، متحولا الى هوى مجنون ، متغلب لزوجته . كانت تبدو غريبة فاتنة جدا ، وكان مستشيطا تقريبا ، في رغبته فيها وأخذته ، وبدت مستعدة له ، وأرادته .

وبقيت الجدة في بيت السرو حتى أعيد ترميم حقل مارش ، بعدها عادت الى غرفتها هادئة ، كأنها لا تريد شيئا . رمى فريد نفسه في إعادة إصلاح الحقل ، إذ أن كون والده قد قتل هناك ، جعل مكانه أكثر حميمية وحتمية .

كان ثمة قول مفاده أن آل برانغوين يموتون دوما ميتة عنيفة ، وبدا ذلك لهم جميعا باستثناء توم أمرا طبيعيا تقريبا ومع ذلك ، ظل فريد يتجول معاندا ، جامد القلب ، ولم يستطع أبدا أن يغفر للمجهول ، هذا الذي قتل والده .

بعد موت الأب ، أصبح حقل مارش هادئا جدا ، وكانت السيدة برانغوين مضطربة ، فلم يكن بمستطاعها أن تجلس طوال المساء بسلام مثل ما كانت تفعل من قبل ، وكانت ترفع دائما أثناء النهار قدميها وتتردد ، كما لو أنها يجب ان تذهب الى مكان ما ، ولا تعرف وجهتها على وجه التحديد ، حتى أنها شوهدت تتسكع في الحديقة ، مرتدية سترتها الصوف الصغيرة ، وكانت غالبا ما تشاهد وهي تتجول في العربة ، جالسة الى جانب ولدها ، تراقب المزارع او شوارع المدينة ، بوجه طفولي صريح موحش ، كما لو أن كل شيء كان غريبا عليها .

وكانت الفتيات اورسلا وغدرون وتيريزا يجتزن بوابة الحديقة في طريقهنَّ الى المدرسة ، وكانت الجدة تناديهنَّ في كل مرة يمررن بها ، وتدعوهنَّ لتناول الغداء في حقل مارش . كانت تريد أطفالا من حولها ، كانت خائفة تقريبا من أولادها ، إذ كان بمقدورها أن ترى الهوى الكئيب ، والرغبة وعدم الرضا فيهم . ولم تكن تريد أن ترى ذلك فترة أطول ، وحتى فريد بعينيه الزرقاوين وفكه الثقيل ، كان يزعجها . لم يكن ثمة سلام ، وكان يريد شيئا ما ، كان يريد الهوى والحب ، ولم يكن بمستطاعه ان يجدهما . لكن لماذا يجب أن يزعجها ؟ لماذا يجب عليه ان يأتي اليها باهتياجه ومعاناته وعدم رضاه ؟ إنها كبيرة السن جدا . أما توم فكان أكثر تحفظا وتكتما ، وأبقى جسده ساكنا جدا ، لكنه كان يزعجها أكثر . لم يكن بمقدورها إلا أن ترى اعماق التفكك السود في عينيه ؛ النظرة المفاجئة التي يلقيها عليها ، كما لو أن باستطاعتها ان تنقذه ، كما لو أنه سوف يكشف نفسه .

وأنى للشيخ الهرم أن ينقذ الشباب ؟ الشباب يجب أن يذهب الى الشباب . العاصفة دائما! أليس بمقدورها أن تسترخي بسلام ، هذه السنوات في جزء معزول هادئ من الحياة ؟

فالموجة يجب أن تحوم من حولها دائما ، وتتحطم على الحواجز يجب عليها أن تتورط دائما في الا هتياج والغضب والهوى الى المالانهاية ، الى المالانهاية ، مستمرة الى الأبد .

وكانت تريد أن تنسحب بعيدا . أرادت في النهاية براءتها وسلامها ، ولم ترد أن يفرض عليها أولادها فترة أطول قصة الرغبة والتضحية القاسية القديمة والغضب المكنون في أعماق الرجال غير المشبعين ضد النساء أرادت أن تكون ما وراء كل هذا ، أن تعرف سلام الشيخوخة وبراءتها .

لم تكن امراة من النوع الذي يكدح كثيرا ، لذلك كانت تقف غالبا عند بوابة الحديقة ، تراقب العالم الضئيل يمر من أمامها ، وكانت رؤية الأطفال تسرها ، وتجعلها سعيدة ، وكانت تحتفظ عادة في جيبها بتفاحة او بعض الحلوى ، وكانت تحب أن يبتسم الأطفال لها .

لم تزر أبدا قبر زوجها ، وكانت تتحدث عنه ببساطة كما لوكان حيا يرزق . وفي بعض الأحيان ، كانت الدموع تنهمر على وجهها في حزن يائس ، ومن ثم ، كانت تتمالك نفسها وتستعيدها مرة أخرى ؛ سعيدة .

وفي الأيام الممطرة ، كانت تبقى في الفراش ، وكانت غرفة نومها هي ملجأها حيث كان بمستطاعها أن تضطجع وتتأمل . وفي بعض الأحيان ، كان فريد يقرأ لها ، بيد أن ذلك لم يكن يعني الكثير لها ، فلديها الكثير من الأحلام كي تحلم بها . كانت مخزنا لا ينضب ، وكانت تحتاج الى الوقت .

كانت اورسلا صديقتها الأثيرة في تلك الفترة ، إذ بدا أن الطفلة الصغيرة وامرأة الستين الهشة المستغرقة تفهمان اللغة نفسها . ففي كوسثي ، كان كل شيء حيوية وهوى . وكان كل شيء يتحرك حول أقطاب الهوى . ثم كان هناك ، أربعة أطفال أصغر من اورسلا ؛ حشد من الأطفال ، فكان هناك طوال الوقت العديد من الحيوات التي تنبض متقابلة .

لذلك كان سلام غرفة الجدة بالنسبة للطفلة الكبرى رائعا ، إذ كانت اورسلا كأنما تجيء الى أرض نعيم ساكنة ، فهناك يصبحُ وجودها بسيطا رائعا كما لو أنها زهرة .

كانت تجيء الى حقل مارش أيام الآحاد دائما ، ممسكة دائما بهدية صغيرة ، قد تكون قطعة صغيرة مصنوعة من شرائط من ورق ملون مجدول ، او سلة صغيرة مصنوعة في روضة الأطفال او رسم صغير لعصفور .

عندما كانت تظهر في المدخل ، كانت تيلي العجوز ، التي ماتزال في موقع السلطة تمد عنقها المجعد لتستطلع من يكون القادم ، وكانت تقول :

ـ اوه ، أهذه أنت أليس كذلك ؟ اعتقدت أننا سنراك ، اوه ، يا إلهي ، إنها لزهرة تخطف البصر تلك التي جلبتِها!

وكان أمرا غريبا كيف احتفظت تيلي بروح توم برانغوين الذي كان ميتا في حقل مارش ، وكانت اورسلا تربطها دوما مع جدها .

وفي ذلك النهار ، كانت الطفلة جلبت باقة صغيرة من الورد البنفسجي والأبيض أحيطت حافتها بورود بنفسجية ، وكانت مزهوة كثيرا بها ، وكانت خجلى من زهوها بها

ـ جدتك في فراشها ، امسحي حذاءك جيدا ، إن كنت ستصعدين إليها ، ولا تندفعي عليها مثل صاروخ سمائي ، يا إلهي ، لكن هذه وردة رائعة ، هل صنعت كل شيء بنفسك ، كل شيء ؟

أدخلتها تيلي خلسة الى غرفة النوم ، ودخلت الطفلة بتردد غريب ، وهي تسحب رجليها ، وكان ذلك من سماتها ، عندما تمشي كانت جدتها جالسة في الفراش ، مرتدية سترة صوفية رمادية صغيرة . ترددت الطفلة بصمت قرب السرير ، ممسكة باقة الورد أمامها ، وكانت عيناها الطفوليتان تشرقان ، وأشرقت عينا الجدة الرماديتان ببريق مشابه وقالت لها :

ـ يا لجمالها! يا لجمال ما صنعتِ! أية باقة صغيرة رائعة!

دفعتها اورسلا متوهجة في يد جدتها قائلة :

ـ صنعتها لك .

ـ هذه هي الطريقة التي يربطها بها المزارعون في بلادي .

قالت الجدة ذلك ، دافعة الزهور البنفسجية بأصابعها ، وهي تستنشقها قائلة : يا لها من باقة صغيرة مزدحمة! وهم يصنعون منها أكاليل لشعورهم ، فهم يجدلون السيقان ، ويتجولون والأكاليل في شعورهم ، ويرتدون أفضل مآزرهم .

وتخيلت اورسلا نفسها في الحال في أرض القصة هذه

ـ هل كنت معتادة على وضع إكليل في شعرك يا جدتي ؟

ـ عندما كنت طفلة صغيرة ، كان شعري ذهبيا ، شيئا يشبه شعر كاتي ، وكنت عندئذ أضع إكليلا من ورود زرق صغيرة ، اوه ، شديدة الزرقة ، كانت تزهر عندما يختفي الجليد ، وكان أندري ، سائق العربة معتادا على أن يجلب لي أولى الزهور .

ظلتا تتحدثان ، ثم جلبت تيلي صينية الشاي ؛ طقما لإثنين ، وكان لأورسلا كوب ذهبي وأخضر خاص ، احتفظ به لها في حقل مارش ، كما كان هناك خبز رقيق وزبد وحبات هال في الشاي . كان كل شيء خاصا ورائعا . أكلت بتلذذ شديد ، وبلقيمات متأنقة .

ـ لماذا ترتدين خاتمي زواج يا جدتي ؟ أيجبُ عليكِ أن تفعلي ذلك ؟

سألت الطفلة وهي تنظر الى يد جدتها ذات اللون العاجي بعروقها الزرق فوق الصينية

ـ كنت تزوجت مرتين يا طفلتي .

تأملت اورسلا لحظة :

ـ أيجب عندها أن ترتدي الخاتمين معا .

ـ بلى .

ـ أيهما خاتم جدي ؟

ترددت المرأة :

ـ هذا الجد الذي تعرفينه ؟ هذا كان خاتمه ؛ الأحمر أما الأصفر فهو خاتم جدك الذي لم تعرفيه قط .

نظرت اورسلا باهتمام الى الخاتمين على الإصبع المعروض أمامها وسألتها :

ـ من أين اشتراه لك ؟

ـ هذا الخاتم ؟ من وارشو على ما أعتقد .

ـ لم تكوني تعرفين جدي عندئذ

تأملت اورسلا هذه الفكرة المدهشة :

ـ هل كان شعر لحيته أبيض أيضا ؟

ـ كانت لحيته سوداء ، ولقد ورثتِ حاجبيه على ما أعتقد .

توقفت اورسلا عن الكلام ، وبدأت تفكر في نفسها . وفي الحال شخصت نفسها مع جدها البولوني :

ـ وهل كانت عيناه بُنيتين ؟

ـ نعم ، عينان غامقتان . كان رجلا ذكيا ، سريعا مثل أسد ، ولم يكن ليهجع أبدا .

كانت ليديا ماتزال ساخطة على لينسكي وعندما كانت تفكر فيه ، كانت دائما أصغر عمرا منه . كانت هي دائما في العشرين او الخامسة والعشرين ، وتحت سيطرته . لقد ضمها الى أفكاره ، كما لو أنها لم تكن شخصا لنفسها ، كما لو أنها مجرد مرافقته او جزءاً من حقائبه ، او إحدى معداته الجراحية . كانت ماتزال ساخطة عليه ، وكان هو دائما في الثلاثين من عمره حسب ؛ وكان قد مات في سن الرابعة والثلاثين ، ولم تشعر بالأسف من أجله ، إذ كان اكبر سنا منها ومع ذلك ، كانت تتوجع في أفكار تلك الأيام .

وسألتها أورسلا :

ـ هل كنت تحبين جدي الأول ؟

وردت الجدة :

ـ لقد أحببتهما كليهما .

ثم فكرت أنها أصبحت عروس لينسكي الطفلة مرة أخرى كان من عائلة طيبة أفضل حتى من عائلتها لأنها كانت نصف المانية . كانت شابة في بيت ذي ثروة غير مضمونة ، وكان هو جراحا ذكيا ومثقفا وطبيبا ، وقد احبها ، يا لله! كم كانت تجله . تذكرت استغراقاتها الأولى عندما تحدثت معه ؛ الرجل الشاب المهم ذا اللحية السوداء الصارمة . لقد بدا رائعا جدا ، وذي وجاهة ، فبالمقارنة مع أهل بيتها المنحلين ، كان وقاره وثقته بنفسه وسلطته الجافة ، جعلته يبدو وكأنه إله في نظرها ، لأنها لم تعرفها أبدا في حياتها ، إذ كان كل ما يحيط بها سائبا ، منحلا ، لامرئيا ، مضطربا .

ـ آنسة ليديا ، هل تتزوجينني ؟

سألها باللغة الألمانية بصوته الحزين المرتجف . كانت خائفة من نظرات عينيه المظلمتين عليها ، فلم تكونا تريانها بل كانتا مثبتتين عليها . وكان صلبا واثقا ، ولقد دهشت من الإثارة ، ووافقت . وأثناء الخطوبة ، كانت قبلاته بمثابة المعجزة بالنسبة إليها . ولم تكن راغبة في أن ترد له قبلاته . ففي تصورها ، كان الرجل هو الذي يقبل ، بينما تتفحص المرأة في روحها القبل التي تحصل عليها .

لم تشف أبدا من تعبها معه خلال أيام الزواج الأولى أو لياليه كان اصطحبها معه الى فيينا ، وكانت وحيدة تماما معه ؛ وحيدة تماما في عالم آخر . كان كل شيء غريبا ، كل شيء غريب حتى هو كان غريبا عليها . بعدها جاء الزواج الحقيقي وتملكها الهوى ، وأصبحت عبدته وكان هو سيدها ، سيدها . كانت العروس الصغيرة العبدة ، قبلت قدميه ، وكانت تعده بمثابة شرف بالنسبة إليها أن تلمس جسده ، أن تفك أشرطة حذائه . وطوال سنتين ظلت كأنها عبدته ، جاثمة عند قدميه ، محتضنة ركبتيه .

وولد الأطفال ، وتبع هو افكاره ، وكانت هناك من أجله ، كي تبقيه على ما يرام حسب كانت له ، أحد الظروف الأساسية او المادية الضرورية لراحته ، في صيانة أفكاره عن الوطنية والحرية والعلم ، بيد انها ابتدأت تدريجا في سن الثالثة او الرابعة والعشرين ، تدرك انها يجب ان تفكر ايضا في تلك الأفكار ، فبقبوله بدونيتها ، استنفد الإحساس في داخلها . كان هناك بعض شركاه الذين كانوا يناقشون أفكاره معها ، رغم أنه لم يكن يرغب في أن يفعل ذلك بنفسه ، لذلك غامرت في أذهان الرجال الآخرين ، وعندها أدركت أن ذهنه لم يكن الذهن الذكوري الوحيد ، وأنها لم تكن توجد إلا كأحد روافده . وابتدأت تعي اهتمام الرجال الآخرين ، وتملكها الدهش ، وتذكرت الآن الرجال الذين غازلوها عندما كانت متزوجة في وارشو

بعدها انطلق التمرد ، وقد أثيرت هي ايضا ، فانخرطت كممرضة الى جانب زوجها ،

وكان يعمل مثل أسد مضحيا بحياته ، وتبعته يائسة ، بيد أنها لم تعد تؤمن به كان منفصلا تماما ، ولقد أهملها كثيرا ، إذ كان يعتمد كثيرا على نفسه . ولم يكن ثمة شيء آخر يهم غير عمله وأفكاره . بعدها مات الأطفال ، وأصبح كل شيء نائيا في نظرها ، واصبح هو نائيا أيضا . رأته ، رأته يشحب عندما سمع الأخبار ، ثم قطب ، كما لو أنه كان يفكر ، لماذا لم يموتوا الآن عندما توفر لدي الوقت للحزن .

وقالت في حينها بروحها النائية المروعة :

ـ ليس لديه وقت للحزن ، إذ أن ما يفعله لمهم جدا .

كان مهماً جدا في اعتقاده ، هذا الرجل شبه المسعور! لا شيء يهم ، سوى أعمال التمرد حسب . لم يكن لديه وقت ليحزن او يفكر في أطفاله ، ليس لديه وقت حتى كي يحبهم حقا!

وتركته يمضي وحيدا ، لكن في أثناء الفوضى عملت الى جانبه مرة أخرى . ومن الفوضى ، هربت معه الى لندن . كان عندئذ ، رجلا مهزوما باردا ، ولم يكن يشعر بالحب تجاهها او تجاه أي شخص آخر . لقد فشل في عمله ، لذلك فشل كل شيء فتصلّب ومات .

لم يكن بمقدورها أن تقر بذلك ، لقد فشل وفشل كل شيء . ومع ذلك ، كان خلف ذلك الفشل هوى الحياة الذي لا يلين ، وقد يفشل جهد المرء ، لكن ليس المتعة البشرية . وكانت تنتمي الى المتعة البشرية . لقد مات وذهب في حال سبيله ، لكن ليس قبل أن يكون هناك طفل آخر ، وهذه الصغيرة اورسلا هي حفيدته ، وهي سعيدة بذلك لأنها ماتزال تجله ، رغم أنه كان مخطئا .

وكانت هي ، ليديا برانغوين آسفة بشأنه الآن . كان ميتا ولم يعش إلا لماما ، ولم يعرفها قط ، ولم يأخذ أبدا ما كان بمستطاعها أن تمنحه له . لقد ذهب عنها خالي الوفاض ، لذلك فهو لم يعش أبدا . لقد مات ومضى ، ومع ذلك كانت ثمة قدرة وقوة فيه .

لم يكن بمستطاعها إلا بالكاد أن تغفر له لأنه لم يعش أبدا . فإن لم يكن ذلك من أجل آنا ، ولا من أجل اورسلا الصغيرة التي ورثت حاجبيه ، فإنه لن يتبقى منه أكثر من جرة محطمة مرمية ، تذكر حسب .

لقد خدمها توم برانغوين . جاء إليها وأُخذ منها . لقد مات وذهب الى الموت ، بيد أنه جعل نفسه أبديا من خلال معرفته معها ، وبذلك أصبح لها مكان هنا ؛ في الحياة ، وفي الأبدية ، لأنه أخذ معرفته بها الى الموت ، لذلك فإن لها مكانا في الموت : « إنَّ في بيت أبي منازل كثيرة »* .

---

* إنجيل يوحنا ، الفصل الرابع عشر ، الآية الثانية .

لقد أحبت كلا زوجيها ، فلأحدهما كانت عروسة صغيرة ، عارية تركض كي تخدمه ، وأحبت الآخر بسبب إرضائه لها ، لأنه كان طيبا ، وأعطاها كيانها لأنه خدمها بشرف ، وأصبح رجلها ، أصبح واحداً معها .

لقد نشأت في قطعة الحياة هذه ، وعادت الى نفسها في أثناء زواجها الأول لم تكن موجودة أبدا إلا من خلاله ، فلقد كان هو المادة ، وهي الظل الراكض عند قدميه . ولقد كانت فرحة جدا لأنها عادت الى نفسها ، وكانت ممتنة لبرانغوين ، واشرأبت إليه بالعرفان في موته .

وفي قلبها أحست برقة ورثاء غامضين لزوجها الأول الذي كان سيدها . وكان مخطئا جدا عندما مات . لم تستطع تحمل الأمر ، من أنه لم يعش ابدا ، ولم يصبح نفسه أبدا . وكان سيدها . أمر غريب كل ذلك الذي كان لماذا كان سيدها ؟ إنه يبدو الآن بعيدا جدا دون أن يثقلها .

ـ أيهما يا جدتي ؟

ـ ماذا ؟

ـ أحببت أكثر ؟

ـ أحببتهما كليهما . لقد تزوجت الأول عندما كنت فتاة يافعة ، وبعدها أحببت جدك عندما أصبحت امرأة ، وثمة فرق .

وصمتتا بعض الوقت ، ثم سألتها الطفلة :

ـ وهل بكيت عندما مات جدي الأول ؟

هزت ليديا برانغوين نفسها على السرير ، وهي تفكر بصوت عال .

ـ عندما وصلنا الى انكلترا لم يكن يتحدث إلا لماما ، وكان مهموما جدا كي يلحظ وجود أي شخص ، وابتدأ يهزل تدريجا حتى تجوف خداه وبرز فمه ، ولم يعد وسيما مثل ما كان . وكنت أعرف أنه لن يستطيع تحمل الهزيمة ، واعتقدت أن كل شيء في العالم قد ضاع ، ولم يكن عندي سوى أمك التي كانت رضيعا ، ولم تكن ثمة فائدة من الموت

نظر إلي بعينيه السوداوين ، كما لو أنه كان يكرهني تقريبا عندما كان مريضا ، وقال : وكأن الأمر يحتاج الى ذلك ، وكأن الأمر يحتاج الى أن أتركك أنت والطفلة الصغيرة كي تجوعا في لندن هذه . أخبرته أننا لن نجوع ، بيد أني كنت شابة وحمقاء وخائفة ، وهي أمور كان يدركها .

كان يشعر بالمرارة ولم يستسلم أبدا ، بل اضطجع يقدح عقله ، كي يرى ما بمقدوره أن يفعل ، وكان يردد : لا أعرف ما الذي ستفعلينه ، أنا لست جيدا ، أنا فشل من البداية حتى النهاية ، أنا حتى لا أستطيع أن أعيل زوجتي وطفلتي!

لكن كما ترين لم يكن مطلوبا منه أن يعيلنا . استمرت حياتي رغم توقف حياته ، وتزوجت جدك . كان المفروض أن أعرف ، كان المفروض أن اكون قادرة على أن أقول له لا تشعر بالمرارة ، لم تمت لأنك فشلت ، لست البداية والنهاية ، بيد أني كنت صغيرة جدا ، وهو لم يدعني أبداً أصبح نفسي ، واعتقدت حقا أنه البداية والنهاية ، لذلك تركته يتحمل وزر كل شيء . ومع ذلك ، لم يعتمد كل شيء عليه ، فالحياة يجب أن تستمر ، وأنا يجب أن أتزوج جدك ، وأن ألد خالك توم وخالك فريد . إننا لا نستطيع أن نحمل أنفسنا الكثير من المشقة

نبض قلب الفتاة بسرعة وهي تصيخ السمع لهذه الأشياء . لم تكن تستطيع أن تفهم ، بيد أنها على ما يبدو كانت تستشعر أشياء بعيدة . لقد منحها ذلك دهشة عميقة ممتعة ، دهشة أن تعرف أن ثمة من ينادي عليها من مكان قصي ، من بولونيا ، وذلك الرجل المؤثر ذا اللحية السوداء كان أسلافها غريبي الأطوار ، وأحست بالقدر المزعج من كلا جانبيها .

وفي كل يوم تقريبا ، كانت اورسلا ترى جدتها ، وفي كل مرة كانتا تتحادثان معا حتى تراكمت أقوال الجدة وقصصها التي قصتها عليها في الصمت المطبق بغرفتها في حقل مارش ، واكتسبت أهمية صوفية ، وأصبحت نوعا من الإنجيل بالنسبة للطفلة .

ثم سألت اورسلا جدتها أعمق أسئلتها الطفولية :

ـ هل يحبني شخص ما يا جدتي ؟

ـ الكثيرون يحبونك يا طفلتي ، إننا نحبك جميعا .

ـ ولكن عندما أكبر هل يحبني أحدهم ؟

ـ نعم ، سيحبك رجل ما يا طفلتي ، لأن تلك طبيعتك ، وأتمنى ان يكون رجلا يحبك أنت ، وليس ما يريده منك ، لكن لنا حق في ما نريد .

كانت اورسلا خائفة ، وهي تسمع هذه الأشياء ، وغطس قلبها ، وأحست أن ليس ثمة أرض تحت قدميها ، فتعلقت بجدتها ، فهناك كان السلام والإطمئنان . فهنا في غرفة جدتها الآمنة ، فتح الباب على الكون الأرحب : الماضي الذي كان كبيرا جدا حيث أن كل ما احتواه بدا ضئيلا جدا ، الحب والولادة والموت ، وحدات ومظاهر ضئيلة ضمن أفق شاسع ، وكان تحررا هائلا أن تعرف الأهمية الضئيلة للفرد ضمن الماضي العظيم .

الفصل العاشر

الدائرة المتسعة

كان أمرا شاقا جدا على أورسلا أن تكون كبرى أبناء العائلة . ففي الوقت الذي بلغت فيه سن الحادية عشرة ، كان عليها أن تصطحب الى المدرسة غدرون وتيريزا وكاترين وكان الفتى وليم ، الذي كان يسمى دائما باسم بيلي كي لا يخلط مع والده ، طفلا محبوبا رقيقا بعض الشيء في الثالثة من عمره ، لذلك بقي في البيت في تلك الفترة . وكانت هناك طفلة أخرى اسمها كاسندرا .

ولقد تردد الأطفال بعض الوقت على مدرسة الكنيسة الصغيرة على مقربة من حقل مارش ، إذ كانت المكان الوحيد الذي في متناولهم . ولأنها كانت صغيرة جدا ، فلقد أحست السيدة برانغوين بالأمان عند إرسالها أطفالها الى هناك ، رغم أن صبيان القرية كانوا ينابزون أورسلا باسم (أرلتر) ويطلقون على غدرون «الراكضة الجيدة» ويسمون تيريزا «إبريق الشاي» .

كانت أورسلا وغدرون زميلتي صف واحد . وكانت الطفلة الثانية ، بجسدها الهاجع الطويل وسلسلة خيالاتها التي لا تنتهي منفصلة عن الواقع تماما ، فلم تكن خلقت لها بل لخيالاتها الخاصة . أما أورسلا فهي التي خُلقت للوقائع ، لذلك تركت غدرون كل هذه الأمور الى أختها الكبرى ووثقت بها وثوقا مطلقا ولامباليا . وكانت أورسلا تضمر محبة عظيمة لشقيقتها وزميلتها .

ولم تكن لتجدي نفعا محاولة جعل غدرون تشعر بالمسؤولية ، فلقد كانت تطفو كسمكة على الماء ، مكتملة وسط اختلافها وذاتها . أما أنواع الوجود الأخرى فلم تكن لتزعجها ، ولم تؤمن إلا باورسلا ولم تثق إلا بها .

وكانت الطفلة الكبرى تنوء كثيرا بمسؤوليتها تجاه أخواتها الأصغر ، وخصوصا تيريزا التي كانت مخلوقة قوية ، جريئة العينين ، ولها القدرة على القتال .

ـ لقد جرَّ بيلي بيلنز شعري يا أورسلا .

ـ ماذا قلتِ له ؟

ـ لم أقل شيئا .

عندها تكون فتيات آل برانغوين في عداء مع صبيان آل بيلينز أو آل فيليبس .

وكانت تيريزا تقول وهي تمشي مع شقيقاتها وتنظر من علٍ الى الطفل المنمش ذي الشعر الأحمر :

ـ لن تسحب شعري مرة أخرى يا بيلي بيلنز .

فيرد بيلي بيلنز بحدة :

ـ ولم لا أفعل ؟

فترد تيريزا الضجرة قائلة :

ـ لن تفعل ، لأنك لن تتجرأ على فعل ذلك .

ـ إذن تعالي الى هنا يا إبريق الشاي وقولي إني لن أتجرأ على فعل ذلك .

عندها تتقدم إبريق الشاي ، وفي الحال ، يسحب بيلي بيلنز خصلاتها الأفعوانية الشكل . وفي فورة غضب تندفع نحوه ، وتصطدم في الحال ، أورسلا وغدرون وكاتي الصغيرة مع صبيان آل فيليبس الآخرين ؛ كلم وولتر وأدي وأنطوني ، وبعدها يحدث شجار . وكانت بنات آل برانغوين فارعات العود وأقوى من العديد من الصبيان ، ولولا الثياب الفضفاضة والشعور الطويلة لكن قد حققن نصرا سهلا ، وكنَّ مع ذلك ، يعدن الى البيت بشعر منكوث وثياب ممزقة وكان أمرا ممتعا لصبيان آل فيليبس أن يمزقوا ثياب فتيات آل برانغوين .

ويلي ذلك صياح ، ولن تقبل السيدة برانغوين بهذا ، لا ، لن تقبل به . وعندها تثار كل كرامتها التي جُبلت عليها وكل تفردها عندها يقول القس وهو يحاضر في المدرسة « إنه لأمر محزن أن صبيان كوسثي لا يحسنون التصرف كرجال نبلاء تجاه فتيات كوسثي ترى أي نوع من الصبيان هذا الذي يتعرض لفتاة ويركلها ويضربها ويمزق تنورتها ؟ إن ذلك الصبي ليستحق عقابا شديدا ، وان يطلق عليه لقب الجبان ، ذلك لأن الصبي الجبان » . الخ الخ .

في تلك الأثناء يكون هنالك الكثير من الغضب المخبوء في قلوب صبيان آل فيليبس والكثير من الفضيلة في قلوب فتيات آل برانغوين ، وخصوصا في قلب تيريزا ، ويستمر النزاع تتخلله فترات من الصداقة الأستثنائية ، عندما كانت أورسلا محبوبة أدي أنطوني وغدرون محبوبة ولتر وتيريزا محبوبة بيلي ، وحتى الصغيرة كاتي كانت محبوبة أدي أنطوني . عندها حدث الاتحاد الأشد حميمية في كل لحظة ممكنة ، كانت العصابة الصغيرة

المكونة من آل برانغوين وآل فيليبس تجري معا . ومع ذلك ، لم يكن بمستطاع أورسلا ولا غدرون أن تشعر بأية حميمية تجاه صبيان آل فيليبس ، إذ كان هذا التحالف والحب المريب نوعا من الخيال .

ومرة أخر ى ثارت السيدة برانغوين :

ـ لن أسمح لك أن تتجولي في الطرقات مع الصبيان ، لذا آمركِ أن تتوقفي عن ذلك الآن وسيتوقف الآخرون .

كم كرهت أورسلا أن تمثل مجموعة آل برانغوين الصغار ، فهي لا تستتطيع أبدا أن تكون بمفردها ، إذ كانت دائما أورسلا ـ غدرون ـ تيريزا ـ كاترين ، بل وحتى أُضيف اليها أسم بيلي لاحقا . والأكثر من ذلك ، أنها لم تكن تريد آل فيليبس أيضا ، فلم تكن لتستسيغهم .

ومع ذلك ، سرعان ما انفصمت عرى اتحاد ـ برانغوين ـ فيليبس بسبب تفوق آل برانغوين المتعسف . إذ كان آل برانغوين أغنياء ، وكانت لهم حرية التصرف في حقل مارش ، وكان معلمو المدرسة يحترمون الفتيات كثيرا ، وكان القس يعاملهن معاملة الند ، لذلك تجرأت الفتيات ورفعن رؤوسهن .

فقال كلم فيليبس وقد تورد وجهه كثيرا :

ـ إنكِ لستِ من عاج يا التر برانغوين ، أيتها الكوب القبيح .

وردت أورسلا بحدة :

ـ أنا أفضل منك بسبب ذلك .

ـ تظنين نفسك على هذا النحو بوجه كهذا ، أيتها الكوب القبيح ، يا التر برانغوين .

ثم راح يسخر منها محاولا أن يثير الآخرين في الصراخ ضدها ، وعندها حل العداء مرة أخرى . كم كرهت سخريتهم ، وأصبحت باردة المشاعر تجاه صبيان آل فيليبس ، فلقد كانت أورسلا فخورة جدا بعائلتها ، إذ كانت لفتيات برانغوين كل تلك الكرامة العمياء ، بل حتى نوع من النبالة في سيمائهنّ . ونتيجة للتناسل أو التربية ، بَدَوْنَ وكأنهن يندفعن في حيانهنّ دون أن يشعرن أنهنّ موجوداتٌ بالنسبة الى الآخرين . فلم يخطر ببال أورسلا أبدا منذ البداية ، أن الآخرين يمكن أن يكون لهم انطباع سيئ عنها . لقد ظنّت أن أيما شخص يعرفها ، يُدرك أنها مكتفية ويقبلها كما هي ظنّت أن عالم البشر مثل نفسها ، وكانت تعاني بمرارة لو أنها أُجبرت على أن تسيء الظنّ بأي شخص ، وهي لن تغفرَ لذلك الشخص أبدا .

وكان ذلك أمرا كاد يفقد العديدين من الناس الصغار صوابهم فطوال حياتهم ، كان آل برانغوين يلتقون بقوم يحاولون جرهم نحو الأسفل كي يجعلوهم يبدون صغارا والغريب أن الأم كانت على بينة مما يجري ، وكانت مستعدة دائما لأن تمنح أولادها فائدة الانتقال .

عندما بلغت أورسلا الثانية عشرة ، وابتدأت المدرسة المشتركة ومرافقة أطفال القرية ، وابتدأ البخل والحسد يؤثران فيها ، أرسلتها آنا الى مدرسة ثانوية في نوتنغم ، وكان ذلك بمثابة تحرر عظيم بالنسبة لأورسلا ، إذ كان يعتريها توق حنون للهرب من ظروف الحياة التي تصغّر المرء ؛ أحاسيس الغيرة الصغيرة والخلافات التافهة والوضاعة الطفيفة . كان تعذيبا لها أن يكون آل فيليبس أفقر منها وأكثر وضاعة ، وأن يستغلوا إضمارات وضيعة ضئيلة ، ويحصلوا على فوائد دنيئة صغيرة . أرادت أن تكون مع أقرانها ، ولكن دون أن تصغّر نفسها . لقد أرادت أن يكون كلم فيليبس ندّا لها فعلا . ولكن بفعل قدر محير مؤلم أو آخر ، عندما يكون معها حقا ، فأنه يولد فيها إحساسا بالضيق في رأسها ، وكانت تود لو تضرب جبينها ؛ أو تهرب .

ثم اكتشفت أن طريق الهروب سهلة . أن يغادر المرء الظروف كلها . أن يذهب المرء الى المدرسة الثانوية ويترك المدرسة الصغيرة والمعلمين النحيفين وصبيان آل فيليبس الذين حاولت أن تحبهم بيد أنهم جعلوها تفشل في مسعاها ، والذين لا تستطيع أن تغفر لهم كان لديها خوف غريزي من الناس الخسيسين مثل ما يخاف الغزال من الكلاب . ولأنها كانت عمياء ، لم تستطع أن تقدر أو تقيّم الناس . كان لابد أن تظن أن الآخرين يشبهونها .

كانت تقيس بمقاييس ناسها : أمها وأبيها وجدتها وخالها . إذ كان والدها المحبوب بسيطا تماما في مسلكه رغم روحه القوية المظلمة الثابتة كالجذر في أعماق لا غور لها مما كان يدهشها ويرعبها . وأمها التي كانت متحررة تماما من تأثير النقود والتقاليد والخوف ؛ لا مبالية تماما تجاه العالم ، واقفة وحدها دون إرتباط . وجدتها التي وفدت من مكان ناء ، فتمركزت في مثل ذلك الأفق الواسع إن على الناس أن يرتقوا الى هذه المقاييس قبل أن يصبحوا ناس أورسلا .

لذلك فإنها عندما كانت فتاة في الثانية عشرة من عمرها ، كانت سعيدة أن تفجّر حدود كوسثي الضيقة حيث لا يعيش إلاّ عدد محدود من البشر . وفي الخارج ، كان هناك كل هذا الاتساع وحشد هائل من الناس الحقيقيين المزهوين الذين يمكن أن نحبهم .

ولأنها كانت تذهب الى المدرسة بالقطار ، فلقد كان عليها أن تغادر البيت الساعة الثامنة إلاّ ربعا ، ولا تعود ثانية حتى الخامسة والنصف مساء ، وكانت سعيدة بهذا ، لأن البيت كان صغيرا ومكتظا كان عاصفة من الحركة ولم يكن مهرب . ولقد كرهت أن تكون في موقع المسؤولية

كان البيت عاصفة من الحركة ، إذ كان الأطفال أصحاء متمردين ، ولم يكن يهمّ الأم سوى عافيتهم الحيوانية . ولقد تحول الأمر بالنسبة لأورسلا ، كلما تقدمت في السن قليلا الى كابوس . وعندما شاهدت بعد ذلك لوحة لريوبن* تمثل حشودا من أطفال عراة ، واكتشفت أنها تسمى «الإخصاب» ، ارتجفت وأصبحت الكلمة حقيقية بالنسبة لها . وعرفت كطفلة ماذا يعني أن تعيش وسط حشد من الأطفال في حرارة الإخصاب وعرقه . وكطفلة كانت ضد أمها ؛ ضد أمها بصورة منفعلة ، وكانت تتوق لبعض الروحانية والوقار

وفي الأيام الممطرة ، كانت الفوضى تسود البيت ، فالأطفال يندفعون خارجين تحت المطر ، الى البرك الصغيرة الموحلة تحت أشجار السرو الكئيبة عبر أرضية المطبخ الحجرية المبللة . وبينما كانت الخادمة تتذمر وتوبخ ؛ كان ثمة أطفال يحتشدون على الأريكة ، وأطفال يقرعون البيانو في الشرفة فيرنُّ مصدرا صوتا شبيها بقفير نحل ، وأطفال يتدحرجون على سجادة الموقد ؛ سيقان مرتفعة في الهواء ، يمزقون بينهم كتابا الى نصفين ، أطفال شياطين موجودون في كل مكان ، يتسللون الى الطابق الأعلى كي يبحثوا عن أورسلا ، يتهامسون عند أبواب غرف النوم ، يتلكأون عند مزلاج الباب ، هاتفين بطريقة غريبة «أورسلا ، أورسلا» منادين الفتاة التي أغلقت الباب على نفسها كي تقرأ ، وكان الأمر ميؤوسا منه ، إذ كان الباب المقفل يثير إحساسهم بالغرابة ، وكان عليها أن تفتحه كي تبدد الإغراء ، فلقد كان أولئك الأطفال يتلكأون قربها بأسئلة مثيرة وعيون متسعة

ولقد ازدهرت الأم وسط كل هذا إذ كانت تردّد

ـ من الأفضل أن يكونوا صاخبين على أن يكونوا مرضى .

بيد أن الفتيات الكبيرات ابتدأن ، بدورهن ، يعانين بمرارة . وكانت أورسلا توشك على الدخول في المرحلة التي تستبدل فيها بحكايات أندرسن وغريم قصائد الملك وقصص الحب العاطفية .

---

* ربوس ، السر بيتر بول (١٥٧٧ ـ ١٦٤) رسام فلمنكي اشتهر برسمه للصور الشخصية ولوحاته ذات المواضيع الأسطوريه والدينيه (المترجم)

إيلين الشفراء ، إيلين المحبوبة
إيلين عذراء الزنبق في مدينة استولات
عالية في غرفتها في البرج الشرقي
تحرس درع لونكيلوت* المقدس

كم أحبته! وكيف اتكأت على نافذة غرفة نومها ، وشعرها الأسود المتطاير على كتفيها ، ووجهها الدافئ المستغرق ، وهي تحملق عبر فناء الكنيسة والكنيسة الصغيرة التي كانت قلعة ذات أبراج ، بينما امتطى لونكيلوت حصانه لتوه ، وسوف يلوح لها عندما يمر بها ، وعباءته القرمزية تلوح خلف أشجار السرو المعتمة وبين الأفق المفتوح ، بينما هي ، آه هي ، ستبقى العذراء الوحيدة في الأعلى ، معزولة في البرج ، تصقل الدرع المرعب ، وتنسج له غطاء برغبة صادقة ، وتظل تنتظر وتنتظر ، عالية ونائية دائما .

عند تلك النقطة يكون هناك حفيف أقدام على السلالم ، وهمس بنبرة مرتفعة خارج الباب ، وصرير المزلاج ، عندها يهمس بيلي مثارا :

ـ إنه مقفل ، إنه مقفل .

يلي ذلك الطرق والرفس على الباب بركب الأطفال والصراخ الطفولي الملح :

ـ أورسلا يا أختنا ، أورسلا ؟ أوه ، أورسلا .

ولا من مجيب .

ـ أورسلا! أوه ، يا أختنا ؟

عندها يصرخون بالاسم دون مجيب . وتلي الصرخة :

ـ يا أمي إنها لاتجيب ، إنها ميتة!

عندها يأتي صوت الفتاة الغاضبة :

ـ اغربوا ، أنا لست ميتة ، ماذا تريدون ؟

وتأتي الصرخة المشتمية :

ـ افتحي الباب يا أورسلا .

وينتهي كل شيء . يجب أن تفتح الباب . وتسمع صرير الدلو في الأسفل ، وهو يُسحب على الحجر المرصوف بينما تقوم المرأة بغسل ارضية المطبخ ، ويجوس الأطفال في غرفة النوم متسائلين :

---

* سير لونكليوت ، أحد فرسان الأسطورة الآرثرية ، وقد أحبته جنيفر

ـ ماذا تفعلين ؟ لماذا أقفلت الباب ؟

بعد ذلك ، اكتشفت مفتاح باب غرفة الأبرشية ، فانتبذت لنفسها مكانا هناك ، إذ كانت تجلس على بعض الأكياس مع كتبها . وهناك ابتدأ حلم آخر

كانت الابنة الوحيدة للورد عجوز ، ولقد وهبت السحر . ويوم تلو آخر من الصمت المطبق ، بينما كانت تتجول كالشبح في القصر القديم الصامت أو تتسلل على الشرفات الغافية .

وهناك اعتراها حزن شديد لأن شعرها كان فاحما جدا . إذ يجب أن يكون لها شعر أشقر وبشرة بيضاء ، ولقد شعرت بالمرارة بسبب شعرها الأسود . لكن لا يهم فهي ستصبغه عندما تكبر أو تقصره في الشمس حتى يصبح أشقر . وفي هذه الأثناء ، ارتدت شالا أبيض اللون من حرير البندقية الخالص .

وتنقلت خلسة بين الشرفات حيث كانت السحالي المزينة بالجواهر تتشمس على الأحجار ولا تتحرك عندما يسقط ظلها عليها . وفي الصمت المطبق ، سمعت خرير النافورة ، واستنشقت رائحة الأزهار التي تتدلى براعمها غنية وساكنة ، لذلك انزلقت على أقدام الجمال التواقة ، مجتازة الماء والأوزات الى المتنزه الرائع حيث تضطجع تحت شجرة سنديان كبيرة ، ظبية مرقشة وقد جُمعت أرجلها الأربع معا ، بينما كان خشفها يستكين ، بلون الشمس ، الى جانبها . أوه ، كانت تلك الظبية أليفتها ، وسوف تتحدث معها لأنها كانت ساحرة ، وستحكي لها حكايات كما لو أن شعاع الشمس يتحدث .

وفي يوم من الأيام ، لم تقفل باب الأبرشية ، مهملة غافلة مثل ما كانت دائما ، واستدل الأطفال على طريق الدخول ، وجرحت كاتي اصبعها وعوت ، وأحدث بيلي ثلمات في الأزاميل الدقيقة ، والحق الكثير من الأذى ، وكان ثمة إضطراب فظيع

وسرعان ما انتهى نزق الأم ، وأقفلت أورسلا الغرفة مرة أخرى ، وعدّت الأمر كله منتهيا . بعدها جاء والدها بالمعدات المثلمة وقد قطب جبينه ، وصرخ غاضبا :

ـ من الشيطان الذي فتح الباب ؟

فقالت الأم :

ـ أورسلا هي التي فتحت الباب .

وكان يحمل في يده قطعة قماش للتنظيف ، فضرب وجه الفتاة بقطعة القماش فلسعتها . بدت الفتاة ، لحظة ، كما لو أنها صُعقت ، ثم بقيت ساكنة ، ووجهها منكفئ وعنيد ، بيد أن قلبها كان يومض ، ورغم نفسها انهلّت الدموع ، ورغما عن نفسها انهلّت أكثر .

ورغما عنها انخفض وجهها ، وأصدرت تكشيرة متلمسة غريبة ، وانهلّت الدموع لذلك ابتعدت ، مكتئبة ، غير أن قلبها المتوهج كان حادا ومتصلبا ، وراقبها تنصرف . وملأه ألم ممتع ؛ إحساس بالنصر والقوة السهلة ، أعقبتها مباشرة شفقة حادة .

قالت الأم ببرود :

ـ أنا متأكدة من أن ذلك لم يكن ضروريا ، أن تضرب الفتاة على وجهها

فقال لها :

ـ إن ضربة بقطعة القماش لن تؤذيها .

ـ كما أنها لن تنفعها .

وطوال ايام وأسابيع ، كان قلب أورسلا يحترق من هذا البرد أحست أنها هشة بطريقة قاسية . ترى هل كان يدرك كم كانت هشة ومكشوفة ومجفلة ؟ إنه من بين كل الناس على بينة من ذلك . ولقد اراد أن يفعل ذلك لها أراد أن يؤذيها في أشد مواطن حساسيتها ، أراد أن يعاملها بخزي ، أن يشوهها بالإهانة .

واحترق قلبها في عزلة كنار حراسة متوقدة . إنها لم تنس ، ولن تنسى أبدا . وعندما عادت الى حب والدها ، ظلت بذور الشك والتحدي تتوهج غير مطفأة ، رغم أنها متواربة بعيدة عن الأنظار . فلم تعد تنتمي اليه دون استفهام ، وببطء شديد ، توهجت نيران الشك والتحدي في داخلها ، واحرقت ارتباطها به .

ركضت كثيرا وحدها ، إذ كان يتملكها هوى لكل الأشياء الحية المتحركة . ولقد أحبت الجداول الصغيرة ، وحيثما وجدت ماء جاريا قليلا ، فان ذلك كان يملؤها بالسعادة ، فكأنه يجعلها تجري وتغني منتشية روحها معه . وكان بمستطاعها أن تجلس ساعات قرب جدول أو ساقية أو على جذور أشجار جار الماء ، وتراقب الماء يسرع راقصا فوق الأحجار أو بين براعم الأغصان المتساقطة . وفي بعض الأحيان ، كانت الأسماك الصغيرة تختفي كالهلوسات قبل أن تصبح حقيقية وفي أحيان أخرى ، كانت طيور الذعرة* تركض على حافات المياه . وفي بعض الأحيان ، تأتي طيور صغيرة لتشرب ثم رأت بعد ذلك ، طائر السمّاك ، وهو ينقضُّ أزرق اللون ، وكانت سعيدة جدا . كان طائر السمّاك مفتاح العالم السحري ، وكان الشاهد على مقدار السحر .

غير أنها يجب أن تخرج من وهم الحياة ذي النسيج المعقد : وهم الأب الذي كانت حياته

---

* الذعرة : وتسمى الزيطه في العراق ، طائر صغير طويل الذنب ، ويقول ابن سيده : لا تراها إلاّ مذعوره تهزُّ ذيلها[1]

أوديسة في عالم خارجي ، ووهم جدتها ، ووهم الحقائق التي تبدو معتمة ونائية حتى أصبحت رموزا صوفية ؛ فتيات مزارعات يضعن أكاليل من الورد الأزرق في شعورهن ، الزحافات وشدة الشتاء ، الجد الشاب ذو اللحية السوداء ، الزواج والحرب والموت ، ومن ثم الوهم المتعدد المتعلق بنفسها . كيف أنها كانت أميرة بولونيا حقا ، وكيف أنها كانت واقعة تحت تأثير السحر في إنكلترا ، وأنها لم تكن أورسلا برانغوين حقا ، ومن ثم سراب قراءتها ، خارج هذا الوهم الملون لحياتها هذه . يجب أن تنتقل الى المدرسة الثانوية في نوتنغم .

كانت خجلى ، ولقد عانت من ذلك فمن جانب كانت تقضم أظافرها ، وتملكها بسبب ذلك إحساس قاس في أطراف أصابعها ؛ خزي وفضيحة . ولقد طاردها ذلك الإحساس بالخزي خارج كل المقاييس

فكانت تقضي ساعات طوالاً من العذاب ، مفكرة في الطريقة التي تستطيع بها أن تظل مرتدية قفازيها دوما ، إذا ما قالت إن يديها كانتا محترقتين ، واذا ما بدت كما لو أنها نسيت أن تخلع قفازيها .

حين تذهب الى المدرسة الثانوية فإنها بذلك سترث منزلتها الاجتماعية . فهنالك كانت كل فتاة هي سيدة المجتمع . وهنالك ستمشي بين أرواح حرة ؛ زميلاتها وقريناتها . وستركن كل الأشياء الوضيعة . آه ، لو أنها لن تقضم أظافرها حسب! آه لو أنها لن ترتكب هذا الفعل الشائن! أرادت كثيرا أن تكون مكتملة دون أية لطخة أو عيب ، أن تعيش الحياة النبيلة الرفيعة .

ولقد أحزنها أن والدها قدمها بتلك الطريقة البائسة كان حديثه مقتضبا مثل ما هو دائما كصبي يستظهر واجبه المدرسي ، وكانت ملابسه سيئة المقاس وغير مناسبة ، بينما كانت أورسلا تحبّذ الأرواب وطقوس التقديم لمنزلتها الجديدة

وخلقت من المدرسة وهما جديدا . إذ كان للآنسة (كري) ناظرة المدرسة جمال حلو فضّي يليق بناظرة مدرسة وكانت المدرسة في حد ذاتها بيت نبلاء ، عشب وقور مظلم يفصلها عن الزقاق المظلم المنتخب ، بيد أن غرفها كانت كبيرة ورائعة المظهر ومن الخلف ، يمكن للمرء أن يطلّ على العشب والشجيرات وعلى الأشجار وعلى منحدر أربورترام المعشب ، وعلى المدينة التي تكومت في التجويف بسقوفها وقبابها وظلالها .

وهكذا اقتعدت أورسلا على تل التعلم ، مطلة على الدخان والفوضى والمصانع ، وعلى حيوية المدينة المستغرقة . وكانت سعيدة ، فهناك في الأعلى ، في المدرسة الثانوية . تخيلت أن الهواء أعذب ، ما وراء دخان المصانع ، وارادت أن تتعلم اللغة اللاتينية والإغريقية

والفرنسية والرياضيات وارتجفت كشخص يَنْضمُّ لمجموعة دينية عندما كتبت حروف الألف باء الإغريقية للمرة الأولى .

كانت على منحدر آخر لم تقس ذروته إذ كانت هناك دائما تلك اللهفة الرائعة في قلبها كي تتسلق وترى ما وراء الأشياء . فالفعل اللاتيني كان تربة خصبة لها ، إذ كانت تستنشق عطرا جديدا فيه . كان يعني شيئا لها ، رغم أنها لم تكن تعرف معناه ، لكنها أدركت أنه كان مهما . وعندما عرفت أن :

$$س^٢ - ص^٢ = (س + ص) (س - ص)$$

أحست أنها قد أمسكت بشيء ما ، وأنها تحررت الى هواء مسكر ، نادر وعير مكيف . وكانت سعيدة جدا عندما كتبت تمرينها الفرنسي .

« أعطيت الخبز لأخي الصغير »*

وفي كل هذه الأشياء ، كان ثمة صوت بوق ينادي قلبها ، ينعشها ويستدعيها الى أماكن مكتملة . ولم تنس قط كتاب (لونغمان الأول في قواعد اللغة الفرنسية) بني اللون ، ولا كتاب (فيالاتينيا) بحافاته الحمر ولا كتاب الجبر الرمادي الصغير ، فلقد كان فيها سحر دائم .

كانت سريعة التعلم ؛ ذكية ، غرَزية ، بيد أنها لم تكن « متقنة » . فإن لم يرد في ذهنها شيء على نحو غرَزي ، فإنها لا تستطيع أن تتعلمه ، عندها يجعلها غضب اشمئزازها المجنون من كل الدروس ، وازدراؤها المر لكل المعلمات والمديرات ، ونكوصها الى عجرفة حيوانية حادة ، يجعلها كائنا لا يطاق .

كانت حيوانا طليقا لا يدجن وأعلنت في ثورتها أن لا قانون يحكمها ولا قواعد تتبعها . وكانت توجد من أجل نفسها حسب . وتلا ذلك صراع طويل مع الجميع ، تحطمت في نهايته عندما استنفدت كل مقاومتها ، ونشجت من كل قلبها ، كئيبة . وبعد ذلك ، وفي حالة معاقبة ، مغسولة ، غير مجسمة ، حصلت على الفهم الذي لن يأتي قبل ذلك الوقت ، ومضت في طريقها أشد حزنا وأكثر حكمة .

كانت أورسلا وغدرون تذهبان الى المدرسة معا . وكانت غدرون مخلوقة خجلى هادئة متوحشة ، قصاصة نحيفة من شيء ، تتراجع عن الأنظار ، وتنحرف عندما تمرُّ من أمام الناس كي تختفي في عالمها الخاص مرة أخرى ، فهي كأنما خُلقت كي تتجنب كل تماس

---

* بالفرنسية في الأصل

غرّزيا ، وتتبع طريقها الخاص المقصود ، ملاحِقة خيالاتها شبه المتكونة التي لا علاقة لها بأي شخص آخر .

ولم تكن ذكية على الإطلاق ، إذ كانت تعتقد أن أورسلا ذكية بما يكفي لاثنين . ولقد فهمت أورسلا ذلك ، فلماذا تزعج غدرون نفسها ؟ وعاشت الفتاة الصغرى حياتها المسؤولة المتدينة في شقيقتها بالنيابة . أما من جانبها ، فلقد كانت لامبالية وعنيدة كحيوان متوحش ، وغير مسؤولة بالقدر نفسه .

وعندما وجدت نفسها في آخر الفصل ، ضحكت بكسل وكانت سعيدة قائلة إنها بأمان الآن ، فلم تكن لتهتم بتكدر والدها ولا إحساس أمها بالإهانة .

وسألها والدها ساخطا :

ـ لماذا أدفع لكِ كي تذهبي الى نوتنغم ؟

فكانت تردُّ غير مكترثة :

ـ حسنٌ يا والدي ، لا حاجة لك أن تدفع لي ، فإني مستعدة للبقاء في البيت .

كانت سعيدة بالبقاء في البيت ولم تكن أورسلا كذلك . كانت غدرون نحيلة وعازفة عما هو خارج البيت ، منبسطة في بيتها كشيء متوحش في عرينه ، بينما كانت أورسلا مجاملة تعشق الحياة خارج المنزل . كانت في البيت كارهة ، قلقة ، عازفة عن أن تكون نفسها ، أو غير قادرة على ذلك .

ومع ذلك ، بقي يوم الأحد يوم ذروة الأسبوع لكلتيهما . إذ كانت أورسلا تنتظره بشغف بسبب الإحساس بالطمأنينة الأزلية التي يمنحها . فلقد كانت تعاني من تباريح المخاوف طيلة ايام الأسبوع ، لأنها كانت تشعر بوجود قدرات قوية لا تعترف بها . وكانت تعتريها مخاوف وكره للسلطة . وأحست أن بمستطاعها أن تفعل ما تشاء إذا ما نجحت في تجنب الصدام مع السلطة أو السلطات المخولة ، ولكن إذا ما أسلمت نفسها فإنها سوف تضيع وتتحطم . كان خطر دائم يتهددها .

كان هذا الإحساس الغريب بالقسوة والقبح وشيكا دائما ومستعدا للإمساك بخناقها . هذا الإحساس بقدرة الغوى الحاقدة كامن في انتظارها ، وكان الاستثناء ، لقد شكّل أحد أعمق العوامل المؤثرة في حياتها . فحيثما كانت ؛ في المدرسة أو بين صديقات ، في الشارع أو في القطار ، كانت تخمد نفسها غرّزيا ، تجعل نفسها أصغر ، تتظاهر أنها أقل مما هي ، مخافة أن ترى روحها المخبأة ، أن ينقضّ عليها ، أن تهاجم من قبل الغيظ البهيمي المبتذل ، من النفس العامة .

كانت آمنة الى حد ما في المدرسة الآن ، إذ كانت تعرف كيف تحتلُ مكانها هناك ، وقدر نفسها الذي يجب أن تحافظ عليه ، بيد أنها لم تكن حرة إلا أيام الأحد ، عندما لا تكون إلا مجرد فتاة في الرابعة عشرة من عمرها . وابتدأت تشعر بالإستياء ينمو ضدها في البيت . وأدركت أنها تمثل تأثيرا مشوشا في البيت ، لكن حتى الآن ، كانت في أيام الآحاد حرة ؛ حرة حقا ، حرة في أن تكون نفسها ، دون خوف أو ريب .

حتى في أشد الأيام عصفا ، كان يوم الأحد يوما مباركا . إذ كانت أورسلا تستيقظ فيه بإحساس من التحرر الهائل . وتتساءل عن سبب خفة قلبها . ثم تتذكر أنه يوم الأحد ، فيبدو وكأن سعادة تتفجر من حولها ، ويتملكها إحساس بحرية عظيمة ، ويبدو العالم بأكمله ينسحب أربعاً وعشرين ساعة ، يرجع الى الخلف ، ولا يوجد إلا عالم يوم الأحد عندئذٍ

كانت تحب فوضى سكان البيت في حد ذاتها . وتكون محظوظة لو أن الأطفال تأخروا في النوم حتى الساعة السابعة ، إذ من المعتاد أن يستيقظوا بعد السادسة بقليل ، حيث نسمع زقزقة يليها صوت ثم تبدأ زقزقة مثارة معلنة ميلاد يوم جديد . ويكون هناك وقع خطوات مسرعة ، ثم ينهض الأطفال ويدورون ، ويعدون في قمصانهم ، وسيقانهم الوردية تتلألأ ، والشعر الحريري نظيف كله من حمّام يوم السبت ، وأرواحهم مثارة بفعل نظافة أجسادهم .

وعندما يبدأ البيت يمور بالأطفال النظيفين المتدافعين أشباه العراة ، ينهض أحد الوالدين ، أما الأم ، رخية مشوشة الهندام ، شعرها السميك الغامق ملتف بطريقة سائبة ومنزلق فوق الأذن ، أو الأب دافئا ومرتاحا بشعر مجعد وقميص غير مزرر عند العنق

عندها تسمع الفتيات في الطابق العلوي الحوار المستمر بصوت الأب القوي أو صوت الأم الوقور ؛

ـ والآن يا بيلي ما الذي تريده الآن ؟

ـ لقد قلت يا كيسي لن آخذها .

كان أمرا مدهشا كيف كان صوت الأب يقرع كالجرس دون أن يهتز كيانه البتة ، وكيف نتحدث الأم كملكة تعقد اجتماعا رغم أن دثارها كان مندفعا نحو الخارج من كل الجهات ، وشعرها غير مرفوع الى الأعلى ، والأطفال يصدرون ضجة صاخبة .

يُحَضّر الفطور تدريجا ، وتنضم الفتيات الأكبر سنا الى الضجة ، بينما ينتقل الأطفال شبه العراة كنهايات الملائكة الخطأة كما وصفت غدرون الأمر ، وهي تراقب السيقان الصغيرة العارية والمؤخرات الريانة تظهر وتختفي .

يتم الإمساك تدريجا بالأطفال الأصغر سنا ، وتُخلع ملابس النوم في النهاية ، ويصبحون

مستعدين لارتداء قميص يوم الأحد النظيف . لكن قبل أن ينزلق قميص الأحد فوق الرأس الصوفي ، بندفع الجسد العاري بعيدا كي يتمرغ على سجادة الشرفة المصنوعة من جلد النعاج ، بينما تتبعهم الأم محتجة بحدة ، ممسكة بالقميص مثل أنشوطة ، ويتردد صوت الأب البرونزي بينما يتمرغ الطفل العاري على ظهره في جلد النعاج الوثير معلنا بجذل .

ـ أنا أدبحُ في البحر يا أمي

وكانت الأم تقول .

ـ ولماذا أسير خلفك بقميصك إنهض الآن ؟

ويعيد المخلوق العاري المتمرغ :

ـ إننا ندبح في البحر يا أمي .

ـ إننا نقول نسبح لا ندبح .

تقول الأم ذلك بوقارها الغريب اللامبالي وتضيف :

ـ أنا أنتظر هنا مع قميصك .

بعد لأي يُرتدى القميص ، وتُلبس الجوارب ، ويُزرر البنطال الصغير ، وتُربط التنورة الداخلية الصغيرة من الخلف إن جبن العائلة الماثل باستمرار هو تهربها من مسألة العثور على رباط الجوارب .

ـ أين الرباطات يا كيسي .

ـ لا أعرف .

ـ حسن ، إبحثي عنها

لكن لا أحد من البالغين من آل برانغوين يواجه الأمر حقا ، فبعد أن تدبَّ كيسي تحت كل الأثاث وتلطخ بياض يوم الأحد كله ، مما يجلب الحزن اللامحدود للجميع ، تُنسى الرباطات في غمرة الانشغال بالغسل المستجد للوجه الشاب واليدين .

بعد ذلك ، تشعر أورسلا بالسخط وهي ترى الآنسة كيسي تخطو الى الكنيسة من مدرسة يوم الأحد ، وقد تهدل جورباها الى الكاحل مظهرة ركبة قذرة . وكانت أورسلا تصرخ في أثناء الغداء .

ـ هذا أمر مخجل سيظن الناس أننا خنازير ، وأن الأطفال لا يغتسلون أبدا .

وترد الأم بفخامة :

ـ لا تهتمي بما يفكر الناس أنا أرى أن تلك الطفلة قد استحمت بصورة مناسبة ، واذا رضيت أنا فقد أرضيت الجميع . إنها لا يمكن أن تبقي جوربيها في موضعيهما دون رباط ، وليس خطأ الطفلة إنها تُركت تخرج دون رباط .

استمرت مشكلة الرباطات بدرجات مختلفة ، لكنها لم تختف الى أن ارتدى كل طفل تنورة طويلة أو بنطالا طويلا .

وفي يوم الاحتشام ذاك ، ذهبت عائلة برانغوين الى الكنيسة سالكة الطريق الرئيسي ، متجنبين أشجار سور الحديقة ، بدلا من تسلق الجدار الى فناء الكنيسة ، ولم يكن ثمة قانون قد سُنَّ بهذا من قبل الأبوين ، وكان الأطفال أنفسهم هم حماة وقار يوم الأحد ؛ غيورين وملحين معاً .

ولقد تحول البيت تدريجا ، بعد قداس يوم الأحد ، الى نوع من الحرم حقا حيث يتنفس السلام فيه كطير غريب في الغرف . وفي الداخل ، لم يكن يسمح إلا بالقراءة وقص الحكايات والفعاليات الهادئة كالرسم وفي الخارج ، كانت تجب ممارسة الألعاب بهدوء ، فإذا كانت هناك ضجة أو عواء أو صراخ ، عندها تستيقظ روح ثائرة في الأب والأطفال الكبار فيخمد الصغار خائفين من الحرمان من الذهاب الى الكنيسة .

وكان الأطفال أنفسهم يحافظون على طقوس يوم الأحد ، فاذا ما غنت أورسلا في خيلائها :

كانت راعية صغيرة

ومبو مبو ميو ، تدبُّ مخالب القطة الصغيرة*

فكان مؤكدا أن تصرخ تيريزا :

ـ هذه ليست من أغاني يوم الأحد يا أورسلا .

وتجيب أورسلا متفاخرة :

ـ أنت لا تعرفين .

ومع ذلك ، كانت تتردد وتتلاشى أغنيتها قبل أن تصل الى نهايتها .

ولأن يوم الأحد كان غاليا جدا عليها رغم أنها لم تكن تدرك ذلك ، فإنها كانت تجد نفسها في مكان غريب مجهول حيث تتجول روحها في الأحلام دون أن تساورها المخاوف .

كانت روح المسيح الملتفعة بالرداء الأبيض تمر بين أشجار الزيتون . وكانت تلك رؤيا وليست حقيقة ، ولأنها كانت تشارك في ذلك الكيان الرؤيوي ، فلقد كان صوت ينادي في الليل : «صموئيل ، صموئيل» ، وكان الصوت ما يزال ينادي في الليل ، لكن ليس هذه الليلة ، ولا الليلة الماضية ، لكن في ليلة الأحد التي لا قرار لها ، في صمت الأحد .

---

* بالفرنسية بالأصل وهي أغنية شعبية فرنسية مشهورة

كانت هناك خطيئة ، الأفعى التي كانت فيها حكمة أيضا ، وهناك يهوذا الأسخريوطي ومعه المال والقبلة .

لكن ليست ثمة خطيئة حقيقية ، فاذا ما صفعت أورسلا تيريزا على وجهها ، حتى إذا كان ذلك يوم الأحد ، فإنه لا يعد خطيئة أزلية بل هو سلوك سيئ . واذا تهرب بيلي من مدرسة يوم الأحد فهو سيئ وشرير بيد أنه ليس مخطئا . الخطيئة مطلقة وأزلية ، أما السوء والشر فهما مؤقتان ونسبيان . وعندما تبع بيلي اللغة السائدة ، وسمى كيسي بالمخطئة لم يستسغ الجميع الأمر . لكن عندما تعلق الأمر بجرو حقل مارش السلوقي الذي يتشقلب بحركات بهلوانية ، فلقد عُمّدَ ، على نحو مؤذٍ ، باسم الخاطئ .

كان آل برانغوين ينكمشون من تطبيق الدين على تصرفاتهم المباشرة لقد أرادوا الأحساس الأزلي والسرمدي وليس قائمة بقواعد السلوك اليومي ، لذلك كانوا أطفالا سيئي السلوك ، متعجرفين وعنودين ، رغم أن أحاسيسهم كانت كريمة . والأكثر من ذلك ، أن لهم ، وكان ذلك أمرا لا يطاق بالنسبة للجيران الاعتياديين ، سمة مختالة ، ولم تكن تلك لتتواءم مع فكرة المسيحية الديمقراطية الغيورة ، لذلك كانوا استثنائيين وخارج ما هو عادي .

كم استاءت أورسلا بمرارة من تماسها الأول مع التعاليم الأنجيلية ، ولقد أصيبت بدهشة غريبة من تطبيق فكرة الخلاص على حالتها الشخصية «لقد مات يسوع من أجلي ، لقد عانى من أجلي» كان ثمة كبرياء ودهشة فيها متبوعة في الحال تقريبا بإحساس بالكآبة . يسوع بالثقوب في يديه وقدميه ، كان ذلك أمرا كريها لها . يسوع الظليل بجروحه ؛ كانت تلك رؤاها ، ولكن يسوع ؛ الرجل الحفيقي الذي يتحدث بأسنانه وشفتيه طالبا من المرء أن يدس أصبعه في جروحه كقروي يشمت بجروحه ، فان ذلك كان ينفرها كانت عدوّ أولئك الذين يصرون على إنسانية المسيح ، فلو كان مجرد رجل عادي ، يحيا حياة بشرية اعتيادية ، عندها فإنها لن تبالي .

لكن غيرة الناس المبتذلين هي التي تصر على إنسانية المسيح . كان الذهن العامي لا يسمح بشيء فوق بشري ، لا شيء يوجد ما وراء نفسه . كانت أيدي الأحيائيين القذرة المدنسة هي التي تريد أن تسحب يسوع الى هذه الحياة اليومية كي تلبس يسوع البنطال والسترة لتجبره على المساواة العامية . كانت الروح الحمقاء ، غير المتحضرة التي تسأل : ماذا يفعل يسوع لو كان في مكاني ؟

وضد كل هذا ، دافع آل برانغوين باستماتة . وكانت الأم ، أكثر من أي شخص آخر ،

هي التي استوقفها الأمر أو التي كانت أكثر الكل لامبالاة بالصخب العامي . لم يكن لديها شيء فوق البشر ، وهي لم تسهم قط ، طوال حياتها ، في هوى برانغوين الصوفي

بيد أن أورسلا كانت في صف أبيها وعندما ابتدأت تتحول الى مراهقة في الثالثة عشرة والرابعة عشرة ، أصبحت أكثر فأكثر ضد لامبالاة أمها . فبالنسبة لأورسلا ، كان شيء قاس ، يكاد أن يكون شريرا في موقف الأم . ما الذي كانت تهتم به آنا برانغوين في تلك السنوات في الرب أو يسوع أو الملائكة ؟ إذ كانت تمثل الحياة الحالية ، فالأطفال مازالوا يولدون لها ، وهي منشغلة بكل فعاليات عائلتها الصغيرة ، وتنكر بالغريزة تقريبا خدمة زوجها التي تشبه العبودية للكنيسة ، وتوقه المظلم الخاضع لعبادة إله لا يرى . ماذا يهم الإله غير الظاهر عندما يكون للرجل عائلة شابة تحتاج الى جهده ؟ دعه يلبي هموم حياته الملحة ، لا أن يذهب ليسقط نفسه باتجاه المطلق .

ولكن أورسلا كانت كلها للمطلق . كانت على الدوام في ثورة ضد الأطفال والحياة العائلية المشوشة . كان يسوع بالنسبة لها عالما آخر . إنه ليس من هذا العالم ، إنه لم يرم يديه تحت وجهها ولم يشر الى جروحه قائلاً : «أنظري يا أورسلا برانغوين ، لقد أُصبت بهذه من أجلك ، والآن افعلي بمثل ما تؤمرين به» .

بالنسبة إليها ، كان يسوع نائيا على نحو جميل ، مشرقا في البعد كقمر أبيض عند الغروب ، هلالاً يومئ بينما يتبع الشمس ، خارجا من مدى البصر . وفي بعض الأحيان ، كانت غيوم مظلمة تقف بعيدا جدا ، تثقب في طبقة صفراء صافية من غروب الشمس ، من أمسية شتوية ، تذكرها بالفروسية . وفي بعض الأحيان ، كان القمر يرتفع أحمر قانيا بلون الدم على التل فيرعبها بالمعرفة التي مفادها أن يسوع ميت الآن ، يتدلى ثقيلا ميتا على الصليب .

وفي يوم الأحد ، كان عالم الرؤى هذه يمرُّ ، وكانت تسمع الصمت الطويل ، وتعرف بزواج الظلمة والنور . وفي الكنيسة يصدر الصوت ويتردد ، ليس من هذا العالم كما لو أن الكنيسة نفسها كانت صدفة ماتزال تتكلم لغة الخلق .

«رأى بنو الله بنات الناس حسنات ، فاتخذوا لهم نساء من جميع من اختاروا . فقال الرب لا تحل روحي على الإنسان أبدا لأنه جسد وتكون ايامه مئة وعشرين سنة . وكان على الأرض جبابرة في تلك الأيام وأيضا بعد أن دخل بنو الله على بنات الناس ، وولدن لهم أولادا اولئك هم الجبابرة المذكورين من الدهر»*

* سفر التكوين ، الفصل السادس ، الآيات ٢-٤ .

ارتبكت أورسلا بسبب هذا كما لو بفعل نداء بعيد   ترى لو وجدها في تلك الأيام أبناء الله جميلة ، هل اتخذوها زوجة لأحدهم ؟ كان ذلك حلما أخافها ، لأنه لم يكن بمستطاعها أن تفهمه .

من هم أبناء الله ؟ ألم يكن يسوع الابن المنجب الوحيد ؟ ألم يكن آدم الرجل الوحيد الذي خُلق من الله ؟ ومع ذلك ، فإن هنالك رجالا لم ينجبهم آدم   مَن أولئك ومن أين أتوا ؟ لابد أنهم قد خلقوا من الله أيضا   هل لله العديد من الأبناء الى جانب آدم ويسوع ، أطفال لا يستطيع أولاد آدم أن يعرفوا أصلهم ؟ وربما كان هؤلاء الأطفال ، لم يجربوا الطرد من الجنة أو عار السقوط .

قدم هؤلاء على أقدام حرة الى بنات الناس فوجدوهن جميلات فاتخذوهن زوجات لهم ، وهكذاحملت النسوة وولدن الجبابرة المذكورين منذ الدهر   كان هذا قدرا أصيلا . وتجولت في الأيام الأساسية ، عندما التقى أولاد الله ببنات الناس .

ولن تدمر أية مقارنة للأساطير ولعها بالمعرفة . لقد أصبح الإله (جوف) ثورا أو رجلا كي يحب امرأة أزلية . ولقد زرع فيها عملاقا ؛ بطلا . حسنٌ جدا ، فلقد فعل ذلك في بلاد الإغريق . غير أنها ليست امرأة إغريقية ، كما أن لا جوف ولا بان ولا أي من أولئك الآلهة ولا حتى باخوس أو ابولو يمكن أن يأتي إليها . لكن بني الله الذين تزوجوا بنات الناس ، هؤلاء يجب أن يتخذوها زوجة لأحدهم .

وتعلقت بالأمل السري ؛ بالإلهام ، وعاشت حياة مزدوجة ، حياة حيث تضم حقائق الحياة اليومية كل شيء لكونها كثيرة ، وحياة أخرى حيث تطمس حقائق الحياة اليومية بالحقيقة الأزلية   لذلك كانت ترغب كليا في أن يأتي بنو الله الى بنات الإنسان ، وأخذت تؤمن أكثر في رغبتها وفي إكتمالها أكثر من اقتناعها بحقائق الحياة الواضحة . إن حقيقة كون الأنسان إنسانا لا تنص على إنحداره من آدم ، ولا تستبعد كذلك أن يكون أحد بني الله الذين لم يسجلوا في التأريخ ولم يذكروا . وحتى ذلك كانت مرتبكة ، بيد أنها لم ترفض .

ومرة أخرى سمعت الصوت :

« إنه لأسهل أن يدخل الجمل ثقب الإبرة من أن يدخل غني ملكوت السماء »* .

ولكن قد فُسر أن ثقب الأبرة كان بوابة صغيرة للمشاة ، ولا يمكن للجمل ذي السنام بحمولته أن يضغط نفسه من خلالها ، أو ربما وبمخاطرة هائلة إذا كان جملا صغيرا فإنه قد

---

* إنجيل القديس متى ، الفصل ١٩ ، الآية ٢٤

يمر . لأنه لا يمكن أن يستبعد الإنسان الغني من الجنة على نحو مطلق ، هكذا قال معلمو مدرسة يوم الأحد

ولقد سرها كذلك أن تعرف أن المرء في الشرق يحب أن يستعمل المغالاة في كلامه ، وإلا فلن يصغي إليه أحد ، وذلك لأن الرجل الشرقي يحب أن يرى الشيء منتفخا كي يملأ الجنة كلها أو أن يتضاءل حتى العدم قبل أن يتأثر على نحو مناسب . وفي الحال تعاطفت مع تلك الذهنية الشرقية .

ومع ذلك ، ظل للكلمات معنى لم يلمس ، لا بتفسير البوابات ولا المغالاة اللغوية . إن هذا الاهتمام التاريخي أو المحلي أو النفساني بالكلمات كان شيئا آخر . هناك تبقى قيمة القول غير المفسر ثابتة . ما هذه العلاقة بين ثقب الأبرة والرجل الغني والجنة ؟ أي نوع من ثقوب الإبر وأي نوع من الرجال الأغنياء وأي نوع من السماء ؟ من يعرف ، فقد تعني العالم المطلق ، ولا يمكن أن يكون ذلك أكثر من شبه تفسير بمصطلحات العالم النسبي .

ولكن هل يجب أن يطبق المرء الحديث حرفيا ؟ هل كان والدها رجلا غنيا ؟ الن يكون بمقدوره دخول الجنة ، أم أنه كان رجلا شبه غني ؟ أم أنه كان رجلا فقيرا تقريبا ؟ على أية حال ، ما لم يعط كل شيء للفقراء ، سيجد من الصعب جدا الدخول الى الجنة ، إذ أن ثقب الإبرة سيكون ضيقا جدا عليه ، وكانت تتمنى أن تكون فقيرة معدمة . فاذا وصل المرء الى قرار ذلك ، لاتضح أن كل إنسان سيكون غنيا ما لم يكن بفقر الأكثر فقرا .

وانتابتها الهواجس عندما رأت في خيالها أباها وهو يعطي البيانو والبقرتين ورأس المال المودع في البنك الى عمال المقاطعة حتى أنهم ، أي آل برانغوين ، يصبحون فقراء ، مثل آل ويري . ولم ترغب في ذلك ، وكانت نافدة الصبر وقالت :

ـ حسنٌ جدا ، سوف ننسى أن الجنة من نوع ثقب الإبرة .

وابعدت المشكلة عن ذهنها   إنها لن تكون فقيرة مثل آل ويري ، ليس من أجل كل الأقوال على الأرض . أولئك القذرين التعساء آل ويري .

لذلك ارتدّت الى التطبيق اللاحرفي للكتاب المقدس   كان والدها نادرا ما يقرأ ، بيد انه جمع العديد من كتب اللوحات ، وكان يجلس ويتفرج عليها منتبها على نحو غريب كطفل . ومع ذلك ، فان ولعه بها لم يكن طفوليا . لقد احب الرسامين الإيطاليين الأوائل وخصوصا غيوتو وفرا انجليكو وفيليبو ليبي ، إذ كانت التشكيلات العظيمة تسحره . كم من المرات عاد الى لوحة رفائيل (خصومة السر المقدس) او لوحة فرا انجليكو (الدينونة) او التعبيرات الجميلة المعقدة في لوحة (تقديس المجوس)   ودائما ، وفي كل مرة ، كان يحصل على اكتمال المتعة

التدريجي ذاته . كان لذلك علاقة بتأسيس التصور الصوفي المعماري كله الذي استعمل الجسد الإنساني ، باعتباره وحدة واحدة . وفي بعض الأحيان ، كان عليه ان يسرع بالعودة الى البيت ، ويتجه الى لوحة (الدينونة) لفرا انجليكو ؛ ممرات القبور المفتوحة ، التراب المتكوم على الجانبين ، السماء المحتشمة المرتبة في الأعلى ، الهبوط المتمم نحو الجحيم على الجانب الآخر ، كانت تكمله وترضيه . لم يكن يهتم إنْ كان يؤمن بالشياطين او الملائكة ، إذ أن التصور الكلي منحه رضا عميقا ، ولم يكن يريد شيئا آخر .

اعتادت اورسلا على هذه الصور منذ طفولتها ، وكانت تفتش بحثا عن تفاصيلها . وعشقت زهور فرا انجليكو وضوءه وملائكته ، واحبت الشياطين ، واستمتعت بالجحيم ، بيد ان تمثيل الرب المطوق المحاط بكل الملائكة في عليين ، اضجرها فجأة . اضجرتها هيئة الرب الأعلى واثارت استياءها . هل كان هذا ذروة كل شيء ومعناه ؟ هذه الهيئة المجعدة التافهة . كان الملائكة محبوبين جدا والضوء بالغ الجمال . أمن أجل هذا حسب يحاط الرب بمثل هذا الابتذال ؟

لم تكن راضية ، بيد أنها لم تكن كفوءة عندئذ كي تنتقد . فثمة الكثير الذي يثير دهشتها . حَلّ الشتاء وتمزقت أغصان الصنوبر في الثلج ، وبدت أوراق الصنوبر الإبرية الخضر غنية على الأرض . وكانت هناك آثار نجمية مستقيمة رائعة لخطوات طائر التدرج عبر الثلج ، مطبوعة على نحو واضح . وكانت هناك آثار الأرنب المفصصة ؛ ثقبان في الأمام وثقبان يتبعان في الخلف ، ولقد حفر الأرنب ممرات عميقة منحدرا ، وهبطت قدماه الخلفيتان معا ، وصنعت حفرة كبيرة واحدة ، وحفرت القطة ثقوبا صغيرة وتركت الطيور أثرا شريطيا .

تجمع هناك تدريجا الإحساس بالتوقع ، فعيد الميلاد قادم . وفي السقيفة ، في الليالي ، كانت شمعة خفية تتوهج ، وسمعت اصوات مكتومة . وكان الأولاد يتدربون على المسرحية القديمة عن القديس جورج مع بعلزبول* . ومرتان في الأُسبوع ، وعلى ضوء المصباح ، كانت ثمة جوقة تتدرب في الكنيسة من اجل تعلم ترنيمة قديمة اراد برانغوين سماعها . ولقد انضمت الفتيات الى هذه التدريبات . وفي كل مكان ، كان ثمة احساس بالغموض والإثارة ، وكان الجميع يتهيأون لشيء ما .

أزف الموعد ، وكانت الفتيات يزيّنَّ الكنيسة بأصابع باردة ، يربطن نباتات الشوح والآس البري والسرو على الأعمدة حتى حلت روح جديدة في الكنيسة ، وتحولت الأحجار

* إله فلسطيني قديم كان إلها للذباب (المترجم)

الى اوراق غنية مظلمة ، وأزهرت الأقواس براعمها ، وابتدأت أزهار باردة تبرعم في الجو الصوفي المعتم . وكان على اورسلا أن تثبّت نبات الهدال فوق الباب وعلى الشبابيك ، وتعلق حمامة فضية على غصين سرو ، حتى حل الغسق ، واصبحت الكنيسة كأيكة وفي حظيرة الأبقار ، كان الأطفال يسخمون أوجههم استعدادا لتمثيل المسرحية ، وكان الديك الرومي يتدلى ميتا بجناحين مفتوحين منقطين في الملبنة . وأزف وقت صنع الفطائر استعدادا .

أصبحت التوقعات أشد كثافة ، وارتفع النجم في السماء ، وكانت الأغاني والجوقة متأهبة للترحيب به . كان النجم هو العلامة في السماء ، والأرض يجب أن تعطي إشارة أيضا . وعندما حلّ المساء ، ازداد وجيب القلوب انتظارا ، كانت الأيادي ممتلئة بالهدايا الجاهزة ، وكانت هناك كلمات قداس الكنيسة المتطلعة للغاية . وانجلى الليل وحلّ الصباح ، وكانت الهدايا منحت واستلمت ، وأحدث الفرح والسلام خَفْقَ أجنحة في كل قلب ، وتفجر غناء الجوقات الهائل ، فلقد اشرق سلام العالم ، وولى النزاع ، وكل يد مشتبكة مع الأخرى ، وكان كل قلب يغني .

ورغم ذلك كان إحساس بالمرارة من أن عيد الميلاد كلما اقترب من المساء والليل تحول الى ما يشبه عطلة البنوك* ؛ مسطحا ومبتذلا . كان الصباح مدهشا جدا ، وفي الأصيل والمساء ، تلاشت النشوة كشيء مخدر ، كبرعمٍ في ربيع كاذب . واحسرتاه ، عيد الميلاد ذاك ، كان مجرد عيد عائلي ، عيد للحلوى والدمى . لماذا لم يغير الكبار قلوبهم كل يوم ويستسلموا للنشوة ؟ أين هي النشوة ؟

كم تاق آل برانغوين اليها ؛ الى النشوة وكان الأب منزعجا ، متجهم الوجه وبائسا في ليلة عيد الميلاد ، لأن الهوى لم يكن هناك ، لأن اليوم اصبح اشبه بأي يوم آخر ، ولم تكن القلوب تتوهج فعلى الأم يخيم نوع من الذهول مثل ما هي دوما ، كما لو انها نفيت طوال حياتها أين قلب المتعة الناري . الآن ، وقد اكتمل المجيء ، أين هي النجمة وانشداه المجوس** ، ودهشة الكيان الجديد الذي يهزُّ الأرض ؟

ومع ذلك ، فإنه لم يزل هناك حتى وإن كان ضئيلا وغير كاف ، فماتزال دورة الخلق تدور في سنة الكنيسة بعد عيد الميلاد . وغطست النشوة تدريجا ، وتغيرت والأحد يتلو الأحد ، يدبُّ في حركة رائعة . تحول رائع التطور في قلب العائلة ، القلب الذي كان كبيرا بالسعادة ، الذي رأى النجمة وتبعها الى جدران البدائية الداخلية ، ذلك الذي اغمي عليه هناك

---

* يوم تعطل فيه البنوك والمصالح في بريطانيا كل عام

** إنجيل القديس متى ، الفصل الثاني ، الآية ١٠ ، «فلما رأوا النجم فرحوا فرحا عظيما»

في الضوء العظيم* ، يجب عليه ان يشعر الآن ان الضوء ينسحب تدريجا ، وان الظل يسقط ويظلم . وزحفت القشعريرة ، وخيم الصمت على الأرض ، وبعدها عم الظلام كل شيء ، وانتزع قناع المعبد ، وتخلى كل قلب عن الروح وسقط ميتا

تحركوا بهدوء ، وثمة شحوب طفيف على شفاه الأطفال ، يوم الجمعة العظيمة ، شاعرين بالظل يخيم على قلوبهم . بعدها جاءت زنابق النشور ، شاحبة ذات عطر مميت ، فأشرقت باردة حتى منحت الروح القدس .

ولكن لماذا ذكرى الجروح والموتى ؟ فمن المؤكد ان المسيح قام وقد شفيت يداه وقدماه ، معافى وقويا وسعيدا . ومن المؤكد ان ممر الصليب والضريح قد نسيا ؟ لكن لا ، فدائما ذكرى الجروح ، ودائما رائحة ملابس القبر . فكأن النشور شيء ضئيل مقارنة بالصليب والموت في هذه الدورة .

وهكذا فلقد عاش الأطفال سنة المسيحية ، ملحمة النفس الإنسانية . وسنة بعد أخرى ، استمرت بينهم المسرحية الداخلية المجهولة ، وولدت قلوبهم وامتلأت ، وعانت على الصليب ، وتخلت عن الروح ، وقامت مرة أخرى لأيام لاتعد ، لم ينل منها التعب ، ممتلكة في الأقل ، إيقاع الأزلية هذا في حياة رثة عديمة الشأن .

بيد أنها أصبحت فعلا آليا الآن ؛ هذه المسرحية : ولادة في عيد الميلاد تؤول الى موت يوم الجمعة العظيمة . وفي يوم احد الفصح ، تبدو الحياة وكأنها قد انتهت . ذلك لأن النشور كان ظليلا ، وتغلب عليه ظل الموت ، ونادرا ما يهتم احد بالصعود** ، فلم يكن سوى توكيد للموت .

ما هو الأمل والاكتمال ؟ بله ، أهو خواء بعد الموت ، أهو تجرد شاحب عن الجسد بعد الموت ؟ واحسرتاه ، واحسرتاه على هوى القلب الإنساني ، ذاك الذي يجب أن يموت قبل فترة طويلة من موت الجسد .

لأن من القبر ، بعد الهوى ومحاكمة التبريح ، ينهض الجسد ممزقا ، مقشعرا ، شاحبا ألم يقل المسيح : «يا مريم» ، وعندما استدارت بيدين ممدودتين نحوه لم يتردد في أن يضيف : «لا تلمسيني لأني لم أصعد الى أبي بعد» .

إذن كيف يمكن لليدين أن تُسعدا وللقلب أن يُسر ، وقد رأوا انفسهم يُرفضون واحسرتاه على نشور الجسد الميت! واحسرتاه على هيئة المسيح القائم المحلقة

---

* سوءة أشعيا ، الفصل التاسع ، الآية الثالثة : «الشعب السالك في الظلمة أبصر نورا عظيما »

** إنجيل القديس لوقا ، الفصل الرابع والعشرون ، الآية ٥١ : «وفيما هو يباركهم ، انفرد عنهم وصعد الى السماء» .

المتلألئة واحسرتاه على الصعود الى السماء الذي كان مجرد ظل ضمن الموت ؛ موت كامل .

واحسرتاه لأن المسرحية قد انتهت بهذه السرعة ، ولأن الحياة قد توقفت في الثالثة والثلاثين* ، ولأن نصف سنة الروح باردة ليس لها تاريخ . واحسرتاه ، فليس للمسيح القائم مكان بيننا! واحسرتاه لأن ذاكرة هوى الأسف والموت والقبر تنتصر على حقيقة النشور الشاحبة!

لكن لماذا ؟ لماذا لا أنبعث مع جسدي كاملا مكتملا مشرقا بحياة قوية ؟ لماذا عندما تقول مريم : «يا معلمي» لا أستطيع أن آخذها بين ذراعيَّ وأقبّلها وأحضنها ؟ لماذا يكون الجسد المنبعث مميتا ومثيرا للاشمئزاز بالجروح ؟

إن الانبعاث هو للحياة وليس للموت . ألن أرى أولئك الذين نهضوا مرة أخرى يمشون هنا بين الناس مكتملي الأجساد والأرواح ، مكتملين وسعداء في الجسد ، يعيشون في الجسد ، ويحبون في الجسد ويصلون في النهاية الى الكمال ، مكتملين دون جرح او عيب ، معافين دون خوف من اعتلال الصحة ؟ اليس هذه فترة الرجولة والمتعة والاكتمال بعد النشور ؟ من هو الذي يظلل بالموت والصليب ، وقد انبعث ، ومن هو الذي يخاف الجسد الصوفي المكتمل الذي يعود للنعيم ؟

أليس بمقدوري إذن أن أسير على هذه الأرض سعيدا وقد انبعثتُ من الأسى** ؟ وأن أقبل بسعادة من تحبه نفسي ، بعد انبعاثي ، وأحتفل بزواجي في الجسد في الأعياد ، وأذهب الى عملي بلهفة ، وبمتعتي مع أصحابي ؟ هل السماء نافدة الصبر مني ، وتشعر بالمرارة تجاه الأرض الى حد أني يجب أن أسرع او أن أتريث شاحبا لا يلمسني أحد ؟ هل أصبح الجسد الذي صُلب سماً للحشود في الشوارع ، أم هو سعادة قوية ومبعث أمل لهم ، كأول زهرة تبرعم من دبال الأرض ؟

---

* هذا هو العمر الذي مُلِبَ به السيد المسيح عليه السلام

** مقطع من قصيدة للشاعر أرنست كولنز (المترجم)

الفصل الحادي عشر

الحب الأول

عندما تحولت اورسلا من صبية الى امرأة ، تجمعت تدريجا سحب المسؤولية الذاتية عليها ، فاصبحت مدركة نفسها ، وأنها كيان منفصل وسط ظلمة لا يمكن تبينها ، وأنها يجب أن تذهب الى مكان ما ، وأن تصبح شيئا ما . وكانت خائفة منزعجة ، لماذا ، اوه ، لماذا يجب ان يكبر المرء ، لماذا يجب على المرء أن يرث هذه المسؤولية الثقيلة المخدرة ، في أن يعيش حياة لم تكتشف بعد ؟ خارجة من اللا شيء ، ومن العماء ، كي تخلق شيئا ما من نفسها ؟ ولكن ماذا ؟ أن تسلك اتجاها في الغموض والمتاهة ؟ ولكن الى أين ؟ بل كيف يمكن للمرء أن يخطو خطوة واحدة ؟ ومع ذلك ، كيف يمكن للمرء أن يقف ساكنا ؟ كان ذلك تعذيبا حقا ، أن يرث المرء مسؤولية حياته .

الدين الذي كان عالما آخر لها ، نوعا متألقا من عالم المرح حيث عاشت ، متسلقة الشجرة مع الرجل القصير ، ماشية مرتجفة على البحر كالحوريات ، كاسرة الخبز الى خمسة الآف جزء كالرب ، موفرة رحلة رائعة لخمسة الآف شخص . انقطع الآن عن الواقع ، ليصبح ، حكاية ، أسطورة ، وهماً ، ومهما يحاول المرء أن يؤكد صحته باعتباره حقيقة تاريخية ، فإنه يدرك أنه ليس صحيحا على الأقل في حياتنا اليومية هذه ، لأننا نعرف ضمن حدود هذه الحياة ، أن ليس من الممكن إطعام خمسة الآف شخص . ولقد وصلت الفتاة الى النقطة التي أدركت فيها أن ما يمكن للمرء أن يجربه في حياته لا يمكن أن يعد صحيحا في تصوره .

وهكذا فإن ازدواجية الحياة القديمة حين يكون هناك عالم أيام الأسبوع من الناس والقطارات والواجبات والتقارير ، والى جانب ذلك ، هناك عالم يوم الأحد من الحقيقة المطلقة وخفايا العيش ، حيث المشي على المياه ، حيث تغشي بصرها رؤية وجه الرب او

اتباع عمود السحاب عبر الصحراء ومراقبة شجرة تقرقع دون أن تحترق* ، هذه الازدواجية القديمة غير المشكوك فيها ، قد وجدت فجأة ، وهي تتحطم أجزاء .

لقد انتصر عالم أيام الأسبوع على عالم يوم الأحد ، فعالم يوم الأحد لم يكن حقيقيا او في الأقل ليس واقعيا ، والمرء يعيش بالفعل .

إن عالم أيام الأسبوع هو الذي يهم ، واورسلا برانغوين نفسها ، يجب أن تعرف كيف تعيش حياة أيام الأسبوع ، وأن جسدها يجب أن يكون جسد أيام الأسبوع ، مثبتا في حسابات العالم ، وأن تكون لروحها قيمة خلال أيام الأسبوع ، معرفة اعتمادا على معرفة العالم .

حسن إذن ، ثمة حياة أيام الأسبوع كي تحياها ، حياة معمل وعمل ، لذلك فان ثمة ضرورة لاختيار المرء أفعاله وأعماله ، فالمرء يجب أن يكون مسؤولا أمام العالم عما يفعله ، بل إن المرء أكثر من مسؤول تجاه العالم ، فالمرء مسؤول تجاه نفسه . وكانت هناك بقية محيرة معذبة من عالم يوم الأحد في داخلها . بعض من الأحد المقاوم نفسه الذي كان يصر على انشاء علاقة مع عالم الرؤيا الذي يقبع في الظل الآن . كيف يمكن للمرء أن يحتفظ بعلاقة مع ما ينكره ؟ فمهمتها الآن هي أن تتعلم حياة أيام الأسبوع .

كيف تتصرف ، هذه هي المسألة ؟ الى أين تذهب ، وكيف تصبح نفسها ؟ فالمرء لم يكن نفسه ، بل هو مجرد سؤال نصف مطروح . كيف يستطيع المرء أن يصبح نفسه ، كيف ينسنى له أن يعرف السؤال وجوابه ، عندما يكون المرء مجرد شيء او لا شيء رجراج ، يهب كريح السماء ، غير معرف ، وغير مذكور . واستدارت نحو الرؤيا التي نطقت بكلمات بعيدة تركض على امتداد جريان الدم كامواج ريح لامرئية . وسمعت الكلمات مرة أخرى ، وأنكرت الرؤيا لأنها يجبُ ان تكون شخص أيام الأسبوع الذي تعد الأوهام في تصوره حقيقية . ولم تطلب إلا معاني أيام الأسبوع للكلمات حسب .

هناك كلمات نطقتها الرؤيا ويجب أن يكون للكلمات معنى أيام الأسبوع ، ذلك لأن الكلمات هي امور تخص أيام الأسبوع . دعهم يتحدثون الآن ؛ دعهم الآن يفصحون عن أنفسهم بمصطلحات أيام الأسبوع ، فالرؤيا يجب أن تترجم نفسها الى مصطلحات أيام الأسبوع : « بع كل شيء لك وأعطه للمساكين »** . سمعت ذلك في صباح يوم الأحد ،

---

* الصورة مستعارة من سفر الخروج ، الفصل الثالث ، الآية الثانية (فتجلى له ملاك الرب في لهيب من نار من وسط العليقة ، فنظر فإذا العليقة تتوقد بالنار وهي لا تحترق)

** إنجيل القديس متى ، الفصل التاسع عشر ، الآية الثلاثون (محتزأة)

وكان ذلك واضحا بما فيه الكفايه ، واضحا بما فيه الكفاية ليوم الإثنين أيضا ، بينما كانت تهبط التل في طريقها الى المحطة ، ذاهبة الى المدرسة . أخذت المقولة معها . «بع كل شيء لك ، وأعطه للمساكين» .

أتريد ان تفعل ذلك ؟ هل تريد أن تبيع بروشها المرصع باللؤلؤ ومرآتها وشمعدانها الفضي وسمطها الصغير الجميل ، وتذهب مرتدية الأسمال مثل آل ويري ، آل ويري المكروهين المشعثين الذين يمثلون «الفقراء» بالنسبة لها . لا ، إنها لا تريد .

ومشت صباح يوم الإثنين هذا على حافة التعاسة ، لأنها تريد أن تفعل ما هو صواب ، ولأنها تريد أن تفعل ما يقوله الإنجيل لها . إنها لا تريد أن تكون فقيرة ؛ فقيرة حقا ، إذ كانت الفكرة رعبا بالنسبة لها ؛ أن تعيش مثل آل ويري ، قبيحة وتحت رحمة الجميع .

«بع كل شيء لك ، وأعطه للمساكين» .

لا يمكن للمرء أن يفعل ذلك في الحياة الحقيقية ، وكم جعلها ذلك جزعة ويائسة! كما لا يمكن للمرء أن يدير الخد الآخر ، فلقد لطمت تيريزا اورسلا على وجهها ، وقدمت اورسلا في مزاج من التواضع المسيحي جانب وجهها الآخر الذي ضربته تيريزا في سخط ضد التحدي بينما انسلت اورسلا ، وقلبها يغلي مبتعدة .

ولكن الغضب والخزي العميق المؤلم عذبها ، لذلك لم يهدأ لها بال حتى تشاجرت مع تيريزا مرة أخرى ، وكادت أن تقتلع رأس أختها قائلة بتجهم :

ـ هذا سيعلّمك

وذهبت مبتعدة ، غير مسيحية ، بيد أنها نظيفة . ثمة شيء غير نظيف ومنحط بشأن هذا الجانب المتواضع من المسيحية . ولقد ثارت اورسلا فجأة ، مرتدة نحو النهاية المتطرفة الأخرى : «أنا أكره آل ويري ، وأتمنى أن يموتوا ، لماذا يخذلنا أبي على هذا النحو ، جاعلا منا معدمين تافهين ؟ لمَ لا يكون اكثر من ذلك . لو كان لدينا أب مثل ما يجب أن يكون ، لكان المفترض أن يكون الأيرل وليم برانغوين ، بينما اكون انا الليدي اورسلا! بأي حق اكون فقيرة أزحف في الطرقات كالهوام ؟ لو كانت حقوقي مصونة لأجلست على ظهر حصان في ساحة ركوب خضراء وعريسي خلفي ، أقف عند بوابات البيت ، وأستفسر من المرأة التي تخرج والطفل بين ذراعيها عن حال زوجها الذي آذى قدمه ، وأربت على رأس الطفل الكتاني الملمس ، منحنية من حصاني ، وأعطيه شلناً من محفظتي ، وآمر أن يرسل طعامٌ مغذٍ من القصر الى البيت .

لذلك انساقت في كبريائها . وفي بعض الأحيان كانت تندفع في النار كي تنقذ طفلا

منسيا ، او تغوص في محابس القناة كي تنقذ طفلا أصيب بتشنج العضل ، او أن تلتقط طفلا يتمايل من بين أقدام حصان راكض . وكان ذلك في الخيال دائما بالطبع .

لكن في النهاية عاودها التوق اللاذع من عالم يوم الأحد ، فعندما كانت تهبط في الصباح من كوسثي ، وترى دخان اليكستون ، أزرق طريا على تلّها ، عندها يفيض قلبها بكلمات نائية :

« يا أورشليم يا أورشليم... كم من مرة أردت أن أجمع بنيك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها فلم تريدوا »*

فاض شوقها للمسيح ، للتجمع تحت اجنحة الأمان والدفء ، لكن أنّى لها أن تطلب الانضمام الى عالم أيام الأسبوع ؟ ماذا يمكن أن تعني غير أن المسيح سيحضنها الى صدره مثل ما تحضن أم طفلها ؟ وآه ، من أجل المسيح ، من أجله هو الذي يستطيع أن يضمها الى صدره ، ويضيعها هناك ، اوه ، يا لصدر الرجل حيث يمكنها أن تجد الملاذ والسعادة الى الأبد! وارتجفت كل حواسها بتوق حنون .

وعلى نحو غامض أدركت أن المسيح يعني شيئا آخر : إذ أنه تحدث في عالم الرؤيا عن أورشليم ، شيء ما لا وجود له في العالم اليومي ، إنه ليس بالبيوت او المعامل ، فهو لن يحضن سكنة بيوت ولا عمال مصانع ، ولا أناساً فقراء ، بل شيئاً ما لا علاقة له بعالم أيام الأسبوع ، ولا يرى او يلمس بأيدي أيام الأسبوع وعيونها .

ومع ذلك فإن عليها أن تعرفه بمصطلحات أيام الأسبوع ، يجب عليها . فكل حياتها هي حياة أيام الأسبوع الآن ، وهذا هو كل شيء ، إنها يجب أن تلملم جسدها الى صدره الذي كان قويا وذا عظام عريضة ، ويصدر صوتا كنبض القلب ، ودافئا بالحياة التي تقاسمتها ؛ حياة الدم الجاري .

لذلك تاقت الى صدر ابن الإنسان ، كي تضطجع هناك وكانت خجلى في روحها ؛ خجلى ، إذ بينما تحدث المسيح الى الرؤيا كي تجيب ، فانها اجابت من حقيقة أيام الأسبوع ، وكان ذلك خيانة وتحويرا للمعنى من عالم الرؤيا الى عالم الحقائق . لذلك كانت خجلى من نشوتها الدينية ، وخائفة من أن يرى أحد ذلك .

وفي أوائل العام ، عندما ولدت الحملان ، وبنيت الملاجئ من القش ، وجلس الرجال في حقل خالها في الليل مع فانوس وكلب ، عندها غطست مرة اخرى في حيرتها التواقة بين

* إنجيل القديس متىّ ، الفصل الثالث والعشرون ، الآية السابعة والعشرون .

عالم الرؤيا والحقيقة ، ومرة أخرى أحست بيسوع في الريف . اوه ، إنه سوف يرفع الحملان بين ذراعيه* ، آه ، وكانت هي الحمل . ومرة اخرى ، في الصباح ، وهي تهبط الطريق ، سمعت ثغاء الأغنام ، وجاءت الحملان وهي تركض ، تهتز وتومض بسعادة ، ولدت لتوها ، ورأتها وهي تنحني وتمرغ أنوفها ، وتتلمس باحثة عن الضرع كي تجد حلماته ، بينما كانت الأم تدير رأسها بحزن وتستنشق ضرعها . وطفقت الحملان تمص نابضة بالسعادة على سيقانها الطويلة الصغيرة ، وقد اشرأبت أعناقها . وكانت أجسادها الجديدة ترتجف للحليب المحب الذي بدفء الدم .

آه ، والسعادة ، السعادة! كان يشق عليها أن تمزق نفسها كي تذهب الى المدرسة ، الأنوف الصغيرة تتمرغ في الضرع ، والأجساد الصغيرة سعيدة واثقة ، والأرجل السود الصغيرة معقوفة ، والأم واقفة ساكنة ، مسلمة نفسها ، لجديها المرتجف . بعد ذلك ، مشت الأم مبتعدة بهدوء .

يسوع ، عالم الرؤيا ، العالم اليومي ، أمور اختلطت كلها على نحو لا يمكن فكه في فوضى من الألم والسعادة . كاد الأمر يكون كربا ، الفوضى ، الإختلاط ، يسوع ، الرؤيا ، يتحدث إليها ، هي التي كانت غير رؤيوية! ستأخذ كلماته عن الروح فتدجنها من أجل شهوتها .

كان ذلك خزيا لها أن تخلط بين عالم الروح وعالم المادة داخل روحها ، وأن تحط من شأنها ، إذ أجابت نداء الروح بمصطلحات الشهوة اليومية الملحة .

«تعالوا إلي كلكم أيها المتعبون والمثقلون ، وأنا أريحكم»** . وكان جوابا دنيويا ذلك الذي أعطته ، فقفزت بتوق حسي كي تستجيب للمسيح . لو كان بمقدورها أن تذهب إليه حقا ، وتسند رأسها على صدره ، أن تشعر بالراحة ، أن يحتفي بها ، وأن يدللها كطفل . وطوال الوقت ، كانت تمشي وسط حرارة مشوشة ، مبعثها توق ديني . أرادت أن يحبها يسوع بلذة ، أن يأخذها قرباناً حسياً ، أن يمنحها استجابة حسية . وطوال اسابيع ، كانت تسبر في متعة متأملة .

وطوال الوقت ، كانت تدرك في قرارة نفسها ، أنها كانت تغش وتقبل هوى يسوع من أجل رضاها الجسدي ، بيد انها كانت في حيرة ، وفي أحبولة . فأنّى لها أن تفك إسارها ؟

ولقد كرهت نفسها . أرادت أن تدوس على نفسها ، أن تحطمها ؛ كيف يمكن للمرء أن

* إنجيل القديس لوقا ، الفصل الخامس عشر ، الأيتان الرابعة والخامسة (فاذا وجده يحمله على منكبيه فرحا)

** إنحيل المديس متى ، الفصل الحادي عشر ، الأيه الثامنة والعشرون

يصبح حرا ؟ كرهت الدين لأنه يمنح نفسه لارتباكها ، ولقد أساءت استعمال كل شيء . أرادت أن تصبح جسأة صلبة ، لامبالية ، قاسية تجاه كل شيء ، باستثناء الحاجة الملحة ؛ الإشباع الملح . أن يكون عندها توق تجاه يسوع ، كي تستعمله لتشبع احساسها الناعم حسب ، تستعمله كوسيلة للرد على نفسها ، وافقادها صوابها . في النهاية ، عندها ، لن يكون ثمة يسوع ، ولن تكون ثمة عاطفة ، وبكل الكره المر الناتج من اليأس ، كرهت العاطفة .

في تلك الفترة ، جاء الشاب سكريبنسكي ، كانت عندها فتاة تناهز السادسة عشرة من عمرها ، رشيقة متقدة من الداخل ، شديدة التكتم . ومع ذلك ، كانت مستغرفة في انبساط غير متحفظ بين فترة واخرى ، عندما كانت تبدو وكأنها تتخلى عن نفسها بأكملها ، بينما تقوم في الحقيقة ، بتصنع آخر لنفسها للتقديم المظهري حسب . كانت حساسة بتطرف ، معذبة باستمرار ، محدثة جسأة دائماً لامبالية في حجب نفسها .

كانت في ذلك الوقت مصدر إقلاق على وجه الأرض بهواها المتشنج ، وعذابها الخافت . كانت تبدو ماشية ، وقد حملت روحها على كفها ، تائقة الى الشخص الآخر . ومع ذلك ، وطوال الوقت ، كان في أعماقها عداء طفولي ناتج من انعدام الثقة . اعتقدت أنها أحبت الجميع ، ووثقت بهم ، لكن لأنها لا تستطيع أن تحب نفسها ، ولا تثق بها ، فانها لم تكن تثق بأي أحد ، كانعدام ثقة الأفعى او الطير المأسور* . وكانت نوبات رفضها وكرهها أكثر حتمية من نزوات الحب عندها .

وهكذا تصارعت خلال أيام حيرتها السود ، عديمة الروح ، غير مخلوقة ، وغير متكونة .

وفي إحدى الأمسيات ، بينما كانت تمشي في الشرفة ، وقد دفنت رأسها بين يديها ، سمعت اصواتا جديدة تتحدث في المطبخ ، وفي الحال ، جفلت روحها القابلة للإثارة من لامبالاتها ، وأصاخت السمع ، وبدت انها تجثم وتتلكأ متخفية ، متوترة متألقة غير راغبة ، في أن ترى .

كان هناك صوتا رجلين غريبين ؛ أحدهما هش وصريح ، متستر بنصاعة ناعمة ، أما الآخر فمحجوب بقابلية على الحركة السهلة ، سريع الإنطلاق . جلست اورسلا متوترة تماما ، متنبهة من دروسها ، وأصغت طوال الوقت الى نبرات الأصوات غير مهتمة بالكلمات إلا لماما .

---

* هذه الرموز الطبيعية هي الأخرى جزء من رمزية لورنس عن تكوين النفس من حديقه الرب .

كان المتحدث الأول خالها توم ، وأحست بالنصاعة الساذجة التي تحجب تعاسة روحه المتحفزة المتوحشة . من يا ترى كان المتحدث الآخر ؟ ذاك الذي كان صوته ينساب برقة مصحوبا ، مع ذلك ، بنبض متوقد ؟ كان يبدو يستعجلها ويحثها الى الأمام ؛ ذلك الصوت الآخر ، كان صوت الشاب يقول :

ـ أنا أتذكرك ، أتذكرك من المرة الأولى التي التقيتك فيها ، بسبب عينيك الغامقتين ، وبشرتك الفاتحة .

ضحكت السيدة برانغوين ، خجلى ومسرورة وقالت له :

ـ كنت عندها صبيا صغيرا ، مجعد الشعر!

ـ هل كنت كذلك ؟ نعم ، أنا أعرف ، كانا فخورين جدا بخصلات شعري .

ثم تحولت الضحكة الى صمت .

وقال والدها :

ـ أتذكر أنك كنت صبيا مهذبا جدا .

ـ اوه ، هل طلبت منك أن تبيت عندنا ؟ كنت معتادا على أن أطلب من الناس أن يقضوا الليل معنا ، اعتقد انها كانت محاولة من أجل أمي .

وتلت ذلك ضحكة عامة ، ونهضت اورسلا . إن عليها أن تذهب . عند سماعهم قرقعة المزلاج ، استدار الجميع نحو مصدر الصوت . تسمرت الفتاة عند الباب ، وقد تملكها ارتباك اللحظة الحاد . كانت تبدو جميلة المحيا ، ولقد اكتسبت الآن سيماء ارتباك جذابة ، وهي متسمرة لحظة ، لا تعرف كيف تحمل كتفيها . كان شعرها الفاحم معقودا الى الخلف ، وأشرقت عيناها البنيتان الصفراوان دون اتجاه ، وخلفها في الشرفة ، كان ضوء المصباح الهش ينثال على الكتب

قادها استعداد سطحي نحو خالها توم الذي قبلها وحياها بحرارة ، مظهرا تملكا حقيقيا نحوها ، وفي الوقت نفسه معلنا انفصاله التام .

بيد أنها ارادت ان تستدير نحو الغريب ، وكان هذا يقف الى الخلف قليلا منتظرا كان شابا ، ذا عينين رماديتين صافيتين جدا ، تنتظران حتى ينادى عليهما ، قبل أن تتخذا أي تعبير .

أثارها شيء ما في انتظاره الراسخ ، وانطلقت في ضحكة مرتبكة جميلة عندما أعطته يدها ، حابسة نفسها كطفل مهتاج . كانت يده مطبقة على يديها بشدة ، قريبة جدا ، ثم انحنى ، وكانت عيناه تراقبانها ببعض الاهتمام ، وأحست بالزهو وقفزت روحها الى الحياة .

ـ أنت تعرفين السيد سكربينسكي يا اورسلا ؟

جاءها صوت خالها توم الحميم ، فرفعت رأسها ببريق مندفع نحو الغريب ، كما لو أنها تعلن المعرفة ضاحكة ضحكتها المهتاجة الخافقة .

أصبحت عيناه مشوشتين بأضواء مثارة ، وتحول اهتمامه المنفصل الى توثب نحوها كان شابا في الحادية والعشرين ، ذا قامة ممشوقة ، وشعر بني ناعم ممشط الى الأعلى من جبينه مباشرة وفق الطريقة الألمانية . سألته :

ـ هل تمكث هنا فترة طويلة ؟

فقال لها وهو يلقي نظرة على توم برانغوين :

ـ لدي إجازة أمدها شهر واحد ، ولكن علي أن أزور عدة أمكنة خلالها ، إذ يجب أن اذهب لأقضي بعض الوقت هنا او هناك .

حمل إليها إحساسا قويا بالعالم الخارجي ، كما لو أنها وضعت على تل ، وأن بمقدورها أن تشعر على نحو غامض بالعالم كله يتمدد منتشرا أمامها ، وسألته :

ـ مم أخذت إجازة الشهر ؟

ـ أنا في صنف المهندسين في الجيش .

فهتفت جذلى :

ـ اوه!

وقال خالها توم :

ـ نحن نشغلك عن دراستك .

فردت بسرعة :

ـ اوه ، لا .

ضحك سكربينسكي مفعما بالشباب والتوقد ، وقال والدها :

ـ إنك لا تحتاجين لمن يشغلك .

بيد أن ذلك بدا جوابا أخرق ، وتمنت لو أنه يتركها تقول ما يدور بخلدها . سألها سكربينسكي ، مستديرا نحوها ، طارحا السؤال من تجربته :

ـ ألا تحبين الدراسة ؟

فردت اورسلا :

ـ أحب بعض الدروس ، أحب اللاتينية والفرنسية والنحو .

راقها وبدا كل كيانه متمركزا عليها ، ثم هز رأسه ، بعد ذلك ، وقال :

ـ أنا لا أحبها . لقد قالوا إن كل عقول الجيش في صنف المهندسين ، وأعتقد أن هذا هو السبب الذي جعلني انخرط فيه ؛ أن أحصل على ميزة عقول الآخرين .

قال ذلك بمرارة واستهزاء ، وركزت انتباهها نحوه ، فلقد أثار الأمر انتباهها ، وسواء كان له عقل أم لا ، فإنه كان مثيرا ، إذ جذبتها صراحته وعاطفته المستقلة ، وكانت مدركة حركة حياته مقابل حياتها ، فقالت :

ـ لا أعتقد أن العقل مهم .

ـ وماذا يهم إذن ؟

جاء صوت الخال توم الملاطف ، شبه الساخر ، فاستدارت إليه قائلة :

ـ ما يهم هو كون الناس شجعانا أم لا .

فسألها خالها :

ـ شجاعة في أي شيء ؟

ـ في كل شيء .

أصدر توم برانغوين ضحكة صغيرة حادة ، وجلس الأب والأم صامتين مصغيين ، وانتظر سكربينسكي إذ كانت تتحدث اليه ، وضحك خالها قائلا :

ـ إن كل شيء يعني لا شيء .

ولقد كرهته في تلك اللحظة . قال والدها متململا ، واضعا ساقا فوق أخرى :

ـ إنها لا تطبق ما تبشر به ، فهي شجاعة في الأشياء الصغيرة جدا

بيد أنها لم تجب ، وجلس سكربينسكي منتظرا ، وكان وجهه غير منتظم يكاد أن يكون قبيحا مسطحا ذا أنف سميك بعض الشيء ، غير أن عينيه رائقتان صافيتان على نحو غريب ، وكان شعره البني ناعما كثيفا كالحرير ، وله شارب رفيع ، وكان جلده نقيا ، وقامته نحيلة جميلة . والى جانبه ، بدا خالها توم ممتلئا تماما ، بينما ظهر والدها أخرق . ومع ذلك ، ذكرها بوالدها ما عدا أنه كان أكثر رقة ، وكان يبدو مشرقا ، ووجهه يكاد أن يكون قبيحا .

بدا مرتضيا ، ببساطة ، حقيقة وجوده ، كما لو أنه كان خارج أي تغيير او تساؤل . كان نفسه . ثمة إحساس قدري في ما يتعلق به ، وهو أمر أدهشها ، فلم يكن يبذل أي جهد كي يثبت نفسه للآخرين إذ كان يدعها تُقْبَل لما هي عليه . وفي عزلتها لم تقدم نفسه أي عذر او تفسير ، لذلك بدا راسخا تماما بل حتى على نحو قدري ، فلم يطلب أن يُصيّر قبل ان يتمكن من الوجود ؛ قبل أن يستطيع أن يقيم علاقة مع شخص آخر .

ولقد جذب اورسلا هذا كثيرا ، إذ كانت اعتادت على الناس غير الواثقين الذين يتخذون كيانا جديدا تحت كل تأثير جديد . كان خالها توم على نحو او آخر في الهيئة التي يريدها فيه الشخص الآخر ، ونتيجة لذلك ، لا يعرف المرء أبدا الخال توم الحقيقي ، بل هو مجرد مائع غير مرض ، يتدفق بمظهر ثابت بصورة او أخرى .

لكن دع سكربينسكي يفعل ما يحلو له ، أن يخون نفسه كليا ، فهو يخون نفسه دائما على مسؤوليته ، ولا يسمح بأي تساؤل يتعلق بشخصه . كان صارما في عزلته .

لذلك اعتقدت اورسلا أنه رائع . كان مجبولا بطريقة رائعة ، مميزا جدا ، متمالكا نفسه ، معيلها . وقالت لنفسها هذا رجل نبيل ، وإن له طبيعة تشبه القدر ؛ طبيعة أرستقراطي .

لذلك أمسكت به في الحال من اجل احلامها ، فهنا أحد أبناء الله الذين رأوا بنات الناس اللواتي كن شقراوات ، إنه ليس ابن آدم ، إذ كان آدم خنوعا . ألم يطرد آدم متذللاً من موطنه* . ألم يصبح الجنس البشري شحاذا يبحث عن ذاته ؟ ولكن أنطون سكربينسكي لا يمكن أن يشحذ ، إذ كان متمالكا نفسه ، متملكا هذا ولا شيء اكثر ، فالآخرون غير قادرين على أن يمنحوه أي شيء او أن يأخذوا منه اي شيء . كانت روحه تقف وحيدة .

أدركت أن أمها وأباها قد اعترفا به ، ولقد تغير البيت ، إذ أن زيارة تمت إليه . ذات مرة وقف ثلاثة ملائكة على باب بيت ابراهيم** وحيوه ، ثم بقوا وتناولوا الطعام معه ، تاركين سكان بيته أغنياء الى الأبد عندما غادروا .

وفي اليوم التالي ، ذهبت الى حقل مارش بناء على دعوة ، ولم يكن الرجلان عادا الى البيت ومن ثم ، وبينما كانت تنظر من النافذة ، رأت عربة تجرّها الكلاب ثم شاهدت سكربينسكي يقفز منها . رأته وهو يلملم شعاث نفسه ، ثم قفز وضحك لخالها الذي كان يقود ، وتوجه صوبها الى البيت . كان تلقائيا جدا ومفضوحا في حركاته . كان معزولا في مناخه الصافي الرائع ، وساكنا كما لو كان مقدرا عليه ذلك .

كان رضاه بقدره قد منحه مظهر التراخي الذي يكاد يكون وَهْناً ، فلم يكن يقوم بأية حركة حيوية ، وعندما جلس بدا كأنه يرتخي ، فاتر الهمة ، وقال لها :

ـ لقد تأخرنا قليلا .

---

* سفر التكوين ، الفصل الثالث ، الآية ٢٣ : «فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليحرث الأرض التي أخذ منها» .

** سفر التكوين ، الفصل الثامن عشر ، الآيات ١-٢ : «وتجلى له الرّبُ في بلوط ممرا وهو جالسٌ بباب الخباء عند احتداد النهار ، فرفع طرفه ونظر فاذا ثلاثة رجال وقوف أمامه. » .

ـ أين كنتما ؟
ـ ذهبنا الى دربي لزيارة أحد أصدقاء والدي .
ـ من ؟
كانت مغامرة بالنسبة إليها أن تطرح اسئلة مباشرة ، وتحصل على أجوبة صريحة . ولقد عرفت أنها تستطيع أن تفعل ذلك مع هذا الرجل
ـ لماذا ، إنه رجل دين أيضا ، وهو القيم علي ، أحدهم .
وعرفت اورسلا أن سكربينسكي كان يتيما ، وسألته .
ـ وأين بيتك الآن حقا ؟
ـ بيتي ؟ إني اتساءل ، انا مغرم جدا بالكولونيل ؛ الكولونيل هيبورن ، ثم هناك عماتي ، لكن بيتي الحقيقي على ما أعتقد هو الجيش .
ـ هل تحب أن تكون مستقلا ؟
استقرت عيناه الرائقتان الرماديتان المخضرتان عليها لحظة ، بينما كان يتأمل ولم يكن يراها ، وقال :
ـ أعتقد ذلك ، أنت تعرفين أن والدي لم يألف هذه الأنحاء أبدا . لقد أراد وأنا أعرف ما أراد ، لكن ذلك كان إجهادا ، وأمي ، كنت أعرف دائما أنها طيبة جدا معي ، إني أستطيع أن أشعر بأنها طبيعية جدا معي ، أمي! بعد ذلك فارقتهما كي أذهب الى المدرسة مبكرا ، ويجب أن أقول إن العالم الخارجي كان بيتا اكثر طبيعية بالنسبة لي من بيت القس ، وأنا لا أعرف السبب .
فقالت له مستعملة عبارة وردت في ذهنها :
ـ أتشعر أنك طير ساقته الريح على غير ما يشتهي ؟
ـ لا ، لا ، إني أجد كل شيء مثل ما أحبه تماما
أكثر فأكثر ، كان يبدو أنه يمنحها إحساسا بالعالم الشاسع ، إحساسا بالمسافات وكتل البشر الهائلة . وكان ذلك يجذبها مثل ما يجذب العطر نحلة من البعد ، بيد أنه كان يؤذيها أيضا .
كان الوقت صيفا ، وارتدت فساتين من القطن . وفي المرة الثالثة التي رآها فيها ، كانت ترتدي ثوبا ذا أشرطة زرق وبيض ناعمة وياقة بيضاء وقبعة بيضاء كبيرة ، ولقد ناسب ذلك لون بشرتها الذهبية الدافئة ، قال لها ، وقد أمال رأسه الى أحد الجانبين قليلا ، مادحا إياها بطريقة مستوعبة ناقدة :

ـ تعجبيني أكثر في هذا الملبس .

وتملكها دهش حياة جديدة . وللمرة الأولى تجد نفسها في حب مع رؤيا نفسها ، إذ رأت أنها انعكاس صغير رائع لنفسها في عينيه ، ويجب أن تتصرف وفق هذا يجب أن تكون جميلة ، واتجهت أفكارها بهدوء نحو الملابس ، وكانت رغبتها هي أن تجعل مظهرها جميلا ، وتفرجت عائلتها بدهشة على تحولها المفاجئ ، إذ أصبحت أنيقة حقا في ملابس قطنية على مقاسها صنعتها بنفسها ، وكانت تميّل القبعات وفق هواها ، وتملكها إلهام .

جلس في نوع من الوهن على كرسي جدتها الهزاز ، يهز نفسه ببطء متراخيا الى الأمام والخلف ، بينما كانت اورسلا تتحدث اليه ، قالت له :

ـ إنك لست فقيرا أليس كذلك ؟

ـ أتعنين النقود ؟ إن لدي دخلاً شخصياً يبلغ زهاء المئتين والخمسين جنيها في السنة ، لذلك فأنا يمكن أن أكون غنيا او فقيرا كما تشائين . أنا في الحقيقة فقير بما فيه الكفاية .

ـ لكنك ستكسب بعض النقود ؟

ـ سيكون عندي مرتبي . إن لدي مرتبي الآن ، ولقد حصلت على رتبتي ، وهذا يعني مئتين وخمسين جنيها أخرى .

ـ ومع ذلك ستحصل على المزيد ؟

ـ لن أحصل على أكثر من مئتي جنيه في السنة خلال السنوات العشر القادمة ، سأكون فقيرا بصورة دائمة ، اذا كان عليّ أن أعيش على مرتبي .

ـ وهل تهتم بذلك

ـ أن أكون فقيرا ؟ ليس الآن ، ليس كثيرا جدا ، قد أكون كذلك بعدئذ ، فالناس ، أعني الضباط ، لطفاء معي ، وكان الكولونيل هيبورن يحبني بطريقة ما ، وهو رجل ثري على ما أعتقد .

وسرت قشعريرة في جسد اورسلا ، هل سيبيع نفسه بطريقة ما ؟

ـ هل الكولونيل هيبورن متزوج ؟

ـ نعم وله ابنتان .

بيد أنها كانت متكبرة في الوقت الحاضر كي تهتم ، إن كانت ابنة الكولونيل هيبورن تريد الزواج به أم لا .

خيم الصمت بعد ذلك ، ودخلت غدرون ، وكان سكربينسكي مايزال يهتز بتراخ على الكرسي ، وقالت غدرون :

ـ إنك تبدو كسولا جدا

فأجابها ·

ـ أنا كسول .

وقالت له :

ـ إنك متهدل حقا .

فأجابها :

ـ أنا متهدل .

وسألته غدرون :

ـ ألا تستطيع التوقف ؟

ـ لا ، إنها الحركة السرمدية* .

ـ إنك تبدو كما لو أن ليس لك عظام في جسدك .

ـ هذه هي الحال التي أحب أن أشعر بها .

ـ أنا لا يعجبني ذوقك .

ـ وهذا من سوء حظي .

ثم استمر يهتز .

جلست غدرون نفسها خلفه ، وعندما اهتز راجعا الى الخلف ، أمسكت شعره بين سبابتها وإبهامها حيث تسحبه عندما يندفع الى الأمام مرة اخرى ، بيد انه لم يهتم بذلك ، ولم يكن هناك غير صوت الاهتزازات على الأرضية وفي صمت ، كسرطان البحر ، كانت غدرون تمسك بخصلة من شعره في كل مرة يرتد فيها الى الخلف . توردت اورسلا ، وجلست شاعرة ببعض الألم ، ورأت الانزعاج وهو يتجمع على جبينه .

وفي النهاية ، قفز الى الأعلى كنابض فولاذي يفلت من موضعه ، ووقف على سجادة الموقد .

وسأل مشاكسا حاد الطبع :

ـ اللعنة ، لماذا لا أستطيع أن أهز نفسي ؟

أحبته اورسلا لقفزته الفولاذية المفاجئة من خارج الفتور ، ووقف على السجادة ، وقد استشاط غضبا ، وعيناه تتوهجان بالغضب

---

* باللاتينية في الأصل

ضحكت غدرون بطريقتها العميقة الناعمة وقالت

ـ الرجال لا يهزون أنفسهم

فقال لها .

ـ والفتيات لا يسحبن شعور الرجال

وضحكت غدرون مرة أخرى

جلست اورسلا متسلية ، لكن منتظرة . كان يدرك أن اورسلا كانت تنتظره ، ولقد أثار ذلك دمه . إن عليه أن يذهب إليها ، أن يتبع نداءها .

وفي إحدى المرات ، أوصلها الى دربي في عربة تجرّها الكلاب . كان ينتمي الى صنف الجنود والخيالة ، ولقد تناولا الغداء معا في حانة ثم تجولا في السوق مسرورين بكل شيء ، واشترى لها نسخة من (مرتفعات وذرنك) من مكتبة ، ثم وجدا معرضا صغيرا في طور الافتتاح ، فقالت له .

ـ اعتاد والدي أن يصطحبني الى الأرجوحات الزورقية .

وسألها ؛

ـ هل أحببتها ؟

فأجابت ؛

ـ اوه ، كانت رائعة

ـ هل تريدين الذهاب الآن ؟

ـ أعشق ذلك .

قالت ذلك رغم أنها كانت خائفة ، غير أن احتمال القيام بشيء استثنائي مثير لها كان أمرا يجذبها . توجه الى غرفة المحصل مباشرة ، ودفع النقود ، ثم ساعدها على الصعود . كان يبدو كأنه يهمل كل شيء باستثناء ما كان يفعله ، ولم يكن الآخرون سوى مجرد أدوات ليست بذات أهمية في نظره . وودت لو أنها تتراجع ، بيد أنها كانت خجلى من أن تتراجع عنه أكثر من إن تكشف نفسها للحشد ، او أن تتحدى الأرجوحة الزورقية . ضحكت عيناه ، ودفع الزورق ، وهو واقف امامها بهيئته الجادة كي يتأرجح ، ولم تكن خائفة ، بل مبهورة . احمر لونه ، وأشرقت عيناه بضوء مثار ، ورفعت بصرها اليه ، وكان وجهها يشبه زهرة في الشمس ، براقا وجذابا جدا . وهكذا اندفعا خلال الهواء البراق ، متسلقين السماء ، كما لو أنهما يندفعان من منجنيق ثم يسقطان على نحو مروع بأتجاه الأسفل . ولقد أحبت ذلك ، وبدا وكأن الحركة تشعل النار في دمها ، فضحكا شاعرين بما يشبه اللهيب .

بعد الأرجوحات الزورقية ، صعدا الى الدوارة كي يهدأ . وكان يتلوى نحوها ، منفرج الساقين على جواده الخشبي المرتج ، وكان يبدو مسترخيا دوما ، ممتعا نفسه ، إذ أن لمسة من العداء للتقاليد ، جعلته يتصرف على سجيته بصورة مكتملة . وبينما جلسا على ذلك الحشد الدائر ، والموسيقى تجأر ، كانت واعية بوجود الناس على الأرض في الخارج . وبدا أنهما يركبان معا بإهمال على وجوه الحشد ، راكبين الى الأبد ، طافيين ، مزهوين ، متألقين على وجوه الحشد المقلوبة ، متنقلين الى مستوى أعلى ، رافضين الحشد المألوف .

عندما وجب أن ينزلا ويبتعدا ، كانت تعيسة ، شاعرة كما لو أن عملاقا قد صار الى مستوى اعتيادي ، تحت رحمة الغوغاء

غادرا المعرض كي يعودا الى عربة الكلاب ، وعندما اجتازا الكنيسة الكبيرة ، ارتأت اورسلا أن من الواجب أن تتفرج عليها ، بيد أن داخلها بأكمله كان ممتلئا بالسقالات والأحجار المتساقطة والنفايات متكومة على الأرضية ، وثمة قطع من الجص المسحوق تحت الأقدام ، وكان المكان يردد صدى نداء الأصوات الدنيوية ، وقرعات الفؤوس .

لقد جاءت كي تغطس في السلام والظلام التامين لحظة ، مستجمعة كل توقها الذي عاودها غامرا بعد ركوبها الطائش على وجوه الحشد في المعرض .

بعد الكبرياء ، أرادت الراحة والعزاء ، لأن الكبرياء والازدراء على ما يبدو يؤذيانها أكثر من أي شيء آخر .

ولقد وجدت الظلام العتيد ممتلئا بقطع من الجص المتساقط وغبار الجص الطافي ورائحة الجير القديم ، وقد تكومت السقالات والنفايات في ارجاء المكان ، والغبار يغلف المذبح ، قالت له :

ـ دعنا نجلس قليلا .

وجلسا دون أن يلحظهما أحد على المقعد الخلفي في الظلام ، وراقبت عمل بنائي الآجر والمجصصين القذر غير المرتب ؛ عمال بأحذية ثقيلة يمشون ساحقين الممرات ، منادين بعضهم بلهجة عامية :

ـ هي يا صاحبي ، هل اكتملت سباكة الزاوية ؟

وكانت ثمة صيحات جواب خشن من سقف الكنيسة ، وردد المكان الصوت مهجورا   جلس سكربينسكي قربها ، وبدا كل شيء مدهشا ، إن لم يكن مروعا بالنسبة لها إذ تحول العالم الى خرائب ، وها هما يتسلقان خارجين دون أن يلحقهما الأذى ، متمردين في وجه كل شيء   جلس قريبا منها ، يمسها ، وكانت واعية بتأثيره عليها ،

بيد انها كانت سعيدة ، إذ كان يثيرها أن تشعر بضغطه عليها ، كما لو أن كيانه كان يحثها على شيء ما .

وعندما قفلا عائدين الى البيت ، جلس قربها . وعندما كان يتأرجح في العربة ، كان يفعل ذلك بطريقة شهوانية مهملة ، مستندا عليها متمهلا ، وهو يبتعد متأرجحا ، كي يستعيد توازنه

وبصمت سحب يدها تحت الدثار ، ووجهه مرفوع ، دون أن يبصر الطريق . كانت روحه مركزة ، ابتدأ بيده الوحيدة يفك أزرار قفازها ، كي يدفع قفازها بعيدا عن يدها ، معريا يدها بعناية . ولقد أطار عمل أصابعه الغرّزي المكتوم على يدها صواب الفتاة الشابة بمتعة شهوانية . كانت يده رائعة جدا ، مركزة كمخلوق حي تدفع وتعالج بمهارة في العالم السفلي المظلم ، تزيح قفازها وتعري راحة يدها واصابعها . ثم انغلقت يده على يدها ثابتة جدا ، قريبة جدا ، كما لو أن اللحم قد نسج يده ويدها الى شيء واحد . وفي تلك الأثناء ، كان وجهه يراقب الطريق وأذني الحصان ، وكان يسوق بانتباه ثابت عبر القرى . وكانت تجلس الى جانبه ، مستغرقة ، متوهجة ، عمياء بضوء جديد . لم ينبس اي منهما ببنت شفة . وفي الانتباه الخارجي ، كانا منفصلين تماما ، لكن كان بينهما التحام لحمه بلحمها في تشابك أيديهما

بعد ذلك ، وبصوت غريب يغري بالتراخي والسطحية قال لها :

ـ ذكرني جلوسنا في الكنيسة بأنغرام .

فسألته :

ـ ومن هو انغرام ؟

كانت هي أيضا تغري بسطحية هادئة ، بيد أنها أدركت أن ثمة شيئاً محرماً كان في الطريق :

ـ إنه أحد الرجال الآخرين معي في (جثم) ، ضابط لكنه أكبر مني بسنة واحدة .

ـ ولماذا نذكرك الكنيسة به ؟

ـ حسن ، كانت عنده فتاة في (روجستر) ، وكانا يجلسان دائما في زاوية معينة في الكاتدرائية عندما يمارسان الحب .

فهتفت مندفعة :

ـ يا للروعة!

لقد أساءا التفاهم

ـ رغم أن لذلك مضاره أيضا ، فلقد خلق الشماس ضجة بشأنها .

ـ يا للعار! ولماذا لم يكن بمقدورهما الجلوس في الكاتدرائية ؟

ـ أعتقد أن الجميع يعتقدون أن الأمر تدنيس ما عداك وانغرام والفتاة .

ـ لا أعتقد أن في الأمر تدنيسا ، بل من الصواب ممارسة الحب في كاتدرائية

قالت ذلك بتحد تقريبا رغم روحها .

وكان صامتا .

ـ وهل كانت لطيفة ؟

ـ من ؟ اميلي ؟ نعم كانت لطيفة فعلا ، إنها بائعة قبعات نسائية ، ولم تكن لتسمح بأن ترى في الشوارع مع انغرام ، وكان الأمر محزنا حقا ، لأن الشماس تجسس عليهما ، وتوصل الى معرفة اسميهما ثم خلق ضجة معلنة .

ولقد أصبحت حكاية شائعة بعد ذلك

ـ وماذا فعلت ؟ ذهبت الى لندن كي تعمل في محل كبير ، ومايزال انغرام يذهب هناك كي يراها .

ـ هل يحبها ؟

ـ إنه معها منذ ما ينيف على السنة والنصف

ـ وكيف كانت تبدو ؟

ـ اميلي ؟ فتاة ضئيلة من النوع المتكفكف الخجول ذات حاجبين رائعين .

تأملت اورسلا ذلك إذ بدا الأمر لها أشبه بغرام حقيقي في العالم الخارجي .

ـ هل لكل الرجال حبيبات ؟

سألته مندهشة من تهورها ، غير أن يدها ماتزال مشتبكة مع يده ، ووجهه مايزال الثبات غير المتغير للهدوء الخارجي نفسه .

ـ إنهم يذكرون دائما امرأة او أخرى رائعة على نحو مدهش ، ويثملون كي يتحدثوا عنها ، ويندفع اغلبهم الى لندن في اللحظة التي يكونون فيها أحرارا .

ـ من أجل ماذا ؟

ـ من أجل امرأة او أخرى رائعة على نحو مدهش .

ـ أي نوع من النساء ؟

ـ مختلفات ، وكقاعدة ، تتغير أسماؤهن باستمرار . أحد هؤلاء كان ممسوسا حقيقيا ، إذ كان يحتفظ بحقيبة أمتعة جاهزة دوما . وفي اللحظة التي يكون حرا فيها ، ينطلق بها الى

المحطة ويغير ملابسه في القطار ، بغض النظر عمن يكون في المقطورة ، فيخلع سترته وينجز في الأقل زينة جزئه الأعلى .

وارتجفت اورسلا ، وتملكها الدهش وسألته :

ـ ولم هو في عجلة من امره ؟

ابتدأت حنجرتها تصبح صلبة وصعبة .

ـ أعتقد أن ثمة امرأة في ذهنه .

أصابتها القشعريرة وتصلبت ، ومع ذلك ، فان عالم الهوى والتمرد كان يدهشها ، فلقد بدا لها ذلك طيشا رائعا إذ أن مغامرتها في الحياة قد ابتدأت ، وهي مغامرة تبدو رائعة جدا .

ذلك المساء ، بقيت في حقل مارش حتى بعد هبوط الظلام ، وأوصلها سكربينسكي الى بيتها ، ذلك لأنها لم تكن تستطيع الابتعاد عنه ، وكانت تنتظر شيئا أكثر

وفي دفء الليل المبكر والظلال ، حديثة التكون من حولهما ، أحست نفسها في عالم آخر ، أشد صلابة ، وأجمل ، وأقل ذاتية . والآن ، حالة جديدة يجب أن تمر .

كان يمشي الى جانبها ، وفي الصمت نفسه ، وبنية مقصودة ، وضع ذراعه حول خصرها وبنعومة ؛ نعومة شديدة ، سحبها اليه ، حتى أصبح ذراعه صلبا ضاغطا عليها . وبدت كأنها تستغرق طافية ، ونادرا ما كانت قدماها تلمسان الأرض ، منقولة على سطح جسده المشدود المتحرك ، كأنها تضطجع على جانبه في إغماءة لذيذة متحركة ، وبينما كانت مستغرقة ، انحنى وجهه قريبا منها ، واستند رأسها الى كتفه ، وأحست بنفَسه الدافئ على وجهها . ومن ثم ، بنعومة ؛ بنعومة ، شعرت معها أنها سيغمى عليها مست شفتاه خدها ، فأبحرت عبر شواطئ من الحرارة والظلام .

ومع ذلك ، كانت تنتظر ، في إغماءتها وإبحارها ، كالملاك النائم في القصة وانتظرت ، ومرة أخرى ، انحنى وجهه على وجهها ، وأحست بدفء شفتيه على وجهها ، وتلكأت خطواتهما وتوقفت ، وتوقفا تحت الأشجار ، بينما كانت شفتاه تنتظران على وجهها ، تنتظران كفراشة لا تتحرك على زهرة . وضغطت صدرها مقتربة منه ، فتحرك مطوقا إياها بذراعيه ، ساحبا إياها أقرب إليه .

ومن ثم ، وفي الظلام ، انحنى على فمها ، وبنعومة لمس فمها بفمه ، وكانت خائفة ، واستكانت على ذراعيه ، شاعرة بشفتيه على شفتيها بقيت ساكنة ، عديمة الحيلة ، ثم اقترب فمه ضاغطا على فمها ، وارتفع موج مبلل ساخن في داخلها ، ففتحت شفتيها له

وفي دوامات مؤلمة حادة ، سحبته اقرب اليها ، وتركته يقترب منها واقتربت شفتاه ، وابتدأت تمور ، تمور ناعمة ، اوه ، ناعمة ، ومع ذلك ، اوه ، كأندفاع المياه الشديد الذي لا يقاوم ، حتى ابتعدت عنه بصرخة عمياء صغيرة

سمعته يتنفس بصوت ثقيل ، غريبا الى جانبها ، وتملكها احساس مروع ورائع بغربته ، بيد أنها انكمشت قليلا داخل نفسها . واصلا المسير مترددين ، مرتجفين كظلين تحت شجرة الدردار على التل ، حيث سار جدها حاملا أزهار النرجس البري كي يقدم عرضه ، وحيث مشت أمها مع زوجها الشاب ، قريبة منه ، مثل ما تسير الآن مع سكربينسكي

كانت اورسلا شاعرة بأطراف الأشجار المظلمة الممتدة فوقهما ، المكتسية بالأوراق ، وبأوراق الدردار الرائعة ، وهي تخضل الليل الصيفي .

مشيا وجسداهما يتحركان في وحدة معقدة متقاربين . أمسك يدها ، وقطعا الطريق الأطول الذي يحيط بالطريق كي يبتعدا ، واحست دائما كما لو أنها مرفوعة على قدميها ، كما لو أن قدميها خفيفتان كنسيم خفيف هاب .

وكان سيقبّلها مرة أخرى ، لكن ليس القبلة العميقة إياها في تلك الليلة مرة أخرى . كانت واعية الآن ، واعية بما يمكن أن تكون القبلة ، لذلك كان أمرا أكثر صعوبة أن تأتي إليه .

وأوت الى الفراش شاعرة أن كل جسمها مغمور بدفء مشحون ، كما لو أن تدفق الفجر كان فى داخلها يرفعها ، ونامت بعمق وبحلاوة ، اوه ، حلاوة شديدة . وفي الصباح ، أحست أنها معافاة ككوز ذرة فواحة وقوية وممتلئة .

واستمرا عاشقين في حالة اللاادراك المدهشة الأولى ، ولم تخبر اورسلا أحدا بالأمر ، وكانت ضائعة نماما في عالمها .

ومع ذلك ، فان احساسا غريبا جعلها تبحث عن ثقة زائفة ، إذ كانت لها في المدرسة صديقة هادئة متأملة جادة الروح تدعى اثيل ، وكان على اورسلا أن تأتمن أثيل على قصتها ، وأصغت أثيل مستغرقة ، برأس منحن لا يريم ، بينما كانت اورسلا تفشي سرها اوه ، كانت طريقته الرقيقة النبيلة في ممارسة الحب رائعة جدا ، وتحدثت اورسلا كعاشقة مجربة . وسألت اورسلا :

ـ ألا تعتقدين أنه لفعل شرير أن تتركي رجلا يقبلك قبلة حقيقية ، وليست قبلة سريعة ؟

قالت أثيل :

ـ أعتقد أن الأمر يعتمد..

ـ لقد قبلني تحت أشجار الدردار على تل كوسثي ، هل تعتقدين أن ذلك كان تصرفا شائنا ؟

ـ متى ؟

ـ ليلة الخميس عندما كان يوصلني الى البيت ، لكنها قبلات حقيقية ؛ حقيقية . إنه ضابط في الجيش .

وسألت أثيل المتروية :

ـ وكم كانت الساعة ؟

ـ لا أعرف ، نحو التاسعة والنصف .

وحدث توقف بعد ذلك ، ثم قالت أثيل رافعة رأسها بنفاد صبر :

ـ أعتقد أن ذلك تصرف خاطئ ، فأنت لا تعرفينه

تحدثت بنبرة يشوبها الإزدراء .

ـ نعم أنا أعرفه ، فهو نصف بولندي وبارون أيضا ، وهو يكافئ اللورد في انكلترا ، وكانت جدتي صديقة والده .

بيد أن الصديقتين تباغضتا ، وكان الأمر كما لو أن اورسلا تريد أن تنفصل عن معارفها من خلال تأكيد ارتباطها بأنطون ، كما اعتادت أن تناديه الآن

وكان يتردد على كوسثي ، ذلك لأن أمها كانت مغرمة به ، إذ تحولت آنا برانغوين الى ما يشبه النقيبة في حضرة سكربينسكي ، وأصبحت هادئة جدا ، تعد الأمور مسلما بصحتها .

هتفت اورسلا مناكدة وهي تدخل مع الشاب :

ـ ألم يأوِ الأطفال الى الفراش بعد ؟

فقالت الأم :

ـ سيكونون في فراشهم خلال نصف ساعة .

وهتفت اورسلا :

ـ لن نحظى بالسكون

فردت الأم قائلة :

ـ إن من حق الأطفال أن يعيشوا يا اورسلا

وكان سكربينسكي ضد اورسلا في هذا . لماذا تلح على هذا النحو ؟

لكن بعد ذلك ، ومثل ما تعرف اورسلا ، لم يكن عانى من العسف المستديم الناتج من وجود اطفال صغار من حوله . كان يعامل امها بسمو خلق رفيع ، وهو ما كانت ترد عليه السيدة برانغوين بضيافة ودودة اليفة   كان ثمة شيء ما يسر الفتاة في اتخاذ الأم وضعا هادئا ، إذ كان يبدو مستحيلا الغاء موقع السيدة برانغوين ، فهي لا يمكن ان تكون ادنى منزلة من أي شخص في العلاقات العامة . وكان بين برانغوين وسكربينسكي صمت لا يمكن خرقه . وفي بعض الأحيان ، كان الرجلان يتبادلان حديثا قصيرا ، لكن ليس ثمة تبادل بينهما . وكانت اورسلا تستمتع عندما ترى أباها وهو ينسحب الى داخل نفسه ضد الرجل الشاب .

كانت متفاخرة بسكربينسكي في البيت ، وكانت لا مبالاته المتكاسلة الواهنة تزعجها ، بيد أنها تسيطر عليها . كانت تدرك أنها نتيجة لطبيعة «دع الأمور تجري على سجبتها » مترابطة مع حيوية شابة عميقة . ومع ذلك ، كان ذلك يزعجها في الأعماق .

ورغم كل شيء ، كانت فخورة به عندما يتكاسل بطريقته الهفافة في بيتها . كان لطيفا ومهذبا مع أمها ومعها طوال الوقت ، وكان أمرا مدهشا كسب حضوره في الغرفة ، إذ كانت تشعر أنها غنية ومزدادة به ، كما لو أنها كانت الانجذاب الموجب وهو الانسياب نحوها .

وربما كان تهذيبه ورضاه كله موجهاً لأمها ، غير أن خفق جسده الهفهاف كان لها . ولقد أمسكت به .

يجب أن تثبت قدراتها دائما ، فقالت له :

ـ أردت أن أريك منحوتاتي الخشبية الصغيرة .

وقال والدها :

ـ أنا متأكد من أنها لا تستحق المشاهدة

وسألته وهي تنحني تجاه الباب :

ـ هل تريد أن تراها ؟

ونهض جسده من الكرسي رغم أن وجهه كان على ما يبدو يريد أن يتفق مع والديها ، فقالت له :

ـ إنها في السقيفة .

وتبعها خارج الباب ، بغض النظر عما كانت أحاسيسه .

وفي السقيفة تفننا بالقبلات ، تفننا بالقبلات حقا ، وكانت لعبة لذيذة مثيرة استدارت إليه ووجهها ضحوك في ما يشبه التحدي ولقد قبل التحدي في الحال . لف شعرها على يده ، وبهدوء وشعرها الملفوف على يده خلف رأسها ، قرّب ببطء وجهها قريبا من وجهه ، بينما كانت تضحك مقطوعة الأنفاس متحدية ، وأومضت عيناه بالجواب ، وبمتعة اللعبة . وقبلها فارضا رغبته عليها ، وردت القبلة بمثلها مؤكدة استمتاعها المتروي به وكانا يدركان أنها جريئة طائشة خطيرة لعبتهما هذه ، فكلاهما يلعب بالنار وليس بالحب كان نوعا من تحدي العالم بأكمله تملكها في ذلك ، لقد كانت تقبله لمجرد أنها تريد ذلك ، وأن تملكا شيطانيا جريئا فيه كالاستخفاف ، يقطع في كل شيء يتظاهر بإنجازه ، كان يرد في داخله .

كانت جميلة جدا عندئذ ، متفتحة متألقة ، نابضة جدا ، غضة ، مرهفة الإحساس ، وكانت ترمي بنفسها بحدة وخطأ الى التهلكة . ولقد أثارت نوعا من الجنون فيه ، كزهرة تهتز متفتحة على اتساعها تحت الشمس . لقد اغرته وتحدته ، ولقد قبل التحدي ، وثبت شيء ما في داخله . وتحت كل ضحكها وطيشها الحاد ، كان ارتجاف الدموع . وكان ذلك هو الذي يسبب له الجنون اكثر من أي شيء آخر ، مجنون بالرغبة والألم الذي كان هدفه الوحيد يكمن في امتلاكه جسدها .

وهكذا عادا مرتجفين خائفين متسترين الى والديها في المطبخ ، لكن شيئا ما أُثير في داخلهما لا يمكن إخماده الآن ، فلقد كثف وزاد من حواسهما ، فأصبحا أكثر حيوية ، وأشد قوة في كيانيهما . وتحت هذا كله ، كان إحساس حاد بالزوال . كان توكيد ذات رائع من قبلهما معا ، ولقد اكد نفسه امامها ، واحس بنفسه ذكرا بلا حدود ، وأنه لا يقاوم إطلاقا ، وأكدت نفسها أمامه ، وكانت تعرف أنها مشتهاة بلا حدود وقوية بلا حدود . وبعد كل شيء ، لا يمكن لأي منهما ان يتخلص من مثل هذا الهوى بغير إحساسه او إحساسها بأقصى ما في نفسيهما من تمايز عن كل شيء آخر في الحياة ففي أي شيء ثمة شيء محدود وحزين ، ذلك لأن الروح الإنسانية في حدها الأقصى تريد الإحساس بالنهائي

ومع ذلك ، ابتدأ الآن هذا الهوى ويجب أن يستمر ؛ هوى اورسلا في ان تعرف نفسها القصوى ، محددة ومعرفة مقابله . كان بمستطاعها ان تحدد وتعرف روحها قياسا له ؛ الذكر . إن بإمكانها أن تكون نفسها القصوى ؛ الأنثى ، اوه ، الأنثى منتصرة لحظة واحدة في توكيد رائع ضد الرجل في تمايز متفوق عن الذكر .

في أصيل اليوم التالي ، عندما جاء يجوس ، ذهبت معه الى الكنيسة . كان والدها يجمع غضبه ضده تدريجا ، وكانت امها تتسعر بالغضب ضدها ، بيد أن والديها كانا متسامحين بصورة طبيعية في التصرف .

اجتازا فناء الكنيسة معا ؛ اورسلا وسكربينسكي ، وركضا كي يختبئا في الكنيسة . كان المكان أكثر عتمة هناك من الأصيل المشرق في الخارج ، بيد ان التوهج اليانع بين الأحجارالمعتمة كان لذيذا جدا . وكانت الشبابيك تتوهج باللونين الياقوتي والأزرق ، يشكلان ستارة رائعة لتعريشة الأحجار السرية .

قال لها في صوت مكتوم ، وهو ينظر من حوله :

ـ يا له من مكان لقاء جميل .

ألقت هي الأخرى نظرة من حولها على الداخل المألوف ، ولقد أصابتها العتمة والسكون بالقشعريرة ، غير ان عينيها اضيئتا بالجرأة . هنا ، هنا سوف تؤكد نفسها الأنثوية الرائعة التي لا تقهر . هنا ستتفتح زهرتها الأنثوية كاللهب في هذه العتمة التي هي اشد انفعالا من الضوء . تلكآ منفصلين لحظة ، ثم استدارا بمحض إرادتيهما أحدهما نحو الآخر من أجل التواصل المرغوب . وضعت ذراعيها حوله ، والصقت جسدها بجسده ، وضغطت يداها على كتفيه وظهره . بَدّت وكأنها تشعر من خلاله ، تتعرف على جسد الشاب المتوتر كله ، وكان ذلك أمرا رائعا جدا ، وصعبا جدا . ومع ذلك ، كان حادا وتحت سيطرتها . اعطته فمها فشرب منه ، قبلة مكتملة ، شربها أكثر ، فأكثر اكتمالا .

وكانت بحالة جيدة ، في أحسن حال . وبدت وكأنها مُلئت بالقبل ؛ مُلئت كما لو انها شربت ضوء شمس قوياً متوهجاً ، إذ كانت تتوهج من داخلها كله ، فكان ضوء الشمس يضرب على قلبه تحت . لقد شربت على نحو رائع جدا .

انسحبت بعيدا ، ورأت إليه مشعا ؛ جميلا وراضيا بحدة وبتوهج ، لكنه مشع كغيمة مضاءة .

وكان ذلك أمرا مراً له ؛ أن تكون مشعة ومشبعة على هذا النحو . ضحكت عليه ، ولم تكن تراه ، ممتلئة تماما بسعادتها . لم تشك أبدا في أنه في ما هي عليه بالضبط . وذهبت مشعة كملاك معه خارج الكنيسة ، كما لو أن قدميها كانتا شعاعي ضوء يمشيان على أزهار بدل درجات السلالم .

سار الى جانبها ، وروحه منقبضة ، وجسده غير مشبع . هل تحقق هذا النصر السهل عليه ؟ فلم يكن لديه الآن سعادة شخصية بل الألم والغضب المشوش حسب

كان الوقت ذروة الصيف ، وموسم حصاد القش يوشك على الانتهاء ، إذ سينتهي السبت . ومع ذلك ، فإن سكريبينسكي سيغادر ، فلم يكن بمقدوره أن يبقى فترة أطول .

وبعد أن قرر الذهاب أصبح رقيقا جدا معها ومحبا لها ، مقبلا إياها بلطف وحميمية ، هشة حلوة خفية تصيبهما بالثمل معا

وفي آخر جمعة من فترة مكوثه ، التقى بها وهي خارجة من المدرسة ، فأخذها لشرب الشاي في المدينة ، ثم أوصلها الى البيت ، في سيارة ذات محرك .

وكانت إثارتها لركوب سيارة ذات محرك أعظم من كل شيء ، وكان متفاخرا جدا بهذا الانقلاب الأخير* . رأى اورسلا وهي تضيء وتلتهب لعاطفية الموقف ، ورفعت رأسها كفرس صغيرة تستنشق بمتعة وحشية

انحرفت السيارة حول استدارة ، وتأرجحت اورسلا على سكريبينسكي ، فجعلها التماس معه واعية به . وباندفاع ناعم متلمس ، بحثت عن يده وشبكتها بيدها قريبتين جدا ، متشابكتين جدا ، كما لو أنهما طفلتان . هبت الريح على وجه اورسلا ، وانساب الطين في رذاذ هش متوحش من العجلات . كان الريف اخضر مسود ، وثمة بقع فضية من القش ، متناثرة هنا وهناك ، وكتل من الأشجار تحت السماء ذات الوميض الفضي .

اشتدت يدها على يده بوعي جديد ، منزعجة ، ولم يتحدثا بعض الوقت ، بل جلسا بيدين متشابكتين ، ووجهين مشرقين ، وقد تفادى أحدهما الآخر . وبين الحين والآخر ، كانت السيارة تؤرجحها نحوه ، وكانا ينتظران الحركة كي نجمعهما معا . ومع ذلك ، كانا ينظران من النوافذ ؛ اخرسين . رأت الريف المألوف يجري الى جانبها ، بيد انه لم يعد الريف المألوف بل بلاد العجائب ، فهناك كانت صخرة الهملوك تقف على تلها المعشب ، تبدو غريبة في ذلك المساء الصيفي الرطب المبكر في أرض سحرية . وكانت بعض غربان القيظ تطير مبتعدة عن الأشجار .

آه لو أنها وسكريبينسكي يستطيعان الخروج فيترجلان في هذه الأرض المسحورة حيث لم تطأ قدم مخلوق من قبل ، عندها يصبحان إنسانين مسحورين ، ولسوف يتخليان عن النفس المألوفة المتجهمة . لو يقيض لها أن تتجول هناك على منحدر التل ذاك ، تحت السماء الفضية المتقلبة التي اختفت فيها العديد من غربان القيظ كمزنة مسرعة من البقع ، لو كان بمقدورهما أن يمشيا على حزم القش الرطبة ، يستنشقان المساء المبكر ويدخلان

---

* كان ظهور السيارة في ذلك الوقت يمثل انقلابا بالفعل

الغابة حيث عطر زهرة العسل عذبا جدا في رائحة الهواء الباردة ، وثمة انثيال من القطرات عندما يمشط المرء غصنا باردا ، ومحببا على الوجه!

بيد أنها هنا معه في السيارة ، قريبة إليه . وكانت الريح تندفع على وجهها المتلهف المرفوع ، دافعة الشعر الى الخلف . استدار ونظر إليها ، الى وجهها النظيف ، كما لو أنه شيء منحوت . وكان شعرها نحت الى الخلف بالرياح ، وأنفها الدقيق حميما ومرفوعا كان ذلك تبريحا بالنسبة إليه أن يراها رشيقة ، واضحة ، وعذراء . أراد أن يقتل نفسه ، ويرمي جثته الممقوتة عند قدميها . وكانت رغبته في أن يلتف على نفسه ، وأن يمزقها ، بمثابة تبريح له .

وفجأة القت نظرة عليه وكان يبدو كأنه ينحني نحوها مشرئبا صوبها ، وكان يبدو كأنه يقطب بين الحاجبين . لكن ما ان رأى عينيها المضيئتين ووجهها المتألق حتى تغيرت ملامحه ، وأشرقت ضحكته الطائشة القديمة لها ، فضغطت يده بمتعة كاملة فأطاع وفجأة انحنت وقبلت يده ، أحنت رأسها ، وأمسكت بها في فمها في إجلال كريم ، وغلى الدم في عروقه ، ومع ذلك ظل ساكنا ولم تند عنه نأمة

وأجفلت . كانا يتأرجحان داخلين الى كوسثي ، ولسوف يتركها سكربينسكي ، بيد أن كل شيء كان سحريا ، فكوبها كان ممتلئا بخمر براق ، ولم يكن بمقدور عينيها سوى أن تشرقا .

ضرب منبه السيارة وتحدث الى الرجل ، وتأرجحت السيارة متوقفة عند أشجار السرو . أعطته يدها ، وقالت وداعا ، ساذجة ومقلة في الكلا م كطالبة . ووقفت تراقبه ، وهو يغادر ، ووجهها مشرق . لم تكن حقيقة ابتعاده بالسيارة تعني لها شيئا ، إذ كانت ممتلئة تماما بنشوتها البراقة . لم تره وهو يغادر ، ذلك لأنها كانت ممتلئة بالضوء ، الذي كان مستمدا منه ، براقة بضوء مدهش ، مثلما كانت عليه ، فأنّى لها أن تفتقده ؟

في غرفة نومها ، رفعت ذراعيها في الهواء في ألم بهاء واضح . اوه ، كان ذلك تجليا كانت ماوراء نفسها . أرادت أن تقذف بنفسها في بريق الهواء الخفي كله . كان هناك ، كان هناك ، لو نستطيع أن تلتقيه حسب

في اليوم التالي ، أدركت أنه ذهب ، إذ خف تألقها تدريجا ، لكن لبس من ذاكرتها مطلقا . كان حقيقيا جدا . ومع ذلك ، فلقد ذهب تاركا الأسى ، وحل توق أعمق في روحها ، خزين جديد .

وانكمشت من اللمس والسؤال . كانت متفاخرة جدا ، لكن جديدة جدا ، وحساسة جدا . اوه ، لا أحد يجب أن يضع يده عليها!

كانت أسعد وهي تركض وحدها ، اوه ، كان يمتعها ان تركض على الطرق دون أن ترى الأشياء رغم أنها معها كانت متعة هائلة أن يكون المرء وحيدا مع كل ثرواته

حلت العطلة ، واصبحت حرة ، وقضت معظم الوقت تجري وحدها ، متكومة في موضع سنجاب في الحديقة ، مضطجعة في ارجوحة شبكية في الخميلة ، بينما كانت الطيور تقترب منها أكثر فأكثر وفي الجو الممطر ، كانت تهرع الى حقل مارش ، وتضطجع متخفية مع كتابها في مخزن التبن .

وطوال الوقت ، كانت تحلم به على نحو محدد في بعض الأحيان . وعندما تكون سعيدة جدا فبصورة غامضة حسب . كان التلون الدافئ لأحلامها ، وكان الدم الحار الذي ينبض فيها .

وعندما تكون أقل سعادة ، مكدرة الخاطر ، فإنها كانت تمعن الفكر في تذكر هيئته وملابسه والأزرار التي ختم عليها شعار الكتيبة الذي أعطاه لها ، او أنها كانت تحاول أن تتخيل حياته في الثكنات ، او تستحضر رؤيا لنفسها كما تبدو في عينيه .

كان عيد ميلاده يصادف في شهر آب ، ولقد تجشمت بعض العناء لتصنع كعكعة له ، إذ أحست أن ليس من المحبذ أن تقدم له هدية .

كانت مراسلاتهما مختصرة تكاد أن تقتصر على تبادل البطاقات البريدية ، ولم يكن ذلك متكررا ، ولكن عليها أن ترسل له رسالة مع كعكتها :

عزيزي انطون

لقد عاد ضوء الشمس كما اعتقد ، خصيصا من أجل عيد ميلادك . لقد صنعت الكعكة بنفسي ، وأتمنى أن يعيد الله عليك هذا العيد سنين بعد أخرى لا تأكلها إن لم تكن طيبة المذاق . أمي تتمنى أن تأتي وتزورنا عندما تكون على مقربة منا .

صديقتك المخلصة

اورسلا برانغوين

كان يضجرها أن تكتب رسالة حتى إليه ، فبعد كل شيء لم تكن لكتابة الكلمات على الورق أية علاقة به او بها

وحل الجو الرائع ، وابتدأت مكائن الحصاد تعمل من طلوع الشمس حتى غروبها تهدرم على اتساع الحقول ، ووصلتها أخبار من سكريبينسكي ، إذ كلف هو الآخر بواجب في

الريف ؛ في سهل سالزبوري* ، وهو الآن ملازم ثان في وحدة ميدان ، وسيحصل على إجازة من بضعة أيام ، وسيأتي الى حقل مارش من أجل الرفاف .

كان فريد برانغوين ينوي الزواج بمديرة مدرسة من اليكستون حالما ينتهي موسم حصاد القمح .

شهد الخريف العذب الحار ذو اللون الذهبي والأزرق المعتم نهاية موسم حصاد القمح ، وكان الأمر بالنسبة لأورسلا ، كما لو ان العالم فتح انقى زهرة وانعمها ؛ زهرة الهندباء وزعفران المروج . كانت السماء زرقاء عذبة ، وكانت الأوراق الصفر المتساقطة على الطرقات كأزاهير ، مصدرة موسيقا حميمة حادة يكاد قلبها لا يطيقها ، وكانت عطور الخريف أشبه بجنون صيفي في نظرها ، فهربت من الأُقحوان الصغير الأحمر ـ القرنفلي الشبيه بالأزرار كعروسة جن مذعورة وكان عطر الأُقحوان الأصفر الصغير فواحا جدا ، وبدت قدماها تتأرجحان في رقصة مخمورة .

بعد ذلك ، ظهر خالها توم ، دائما كباخوس الساحر مثل ما يبدو في الرسومات . كان سيحصل على زفاف مرح وعشاء حصاد ووليمة زفاف مرة واحدة ، خيمة في جوار البيت وفرقة موسيقية للرقص ، ووليمة ضخمة في الهواء الطلق .

اعترض فريد ببد أن توم يجب أن يرضى ، وكذلك لورا العروس ؛ فتاة جميلة ذكية ، وهي أيضا يجب أن تحصل على وليمة مرحة فخمة ، فذلك يناسب حسها المثقف . إذ سبق لها أن انخرطت في كلية سالزبوري للتدريب ، وهي تجيد الأغاني والرقصات الشعبية .

وهكذا ابتدأت التحضيرات تحت إشراف توم برانغوين ، ونُصب سرادق قرب البيت ، وتم نحضير مشعلتين كبيرتين ، وأُجر الموسيقيون ، كما أعدت مأدبة .

وكان من المتوقع أن يأتي سكربينسكي ، وكان مقررا أن يصل في الصباح . وارتدت اورسلا ثوبا جديدا أبيض من قماش الكريب الناعم ، وقبعة بيضاء . أحبت أن ترتدي ملابس بيضاً ، وبشعرها الأسود ، وجلدها الذهبي النقي ، بدت جنوبية او استوائية بالأحرى اشبه بكريوليّ** ، ولم ترتد أي ملبس ملون مهما كان .

واعترتها الرجفة ، ذلك اليوم ، بينما كانت تتهيأ للنزول الى الزفاف ، إذ كانت ستقوم بدور اشبينة العروس . ولن يصل سكربينسكي قبل انتصاف النهار . وكان مقررا للزفاف أن يتم عند الساعة الثانية .

---

* منطقة تدريب عسكرية

** أحد مواليد أمريكا اللاتينية المنحدرين من أصل أوربي أو اسباني بشكل خاص

وعندما عادت مجموعة الزفاف الى البيت ، وقف سكربينسكي في شرفة بيت مارش . وخلال النافذة ، رأى توم برانغوين الذي كان وكيل العريس ، يسير في ممر الحديقة ، شديد التأنق في سترة مفروجة ، وشقة ضيّقة ، وطماقين أبيضين . وكانت اورسلا تضحك متعلقة بذراعه . كان توم برانغوين وسيما بلونه الأنثوي ، وعينيه الغامقتين ، وشاربه القصير ، لكن ثمة شيئاً خشناً وموحياً على نحو خفي فيه بكل جماله ؛ منخراه الغريبان المفتوحان بصلابة واتساع ، ورأسه جميل التشكيل الذي يكاد أن يكون مُقلِقا في عريه ، أصلع قليلا من المقدمة ، وقد فُضح كل اكتماله الناعم .

رأى سكربينسكي الرجل وليس المرأة . كانت متألقة بمحاكاة غريبة بكماء منذهلة ، من النوع الذي كانت تشعر به دوما عندما تكون مع خالها توم ، مرتبكة دائما داخل نفسها .

وعندما التقت سكربينسكي ، اختفى كل شيء . لم تر إلاّ الشاب النحيف الذي لا يتغير ، ينتظر هناك مبهما كقدرها . كان بعيدا عن متناولها ، بمظهره السائب كالحصان ، بعض الشيء ، ذلك الذي جعله يبدو رجوليا ، وغريبا جدا . ومع ذلك ، كان وجهه ناعما ، هشّا ، ساكن القسمات . صافحته وكان صوتها كانتفاض عصفور فاجأه الفجر .

وهتفت :

ـ أليس رائعا أن يقام زفاف ؟

كانت قطع ملونة من النثار في شعرها الغامق

ومرة أخرى تملكه الارتباك ، كما لو أنه يفقد نفسه ، ويصبح غامضا ، وغير معرف ، وغير مكتمل النشوء كليا . ومع ذلك أراد أن يكون صلبا ورجوليا مثل حصان ، ولقد تبعها .

وكانت هناك حفلة شاي صغيرة ، وتناثر الضيوف . وكان مقرراً أن تقام الحفلة الحقيقية مساء ، وتمشت اورسلا مع سكربينسكي خلا ل ساحة الحبوب ، ومن ثم تسلقا السدة الى ضفة القناة .

كانت أكداس القمح الجديدة كبيرة وذهبية عندما مرا بها ، وثمة حشد من أوزات بيض تستعرض جانبا في احتجاج متبجح . كانت اورسلا خفيفة ككرة بيضاء من الزغب ، واستغرق سكربينسكي الى جانبها غير محدد . ونسيت شكله القديم ، وطافت روح أخرى رمادية غامضة ، خارجة كما لو من برعم ، وتبادلا حديثا عارضا عن لا شيء .

كان طريق القناة الأزرق يلتف بنعومة بين أسيجة الأشجار الخريفية مستمرا باتجاه اخضرار التل الصغير . والى اليسار ، كان الإضطراب الأسود الكلي لمنجم الفحم والسكك

الحديد والمدينة التي تنتصب على تلها ، وكان برج الكنيسة يبزها جميعا . والنقطة البيضاء المدورة في ساعة البرج ، مميزة في ضوء المساء

أحسست اورسلا أن ذلك الطريق هو الطريق الى لندن خلال اهتياج المدينة المتجهم المغري . من جانب آخر ، كان المساء طريا فوق مروج الماء الأخضر وأشجار جار الماء الملتفة قرب النهر ، والامتدادات الشاحبة لجذامة الحصاد . ما وراء ذلك . هناك ، كان المساء يتوهج بنعومة ، بل كان ثمة هزار يصفق جناحيه في عزلة وسلام .

تمشت اورسلا وأنطون سكربينسكي على أكمة القناة الفاصلة ، وكانت أشجار التوت على الأسيجة قرمزية وحمراء براقة فوق الأوراق . كان توهج المساء وتحويم الهزار الوحيد ، وصرخة الطيور الخافتة ، تأتي لتلتقي ضجة المناجم المكتومة ، وإجهاد المدينة المقابلة المظلم المدخن . وسار الإثنان بين شريط المجرى المائي الأزرق وشريط السماء .

كان ينظر ، وفكرت اورسلا : إنه جميل جدا ، بسبب تورد حرق الشمس على يديه ووجهه . كان يقص عليها كيف تعلم أن ينعل الخيول ، ويختار المواشي المناسبة للقتل ، وسألته :

ـ هل تحب أن تكون جنديا ؟

فأجابها :

ـ أنا لست جنديا بالضبط .

فقالت له :

ـ لكنك تفعل الأشياء المتعلقة بالحرب ؟

ـ نعم .

ـ هل تحب أن تذهب الى الحرب ؟

ـ أنا ، حسن ، سيكون أمرا مثيرا . إذا كانت هناك حرب ، فإني أود أن أذهب .

ونملكها إحساس غريب منشده ، إحساس بلا واقعيات فعالة .

ـ لماذا تريد الذهاب ؟

ـ يجب أن أفعل شيئا ما ، سيكون ذلك أصيلا ، إنه نوع من حياة الدمى كما هي .

ـ لكن ما الذي ستفعله اذا ذهبت الى الحرب ؟

ـ سأقوم بإنشاء السكك الحديد او الجسور ، سأعمل كزنجي .

ـ لكنك ستقيمها كي تهدم مرة أخرى عندما تنتهي مهمة الجيوش منها . إنها تبدو أشبه بلعبة .

ـ إذا كنت تسمين الحرب لعبة .

ـ وما هي ؟

ـ إنها أكثر الأمور جدية قتال .

وخيم عليها إحساس بانفصال حاد ، وسألته .

ـ ولماذا يكون القتال أكثر جدية من أي شيء آخر ؟

ـ لأنك إما ان تُقتل أو تَقتل . افترضي أن القتل جدي بما فيه الكفاية .

فقالت له :

ـ لكن عندما تموت لا تعود تهم لفترة أطول .

وأُخرس لحظة ، ثم قال لها :

ـ لكن النتيجة تهم . من المهم إن كنا نستطيع أن نهزم المهدي أم لا .

ـ ليس لك وليس لي ، فنحن لا نهتم بشأن الخرطوم .

ـ إنك تريدين مكانا لتعيشي فيه ، وعلى شخص آخر أن يتخلى لك عن هذا المكان .

ـ لكني لا أريد أن أعيش في الصحراء ، هل تريد أنت ؟

ردت بضحكة معادية .

ـ أنا لا أريد ، لكن علينا أن نساند أولئك الذين يريدون .

ـ ولماذا يجب علينا ذلك ؟

ـ وأين هي الأمة إن لم نفعل ذلك ؟

ـ لكننا لسنا الأمة ، ثمة أكوام من البشر الذين هم الأمة .

ـ ربما يقولون إنهم ليسوا كذلك أيضا .

ـ حسن ، إذا كان الكل يقول ذلك ، فلن تكون ثمة أمة ، لكني سأظل نفسي .

أكدت متألقة .

ـ لن تكوني نفسك اذا لم تكن هناك أمة .

ـ ولم لا ؟

ـ لأنك عندئذ ستكونين فريسة لأي شخص ولكل شخص ؟

ـ كيف أكون فريسة ؟

ـ سيأتون ويأخذون كل ما عندك .

ـ حسن ، حتى عندئذ لن يكون بمقدورهم أخذ الكثير ، وأنا لا أهتم بما يأخذون ، فإني أفضل لصاً يحملني على مليونير أعطاني أي شيء تستطيع أنت شراءه .

ـ هذا لأنك رومانسية .

ـ نعم ، أنا كذلك ، أريد أن اكون رومانسية ، فأنا أكره البيوت التي لا تزاح أبدا ، وأولئك الناس الذين يكتفون بالعيش في هذه البيوت . إنها جامدة وغبية كلها ، وأنا أكره الجنود لأنهم جامدون متخشبون من أجل ماذا تقاتلون حقا ؟

ـ إني سأقاتل من أجل الأمة .

ـ لكل هذا ؟ إنك لست الأمة ، وما الذي تفعله من أجل نفسك ؟

ـ أنا أنتمي الى الأمة ويجب أن أؤدي واجبي تجاهها .

ـ وعندما لا تحتاج الى خدماتك ، خصوصاً عندما لن يكون هناك قتال ، ما الذي تفعله إذن ؟

وتملكه الانزعاج .

ـ سأفعل ما يفعله أي شخص آخر .

ـ ماذا ؟

ـ لا شيء ، سأكون جاهزا عندما يُحتاج إليّ .

جاء الجواب ساخطا .

فأجابته :

ـ يبدو لي كما لو أنك لست أي شخص ـ كما لو أن ليس ثمة أي شخص هناك . أين انت ؟ هل أنت أي شخص حقا ؟ إنك تبدو لا شيء بالنسبة إلي .

كانا تمشيا حتى وصلا رصيف سفن فوق محبس القناة مباشرة . وكان مركب خال يطفو ساكنا ، وقد دُهِن سقف مقصورته بالأحمر والأصفر ، وله مخزن طويل بلون الفحم وكان رجل هزيل عبوس يجلس على صندوق مستند الى جانب المقصورة ، قرب الباب ، يدخن ويعتني بطفل ملفوف بشال أسمر فاتح ، وهو يتأمل توهج المساء . أطلت امرأة بصخب ، وألقت بدلو الى القناة ، وسحبت ماءها ، ثم دخلت مرة أخرى وكانت تُسمع جلبة أطفال ، وثمة دخان أزرق هزيل يتصاعد من مدخنة المقصورة ، ورائحة طبخ .

تلكأت اورسلا بيضاء مثل عثة كيما تتفرج ، وتلكأ سكريبينسكي قربها . ورفع الرجل بصره إليهما .

ـ مساء الخير .

هتف في حالة هي خليط من الوقاحة والانجذاب . وكانت له عينان زرقاوان تتأملان من وجهه الكالح .

قالت اورسلا مسرورة :

ـ مساء الخير ، أليس المنظر رائعا الآن ؟

فرد الرجل

ـ نعم ، رائع جدا .

كان فمه أحمر تحت شاربه الرث الرملي ، وكانت أسنانه بيضاً عندما ضحك .

وتلعثمت اورسلا ضاحكة :

ـ اوه ، لكن لماذا قلت ذلك كما لو أنه لم يكن كذلك ؟

ـ لأن الأمر كتربية الأطفال ، ليس مشرقا جدا .

وسألته اورسلا :

ـ هل أستطيع أن أتفرج على داخل مركبك ؟

ـ لن يمنعك أحد ، بإمكانك الدخول إن أردتِ .

كان المركب يرسو عند الضفة المقابلة ، قرب المرسى ، وكان اسمه (انابيل) ، ويعود الى (جي روث) من مدينة لفبرة* . راقب الرجل عن كثب بعينيه الحميميتين الطارفتين ، وكان وجهه الأشقر رقيقا عند جبينه الكالح . وظهر طفلان قذران كي يريا من المتحدث .

ألقت اورسلا نظرة على بوابات السد العظيمة ، وكانت مغلقة والماء يُخرخر ويتدفق ويجري في العتمة الخلفية . وعلى هذا الجانب ، كان الماء البراق يصل الى قمة البوابة تقريبا . وعبرت بجرأة ، واستدارت الى المرسى .

انحنت من الضفة ، وحملقت في المقصورة حيث كان توهج أحمر للنار ، وشكل معتم لامرأة ، وأرادت أن تنزل

قال الرجل محذرا :

ـ ستوسخين ثوبك .

أجابت :

ـ سأكون حذرة ، هل يمكنني الدخول ؟

ـ نعم ، ادخلي إن أردتِ .

لملمت تنورتها ، وخفضت قدمها الى جانب الزورق ، وقفزت هابطة ، تضحك وارتفع غبار الفحم جاءت المرأة الى الباب .كانت ممتلئة القوام ذات شعر رملي ؛ شابة ذات أنف غريب قصير غليظ .

---

* مدينة على نهر سور في ليسترشاير .

وهتفت مندهشة وضاحكة بدهشة صغيرة :

ـ اوه ، ستوسخين نفسك .

ـ أريد أن أتفرج .

ثم سألتها :

ـ أليس رائعا أن يعيش المرء في مركب ؟

قالت المرأة منشرحة :

ـ أنا لا أعيش على مركب بمعنى الكلمة .

وقال زوجها بكبرياء إن عندها شرفتها وبيتها الوثير في لفبرة .

تأملت اورسلا داخل المقصورة حيث كانت القدور تغلي ، والخبز على المائدة . كان الجو حارا جدا . ثم خرجت مرة أخرى . كان الرجل يتحدث مع الطفل ، وكان هذا مخلوقا طري الوجه ، له خصلة من شعر ذهبي أحمر . وسألته :

ـ أهو صبي أم فتاة ؟

ـ إنها فتاة . ألستِ فتاة ؟

صرخ بالرضيع وهو يهز رأسه ، وتجعد الوجه الصغير في أغرب ابتسامة ، وأكثرها مرحا .

وهتفت اورسلا :

ـ اوه ، اوه ، المحبوبة ، اوه ، كم تبدو لطيفة عندما تبتسم .

وقال الأب :

ـ إنها تضحك بشكل واضح .

وسألته اورسلا :

ـ ما اسمها ؟

فقال الرجل :

ـ ليس لديها اسم فهي لا تستحق واحدا .

وهتف بالرضيع :

ـ هل أنتِ ، هل أنت فضالة ام لا شيء ؟

وضحكت الطفلة ، وجاء صوت المرأة :

ـ لا ، كنا مشغولين جدا ، ولم نأخذها قط الى دائرة التسجيل ، لقد ولدت على الزورق هنا .

وسألت اورسلا ·

ـ لكنكم تعرفون ماذا ستسمونها ؟

قالت الأم :

ـ فكرنا في اسم «كلاديس اميلي» .

وقال الأب :

ـ لم نفكر في اسم من هذا النوع .

وهتفت الأم ساخطة :

ـ اخرس . ماذا تريد ؟

ـ سوف نسميها انابيل على اسم الزورق الذي ولدت فيه .

وقالت الأم متحدية على نحو وحشي :

ـ لن تُسمى بهذا الاسم .

وجلس الأب في تكشيرة خبيثة ساخرة ، وقال :

ـ حسنٌ ، سوف نرى .

وكان بمستطاع اورسلا أن تحزر من سخط المرأة المرتعش أنه لن يتخلى بسهولة ، فقالت :

ـ كلها أسماء رائعة ، سّموها «كلاديس انابيل اميلي» .

وأجاب الرجل :

ـ لا ، هذا اسم ثقيل إذا لاحظتِ

وهتفت الأم :

ـ أترين ؟ إنه عنيد جدا .

ودندنت اورسلا للطفلة :

ـ وهي لطيفة جدا ، وتضحك ، وليس لديها اسم .

وأضافت : «دعني أحملها» .

سلمها الطفلة التي كان لها رائحة الرضع ، وعينان زرقاوان واسعتان خزفيتان ، وهي تضحك بطريقة غريبة ، بتكشيرة أخاذة . ولقد أحبتها اورسلا ، وهدلت وتحدثت معها . كانت طفلة مثيرة غريبة جدا .

سألها الرجل فجأة :

ـ ما اسمك ؟

فأجابت :

ـ اسمي اورسلا ؛ اورسلا برانغوين .

فهتف مصعوقا :

ـ اورسلا!

فأضافت بسرعة مبررة :

ـ هناك قديسة اسمها اورسلا ، إنه اسم قديم جدا .

وهتف :

ـ إسمعي يا امرأة .

فلم يرد عليه احد ، فهتف :

ـ بم ، ألا تسمعين ؟

ـ ماذا ؟

جاء الجواب القصير ، فكشر قائلا :

ـ ما رأيك باسم اورسلا ؟

ـ ما رأيي بماذا ؟

وظهرت المرأة عند الباب ، مستعدة للمنازلة ، وقال بلطف :

ـ اورسلا ، إنه اسم هذه الفتاة .

تفحصت المرأة الفتاة من الأعلى الى الأسفل ، وكان واضحا انها قد انجذبت بجمالها الرشيق البارع ، ومظهر أناقتها بالملابس البيض ، وطريقتها الرؤوم في إمساك الطفلة .

ـ وكيف تكتبينه ؟

سألتها الأم خرقاء ، وقد أصابها التأثر . تهجت اورسلا اسمها . نظر الرجل الى المرأة ، وحلَّ تورد براق مرتبك على وجه الأم ، نوع من الخجل البراق ، وهتفت مثارة كما لو بتأثير مغامرة :

ـ إنه ليس اسما شائعا أليس كذلك ؟

فسألها :

ـ هل تقبلين به إذن ؟

فردت حازمة :

ـ أفضل القبول به بدلا من اسم انابيل .

فرد قائلا :

ـ وأنا أفضل القبول به بدلا من كلاديس ألمر .

خيم الصمت ، ونظرت اورسلا الى الأعلى ، وسألت :

ـ هل تسمونها اورسلا حقا ؟

ـ اورسلا روث .

أجاب الرجل ضاحكا بخيلاء ، مسرورا ، كما لو أنه عثر على شيء ما . وقد حان دور اورسلا كي ترتبك الآن ، فقالت :

ـ إنه يبدو لطيفا جدا . يجب أن أعطيها شيئا ما . ليس لدي أي شيء على الإطلاق وقفت بثوبها الأبيض مندهشة . وفي الأسفل ، كان الزورق يرسو ، والرجل الهزيل يجلس قربها ويراقبها ، كما لو أنها كائن غريب ، كما لو أنها قد أضاءت وجهه وابتسمت عيناه عليها بجرأة ، لكن بإعجاب متناه تحت ذلك .

قالت :

ـ هل يمكن أن أعطيها قلادتي ؟

كانت القلادة الصغيرة المصنوعة من قطع من الجمشت والياقوت الأصفر واللؤلؤ والبلور ، معلقة على مسافات في سلسلة ذهبية صغيرة . وكان الخال توم أهداها إليها ، وكانت مغرمة بها كثيرا . ونظرت إليها بمحبة عندما خلعتها من عنقها وسألها الرجل وقد تملكه الفضول :

ـ أهي ثمينة ؟

فردت قائلة :

ـ أعتقد ذلك .

وقال سكربينسكي من المرسى في الأعلى :

ـ الأحجار واللآلئ حقيقية . إنها تستحق ثلاثة جنيهات او أربعة .

وكان بإمكان اورسلا أن تدرك أنه لم يقر تصرفها .

وقالت لساكن الزورق :

ـ يجب أن أُهديها للطفلة . هل يمكنني ذلك ؟

فتورد وجهه ، ونظر بعيدا في السماء ، وقال :

ـ لست أنا من يقول ذلك .

وهتفت الأم وقد تملكها الفضول من الباب :

ـ وماذا تقول أمك وأبوك ؟

قالت اورسلا :

ـ إنها قلادتي .

وعلقت السلك المتلألئ الصغير امام الطفلة ، ونشرت الرضيعة أصابعها الصغيرة ، بيد أنها لم تستطع الإمساك بها . وأغلقت اورسلا اليد الضئيلة فوق القلادة ، ولوّحت الطفلة بنهايتي السلك البراقتين . لقد تخلت اورسلا عن قلادتها ، وأحست بالحزن ، بيد أنها لم تكن تريد استعادتها .

تأرجحت القلادة من يد الرضيعة ، وسقطت في كومة صغيرة على قاع المركب المعفر بغبار الفحم . بحث الرجل عنها في نوع من التبجيل المتأني . ولاحظت اورسلا الأصابع الخشنة الفظة ، تتلمس كومة الجواهر الصغيرة . كان الجلد أحمر اللون على مؤخرة اليد ، والشعر الأشقر يومض بحدة ، وكانت يده هزيلة وثّرية ، بيد أنها كانت قادرة . ولقد أحبتها اورسلا . رفع القلادة بعناية ، ونفخ غبار الفحم عنها ، واستقرت في تقعر يده . بدا ساكنا ومتنبها ، ومد يده بالقلادة ، وهي تتلألأ في تقعر يده الصلبة السوداء وقال :

ـ خذيها .

ـ لا ، إنها تعود الى اورسلا الصغيرة .

وذهبت الى الرضيعة ، وثبتت القلادة حول عنقها الصغير ، الدافئ ، الهش ، الضعيف . تلت ذلك لحظة ارتباك ، ثم انحنى الأب على طفلته قائلا :

ـ ماذا تقولين ؟ هل تقولين شكرا لك يا اورسلا ؟

ـ إن اسمها اورسلا الآن .

قالت الأم مبتسمة مبتهجة قليلا من الباب . وجاءت كيما تتفحص القلادة في عنق الطفلة . قالت اورسلا برانغوين :

ـ إنها اورسلا أليس كذلك ؟

رفع الأب بصره إليها بنظرة حميمة شبه متألقة وشبه وقحة ، بيد انها كانت حزينة . لقد أحبتها روحه المأسورة ، لكنه كان يدرك أن روحه كانت مأسورة دوما

أرادت أن تغادر ، فوضع لها سلما صغيرا كي تتسلق الى المرسى . قبلت الطفلة التي كانت في حضن أمها ، ثم استدارت مبتعدة . كانت الأم متدفقة المشاعر ، أما الرجل فلقد وقف بصمت إزاء السلم .

التحقت اورسلا بسكربينسكي ، وعبر الشابان السداد فوق الماء المتلألئ الأصفر . وراقبهما ساكن المركب وهما يغادران .

وكانت تردد :

ـ لقد أحببتهما . كان نبيلا جدا ، اوه ، نبيلا جدا ، والرضيعة كانت طفلة حلوة على القلب!

سألها الرجل :

ـ هل كان نبيلا ؟ المرأة كانت خادمة ، أنا متأكد من ذلك

فقطبت اورسلا :

ـ لكنني أحببت وقاحته ، كانت نبيلة في داخلها

غذت الخطى مسرعة ، مسرورة ، لألتقائها بالرجل الكالح الهزيل ذي الشارب الرث ، إذ منحها إحساسا مسرا دافئا ، جعلها تشعر بغنى في حياتها . لقد خلق سكربينسكي بطريقة ما موتا من حولها ، جدبا ، كما لو أن العالم مصنوع من رماد

لم يتحدثا إلا لماما وهما يحثان الخطا نحو البيت لحضور وليمة العشاء الكبرى . وكان يحسد أبا الأطفال الثلاثة الهزيل لصراحته الوقحة ، وعبادته للمرأة في اورسلا ؛ عبادة للجسد والروح معا . جسد الرجل وروحه حزينان ، ويعبدان جسد الفتاة وروحها برغبة تعرف استحالة هدفها ، بيد أنها كانت سعيدة فقط لمعرفتها أن الشيء المكتمل موجود ، سعيدة لحصولها على لحظة تواصل واحدة .

لماذا لا يستطيع أن يشتهي امرأة على هذا النحو ؟ لماذا لا يريد امرأة حقا على الإطلاق ، ليس بكل كيانه ، لم يحب قط ، لم يعبد قط ، بل يريدها جسديا حسب

لكنه يريدها بجسده ، ودع روحه تفعل ما يحلو لها . كان لهب من رغبة جسدية ينبض تدريجا في حقل مارش ، يؤججه توم برانغوين ، وحقيقة زفاف فريد ؛ المزارع الخجول ، الأشقر ، الجامد الهينة على الفتاة الجميلة شبه المتعلمة . كان توم برانغوين بكل قدراته الخفية ، يؤجج اللهيب الذي كان يرتفع . وكانت العروس منجذبة كثيرا إليه ، بينما يسلط تأثيره على فتاة شقراء جميلة أخرى باردة ومحرقة كالبحر ، كانت تردد أشياء فطنة يقدرها ، مما يجعلها تتوهج بالمزيد كالتألق الفسفوري كانت تبدو كأنها تهدهد سرا ، ويداها كلؤلؤتين تبدوان مضيئتين شفافتين ، كما لو أن السر يحترق مرئيا فيهما .

بعد انتهاء العشاء ، وفي أثناء تناول الحلويات ، عزفت الموسيقى ؛ الكمانات والأبواق . وأضيئت وجوه الجميع ، وعم توهج من الإثارة . وعندما انتهت الخطابات القصيرة ، ولم يعد أحد يمس الشراب ، دعي أولئك الذين يرغبون بتناول القهوة في الهواء الطلق ، إذ كان الليل دافئا .

كانت النجوم البراقة مشرقة ، بيد أن القمر لم يكن ظهر بعد . وتحت النجوم اشتعلت

ناران عظيمتان حمراوان دون لهب   وحول تلك الأضوية والمصابيح المعلقة ، انتصب السرادق مفتوحا أمام نار ، وضوؤها داخله

تجمع الشبان في الليل الخفي ، وكان هناك تردد أصوات وضحك ورائحة قهوة . ولاحت بنايات الحقل مظلمة في الأفق . وكانت الأشكال شاحبة معتمة ، تنتقل من مكان الى آخر ، مختلطة . وأومضت النار الحمراء على تنورة بيضاء او حريرية . وتوهجت الفوانيس على رؤوس ضيوف الزفاف العابرة

كان ذلك أمرا مدهشا لأورسلا ، وأحست أنها مخلوق جديد . وبدا الظلام يتنفس كجانبي حيوان عملاق . ولاحت أكداس القش شبه متكشفة ، حشد منها ؛ مَرْبَضٌ خصب الى الخلف قليلا . وسرت موجات من الظلام المهتاج خلال روحها   أرادت أن تتحرر ، أن تمتد وتكون بين النجوم المتألفة . أن تتسابق مع قدميها ، وتكون ماوراء حدود هذه الأرض كانت مجنونة تريد الذهاب . كانت أشبه بكلب صيد يضغط على رسنه مستعدا كي يندفع اثر طريدة لا اسم لها في الظلام ، وكانت هي الطريدة وهي كلب الصيد أيضا . كان الظلام حنونا ، يتنفس بلهاث هائل لا يمكن استيعابه . وكان ينتظر أن يستلمها في طيرانه . والآن كيف يمكنها ان تبدأ ، وكيف تستطيع أن تنطلق ؟ يجب عليها أن تقفز من المعلوم الى المجهول ، وكانت قدماها ويداها تنبض في جنون وصدرها مجهدا كما لو أنه مكبل .

ابتدأت الموسيقى ، وطفقت القيود تنزلق . كان توم برانغوين يرقص مع العروس ؛ سريعا ورشيقا ، كما لو أنه من عنصر آخر لا يمكن الوصول إليه ، كالمخلوقات التي تتحرك في الماء . وذهب فريد برانغوين مع شريكة أخرى ورقص . وصدحت الموسيقى في أمواج . وكان الأزواج واحدا بعد آخر يغتسلون ويغطسون في اعماق الرقص

قالت اورسلا لسكربينسكي واضعة يدها على ذراعه ·

ـ تعال .

وعند لمسة يدها لذراعه ، ذاب وعيه منه ، فاحتضنها بين ذراعيه ، كما لو في قدرة رغبته الخفية الواثقة ، وأصبحا حركة واحدة ؛ حركة مزدوجة واحدة ، راقصين على العشب الزلق . ستكون لانهائية هذه الحركة ، أنها ستستمر الى الأبد . كانت رغبته ورغبتها مقفلتين في غيبوبة الحركة . رغبتان مقفلتان في حركة واحدة . ومع ذلك ، لا تلتحمان ابدا ، لا تستجيب احداهما الى الأخرى . كان أخضر* ، توأمة ، تدفقا لذيذا ، ومباراة في التدفق

---

* أخضر ـ بحري ناتج من سقوط الضوء على العشب البحري الأخضر تحت الماء .

كانا معا مستغرقين في صمت عميق ؛ في طاقة عميقة تحت مائية سائلة ، تمنحهما قوة لا حدود لها وكان كل الراقصين يتماوجون ملتفين في تدفق الموسيقى وثمة أزواج معتمون يجتازون النار ، ويمرون مرة أخرى . وكانت الأقدام الراقصة ترقص بصمت الى الظلام . كانت رؤيا لأعماق العالم السفلي تحت الطوفان العظيم .

كان اهتزاز مدهش للظلام ، تأرجح هائل بطيء لليل بأكمله ، والموسيقى تعزف بخفة على السطح ، خالقة تموجا غريبا منتشيا على سطح الرقص وليس تحت ذلك سوى فيضان عظيم واحد يتنهد ببطء الى الوراء ، الى حافة النسيان ، ببطء الى الأمام ، نحو الحافة الأخرى . والقلب يندفع معه في كل مرة ، ويضيق بالتبريح كلما أشرف الأمر على نهايته ، والحركة عند نقطة التحول تستدير وتندفع راجعة .

عندما مارت الرقصة بشدة ، كانت اورسلا مدركة بعض التأثير الذي يفتش عنها . كان شيء ما ينظر اليها ؛ نظرة فعالة متوهجة . كانت تنظر في داخلها مباشرة ، ليس عليها بل فيها تماما . ورغم المسافة البعيدة إلا أنها كانت مراقبة وشيكة ، فعالة متغلبة ، ابقيت عليها . واستمرت ترقص مع سكربينسكي بينما استمرت المراقبة البيضاء العظيمة ، موازنة كل شيء في انكشافها .

ـ ارتفع القمر .

قال أنطون عندما توقفت الموسيقى ، ووجدا نفسيهما فجأة يجثمان كقطع اللقى التي تطرح على الشاطئ . استدارت فرأت قمرا أبيض هائل الحجم ينظر اليها من فوق التل ، وانفتح صدرها له ، وتعلقت كجوهرة شفافة بضيائه . وقفت ممتلئة بالقمر المكتمل ، تقدم نفسها ضحية . وانفتح نهداها كي يفسحا الطريق له ، وانفتح جسدها واسعا كشقائق نعمان مرتجفة دعوة هشة منبسطة مسّها القمر . أرادت أن يملأها القمر ، أرادت المزيد ؛ مزيدا من المشاركة ؛ اكتمالا ، بيد أن سكربينسكي وضع ذراعه حولها ، وقادها بعيدا وضع عباءة كبيرة مظلمة حولها ، وجلس ممسكا بيديها ، بينما كان ضوء القمر يتدفق على الأزهار المتوهجة .

ولم تكن هناك . جلست صابرة تحت العباءة ، وسكربينسكي ممسك بيدها ، لكن نفسها العارية كانت هناك بعيدا تنبض على ضوء القمر ، ملاقية ضوءه بنهديها وركبتيها في لقاء ، في مشاركة . كانت شبه متوثبة كي تمضي الى الواقع ، كي تخلع ملابسها وتهرب بعيدا بعيدا عن حيرة الناس وفوضاهم المظلمة هذه الى التل والقمر ، لكن الناس كانوا يقفون من حولها كالأشجار ، كالأحجار المغناطيسية ، وليس بمستطاعها أن تذهب الى الواقع . كان سكربينسكي كثقالة يكتمها ، وكان ثقل وجوده يحتجزها وأحست بعبئه ،

العبء الملح الخامل الأعمى . كان خاملا ثقيلا عليها ، وتنهدت بألم ، وتنهدت من أجل برودة القمر وحريته المطلقة وبريقه . وتنهدت من أجل الحرية الباردة في أن تكون نفسها ، أن تفعل مثل ما تهوى أرادت أن تذهب بعيدا في الحال ، وأحست أنها أشبه بمعدن براق يشد الى الأسفل بمغناطيسية مظلمة غير نقية . كان هو خبث المعدن ، وكان الناس خبث المعدن . لو كان بمستطاعها ان تهرب الى ضوء القمر الحر النظيف حسب .

قال صوته الخفيض ، صوت الظل فوق كتفها ·

ـ ألا تحبينني الليلة ؟

شدت يديها تحت ضوء القمر الندي ، كما لو أنها كانت مجنونة ، وأعاد الصوت الناعم :

ـ ألا تحبينني الليلة ؟

وأدركت أنها لو استدارت فإنها ستموت . وملأها غيظ غريب ، غيظ كي تحول الأشياء الى مزق ، وأحست بيديها مدمرتين كشفرتي تدمير معدنية .

قالت له :

ـ دعني وحدي .

وخيم عليه ظلام وعناد ايضا في نوع من الكسل . وجلس خاملا الى جانبها . خلعت عباءتها ، وسارت صوب القمر ، بيضاء بلون الفضة ، ولحق بها عن قرب .

ابتدأت الموسيقى والرقص مرة أخرى . استولى عليها . كان ثمة وجد حاد أبيض بارد في قلبها ، بيد أنه احتضنها قريبا منه ورقص معها كان موجودا دوما كوزن ناعم عليها ، وكان يسحبها نحو الأسفل . كان جسده مقابل جسدها وهما يرقصان . هصرها حتى أنها كانت تستطيع أن تستشعر جسده ووزنه وهو يغطس ويستقر عليها ، متغلبا على حياتها وطاقتها ، جاعلا إياها خاملة مثله أيضا . وأحست بيديه تضغطان خلفها ، عليها ، لكن مايزال في جسدها ذلك الوجد الخفي البارد الذي لا يقهر . أحبّت الرقص ، فلقد أراحها وأسلمها الى نوع من الغيبوبة ، بيد أن ذلك كان نوعا من الانتظار حسب ، استعمالا للوقت الذي بفصل بينها وبين كيانها النقي . تركت نفسها مقابله ، وتركته يبذل كل قدرته عليها ، كما لو أنه سيفرض قدرته عليها ، أن ينزلها الى الأسفل . ولقد استلمت كل قوة قدراته ، بل انها تمنت لو يتغلب عليها . كانت باردة وجامدة العواطف كعمود ملح* .

---

* تحولت امرأه لوط الى عمود ملح كما ورد في سفر التكوين ، الفصل التاسع عشر ، الآية ٢٦ ، «فالتفتت امرأته الى ورائها فصارت نصب ملح »

كانت رغبته قد شرعت وهي تضغط بكل توترها كي تطوقها وتجبرها . لو أنه يستطيع أن يجبرها حسب . وبدا وكأنه قد مُحِقَ . كانت بريقا باردا صلبا وصلدا كالقمر نفسه ، وخارج متناول يده مثل ما كان ضوء القمر بعيدا عن متناول يده . لا يمكن ابدا ان يمسك او يعرف . لو أن بمقدوره ، حسب ، أن يضع قيدا حولها ويجبرها!

وهكذا رقصا أربع رقصات أو خمس ، معا دائما ، ودائما كانت رغبته تزداد توترا ، وجسده يصبح أكثر حدة ، وهو يلعب عليها . ولم يزل لم يحصل عليها بعد . كانت صلبة وبراقة مثل ما هي دوما ، سليمة ، لكن عليه أن ينسج نفسه حولها ، ان يطوقها ؛ يطوقها في شبكة من الظلام بحيث تصبح كمخلوق برّاق يتلألأ في شبكة من الظلال مصطادة ، عندها سيمتلكها ويستمتع بها . وكيف يستمتع بها عندما تكون مصطادة .

وفي النهاية ، عندما انتهى الرقص ، لم تجلس بل سارت مبتعدة . جاء وقد وضع ذراعه حولها ، محتفظا بها مع حركة مشيه . وكانت موافقة على ما يبدو . كانت براقة كقطعة من ضوء القمر ، براقة كشفرة فولاذ . وكان يبدو أنه يطبق يده على شفرة تؤذيه . ومع ذلك ، فإنه كان يمسك بها حتى لو قتلته

توجها نحو ساحة الحبوب . وهناك رأى بما يشبه الرعب ، اكداس القمح الجديدة العظيمة تومض وتتلألأ متحولة ، فضية وحاضرة تحت السماء الليلية الزرقاء ، ملقية ظلالا معتمة غنية ، لكنها كانت مهيبة وحاضرة بصورة معتمة . وكانت كخيط عنكبوت متلألئ بدت وكأنها تحترق وسطها ، بينما كانت ترتفع كنيران باردة الى الهواء الفضي المزرق كان كل شيء عير ملموس ، احتراق النيران الباردة الوامضة الفولاذية المبيضة . كان خائفا من أوار القمر العظيم على أكداس القمح وهي ترتفع فوقه . وتضاءل قلبه ، وابتدأ يذوب كخرزة ، وأدرك أنه سيموت .

وقفت بضع لحظات خارجا ، تحت بريق القمر المتغلب . وبدت وكأنها تشع بقوة متلألئة . كانت خائفة مما كانت عليه ، ناظرة إليه ، الى وجوده المعتم غير الحقيقي المتذبذب ، واستولت عليها رغبة مفاجئة في أن تمسك به وتمزقه وتحوله الى عدم . وتصلبت يداها ورسغاها ، وأصبحت قوية على نحو لا يقاس ، كشفرات . كان ينتظر هناك الى جانبها كظل أرادت أن تشتته وتحطمه مثل ما يحطم ضوء القمر الظلام ، ممحوقا مفروغا منه . نظرت إليه ، وأومض وجهها براقا ملهما ، وقد أغرته

وجعلته لجاجة فيه يضع ذراعه حولها ويسحبها إليه ، الى الظل ولقد استسلمت ؛ دعه يحاول ما يستطيع أن يفعل . دعه يحاول ما يستطيع أن يفعل استند الى جانب كوم

الحبوب ، ممسكا بها ، ولسعه الكدس بحميمية بآلاف من شرر اللهب الحاد البارد ، ومع ذلك ظل ممسكا بها . وبتهور ، مرت يداه فوقها ؛ فوق الملح ؛ فوق بريق جسدها الصلد لو أنه يستطيع أن يمتلكها حسب ، لكم استمتع بها! لو أنه يستطيع فقط ان يصطاد جسدها البراق البارد الملحي المحترق في حديد يديه الناعم ، يصطادها ، يأسرها ، يمسكها . لكم سيستمتع بها بجنون حينئذ . وجاهد خفية ، ولكن بكل طاقته ، كي يطوقها ، لكي يتملكها . وكانت دائما متوهجة وبراقة وصلبة كالملح ومميتة ومع ذلك ، وبلجاجة ، كان كل لحمه يحترق ويتآكل ، كما لو أنه قد احتله سم زعاف مستهلك ، بيد أنه مايزال يقاوم معتقدا أنه سيتغلب عليها في النهاية . ورغم سعاره ، بحث عن فمها بفمه ، رغم أن الأمر بدا كما لو أنه كان يمرغ وجهه في نوع من موت مريع . استجابت له ، وضغط نفسه عليها بحدة ، وكانت روحه تئنُّ أكثر فأكثر .

ـ دعيني أدخل ، دعيني ادخل .

أخذته في قبلة . كانت قبلتها صلبة عندما اطبقت عليه ، صلبة وحادة وأكّالة على نحو محرق كضوء القمر . كأنها تدمره ، وكان يترنح ويستجمع كل قوته كي يبقي قبلنه عليها ، كي يبقي نفسه في القبلة .

بيد أنها أطبقت عليه صلبة حادة ، باردة كالقمر ، محرقة كملح ثاقب ، حتى استجاب حديده الناعم الدافئ ، استجاب . وكانت هي هناك حادة ، أكّالة مهتاجة بتدميره ، مهتاجة كملح قاس أكّال حول آخر مادة من كيانه ، مدمرة إياه ، مدمرة إياه في القبلة . وتبلورت روحها بنصر ، وذابت روحه بالكرب والبطلان ، وبذلك أمسكته هناك ؛ الضحية ، مستنفدا ، ممحوقا . لقد انتصرت ولم يعد موجودا بعد ذلك .

ابتدأت تدريجا تعود الى نفسها ، وتدريجا عاد اليها نوع من الوعي النهاري . وفجأة رُدَّ الليل مرة أخرى الى واقعيته المألوفة القديمة المعتدلة . وتدريجا أدركت أن الليل كان مألوفا واعتياديا وأن الليل العظيم المفقع البارع لا يوجد حقا . وتغلب عليها رعب بطيء . أين كانت ؟ ما هذا العدم الذي أحست به ؟ العدم كان سكريبنسكي . أهو هناك حقا ؟ من كان هو ؟ كان صامتا ، لم يكن هناك . ماذا حدث ؟ هل كانت مجنونة ، أي شيء مرعب تملكها ؟ وامتلأت بخوف متغلب من نفسها ، ورغبة قاهرة في انها يجب الا تكون ؛ النفس المحترقة الأكّالة الأخرى .

وتملكتها رغبة مسعورة في أن ما حدث يجب ألاّ يُتذكر ، وألاّ يُفكر به أبدا أن لا يسمح له أن يكون ممكنا ولو لحظة واحدة أنكرته بكل جوارحها ، وبكل جوارحها

استدارت بعيدا عنه . كانت على مايرام ، وكانت محبة . وكان قلبها دافئا ، ودمها مظلما دافئا ناعما ووضعت يدها ملاطفة على كتف أنطون ، وقالت بنعومة ولطف وتربيت ·

ـ أليس رائعا ؟

وابتدأت تلاطفه كي تعيده الى الحياة مرة أخرى ، ذلك لأنه كان ميتا ولقد قصدت أنه يجب ألا يعرف أبدا ، ألا يدرك أبدا ما حدث . سوف تعيده من الموت دون أن تترك أثرا واحدا من حقيقة كي يتذكر بها محقه . ولقد بذلت كل نفسها الإعتيادية الدافئة . لمسته ، أظهرت له ولاء الإحساس بالحب . وتدريجا ، عاد إليها ؛ رجل آخر . كانت ناعمة وفاتنة وملاطفة . كانت خادمته ؛ خادمته المطيعة ، واعادت صيانة صدفته كلها ، أعادت صيانة شكله وهيئته ، غير أن اللب قد ولى . دُعمت كبرياؤه ، وتدفق دمه مرة أخرى في كبرياء ، لكن لم يعد لبٌّ في داخله لم يكن لديه لب يميزه كذكر ، فقلب الذكر الحقيقي المنتصر المتوقد المتخايل في داخله لن ينبض مرة أخرى ، سيكون مادة الآن ، معكوسا لن يكون أبدا ذلك الشيء الذي لا يلمس ذا اللب المكون من النار المتخايلة التي لا تخفت . لقد اخمدت تلك النار ، ولقد كسرته ، بيد انها لاطفته . لن تدعه يتذكر ما كان ، ولن تتذكر نفسها . وتوسلت إليه قائلة :

ـ قبّلني يا أنطون ، قبّلني!

قبّلها ، بيد أنها أدركت أنه لا يستطيع أن يلمسها .كانت ذراعاه حولها ، لكنهما لم يمسكا بها . كان بمستطاعها أن تشعر بفمه عليها ، ولكنها لم تكن خاضعة له وهمست في كآبة حادة : قبلني ، قبلني .

وقبّلها مثل ما أمرته ، بيد أن قلبه كان أجوف ، وأخذت قبلاته خارجيا ، بيد أن روحها كانت فارغة منتهية .

عندما ألقت بصرها بعيدا ، رأت ومض سنابل الشوفان الرقيق تتدلى من جانب الكدس تحت ضوء القمر . شيء مختال وملكي ولا شخصي تماما . كانت مزهوة بها ، وانى كانت السنابل ، كانت هي أيضا . لكن في هذا العالم المألوف الدافئ المؤقت . كانت فتاة كريمة طيبة ، واشرأبت تواقة للطيبة والحنان . أرادت أن تكون كريمة طيبة

عادا الى البيت خلال الليل الذي كان كله شاحبا ومتوهجا من حولهما بالظلال والتلألؤ والتواجدات . وعلى نحو مميز ، رأت الأزهار أسفل سور الشجيرات ، ورأت حزما رقيقة ممهدة تندفع بيضاء على سور الشجيرات الشائك .

ما أجمله! كم كان جميلا . وفكرت بتبريح كم كانت سعيدة سعادة متوحشة هذه الليلة

منذ أن قبلها   لكن ما أن تمشي وذراعه حول خصرها حتى استدارت مقدمة نفسها قربانا لليل الذي تلألأ مروعا . قمر رائع الهي ابيض وصريح كعريس ، والزهور فضية ومتحولة تملأ الظلا ل

قبّلها مرة أخرى تحت أشجار السرو قرب البيت ، فتركته وهربت من نطفل والديها في البيت الى غرفة نومها ، حيث مدت ذراعيها ، وهي تنظر الى الريف المضاء بالقمر في الخارج ، صلبتين ، صلبتين ، في سعادة تقدم نفسها ، بتبريح قربانا لوجود الليل الأشقر المبتهج .

لكن ، ثمة جرح من الأسى ، لقد آذت نفسها كما لو أنها خدعت نفسها في أثناء محقها له . وغطت نهديها الصغيرين الشابين بيديها ، غطتهما لنفسها ، وعطت نفسها بنفسها ، وتكومت في السرير كي تنام .

في الصباح اشرقت الشمس ، ونهضت قوية راقصة . وكان سكريبنسكي لم يزل في حقل مارش ، وكان قادما الى الكنيسة . كم كانت الحياة حلوة ومدهشة! وفي صباح الأحد المنعش خرجت الى الحديقة ، بين ألوان الخريف الصفر والحمر النابضة . استنشقت الأرض ، وأحست بخيوط العنكبوت وكانت حقول القمح عبر الريف شاحبة وغير حقيقية . وفي كل مكان ، كان صمت صباح يوم الأحد الكثيف ممتلئا بضجيج غير مألوف استنشقت جسد الأرض وبدا كأنها تحرك الجنب الذي تحتها بينما كانت تقف . وفي الهواء المزرق ، جاء النضج القوي ، وكان السكون سكون تنفس قوي مستنفد ، وكانت ألوان وميض جذامة الزرع الحمر والصفر ارتجاف آخر التنقلات الغاطسة وحركتها وسعادة الإشباع الواضحة .

كانت نواقيس الكنيسة تقرع عندما وصل . رفعت بصرها في توقع حميم لمقدمه ، بيد أنه كان منزعجا ، وقد جرحت كبرياؤه ، وبدا مهندما . وكانت تعرف بزته المفصلة ، وهمست له :

ـ ألم تكن ليلة أمس رائعة ؟

قال لها :

ـ نعم .

غير أن وجهه لم ينفتح ولم يصبح طلقاً .

انتهى القداس والترتيل في الكنيسة ذلك الصباح دون أن تلحظه . رأت توهج النوافذ الملون واشكال المصلين ، وألقت نظرة حسب ، على سفر التكوين الذي كان جزءها المفضل من الكتاب المقدس .

« ولقد بارك الله نوحا وبنيه وقال لهم انموا واكثروا واملأوا الأرض » « وخوفكم وذعركم يكونان على جميع وحش الأرض وجميع طير السماء ، وكل ما يدب على الأرض وأسماك البحر ، إنها مسلّمة الى أيديكم »

« وكل حيٍّ يدبُّ يكون لكم مأكلا وكبقول العشب أعطيتكم الكل »* .

بيد أن اورسلا لم تتأثر بالتآريخ ذلك الصباح ، إذ كان التكاثر والنماء على الأرض يضجرها ، فلقد بدا الأمر برمته مبتذلا يشبه تربية القطعان . ولقد تملكها البرود تماما بسبب زيادة البشر على الوحوش والأسماك .

« وأنتم فانموا واكثروا وتوالدوا في الأرض ، واكثروا فيها »* .

وهزئت في روحها من هذا التكاثر ، كل بقرة تصبح اثنتين ، وكل حبة لفت تصبح عشرة .

« وقال الله هذه علامة العهد الذي أنا جاعله بيني وبينكم وبين كل ذي نفس حية معكم مدى أجيال الدهر »*

« تلك قوسي جعلتها في الغمام فتكون علامة عهد بيني وبين الأرض »* .

« ويكون أنه إذا غيمت على الأرض ظهرت القوس في الغمام ، فذكرت عهدي الذي بيني وبينكم وبين كل نفس حية في كل جسد ، فلا تكون المياه طوفانا لتهلك كل ذي جسد »* .

« تهلك كل ذي جسد » ، لماذا « الجسد » على نحو خاص ؟ ومن كان رب الجسد هذا ؟ وبعد كل شيء كم كان حجم الطوفان ؟ ربما بضع عرائس جن وحيوانات ركضت لتوها الى التلال والى الوديان والغابات الأبعد ، خائفة ، بيد ان معظمها ظل يركض جذلا غير شاعر بأي فيضان على الأطلاق ، ما لم تكن حوريات البحر قد اخبرتها . ولقد سر اورسلا أن تفكر بعرائس الأنهار في آسيا الصغرى وهي تقابل عرائس البحر عند مصبات الأنهار حيث يضرب ماء البحر على المد العذب الحلو ، وهي تنقل لشقيقاتها قصص طوفان نوح . كن سيحكين قصصا مسلية عن نوح في سفينته ، وستروي بعض حوريات البحر كيف تعلقن على جانب السفينة ، وتطلعن الى داخلها ، وسمعن نوحاً وساماً وحاماً ويافثَ يجلسون في أماكنهم تحت المطر ، ويحكون كيف أنهم هم الأربعة أصبحوا الرجال الوحيدين على الأرض الآن . ذلك لأن الله قد أغرق كل البقية حيث أن أولئك الأربعة يحصلون على كل شيء لهم ، ويصبحون سادة كل شيء ، مستأجرين ما تحت المالك الأعظم .

* سفر التكوين ، الفصل التاسع ، الأيات ١-٣ ، ٧ ، ١٢-١٥

وتمنت اورسلا لو أنها كانت حورية بحر ، إذن لضحكت عبر نافذة السفينة ، ولنثرت قطرات من ماء الطوفان على نوح قبل أن تتوجه الى الناس الذين هم أقل أهمية من مالكهم وطوفانهم

ماذا كان الرب ، بعد كل شيء ؟ اذا كانت الدودة في جسد كلب ميت ليست الا ربا يُقبّل الجيفة ، فما هو الذي ليس برب ؟

لقد أتخمت من هذا الرب ، وكانت مرهقة من اورسلا برانغوين التي تشعر بالكدر بشأن الرب . فبغض النظر عما يكون فإنه كان موجودا وليس ثمة حاجة لأن تزعج نفسها بشأنه . ولقد أحست أنها قد امتلكت الآن الأذن كله . جلس سكربينسكي الى جانبها مصغيا للقداس ، الى صوت القانون والنظام «وأنتم فإن شعر رؤوسكم جميعه محصى »* . ولم يصدق ذلك . كان يعتقد ان اشياءه الخاصة تحت تصرفه الشخصي ، وأن بمقدور المرء أن يفعل ما يحلو له بأشيائه الخاصة مادام ترك الآخرين وشأنهم

لاطفته اورسلا ، وأظهرت الحب له . ومع ذلك ، كان يعرف أنها تريد أن تؤثر عليه وتحطم كيانه . إنها لم تكن معه بل ضده . بيد أن اظهارها الحب له وإعجابها التام به أمام الناس أرضاه .

أمسكت به خارج نفسه ، وكانا عاشقين بطريقة شابة عاطفية رائعة تقريبا أهداها خاتما صغيرا ، وضعاه في شراب الراين ، في قدحهما . وشربت ثم شرب بعدها ، شربا حتى بقي الخاتم مكشوفا في قاع القدح . ثم أخذت الجوهرة البسيطة وربطتها بخيط حول عنقها حيث ارتدتها . طلب منها صورتها بينما كان يهم بالرحيل ، فذهبت بإثارة هائلة الى المصور بخمسة شلنات ، وكانت النتيجة صورة قبيحة لها ظهر فيها فمها وقد مال الى أحد الجانبين ، ودهشت بها ، وامتدحتها .

كان رأى وجه الفتاة الحي حسب . ولقد آذته الصورة واحتفظ بها ، وكان يتذكرها دوما ، لكنه كان نادرا ما يطيق التفرج عليها . كان ثمة أذى لروحه في الوجه الصافي الخالي من الخوف الذي كانت فيه لمسة انشداه . كان انشداهاً نائياً عنه تماماً .

ثم أعلنت الحرب ضد البوير في جنوب أفريقيا . وفي كل مكان كان جَيَشان من الإثارة ، وكتب لها أنه قد يكون عليه الذهاب . وأرسل إليها صندوقا من الحلوى .

كانت منذهلة قليلا من فكرة ذهابه الى الحرب ، غير عارفة كيف تشعر كان نوعا من

---

* إنجيل القديس متى ، الفصل العاشر ، الآية الثلاثون

موقف عاطفي تعرفه جيدا في القصص ، بيد انها نادرا ما فهمته في الواقع فَتحتَ الإحساس بزهو متسام ، كان نوع من الفزع وخيبة الأمل العميقة الشاحبة . ومع ذلك ، خبأت الحلوى تحت سريرها ، وأكلتها كلها بمفردها عندما كانت تأوي الى الفراش . وعندما تستيقظ في الصباح ، وطوال الوقت ، كانت تشعر أنها مذنبة وخجلى ، لكنها ببساطة لا تريد أن نشرك أحدا معها

ظل صندوق الحلوى ذاك عالقاً بذهنها بعدئذ لماذا أخفتها وأكلتها جميعا ؟ لماذا ، لماذا تشعر بالذنب ؟ كانت تدرك ، حسب ، أنها يجب أن تشعر بالذنب ، ولم يكن بمقدورها أن تحزم أمرها . ولقد ظل ذلك الصندوق كالنصب بصورة غريبة ، وقد أصبح فارغا الآن . كانت معضلة لها . فمن تكون كي تفكر بها ؟

ولقد جعلتها فكرة الحرب بأكملها تشعر بالقلق ؛ القلق . فعندما يبدأ الرجال بقتال منظم بعضهم ضد الآخر ، كان الأمر يبدو لها كما لو أن أقطاب الكون كانت تتصدع ، وأن الكل قد ينحدر متداعيا الى حفرة لا قرار لها . ولقد تملكها إحساس مريع لا قرار له . ومع ذلك ، كان بالطبع هناك النقش السامي الجديد بالعاطفة والشرف وحتى الدين بشأن الحرب . وكانت مشوشة جدا .

وكان سكربينسكي منشغلا جدا ، ولم يكن بمقدوره أن يأتي لزيارتها ، ولم تطلب أية تطمينات او ضمانات ، فما كان بينهما كان ولا يمكن تغييره بالمواثيق كانت تدرك ذلك بالغريزة ، ولقد وثقت بالحقيقة الغرَزية

بيد أنها أحست بتبريح انعدام الحيلة ، فلم يكن بمستطاعها أن تفعل شيئا . ولقد عرفت معرفة غامضة قوى العالم الهائلة وهي تتدحرج ويصدم بعضها بعضاً على نحو مظلم وأخرق وغبي . ومع ذلك ، كانت جبارة حتى أن المرء يمكن أن ينفض كالغبار تماما . عديمة الحيلة ؛ عديمة الحيلة ، كانت تدور في دوامة كالغبار . ومع ذلك ، أرادت بشدة أن تتمرد ، أن تغتاظ ، أن تقاتل ولكن بماذا ؟

هل تستطيع أن تقاتل بيديها وجه الأرض ، تضرب التلال في أماكنها ؟ ومع ذلك ، أراد صدرها أن يقاتل ، أن يقاتل العالم بأكمله . وكانت تلكما اليدان الصغيرتان هما كل ما تحارب به

وانصرمت الشهور ، وحل عيد الميلاد ، وتساقطت ندف الثلج ، وكان ثمة تجويف صغير في الغابة قرب كوسثي ، حيث تنمو ندف الثلج الى حجوم كبيرة ، فأرسلت اليه بعضا منها في صندوق ، ورد عليها برسالة شكر قصيرة سريعة ، وبدا ممتنا وآسفا جدا واتخذت

عيناها مظهرا طفوليا مرتبكا ، واستمرت مرتبكة يوما بعد آخر ، عديمة الحيلة ، ساهية عن كل ما يجب أن يحدث .

واستمر منشغلا بواجباته ، مكرسا نفسه لها . وفي سويداء قلبه ، كانت نفسه ؛ الروح التي تلهم والتي لديها أمل حقيقي في اكتمال النفس تتمدد كالمبت ، ساكنة بالولادة ، وزنٌ ميت في رحمه . من يكون كي يجعل ارتباطه الشخصي بهذه الأهمية ؟ ماذا يهم الرجل شخصيا ؟ إنه مجرد صخرة في البناء الإجتماعي العظيم ، الأمة ، الإنسانية الحديثة .

كانت حركاته الشخصية ضئيلة ثانوية تماما . إن الشكل العام هو الذي يجب أن يؤمّن ، لا يتحطم لأي سبب شخصي مهما كان ، لأن ليس هناك من سبب شخصي يمكن أن يبرر مثل هذا الكسر . ماذا تهم الحميمية الشخصية ؟ ان على المرء ان يملأ مكانه في الكل ، الخطة العظيمة لحضارة الإنسان المتقنة ، هذا كل شيء . الكل يهم ، ولكن الوحدة ، الشخص ، ليس له أهمية ، إلا عندما يمثل الكل .

لذلك ترك سكربينسكي الفتاة وسار في طريقه ، خادما ما يجب أن يخدم ، ومتحملا ما يجب أن يتحمله دون تعليق . أما بشأن لحياته الغرّزية فإنه كان ميتا ، وهو لا يستطيع أن ينهض من الموت مرة أخرى ، فروحه تضطجع في القبر ، وروحه تضطجع في ترتيب الأشياء المؤسسة ، وله حواسه الخمس ايضا ، ويجب أن تشبع هذه . والى جانب هذا ، فهو كان يمثل فكرة الحياة الأزلية المؤسسة العظيمة ، وشأنه شأن هذه ، كان مهماً وفوق أي تساؤل .

إن صلاح المجموع الأكبر هو الأهم ، وإن ما هو صالح للمجموع مناسب للفرد . وهكذا فإن على كل إنسان أن يعطي نفسه كي يدعم الدولة ، وأن يكدح من اجل الصالح العام إن المرء يمكن أن يجري تحسينات في الدولة ربما ، لكن دوما بفكرة الاحتفاظ بها سليمة . ومع ذلك ، فليس صالح المجموع هو الذي يمكن أن يمنح روحه الإشباع الحيوي وكان يدرك ذلك . لكن لم تعد روح الفرد مهمة بقدر كافي كان يعتقد أن الإنسان مهم بقدر ما يمثل الإنسانية بأكملها

لم يكن يستطيع أن يرى ، لم يكن معتادا على أن يرى أن الصالح العام للمجموعة مثل ما يمثل ، لم يعد الصالح الأعلى، حتى للفرد العادي . لقد اعتقد ذلك لأن المجموعة تمثل ملايين الناس . وبذلك ، فإنهم أكثر أهمية بملايين المرات من اي شخص واحد ، ناسيا ان المجموعة هي تجريد للمجموع ، وليس المجموع ذاته . والآن ، وعندما اصبحت عبارة إن الصالح المجرد للمجموعة قانون يفتقد كل الهام او قيمة للذكاء العادي ، فإن الصالح العام أصبح هراء مطبقا يمثل المادية المحافظة المبتذلة في أحط مستوياتها .

والصالح الأعلى للمجموع الأعظم يعني ، أساساً ، الرفاهية المادية لكل الطبقات وسكربينسكي يهتم حقا برفاهيته المادية ، فلو كان مفلسا لجرب حظه عندئذ ، فكيف يمكن أن يجد صالحه الأعلى في التضحية بحياته من أجل الرفاهية المادية لكل شخص آخر! فما يعده شيئا غير مهم في تصوره لا يمكن أن يُعتقد أنه يستحق كل تضحية من أجل الآخرين . إن ذلك الذي يعده ذا أهمية له كفرد . اوه ، لقد قال يجب ألا تُتصور المجموعة من وجهة النظر هذه . لا ، لا ، إننا نعرف ماذا تريده المجموعة . إنها تريد شيئا راسخا ، تريد أجورا جيدة ، وفرصا متساوية ، وظروفا معيشية جيدة . هذا ما تريده المجموعة ، إنها تريد أي شيء حاذق او صعب . الواجب واضح جدا . دع في بالك العناية المادية الفورية لكل شخص ، هذا كل شيء .

وهكذا خيم على سكربينسكي نوع من المعدومية التي كانت ترعب اورسلا بصورة متزايدة . أحست أن ثمة شيئاً ما يائساً عليها أن تخضع له . شعرت بإحساس هائل بكارثة على وشك الحدوث . وأصبحت حساسة مكتئبة مترقبة بصورة مروعة . كان تبريحا لها أن ترى الغداف* يخفق بجناحيه ببطء في السماء ، فذلك كان نذير سوء . وأصبح نذير البشر اسودا ومؤثرا فيها حتى أنها انطفأت تقريبا .

ومع ذلك ما الأمر ؟ في أسوأ تقدير سيذهب بعيدا ، فلماذا تهتم ، ما الذي تخشاه ؟ لم تكن تعرف ، لم يكن سوى رعب أسود يتملكها . وعندما ذهبت في الليل ، ورأت النجوم الكبيرة البراقة ، بدت مرعبة وفي النهار ، كانت تتوقع دائما تهمة توجه إليها

كتب اليها في آذار ليقول إنه ذاهب الى جنوب افريقيا خلال فترة قصيرة ، ولكن قبل أن يذهب ، سوف ينتهز فرصة البقاء يوما في حقل مارش .

وكما لو في حلم مؤلم ، انتظرت قلقة ، مرتبكة . لم تكن تعرف ، ولم تستطع أن تفهم ، بل أحست فقط أن كل خيوط قدرها قد شدت في انتظار . كانت تكتفي بالبكاء في بعض الأحيان حسب ، وهي تجوس دون هدى ، مرددة : أنا مغرمة جدا به ، أنا مغرمة جدا به .

ولقد جاء ، لكن لماذا جاء ؟ نظرت اليه باحثة عن علامة ، لكنه لم يعط أية منها ، بل حتى لم يقبلها . وتصرف كما لو أنه أحد المعارف العاديين الأنيسين . كان ذلك زائفا ، لكن ما الذي يخفيه ؟ انتظرته ، انتظرت ان يصدر علامة ما .

---

* الغداف أو غراب القيظ : غراب أسود يلمع بخضرة وحمرة ، أسود المنقار والرجلين

وهكذا ظلاّ طوال النهار يترددان ويتجنبان التماس حتى حل المساء . ثم قال ضاحكا بأنه سيعود خلال ستة أشهر وسوف يقص عليهم كل ما يراه ، ثم صافح أمها واستأذن

رافقته اورسلا حتى الطريق ، وكان الليل عاصفا ، واشجار السرو مهتاجة هامسة نابضة وكانت الريح تبدو كأنها تندفع بين المداخن وبرج الكنيسة ، وكان الجو مظلما .

هبت ريح على وجه اورسلا ، والتصقت ثيابها بأطرافها ، بيد أنها كانت ريحا موّارة ، منعظة ، ممتلئة بزخم حياة مضغوط . وبدا أنها فقدت سكربينسكي ، وأنها لا تستطيع أن تجده في ذلك الليل القوي الملح .

وسألته :

ـ أين أنت ؟

وجاءها صوته غير المجسد :

ـ هنا .

ومن ثم متلمسة ، لمسته ، ومستهما نار تشبه البرق ، فقالت :

ـ أنطون!

فأجابها :

ـ ماذا ؟

أمسكته بيديها في الظلام ، وتلمست جسده مرة أخرى بجسدها ، وقالت :

ـ لا تتركني ، عُد إلي .

قال لها وهو يمسكها بين ذراعيه :

ـ نعم .

بيد أن الذكر في داخله قد خدش بمعرفة أنها لم تكن تحت سحره او تأثيره ، فأراد أن يبتعد عنها . وارتاح لمعرفته أنه سيذهب غدا . إن حياته في مكان آخر حقا ، حياته في مكان آخر ـ حياته في مكان آخر ، فمركز حياته ليس ما ستحصل عليه ، فهي مختلفة وثمة صدع بينهما ، إنهما عالمان متعاديان .

وكررت القول :

ـ هل تعود إلي ؟

ـ نعم .

أجابها ، ولقد عنى ما قال . لكن عندما يحافظ امرؤ على وعده ليس مثل ما يعود رجل الى ما يرضيه .

وهكذا قبلته ، ودخلت الى البيت ضائعة . اتجه نحو حقل مارش منشدها لقد آذاه الاتصال معها وهدده ، فانكمش إذ أن عليه أن يكون حرا من تأثير روحها . ذلك لأنها ستقف أمامه مثل ما وقف الملاك أمام بلعام* ، وترجعه بسيف عن الطريق الذي كان متجها فيه الى العراء .

وفي اليوم التالي ذهبت الى المحطة كي تشهد رحيله . نظرت إليه ، استدارت إليه ، لكنه كان دائما غريبا ممحوقا ؛ ممحوقا تماما كان رابط الجأش تماما ، ولقد ظنت أن ذلك هو الذي يجعله ممحوقا على ذلك النحو . كان لا شيء على نحو غريب .

وقفت اورسلا الى جانبه بوجه شاحب أبكم ، لم تكن تريد أن يراه ، إذ يبدو أن ثمة شيئاً من الخزي في جذر الحياة ذاتها . خزيٌ بارد ميت من أجلها .

ولقد شكل الثلاثة مجموعة تثير الانتباه في المحطة ؛ الفتاة في قبعتها وقلنسوتها المصنوعة من الفراء ، ببزتها الخضراء الزيتونية ، شاحبة متوترة بالشباب ، منعزلة ، مستجيبة ، والشاب الجندي في قبعة مسحوقة ، ومعطف ثقيل ، وجهه شاحب ، ومتحفظ بعض الشيء ، فوق لفاعه القرنفلي اللون . وكانت هيئته بأكملها محايدة . ثم الرجل الأكبر سنا ، بقبعة صلبة سوداء مدورة ، وفق الموضة ، مضغوطة فوق حاجبيه الغامقين . كان وجهه دافئ الألوان ، هادئا ، وتدل هيئته على لامبالاة غريبة . كان المستمع الأزلي ، الجوفة ، المتفرج على التمثيلية . أما في حياته الخاصة فلم تكن لديه أية تمثيلية .

كان القطار يستعجل ، وارتجف قلب اورسلا ، بيد أن الثلج كان متجمدا عليه .

قالت له وهي ترفع يدها ، ووجهها ضحوك بضحكة غريبة عمياء متألقة تقريبا :

ـ وداعا .

وتساءلت ما الذي يفعله عندما انحنى وقبلها . كان المفترض أن يصافحها ويذهب .

وقالت مرة أخرى :

ـ وداعا .

التقط حقيبته الصغيرة وأدار ظهره لها ، فلقد كان استعجال على طول القطار . وآه ، هذه عربته اتخذ مقعده . أغلق توم برانغوين الباب ، وتصافح الرجلان ، بينما انطلقت الصافرة .

قال برانغوين :

---

* الصورة مقتبسة من سفر العدد في التوراة عندما رأت أتان بلعام ملاكا يسد الطريق (الفصل ٢٢ ، الآيات ٢٤ وما بعدها)

ـ وداعا وحظا سعيدا .

ـ أشكرك ، وداعا .

تحرك القطار ، ووقف سكربينسكي عند باب العربة ملوحا ، غير أنه لم يكن ينظر الى الشخصين حقا ؛ الفتاة والرجل المتورد ذي الملبس الأنثوي تقريبا . لوحت اورسلا بمنديلها ، واستجمع القطار سرعته ، وأخذ يتضاءل شيئا فشيئا ، وهو ما يزال يجري في خط مستقيم . واختفت بقعة البياض ، وكانت مؤخرة القطار صغيرة في البعد ، لكنها لم تزل واقفة على المنصة ، شاعرة بفراغ هائل من حولها ، ورغما عنها كان فمها يرتجف ، ولم تكن راغبة في البكاء ، إذ كان قلبها باردا ميتا .

كان خالها ذهب الى الماكنة الآلية ليشتري علبة ثقاب ، وقال لها مستديرا نحوها :

ـ هل تريدين بعض الحلوى ؟

كان وجهها مغطى بالدموع ، وتصنعت تكشيرات داخلية غريبة بفمها كي تتمالك نفسها . ومع ذلك فإن قلبها لم يكن يبكي ، بل كان باردا ترابيا .

وألحّ خالها :

ـ أي نوع تفضلين ؟

فردت عليه بصوت عادي غريب يصدر من وجه مشوه :

ـ أفضل بعض أقراص النعناع .

لكن خلال لحظات قليلة تمالكت زمام نفسها ، واصبحت ساكنة منفصلة

قال لها :

ـ دعينا نذهب الى المدينة .

ودفعها الى قطار متجه الى محطة المدينة . وذهبا الى مقهى ليشربا القهوة . وجلست تتفرج على الناس في الشارع ، وثمة جرح هائل في صدرها ، وسكين باردة في روحها .

استمرت سكين الروح الباردة هذه فيها الآن . كان الأمر كما لو أن بعض التحرر من الوهم قد تجمد عليها . انكار صلب ، إذ أصبح جزءا منها ، باردا فاتر الشعور . كانت صغيرة جدا ، مرتبكة جدا كي تفهم او حتى كي تعرف أنها قد عانت كثيرا ، وكانت متأذية بعمق كي تعترف

انتابتها نوبات كربها العمياء عندما أرادت ، أرادته . لكن منذ اللحظة التي غادر فيها ، أصبح شيئا من صنع خيالها . ولقد استدارت اليه بكل عذابها ووجدها وتوقها المهتاج ، واحتفظت بمفكرة سطرت فيها أفكارا جياشة ، فعندما رأت القمر في السماء ، مار قلبها ،

وذهبت فكتبت : «لو كنت قمرا لعرفت أين أسقط» . ولقد عنت تلك الجملة كثيرا لها ـ إذ وصعت فيها كل تبريح شبابها ووجدها الغض وتوقها . وكانت تناديه من قلبها أنىّ ذهبت . وكانت أطرافها تنبض بالتبريح نحوه أنى كانت ، فلقد بدت قوة روحها المشعة تسافر اليه دون نهاية ، دون نهاية . وفي خلق روحها عثرت عليه .

لكن من هو وأين يوجد ؟ في رغبتها الخاصة حسب . استلمت بطاقة منه ووضعتها في صدرها . لم تكن تعني كثيرا بالنسبة إليها حقا . وفي اليوم التالي ، فقدتها بل لم تتذكر أنها كانت عندها حتى بعد مرور بضعة أيام من ذلك .

ومرت الأسابيع الطويلة ، وكانت تصلها باستمرار اخبار الحرب السيئة ، وأحست كما لو أن كل شيء في الخارج ، في العالم ، كان أذى ؛ أذى ضدها ، وظل شيء ما في روحها باردا لامباليا ، ثابتا .

كانت حياتها دائما جزئية في ذلك الوقت حسب ، فهي لم تعش عيشة مكتملة أبدا ، إذ كان هناك ذلك الجزء البارد غير الحي منها . ومع ذلك كانت حساسة على نحو جنوني ، فلم تكن تطيق نفسها . وعندما جاءت امرأة عجوز قذرة حمراء العينين تشحذ منها في الشارع أجفلت بعيدا كما لو من شيء غير نظيف ، ومن ثم عندما صرخت المرأة العجوز بإهانات لاذعة خلفها ، أجفلت وارتجفت اطرافها بتعذيب مجنون ، فلم تكن تطيق نفسها . وكلما فكرت بالمرأة حمراء العينين كان نوع من الجنون يسري مشتعلا على لحمها وعقلها ، وأرادت تقريبا أن تقتل نفسها .

وفي هذه الحالة ، احتدمت حياتها الجنسية متحولة الى ما يشبه المرض في داخلها . كانت متوترة الأعصاب ، شديدة الحساسية حتى أن ملمس الصوف الخشن وحده كان يمزق أعصابها .

الفصل الثاني عشر

العار

لم يتبق أمام اورسلا سوى فصلين دراسيين ، إذ كانت تحضر لامتحان قبولها في الجامعة وكان أسبوعا مخيفا ، إذ بقي لها ذكاء ضئيل جدا عندما فُصلت عن السعادة ، فلقد ابقاها العناد واحساس بقّدر داهم شبه مثبتة إليه . وهي تعرف أنها سرعان ما تريد أن تصبح شخصا مسؤولا عن نفسه ، وكان مصدر فزعها أنها قد تمنع من فعل ذلك . وثمة رغبة شاملة بين جوانحها في الاستقلال التام ، استقلال اجتماعي تام عن أية سلطة شخصية ، جعلتها متجهمة أثناء دراستها ، ذلك لأنها أدركت أن لديها دائما ثمن فديتها ـ أنوثتها . كانت امرأة دوما ، وما لا تستطيع الحصول عليه بسبب كونها مخلوقا بشريا تابعا لبقية الجنس البشري ، ستحصل عليه لأنها كانت أنثى ، غير الرجل ففي انوثتها كانت تشعر بكنوز خفية ، احتياطي ، كان لديها دائما ثمن الحرية .

ومع ذلك ، كانت متحفظة بما فيه الكفاية بشأن هذا المصدر الأخير . إذ إن عليها أن تجرب الأشياء الأخرى أولا ، فهناك عالم الرجال الخفي الذي يجب أن تغامر فيه ، عالم العمل والواجبات اليومية ، ووجودها كعضو عامل في المجتمع كان لديها حقد دفين ضد هذا ، وكانت تريد أن تقوم بفتوحاتها في عالم الرجال هذا أيضا .

لذلك فلقد انكبت على عملها ، ولم تتخل عنه قط . بعض الأشياء التي أحبتها ، كانت موادها اللغة الإنكليزية واللغة اللاتينية واللغة الفرنسية والرياضيات والتاريخ . وما إن تعلمت كيف تقرأ اللغة الفرنسية واللاتينية حتى ابتدأ بناء الجمل يضجرها . وكان أكثر الأمور إثارة للملل هي الدراسة المتأنية للأدب الإنكليزي . لماذا يجب على المرء أن يتذكر الأشياء التي قرأها ؟ وثمة شيء ما في الرياضيات ؛ مطلقيتها الباردة تثير دهشتها ، بيد ان التمرين العملي كان مضجرا . وكان بعض الناس في التاريخ يثيرون حيرتها ويجعلونها تتأمل ، غير

أن الأجزاء السياسية كانت تغضبها . ولقد كرهت الوزراء ، ولم تكن تحصل على احساس مؤثر بالاكتساب وغنى المعلومات والتوسع من دراستها إلا في لحظات غريبة .

ففي أصيل أحد الأيام ، كانت تقرأ مسرحية «مثل ما تحبها »* عندها ، سمعت ، بدمها ، عبارة لاتينية ، وأدركت كيف ينبض الدم في الجسد الروماني . وهكذا أحست بعد ذلك ، أنها عرفت الرومان بالتماس . وكانت تستمتع بتقلبات قواعد اللغة الإنكليزية لأنها تمنحها المتعة في أن تكتشف حركات الكلمات والجمل الحية ، بينما كانت الرياضيات ؛ مجرد الرؤية المجردة للأحرف في الجبر ، كانت تمثل إغراء حقيقيا لها .

أحست كثيرا ، وكان ذلك مصدر ارتباكها في ذلك الوقت ، أن وجهها قد اكتسب مظهرا غريبا متسائلاً شبه خائف ، كما لو أنها لم تكن واثقة مما يمكن أن يمسك بتلابيبها في أية لحظة خارجا من المجهول .

نتف صغيرة غريبة من المعلومات ، حركت وجدا لا قرار له في نفسها . وعندما أدركت أن في براعم الخريف البنية الضئيلة ، كانت أزهار أشهر الصيف التسعة المنتهية منذ الآن ، مطوية ودقيقة ومكتملة وضئيلة ومطوية ومتروكة هناك تنتظر . سرى بريق من الانتصار والحب فيها .

وقالت منفعلة وعاطفية ، واقفة أمام شجرة دردار كبيرة في عبادة :

ـ لن أستطيع أن أموت أبدا بينما تكون هناك شجرة .

كان الناس هم الذين شخصوا ، بطريقة ما ، كخطر قائم عليها . كانت حياتها في ذلك الوقت غير متشكلة ، نابضة ، تنكمش جوهريا من كل ملمس . اعطت شيئا ما للآخرين ، بيد انها لم تكن نفسها قط ، لأن ليس لديها نفس . لم تكن خائفة او خجلى أمام الأشجار والطيور والسماء ، بيد أنها كانت تنكمش بعنف من الناس ، خجلى لأنها لم تكن مثلهم ثابتة ، مؤكدة ، بل هي إحساس مضطرب مجهول حسب ، دون شكل او كيان .

كانت غدرون في هذا الوقت تمثل راحة وحماية عظيمتين   كانت الفتاة الصغرى حيوانا رشيقا متوحشا ، لا تثق بكل المقاربات ، وليس لديها اي من تلك الأسرار التافهة ومشاعر الغيرة التي تميز حميمية فتاة المدرسة . ولم يكن لديها تعامل مع القطط الأليفة ، سواء أكانت لطيفة أم لا . ذلك لأنها كانت تعتقد بأنها جميعا قطط غير اليفة ذات طبيعة مزعجة لا تستأهل الثقة من الألفة .

---

* أو مثل ما تريدها أو مثل ما تحبك مسرحية لوليم شكسبير

وكان هذا يمثل إسنادا عظيما لأورسلا التي كانت تعاني من الكرب عندما تظن أن شخصا ما لا يحبها ، بغض النظر عن مبلغ احتقارها لذلك الشخص . كيف يمكن لأي شخص ألا يحبها وهي اورسلا برانغوين ؟ كان السؤال يرعبها ، وكان بلا جواب ، لذلك بحثت عن الملجأ في لامبالاة غدرون الطبيعية المتكبرة .

اكتُشِفَ أن لغدرون موهبة في الرسم . ولقد حل هذا مشكلة استخفاف الفتاة بكل دراسة . ولقد قيل لها « إنها تستطيع أن ترسم على نحو رائع» .

وفجأة وجدت اورسلا إحساسا غريبا يربط بينها وبين مدرّسة صفها ؛ الآنسة انغر وكانت الأخيرة امرأة جميلة في الثامنة والعشرين ، من طراز الفتاة العصرية النظيف المجرد من الخوف التي يشي استقلالها المجرد بأساها . كانت ذكية وخبيرة في ما تقول ، دقيقة سريعة ، آمرة . ولقد منحت لأورسلا المتعة دائما بسبب مظهرها الواضح والحازم ، والذي كان ، مع ذلك ، ودودا . كانت ترفع رأسها عاليا ، وترجعه الى الخلف قليلا وكانت اورسلا تعتقد أن ثمة لمسة من النبل في الطريقة التي تجدل بها شعرها البني الناعم على رأسها . كانت ترتدي دائما دثارات نظيفة جذابة ذات مقياس مناسب وتنورات حسنة الصنع . كان كل شيء فيها مرتبا تماما ، يشي بروح نقية ، رائعة حتى أن الجلوس كان متعة في صفها .

كان صوتها منغما وواضحا تماما ، ذا نغم مصفى غير مرتجف . وكانت عيناها زرقاوين ، صافيتين ، متكبرتين تمنحان الإحساس بإنسان ذي شهامة رائعة ، أنيق الهندام ، وذي ذهنية لا تلين ومع ذلك ، ثمة اشجاء لا نهاية له في مظهرها ، وجوى سحيق في فمها المستوحش المغلق بتكبر . وكان بعد مغادرة سكريبنسكي ، أن نشأ بين المدرسة والطالبة ذلك الإحساس الغريب ، ثم تلك الحميمية الخرساء التي تربط أحيانا بين شخصين لم يسبق لهما حتى التعارف من قبل أبدا . قبل ذلك ، كانتا دائما صديقتين جيدتين بالطريقة غير المميزة لغرفة الصف ، مع العلاقة المهنية بين المدرسة والطالبة التي توجد دوما والآن مع ذلك ، جاء شيء آخر كي يمر . فعندما كانتا في الغرفة معا ، كانتا تشعران بوجودهما معاً حتى استبعاد كل شيء آخر . وتشعر وينفرد انغرام بمتعة ساخنة في الدرس عندما تكون اورسلا موجودة . وتحس اورسلا أن حياة جديدة تبدأ عندما تدخل الآنسة انغرام الى الصف . ومن ثم ، والمعلمة المحبوبة الحميمية على نحو خفي موجودة ، كانت الفتاة تجلس كما لو أنها وسط أشعة شمس غنية ، كانت حرارتها المسكرة تصب في عروقها مباشرة .

كانت حالة السعادة ، عندما تكون الآنسة انغرام موجودة ، فائقة في الفتاة ، ولكنها متلهفة ، دائما ، متلهفة . وعندما تعود الى البيت ، كانت اورسلا تحلم بالمدرسة ، وتخلق

أحلاما لا نهاية لها لأشياء يمكن أن تعطيها لها . وعن الكيفية التي يمكن أن تجعل المرأة الأكبر تغرم بها

كانت الآنسة انغرام حاصلة على درجة البكالوريوس في الآداب ، وقد أكملت دراستها في نيونم وهي ابنة رجل دين من عائلة طيبة ، بيد أن ما جعل اورسلا تغرم بها بهذا القدر الكبير ، هو قامتها الرياضية المنتصبة الرائعة ، وطبيعتها الراسخة المتكبرة . كانت متكبرة وحرة كرجل . ومع ذلك ، كانت رائعة كامرأة

كان قلب الفتاة يتوهج في صدرها عندما تشد الرحال الى المدرسة كل صباح قلبها متلهف جدا ، وقدماها سعيدتان جدا ، كي تسافر صوب المحبوب . آه ، يا آنسة انغرام! كم كانت مؤخرتها مستقيمة ورائعة! كم هما قويان حقواها! كم هي ساكنة وحرة أطرافها!

كانت اورسلا تتوق دوما كي تعرف أن كانت الآنسة انغرام تهتم بها ، ذلك لأنه لم تمر اشارة محددة بينهما . غير أن من المؤكد جدا ، ان الآنسة انغرام قد أحبتها أيضا ، وأغرمت بها . أحبتها على الأقل أكثر من بقية الطالبات في الصف . ومع ذلك ، لم تكن واثقة من ذلك أبدا . فلربما لم تكن الآنسة انغرام تهتم بها قيد أنملة . ومع ذلك ، ومع ذلك ، وبقلب متقد أحست اورسلا لو أن بمقدورها أن تتحدث إليها حسب ، أن تلمسها ، لكانت عرفت .

جاء فصل الصيف الدراسي ومعه درس السباحة . وكان مقررا أن تدرّس الآنسة انغرام درس السباحة . عندها ارتجفت اورسلا ، وأصابها دوار من الوجد ، إذ أن أحلامها توشك أن تتحقق ، وأنها سترى الآنسة انغرام في ثوب السباحة .

وحل اليوم الموعود . وفي المسبح الكبير . كان الماء يتلألأ بلون أخضر زمردي شاحب رائع ، كتلة متلألئة من اللون ضمن الحدود البيض الشبيهة بالرخام . ومن الأعلى ، كان الضوء يسقط بنعومة ، وكان جسد الماء النقي الأخضر الواسع يتحرك تحته ، كما لو أن شخصا ما يغطس من جانب .

خلعت اورسلا ملابسها مرتجفة ، غير قادرة على تمالك نفسها إلا بجهد ، وارتدت ثوب سباحتها الضيق ، وفتحت باب مقصورتها . كانت هناك فتاتان في الماء ، ولم تكن المدرّسة قد ظهرت بعد فانتظرت . فُتح باب ، وخرجت الآنسة انغرام مرتدية سترة بلون أحمر صدئ ، كأنه زي فتاة إغريقية ، مربوطة حول الخصر ، وقد وضعت منديلا حريريا أحمر حول رأسها . يالروعة مظهرها! كانت ركبتاها بيضاوين وقويتين ومزهوتين ، وكانت مشدودة الجسد كديانا مشت ببساطة الى جانب الحوض ، وبحركة مهملة قذفت نفسها

فيه راقبت اورسلا ، لحظة ، الكتفين البيضاوين الناعمين القويين ، والذراعين المسترخيتين ، وهما تسبحان . ومن ثم غطست هي الأخرى في الماء أيضا .

والآن ، آه ، الآن ، كانت تسبح في الماء نفسه مع مدرستها العزيزة . وحركت الفتاة اطرافها بشهوة . وسبحت وحدها بلذة ، ولكن بتوق غير مشبع . أرادت أن تلمس الأخرى ، أن تلمسها ، أن تشعرها .

وجاء الصوت المنغم :

ـ سأتسابق مع اورسلا .

أجفلت اورسلا بعنف ، واستدارت لترى وجه مدرستها الدافئ المتفتح ينظر إليها . لقد اعتُرف بها . وابتدأت تسبح ، ضاحكة ضحكتها الجميلة المجفلة كانت المدرسة تسبقها قليلا ، وهي تسبح بضربات مسترخية كانت اورسلا تستطيع أن ترى الرأس وهو يرجع الى الخلف ، والماء يخفق فوق الكتفين البضين ، والساقين القويتين يرفسان الماء باستحفاظ . وسبحت عمياء وجداً . آه ، يا لجمال الجسد المشدود الأبيض البارد! آه ، يا للأطراف المشدودة المدهشة . لو كان بمقدورها أن تمسكها فقط ، تحضنهما ، تضغطهما بين نهديها الصغيرين! آه ، لو أنها لا تحتقر كسرة جسدها الصغير النحيف الداكن ، لو أنها كانت قادرة أيضا ولا تخاف .

ظلت تسبح بلهفة ، غير راغبة في الكسب ، بل كانت تريد فقط أن تكون قريبة من مدرستها ، أن تسبح في سباق معها . اقتربا من نهاية المسبح ، النهاية العميقة . أمسكت الآنسة انغرام بالأنبوب ، ودفعت نفسها الى الجانب الآخر . وأمسكت باورسلا من الخصر في الماء ، وضغطتها لحظة على جسدها ، وتلامس جسدا المرأتين وخفقا متقابلين ، لحظة ، ثم انفصلا .

قالت الآنسة انغرام ضاحكة :

ـ لقد فزت .

ومرت لحظة ذهول كان قلب اورسلا يجب سريعا ، لذلك تعلقت بالحاجز ولم يكن بمقدورها أن تتحرك . واستدار وجهها المنبسط الدافئ المتكشف المتوهج نحو المدّرسة ، كما لو الى شمسها بعينها وقالت الآنسة انغرام بينما كانت تسبح متجهة نحو الطالبات الأخريات ، مظهرة اهتماما مهنيا بهن ·

ـ وداعا .

أصاب اورسلا دوار . كان لم يزل بمقدورها أن تشعر بملمس جسد المدرسة على

جسدها . هذا فقط ؛ هذا فقط ، أما بقية وقت السباحة فلقد مر في ما يشبه الغيبوبة وعندما وجه النداء لمغادرة الماء توجهت الآنسة انغرام الى المسبح ، صوب اورسلا ، وكانت سترتها الرقيقة ذات اللون الأحمر الصدئ ملتصقة بها ، وكان جسدها كله محددا مشدودا ورائعا ، كما بدا لعيني الفتاة .

قالت الآنسة انغرام :

ـ لقد استمتعت بالتسابق معك ، هل أنت كذلك ؟

لم يكن بمقدور الفتاة أن تفعل شيئا سوى الضحك بوجه متوهج متفتح مكشوف .

لقد تم الاعتراف بالحب ضمنيا الآن . ولكن مَرَّ بعض الوقت قبل أن يحدث أي تقدم آخر ، واستمرت اورسلا في قلق وفي سعادة متقدة .

ومن ثم ، وفي أحد الأيام ، عندما كانت وحيدة ، اقتربت المدرسة منها ولمست نهدها بأصابعها ، وقالت ببعض الصعوبة

ـ هل تودين أن تحضري لشرب الشاي معي يوم السبت يا اورسلا ؟

فتوردت الفتاة من الشعور بالعرفان .

ـ سنذهب الى سقيفة جميلة صغيرة على نهر سور* . هل نفعل ذلك ، فأنا أقضي نهاية الأسبوع هناك أحيانا ؟

لم تستطع اورسلا أن تتمالك نفسها ، فلم يكن بمقدورها أن تتحمل حتى يحين يوم السبت . وكانت أفكارها تتوهج كالنار . لو كان اليوم هو السبت ، لو كان اليوم هو السبت .

ثم حل السبت ، ورحلت . التقتها الآنسة انغر في سولي** . ومن ثم تمشتا نحو ثلاثة أميال الى السقيفة . وكان يوما رطبا ، دافئا وغائماً . كانت السقيفة عشة ضئيلة ذات غرفتين ، شيدت على ضفة حادة ، وكان كل شيء فيها رائعا . وفي خصوصية لذيذة ، أعدت الفتاتان الشاي ، وتبادلتا الحديث . ولم يكن مطلوبا من اورسلا أن تعود الى البيت قبل الساعة العاشرة تقريبا . ولقد أديرت دفة الحديث بنوع من السحر الى الحب . وكانت الآنسة انغر تحكي لأورسلا عن صديقة لها وكيف ماتت أثناء وضعها ، وكم عانت ، ثم أخبرتها عن بغي وعن تجاربها مع الرجال

وبينما كانتا تتحدثان على هذا النحو ، في شرفة السقيفة الصغيرة ، خيم الليل وهطل مطر ضئيل دافئ .

---

* نهر يمر بمدينة ليستر ويتجه شمالا .

** نقطة تحويل في القطارات تقع بين نوتنغم ودربي للذهاب الى لعبرة ولبستر

قالت الآنسة انغر :

ـ إن الجو خانق حقا .

وراقبتا قطارا كانت أضواؤه شاحبة في الغسق المتلكئ ، وهو يندفع في البعد .

قالت اورسلا :

ـ سترعد .

واستمر التوتر المشحون ، وغطس الظلام وانكسفتا .

قالت الآنسة انغر من الظلام الأسود المغيم :

ـ أعتقد أني سأذهب لأستحم .

فقالت اورسلا .

ـ في الليل ؟

ـ أفضل في الليل ، هل تأتين ؟

ـ أظن أني يجب أن أفعل .

ـ المكان أمين تماما ، فالأراضي ملكية خاصة ، ومن الأفضل أن نخلع ملابسنا في السقيفة خوفا من المطر ثم نجري الى الماء .

بخجل وتصلب ، هبطت اورسلا الى السقيفة ، وراحت تخلع ملابسها . كان المصباح قد قُلّل ضوؤه ، فوقفت في الظل . وإزاء كرسي آخر ، كانت وينفريد انغر تخلع ملابسها .

وسرعان ما جاء الشكل المعتم العاري للفتاة الكبرى الى الفتاة الأصغر وقالت لها

ـ هل أنت جاهزة ؟

ـ لحظة واحدة .

كان الكلام يشق على اورسلا ووقفت المرأة العارية الأخرى إزاءها ، وقفت قريبة صامتة ، وأصبحت اورسلا جاهزة .

غامرتا خارجا ، داخل الظلام ، شاعرتين بالهواء الليلي العذب على جلديهما .

قالت اورسلا :

ـ لا أستطيع أن أرى الممر .

ـ إنه هنا

رد الصوت ، وكان الشكل المتذبذب الشاحب الى جانبها ، ويدٌ تمسك ذراعها ، وسحبت الكبرى الصغرى إليها مرة أخرى ؛ قريبة ، بينما كانت تهبطان . وعند حافة الماء ، وضعت ذراعيها حولها وقبلتها ثم رفعتها بين ذراعيها قريبة ، وهي تقول بنعومة :

ـ سأحملك الى الماء .

اضطجعت اورسلا ساكنة بين ذراعي المدرّسة ، وجبينها يستند على صدر المحبوبة الذي كاد أن يطير صوابها .

قالت وينفرد :

ـ سأضعك على الماء .

بعد لحظة ، هطل المطر على اطرافهن الساخنة المتوردة ، مجفلا لذيذا . وتدفق رذاذ مفاجئ من المطر المثلج مثقلا عليهن ، ووقفتا تحته مستمتعتين . وتركت اورسلا تدفقه ينساب على نهديها واطرافها فجعلها باردة ، وتفجر صمت عميق لا قرار له فيها ، كما لو أن ظلاما لا قرار له كان يعود فيخيم عليها

وهكذا اختفت الحرارة ، وقرسها البرد ، كما لو من يقظة . ركضت الى الداخل . شيء مصقع غير موجود ، راغبة في الخلاص . ارادت الضوء ، وجود أناس آخرين ، الارتباط الخارجي مع الآخرين ، وفوق كل شيء ، أرادت أن تفقد نفسها وسط المحيط الطبيعي .

أخذت إجازة من مدرستها وعادت الى البيت ، وتملكتها الفرحة لأن تكون في المحطة وسط حشد الناس ليلة السبت ، سعيدة لأن تجلس في مقصورة القطار المزدحمة المضيئة . الشيء الوحيد الذي لم تكن تريده هو أن تلتقي شخصا تعرفه . لم تكن تريد أن تتحدث . كانت وحيدة ومنيعة .

كان اضطراب الناس هذا وهياجهم يمثل الحافة حسب ؛ سواحل الظلام والفراغ الداخلي العظيم . أرادت كثيرا أن تكون على الساحل المضطرب ، المضاء جزئيا ، ذلك لأن في داخلها كانت حقيقة الفراغ المظلم الجوفاء .

كانت مدرّستها الآنسة انغرام قد ذهبت لبعض الوقت . كانت مجرد فراغ مظلم حسب ، وكانت اورسلا حرة كظل يسير في عالم انطفاء تحتي ؛ عالم نسيان . وكانت اورسلا سعيدة ، في نوع من السعادة التي تفتقر الى العاطفة والى الحياة ، بعد أن انطفأت مدرستها ، وذهبت خارجا عنها

وفي الصباح ، مع ذلك ، كان الحب يعود الى هناك مرة اخرى ، محرقا ؛ محرقا . وتذكرت الأمس ، وارادت المزيد ؛ المزيد دائما أرادت أن تكون مع مدرّستها ، فكل فصل عن مدرستها كان تحديدا عن العيش . لمَ لا تستطيع أن تذهب إليها اليوم ، اليوم ؟ لماذا تظل تذرع كوسثي مهملة ، بينما تكون مدرستها هناك في مكان آخر ؟ وجلست وكتبت رسالة حب محرقة مشبوبة ، فلم يكن بمستطاعها أن تمنع نفسها .

أصبحت المرأتان حميمتين ، وبدت حياتاهما فجأة وقد اتحدتا في حياة واحدة ، لا يمكن فصلهما . وذهبت اورسلا الى منزل وينفريد وقضت هناك ساعات عيشها الوحيدة كانت وينفريد مغرمة جدا بالماء ؛ بالسباحة والتجديف ، وكانت منتمية الى العديد من النوادي الرياضية . وقضت الفتاتان العديد من فترات الأصيل اللذيذة في زورق خفيف على النهر . وكانت وينفريد تجدف دائما . حقا ، كانت وينفريد مستمتعة في ان تكون مسؤولة عن اورسلا ، في ان تعطي شيئا الى الفتاة ، في أن تملأ حياتها وتغنيها .

وهكذا طورت اورسلا بسرعة خلال الأشهر القليلة علاقتها الحميمة مع مدرستها . كانت وينفريد تلقت تربية علمية ، وكانت تعرف العديد من الناس الأذكياء ، لذلك أرادت أن تجلب اورسلا الى موقعها في الأفكار .

ولقد أخذتا الدين وخلصتاه من شوائبه ، من زيفه ، ومنحته وينفرد كله طابعا إنسانيا واتضح تدريجا لأورسلا أن الدين الذي تعرفه لم يكن سوى رداء معين للإلهام البشري ، وأن الإلهام هو الشيء الحقيقي ، وان الرداء كان بالدرجة الأساس مسألة ذوق وطني او حاجة ، فلقد كان للإغريق أبولو عارٍ ، وكان للمسيحيين يسوع مرتدٍ ملابس بيض ، وللبوذيين أمير ملكي ، وللمصريين آلهتهم أوزيريس . فالأديان كانت محلية ، والدين كان كونيا ، والمسيحية فرع محلي ، ولم يحدث حتى الآن أن مثلت الأديان المحلية ديناً كونياً .

في الدين حافزان عظيمان هما الخوف والحب ، وحافز الخوف عظيم بقدر حافز الحب . ولقد قبلت المسيحية بالصلب كي تتخلص من الخوف . «افعل بي أسوأ ما عندك حتى لا أخاف من الأسوأ بعد الآن» ، بيد أن ما كان يخاف منه ليس شريرا كله بالضرورة ، وكل ما يحب ليس كله بالضرورة صالحا فالخوف سيصبح تبجيلا والتبجيل تسليم في التشخيص ، والحب سيصبح انتصارا ، والانتصار متعة في التشخيص .

تحدثت كثيرا جدا في الدين ، مستخلصة جوهر العديد من الكتابات . وفي الفلسفة توصلت الى استنتاج أن الرغبة الإنسانية هي دليل كل من الحقيقة والإصلاح . وأن الحقيقة لا تقع ماوراء الإنسانية ، بل هي إحدى نواتج الفكر والإحساس الإنسانيين ، وأن ليس ثمة ما يخاف منه حقا ، وأن دافع الخوف هو الدين في الأساس ، ويجب أن يترك الى عبدة القوة القدامى ، عبدة مولك* فنحن لا نعبد القوة في أرواحنا المستنيرة ، فالقوة تتحلل الى النقود والى الغباء النابليوني .

---

* مولك : إله سامي كان الناس يقدمون له أولادهم قرابين بغية كسب رضاه .

ولم تستطع اورسلا منع نفسها من ان تحلم بمولك ، فربما لم يكن لطيفا ونبيلا ، وهو ليس حملا ولا حمامة* ، بل هو الأسد والنسر . لا لأن الأسد والنسر يمتلكان القوة ، بل لأنهما متكبران وقويان ، وكانا نفسيهما وليس كائنات مدجنة لراع معين او حيوانات اليفة تعود لامرأة محبة ما او أضاحي لقديس ما . كانت ضجرة حد الموت من الحملان الوديعة السالبة ، ومن الحمامات الرتيبة ، فإذا حدث أن نام الحمل مع الأسد فإن ذلك سيكون شرفا عظيما للحمل ، غير أن قلب الأسد القوي لن يعاني من التضاؤل . ولقد أحبت وقار الأسود وإعجابها بنفسها .

ولم تتبين كيف يمكن للحملان ان تُحب ، فالحملان يمكن أن تحب فقط ، ويمكن أن تخاف فقط ، وتستسلم مرتجفة للخوف ، فتصبح قرابين او أنها تستطيع ان تستسلم للحب وتصبح محبوبة . وفي كلتا الحالتين فهي سالبة . عشاق غاضبون مدمرون يبحثون عن اللحظة التي يكون فيها الخوف في أوجه والنصر في أوجه . فالخوف ليس أعظم من النصر ، والنصر ليس اعظم من الخوف ، فهذه ليست حملانا ولا حمائم . ومدت اطرافها كأسد او حصان متوحش ، وكان قلبها قاسياً في رغباتها ستعاني آلاف الميتات ، بيد أنها ستبقى قلب أسد عندما تنبعث من الموت . ستكون أسدا أشد ضراوة ، أكثر ثقة بالنفس ، تعرف نفسها مختلفة ومنفصلة عن الكون الهائل المتنافر الذي لا يشبهها .

وكانت وينفريد انغرام مغرمة بالحركة النسائية أيضا .

قالت الفتاة الأكبر :

ـ لن يفعل الرجال المزيد ، لقد فقدوا القدرة على الفعل إنهم يصخبون ويتحدثون غير أنهم مأفونون حقا . إنهم يجعلون كل شيء يوائم فكرة قديمة خاملة ، والحب فكرة ميتة في تصورهم . إنهم لا يأتون الى شخص ويحبونه ، بل يأتون الى فكرة ، ويقولون : «أنت فكرتي» ، وبذلك يعانقون أنفسهم كما لو أني كنت فكرة رجل! كما لو أني لم أخلق إلا لأن لرجل ما فكرة عني! كما لو أني سأخان من قبله ، وأعيره جسدي كجهاز لأفكاره كي اكون مجرد معدة لفكرته الميتة ، غير انهم يضجون كثيرا كي يكونوا قادرين على الفعل ، انهم عنينون جميعا ولا يستطيعون امتلاك امرأة ، فهم يجيئون الى فكرتهم الخاصة في كل مرة ، ويأخذون هذه . إنهم يشبهون الأفاعي التي تحاول أن تبتلع أنفسها لأنها جائعة** .

قُدمت اورسلا من قبل صديقتها الى العديد من النساء والرجال . أناس مثقفون ، غير

---

* إنجيل يوحنا ، الفصل الأول ، الآية ٢٩ : «وفي الغد رأى يوحنا يسوع مقبلا إليه فقال هو ذا حمل الله الذي يرفع خطيئة العالم»

** رمزٌ قديمٌ يدلُ على الأزل ولكن بالنسبة لوينفريد يدلُ على المكر الأناني .

مشبعين ، ممن مازالوا يتحركون ضمن المجتمع القروي المغرم بالوجاهة . كما لو أنهم وديعون تقريبا على النحو الذي يظهره سلوكهم الخارجي ، لكنهم من الغاضبين والمجانين في الداخل

كان عالما غريبا ذلك الذي دُفعت إليه الفتاة كالفوضى ، كنهاية العالم كانت أصغر من أن تفهمه على الإطلاق . ومع ذلك ، فإن الإلقاح قد مرّ الى داخلها من خلال حبها لمدرستها .

حلت الإمتحانات ثم انتهت المدرسة . وكانت العطلة الطويلة . ذهبت وينفريد انغر الى لندن ، وتركت اورسلا وحيدة في كوسثي ، ولم تكن ثمة فائدة في أن تفعل أي شيء او أن تكون أي شيء ، فلم يكن لديها ارتباط مع الناس الآخرين . وكان نصيبها معزولا ومميتا . فلم يكن هناك أي شيء لها في أي مكان ، سوى هذا الانفراط الأسود . ومع ذلك ، وضمن كل هجمة الانفراط الهائلة عليها ، ظلت نفسها كان لب حياتها المرعب بأكمله هو الذي يعاني ، من أنها بقيت نفسها دائما . ولم يكن بمستطاعها أن تهرب من ذلك أبدا ، فلم يكن في مقدورها أن تتخلى عن أن تكون نفسها .

ولم تزل متمسكة بوينفريد انغر ، بيد أن نوعا من غثيان النفس كان يتملكها . لقد أحبت مدرستها غير أن إحساسا ثقيلا خانقا بالموت ابتدأ يخيم عليها بسبب الاتصال بالمرأة الأخرى . وفي بعض الأحيان ، كانت تعتقد أن وينفريد كانت قبيحة ، طينية . وبدا وركاها الأنثويان ضخمين وترابيين ، وأن كاحليها وذراعيها سميكان جدا أيضا . وأرادت كثافة رقيقة من نوع ما بدلا من الالتصاق الثقيل للطين الرطب الذي ينفلع لأن ليس فيه حياة خاصة به

وكانت وينفريد لم تزل تحب اورسلا . كان لديها كَلَفٌ بلهيب الفتاة الرائع . ولقد خدمتها الى المالانهاية ، وكانت مستعدة ان تفعل اي شيء من اجلها . وتوسلت الى الفتاة :

ـ تعالي معي الى لندن ، سأجعل اقامتك رائعة ، وسنقوم بالكثير من الأشياء التي ستتمتعين بها .

وردت اورسلا بعناد وتجهم :

ـ لا ، لا ، لا أريد الذهاب الى لندن . أريد أن أختلي بنفسي .

ولقد عرفت وينفريد معنى هذا . لقد أدركت أن اورسلا ابتدأت ترفضها ، وأن لهب الفتاة الشابة الرائع الذي لا ينطفئ لن يوافق بعد الآن على أن يختلط مع حياة المرأة الأكبر المنحرفة ، لكنها كانت مزهوة جدا بنفسها . وفي قاع روحها كانت هوة يأس سوداء ، وكانت تدرك تماما أن اورسلا سوف ترميها .

وبدا ذلك وكأنه نهاية حياتها ، غير أنها كانت يائسة تماما فلا تغضب . وبتعقل ، مقتصدة في ما تبقى من حب اورسلا ، ذهبت الى لندن تاركة الفتاة المحبوبة وحدها

وبعد أسبوعين ، أصبحت رسائل اورسلا رقيقة مرة أخرى ؛ محبة . ودعاها خالها توم كي تذهب وتبقى معه ، إذ كان يدير منجما كبيرا جديدا في يوركشاير هل تأتي وينفريد معها أيضا ؟

ذلك لأن اورسلا تتخيل الآن زواجا لوينفريد . أرادتها أن تتزوج خالها توم ، وعرفت وينفريد هذا ، وقالت إنها ستأتي الى (وكستن) . ستترك القدر الآن يفعل ما يحلو له بها ، ذلك لأنه لم يتبق لها ما يمكنها أن تفعله . ولقد انتبه توم برانغوين الى نية اورسلا أيضا ، فهو الآخر كان في نهاية رغباته . ولقد فعل الأشياء التي أراد أن يفعلها وانتهت جميعها الى عدم روحي متحلل كان يخفيه تماما تحت دعابة قادرة على الاحتمال ، ولم يعد يهتم بشأن أي شيء على الأرض سواء كانوا رجالا أم نساء ، آلهة أم بشرا . لقد وصل الى مرحلة استقرار العَدَم ، ولم يعد يهتم بعد الآن بجسده او روحه ، بل سيحافظ على حياته سليمة فقط . وثابر على حقيقة الحياة البسيطة السطحية حسب ، وكان لم يزل معافى . ولقد عاش ، لذلك فإنه سيملأ كل لحظة منها ، وكان هذا ديدنه دائما ، ولم يكن ذلك استرخاء غريزيا ، بل كان نتاجا محتما لطبيعته ، فعندما يكون في الخصوصية المطلقة لحياته ، كان يفعل ما يسره ، لا يتورع عن شيء ، دون أية أفكار خفية . ولم يكن يؤمن بالصالح او الطالح وكانت كل لحظة لديه كجزيرة صغيرة منعزلة ؛ منعزلة عن الزمن ، فارغة وغير محكومة بالزمن .

كان يعيش في بيت كبير جديد شيد بالقرميد الأحمر ، ينهض خارج كتلة من البيوت المتجانسة ذات القرميد الأحمر تدعى (وكستن) ، وكانت (وكستن) تبلغ سبع سنوات من العمر حسب . وكانت قرية صغيرة مكونة من أحد عشر منزلا على حافة ريف مرجي شبه زراعي ، ثم افتتح منجم الفحم الكبير . وخلال سنة ، ظهرت (وكستن) كتلة كبيرة من صفوف قرمزية من مساكن هزيلة غير حقيقية ، كل منها مكون من خمس غرف وكانت الشوارع كرؤى قبح خالص ، وطريق أسود رمادي مرصوف بالحصباء ، وممرات إسفلتية محصورة بين تتابع مستو من جدار ونافذة وباب . وقناة من قرميد جديد تبدأ من لامكان وتنتهي في لامكان . كان كل شيء عديم الطراز . ومع ذلك ، كان كل شيء يعيد نفسه الى المالانهاية . وبين فترة واخرى فقط ، في احدى نوافذ البيت كانت خضروات او مأكولات تعرض للبيع

وفي وسط المدينة كان فراغ كبير مفتوح عديم الشكل او سوق من التراب الأسود المسوّى ، محاط بالمواد التي شيدت منها المساكن المستوية وكان القرميد الأحمر الجديد يتحول الى نوافذ متجهمة صغيرة مستطيلة ، والى أبواب مستطيلة تتكرر الى المالانهاية . وليس سوى حانة كبيرة مزوقة عند إحدى الزوايا . وفي مكان ما ، كانت نافذة كبيرة معتمة خضراء معتمة اللون ضائعة على احد جوانب الساحة ؛ كانت هذه دائرة البريد

كان المكان يتسم بإقفار غريب يميز الخرائب . وكان عمال المناجم يتحلقون في عصابات ومجاميع او يمرون على الأرصفة الأسفلتية بتثاقل متجهين الى العمل ، لا يبدون كأحياء بل كأشباح . وتدل صلابة الشوارع المقفرة والجدب الكلي المتجانس عديم الشكل على أن الموت اكثر من الحياة . ولم يكن هناك ملتقى او مركز او شريان او تكوين عضوي . هناك تضطجع المدينة كالأسس الجديدة لفوضى مصنوعة من القرميد الأحمر منتشرة على عجل كطفح جلدي . وخارج هذا تماما ، على تل صغير كان بيت توم برانغوين الكبير المشيد بالقرميد الأحمر . كان يطل من المقدمة على حافة المكان ، قذارة ليس لها معنى من حفر القمامة وصفوف موصدة غير منتظمة من مؤخرات المنازل . كل واحد منها بفعاليته الصغيرة يصبح دنيئا من خلال التماسك العاري مع بقية الفعاليات الصغيرة وأبعد من ذلك ، كان المنجم العظيم الذي يعمل ليل نهار . ومن حوله ، كان الريف أخضر بساقيتين اثنتين ملتويتين ممزقتين بالجولق والخلنج والغابات الأشد ظلاما في البعد .

كان المكان بأكمله لاحقيقيا حسب ، لاحقيقيا حسب . وحتى الآن ، عندما مضى على وجوده فيه سنتان ، لم يؤمن توم برانغوين بواقعية المكان . كان يشبه حلما مخيفا ، مزاجا قبيحا ، ميتا ، عديم الشكل اصبح حقيقيا .

استُقبلت اورسلا ووينفريد بالسيارة في المحطة الصغيرة الفجة . ومرت السيارة خلال ما بدا لهما كبدايات مزعجة فجة لشيء ما . كان المكان لحظة من الفوضى الأزلية الملحة ، فوضى ثابتة ومتصلبة . ودهشت اورسلا للرجال الكثيرين الذين كانوا هناك - مجاميع من الرجال تقف في الشوارع ؛ اربعة او خمسة رجال يمشون في عصبة معا ، وكلابهم تركض خلفهم او أمامهم . كانوا جميعا وقوري الهندام ، واغلبهم كان كئيبا بعض الشيء . ولقد أدهشها هدوء مظهرهم الكئيب الفظيع ، كمخلوقات لم يعد لها المزيد من الأمل ، لكنها ماتزال تعيش ، ولها كيان مشبوب ضمن صدفة مطبقة غير حية . كانوا يمرون ، دون معنى ، بوقار غريب منعزل . كان الأمر كما لو أن صدفة صلبة متقرنة كانت تغلفهم جميعا

نُقلت اورسلا مصدومة ومجفلة الى بيت خالها توم ، ولم يكن عاد الى البيت بعد . كان البيت بسيطا غير أنه حسن التأثيث . وكان شيد جدار حاجز ، وحوّل مقدمة البيت بأكملها الى مكتبة كبيرة ، خصص إحدى نهايتيها لكتبه العلمية . كانت غرفة جميلة خصصت كمختبر وغرفة قراءة غير أنها تعطي الإحساس نفسه بفعالية آلية صلبة ، فعالية آلية ، ومع ذلك ، غير مكتملة النشوء ، وتطل على تجريد المدينة البشع ، وعلى المروج الخضر والريف القاسي في ما وراء ذلك ، وعلى المنجم الرياضي* العظيم على الجانب الآخر .

شاهدتا توم برانغوين يتسلق الطريق المقوس . كان ابتدأ يصبح اكثر بدانة ، لكنه بدا بقبعته الصلبة السوداء المدورة التي ثبتها جيدا على حاجبيه ، رجوليا ووسيما ، ويشبه على نحو غريب رجال الفعل الآخرين ، وكان لونه يانعا وصحته مكتملة مثل ما كانت عليه دوما . وكان يمشي كرجل مستغرق في أفكاره بعض الشيء .

أجفلت وينفريد انغر عندما دخل الى المكتبة . كانت سترته مرتبة بصورة قريبة وصحيحة ، ورأسه أصلع حتى سعفة رأسه ، لكنه لم يكن براقا ، بل أشبه بشيء عار لم يعتد المرء على رؤيته ، مغطى وعيناه الغامقتان سائلتان وعديمتا الشكل . كان يبدو كمن يقف في الظل ، كشيء خجول . وكان تشابك يديه هشا ، ومع ذلك ، قويا جدا الى درجة يجمد القلب لها . كانت خائفة ونافرة منه ، ومع ذلك ، منجذبة إليه .

نظر الى الفتاة الرياضية التي يبدو أنها لا تعرف الخوف . وأحس فيها قرابة مع فساده المظلم الخاص . وفي الحال أدرك أنهما متقاربين . كان مسلكه مؤدبا ، غريبا تقريبا ، وباردا بعض الشيء . وكان مايزال يضحك بطريقته الحيوانية الغريبة ، مجعدا ، فجأة انفه العريض الى الأعلى ، مظهرا أسنانه الحادة . كان جمال جلده الأخاذ وبشرته ذات النوعية الشمعية تقريبا ، يخفي غلاظته الغريبة المتمردة ، والإحساس الضئيل بالعفن الذي كان اشده ابتذالا يكشف نفسه في فخذيه وحقويه البدينين قليلا .

رأت وينفريد في الحال المراعاة التبجيلية ، الذليلة قليلا ، الماكرة بعض الشيء التي يعامل بها اورسلا ، والتي جعلت الفتاة في الحال مزهوة ومرتبكة جدا .

وسألت الفتاة الشابة والإجهاد في عينيها :

ـ لكن هل هذا المكان شنيع مثل ما يبدو ؟

فقال لها :

---

* وصف لورنس المنجم بأنه رياضي (من الرياضيات) باعتباره شيئا مجردا مفروضا على الواقع العضوي

ـ إنه مثل ما يبدو ، إنه لا يخفي شيئا

ـ ولماذا الرجال حزينون جدا ؟

فأجاب :

ـ هل هم حزينون ؟

فقالت اورسلا من حنجرة منفعلة :

ـ إنهم يبدون حزينين حزناً يصعب وصفه .

ـ أعتقد أنهم كذلك ، إنهم يأخذون الأمر كواقع حال حسب .

ـ وما هو الذي يعدونه واقع حال ؟

ـ هذا ـ المناجم والمكان معا .

واحتجت منفعلة :

ـ ولماذا لا يغيرونه ؟

فرد عليها قائلا :

ـ إنهم يعتقدون أن عليهم أن يغيروا أنفسهم كي تلائم المناجم* والمكان بدلا من تغيير المناجم والمكان كي يناسب أنفسهم ، فذلك أسهل .

فانفجرت ابنة أخته غير قادرة على تحمل الأمر .

ـ وأنت توافقهم على ذلك ، وتفكر مثل ما يفكرون من أن تلك الكائنات البشرية الحية يجب أن تؤخذ وتتكيف لكل أنواع المخاوف . إن باستطاعتنا أن نعيش دون المناجم .

ابتسم منزعجا ، ساخرا ، وأحست اورسلا مرة اخرى بثورة الكره تجاهه . فقالت وينفريد انغر متفوقة على مآسي زولا** :

ـ افترض أن حياتهم ليست بهذا السوء .

فاستدار نحوها بانتباهه المؤدب البارد :

ـ نعم إنهم في حالة سيئة جدا ، فالمناجم عميقة جدا ، وحارة ورطبة في بعض الأماكن ، وغالبا ما يموت الرجال اختناقاً ، لكنهم يحصلون على أجور جيدة .

فقالت وينفريد انغر :

---

* قارن مع كتاب (علامات الزمن) لثوماس كارلايل : «ليس الخارجي والفيزيائي هو ما يُدار بالمكائن أيامنا هذه فقط ، بل الداخلي والروحي أيضا »

** الإشارة الى روايات الكاتب الفرنسي إميل زولا المأساوية ، مثل رواية (جرمينال) التي تتبع فيها زولا الآثار المدمرة لصناعة مناجم الفحم على العمال وعائلاتهم .

ـ يا للفظاعة .

فرد بحزن :

ـ نعم .

كان سلوكه الحزين الصلب ، رابط الجأش هو الذي جعله محترما كثيرا كمدير منجم .

جاءت الخادمة كي تستعلم عن أين يحلو لهم أن يحتسوا الشاي ، فقال لها :

ـ ضعيه في البيت الصيفي يا سيدة سميث

فخرجت الشابة الجميلة الشقراء ، وسألت اورسلا :

ـ أهي متزوجة وتعمل خادمة ؟

ـ إنها أرملة لقد مات زوجها بالسل منذ فترة وجيزة .

أصدر ضحكة صغيرة شريرة ، وأضاف :

ـ اضطجع هناك في بيت أمها مع خمسة او ستة أشخاص ، ومات تدريجا جدا . سألتها إن كان موته يمثل خسارة كبيرة ، فقالت : حسن كان واثقا جدا حتى النهاية ، ولم يرض أبدا ولم يرتح ، يشاكس باستمرار ، ولم أعرف أبدا ما يرضيه . وهكذا فبطريقة ما كان تحررا أن الأمر قد انتهى بالنسبة إليه والى الآخرين .

كانا تزوجا منذ سنتين فقط ، ولها طفل واحد . فسألتها عما إذا لم تكن سعيدة جدا ، فقالت : اوه ، نعم يا سيدي ، كنا مرتاحين جدا في البداية ، حتى مرض . اوه ، كنا مرتاحين جدا . اوه ، نعم ، لكن كما ترى إن المرء يعتاد على الأمر . لقد مات أبي وأخواي الإثنان بالطريقة ذاتها . إن المرء يعتاد على ذلك .

وقالت وينفريد مرتعشة :

ـ إنه لشيء فظيع أن يعتاد المرء عليه .

فقال لها ولم يزل مبتسما :

ـ نعم ، لكن هذا هو حالهم . ستتزوج مرة أخرى مباشرة ؛ رجلا او آخر فالأمر لا يهم كثيرا . كلهم عمال مناجم .

فسألته اورسلا :

ـ ماذا تعني بكلهم عمال مناجم ؟

فأجابها :

ـ إن الأمر مع المرأة كما هو معنا . زوجها جون سميث كان حمالا كنا نعده حمالا ، وكان يعد نفسه حمالا ، وبذلك فإنها تعرف أنه كان يمثل مهنته . أما الزواج والبيت فهو

عرض جانبي صغير . والمرأة تعرف ذلك معرفة صحيحة تماما ، وتأخذه بما يستحق ، رجلا او آخر لا يهم العالم كله . المنجم هو الذي يهم ، فحول المنجم ستكون دائما الاستعراضات الجانبية ، الكثير منها

نظر من حوله الى الفوضى الحمراء ، الى فوضى (وكستن) عديمة الطراز .

ـ لكل رجل عرضه الجانبي الصغير ؛ بيته ، ولكنه المنجم هو الذي يمتلك كل رجل ، والمرأة لها ما تبقى . ماذا يتبقى من هذا الرجل او ما يتبقى من ذاك ، لا يهم الأمر بأكمله ، فالمنجم يأخذ كل ما يهم حقا

وانفجرت وينفريد :

ـ أليس الأمر كذلك في كل مكان ؟ فهو كذلك في المكتب او الدكان او في العمل الذي يشغل الرجل ، والمرأة تحصل على القطعة التي لا يستطيع الدكان أن يهضمها . ما هو في بيته ؟ أهو رجل ؟ إنه مجرد كومة عديمة المعنى ، ماكنة واقفة ، ماكنة عاطلة .

قال توم برانغوين :

ـ إنهم يعرفون أنهم مبيعون ، هذا هو جوهر الأمر . إنهم يعرفون أنهم مبيعون الى وظائفهم ، فحتى لو بحّ صوت المرأة من الكلام فماذا يهم ذلك ؟ فالرجل قد بيع الى مهنته ، لذلك فإن المرأة لا تزعج نفسها ، إنهم يأخذون ما يمسكون به ، وليكن ما يكون* .

وسألت الآنسة انغر :

ـ أليسوا محافظين جدا هنا ؟

ـ اوه ، لا ، فللسيدة سميث أختان غيرتا زوجيهما لتوهما . إنهما ليستا مميزتين ولا مهمتين جدا . إنهم يستمرون بسحب ما خلفته المناجم ، وهم ليسوا مهتمين بما فيه الكفاية كي يصبحوا عديمي الأخلاق تماما فالأمر بأكمله يرجع الى الشيء ذاته ، سواء كان أخلاقيا أم لا ، إنه مجرد مسألة أجور المنجم إن أكثر الأدواق إنسانية في انكلترا يكسب مئتي ألف كل سنة من هذه المناجم ، لذلك فإنه يبقي الإنسانية مقلوبة على رأسها

جلست اورسلا معتمة الروح تشعر بمرارة شديدة ، مصغية الى الإثنين وهما يتبادلان الحديث . بدا أن ثمة شيئا شريرا حتى في الطريقة التي يرثيان بها لحالة الأشياء إنهما على ما يبدو يجدان رضا شريرا فيه ، فالمنجم كان العشيقة العظمى . نظرت اورسلا من النافذة ، ورأت المنجم المتكبر الشبيه بالشبطان ، وعجلاته تتلألأ في السماء ، وكومة

* بالفرنسية في الأصل

المدينة القذرة عديمة الشكل تقبع جانبا . كانت كومة العروض الجانبية القذرة ، وكان المنجم هو العرض الرئيسي ؛ علة كل شيء .

يا لفظاعة الأمر! ثمة سحر مرعب فيه ـ حيوات وأجساد إنسانية معرضة في عبودية الى وحش المنجم المتوازن ذاك . كان هناك إغماء رضا منحرف فيه . وأصابها الدوار لحظة .

ثم تعافت ، وأحست نفسها في وحدة هائلة كانت فيها حزينة ، لكن حرة . لقد غادرت . لن تسهم بعد الآن في المنجم العظيم ، ولا في ماكنته الهائلة التي أسرتنا جميعا . في روحها كانت ضده ، وتبرأت حتى من قدرته . يجب أن يهجر كي يكون تافها ، عديم المعنى . ولقد عرفت أنه عديم المعنى ، بيد أنها احتاجت الى جهد انفعالي هائل من جانبها كي ترى المنجم وتبقي مع ذلك معرفتها بأنه شيء عديم المعنى .

لكن خالها توم ومدرستها بقيا هناك بين الجماعة ، يلعنون بسخرية الحالة الوحشية ، ولكنهم يتمسكون بها كرجل يلعن عشيقته التي يغرم بها مع ذلك . كانت تدرك أن خالها توم قد فهم ما كان يجري ، لكنها كانت تعرف اكثر من ذلك انه رغم نقده واستنكاره ، فانه لم يزل يريد الماكنة الهائلة ، وأن لحظاته السعيدة حسب ، لحظات الحرية النقية الوحيدة هي عندما يخدم الماكنة . عندها ، وعندها فقط ، عندما أمسكت به الماكنة تحرر من كره نفسه ، ويستطيع الآن أن يتصرف كليا ، دون سخرية أو لاواقعية .

كانت الماكنة عشيقته الحقيقية ، وان عشيقة وينفريد الحقيقية هي الماكنة أيضا . وينفريد عشقت التجريد الملوث ، آليات المادة . هناك ، هناك ، في الماكنة ، في خدمة الماكنة ، كانت حرة من انسداد المشاعر الإنسانية وتفسخها . هناك في الآلية الوحشية التي تمسك المادة كلها ، سواء كانت حية أم ميتة ، في خدمتها ، حققت اكتمالها وانسجامها المكتمل ، أزليتها .

برعم الكره في قلب اورسلا . ولو كان بمستطاعها لهشمت الماكنة . إن فعل روحها يجب أن يكون تهشيم الماكنة العظيمة . لو كان بمقدورها أن تحطم المنجم ، وتجعل كل رجال (وكستن) خارج العمل لفعلت ذلك . دعهم يجوعون وينكشون الأرض بحثا عن الجذور أفضل من أن يخدموا هذا المالك بهذه الطريقة .

كرهت خالها توم وكرهت وينفريد انغر . وهبط الجميع الى المنزل الصيفي لاحتساء الشاي . كان مكانا لطيفا ، وسط بضع اشجار في نهاية حديقة صغيرة ، على حافة حقل وبدا وكأن خالها توم ووينفريد يسخران منها ويقللان من شأنها ، وكانت تعيسة ومنعزلة ، بيد انها لن تستسلم أبدا . إن برودها تجاه وينفريد يجب ألا يتوقف أبدا . ولقد أدركت أن

ما بينهما قد انتهى ، ورأت حركات قبيحة فظة في مدرّستها ورأت جسدا طينيا ، خاملا ، بطيئا ذكّرها بسحالي ما قبل التاريخ الكبيرة . وفي أحد الأيام ، دخل خالها توم من ضوء الشمس المحرق ، ساخنا من المشي . بعدها نزَّ العرق على رأسه وجبينه ، وكانت يده رطبة وساخنة ومختنقة في قبضتها . كان ثمة شيء مستنقعي يتعلق به أيضا ؛ الرطوبة الريانة والانتفاخ والتأثير المالح المقرف الذي يميز المستنقع نفسه ، حيث تكون الحياة والتفسخ كُلا واحدا .

كان رافضا لها ، هي التي كانت جافة ورائعة في نارها ، وعظامها في حد ذاتها كانت على ما يبدو تجبره على أن يبتعد عنها

في تلك الأسابيع نضجت اورسلا . بقيت أسبوعين في (وكستن) ، ولقد كرهتها كانت كلها رمادية ، رمادا جافا باردا ، وميتا ، وقبيحا . لكنها بقيت ؛ بقيت كذلك كي تتخلص من وينفريد . وكان كره الفتاة وإحساسها بالرفض تجاه مدرستها وخالها بدا وكأنه يجمعهما معا ولقد تجاذبا كما لو ضدها .

وفي صلابة روحها ومرارتها ، أدركت اورسلا أن وينفريد أصبحت عشيقة خالها وكانت سعيدة ، فلقد أحبتهما معا . والآن أرادت أن تتخلص منهما معا ، فلقد كانت رائحة فسادهما المستنقعي المر ـ العذب تتسلل مقرفة ومضرة الى منخريها كانت ستفعل كل شيء كي تتخلص من هذا الهواء المنتن ، ستتركهما معا الى الأبد ، وتهجر الى الأبد عنصرهما الغريب الهش شبه الفاسد . أي شيء كي تذهب بعيدا

وفي إحدى الليالي ، جاءت وينفريد متوقدة كلها الى سرير اورسلا ووضعت ذراعيها حول الفتاة ، ساحبة إياها إليها رغم ممانعتها وقالت :

ـ عزيزتي ، يا عزيزتي ، هل أتزوج السيد برانغوين هل أفعل ؟

وهبط السؤال الدبق الطيني ثقيلا على اورسلا على نحو لا يطاق . فقالت لها مستعملة كل قوتها من المقاومة الصلبة :

ـ هل طلب منك ذلك ؟

قالت وينفريد :

ـ لقد طلب مني ذلك . هل تريدينني أن أتزوجه يا اورسلا ؟

فقالت اورسلا :

ـ نعم .

وضاق الذراعان أكثر عليها :

ـ أنا أعرف أنك توافقين يا حلوتي ، وسوف أتزوجه . إنك مغرمة به أليس كذلك ؟

ـ كنت مغرمة به على نحو فظيع منذ أن كنت طفلة .

ـ أعرف ، أعرف ، أستطيع أن أرى ما تحبين فيه . إنه رجل مكتف بنفسه إن لديه شيئا ما جانبا من الآخرين .

قالت اورسلا :

ـ نعم لكنه ليس مثلك يا عزيزتي ، إنه ليس جيدا مثل ما أنت ، بل إن ثمة شيئاً يعترض عليه فيه ـ فخداه العريضان .

كانت اورسلا صامتة .

ـ لكني سأتزوجه يا عزيزتي ، سيكون ذلك أفضل . والآن قولي لي إنك تحبينني .

انتُزع نوع من الإيمان من الفتاة ، ومع ذلك ، خرجت مدرستها متنهدة كي تبكي في غرفتها .

وخلال يومين ، غادرت اورسلا (وكستن) ، وذهبت الآنسة انغر الى نوتنغم ، وكانت هناك خطوبة بينها وبين توم برانغوين ، كان الخال يتبجح بها ، كما لو أنها نوكيد صلاحيته .

واستمر برانغوين ووينفريد مخطوبين فصلاً آخر ، ثم تزوجا إذ بلغ توم برانغوين العمر الذي أراد فيه اطفالا ، فلم يكن الزواج ولا المؤسسة العائلية قد عنت شيئا له ، بل أراد أن يكاثر نفسه وكان يعرف ما هو فاعل ، فلقد كانت لديه غريزة تبلد نام ، لشيء يختار مكان راحته ويستغرق فيه في فتور تام ولامبالاة عميقة ، انه سيدع الآلة تحمله : زوجا وأبا ومدير منجم . طين دافئ مرتفع خلال الفعل المتكرر ليوم بعد آخر ، بالماكنة العظيمة التي تستمد منها حركتها . أما وينفريد باعتبارها امرأة متعلمة ومن نوعه ، فلقد كانت تمثل رفيقة مناسبة ، وكانت أليفته .

الفصل الثالث عشر

عالم الرجل

عادت اورسلا الى كوسثي كي تتنازع مع أمها ، إذ انتهت أيام مدرستها ، واجتازت امتحان القبول . والآن عادت الى البيت كي تواجه تلك الفترة الفارغة الممتدة بين المدرسة والزواج المحتمل .

في البداية ، ظنت الأمر كالعطل السابقة ، وأنها ستشعر بالحرية حسب . كانت روحها في حالة فوضى ، عمياء ، متألمة ، مشوهة ولم تتبق لها إرادة كي تفكر بنفسها ، وأن عليها ، لبعض الوقت ، أن تستغرق حسب .

لكن بعد فترة قصيرة جدا ، وجدت نفسها ثائرة على أمها . كانت لأمها في ذلك الوقت القدرة على إزعاج الفتاة وإفقادها صوابها باستمرار . كان ثمة سبعة أطفال ، ومع ذلك ، ولدت السيدة برانغوين طفلا آخر ، هو التاسع الذي تلده ، إذ مات أحدهم بالخناق في الطفولة .

حتى حقيقة حمل الأم هذه ، أثارت سخط الفتاة الكبرى . وكانت السيدة برانغوين راضية تماما ، مكتفية كليا بتناسلها . ولم تكن لترضى إطلاقا بوجود أي شيء سوى الأشياء الفورية الجسدية الشائعة وكانت اورسلا متقدة الروح ، تعاني من تباريح الشباب كلها ، تبحث عن مثل أعلى مجهول ، ذلك الذي تستطيع الإمساك به ، بل حتى لا تستطيع تمييزه او تصوره . فاقدة العقل ، كانت تقاتل كل الظلام الذي نهضت ضده والى جانب هذا الظلام ، كانت امها . أن تحدّ ، مثل ما فعلت أمها ، كل شيء بحلقة التصورات الجسدية ، وان ترفض راضية ، حقيقة كل شيء آخر ، كان ذلك أمرا مرعبا . ليس من شيء تهتم به السيدة برانغوين غير الأطفال والبيوت والأقاويل الصغيرة المحلية ، وهي لن تلمس ولن تدع أي شيء آخر يعيش قريبا منها . وظلت تتجول كبيرة بطفل ، مهملة ، مسترخية تمتلك قدرا من

وقار رخو على مهلها ، مسرة نفسها ، ودائما ، دائما تفعل الأشياء للأطفال ، شاعرة أنها قد أشبعت على نحو مريع بتلك الأنوثة كلها

أبقتها غيبوبة حمل الأطفال الراضية هذه شابة وقاصرة عن الاكتمال ، تكاد أن تكون قد كبرت يوما واحدا عن اليوم الذي ولدت فيه غدرون . ولم يحدث اي شيء طوال تلك السنين غير مجيء الأطفال ، ولا شيء كان يهم سوى أجساد أطفالها . وعندما امتلك أطفالها وعيهم ، وعندما ابتدأوا يبحثون عن إشباعهم أهملتهم ، بيد أنها بقيت مسيطرة في البيت ، واستمر برانغوين في نوع من النعاس الغني بفعل الحرارة الجسدية ، بالترابط مع زوجته . لم يكن أي منهما ذاتيا تماما أو محددا تماما كفردين . بل كانا متخللين كثيرا بالحرارة الجسدية للتناسل وتربية صغارهما ويا للطريقة التي رفضت بها اورسلا الأمر ، والطريقة التي قاتلت بها ضد الحياة القريبة الجسدية المحدودة التي تسم العائلية القطيعية هادئة ، رابطة الجأش ، ثابتة الجنان مثل ما كانت دوما! وواصلت السيدة برانغوين سيطرتها الأمومية الجسدية .

وكانت هناك معارك . وكانت اورسلا تقاتل من أجل الأشياء التي تهمها ، فلقد كانت تريد الأطفال أن يكونوا أقل فظاظة وطغيانا ، وأن يكون لها مكان في البيت ، بيد أن أمها سحبتها الى الأسفل ؛ سحبتها الى الأسفل ، وبكل غريزة المكر عند الحيوان المتناسل ، سفهت السيدة برانغوين من انفعالات اورسلا ، وحطت من قدرها ، ومن أفكارها ، ومن الفاظها . وكانت اورسلا تحاول أن تلح ، في بيتها ، على حق النساء في ان يتخذن مكانا مساويا للرجال في حقول الفعل والعمل .

وكانت الأم تقول :

ـ نعم هناك محصول جيد من الجوارب يسكن ناضجا جاهزا للرتق . دعي ذلك يكون ميدان فعلك .

ولقد كرهت اورسلا رتق الجوارب ، وكان هذا يفقدها صوابها ، فكرهت أمها بمرارة . وبعد بضعة أسابيع من الحياة العائلية الإجبارية ، عانت ما فيه الكفاية من بيتها . إذ أن ابتذال كل شيء وتفاهته وانعدام معناه الفوري ، قادها الى السعار . لذلك ظلت تردد وتصرح بالأفكار ، وتصحح وتناكد الأطفال ، وأدارت ظهرها في احتقار صامت لأمها المتناسلة ، التي كانت تعاملها بلامبالاتها المتشامخة ، كما لو أنها طفل مدع لا يؤخذ على محمل الجد .

وكان برانغوين يُسحب في بعض الأحيان الى المشاكل . كان أحب اورسلا ، لذلك كان لديه دائما إحساس بالعار ، وبالعار تقريبا عندما يتحول ضدها ، وكان ذلك تحولا عنيفا

مرا ، وبكل القساوة التي تجعل اورسلا تصبح شاحبة بكماء حذرة . وبدت أحاسيسها كأنها تموت في داخلها ، وأصبح مزاجها صلبا وباردا

وكان برانغوين نفسه في إحدى حالات تدفقه . فبعد كل هذه السنين ، ابتدأ يرى كوة من الحرية . إذ استمر طوال عشرين سنة في مكتبه كرسام ، يؤدي عملا ليس له فيه أي اهتمام ، لأنه يبدو العمل المخصص له ، لكن كبر بناته ، ورفضهن المتطور للأشكال القديمة جعله حرا كذلك .

كان رجل حيوية لا تنتهي ، إذ كان يشق طريقه مثل بغل أعمى ، خارج الأرض التي كانت تغطيه ، عاملا دائما بعيدا عن العنصر الجسدي الذي أسرته فيه زوجته ، بطيئا أعمى متلمسا وبما تبقى من المبادرة لديه ، شق طريقه نحو التعبير والشكل الفرديين

في النهاية ، بعد عشرين سنة ، عاد الى نحت الخشب ، وعند النقطة التي ترك فيها منحوتة آدم وحواء ، عندما كان يغازل تقريبا . لكن لديه الآن المعرفة والمهارة دون رؤيا . ورأى نقاوة تصورات شبابه ، ورأى العالم الحقيقي الذي تصوراه . أما الآن ، فإن لديه قوة جديدة في إحساسه بالواقع . أحس كما لو أنه حقيقي ، كما لو أنه يتعامل مع أشياء حقيقية . لقد عمل طوال سنوات عديدة في كوسثي ، وهو يبني الأورغن للكنيسة ، مصلحا الأعمال الخشبية ، واصلا تدريجا الى معرفة الجمال في العمل الصرف والآن ، أراد مرة أخرى أن ينحت الأشياء التي كانت تعبيرات عن نفسه .

ولكن لم يكن بمقدوره أن يواصل تماما . إذ كان دائما مشغولا جدا ، غير واثق تماما ، مرتبكا . وابتدأ مترددا بدراسة صنع التماثيل . ولدهشته ، وجد أن بمقدوره أن يفعل ذلك ، أن يشكل من الطين ومن الجص ، وأنتج تماثيل جميلة ؛ جميلة حقا . ثم ابتدأ يصنع رأسا لأورسلا بارتفاع عال بطريقة دونا تيلو وفي انفعاله الأول ، حصل على تمثيل جميل لرغبته ، لكن درجة التركيز لم تواتِه ، وبقليل من الرماد في فمه تخلى عن الأمر ، واستمر يقلد او يصنع تصميمات باختيار عناصر من مواد كلاسيه . ولقد أحب أعمال دي روبيا ودونا تيلو مثل ما أحب فرا انجليكو عندما كان شابا . وكان لعمله بعض العذوبة والخمول الساذج الذي يميز الفنانين الإيطاليين المبكرين ، بيد أنها كانت مجرد نسخ حسب .

وبعد أن وصل الى نهايته في التشكيل تحول الى الرسم ، لكنه حاول الرسم بالألوان المائية كما بفعل أي هاو ولقد حصل على نتائجه ، لكنه لم يكن معجبا كثيرا بها . وبعد رسم او اثنين لكنيسته المحبوبة تميزت بالحذر نفسه الذي يميز تماثيله ، بيد أنها بدت

متنافرة مع الطريقة الحسية الحديثة في الرسم ، حتى برج الكنيسة الذي رسمه كان يظهر منتصبا ؛ منتصبا حقا ، وقد تأكد انتصابه ، بيد أنه كان خجلا من فقدانه للمعنى ، لذلك استدار مبتعدا مرة أخرى .

ثم اتجه الى صنع المجوهرات ، وقرأ بنفينتو جليني وتأمل نسخا من الحلي ، وابتدأ يصنع قلائد من فضة ولؤلؤ وحشوة . وكان أول شيء صنعه ، في بداية اكتشافه ، جميلا حقا ، لكن ذلك أصبح أكثر تقليدية بعدئذ ، غير أنه مبتدئا بزوجته ، صنع قلائد لكل نساء بيته ، ثم صنع بعد ذلك الخواتم والأساور .

بعد ذلك امتهن أعمال المعادن المطروقة والمنقوشة بالإزميل ، وعندما غادرت اورسلا المدرسة ، كان يصنع وعاء فضيا ذا شكل لطيف . وكم استمتع به ، وكاد ان يكون متلهفا إليه .

وطوال هذا الوقت كله ، كان اتصاله الوحيد مع العالم الخارجي الحقيقي خلال صفوفه المسائية الشتوية التي جعلته على تماس مع التعليم الرسمي . أما بشأن البقية ، فلقد كان منسيا ولامباليا تماما . حتى بشأن الحرب ، فلم تكن الأمة موجودة بالنسبة إليه . كان في تراجع خاص من نفسه ، فلم تكن له أية جنسية ، ولا أي ولاء عظيم .

راقبت اورسلا الصحف بطريقة مبهمة في ما يتعلق بالحرب في جنوب أفريقيا فجعلتها تعيسة . وحاولت ان تكون لها ادنى علاقة معها قدر الإمكان ، لكن سكربينسكي كان في الخارج هناك ، وكان يرسل لها بين فترة وأخرى بطاقة بريدية ، لكن الأمر كان كما لو أنه جدار فارغ في اتجاهه دون نوافذ او مخرج ، لذلك تمسكت بسكربينسكي الذي في ذاكرتها .

قلع حبها لوينفريد انغر ، على ما يبدو ، حياتها من الجذور ومن تربتها الأصلية التي كان سكربينسكي ينتمي اليها . وهي قد ازدرعت في مكان قاحل . كان مجرد ذكرى حسب ، فأحيت ذكراه بهوى غريب بعد مغادرة وينفريد ، وكاد أن يكون بالنسبة إليها ، رمز حياتها الحقيقية . كان الأمر يبدو كما لو أنها من خلالها وفيه ، يصبح بمقدورها أن تعود لنفسها الحقيقية التي كانت عليها قبل أن تحب وينفريد ، قبل أن يخيم هذا الموات عليها ، هذا الازدراع عديم الرحمة ، لكن حتى ذكرياتها كانت نتاج خيالها .

حلمت به وبنفسها مثل ما كانا معا لم يكن بمستطاعها أن تفكر به باطراد ، بما كان يفعله الآن ، بأية علاقة يرتبط معها الآن . بل إنها كانت تكتفي بالبكاء في بعض الأحيان عندما تفكر كيف عانت بقسوة عندما تركها . آه ، كيف عانت! وتذكرت ما كتبت في مذكرتها : «آه ، لو كنت القمر لعرفت أين أهوي»

آه ، كان ذلك تبريحا كئيبا لها ان تتذكر ما كانت عليه عندئذ . ذلك لانها كانت تتذكر نفسا ميتة ، ولقد مات كل ذلك بعد وينفريد . وميزت جثة نفسها الشابة المحبة ، وعرفت قبرها . وكانت الروح الشابة المحبة التي تنعاها لم تعش إلا لماما ، وكانت مخلوق خيالها .

بقيت ثابتة في أعماق يأسها البارد ولم تتغير . لا أحد يحبها الآن أبدا ــ ولن تحب أحدا . فلقد قتل جسد الحب في داخلها بعد وينفريد ، وإن شيئا من جثة فيها إنها ستعيش وتستمر لكنها لن تحصل على عشاق ، ولن يريدها أي عاشق بعد الآن . وهي لن ترغب في أي عاشق ، فلقد انطفأ لهب الرغبة الحي الصغير في داخلها الى الأبد والجرثومة الضئيلة الحية التي احتوت برعم حياتها الحقيقية ، حبها الحقيقي ، قد قتلت . ستمضي نامية كئبات ، وستفعل ما بوسعها كي تنتج زهورا تافهة ، بيد أن وردتها الرئيسية ماتت قبل أن تولد ، وأن نموها كله كان نقلا لجثة الأمل .

استمرت الأسابيع التعيسة في البيت الضيق المحشو بالأطفال . ماذا كانت حياتها ـ عَدَمٌ قذر ، عديم الشكل ، متحلل . اورسلا برانغوين شخص دون قيمة او أهمية ، تعيش في قرية كوسثي الوضيعة ، داخل مدى اليكستون القذرة . اورسلا برانغوين ، في السابعة عشرة من عمرها ، عديمة القيمة ، وغير مقيمة ، لا يريدها ولا يحتاجها أحد ، وهي عارفة بقيمتها الميتة ، إنها لن تطيق التفكير بالأمر .

لكن ماتزال كبرياؤها العنيدة تكابر . إنها قد تكون ملوثة ، وقد تكون جثة لن تحب ربما الى الأبد ، وقد تكون ساقا متعفنة اللب تقتات على الطعام الذي يوفره الآخرون . ومع ذلك ، فإنها لن تستسلم لأي كان . وأدركت تدريجا أنها لن تستطيع الاستمرار بالعيش في البيت مثل ما كانت تفعل دون مكان او معنى او قيمة ، فالأطفال الذين يذهبون الى المدرسة لوحدهم يجعلونها تشعر بازدرائها عديم الفائدة . إن عليها أن تفعل شيئا .

قال لها والدها إن لديها الكثير مما تفعله بأن تساعد أمها . وهي لن تحصل من والديها على أكثر من صفعة على الوجه ، ولم تكن شخصية عملية . كانت تفكر بأشياء متوحشة ، كأن تهرب وتصبح خادمة منازل ، او أن تطلب من رجل أن يأخذها .

وكتبت الى مديرة المدرسة الثانوية طلبا للنصيحة

وجاءها الرد .

«لا أستطيع أن أتبين على نحو واضح ماذا يجب عليك أن تفعلي يا اورسلا إلاّ إذا كنتِ راغبة في أن تصبحي معلمة مدرسه ابتدائية . لقد احتزتِ امتحان القبول ، وهذا يؤهلك للحصول على وظيفة معلم غير مؤهل في أية مدرسة ، وبراتب يبلغ زهاء

الخمسين حنيها في السنة . لا اسطيع ان اعبر عن عمق تعاطمي معك في رعبتك لأن تفعلي شيئا ما . ستعلمين أن الجنس البشري هو جسد هائل ستكونين عضوا نافعا فيه ، وستحتلين مكانك الخاص في المهمة العظيمة التي نحاول الإنسانية الاضطلاع بها ، وأن هذا سيمنحك الرضا واحترام الذات اللذين لا يمكن أن يمنحهما لك أي شيء آخر» .

غطس قلب اورسلا . كان رضا مرعبا باردا أن تفكر فيه . ومع ذلك ، أذعنت إرادتها الباردة ، فهذا هو ما إرادته .

ومضت الرسالة تقول :

«إن لك طبيعة عاطفية واستجابة طبيعية سريعة ، فإذا ما استطعت أن تتعلمي الصبر وضبط النفس ، فلن أرى سسا يمنعك من أن تصبحى معلمة جيدة ، وأفل ما يمكنك فعله هو أن تحاولي ، فلن تحتاجي إلا أن تخدمي مدة سنة واحدة وربما سنتين بوظيفة معلم غير مؤهل ، بعدها تنخرطين في احدى كليات اعداد المعلمين حيث اتمنى ان تحصلي على شهادتك . اني الح عليك وانصحك بشدة ، ان تواظبي على دراستك دائما ، بهدف أن تحصلي على شهادة ، فتلك ستعطيك المؤهل والموقع في العالم ، وستمنحك مدى أكثر اتساعا كي تختاري طريقك .

سأكون فخورة جدا بأن أرى إحدى طالباتي وقد كسبت استقلالها الاقتصادي الذي يعني أكثر بكثير مما يبدو . وسأكون سعيدة حقا بأن أعرف أن إحدى طالباتي قد وفرت لنفسها سبل الحرية كي تختار بنفسها» .

بدا كل شيء كئيبا ويائسا ، ولقد كرهته اورسلا في الواقع . بيد أن ازدراء أمها وقسوة أبيها جعلاها تجدف بسرعة ، فلقد كانت تدرك عار التبعية ، وأحست بشوك حسابات أمها الحيوانية المقرح .

وفي النهاية ، كان عليها أن تتحدث . وفي إحدى الأمسيات ، تسللت مجهدة ، ومكبوتة ، وصامتة داخل نفسها الى سقيفة العمل ، وسمعت طرقات المطرقة على المعدن . ورفع أبوها رأسه عندما فتح الباب . كان وجهه براقا ومتوردا بالغريزة مثلما عندما كان شابا ، وكان شاربه الأسود قد تهدل فوق فمه العريض ، وشعره القصير رائعا وقصيرا مثل ما هو دوما ، لكن ثمة تجريد في ملامحه ، نوع من الانفصال الآلي عن الأشياء البشرية . كان عاملا ، وراقب وجه ابنته المتصلب ، جامد القسمات ، وتملكه غضب ساخن في صدره وأحشائه ، وقال لها :

ـ ما الأمر الآن ؟

قالت وهي تشيح جانبا دون أن تنظر اليه :

ـ ألا أستطيع ، ألا أستطيع أن أذهب الى العمل ؟

ـ تذهبين للعمل من أجل ماذا ؟

كان صوته قويا جدا ، وجاهزا ، ومتذبذبا ، ولقد أزعجها :

ـ أريد حياة أخرى غير هذه .

تملك وميض من الغيظ كل دمه لحظة ، وأعاد القول :

ـ حياة أخرى ؟ لماذا ؟ أي حياة تريدين ؟

وترددت :

ـ شيئا آخر غير العمل المنزلي والتسكع ، كما أني أريد أن أكسب شيئا ما .

كانت صلابة حديثها القاسية الغريبة ، ومناعة شبابها الحادة التي تجاهلته هي التي جعلته يتصلب بالغضب أيضا ، وسألها :

ـ وكيف ستكسبين أي شيء في ظنك ؟

ـ بإمكاني أن أصبح معلمة ، فأنا مؤهلة لذلك بامتحان القبول الذي اجتزته .

وتمنى أن يكون امتحان قبولها في الجحيم .

وسألها ساخرا :

ـ وكم تكسبين من امتحان قبولك ؟

فقالت :

ـ خمسون جنيها في العام .

فخيم عليه الصمت ، فلقد استلبت قدرته من يده .

كان تشبث دوما بزهو خفي في حقيقة أن بناته لا يحتجن أن يخرجن الى العمل ، فبنقود زوجته ونقوده لديهم أربعمئة جنيه في السنة . بمقدورهم أن يسحبوا على رأس المال لاحقا إن هم احتاجوا الى ذلك ولم يكن خائفا من شيخوخته ، إذ أن بناته يمكن أن يصبحن سيدات نبيلات

إن خمسين جنيها في السنة تعني جنيها كل أسبوع ، وهو ما كان كافيا لأن تقتات عليه مستقلة .

ـ وأي نوع من المعلمين تكونين ؟ فليس لديك صبر بعوضة صغيرة* مع إخوتك

* إما أنه يقصد أن صبرها ضئيل بحجم البعوضة ، أو أنه يجمع بين رشاقة البعوضة المعذّبة وصمات الدمية الوثابة

وأخواتك ، ناهيك عن صف من الأطفال . وكنت أعتقد أنك لا تحبين أطفال المدارس العمومية القذرين .

ـ إنهم ليسوا قذرين جميعا .

ـ ستجدين أنهم ليسوا نظيفين جميعا .

ثم خيم صمت في الورشة ، وسقط ضوء المصباح على الإناء الفضي اللامع الذي يستقر أمامه ، وعلى المطرقة والفرن والإزميل . وقف برانغوين وضوء غريب شبيه بالقطة على وجهه ، شيء يكاد أن يشبه الإبتسامة ، بيد أنه لم يكن ابتسامة .

قالت له .

ـ هل أستطيع أن أحاول ؟

ـ بإمكانك أن تفعلي أية تعاسة تحبين ، وتذهبي أنّى تشائين .

كان وجهها ثابتا ساكن القسمات لامباليا وكانت تصيبه دوما نوبة سعار عندما يراه على ذلك النحو ، بيد أنه ظل ساكنا تماما .

استدارت فاترة ، ودون أن يخيم شيء مما تشعر به ، وغادرت السقيفة ، بينما استمر في عمله ، وقد تشابكت كل اعصابه . ثم كان عليه أن يضع معداته ، ويدخل البيت .

وفي نبرة مرة من الغضب والازدراء ، أخبر زوجته . كانت اورسلا حاضرة . وحدثت مشادة قصيرة ختمت بقول السيدة برانغوين بنبرة تفوق واستخفاف لاذعة :

ـ دعها ترى الدنيا ، فإنها سرعان ما تكتفي .

وتُرِكَ الأمر عند هذه النقطة ، لكن اورسلا عدت نفسها حرة في التصرف ، ولم تقم بأي حركة طوال بضعة أيام ، إذ كانت مترددة في اتخاذ الخطوة القاسية بالبحث عن عمل ذلك لأنها كانت تنكمش بحساسية وخجل جادين من أي اتصال جديد ومن المواقف الجديدة وبعد ذلك ، وفي النهاية ، قادها نوع من العناد ، إذ كانت روحها ممتلئة بالمرارة .

ذهبت الى المكتبة العامة في اليكستون ، ونسخت عناوين من جريدة (سكول مسترس)* ، وطلبت الحصول على نموذج تقديم . وبعد يومين ، نهضت مبكرة كي تلتقي رجل البريد . ومثل ما توقعت كانت هناك ثلاثة مظاريف طويلة .

انقبض قلبها بألم عندما صعدت بها الى الطابق العلوي حيث غرفة نومها ، وارتجفت أصابعها . وكانت تجبر نفسها بجهد على النظر الى النماذج الرسمية الطويلة

---

* جريدة أسبوعية صدرت بين (١٨١١ ـ ١٩٢٥) وكانت تُكلِّفُ بنسا واحدا

التي ينبغي عليها أن تملأها . كان الأمر بمجمله قاسيا جدا ، لاشخصيا ، ومع ذلك يجب إنجازه .

الاسم (اسم العائلة اولا) . . . .

وبيد مرتجفة كتبت : «برانغوين ؛ اورسلا» .

العمر ومحل الولادة : . . . .

وبعد تفكير طويل ملأت ذلك السطر .

المؤهلات مع تاريخ الامتحان : . . . .

وبزهو ضئيل كتبت : امتحان لندن للقبول .

الخبرة السابقة ومحل الحصول عليها : . . . .

وغطس قلبها عندما كتبت : لا توجد .

وظل مع ذلك الكثير الذي يجب عليها أن تجيب عنه ، واستغرقها ساعتين كي تتم النماذج الثلاثة ، ثم كان عليها ، بعد ذلك أن تنسخ شهادة حسن سلوكها من مديرة مدرستها ومن الكاهن .

وفي النهاية انتهى الأمر ، وأغلقت المظاريف الطويلة الثلاثة . وفي الأصيل ، ذهبت الى اليكستون كي تبعثها بالبريد ، ولم تخبر والديها بالأمر اطلاقا . وعندما لصقت الطوابع على رسائلها الطويلة الثلاث ، ووضعتها في الصندوق بمكتب البريد الرئيسي ، أحست كما لو أنها أصبحت بمنأى عن والدها وأمها ، كما لو أنها ربطت نفسها مع عالم الفعالية الخارجي الأوسع ، العالم الذي من صنع الإنسان .

عندما عادت الى البيت ، حلمت مرة اخرى بطريقتها الخاصة ، أحلامها القديمة الرائعة . كان أحد نماذج التقديم موجهاً الى غلينغم في كنت ، وواحد الى كنكستون اون ثيمس ، وواحد الى سوانويك في دربي شاير . كان غلينغم اسما محببا ، وكانت كنت حديقة انكلترا . وهكذا ففي غلينغم قرية متناهية في القدم قرب حقول الجنجل ، حيث تشرق الشمس بنعومة . خرجت من المدرسة عند الأصيل الى ظل أشجار الدلب عند البوابة ، ثم استدارت خلال الطريق النائم المؤدي الى البيت حيث تقحم زهور الحقول رؤوسها الزرق خلال السياج الخشبي القديم ، بينما ينتصب زهر القبس مكونا من براعم قرب الممر .

نهضت سيدة رقيقة ذات شعر فضي ويدين رقيقتين عاجيتين ارتفعتا حالما دخلت اورسلا الغرفة و... :

ـ اوه ، يا عزيزتي ما رأيك ؟

ـ ما الأمر يا سيدة وذراول ؟

عاد فردريك الى البيت بل إن خطوته الرجولية كانت تسمع على السلم ، ورأت حذاءه القوي ، وبنطاله الأزرق ، وقامته المنتظمة ، ووجهه نظيف وحميم كوجه صقر وعيناه مضيئتان بسحر البحار الغريبة ، آه ، بحار غريبة نسجها خلال روحه بينما كان ينزل الى المطبخ . إن هذا الحلم وإسهاباته استغرقها ميلا من المشي ، ثم ذهبت الى كينكستون ـ اون ـ ثيمس .

كانت كينكستون ـ اون ـ ثيمس مكانا تاريخيا الى الجنوب من لندن . وهناك كانت تعيش الأرواح الموقرة ، حسنة المنبت من الذين ينتمون الى لندن لكنهم يعشقون الهدوء . وهناك التقت عائلة رائعة من الفتيات اللواتي يعشن في منزل الملكة آنا القديم الكبير الذي كان عشبه ينحدر صوب النهر . وفي جو من السلام المهيب ، وجدت نفسها وسط رفيقات روحها وأحببنها كأخت ، وتقاسمن معها كل الأفكار النبيلة .

وتملكتها السعادة مرة أخرى . وفي تأملاتها نشرت جناحيها البائسين المقصوصين ، وطارت الى سماء عليا نقية .

ومرّ يوم بعد آخر ، ولم تتحدث مع والديها ، ثم أعيدت شهادة حسن سلوكها من غلينغم ، إنهم لا يريدونها ، وكذلك من سوانويك . وتلت حلاوة الأمل مرارة الرفض ، وتعفرت ريشاتها الذهبية بالغبار مرة أخرى .

ومن ثم ، فجأة ، وبعد أسبوعين ، جاء إشعار من كينكستون ـ اون ـ ثيمس . كان عليها أن تحضر في دائرة التعليم في تلك المدينة يوم الخميس المقبل لغرض مقابلتها من قبل اللجنة . وتوقف قلبها ساكنا . كانت تعرف أنها ستجعل اللجنة تقبلها . أما الآن فإنها خائفة بعد أن أصبح انتقالها وشيكا . ارتجف قلبها خوفاً ونفوراً ، لكن هدفها في الداخل ظل ثابتا .

قضت النهار معتمة غير راغبة في نقل الأخبار الى أمها ، منتظرة أباها وكان القلق والخوف مهيمنين عليها كانت تخشى الذهاب الى كينكستون . واختفت أحلامها السهلة من متناول الواقع .

ومع ذلك ، وعندما تلاشى الأصيل ، عادت حلاوة الحلم مرة اخرى كينكستون ـ اون ـ ثيمس ثمة رنين من الوقار في الاسم ، وظل التاريخ وسحر التقدم الفخم يجللانها ، وستكون القصور قديمة ومظلمة ؛ مكان الملك المغمور . ومع ذلك ، فإنها كانت مقر الملوك في تصورها ـ ريتشارد وهنري وولسي والملكة اليزابيث . العشب الشاسع الرائع والأشجار الفخمة والشرفات التي يغسل الماء مدرجاتها بنعومة ، حيث تأتي الأوزات في بعض الأحيان

الى اليابسة . ويبقى عليها أن ترى مركب الملكة الرائع المهيب وهو يطفو ، والسجادة القرمزية تفرش على مدرجات المنزل ، والنبلاء في عباءاتهم القطيفية الأرجوانية ، حاسرو الرؤوس ، يقفون تحت ضوء الشمس ، متجمعين على أحد الجانبين ، منتظرين :

ـ «إجرِ أيها الثيمس العذب بهدوء حتى أنهي أغنيتي»* .

وحلَّ المساء ، وعاد والدها الى البيت ، متوردا ويقظا ومنفصلا ، كما هو دائما . كان أقل حقيقية من أوهامها . وانتظرت حتى تناول وجبة الشاي . كان يأكل لقما كبيرة بملء الفم ، ويأكل دون وعي باللامبالاة التي يظهرها الحيوان تجاه طعامه .

وبعد الشاي مباشرة ، ذهب الى الكنيسة ، إذ كان ثمة تمرين للجوقة ، ولقد أراد أن يجرب النغمات على أورغنه

أصدر مزلاج الباب صوتا عاليا عندما لحقت به ، بيد أن الأورغن استمر يعزف مع ذلك بصوت أعلى . كان غير شاعر بوجودها ، وهو يتمرن على الترتيلة . ورأت رأسه الصغير الأسود الفاحم ، ووجهه المتيقظ بين لهيب الشموع ، وجسمه النحيل مرتخياً على كرسي العزف المرتفع . كان وجهه متوهجا جدا وجامدا ، وبدت حركات أطرافه غريبة منفصلة عنه . بدا وكأن صوت الأورغن يعود الى أحجار الأعمدة ذاتها ، كنسغ يجري فيها . وتلا ذلك انتهاء الموسيقى وصمت .

قالت : أبي!

نظر من حوله كما لو أنه ينظر الى شبح . ووقفت اورسلا معتمة في ضوء الشمعة .

قال لها دون أن يعود الى الأرض .

ـ ماذا الآن ؟

كان التحدث إليه أمرا صعبا .

قالت له مجبرة نفسها على الحديث :

ـ لقد حصلت على وظيفة .

أجابها غير راغب في الخروج من مزاج عزف الأورغن الذي كان فيه ، وأغلق الجهاز أمامه :

ـ حصلت على ماذا ؟

ـ حصلت على وظيفة أذهب إليها .

---

* لازمة قصيده (بروثالمنيون) لإدموند سبنسر (١٥٩٥) ولقد «اقتبسها» بعض الشعراء العرب .

فاستدار نحوها ولما يزل منشدها غير راغب ، وقال لها :

ـ اوه ، وأين هذه ؟

ـ في كينكستون ـ اون ـ ثيمس . يجب أن أذهب يوم الخميس لإجراء مقابلة مع اللجنة .

ـ يجب أن تذهبي الخميس ؟

ـ نعم .

وسلمته الرسالة فقرأها في ضوء الشموع .

اورسلا برانغوين ، بيت السرو ، كوستي ، دربي شاير .

سيدتي العزيزة

اقتضى حضورك الى الدائرة أعلاه يوم الخميس المقبل ، العاشر منه في تمام الساعة الحادية عشرة والنصف صباحا ، وذلك لإجراء مقابلة مع اللجنة في ما يتعلق بطلبك لإشغال وظيفة مساعدة معلمة في مدارس (ولمكبره غرين) .

كان صعبا جدا على برانغوين أن يستوعب هذه المعلومة النائية الرسمية وهو في حالة التوهج التي كان عليها في هدوء كنيسته وموسيقى ترانيمه .

ـ حسن ، لا داعي لأن تزعجيني بها الآن ، اليس كذلك ؟

قال لها نافد الصبر معيدا الرسالة إليها .

فقالت له :

ـ علي الذهاب يوم الخميس

جلس ساكنا ، ثم مدّ يده من أجل المزيد من الموسيقى . وتبع ذلك صوت اندفاع الهواء ثم نغمة طويلة مؤكدة بوقية من الأورغن عندما وضع يديه على المفاتيح ، فاستدارت اورسلا وغادرت .

حاول أن يسلم نفسه للأورغن مرة أخرى بيد أنه لم يستطع . لم يكن بمقدوره أن يعود . وطوال الوقت ، كان نوع من السلك يشده ؛ يشده الى مكان آخر شداً بائساً .

وهكذا فعندما عاد الى البيت بعد تمرين الجوقة ، كان وجهه مظلما وقلبه أسود . لم ينبس ببنت شفة حتى آوى الصغار الى مخادعهم . ومع ذلك ، أدركت اورسلا أنه كان يتخمر .

وفي النهاية سألها :

ـ أين تلك الرسالة ؟

فسلمتها له وجلس ينظر إليها : «اقتضى حضورك الى الدائرة أعلاه ، يوم الخميس المقبل...» . كانت ملاحظة رسمية باردة موجهة الى اورسلا نفسها ولا علاقة له بها . هكذا! إنها موجودة الآن كفرد اجتماعي منفصل إن من حقها هي أن تجيب عن هذه الملاحظة دون أخذه بالحسبان ، بل ليس له حتى الحق في التدخل ، وأصبح قلبا صلبا وغاضبا .

ـ كان عليكِ أن تفعليها من وراء ظهورنا ، أليس كذلك ؟

قالها مزمجرا ، وقفر قلبها بألم ساخن . لقد أدركت أنها كانت حرة ، وأنها انفصلت عنه ، وأنه قد هزم .

فردت وكأنها تعتذر إليه

ـ أنت قلت دعيها تحاول .

ولم يسمع ، بل جلس ينظر الى الرسالة .

«دائرة التعليم ، كينكستون ـ اون ـ ثيمس ، ومن ثم الاسم المطبوع ، الآنسة اورسلا برانغوين بيت أشجار السرو ، كوسثي» .

كان كل شيء كاملا ونهائيا . ولم يكن بمستطاعه سوى الإحساس بالوظيفة الجديدة التي تشغلها اورسلا ، باعتبارها مستلمة لتلك الرسالة . وكان ذلك سيخا في روحه .

وقال في النهاية .

ـ حسنٌ ، لن تذهبي .

أجفلت اورسلا ولم تستطع أن تجد الكلمات كي تضجَّ بتمردها

ـ إذا كنت تعتقدين أنك ستذهبين راقصة الى الجانب الآخر من لندن ، فأنت على خطأ

ـ ولم لا ؟

صرخت متشبثة في الحال برغبتها في الذهاب .

قال لها :

ـ هذه هي الحال .

وكان هناك صمت حتى نزلت السيدة برانغوين الى الطابق الأسفل .

قال لها معطيا إياها الرسالة :

ـ انظري هذا يا آنا ؟

أرجعت رأسها الى الخلف ، لامحة الرسالة المطبوعة ، متوقعة مشاكل من العالم

الخارجي . وكانت هناك تلك الحركة الإنزلاقية الغريبة لعينيها ، كما لو أنها قد أغلقت حسها ، نفسها الأمومية ، وحل محلها نوع من غيبوبة قاسية ، عديمة المعنى وهكذا ألقت نظرة عديمة المعنى على الرسالة ، حذرة من أن تستوعبها ، وأدركت محتوياتها بذهنها المتصلب السطحي ، إذ كانت نفسها الحساسة مغلقة ، وسألت :

ـ وأية وظيفة هي ؟

ـ إنها تريد أن تذهب لتصبح معلمة في كينكستون ـ اون ـ ثيمس بأجر قدره خمسون جنيها في السنة .

ـ أوه ، حقا!

تحدثت عن الأمر كما لو أنه حقيقة عدائية تتعلق بغريب .

كان من الممكن أن تدعها تذهب بسبب غلظ قلبها ، فالسيدة برانغوين ستبدأ بالنمو مرة أخرى مع طفلتها الصغرى ، إذ أن ابنتها الأكبر سنا في الطريق الآن .

قال الأب .

ـ إنها لن تذهب كل تلك المسافة .

فهتفت اورسلا :

ـ عليّ أن أذهب الى حيث يريدونني ، وهو مكان لطيف .

فقال والدها بقسوة :

ـ وماذا تعرفين عن المكان ؟

وقالت الأم بهدوء :

ـ لا يهم إن كانوا يريدونك أم لا مادام والدك يقول لن تذهبي .

كم كرهتها اورسلا!

وهتفت الفتاة :

ـ قلت أنت فلأحاول ، والآن حصلت على الوظيفة وسأذهب .

ـ لماذا لا تحصلين على وظيفة في اليكستون حيث تستطيعين العيش في البيت ؟

سألتها غدرون التي كانت تكره الخلافات ، والتي لم تستطع أن تفهم طريقة اورسلا الصعبة . ومع ذلك ، فإنها يجب أن تؤازر شقيقتها .

فهتفت اورسلا :

ـ ليست هناك وظائف في اليكستون ، وأنا أريد الذهاب الآن .

قال والدها :

ـ لو طلبتِ لوجدنا لك وظيفة في اليكستون ، لكنك تصرفت بغرور وبطريقتك الخاصة .

وقالت الأم بلهجة لاذعة :

ـ ليس لدي شك في أنك تريدين الذهاب في الحال . وليس لدي شك في أنك تجدين الآخرين لا يطاقون لفترة طويلة أيضا . إنك معتدة كثيرا بنفسك .

كان إحساس من الكره الخالص بين الفتاة وأمها

بعدها حل صمت عنيد ، وكانت اورسلا تدرك أن عليها أن تحطمه فقالت :

ـ حسنٌ ، لقد كتبوا إليَّ ، وعلي الذهاب

وسألها والدها :

ـ من أين تحصلين على النقود ؟

فردت :

ـ سيعطيني إياها الخال توم .

وكان هناك صمت مرة أخرى ، وفي هذه المرة كانت منتصرة .

وفي النهاية رفع والدها رأسه ، كان وجهه منشدها ، وبدا وكأنه يَشْدَهُ نفسه كي يصدر عبارة واضحة ، وقال :

ـ حسنٌ ، لن تذهبي كل ذلك المشوار الطويل سأطلب من السيد بورت أن يجد وظيفة لك هنا . لن أدعك وحدك على الجانب الآخر من لندن .

قالت اورسلا :

ـ لكن علي الذهاب الى كينكستون . لقد بعثوا في طلبي .

فقال لها :

ـ سيتدبرون أمرهم من دونك

وكان هناك صمت مرتجف عندما كانت على وشك البكاء ، وقالت :

ـ حسن ، إن بمقدورك أن تمنعني عن هذا ، لكني سأحصل على وظيفة لن أبقى في البيت .

ـ لا أحد يريد منك البقاء في البيت .

صرخ فجأة وقد شحب لونه من الغيظ .

لم تزد في الكلام ، واصبحت طبيعتها صلبة ومبتسمة في تكبرها ؛ في لامبالاتها المعادية لبقيتهم . كانت هذه هي الحالة التي أراد قتلها بها ، إذ توجهت الى الشرفة تغني :

إنها الأم ميشيل التي أضاعت قطتها
وهي التي تنادي من النافذة
عمن يعيدها لها*

وطوال الأيام التالية ، ظلت اورسلا تتجول متألقة وصلبة ، مغنية لنفسها ، ملاطفة الأطفال ، غير أن روحها كانت صلبة وباردة تجاه والديها . لم يُقل المزيد في الأمر ، واستمرت الصلابة والتألق طوال أربعة أيام ، ثم ابتدأت تتحطم . وهكذا قالت لوالدها في المساء :

ـ هل سألت لي عن وظيفة ؟

ـ لقد تحدثت الى السيد بورت .

ـ وماذا قال ؟

ـ هناك اجتماع للجنة غدا ، وسيخبرني بالنتيجة يوم الجمعة .

وهكذا انتظرت حتى يوم الجمعة . كانت كينكستون ـ اون ـ ثيمس حلما مثيرا . وهنا تستطيع أن تستشعر الواقع الصلب الفج ، لذلك ادركت ان هذا سيمر ، ذلك لأنها وجدت ألا شيء قد أشبع قط إلا في الواقع المحدد الصلب . إنها لا تريد أن تكون معلمة في اليكستون ، ذلك لأنها تعرف اليكستون وتمقتها ، ولكنها أرادت أن تكون حرة ، لذلك فإن عليها أن تأخذ حريتها حيث تستطيع .

يوم الجمعة أخبرها والدها أن ثمة وظيفة شاغرة في مدرسة شارع (برنسلي) ، وأن من المحتمل جدا أن تؤمن لها ، في الحال ، دون مشاكل التقديم .

توقف قلبها . كانت مدرسة شارع برنسلي في حي فقير ، وكانت ذاقت شيئا من تصرفات أطفال العامة في اليكستون . فلقد صرخوا خلفها ورموا الأحجار عليها . ومع ذلك ، ستظل مسيطرة باعتبارها معلمة . وكان كل شيء مجهولا ، وكانت مثارة ، فغابة القرميد الأحمر الجاف المدبب في حد ذاتها كان لها بعض السحر عليها كانت صلبة وقبيحة جدا ؛ قبيحة على نحو قاس ، ستطهرها من بعض عاطفيتها العائمة .

حلمت بالكيفية التي ستجعل بها الأطفال الصغار القبيحين يحبونها . ستكون شخصية عظيمة جدا ، فالمعلمون كانوا دوما اشخاصا صلبين ولا شخصيين ، وليس ثمة علاقة

---

* بالفرنسية في الأصل وهي أغنية أطفال

حية . أما هي ، فإنها ستهب نفسها ، ستعطي ، وتعطي ، تعطي كل خزائنها العظيمة من الثروة الى أطفالها ، ستجعلهم سعداء جدا ، وسيفضلونها على أي معلم آخر على وجه الأرض . وفي عيد الميلاد ، ستختار لهم بطاقات مدهشة ، وستقيم حفلة صغيرة في أحد الصفوف .

كان المدير ، السيد هاربي ، رجلا قصيرا ، ضخم القامة ، رجلا عاميا بعض الشيء كما اعتقدت ، لكنها ستتمسك أمامه بضوء النبل والتهذيب ، ولن يمر وقت طويل حتى يُكنَّ لها تقديرا رفيعا . ستكون شمس المدرسة المتوهجة ، وسيبرعم الأطفال كالأعشاب الصغيرة ، وسيزهر المعلمون كنباتات طويلة صلبة ذات أزهار نادرة

حل يوم الإثنين . كانت نهاية شهر ايلول ، وثمة رذاذ من المطر الناعم كأقنعة من حولها ، مما جعلها تبدو حميمة ، عالما في حد ذاتها . ومشت الى الأمام صوب الأرض الجديدة ، فلقد طمست الأرض القديمة ، وسيمزق القناع الذي يخفي العالم الجديد وتملكها قلق حاد عندما هبطت التل تحت المطر ، حاملة حقيبة غدائها . وخلال الرذاذ رأت المدينة ؛ فما أسود هائلا عليها أن تدخل فيه . وفي الحال شعرت بإحساس من المقت والإشباع المثار ، بيد أنها انكمشت .

انتظرت الترام في المحطة . هنا كانت البداية . وأمامها كانت المحطة المؤدية الى نوتنغم حيث ذهبت تيريزا الى المدرسة قبل نصف ساعة . وخلفها كانت مدرسة الكنيسة الصغيرة التي انخرطت فيها عندما كانت طفلة حين كانت جدتها حية ترزق . لقد مرت سنتان على موت جدتها الآن ، وثمة امرأة غريبة في حقل مارش مع خالها فريد وطفل صغير وخلفها كانت كوسثي ، وكان العليق ناضجا على سياج الشجيرات .

بينما كانت تنتظر في محطة الترام ، عادت بذاكرتها بهدوء الى طفولتها ، الى جدها الممازح بلحيته الشقراء ، وعينيه الزرقاوين ، وجسده النُصبي الضخم ؛ لقد غرق . وجدتها التي كانت اورسلا تقول ، في بعض الأحيان ، إنها أحبتها أكثر من أي شخص آخر في العالم . ومدرسة الكنيسة الصغيرة ، وصبيان آل فيليبس ، أصبح أحدهم الآن فارسا في الحرس الملكي ، والآخر عامل منجم . وبوجد تعلقت بالماضي .

لكن ، بينما كانت تحلم فيه ، إذ سمعت عربة الترام تطحن حول الاستدارة وهي تدمدم بتجهم . ورأتها تظهر للعيان وتهمهم قريبا منها ، ثم استدارت في المحطة ، وتوقفت ظاهرة فوقها . نزل أناس رماديون معتمون من النهاية البعيدة ، وكان قاطع التذاكر يسير في البرك ، متأرجحا حول الأعمدة .

صعدت الى الترام الرطب غير المريح الذي كانت أرضيته معتمة بسبب الرطوبة ، وكانت كل نوافذه مضببة . وجلست متوترة   لقد بدأ وجودها الجديد

صعدت راكبة أخرى ؛ خادمة من نوع ما ، ذات معطف رطب قذر . لم تطق اورسلا تأخر الترام   قرع الجرس ، تلاه تمايل صوب الأمام ، وتحركت العربة بحذر في الشارع الرطب ، واحترق قلبها بالألم والتوتر ، كما لو أن شيئا ما كان يقطع نسيجها الحي .

غالبا ، اوه غالبا ما كان القطار يبدو كأنه يتوقف ، ويصعد أناس مبللون ، ملتفعون فيجلسون خرسا رماديين في صفوف خامدة قبالتها ، ومظلاتهم بين ركبهم . وازداد تراكم البخار على نوافذ القطار ، معتمة ، وأغلق عليها مع هؤلاء الناس الشبحيين غير الأحياء . ومع ذلك ، لم يخطر ببالها أنها كانت واحدة منهم .

وجاء المحصل يقطع التذاكر ، وكانت كل قرعة صغيرة من ثاقبته ترسل نوبة من الفزع خلالها ، غير أن بطاقتها كانت بالتأكيد مختلفة عن الآخرين .

كانوا جميعا ذاهبين الى العمل ، وهي ذاهبة الى العمل أيضا . وكانت بطاقتها مشابهة . وجلست محاولة أن تنسجم معهم ، غير أن الخوف كان عند عتبة بابها . وأحست بقبضة مرعبة مجهولة من حولها .

في شارع باث ، كان عليها أن تنزل وتغير الترام . نظرت الى أعلى التل ، كان يبدو كأنه يؤدي الى الحرية . وتذكرت العديد من فترات الأصيل أيام السبت التي تمشت فيها الى الدكاكين . كم كانت حرة ولامبالية!

اوه ، كان ترامها ينزلق بحذر شديد هابطا التل . لقد فزعت من كل ذراع من تنقلها . توقفت العربة ، وصعدت بعجلة ، وظلت مستديرة برأسها ، بينما كانت العربة تسير ، فلم تكن متأكدة من الشارع . وفي النهاية نهضت مرتجفة ، وقلبها لهب من التوتر ، وقرع المحصل الجرس بفظاظة .

كانت تسير في شارع صغير وضيع رطب خال من المارة . وكانت المدرسة تجثم القرفصاء واطئة بساحتها الإسفلتية المسيجة التي كانت تتلألأ سوداء تحت المطر . كانت البناية قذرة ومريعة ، وثمة نباتات يابسة تطل معتمة خلال الشبابيك .

دخلت باب الفناء المقوس . كان للمكان بأكمله تعبير مهدد ، محاكيا عمارة الكنيسة لغرض الاستبداد كدلالة على سلطة مبتذلة   ولاحظت أن قدمين مرتا على أرضية الفناء المرصوفة . كان المكان صامتا ، مهجورا كسجن فارغ ينتظر عودة الأقدام المتثاقلة .

اتجهت اورسلا نحو غرفة المعلمين التي حفرت في تجويف مظلم ، وطرقت الباب مخلوعة الفؤاد

ـ أُدخل .

هتف صوت رجل مندهش ، كما لو انه صادر من زنزانة سجن .

دخلت الغرفة المظلمة الصغيرة التي لم تدخلها الشمس البتة كان المصباح الغازي مضاء عاريا وفجاً ، وإزاء الطاولة رجل هزيل يرتدي قميصا ، يمسح ورقة على صفيحة هلامية* . رفع بصره الى اورسلا بوجهه الضيق الحاد ، وقال : «صباح الخير» ، ثم أدار وجهه مرة أخرى ، وخلع الورقة من الصفيحة ، ملقيا نظرة على الكتابة المنقولة ذات اللون البنفسجي قبل أن يسقط الصفيحة الملتفة جانبا وسط كوم منها .

راقبته اورسلا مندهشة . ففي ضوء الغاز وظلام الغرفة وضيقها ، بدا الكل غير حقيقي قالت :

ـ أليس صباحا مزعجا .

فقال لها :

ـ نعم ، إنه ليس بالجو الجيد

لكن هنا بدا أن لا الصباح ولا الجو موجودان حقا ، فهذا المكان عديم الزمان . وتحدث بصوت مشغول كصدى . ولم تعرف اورسلا ماذا تقول ، فخلعت معطفها المطري ، وسألت :

ـ هل أنا مبكرة ؟

نظر الرجل أولا الى ساعة صغيرة ثم إليها ، وبدت عيناه كأنهما قد حددتا الى رؤية بقدر خرم الإبرة وقال :

ـ خمس وعشرون دقيقة . أنت الثانية في المجيء أنا الأول هذا الصباح .

جلست اورسلا بحذر شديد على حافة الكرسي ، وراقبت يديه الحمراوين تمسحان على سطح الورقة الأبيض ثم تتوقفان ، تسحبان زاوية من الصفيحة ، تحدقان وتمسحان مرة أخرى . وكانت هناك كومة عظيمة من الصفحات البيض والمخربشة الملتفة على الطاولة وسألته اورسلا :

ـ هل عليك أن تعد هذا العدد الكبير ؟

---

* طريقة قديمة في نسخ الأوراق

ومرة أخرى رفع الرجل بصره بحدة . كان في نحو الثلاثين او الثالثة والثلاثين من العمر ، نحيفا ، مخضرا ، ذا أنف طويل ، ووجه حاد . عيناه زرقاوان حادتان كأنصال من الفولاذ ، جميلتان بعض الشيء ؛ هكذا ظنت الفتاة .

ـ أجابها ثلاث وستون .

فقالت بلطف :

ـ هذا كثير ، ثم تذكرت فأردفت : لكنها ليست جميعها لصفك أليس كذلك ؟

فرد قائلا بحدة في صوته :

ـ ولم ليست لصفي ؟

ارتعبت اورسلا من إهماله الآلي لها ، وصراحة عبارته . كان ذلك شيئا جديدا عليها . فهي لم تُعامل هذه المعاملة من قبل أبدا ، كما لو أنها لا تهم ، كما لو أنها كانت تخاطب آلة . فقالت متعاطفة :

ـ لأنها كثيرة .

فقال لها :

ـ ستحصلين على العدد نفسه تقريبا .

هذا كل ما حصلت عليه . وجلست فارغة قليلا ، غير عارفة كيف تشعر . ومع ذلك فإنها لاتزال تحبه ، إذ بدا لها نزقا جدا وضد طبيعته

فُتح الباب ، وظهرت امرأة شابة قصيرة القامة ذات لون متعادل ، في نحو الثامنة والعشرين .

وهتفت القادمة الجديدة :

ـ آه ، اورسلا ، إنكِ مبكرةٌ ، يا إلهي ، إنك لن تستمري في ذلك . هذا مشجب السيد وليمسن وهذا مشجبك . إن معلم الصف الخامس القياسي يحصل عليه دائما . ألن تخلعي قبعتك ؟

رفعت الآنسة فيوليت هاربي معطف اورسلا المطري من المشجب الذي كان معلقا عليه ، وعلقته على آخر ابعد قليلا في الصف . وكانت رفعت الدبابيس مسبقا من قبعتها النسيجية* وغرزتها في معطفها . واستدارت نحو اورسلا ، وهي ترفع شعرها المجعد المستوي البني الخفيف وهتفت :

* قبعة مصنوعة من خليط من الفراء والصوف

ـ أليس هذا صباحا بشعا ، بشعا! لا شيء أكرهه أكثر من صباح يوم إثنين ممطر ـ مجموعة من الأطفال يدبون كيفما اتفق ، ولا أحد يردعهم .

وكانت أخرجت مئزرا من حزمة من ورق الصحف وكانت تجربه على خصرها .

وقالت بحدة وهي تلقي ببصرها على اورسلا ·

ـ لقد جلبتِ مئزرا أليس كذلك ؟ اوه ، ستحتاجين الى واحد ، فليس لديك فكرة عما سيكون عليه مظهرك قبل الرابعة والنصف بالطباشير والحبر وأقدام الأطفال القذرة . حسن أستطيع أن أرسل صبيا الى بيت ماما ليجلب لك واحدا .

فردت اورسلا :

ـ اوه ، إن ذلك لا يهم

فصرخت الآنسة هاربي :

ـ اوه ، نعم ، أستطيع أن أرسل أحدا بسهولة .

وغطس قلب اورسلا . إن كل فرد هنا يبدو موقنا ومتأمرا . كيف ستستمر مع مثل هؤلاء الناس المزعزعين المتنفضين المتأمرين . كما أن الآنسة هاربي لم تتبادل كلمة واحدة مع الرجل الجالس إزاء الطاولة ، لقد أهملته ببساطة . وأحست اورسلا بفظاظة جاسئة فجة بين المعلمين .

خرجت الفتاتان الى الممر ، وكان بضعة أطفال يلغطون مسبقا في الفناء :

ـ جيم ريتشارد .

نادت الآنسة هاربي قاسية ومتسلطة : وتقدم صبي بخنوع .

ـ هل تذهب الى بيتنا من أجلي ، هه ؟

قالت الآنسة هاربي ذلك في صوت آمر متنازل ملاطف ، ولم تنتظر جوابا .

«إذهب وقل لماما أن ترسل لي أحد مآزري المدرسية للآنسة برانغوين ، هل تفعل ذلك ؟» .

همهم الصبي بخنوع :

ـ نعم يا آنسة .

وكان يتحرك مبتعدا :

ـ هي! هتفت الآنسة هاربي : تعال هنا . لماذا أنت ذاهب الآن ، ماذا ستقول لماما ؟

همهم الطفل :

ـ مئزر مدرسة .

ـ من فضلك يا سيدة هاربي ، تقول الآنسة هاربي أرسلي لي مئزرا مدرسيا آخر للآنسة برانغوين لأنها لم تجلب واحدا معها .

ـ نعم يا آنسة .

دمدم الطفل مطرق الرأس ، وكان يوشك على الحركة عندما أعادته الآنسة هاربي ممسكة به من الكتف :

ـ ماذا ستقول ؟

ـ من فضلك يا سيدة هاربي تريد الآنسة هاربي مئزرا للآنسة برانغوين .

دمدم الطفل بخنوع شديد . ضحكت الآنسة هاربي ، وهي تدفعه بعيدا :

ـ الآنسة برانغوين! من الأفضل أن تأخذ مظلة . انتظر لحظة .

جُهِّز الصبي غير الراغب بمظلة الآنسة هاربي ، وابتدأت رحلته ، ونادت الآنسة هاربي خلفه :

ـ لا تتأخر كثيرا .

ثم استدارت نحو اورسلا وقالت بمرح : «اوه ، إنه صبي حذر بيد أنه ليس رديئا كما تعرفين» . ووافقت اورسلا بصورة واهنة :

ـ نعم .

قرقع مزلاج الباب ودخلتا غرفة كبيرة ألقت اورسلا نظرة على المكان . كان صمته الطويل المتصلب رسميا مثيرا للقشعريرة . وعند منتصف المسافة كان حاجز زجاجي ، أبوابه مفتوحة ، وثمة ساعة تتك مرددة الصدى ، وبدا صوت الآنسة هاربي مزدوجا عندما قالت :

ـ هذه هي الغرفة الكبيرة الصفوف الخامس والسادس والسابع القياسية . هذا مكانك ، الخامس .

وقفت عند النهاية القريبة من الغرفة الواسعة . كان هناك مكتب معلم مرتفع صغير يواجه مجموعة من المصاطب الطويلة ، وثمة نافذتان مرتفعتان في الجدار المجاور

كان أمرا مدهشا ومرعبا لأورسلا ، فلقد غير الضوء الغريب الميت في الغرفة صورتها ، فظنت أن ذلك بسبب الصباح الممطر ، ثم نظرت الى الأعلى مرة أخرى بسبب الإحساس المروع بكونها قد سُحبت في جو متصلب ، تنقصه المرونة بعيدا عن كل إحساسات النهار الاعتيادي ولاحظت أن زجاج الشبابيك كان ملطخا ، وقد دُعّم بالروافد .

السجن من حولها الآن! نظرت الى الجدران ؛ اللون مقصور أخضر شاحب وأدبس ، والى النوافذ الكبيرة التي وضعت فيها نباتات شعثاء من الغرنوقي مستندة الى الزجاج

الشاحب ، والى صفوف المصاطب الطويلة المرتبة في مجموعة ، وملأها الرعب . كان هذا عالما جديدا ، حياة جديدة هُددت بها ، بيد أنها لم تزل مثارة . تسلقت الكرسي عند مكتب المعلم ، فكان عاليا ولم تستطع قدماها لمس الأرض ، لكن يجب أن تستقر على الدرجة المرفوعة هناك من الأرض . كانت في المكتب ، يا للغرابة ، يا لغرابة كل شيء! كم هو مختلف عن ضباب المطر الذي يهب على كوسثي! وعندما فكرت بقريتها ، سرت فيها رعشة توق ، إذ بدت الآن نائية جدا ، وضائعة جدا .

كانت هنا في هذا الواقع المتصلب الصارم ؛ الواقع . كان أمرا عريبا أن تسمي هذا واقعا ، وهو الذي لم تعرفه قط حتى اليوم ، وها هو يملأها الآن بالرعب والكراهية ، الى الحد الذي تمنت فيه لو أنها ذهبت . كان هذا هو الواقع ، وكوسثي ؛ كوسثي محبوبتها الجميلة التي تعرفها جيدا ، التي تشبه نفسها فيها ، أصبحت واقعا ثانويا سجن المدرسة ، هذا هو الواقع . هنا إذن يجب أن تجلس في أبهة ، ملكة الدارسين! هنا يجب أن تحقق حلمها في أن تكون المعلمة المحبوبة التي تجلب النور والمتعة لأطفالها! بيد أن للمناضد التي أمامها زوايا مجردة تخدش عاطفتها ، وتجعلها تنكمش . وأجفلت شاعرة أنها كانت حمقاء في توقعاتها ، فلقد جلبت أحاسيسها وكرمها الى حيث لا تراد الأحاسيس ولا الكرم . وأحست مسبقا أنها قد صدت وأُزعجت بالجو الجديد ، وأنها غريبة عن هذا المكان .

انزلقت هابطة وعادتا الى غرفة المعلمين . كان أمرا غريبا أن تشعر أن على المرء أن يغير شخصيته . إنها لا أحد ، وليس ثمة واقع داخل نفسها ، كان الواقع بأكمله خارجها ، ويجب أن تكيف نفسها معه

كان السيد هاربي في غرفة المعلمين يقف إزاء صوان مفتوح . وكان بمقدور اورسلا أن ترى فيه حزما من ورق النشاف القرنفلي اللون وأكواماً من كتب براقة جديدة ، وصناديق من الطباشير ، وقناني حبر ملوّن ، وبدا لها شبيهاً بكنز .

كان مدير المدرسة رجلا قصير القامة ، قوي البنية ، ذا رأس دقيق وفك ثقيل . ومع ذلك ، كان وسيما بحاجبيه الجميلين ، وأنفه وشاربه الكبير المتدلي . كان يبدو مستغرقا في عمله ، ولم يلحظ دخول اورسلا . كان شيء مهين في الطريقة التي يبدو فيها غافلا بحيوية عن وجود شخص آخر ، منشغلا جدا

وعندما توافرت له فرصة شرود ذهن ، رفع بصره عن الطاولة وقال : صباح الخير لأورسلا . كان ثمة ضوء مسر في عينيه البنيتين ، وبدا رجوليا جدا لا تمكن مخالفته ، كشيء أرادت أن تدفعه .

قال لأورسلا :

ـ كانت رحلتك ممطرة

وردت بضحكة مضطربة صغيرة :

ـ اوه ، أنا لا أهتم ، فأنا معتادة عليه .

بيد أنه لم يعد يصغي مسبقا وبدت كلماتها حمقاء ، ومجرد ثرثرة فارغة . ولم يكن ليلحظها قال لها كما لو أنها كانت طفلة ما :

ـ ستوقعين اسمك هنا ، وتثبتين وقت وصولك ومغادرتك .

وقعت اورسلا اسمها في سجل الدوام ، وتراجعت الى الخلف ولم يلحظها أي شخص آخر أكثر من ذلك . وأجهدت ذهنها لتقول شيئا ما ، لكن دون جدوى .

قال السيد هاربي للرجل النحيل الذي كان يرتب أوراقه بعجلة شديدة .

ـ سأتركهم الآن .

لم يصدر المعلم المساعد أية إشارة تدل على القبول ، واستمر بما كان يقوم به ، وتوتر جو الغرفة . وفي اللحظة الأخيرة انزلق السيد برونت في معطفه .

ـ ستذهبين الى حجرة الفتيات .

قال مدير المدرسة الى اورسلا بلطافة مدهشة ومهينة ، رسمية وآمرة تماما .

خرجت ووجدت الآنسة هاربي ومعلمة أخرى في الفناء . وعلى الساحة الإسفلتية ، كان المطر ينهمر ، وقرع جرس بلا لحن ، كئيبا فوق رؤوسهن ، رتيبا وملحا ، ثم توقف . بعدها شوهد السيد برونت عاري الرأس ، واقفا عند بوابة المدرسة الأخرى يصدر صفيرا حادا من صافرة ، وينظر الى الشارع الممطر الموحش .

وكان الصبيان زرافات ووحدانا يجيئون مهرولين ، يمرون أمام المدير بضجة اقدام واصوات صاخبة فوق الساحة باتجاه فناء الصبيان . وكانت الفتيات يركضن ويمشين خلال الممر الآخر .

في الفناء ، حيث وقفت اورسلا ، كانت ضجة صاخبة صادرة من الفتيات اللواتي كن يخلعن معاطفهن وقبعاتهن ويعلقنها على الرفوف المكتظة بالمشاجب . وكانت رائحة ملابس رطبة ، واندفاع لشعور رطبة ملطخة ، وضجة أقدام ، وأصوات .

ازداد حشد الفتيات وازداد الاحتدام حول المشاجب ثباتا ، وطفقت الطالبات ينقسمن الى مجموعات صاخبة صغيرة في الفناء . بعد ذلك صفقت فيوليت هاربي يديها . صفقتهما بصوت أعلى وقالت صائحة .

ـ هدوء يا بنات ، هدوء

وكان هناك توقف ، وتضاءلت الجلبة غير أنها لم تتوقف .

فهتفت الآنسة هاربي بحدة :

ـ ماذا قلت ؟

وكان هناك ما يقرب الصمت التام . وفي بعض الأحيان ، كانت فتاة متأخرة قليلا تندفع الى الفناء ، منفلتة من أشيانها

وأمرت الآنسة هاربي بحدة :

ـ آمرات المجموعات في أماكنهن .

فوقفت فتاتان طويلتا الشعر ترتديان مئزرين ، منفصلتين في الفناء

صرخت الآنسة هاربي :

ـ الرابع والخامس والسادس قياسي انتظم في صفوف

حدثت جلبة تمخضت تدريجا عن ثلاثة صفوف من الفتيات ، اثنتين اثنتين ، يقفن مبتسمات مغتبطات بأنفسهن في الممر . وبين رفوف المشاجب ، كان المعلمون الآخرون يرتبون الصفوف الأوطأ في الطوابير .

وقفت اورسلا إزاء صفها الخامس القياسي . كانت الطالبات يهززن أكتافهن ، ويدفعن شعورهن ، ويكززن بمرافقهن ، ويتلوين ويحملقن ويكشرن ويهمسن ويتثنين .

سُمع صفيرُ حاد ، وابتدأ الصف السادس القياسي ؛ الفتيات الأكبر سنا بالمسير ، تقودهن الآنسة هاربي ، وتبعتها اورسلا بصفها الخامس القياسي ، ووقفت الى جانب صف مكشر ، مبتسم من الفتيات اللواتي كن ينتظرن في ممر ضيق ماذا كانت هي ، كان ذلك أمراً تجهله .

وفجأة ، سُمع صوت بيانو ، ودخل الصف السادس القياسي كله الى الغرفة الكبيرة ودخل الفتيان من الباب الآخر . وعزف البيانو لحنا استعراضيا وتبع الصف الخامس القياسي الى باب الغرفة الكبيرة ، وشوهد السيد هاربي بعيدا ماوراء الطاولة . وحرس السيد برونت باب الغرفة الآخر ، وانضغط صف اورسلا ، ووقفت قربهن . وكانت الفتيات ينظرن ويبتسمن ويندفعن .

قالت اورسلا :

ـ ادخلن

وضحكت الفتيات ضحكات مكتومة .

فقالت اورسلا لأن البيانو استمر بالعزف :

ـ ادخلن .

ودخلت الفتيات متفرقات الى الغرفة . رفع السيد هاربي الذي كان يبدو منشغلاً بأمر ما بعيدا عن طاولته ، رأسه ، وهتف بصوت مدو :

ـ قف!

وحدث توقف ، كما توقف البيانو ، ودفع الفتيان الذين كانوا على وشك الدخول من الباب الآخر الى الخلف .

وسمع صوت السيد برونت القاسي الخافت ، ثم صرخة السيد هاربي المدوية من أقصى الغرفة :

ـ من أذن لفتيات الصف الخامس قياسي بالدخول بهذه الصورة ؟

صار وجه اورسلا قرمزيا وكانت الفتيات ينظرن إليها ، مبتسمات باتهامهن

ـ أنا أدخلتهن يا سيد هاربي .

قالت بصوت واضح مغالب . تلت ذلك لحظة صمت ثم هدر السيد هاربي من بعد :

ـ عدن الى أماكنكن يا فتيات الخامس قياسي .

ألقت الفتيات نظرة على اورسلا متهمات ساخرات قليلا ، ماكرات . تراجعن الى الخلف وتصلب قلب اورسلا بألم مخز :

ـ الى الأمام سر .

جاء صوت السيد برونت ، وشرعت الفتيات يتحركن موائمات حركتهن مع مجموعة الفتيان

واجهت اورسلا صفها ؛ نحو خمسة وخمسين فتى وفتاة ، كانوا واقفين يملأون صفوف المناضد . وأحست أنها ليست موجودة تماما ، ليس لها مكان او كيان هناك ، وواجهت كتلة الأطفال .

وفي الغرفة سمعت تبادل الأسئلة السريع . وقفت أمام صفها دون أن تعرف ما تفعل . وانتظرت متألمة ، وراقبتها كتلة أطفالها ؛ خمسون وجها مجهولا . عدائيون مستعدون للسخرية منها . وأحست كما لو أنها تتعذب فوق نيران من الوجوه . ومن كل جانب ، كانت عارية أمامهم . ومرت الثواني في طول وتعذيب لا يمكن ذكره .

ثم استجمعت شجاعتها ، وسمعت السيد برونت يوجه أسئلة في الرياضيات الذهنية . وقفت قرب صفها كي لا تحتاج الى أن ترفع صوتها كثيرا ، وقالت متلعثمة مترددة :

ـ سبع قبعات ببنسين فما سعر الواحدة ؟
لاحت تكشيرة على وجوه الطلبة ، وقد رأوها تبدأ . كانت متوردة معانية بعدها ارتفعت أيدٍ كالشفرات ، وسألت عن الجواب .
مرَّ النهار بطيئا بشكل لا يصدق . ولم تعرف أبدا ما تفعل . كانت تمر فجوات مريعة تكون مكشوفة في أثنائها أمام الأطفال تماما . وعندما ابتدأت الدرس معتمدة على فتاة صغيرة نشيطة في المعلومات لم تعرف كيف تستمر به على نحو مناسب . كان الأطفال معلميها ، وكانت تذعن لهم ، وهي تستطيع دائما أن تسمع السيد برونت كماكنة في الصوت القاسي المرتفع اللاإنساني نفسه مستمرا بتعليمه ، ناسيا كل شيء . وأمام هذا العدد اللاإنساني من الأطفال ، كانت في مأزق تماما . ولم تكن تستطيع الفكاك منه .
كان هناك هذا الصف ذو الخمسين طفلاً متكتلا ، معتمدين عليها كي تأمرهم ، وهو الأمر الذي كرهته وأنكرته . ولقد جعلها ذلك غير قادرة على التنفس ، إذ كان الأمر إنسانيا تماما . كانوا كثيرين جدا ، وهم ليسوا أطفالا بل جمهرة ولم يكن بمقدورها أن تتحدث كما تتحدث لطفل ، ذلك لأنهم ليسوا اطفالا منفردين ، بل شيئا لاإنسانيا مشاعا .
حان وقت الغداء ، وذهبت منذهلة ومرتبكة ومنفردة الى غرفة المعلمين لتناول الغداء لم تشعر أبدا من قبل بأنها غريبة على الحياة مثل الآن ، وبدا لها الأمر كما لو أنها خرجت لتوها من حالة غريبة مرعبة كل شيء فيها يشبه ما في الجحيم . وضع نظام قاس حاقد ، ولم تكن حرة حقا . ومرَّ الأصيل عليها كنوع من العبودية .
مَرَّ الأسبوع الأول في حالة من الفوضى العمياء . لم تكن تعرف كيف تدرس . وأحست أنها لن تتعلم ذلك ابدا وكان السيد هاربي يدخل الى صفها بين الفينة والأخرى ليرى ما تفعله . وكانت تشعر أنها ليست كفوءة ، وهو يقف هناك متنمرا ، مستأسدا لاحقيقيا تماما ، حتى أنها ارتجفت وأصبحت متعادلة وغير موجودة ، بيد أنه كان يقف هناك ، ويراقب بتلك الابتسامة الذكورية المصغية في عينيه ، لكنه كان يهدد في الحقيقة . لم يكن يقول لها شيئا ، وكان يدعها تستمر بالتدريس ، وكانت تشعر أن ليس ثمة روح في جسدها . بعد ذلك اختفى ، وكان ذهابه أشبه بالسخرية ، إذ كان الصف صفه ، وكانت بديلا مرتجفا ، وهو يجلد ويتنمر . وكان مكروها غير أنه كان مديرا . ورغم أنها كانت لطيفة ومراعية مشاعر طلابها دائما ، غير أنهم كانوا ينتمون الى السيد هاربي ، ولا ينتمون إليها . فلقد احتفظ بكل القوة لنفسه كمصدر آلية لا يقهر . وكان الصف خاصة قوته . وفي المدرسة كانت القوة ، والقوة وحدها هي التي تهم .

وسرعان ما ابتدأت اورسلا ترهبه وفي قاع رهبتها ، كانت بذرة كراهية ، ذلك لأنها كانت تحتقره . لكنه سيدها . ثم استمرت ، وكان كل المعلمين الآخرين يكرهونه ، وينشرون كراهيتم بين أنفسهم ، إذ هو سيدهم وسيد الأطفال ، لذلك كان يقف كرئيس كي يجعل سلطته مطلقة على القطيع . وكان ذلك ، على ما يبدو ، هدفه الوحيد في الحياة أن يسيطر سيطرة عمياء على المدرسة . وكان معلموه رعاياه بقدر ما كان التلاميذ ، ولأن المعلمين يمتلكون جزءاً من السلطة حسب ، فلقد كانت غريزته هي أن يمقتهم

لم يكن بمستطاع اورسلا أن تجعل نفسها أثيرة عنده . فمن اللحظة الأولى ، أحست بالتصلب نحوه ، كما شعرت بالضغينة تجاه فيوليت هاربي أيضا . ومع ذلك ، كان السيد هاربي يعني الكثير عندها ، إذ كان شيئا ما ، شيئا لا تستطيع الإمساك به ، شيئا قويا جدا عليها . حاولت التقرب منه كما تتقرب فتاة شابة متألقة من الرجل عادة ، متوقعة القليل من اللطف الفروسي ، بيد ان حقيقة كونها فتاة ؛ امرأة ، قد أُهملت او استُعملت كمسألة ازدراء ضدها ، فلم تكن تعرف ماذا كانت او ماذا يجب أن تكون . وأرادت أن تظل نفسها الشخصية المستجيبة .

وهكذا ظلت تعلم ، وأقامت صداقات مع معلمة الصف الثالث قياسي ؛ ماغي سكوفيلد . كانت الآنسة سكوفيلد في قرابة العشرين من عمرها . فتاة خاملة منعزلة عن المعلمين الآخرين ، وكانت جميلة قليلا ، متأملة ، كأنها تعيش في عالم آخر أكثر جمالا

كانت اورسلا تأخذ معها طعام الغداء الى المدرسة . وطوال الأسبوع الثاني كانت تأكل في غرفة الآنسة سكوفيلد ، فغرفة الصف الثالث القياسي تنتصب بمفردها ، ولها نوافذ تطل على الجانبين ، وتشرف على الملعب . وكان بمثابة تحرر حنون ، ان تجد مثل هذا المأوى في المدرسة المرتجة ، ذلك لأن ثمة أصصاً من أقحوان وأوراق كبيرة وجرة كبيرة من العنب ، وهناك العديد من الصور الصغيرة الجميلة المعلقة على الحائط ، نسخ تصويرية من لوحة كروز ورنولد (عصر البراءة) مشيعة جوا من الحميمية ، حتى أن الغرفة بتوزيع نوافذها وبمناضدها الأصغر والأكثر ترتيبا ولمسات الصور والزهور ، أسعدت اورسلا في الحال . فهنا في النهاية ، لمسة بشرية صغيرة ، بمستطاعها أن تستجيب لها .

كان اليوم هو الإثنين ، وقد مرّ عليها أسبوع في المدرسة . وابتدأت تعتاد على محيطها ، رغم أنها لم تزل غريبة تماما في داخل نفسها . وكانت تتطلع بشوق لتناول الغداء مع ماغي تلك هي اللحظة المضيئة في النهار ، وكانت ماغي قوية ، ونائية جدا ، تمشي

بخطوات بطيئة واثقة على طريق صعب حاملة الحلم داخلها وذهبت اورسلا الى الصف ، تدرس كأنها في دوار لا معنى له .

خرج صفها مهرولا عند منتصف النهار بطريقة متفرقة ولم تكن أدركت بعد أية جمهرة كانت تجّمع ضدها بتحملها الفائق وعطفها وتهاونها . كانوا ذهبوا ، تخلصت منهم ، وهذا كل شيء . وأسرعت الى عرفة المعلمات .

كان السيد برونت يجثم قرب الموقد الصغير ، يضع قليلا من مهلبية الرز في الفرن ثم نهض ، ونظر بانتباه الى قدر صغير على الرف في داخله شوكة . بعد ذلك ، أعاد غطاء القدر .

سألته بمرح ، مقتحمة عليه استغراقه المتوتر .

ـ ألم ينضج بعد ؟

كانت تحتفظ دائما بمسلك براق مبتهج ، وكانت لطيفة مع المعلمين جميعا ، ذلك لأنها كانت تحس أنها كالبجعة بين الأوزات ، ذات إرث متفوق ، وممتلكات . وكان زهوها بكونها البجعة في تلك المدرسة القبيحة لم يكن خمد بعد .

فرد السيد برونت باقتضاب :

ـ بعد .

فقالت منحنية على الفرن :

ـ إني أتساءل إن كان صحني سخن .

وكانت شبه متوقعة أنه سينظر بدلا عنها ، لكنه لم يهتم بذلك . كانت جائعة ومدت إصبعها بلهفة في القدر لترى إن كانت طبخة كرنب بروكسل والبطاطا واللحم جاهزة ، بيد أنها لم تكن كذلك .

فقالت للسيد برونت :

ـ ألا تظن أنه لأمر مبهج أن يجلب المرء طعام الغداء معه ؟

ـ لا أعرف على حد علمي .

قال لها وهو يفرش منديلا على زاوية الطاولة دون أن ينظر اليها .

ـ افترض أن الطريق بعيد عليك كي تذهب الى البيت ؟

فقال :

ـ نعم .

ثم نهض ونظر إليها . كانت له أشد العيون التي رأتها في حياتها زرقة وحدة وشزراً ، وكان يحملق إليها بحدة متزايدة .

قال لها منذرا ·

ـ لو كنت مكانك يا آنسة برانغوين لتشددت قليلاً مع طلاب صفي ·

فانكمشت اورسلا ·

ـ هل تفعل ؟

سألته بعذوبة ، ومع ذلك برعب :

ـ ألست حازمة بما فيه الكفاية ؟

فكرر القول دون أن يهتم بها :

ـ لأنهم سيخذلونك إذا لم تعالجيهم بسرعة ، سيخذلونك ويقلقونك حتى ينقلك هاربي . هكذا سيكون الأمر ، لن تكوني هنا خلال ستة أسابيع أخرى .

ثم ملأ فمه بالطعام ، وأضاف : « إذا لم تعالجيهم بسرعة » .

ـ اوه ، ولكن...

قالت اورسلا ممتعضة كئيبة . كان الرعب عميقا داخلها .

ـ إن هاربي لن يساعدك ، بل هذا ما سوف يفعله ، سيدعك تستمرين وتصبحين أسوأ فأسوأ الى أن تخرجي او يخرجك هو . إن الأمر لا يهمني عدا أنك ستتركين صفا خلفك ، وآمل أنه لن يكون عليّ أن أتدبر أمره .

سمعت الاتهام في صوت الرجل ، وأحست أنها أدينت . لكن مع ذلك ، لم تصبح المدرسة حتى الآن واقعا معرفا بالنسبة إليها . كانت تتجنبها . كانت واقعا ، لكنه بأجمعه خارجها . وحاربت ضد مزاعم السيد برونت ولم ترغب في أن تعترف بها .

ـ هل يكون الأمر فظيعا الى هذا الحد ؟

قالت مرتجفة ، جميلة قليلا ، لكن بمسحة طفيفة من التنازل ، ذلك لأنها لم ترد أن تشي بفزعها .

ـ فظيع ؟

قال الرجل متلفتا الى حبات البطاطا مرة أخرى : أنا لا أعرف شيئا عن الفظيع .

فقالت اورسلا :

ـ أنا أشعر بالخوف حقا ، فالأطفال يبدون..

ـ ماذا ؟

قالت الآنسة هاربي التي دخلت في تلك اللحظة .

قالت اورسلا :

ـ يقول السيد برونت إن عليّ أن أعالج صفي بحزم
وضحكت بانزعاج .
ـ اوه ، إن عليك أن تحافظي على النظام إذا أردت أن تعلمي .
قالت الآنسة هاربي ذلك ، صلبة ، متفوقة ، مبتذلة .
لم تجب اورسلا وأحست أنها غير ملزمة أمامها .
وقال السيد برونت :
ـ إذا أردت أن يسمح لك بأن تعيشي ، فإن عليك أن تفعلي ذلك .
وقالت الآنسة هاربي :
ـ حسنٌ ، إذا كنت لا تستطيعين الحفاظ على النظام ، فأية فائدة ترتجى منك ؟
ـ ويجب أن تفعلي ذلك بنفسك .
ارتفع صوته كصراخ الأنبياء المر : لن تحصلي على مساعدة من أي شخص .
وقالت الآنسة هاربي :
ـ نعم ، حقا! فهناك بعض الناس الذين لا تمكن مساعدتهم
ومن ثم غادرت .

كان جو العداء والتفكك ، جو الإرادات الفاعلة في إذعان تنازعي بشع . وكان السيد برونت ذليلا ، خائفا ، لاذع اللسان بالخزي ، أخافها وأرادت اورسلا أن تهرب . أرادت أن تغادر حسب ، لا أن تفهم .

ثم دخلت الآنسة سكوفيلد بملاحظتها الأخرى الأشد امتعاضا . وتحولت اورسلا في الحال الى مواجهة مع القادمة الجديدة . ولقد ظلت ماغي شخصانية ضمن كل نظام التسلط غير النظيف هذا .

سألت السيد برونت :
ـ هل اندرسون الأب هنا ؟
وتحدثا في أمور طالبين ببرود ورسمية .

أخذت الآنسة سكوفيلد صحنها البني ، وتبعتها اورسلا بصحنها . وفرش المنديل في غرفة الصف الثالث القياسي اللطيفة ، وكانت هناك مزهرية تحتوي على وردتين او ثلاث من الورد الشهري* على الطاولة .

---

* الورد الهندي أو الصيني وكان يُظنُّ خطأً أنه يُزهر كل شهر .

ـ المكان رائع هنا ، لقد جعلته مختلفا .

قالت اورسلا مبتهجة ، بيد أنها كانت خائفة ، فلقد كان جو المدرسة يضغط عليها

قالت الآنسة سكوفيلد :

ـ الغرفة الكبيرة ، ها ، إنها لتعاسة أن يكون المرء فيها

وتحدثت هي الأخرى بمرارة أيضا . إنها أيضا كانت تعيش في موقع الخادم الأعلى المذل المكروه من السيد فوقه والصف تحته . وكانت تعرف أنها معرضة للهجوم من أي من الجانبين في أية لحظة او من كليهما في الحال ، ذلك لأن السلطات سوف تصغي لشكاوى الأبناء ، وأن كليهما سوف يستديران على السلطة الهجينة ، المعلم .

لذلك كان كبحٌ صلبٌ مرّ في نفس ماعي سكوفيلد حتى وهي تفرغ خليط الفاصوليا الذهبية الكبيرة والحساء البني ذا النكهة الطيبة .

قالت الآنسة سكوفيلد :

ـ إنه قدر ساخن للنباتيين ، هل تريدين أن تتذوقيه ؟

قالت اورسلا :

ـ أحب ذلك

وبدا غداؤها خشنا قبيحا إزاء هذا الصحن النظيف النكه .

قالت :

ـ أنا لم أذق طعام الخضروات أبدا ، لكنني أعتقد أنها يمكن أن تكون طيبة المذاق

قالت ماغي :

ـ أنا لست نباتية حقا ، لكني لا أحب أن أجلب اللحم الى المدرسة .

قالت اورسلا :

ـ لا ، ولا أعتقد أني أفعل ذلك أيضا .

ومرة أخرى ، قرّعت روحها جوابا على تهذيب جديد ، حرية جديدة . لو كانت كل الأشياء النباتية لطيفة كهذه ، فإنها ستكون سعيدة عندما تتخلص من نظافة اللحم الضئيلة وهتفت :

ـ يا لجودته!

ـ نعم

قالت الآنسة سكوفيلد ، ثم استمرت تخبرها بوصفة التحضير

وتحولت الفتاتان لتتحدثا عن نفسيهما ، وأخبرتها اورسلا بكل شيء يتعلق بالمدرسة

الثانوية وحول امتحان القبول ، متفاخرة قليلا أحست أنها فقيرة جدا في هذا المكان القبيح . وأصغت الآنسة سكوفيلد بوجه وسيم ، مهموم ، مكتئب قليلا

وسألتها في النهاية :

ـ ألم يكن بمقدورك الحصول على مكان أفضل من هذا ؟

قالت اورسلا مشككة .

ـ لم يكن لدي تصور عن حالته .

ـ آه!

ردت الآنسة سكوفيلد وأدارت رأسها جانبا بحركة مرة

فسألتها اورسلا مقطبة قليلا في خوف :

ـ هل هو مريع كما يبدو ؟

فقالت الآنسة سكوفيلد :

ـ إنه كذلك . ها ، إنه كريه .

وانقبض قلب اورسلا ، وقد رأت حتى الآنسة سكوفيلد في العبودية المميتة .

وقالت ماغي سكوفيلد مستطردة :

ـ إنه السيد هاربي . لا أعتقد أني أستطيع العيش في الغرفة الكبيرة مرة أخرى ، صوت السيد برونت والسيد هاربي ، آه .

أدارت رأسها جانبا مأذية عميقاً . ثمة شيء ما لا تستطيع تحمله .

سألت اورسلا مغامرة في رعبها الخاص :

ـ هل السيد هاربي مروع حقا ؟

ـ هو! لماذا ؟ إنه مجرد متنمر

قالت الآنسة سكوفيلد ذلك ، رافعة عينيها الغامقتين الخجولتين اللتين كانتا تتوهجان بازدراء معذب : «إنه ليس سيئا ما بقيت على اتصال معه ، ترجعين إليه ، وتفعلين كل شيء حسب طريقته ، لكن الأمر كله يبدو وضيعا! إنها مسألة قتال على كلتا الجبهتين ، وأولئك المغفلون الكبار...» .

تحدثت بصعوبة ، وبمرارة متزايدة . كان واضحا أنها قد عانت ، وكانت روحها فجة بالهوان ، وعانت اورسلا في استجابة لذلك .

وسألتها مسلوبة الحيلة :

ـ ولماذا هو مروع الى هذا الحد ؟

قالت الآنسة سكوفيلد .

ـ ليس بمقدورك أن تفعلي أي شيء ، إنه ضدك من جانب ، كما أنه يحشد الأطفال ضدك من الجانب الآخر إن الأطفال بغيضون ببساطة . يجب عليك أن تجعليهم يفعلون أي شيء ، أي شيء ، أي شيء يصدر عنك بغض النظر عما يتعلمون ، يجب أن تقحميه فيهم وهذه هي الحال

أحست اورسلا أن قلبها يغمى عليه في داخلها . لماذا عليها أن تفهم كل هذا ، ولماذا يجب أن تجبر خمسة وخمسين طفلا متلكئا على التعليم ، وأن تكون خلفها تلك الغيرة القبيحة الفظة طوال الوقت ، مستعدة لأن ترميها تحت رحمة قطيع الأطفال ممن يحبون تمزيقها باعتبارها تمثل السلطة الأضعف .

وتملكها فزع عظيم من مهمتها . ورأت السيد برونت والآنسة هاربي والآنسة سكوفيلد وكل معلمي المدرسة يكدحون ، غير راغبين في المهمة غير النبيلة المتمثلة بإجبار العديد من الطلبة في نموذج آلي واحد منضبط ، ضاغطين الفريق بأكمله الى حالة آلية من الطاعة والانتباه ، ومن ثم ، أمر قبولهم بقطع مختلفة من المعرفة . كانت المهمة العظيمة الأولى هي تحجيم ستين طالبا الى حالة ذهنية واحدة او كيان . إن هذه الحالة يجب أن تنتج على نحو آلي خلال رغبة المعلم ورغبة سلطة المدرسة بأكملها مفروضة على رغبة الأطفال والنقطة هي أن المدير والمعلمين يجب ان تكون لهم ارادة واحدة في السلطة ، التي عليها أن تجعل إرادة الأطفال متوافقة . بيد أن مدير المدرسة ضيق الأفق وقسري ، وإرادة المعلمين لا يمكن أن تتفق مع إرادته ، وإرادتهم المنفصلة ترفض أن تكون تابعة على هذا النحو لذلك كانت هناك حالة فوضى ، وترك الحكم النهائي الى الأطفال أنفسهم ليقرروا أية سلطة يجب أن تكون .

وهكذا فهنالك مجموعة من الإرادات المنفصلة ، كل واحدة منها تبذل غاية الجهد كي تفرض سلطتها . وبما أن الأطفال لن يذعنوا طبيعيا ابدا للجلوس في الفصل والاستسلام للمعرفة ، لذلك فإنهم يجب أن يجبروا بإرادة أكثر قوة وحكمة ، وضد أية إرادة يجب أن يحاولوا التمرد دائما . لذلك فإن الجهد الأول العظيم لكل معلم صف كبير ، ينبغي أن يتركز على جعل إرادة الأطفال منسجمة مع إرادته ، وأن هذا لا يمكن فعله إلا من خلال نكران ذاته ، وتطبيق نظام قانوني لغرض إنجاز نتيجة محسوبة معينة ، وهي نقل قدر معين من المعرفة . بينما كانت اورسلا تظن أنها ستصبح المعلم الحكيم الأول من خلال جعل المسألة كلها شخصية ، ودون اللجوء الى الإكراه . ولقد آمنت كليا بشخصيتها .

لذلك كانت في مشكلة عويصة جدا . ففي المقام الأول ، كانت تعرض على الفصل علاقة لم يكن في الفصل سوى طالب او إثنين ممن هم حساسون بدرجة كافية لتقديرها ، وبذلك تركت الأغلبية خارجا ، وبناء على ذلك ضدها . وثانيا كانت تضع نفسها في عداء إيجابي مع سلطة السيد هاربي الوحيدة الثابتة بحيث أنه يمكن للطلاب أن يضايقوها بأمان ولم تكن تعرف ذلك ، لكن غريزتها حذرتها تدريجا . لقد كانت تتعذب بصوت السيد برونت ، إذ استمر نافرا خشنا مملوءا بالكراهية ، بيد أنه رتيب جدا حتى أنه كاد يفقدها صوابها . وكانت النغمة ذاتها ؛ الرتابة الخشنة ، وأصبح الرجل آلية تعمل باستمرار ، لكن الرجل الذاتي كان في احتكاك خافت طوال الوقت ، وكان فظيعا مملوءا بالكراهية! أيجب عليها أن تكون كذلك ؟ كان بمستطاعها أن ترى الضرورة المروعة . يجب أن تصبح الشيء نفسه ، أن تركن النفس الذاتية ، وأن تصبح جهازا ؛ تجريدا تعمل على مادة معينة هي الفصل ، كي تنجز غرضا محددا ، هو أن تعلمهم قدرا معينا في كل يوم ، ولم يكن بمستطاعها أن تستسلم ومع ذلك ، أحست تدريجا بأغلال لا تقاوم تُطبق عليها . ولقد أبعدت الشمس خارجا . وغالبا عندما تخرج في أثناء الفرصة بين الحصص وترى سماء زرقاء مضيئة بسحب متغيرة ، يبدو لها ذلك مجرد خيال ، كرؤية مشهد مرسوم . كان قلبها مسودا جدا ، ومتورطا في التعليم ، وكانت نفسها الذاتية مودعة في السجن ؛ ملغاة . وقد عرضت الى إرادة سيئة مدمرة . فأنّى للسماء أن تكون مشرقة إذن ؟ ليس هناك من سماء ، وليس هناك من جو مضيء خارج الأبواب ، بل داخل المدرسة حسب ، هو الحقيقي والصلب والصلد ؛ حقيقي وشرير .

ومع ذلك فإنه لم يحن الوقت الذي تدع فيه المدرسة تتغلب عليها . كانت تردد دائما « دوام الحال محال ، وسينتهي كل شيء » . كانت تستطيع دائما أن ترى نفسها ماوراء المكان ، وترى الزمن عندما غادرته . وفي أيام الآحاد والعطل ، وعندما تكون بعيدة في كوسثي او في الغابات حيث تكون أوراق الزان تساقطت ، عندها تستطيع أن تفكر في مدرسة كنيسة القديس فيليب . وبقوة الإرادة تضعها في الصورة بأعتبارها بناية قذرة صغيرة واطئة مقرفصة تشكل مرتفعا ضئيلا جدا تحت السماء ، بينما تنتشر غابات الزان العظيمة قريبة من حولها ، ويكون الأصيل رحبا رائعا والأكثر من ذلك ، الأطفال ؛ التلاميذ ، كانوا مخلوقات صغيرة غير مهمة ، بعيدين جدا ، اوه ، بعيدين جدا ، وأية سلطة لهم على روحها الحرة ؟ استغرقت في التفكير بهم ، بينما كانت تشق طريقها خلال أوراق الزان ، وكانوا قد اختفوا . بيد أن إرادتها كانت متوترة ضدهم طوال الوقت

وطوال الوقت كانوا يلاحقونها . لم يتملكها من قبل أبدا مثل هذا الحب المنفعل للأشياء الجميلة المحيطة بها ، وهي تجلس على قمة عربة الترام في المساء . وفي بعض الأحيان ، كانت المدرسة تُكنس بعيدا عندما ترى السماء الرائعة وهي تنخفض ، ونهداها ويداها تضج بالرغبة لتوهج غروب الشمس المحبب ، وكان توقها لها حادا يقترب من التبريح . وكانت تبكي بصوت عال وهي ترى غروب الشمس رائعا الى ذلك الحد . ذلك لأنها كانت محتجزة ، ولم يكن مهما كيف كانت تقنع نفسها بأن المدرسة لن تعود موجودة ما إن تغادرها ، لكنها موجودة ، إنها في داخلها كوزن ثقيل ، تسيطر على حركتها . كان أمراً عديم الجدوى أن تندفع الفتاة الشابة المزهوة المرتفعة المعنويات من المدرسة ومن ارتباطها بها . كانت الآنسة برانغوين ، وكانت معلمة الفصل الخامس القياسي ، وقد وضعت كيانها الأكثر أهمية في عملها الآن .

كان الإحساس بأنها بطريقة ما قد أُذلت ، يلاحقها دائما ، كظلام يحوم فوق قلبها ويهددها بأن ينقض عليها في كل لحظة . وكانت تنكر لنفسها بمرارة أنها معلمة مدرسة حقا اتركي ذلك الى اللواتي يشبهن فيوليت هاربي إنها نفسها ستقف بريئة من الاتهام ، وكان من دون جدوى أن تنكر ذلك .

ففي داخل نفسها عقرب تسجيل يؤشر آليا على الإنكار على ما يبدو إنها غير قادرة على أداء مهمتها ، وتستطيع لحظة أن تهرب من وزن المعرفة القدري . لذلك أحست بالدونية تجاه فيوليت هاربي . كانت الآنسة هاربي معلمة رائعة ، إذ كان بمستطاعها أن تحافظ على النظام ، وأن توصل معرفة الى الفصل بكفاءة ملحوظة . لم تكن هناك فائدة في أن تجد اورسلا لنفسها العذر من أنها متفوقة بشكل لانهائي ، لانهائي على فيوليت هاربي

كانت تدرك أن فيوليت قد نجحت حيث فشلت هي ، وهذا في مهمة تكاد تكون اختبارا لها . كانت تشعر أن ثمة شيئاً يدور في دوامة من حولها طوال الوقت ويتعبها . واستمرت خلال تلك الأسابيع الأولى محاولة أن تنكر الأمر ، وأن تقول إنها حرة مثل ما كانت دائما . وحاولت ألا تشعر بالأذى أمام الآنسة هاربي محاولة أن تحتفظ بتأثير تفوقها ، لكن ثمة ثقلاً هائلاً عليها ، وهو ما تستطيع فيوليت هاربي أن تحمله ، وهي لا تستطيع . ورغم أنها لم تستسلم غير أنها لم تنجح قط . وكان صفها يصبح في وضع أسوأ ، وكانت تعرف نفسها أقل فأقل ثقة في تعليمه هل يجب أن تنسحب وتعود الى البيت مرة أخرى ؟ أم يجب عليها أن تقول إنها جاءت الى المكان الخطأ ، وإنها لذلك تستقيل ؟ كانت حياتها كلها في حالة اختبار .

واستمرت بعناد ، وبعمى تنتظر أزمة وابتدأ السيد هاربي الآن يعاقبها ، وابتدأ خوفها منه وكرهها له ينمو ويبدو أكبر فأكبر كانت خائفة من أنه سوف يتنمر عليها ويدمرها . وابتدأ يعاقبها لأنها لم تستطع الحفاظ على صفها في وضع مناسب ، لأن صفها كان الحلقة الضعيفة في السلسلة التي تكوّن المدرسة .

كانت إحدى التهم أن صفها كان صاخبا يزعج السيد هاربي عندما يدرس الفصل السابع القياسي في النهاية الأخرى من الغرفة .

كانت تصحح مواضيع الإنشاء في أحد الصباحات ، وهي تمشي بين الطلاب . وكان لبعض الطلاب آذان وأعناق قذرة ، وكانت رائحة ملابسهم غير مستحبة ، لكن كان باستطاعتها أن تهمل الأمر ، وكانت تصحح الكتابة وهي تمر وسألت :

ـ عندما تقول : « فروها بني اللون » . كيف تكتب « ها » .

كان هناك توقف قصير ، وكان الأولاد يجيبون بسخرية دائما في مؤخرة الفصل . لقد ابتدأوا يسخرون من السلطة بأكملها .

ـ من فضلك يا آنسة ، هـ ... أ .

تلفظها صبي بصوت عال ، وبنبرة يشوبها التهكم .

في تلك اللحظة كان السيد هاربي يمر من أمام الفصل ، فهتف بصوت جهوري :

ـ انهض يا هل!

أجفل الجميع ، وراقبت اورسلا الصبي كان من الواضح أنه فقير وماكر قليلا ، وثمة خصلة متيبسة من الشعر تنتصب على جبينه مباشرة ، أما بقية شعره فقد التصقت برأسه الضئيل وأصبح شاحبا عديم اللون .

وأرعد السيد هاربي :

ـ من ذا الذي طلب منك الإجابة ؟

رفع الفتى بصره وخفضه بإحساس بالذنب ، وبتحفظ ماكر ساخر ، ورد بالسفاهة المتواضعة ذاتها :

ـ من فضلك يا سيدي ، كنت أجيب عن السؤال .

ـ اذهب الى مكتبي .

خرج الفتى من الغرفة والسترة السوداء تتدلى في طيات معتمة من حوله ، وساقاه النحيفتان مقوستان قليلا عند الركبتين . وابتدأ المسير الذي كان أشبه بزحف معوز ، وقدماه في حذائه الكبير تكادان لا ترتفعان . راقبته اورسلا في تقدمه الزاحف المنسل من

الغرفة . لقد كان أحد صبيانها! عندما وصل الى المكتب نظر من حوله ، شبه مختلس ، في نوع من تكشيرة ماكرة ، ونظرة شزراء محزنة الى الصبيان الكبار في الفصل السابع القياسي ، ثم وهو في حالة يرثى لها ، شاحبا في ملابسه الكئيبة ، تسكع تحت نذير مكتب المدير . وقد انعقفت إحدى ساقيه الهزيلتين عند الركبة ، وبرزت القدم جانبيا ، ويداه في جيبي سترته الرجالية المتدليين الواطئين .

حاولت اورسلا أن تعيد انتباهها الى الفصل . لقد سبّب لها الصبي رعبا طفيفا ، وكانت في الوقت نفسه ساخنة بالرثاء من أجله . وأحست أنها تود الصراخ . لقد كانت مسؤولة عن عقاب الصبي . وكان السيد هاربي ينظر الى يدها التي تكتب على اللوحة ، ثم استدار الى الفصل :

ـ ضعوا الأقلام .

ووضع الأطفال اقلامهم ، ورفعوا أبصارهم .

ـ الذراع ثني .

دفعوا كتبهم الى الخلف ، وثنوا أذرعهم .

علقت اورسلا وسط الأشكال في الخلف ، ولم تستطع تخليص نفسها .

وسأل المدير :

ـ عمَّ يدور إنشاؤكم ؟

وارتفعت الأيادي جميعا

ـ الأ...

تمتم صوت ما في لهفة للإجابة

ـ لن أنصحك بأن تجيب .

قال السيد هاربي الذي كان يمكن أن يكون له صوت مسر ، ممتلئ وموسيقي لولا الوعيد الممجوج الذي يذيله به دوما . وقف ساكنا ، وعيناه تطرفان تحت حاجبيه الأسودين الكثين ، يراقب الفصل . كان ثمة شيء مدهش فيه ، وهو يقف هناك ومرة أخرى أرادت أن تصرخ ، وانخضت بأكملها ، ولم تعرف بماذا كانت تشعر .

قال :

ـ حسن يا أليس ؟

زعق صوت الطفلة :

ـ الأرنب .

ـ موضوع سهل جدا للصف الخامس القياسي .

شعرت اورسلا بخزي ضئيل بسبب عدم أهليتها لقد كُشفت أمام الفصل ، وكانت تتمزق من تناقضات كل شيء . كان السيد هاربي يقف قويا جديا ذكوريا جدا ، بحاجبيه الأسودين وجبينه البارز ، وفكه الثقيل ، وشاربه الكبير المتهدل : مثل هذا الرجل ، بهذه القوة والقدرة الذكوريتين ، وبهذا الجمال البدائي الأعمى المعين ، كان من المحتمل أن تحبه كرجل ، وها هو يقف هنا بمقدرة أخرى ، يتنمر على أمر تافه ، كأن يتحدث طالب دون إذن .

ومع ذلك ، فإنه لم يكن رجلا ضئيلا . كان ، على ما يبدو ، يمتلك روحا قاسية عنيدة شريرة ، وكان رهين مهمة ضئيلة ووضيعة في نظره ، غير أنه ، مع ذلك ، ينفذها بإذعان ذليل ، لأن عليه أن يكسب عيشه . لم تكن لديه سيطرة أنبل على نفسه ، بل تلك الرغبة الكلية العمياء العنيدة حسب ، وهو سوف يستمر في هذه المهنة ، لأن عليه ان يفعل ذلك . وكانت وظيفته ان يجعل الأطفال يتلفظون كلمة (حذر) على نحو صحيح ، وأن يضعوا حرفا كبيرا بعد النقطة ، لذلك فإنه كان يطرق بكل كرهه المكبوت من أجل تحقق هذا ، كابتا نفسه طوال الوقت ، حتى ضاق ذرعا بها . ولقد عانت اورسلا بمرارة بينما كان يقف قصيرا وسيما مؤثرا يعلم صفها . وكان يبدو وكأنه أمر تعيس بالنسبة إليه يفعله . كانت له روح موقرة مؤثرة فجة . ما الذي يهمه من إنشاء حول الأرنب ؟ ومع ذلك ، فإن إرادته ابقته هناك ، أمام الفصل ، يدرس الموضوع التافه . لقد أصبحت بمثابة عادة بالنسبة إليه الآن أن يكون صغيرا ومبتذلا على هذا النحو ، وأن يكون غريبا في موضعه ورأت خزي وضعه ، وأحست بالشر المكبل فيه ، والذي سيومض في غيظ شيطاني على المدى البعيد ، فكأنه مخلوق عنيد قوي مقيّد . كان الأمر لا يطاق حقا ، وكانت السخرية تعذيبا لها . وتأملت الفصل الصامت المنتبه الذي بدا قد تبلور في نظام وفي شكل صلب محايد . كان بمقدوره أن يفعل هذا ، أن يبلور الأطفال الى كسارة صلبة بكماء ، مثبتة تحت إرادته ؛ إرادته البهيمية التي تثبتهم بالقوة المجردة عليها ان تتعلم ايضا كيف تخضعهم لإرادتها ، يجب أن تفعل ذلك ، لأن ذلك واجبها ، مادامت المدرسة على هذه الحال . لقد بلور الفصل الى نظام ، لكن أن تراه رجلا قويا مؤثرا يستعمل كل قدرته لغرض مثل هذا ، بدا أمرا مرعبا . كان ثمة شيء بشع بشأنه . كان الضوء الغريب البشوش في عينه شريرا وقبيحا في الواقع ، كما أن ابتسامته كانت من النوع المعذّب ليس بمقدوره أن يتجرد عن ذاته ، ولا يستطيع أن يكون له هدف واضح نقي ، وليس

بمقدوره سوى أن يفرض إرادته البهيمية حسب . إنه لا يؤمن على الإطلاق بالتربية التي يستمر بفرضها سنة بعد أخرىً على الأطفال ، لذلك يجب عليه أن يتنمر حسب ، حتى عندما يعذب ذلك طبيعته الكلية القوية بخزي كمهماز يصعب احتماله دوما . كان أعمى قبيحا وفي غير موضعه تماما . ولم تستطع اورسلا أن تتحمل الأمر ، بينما يقف هناك كان الموقف بأكمله خطأ وقبحاً .

انتهى الدرس ، وغادر السيد هاربي . وفي نهاية الغرفة البعيدة ، سمعت صفير العصا وضجتها . وتوقف قلبها ساكنا . لم تستطع أن تتحمل الأمر . لا ، لا إنها لا تستطيع أن تتحمل عندما يُضرب صبي ، فذلك يجعلها تشعر بالغثيان . وأحست أن عليها أن تخرج من هذه المدرسة ؛ مكان التعذيب هذا . وكرهت مدير المدرسة كرهاً تاماً ونهائياً . البهيمي ، ألا يخجل ؟ يجب ألا يُسمح له أن يستمر في شناعة هذه القسوة المتنمرة . ثم عاد (هل) زاحفا ، منتحبا في حالة يرثى لها . كان ثمة شيء بائس بشأن هذا النحيب كاد أن يحطم قلبها . ذلك لو انها بعد كل شيء ، لو أبقت صفها في حالة الإنضباط المطلوب لما حدث هذا أبدا ، لما استُدعي (هل) ولا جُلد أبدا .

ابتدأت درس الرياضيات ، بيد أنها كانت منشدهة . جلس الصبي (هل) على المنضدة الأخيرة ، جثم منتحبا ماصّاً يده ومر وقت طويل ، ولم تتجرأ على الاقتراب منه او التحدث إليه . أحست بالخزي أمامه ، وأحست انها لن تستطيع أن تغفر للفتى كونه المادة الجائمة المنتحبة ، مبللا يسيل أنفه ، كما كان .

استمرت تصحح مسائل الحساب ، ولكن كان هناك العديد من الأطفال وهي لا تستطيع أن تدور في الفصل بأكمله . وكان (هل) يثقل ذهنها . وفي النهاية ، توقف عن النحيب ، وجلس ضاما يده ، لاعبا بهدوء ، ثم رفع بصره إليها . كان وجهه قذرا مبللا بالدموع ، ولعينيه نظرة غريبة مغسولة ، كالسماء بعد المطر ، نوع من الشحوب . لم يكن يحمل أي مكر . ولقد نسي مسبقا ، وكان ينتظر أن يعاد الى الوضع الطبيعي

قالت له :

ـ استمر بعملك يا (هل) .

كان الأطفال يتسلون بمسائل الحساب ، وكانت تعرف أنهم كانوا يغشون جميعا . وكتبت مسألة أخرى على اللوح ، ولم تستطع أن تدور في الفصل بأكمله . وذهبت مرة أخرى الى المقدمة كي تراقب . كان بعضهم جاهزا ، والآخرون ليسوا كذلك . ما الذي يجب عليها أن تفعله ؟

ثم حل وقت الإستراحة . أعطت الأمر بالتوقف عن العمل . وبطريقة او أخرى أخرجت صفها من الغرفة ، ثم واجهت كومة الدفاتر غير المرتبة ، الملطخة ، غير المصححة ، والمساطر المكسورة ، والأقلام الممضوغة ، وغطس قلبها بالغثيان ، فالتعاسة تزداد عمقا .

واستمرت المشاكل يوما بعد آخر . كان لديها دائما أكداس من الدفاتر التي يجب أن تفحصها ، وأعداد ضخمة من الأخطاء التي يجب أن تصححها ، مهمة متعبة للقلب اشمأزت منها . وأصبح العمل يزداد سوءا شيئا فشيئا . وعندما حاولت أن تطري نفسها بالقول إن الإنشاء أصبح أكثر حيوية وإثارة . كان عليها أن تلاحظ أن الخط أصبح مهملا أكثر فأكثر ، والدفاتر قذرة ومخزية . حاولت قدر استطاعتها ، لكن لم تكن ثمة فائدة ترتجى ، بيد أنها لن تأخذ الأمر على محمل الجد لماذا يتحتم عليها ذلك ؟ لماذا يجب أن تقول لنفسها إن ذلك يهم اذا فشلت في أن تعلم الفصل أن يكتب بأناقة تامة ؟ لماذا تضع اللوم على نفسها ؟

وحلَّ يوم الراتب ، واستلمت أربعة جنيهات وشلنين وبنساً واحداً . وكانت مزهوة جدا ذلك اليوم ، فلم تحصل على هذا القدر من النقود من قبل أبدا ، ولقد كسبته كله بنفسها ، وجلست في الدور العلوي من عربة الترام متلمسة العملات الذهبية ، خائفة أن تفقدها . أحست نفسها ثابتة جدا وقوية بسبب ذلك . وعندما عادت الى البيت قالت لأمها :

ـ اليوم يوم الراتب يا أمي .

قالت الأم بفتور :

ـ نعم .

ثم وضعت اورسلا خمسين شلنا على المائدة وقالت :

ـ هذه نفقة إسكاني وإطعامي .

وردت الأم تاركة النقود في موضعها :

ـ نعم .

تألمت اورسلا ، ومع ذلك ، دفعت فرضتها ، وكانت حرة . لقد دفعت مقابل ما حصلت عليه ، وبقي معها ما يزيد على الإثنين وثلاثين شلنا لها إنها لن تنفق أياً منها هي التي كانت مسرفة بطبعها ، لأنها لم تكن تطيق فكرة أن تدمر ذهبها الرائع .

إن لها أرضا صلبة تقف عليها قريباً من والديها . إنها شيء ما الى جانب أنها ابنة وليم وآنا برانغوين . لقد كانت مستقلة . لقد كسبت عيشها ، وهي عضو مهم في المجموعة العاملة . كانت متأكدة من أن خمسين شلنا في الشهر تسدد نفقاتها تماما . فلو أن أمها

استلمت خمسين شلنا عن كل واحد من الأطفال لكانت تستلم عشرين جنيها في الشهر ، وليس عليهم أن يزودوها بالملابس . حسن جدا إذن

أصبحت اورسلا مستقلة عن والديها . إنها ملتصقة الآن بمكان آخر ، والآن فإن دائرة التعليم أصبحت عبارة تبدو ذات أهمية بالنسبة إليها وأحست أن (وايت هول) بعيدة عنها باعتبارها بيتها النهائي . وفي الحكومة ، كانت تعرف أي الوزراء له السلطة العليا على التعليم ، وبدا لها ، أنه بطريقة ما مرتبط معها ، مثل ما يرتبط والدها بها .

أصبحت لها نَفْسٌ أخرى ومسؤولية أخرى ولم تبق اورسلا برانغوين ، ابنة وليم برانغوين فترة أطول . إنها أيضا معلمة الفصل الخامس القياسي في مدرسة القديس فيليب ، وإنها لحالة الآن أن تكون معلمة الفصل الخامس القياسي ولا شيء آخر ، ذلك لأنها لا تستطيع الهرب . ولم يكن باستطاعتها أن تنجح أيضا . وكان ذلك رعبها . وكلما مرت الأسابيع ، لم تكن هناك اورسلا برانغوين حرة وسعيدة ، بل هناك فتاة تحمل ذلك الاسم تقلقها حقيقة أنها لا تستطيع أن تدير صفها من الأطفال حسب وفي نهايات الأسابيع ، تحل أيام رد فعل انفعاليّ ، عندما تجن بالإحساس بالحرية ، عندما تكون حرة في الصباح حسب ، كي تجلس لمطرزاتها وأن تدرز الحرير الملون ، كان ذلك هوى من المتعة . لأن السجن كان في انتظارها دوما ، وكان ذلك مجرد إرجاء ، مثل ما كان قلبها المقيد يدرك ذلك جيدا . لذلك تشبثت بساعات نهايات الأسابيع السريعة ، لتعصر آخر قطرة من الحلا وة منها في سعار قاس ضئيل

ولم تقص على أي كان كيف أن هذه الحالة تعذبها . لم تبح بسرها لا الى غدرون ولا الى والديها عن الكيفية التي اكتشفت بها كم هو مرعب أن تكون معلمة مدرسة . وعندما تحل ليلة الأحد ، وتشعر أن صباح الإثنين على الأبواب ، كانت تتوتر بشدة بتوقع مرعب ذلك لأن الإجهاد والتعذيب أصبحا قريبين مرة أخرى .

لم يدر بخلدها أنها تستطيع أن تدرس ذلك الفصل البهيمي المبتذل في تلك المدرسة القاسية ، أبدا ، أبدا . ومع ذلك ، إذا فشلت فإنها يجب أن تنهار بطريقة ما يجب عليها أن تعترف أن عالم الرجل قوي جدا في نظرها ، وهي لا تستطيع أن تحتل مكانها فيه . عليها أن تنهزم أمام السيد هاربي . وطوال حياتها ، منذ الآن ، يجب أن تستمر دون أن تحرر نفسها ابدا من عالم الرجال ، دون أن تحقق حرية عالم العمل المسؤول الشاسع . لقد احتلت ماغي مكانها هناك ، فلقد وقفت ندا للسيد هاربي ، وتحررت منه ، وروحها تتجول دائما في وديان نائية ، وفي ممرات الشعر . كانت ماغي حرة ، ومع ذلك ، فإن ثمة شيئاً ما

يشبه الخضوع في حرية ماغي ذاتها   فالسيد هاربي ؛ الرجل لا يحب المرأة المتحفظة ؛ ماغي ، لكن السيد هاربي المدير يحترم معلمته ؛ الآنسة سكوفيلد

وفي الوقت الحاضر ، كانت اورسلا ، مع ذلك ، تحسد ماغي ، وتعجب بها . إن عليها أن تذهب الى حيث ذهبت ماغي . لم يزل عليها أن تثبت موطئ قدمها . لقد احتلت موقعا على أرض السيد هاربي . ويجب أن تحتفظ به ، ذلك لأنه ابتدأ هجوما منظما عليها كي يخرجها من المدرسة ، لأنها لا تستطيع المحافظة على النظام ، وأن صفها حشد مضطرب ، وهو البقعة الأضعف في عمل المدرسة ، لذلك يجب عليها أن تذهب ، وأن يحل محلها شخص أكثر فائدة ؛ شخص ما قادر على الضبط .

وضع المدير نفسه في سورة غضب ضدها . كان يريدها أن تذهب فقط . لقد جاءت ثم ازدادت سوءا بمرور الأسابيع ، وهي ليست بذات نفع أبدا . إن نظامه ، الذي يمثل حياته ذاتها في المدرسة ، ناتج حركته الجسدية ، قد هوجم وهدد في النقطة التي ضمت فيها اورسلا إليه   إنها الخطر الذي يهدد الجسد بضربة ، بسقطة ، وبعمى ، وبشكل كلي ، كان يتحرك بغريزة معارضة قوية ، شرع يعمل كي يطردها .

عندما كان يعاقب تلاميذها مثل ما عاقب الصبي (هل) بسبب إساءة موجهة الى شخصه ، فإنه كان يجعل العقوبة شديدة بصورة استثنائية بإشارة مفادها أن الضرب الإضافي قد جاء بسبب المعلمة الضعيفة التي سمحت لكل هذه الأشياء بأن تحدث . وعندما كان يعاقب على إساءة موجهة إليها ، كان يعاقب عقابا خفيفا ، كما لو أن الإساءة إليها ليست بالأمر الهام ، وهو أمر أدركه الأطفال جميعا ، وتصرفوا وفقا له .

وبين فترة وأخرى ، كان السيد هاربي ينقض كي يتفحص دفاتر التمارين . وطوال ساعة كاملة ، كان يدور في الفصل ، آخذا دفترا بعد آخر ، مقارنا صفحة بعد أخرى ، بينما تقف اورسلا جانبا ، ذلك لأن كل الملاحظات والعثور على الأخطاء يجب أن توجه إليها ، وسط التلاميذ . كان أمرا صحيحا أنها منذ أن جاءت ، أصبحت دفاتر الإنشاء غير مرتبة ، شعثاء وقذرة على نحو متزايد . وكان السيد هاربي يشير الى الفحوص التي أُنجزت قبل مجيئها ، والى تلك التي أنجزت بعد ذلك ، ويقع في انفعال من الغيظ . وكان يرسل العديد من الأطفال مع دفاترهم الى المقدمة . وبعد أن يمر خلال الفصل الصامت المرتجف بأكمله ، كان يجلد أسوأ المسيئين أيضا أمام الآخرين ، مرعدا في انفعال حقيقي من الغضب والكدر :

ـ أنا لا أستطيع تصديق وجود مثل هذه الأوضاع في فصل . إن ذلك ببساطة أمر مشين! أنا لا أستطيع أن أفكر كيف تُركتم لتصلوا الى هذا الدرك! سآتي صباح كل إثنين ، وأتفحص

هذه الدفاتر . لذا لا يدورنَّ بخلدكم ، أن ليس هناك من يهتم بأمركم ، وأن تكونوا أحرارا في أن تنسوا كل شيء تعلمتموه من قبل ، وتتراجعوا الى الخلف ، حتى لا تعودوا مناسبين حتى للفصل الثالث القياسي ، سأتفحص كل الدفاتر كل إثنين .

ومن ثم ، وفي سخط ، ذهب مع عصاه ، تاركا اورسلا تواجه الفصل الشاحب المرتجف الذي أغلقت وجوهه الطفولية في استياء أجوف وخوف ومرارة ، ممن كانت أرواحهم ممتلئة بالغضب والازدراء تجاهها وليس تجاه المدير ، ممن نظرت عيونهم إليها باتهام طفولي لاإنساني بارد . وكادت لا تقدر على إصدار كلمات آلية كي تتحدث إليهم . وعندما أعطتهم أمرا أطاعوها بوقاحة ، كما لو أنهم يقولون : «لو تعلق الأمر بك فلا تتصوري أننا نطيعك ، إننا نفعل ذلك خشية المدير» . أرسلت اورسلا الأولاد المنتحبين المجلودين الى مقاعدهم ، عارفة أنهم سخروا منها أيضا ، ومن سلطتها ، معتبرين ضعفها مسؤولاً عن العقوبة التي حلت بهم وكانت تعرف الوضع بأكمله حتى أن رعبها من الضرب الجسدي والمعاناة غطس في ألم دفين ، وأصبح حكما أخلاقيا عليها أسوأ من أي أذى .

يجب عليها خلال الأسبوع القادم أن تراقب دفاتر طلابها ، وتعاقب على أية أخطاء تعثر عليها . قررت روحها الأمر بفتور ، فلقد ماتت رغبتها الشخصية لما تبقى من ذلك النهار في الأقل . يجب ألا تبقي المزيد من نفسها في المدرسة بعد الآن ، بل يجب أن تكون معلمة الفصل الخامس القياسي حسب ، فذلك هو واجبها فهي في المدرسة ، لا شيء غير معلمة الفصل الخامس القياسي ، وعلى اورسلا برانغوين أن تبعد .

وهكذا شاحبة منغلقة ، وفي النهاية بعيدة ولاذاتية ، لم تعد ترى الطفل الآن ، وكيف رقصت عيناه او كيف أن له روحا غريبة صغيرة لا يمكن أن تنزعج بتشكيل الخط مادام هو يخربش ما يعتقد به . لم تعد ترى الأطفال ، بل المهمة التي يجب ان تنجزها . مبقية عينيها هناك على المهمة ، وليس على الطفل ، تخلت عن ذاتها بدرجة كافية لتعاقب في اللحظات التي لا تستطيع فيها في ظروف أخرى سوى أن تتعاطف وتتفهم وتغفر ، وأن تستحسن في المناسبات التي تبدو مجردة غير مهتمة من قبل ، ولكن لم يعد لاهتمامها مكان بعد ذلك .

كان بمثابة تبريح لفتاة متألقة مندفعة في السابعة عشرة من عمرها أن تكون متباعدة ورسمية في التعامل ، ليس لها علاقة شخصية بالأطفال . وطوال بضعة أيام ، بعد تبريح يوم الإثنين ، نجحت وحققت بعض التقدم مع صفها ، بيد أنها لم تكن حالة طبيعية لها ، وابتدأت تسترخي .

ثم حلت ضربة أخرى ، فلم يكن هناك ما يكفي من الأقلام في الفصل ، فأرسلت تطلب المزيد من السيد هاربي الذي جاء شخصيا .

قال لها بالابتسامة والهدوء اللذين يتجاوزان الغيظ ضدها :

ـ الأقلام ليست كافية يا آنسة برانغوين ؟

فردت مرتجفة :

ـ بلى ، نحن بحاجة الى ستة أقلام .

ـ اوه ، وكيف ذلك ؟

رد بمكر ثم نظر الى الفصل وسأل :

ـ كم عدد الحاضرين اليوم ؟

قالت اورسلا :

ـ إثنان وخمسون .

ولكنه لم يهتم ، وابتدأ يعد بنفسه .

ـ إثنان وخمسون . قال : وكم قلما هناك يا ستابل ؟

كانت اورسلا صامتة الآن فهو لن يلتفت إليها لو أجابت لأنه خاطب مراقبها .

ـ ذلك أمرغريب .

قال السيد هاربي وهو يتطلع الى الفصل الصامت بتكشيرة هياج طفيفة . وارتفعت إليه كل الوجوه الطفولية خالية ومكشوفة .

ـ قبل بضعة أيام كان هناك ستون قلما في هذا الفصل . ثمانية وأربعون . ما نتيجة ستين ناقصا ثمانية وأربعين يا وليم ؟

كان ثمة ترقب مشؤوم في السؤال . قفز صبي نحيف له وجه ابن مقرض* ، يرتدي زي بحار على نحو مبالغ فيه .

ـ من فضلك يا سيدي .

قال ، ثم حلت تكشيرة بطيئة ماكرة على وجهه ، فهو لا يعرف . وكان ثمة صمت متوتر . أطرق الصبي ، ثم رفع بصره مرة أخرى ، وفي عينيه نصر ماكر ضئيل ، وقال :

ـ اثنا عشر .

رد المدير مهددا مخطرا :

---

* ابن مقرض والجمع بنات مقرض حيوانٌ شبيه بابن عرس وآلف منه وأكبر ، أبيض اللون ضارب الى الصفرة .

ـ أنصحك أن تنتبه .

وجلس الصبي .

ـ ستون ناقصا ثمانية وأربعين يساوي اثنا عشر ، لذلك فإن هناك اثني عشر قلما يجب أن يفسر سبب اختفائها . هل بحثت عنها يا ستابل ؟

ـ نعم يا سيدي .

ـ إذن ابحث مرة أخرى .

واستمر المشهد . عُثِر على قلمين ، وعشرة كانت مفقودة . عندها انفجرت العاصفة ، وابتدأ المدير قائلا :

ـ هل تريدونني أن أقبل بسرقتكم الى جانب قذارتكم وأدائكم السيئ وسلوككم المزري ؟ ألم تكتفوا بكونكم الفصل الأسوأ مسلكا والأقذر في المدرسة فتكونون فوق ذلك لصوصا ؟ إنه لأمر مضحك جدا! فالأقلام لا تذوب في الهواء ، وليس من عادة الأقلام أن تختفي في العدم ، فما الذي آلت إليه إذن ؟ لابد أنها موجودة في مكان ما . ما الذي آلت إليه ؟ لأنه يجب أن يُعثر عليها ، ويُعثر عليها من قبل الفصل الخامس القياسي ، لقد فُقدت من قبل الخامس القياسي ، ويجب أن يجدوها بأنفسهم .

وقفت اورسلا وأصغت كان قلبها صلبا باردا . وكانت منزعجة جدا حتى أحست أنها توشك على الجنون . وأغراها شيء ما في داخلها أن تستدير صوب المدير وتطلب منه أن يتوقف عن الحديث عن الأقلام التعيسة ، بيد أنها لم تفعل ، لم تستطع .

وبعد كل درس ، صباحا ومساء ، كانت الأقلام تُعدّ بعدها ومع ذلك ، كانت ماتزال مفقودة . وكانت الأقلام والمماسح تختفي وكانت تؤخر خروج الفصل حتى يعثر على الأشياء ، ولكن حالما يغادر السيد هاربي الغرفة ، يبدأ الأطفال يقفزون ويصرخون . وفي النهاية يفرون زرافات من المدرسة .

كان ذلك اقترابا من أزمة ، ولم يكن بمقدورها أن تخبر السيد هاربي ، لأنه بينما يعاقب الفصل ، فإنه سيجعل منها سبب العقاب ، وسيرد عليها صفها بعدم الطاعة والسخرية وثمة عداء مسبق ينمو بينها وبين الأطفال فأثناء بقائها في الفصل مساء ، كيما تنجز بعض الأعمال ، كانت تجد بعض الأطفال يتلكأون خلفها وينادونها :

ـ برانغوين ، برانغوين ، يا ذات المؤخرة المختالة

وعندما ذهبت الى اليكستون صباح يوم الأحد برفقة غدرون ، سمعت الأصوات تصرخ خلفها :

ـ برانغوين ، برانغوين!

تظاهرت بعدم الاهتمام ، بيد أنها توردت خجلا من أن يُسْخرَ منها في شارع عام هي ؛ اورسلا برانغوين من كوسثي ، لا تستطيع الهرب من معلمة الفصل الخامس القياسي التي كانتها . ودون جدوى ، خرجت لتشترى شريطا لقبعتها ، فكان الأطفال الذين حاولت أن تعلمهم ينادون خلفها .

وفي إحدى الأمسيات ، عندما كانت متوجهة من ضاحية المدينة الى الريف ، انهمرت الأحجار متساقطة عليها . بعدها بزها انفعال الخزي والغضب ، فسارت غير ملتفتة ، مستشيطة غضبا وبسبب الظلام ، لم تستطع أن تتبين أولئك الذين كانوا يرجمونها ، بيد أنها لم تكن تريد أن تعرف .

لكن في سويداء روحها حسب ، حدث تغير . لن تعطي بعد الآن أبدا ، وأبدا بعد الآن لن تعطي نفسها كفرد لصفها ، أبدا ، لن تكون اورسلا برانغوين ، الفتاة التي كانت عليها ، الشخص الذي كانته . لن تكون في تماس مع أولئك الصبيان . ستكون معلمة الفصل الخامس القياسي . ستكون بعيدة في شخصها عن الفصل ، كما لو أن قدمها لم تطأ مدرسة القديس فيليب . سوف تمحو ملامحهم جميعا ، وتبقي نفسها جانبا ، وتعاملهم كتلاميذ حسب .

وهكذا انغلق وجهها أكثر فأكثر ، وفوق روحها الموبخة المكشوفة التي تعود لفتاة كانت منفتحة ودافئة كي تمنح نفسها للأطفال ، استقر شيء صلد متبلد الإحساس ، يعمل آليا وفق النظام المفروض .

كانت تبدو كأنها لم تر فصلها في اليوم التالي إلا لماما . كانت تستطيع فقط الإحساس بإرادتها ، وما تريده من هذا الفصل الذي يجب أن تخضعه . لم يكن ملائما بعد الآن أن تتوسل ، وأن تستغل أحاسيس الفصل الأفضل . لقد أدركت روحها التي كانت سريعة العمل ذلك

إنها كمعلمة يجب أن تخضعهم جميعا كتلاميذ ، وهذا ما سوف تفعله ، وستهجر ما عداه . لقد أصبحت صلبة ولاذاتية ، تكاد تكون مملوءة بالانتقام من نفسها ومنهم أيضا منذ رمي الأحجار . لم ترغب في أن تكون شخصا ، أن تكون نفسها فترة أطول ، بعد مثل هذا الإذلال ، بل ستؤكد نفسها في السلطة ، أن تكون معلمة حسب . ولقد شرعت الآن وسوف تقاتل وتخضع .

كانت عرفت الآن اعداءها في الفصل . وكان الشخص الذي تكرهه أكثر هو (وليم) كان نوعا من متخلف ، ليس رديئا بما فيه الكفاية كي يعزل إذ كان بمقدوره أن يقرأ بطلاقة ، ويمتلك قدرا كبيرا من الذكاء الماكر ، بيد أنه لا يستطيع البقاء ساكنا . وكان

مصابا بنوع من المرض الذي يثير كثيرا اشمئزاز فتاة حساسة شيء ما ماكر وهزيل ومنحل . رمى مرة دواة حبر عليها خلال إحدى نوبات جنونه الصغيرة ، وهرب مرتين من الفصل الى البيت . وكان شخصا معروفا جيدا

وكان يسخر قي سره من هذه الفتاة المعلمة . وفي بعض الأحيان ، كان يدور من حولها كي يتزلف إليها ، بيد أن هذا جعلها تكرهه أكثر . وكان يمتلك نوعا من قدرة العَلَقة .

أخذت من أحد الأطفال عصا لدنة ، وصممت أن تستعملها عندما تحين حاجتها الحقيقية . وفي أحد الصباحات ، في أثناء درس الإنشاء ، قالت للصبي (وليم) :

ـ لماذا صنعت هذه اللطخة ؟

ـ من فضلك يا آنسة ، لقد سقطت من قلمي .

انتحب بالصوت الماكر الذي يجيد استعماله وكاد الأطفال أن يصهلوا بالضحك ، ذلك لأن وليم كان ممثلا ، بمقدوره أن يدغدغ أحاسيس سامعيه بمهارة ، وخصوصا أن بمستطاعه أن يحرض الأطفال معه كي يسخروا من معلمته ، او في الحقيقة من أية سلطة لا يخشاها . كانت له غريزة السجن تلك .

قالت المعلمة :

ـ إذن يجب أن تبقى وتنهي صفحة أخرى من الإنشاء .

كان ذلك ضد إحساسها المعتاد بالعدالة ، ولقد رفضه الطفل بسخرية .

وفي الساعة الثانية عشرة ، أمسكت به يتسلل خفية .

قالت له :

ـ وليم ، اجلس .

وهناك جلست ، وجلس وحيدا قبالتها على المنضدة الأخيرة ، ناظرا إليها بعينيه الماكرتين في كل لحظة .

وهتف بها بوقاحة :

ـ من فضلك يا آنسة ، يجب أن أذهب في مهمة .

قالت اورسلا :

ـ اجلب لي دفترك .

جاء الصبي وهو يصفع دفتره على المناضد . ولم يكن كتب سطرا واحدا .

قالت اورسلا :

ـ عد الى مكانك واكتب ما عليك أن تكتبه .

وعادت الى الجلوس على منضدتها ، محاولة تصحيح الدفاتر . كانت مرتجفة ومنزعجة . وطوال ساعة ، كان الفتى التعيس يتلوى ويكشر في مقعده . وفي نهاية ذلك الوقت ، كان كتب خمسة سطور .

قالت اورسلا :

ـ الوقت متأخر الآن ، سوف تنهي البقية هذا المساء .

شق الولد طريقه بوقاحة عبر الممر

حل الأصيل مرة أخرى . وكان وليم هناك ، يلقي نظرات عليها ، وخفق قلبها مهموما ، لأنها عرفت أنه القتال بينهما ، فظلت تراقبه .

أثناء درس الجغرافية ، وبينما كانت تشير الى الخارطة بعصاها ، كان الفتى يحني باستمرار رأسه المبيض تحت المنضدة ، جالبا انتباه الأولاد الآخرين .

ـ وليم .

قالت له مستجمعة شجاعتها ذلك لأنه كان موقفا محرجا أن تتحدث إليه الآن : ماذا تفعل ؟ رفع وجهه ، وكانت العينان المتقرحتان عند الحواف شبه مبتسمتين كان شيء مشين على نحو جوهري فيه ، فانكمشت اورسلا .

شاعرا بالانتصار ، أجاب :

ـ لا شيء .

فكررت ووجيب قلبها يخنقها .

ـ ما الذي تفعله ؟

ـ لا شيء .

رد الصبي بوقاحة ، مظلوما وساخرا .

قالت له .

ـ إذا تحدثت إليك ، فيجب أن تذهب الى السيد هاربي

لكن هذا الفتى كان ندا حتى للسيد هاربي . كان لجوجا جدا ، منكمشا ومرنا . وكان يعوي عندما يكون متأذيا ، حتى أن المدير كان يكره المعلمة التي ترسله أكثر من كرهه للصبي نفسه ، ذلك لأنه قد سئم رؤيته ، وهو أمر كان وليم يعرفه ، فكشر بصورة واضحة

استدارت اورسلا الى الخارطة مرة أخرى كي تستمر بدرس الجغرافية ، ولكن كان ثمة هياج في الفصل . لقد أصابتهم روح وليم بالعدوى جميعا وسمعت مشاجرة ، وارتجفت في داخلها ، فلو أنهم استداروا عليها هذه المرة ، فإنها ستكون قد هزمت .

وهتف صوت في يأس :

ـ من فضلك يا آنسة!

استدارت من حولها ، وكان أحد الصبيان الذين تحبهم يمسك ، على نحو يرثى له ، ياقة سلولويد ممزقة . وسمعت الشكوى ، وأحست باللاجدوى .

قالت :

ـ إذهب الى المقدمة .

كانت ترتجف في كل عصب من جسمها . ومشى مترهلا ، فتى بدين ، ليس سيئا ولكنه شديد المراس جدا الى المقدمة . تابعت الدرس ، مدركة ، أن وليم كان يسخر بحركات وجهه من رايت ، وأن رايت كان يكشر خلفها . كانت خائفة . واستدارت الى الخارطة مرة أخرى ، وكانت خائفة .

ـ من فضلك يا آنسة ، وليم...

ندّت صرخة حادة ، بينما كان يقف فتى من الفصل الأخير ، بحاجبين متألمين متقاربين ، وشبه تكشيرة على وجهه ، وشبه سخط حقيقي ضد وليم :

ـ من فضلك يا آنسة . لقد قرصني .

وفرك ساقه على نحو يرثى له .

قالت :

ـ تعال الى المقدمة ياوليم .

جلس الفتى الشبيه بالفأرة بابتسامته الشاحبة ولم يتحرك .

فأعادت مؤكدة الآن :

ـ تعال الى المقدمة .

ـ لن أفعل .

هتف مزمجرا كفأرة ، مكشرا . وتكّ شيء ما في روح اورسلا ، وجمد وجهها وعيناها ، فسارت في الصف على نحو مستقيم . انكمش الصبي أمامها بعينين ثابتتين محملقتين ، بيد أنها تقدمت نحوه ، وأمسكت به من ذراعه وسحبته من مقعده تعلق بالمقعد ، وكانت معركة بينه وبينها . وأصبحت غريزتها فجأة هادئة وسريعة . رجّته من قبضته ، وسحبته مكافحا رافسا الى المقدمة . رفسها عدة مرات ، وتعلق بالمناضد التي يمر بها ، بيد أنها استمرت . ووقف الطلبة على أقدامهم في حالة إثارة . ولقد رأت ذلك لكنها لم تقم بأية حركة .

أدركت أنها لو سمحت للطالب بالذهاب فإنه سيندفع نحو الباب . ولقد سبق له الفرار من صفها مرة ، لذلك التقطت عصاها من المنضدة وأهوت بها عليه ، وكان يتلوى ويرفس . ورأت وجهه تحتها أبيض ، بعينين كعيني سمكة حجريتين ، لكنْ ، مملوءتين بكره وخوف سريعين ولقد اشمأزت منه ، ذلك الشيء الملتوي الشنيع الذي كان كثيرا عليها تقريبا . وفي رعب ، مخافة أن يتغلب عليها ، بينما كانت هادئة القلب ، أهوت بالعصا عليه مرة بعد أخرى ، بينما كان يكافح مصدرا ضجيجا أبكم ، ودافعا برفسات وحشية صوبها . وبيد واحدة ، تمكنت من الإمساك به وبين فترة وأخرى كانت العصا تهوي عليه ، وكان يتلوى كشيء مجنون ، لكن ألم الجلدات حزَّ خلال شجاعته الجبانة الوحشية الملتوية ، أعمق قليلا ، حتى وهن في النهاية بنشيج طويل تحول الى صرخة ، فتركته ، وعندها اندفع نحوها وأسنانه وعيناه تومضان . وكان ثمة رعب مبرح ثان في قلبها ، إذ كان مخلوقا متوحشا . ومن ثم أمسكت به ، وهوت بالعصا عليه بضع مرات . وبجنون وسعار اندفع وتلوى كي يركلها ، ولكن مرة أخرى قصمته العصا ، فتهاوى بصرخة عواء على الأرض ، وكوحش مضروب اضطجع هناك يصرخ .

وصل السيد هاربي مندفعا عند نهاية هذا المشهد ، وهدر قائلا :

ـ ما الأمر ؟

أحست اورسلا كما لو أن شيئا ما يوشك على التحطم في داخلها .

ـ لقد جلدته .

قالت ، وكان صدرها يرتجف ، قاسرة الكلمات ، ومع النفس الأخير . وقف المدير مختنقا بالغيظ ، عادم الحيلة ، ونظرت الى المخلوق الملتوي المنتحب على الأرضية وقالت :

ـ إنهض .

انكمش الشيء بعيدا عنها ، فتقدمت خطوة نحوه . لقد أدركت وجود المدير ثانية ، ثم نسيت الأمر مرة أخرى ، وقالت .

ـ إنهض .

وبوثبة صغيرة كان الصبي على قدميه ، وتحول صراخه الى نحيب مجنون وتملكه سعار ، قالت .

ـ إذهب وقف قرب المدفأة .

وكما لو بطريقة آلية ، ذهب هناك منتحبا .

وقف المدير مسلوب الحركة والحديث . كان وجهه أصفر ، ويداه ترتعشان بتشنج ،

لكن اورسلا وقفت متصلبة ليس بعيدا عنه . لا شيء يمكن أن يلمسها الآن . لقد أصبحت بعيدة عن متناول السيد هاربي . كانت كما لو أنها قد دُنست الى لحظة موتها .

همهم المدير بشيء ما ، ثم استدار على عقبيه وغادر الغرفة . ومن النهاية البعيدة ، سُمع يهدر بغيظ مجنون على طلاب صفه .

انتحب الطفل على نحو وحشي قرب المدفأة نظرت اورسلا الى الفصل . كان هناك خمسون وجها شاحبا ساكنا تراقبها ، ومئة عين مدورة مثبتة عليها ، في تحديق منتبه عديم الملامح .

قالت للمراقبين :

ـ وزعوا كتب التاريخ .

كان صمت ميت . وعندما كانت تقف هناك ، كان بمستطاعها أن تسمع تكتكة عقارب الساعة مرة أخرى ، وخشخشة رزم الكتب التي تخرج من الصوان الواطئ . ثم تلت ذلك خفقة ضئيلة للكتب على المناضد . واستغرق الأطفال في صمت ، وأيديهم تعمل في انسجام ، لم يعودوا مجموعة الآن ، بل كان كل واحد منفصلا في صمت ؛ شيئاً مغلقاً

قالت اورسلا :

ـ افتحوا صفحة ١٢٥ ، واقرأوا ذلك الفصل .

صدرت قرقعة من العديد من الكتب التي فتحت . وعثر الأطفال على الصفحة ، وأطرقوا رؤوسهم بخنوع كي يقرأوا . وقرأوا بطريقة آلية . ذهبت اورسلا التي كانت ترتجف بشدة ، وجلست في كرسيها المرتفع ، بينما استمر نحيب الطفل . وجاءها صوت السيد برونت الحاد وهدير السيد هاربي مختنقين عبر الفاصل الزجاجي . وبين الفينة والأخرى ، كان زوج من العيون يرتفع من دفتر القراءة ، ويستقر عليها لحظة يقظا ، كما لو أنه يحسب بطريقة ذاتية ، ثم يهبط مرة أخرى .

جلست ساكنة دون حراك ، وعيناها تراقبان صفها ، دون أن تريا . كانت ساكنة تماما وضعيفة . وأحست أنها لا تستطيع أن ترفع يدها من المنضدة . أحستت أنها لو قيض لها أن تجلس هناك الى الأبد ، فلن يكون بمقدورها أن تتحرك مرة أخرى ، او أن تصدر أمرا . كانت الساعة الرابعة والربع ، وهي تكاد تخشى اغلاق المدرسة ، حيث ستكون وحدها عندئذ

ابتدأ الفصل يستعيد طبيعته ، واسترخى التوتر . وكان وليم مايزال يبكي ، بينما كان السيد برونت يصدر الأوامر بإغلاق الصفوف ، ونزلت اورسلا من مكانها وقالت ·

ـ ارجع الى مكانك يا وليم

سحب قدميه عبر الغرفة ، وهو يمسح وجهه بكمه وعندما جلس ، ألقى عليها نظرة ماكرة ، وعيناه ماتزالان حمراوين ، وقد بدا الآن أشبه بفأرة مضروبة .

في النهاية ، غادر الأطفال ومرَّ السيد هاربي متثاقلاً دون أن ينظر ناحيتها او يتحدث إليها . وتردد السيد برونت بينما كانت تقفل صوانها ، وقال لها .

ـ إذا عاملتِ كلارك وليتز بالطريقة نفسها يا آنسة برانغوين فستكونين على مايرام .

كانت عيناه الزرقاوان تحدقان الى الأسفل في رفقة غريبة ، وكان أنفه الطويل يشير نحوها ضحكت بعصبية قائلة :

ـ هل أفعل ؟

لم ترغب في أن يتحدث معها أي شخص .

وبينما كانت تسير في الشارع ، مقعقعة على الرصيف الغرانيتي ، شعرت بوجود صبيان يراوغون خلفها ، وضرب شيء ما يدها التي كانت تحمل حقيبتها وخدشها . وعندما تدحرج عرفت أنه حبة بطاطا . كانت يدها تأذت لكنها لم تظهر علامة على ذلك ، وسرعان ما استقلت الترام .

كانت خائفة وغريبة ، وكان ذلك بالنسبة إليها أمرا غريبا وقبيحا تماما كحلم سُحِبت عنوة إليه . كانت تفضل أن تموت ولا تفشي ذلك لأي شخص . ولم تستطع النظر الى يدها المنتفخة ، فشيء ما قد تحطم في داخلها . لقد اجتازت محنة وهزم وليم ولكن بثمن . أحست أنها منزعجة جدا كي تعود الى البيت ، بقيت مسافة أطول الى المدينة ، وهبطت من الترام الى محل صغير يبيع الشاي ، وهناك في المكان المظلم الصغير خلف الدكان ، احتست شايها وأكلت خبزا مع الزبد ، ولم تشعر بطعم أي شيء . كان تناول الشاي تصرفا آليا كي يغطي وجودها وجلست في ذلك المكان المظلم الغامض دون معرفة واعتنت دون وعي بمؤخرة يدها التي خدشت

وعندما سلكت في النهاية طريق العودة الى البيت ، كان غروب الشمس أحمر عبر الغرب . لم تكن تعرف سبب عودتها الى البيت ، فلم يكن ثمة شيء لديها هناك . كان عليها حقا أن تتظاهر بأنها على مايرام . فليس من شخص يمكنها أن تتحدث إليه ، ولا مكان يمكنها أن تهرب إليه ، بيد أنها يجب أن تستمر ، تحت غروب الشمس الأحمر هذا ؛ وحيدة مدركة الرعب في الإنسانية الذي سيدمرها والذي كانت في حرب معه . ومع ذلك ، لا بد من أن يكون الأمر على هذا النحو .

وفي الصباح مرة أخرى ، كان عليها أن تذهب الى المدرسة . نهضت وذهبت دون أن تتذمر حتى لنفسها . كانت بين يدي رغبة أكبر وأقوى وأخشن . المدرسة هادئة بصورة مرضية ، بيد أن بمقدورها أن تشعر أن الفصل يراقبها ، مستعدا للوثوب عليها . كانت غريزتها مدركة غريزة الفصل في الإمساك بها إن كانت ضعيفة ، بيد أنها ظلت باردة ومحترسة .

كان وليم غائبا عن المدرسة وفي منتصف الصباح كانت هناك طرقة على الباب : شخص ما يريد مقابلة المدير . خرج السيد هاربي بتثاقل وغضب وعصبية . كان خائفا من الآباء سريعي الغضب . وبعد لحظة في الممر ، عاد الى المدرسة مرة أخرى ، وهتف بأحد تلامذته الكبار :

ـ ستوركس قف أمام الفصل وسجل أسماء أي أشخاص يتكلمون ، هل تأتين معي يا آنسة برانغوين ؟

كان يبدو ممسكا بها بطريقة حاقدة .

تبعته اورسلا ، ووجدت في الرواق امرأة هزيلة ذات جلد مبيض ، ليست سيئة الهندام ترتدي ثوبا رمادياً وقبعة أرجوانية .

ـ لقد جئت بشأن فيرنون .

قالت المرأة متحدثة بلهجة مهذبة . كان للمرأة ، عموماً ، مظهر من التهذيب والنظافة يتناقض بصورة غريبة مع وقفتها الشبيهة بوقفة الشحاذين ، والإحساس بأن من غير المسر لمسها ، كشيء ما يتحول الى فساد في الداخل . لم تكن سيدة نبيلة ولا زوجة عامل اعتيادية بل مخلوقاً منفصلاً عن المجتمع ، بيد أن ملبسها يدل على أنها ليست فقيرة .

عرفت اورسلا في الحال أنها أم وليم وأن اسمه فيرنون . وتذكرت أنه كان دائما نظيفا حسن الهندام في زي بحار ، وكان له أيضا ذلك المظهر اللاصحي اللاأخلاقي الغريب ، نصف الشفاف الذي يشبه الجثة كثيرا .

ـ لم أستطع ان أرسله الى المدرسة اليوم...

استمرت المرأة بطريقة مهذبة زائفة : «لقد عاد الى البيت ليلة أمس مريضا جدا ، واعتقدت أن عليّ أن أرسله الى الطبيب ، فإنه كما تعرفين ذو قلب ضعيف» .

نظرت المرأة بعينيها الشاحبتين الميتتين الى اورسلا .

فردت الفتاة :

ـ لا ، أنا لا أعرف .

وقفت ساكنة باشمئزاز وتردد . وكان السيد هاربي كبيرا وذكوريا بشاربه المتدلي ،

يقف الى جانبها وابتسامة ضئيلة قبيحة في زاوية عينه   واستمرت المرأة تتحدث بمكر ، ليس بشريا تماما .

ـ اوه ، نعم ، إنه يعاني من مرض في القلب منذ أن كان طفلا ، وهذا هو سبب كونه غير منتظم الحضور جدا الى المدرسة ، وإنه لأمر سيئ جدا أن يضرب ، لقد كان مريضا جدا هذا الصباح ، وسأطلب الطبيب حالما أعود .

وجاء صوت المدير العميق بخبث :

ـ ومن يبقى معه الآن ؟

ـ اوه لقد تركته مع المرأة التي تأتي لمساعدتي ، وهي تفهمه ، ولكني سأتصل بالطبيب في طريق عودتي الى البيت .

وقفت اورسلا ساكنة ، وأحست بتهديدات غامضة في كل هذا ، لكن المرأة كانت غريبة تماما عليها ، الى حد أنها لم تفهم .

واستمرت المرأة قائلة :

ـ لقد أخبرني أنه قد ضرب ، وعندما خلعت ملابسه كي أضعه في فراشه ، كان جسمه مغطى بالكدمات . بمقدوري أن أريها لأي طبيب

نظر السيد هاربي الى اورسلا كي تجيب ، وابتدأت تفهم . كانت المرأة تهدد بأن تقدم شكوى إهانة ابنها ضدها ، وربما أرادت نقودا .

فقالت :

ـ لقد جلدته . كان مصدر متاعب كثيرة

قالت المرأة :

ـ أنا متأسفة إنْ كان مزعجا ، ولكنه لابد أنه ضرب بطريقة مخجلة ، إن بمقدوري أن أري العلامات الى أي طبيب . أنا متأكدة من أن ذلك ليس مسموحا به ، إذا ما عُرف

ـ لقد جلدته بينما كان يركلني .

قالت اورسلا ذلك وقد أخذ الغضب يتملكها ذلك أنها كانت توشك على المغادرة ووقف السيد هاربي هناك وطرفة في جانب عينه مستمتعا بمأزق المرأتين

قالت المرأة :

ـ أنا متأسفة إن كان أساء التصرف ، بيد أني لا أستطيع أن أتصور أنه يستحق المعاملة التي لقيها . لا أستطيع أن أرسله الى المدرسة ، وأنا لا أستطيع ، في الحقيقة ، أن أدفع أجرة الطبيب . هل من المسموح ضرب التلاميذ بهذه الطريقة يا سيد هاربي ؟

رفض المدير أن يجيب . وكرهت أورسلا نفسها ، ومقتت السيد هاربي لمكره الطارف وخبثه في هذه المحادثة . وراقبت المرأة التعيسة الأخرى فرصتها .

ـ إنه يكلفني كثيرا ، وأنا أكافح كثيرا كي أحافظ على ولدي مهذبا .

واستمرت أورسلا لا تجيب . نظرت الى الساحة القيرية ، حيث كانت مزقة ورق قذرة تدحرجها الرياح

ـ ليس مسموحا ضرب الطفل بهذه الصورة ، أنا متأكدة من ذلك ، وخصوصا إذا كان رقيقا .

حملقت اورسلا بوجه مصمم في الساحة ، كما لو أنها لم تسمع ، فلقد كرهت كل هذا ، وتوقفت عن الإحساس والوجود .

ـ رغم أني أعرف أنه مزعج في بعض الأحيان ، لكني لا أعتقد أن ذلك كان كثيرا جدا . إن جسده مغطى بالعلامات .

وقف السيد هاربي ثابتا ، ساكنا ، منتظرا ما يحدث الآن ، بالتجاعيد الضئيلة الطارفة لابتسامة ساخرة عند زوايا عينيه ، وأحسّ نفسه سيد الموقف .

ـ ولقد كان مريضا جدا ، ولم يكن ممكنا أن أرسله الى المدرسة اليوم ، إنه لا يستطيع أن يبقي رأسه مرفوعا .

ومع ذلك لم تحصل على جواب .

قالت مستديرة الى السيد هاربي :

ـ تفهم يا سيدي سبب غيابه ؟

ـ أوه ، نعم .

قال ذلك فظا ومرتجلا . مقتته أورسلا لانتصاره الذكوري ، وكرهت المرأة وكل شيء .

ـ ستحاول أن تجعل الأمر معلوما يا سيدي من أن له قلبا ضعيفا ، إنه مريض جدا جراء هذه الأشياء .

رد المدير :

ـ نعم ، سأتدبر ذلك .

خاطبت المرأة الرجل الآن :

ـ أعرف أنه مزعج ، لكن حبذا لو عاقبتموه دون ضرب ، إنه رقيق حقا

ابتدأت اورسلا تشعر بالانزعاج ، وكان هاربي يقف في سيادة متفوقة ، والمرأة تتذلل إليه مدغدغة مشاعره ، مثل ما يداعب المرء السلمون المرقط

ـ لقد جئت كي أشرح سبب غيابه هذا الصباح يا سيدي ، إنك ستتفهم الموقف .
ثم مدت يدها فأخذها هاربي وأفلتها مندهشا وغاضبا
ـ صباح الخير
قالت وأعطت يدها المتحشفة ذات القفاز الى اورسلا . ولم تكن سيئة المظهر ، ولها طريقة تلميحية غريبة ، ممقوتة جدا ، بيد أنها مؤثرة .
ـ صباح الخير يا سيد هاربي ، وأشكرك .
كان الشكل في الثوب الرمادي والقبعة الأرجوانية يغادر عبر ساحة المدرسة بمشية غريبة متأنية . وأحست اورسلا بإشفاق غريب نحوها ونفور منها ، وارتعدت ، ثم دخلت المدرسة .

ظهر وليم صباح اليوم التالي ، وهو يبدو أكثر شحوبا من أي وقت مضى ، أنيقا جدا ولطيف الملبس في بلوزة بحار . ألقى نظرة على اورسلا في شبه ابتسامة ، ماكرا ، مذعنا ، مستعدا لعمل ما تأمره به . كان ثمة شيء يتعلق به ، جعلها ترتجف ، وكرهت فكرة انها قد ضربته . كان أخاه الأكبر يقف خارج البوابة وقت الاستراحة ؛ شاب في نحو الخامسة عشرة ، طويلا ونحيفا وشاحبا ، ورفع قبعة كرجل نبيل تقريبا ، لكن ثمة شيئاً خفياً ماكراً يتعلق به أيضا .
قالت اورسلا :
ـ من هو ؟
ردت فيوليت هاربي بفظاظة :
ـ إنه شقيق وليم الأكبر . كانت هنا البارحة أليس كذلك ؟
ـ نعم إن مجيئها ليس مناسبا فسمعتها ليست طيبة بما يكفيها لخلق أية متاعب .
انكمشت اورسلا من القسوة والفضيحة ، لكن فيها بعضا من الفتنة الغامضة المريحة كم بدا كل شيء قذرا! وأحست بالأسف من أجل تلك المرأة الغريبة ذات المشية المتلكئة ، وهذين الصبيين الغريبين الماكرين . كان وجود وليم في صفها يمثل خطأ في مكان ما ، وكم كان الأمر مزعجا برمته .

وهكذا استمرت المعركة حتى مرض قلبها ، وكان عليها أن تخضع المزيد من الصبيان قبل أن تثبت نفسها . ولقد كرهها السيد هاربي أشد الكره كما لو أنها كانت رجلا ، وأدركت الآن أن لا شيء سوى الجلد يمكن أن يوقف بعض الأجلاف الكبار الذين أرادوا أن يلعبوا معها لعبة القط والفأر . ولو كان بمقدور السيد هاربي أن يجلدهم لفعل لأنه كره المعلمة ؛ الآنسة المتكبرة خريجة المدرسة الثانوية لاستقلالها .

ـ والآن يا رايت ما فعلت هذه المرة ؟

كان يقول بطريقة لطيفة للصبي الذي يُرسل من الفصل الخامس القياسي كي يعاقب . وكان يترك الصبي واقفا ، متلكئا ، مضيعا وقته . لذلك لم تعد اورسلا تلجأ للمدير ، لكن عندما تفقد رشدها ، كانت تمسك عصاها ، وتجلد الصبي الذي يتصرف بوقاحة معها على رأسه وأذنيه ويديه . وفي النهاية طفقوا يخشونها وفرضت عليهم النظام ، لكنها دفعت ثمنا باهظا من روحها كي تفعل ذلك ، كأن لهيبا عظيما قد سرى داخلها وأحرق نسيجها الحساس ، فكانت هي التي تنكمش من فكرة المعاناة الجسدية في أي شكل . لقد أجبرت على أن تقاتل وتضرب بالعصا ، وأن تحفز غرائزها كي تلحق الأذى . وبعد ذلك ، أجبرت على أن تتحمل صوت نحيبهم وأساهم بعد أن تجبرهم على النظام

اوه ، وفي بعض الأحيان ، كانت تشعر أنها ستفقد رشدها . ماذا يهم ، ماذا يهم ، إذا كانت دفاترهم قذرة ولا يطيعون الأوامر ؟ إنها تفضل في الحقيقة ، لو أنهم يخالفون كل قواعد المدرسة على أن يضربوا ويحطموا ويحولوا الى حالة البكاء وانعدام الحيلة هذه كانت تفضل أن تتحمل كل إهاناتهم ووقاحاتهم آلاف المرات بدلا من أن تذل نفسها وأنفسهم الى هذه الحالة . وبمرارة ندمت على أنها لم تتمالك نفسها ، وأنها أمسكت الصبي الذي ضربته .

ومع ذلك ، كان عليها أن تكون كذلك . لم تكن تريد أن تفعله ، ومع ذلك يجب أن تفعله . اوه ، لماذا ، لماذا ضمت نفسها الى هذا النظام الشرير حيث يجب عليها أن تقسي نفسها كي تعيش ؟ لماذا أصبحت معلمة مدرسة لماذا ، لماذا ؟

لقد أجبرها الأطفال على الضرب ، لا ، إنها لا ترثي لحالهم . لقد جاءت إليهم ممتلئة بالحب والحنان ، وكانوا سيمزقونها إربا . لقد اختاروا السيد هاربي . حسنٌ إذن ، يجب أن يعرفوها كما يعرفون السيد هاربي . يجب أولا أن يذعنوا إليها ، ذلك لأنها لن تتحول الى تافهة ، ليس من قبلهم ولا من قبل السيد هاربي ولا من كل النظام من حولها . إنها لن تخضع او تمنع من الوقوف حرة ، يجب ألا يقال لها إنها لا تستطيع أن تشغل مكانها وتؤدي مهمتها . إنها ستقاتل وتحتفظ بموقعها في هذه الحالة أيضا في عالم العمل وعرف الرجال .

لقد أصبحت معزولة الآن عن حياة طفولتها ، غريبة في الحياة الجديدة ، في العمل والتصور الآلي . وكانت وماغي ، في ساعات غدائهما واللحظات التي تتناولان فيها الشاي ، بين فترة وأخرى في المطعم الصغير ، تناقشان الحياة والأفكار . وكانت ماغي متحمسة لحق المرأة في الانتخاب وتؤمن بالتصويت . أما في تصور اورسلا فلم يكن التصويت يمثل حقيقةً

قط كانت في معرفتها الإنفعالية الغريبة للدين والحياة ، تتجاوز بعيدا حدود النظام التلقائي الذي يشتمل التصويت ، لكن على معرفتها الأساسية العضوية أن تتخذ شكلا وترتقي الى الاكتمال . وفي تصورها ، كما في تصور ماغي ، أن حرية المرأة تعني شيئا حقيقيا وعميقا . أحست أنها في مكان ما ، في شيء ما ، لم تكن حرة . ولقد أرادت أن تكون . كانت في ثورة ، فلمرة واحدة كانت تريد أن تكون حرة ، وتستطيع الذهاب الى مكان ما . اوه ، المكان المدهش الحقيقي الذي يقع ماوراء قدراتها ، المكان الذي أحست به في أعماقها

في خروجها وكسبها عيشها ، كانت قد قامت بحركة قوية وقاسية باتجاه تحرير نفسها ، ولكن باكتسابها المزيد من الحرية ، ابتدأت تشعر شعوراً أعمق بالمطلب الأعمق . كانت تريد العديد من الأشياء . كانت تبتغي أن تقرأ كتبا عظيمة جميلة وأن تغتني بها ، أرادت أن نرى أشياء جميلة وأن تستمتع بها الى الأبد ، أرادت أن تعرف أناسا أحرارا كبارا . وهناك يبقى دوما المطلب الذي لا تستطيع أن تضع اسما له .

كان الأمر صعبا جدا ، فهناك الكثير من الأشياء التي يجب أن تواجه وتتجاوز ، ولا أحد يعرف وجهته . كان قتالا أعمى ، ولقد عانت بمرارة من مدرسة القديس فيليب هذه . كانت كمهرة ربطت الى أعمدة العربة وفقدت حريتها . وها هي تعاني الآن بمرارة من كرب الأعمدة ، الكرب والتقرح وعار الترويض . ولقد أرهق ذلك روحها ، بيد أنها لن تستسلم أبدا . إنها لن تستسلم لأعمدة كهذه فترة طويلة ، لكنها ستعرفها وستستخدمها حتى تتوافر لها الفرصة كي تحطمها .

ولقد ذهبت مع ماغي الى كل أنواع الأمكنة ، الى اجتماعات حاشدة تطالب بحق المرأة في التصويت في نوتنغم ، والى الحفلات الموسيقية ، والى المسارح ، والى معارض اللوحات ولقد وفرت اورسلا نقودها ، واشترت دراجة هوائية* ركبتها الفتاتان الى لنكن وسوثويل والى دربي شاير . كانت لديهما ثروة طائلة من الأشياء كي تتحدثا عنها ، وكانت متعة عظيمة أن تجدا وتكتشفا .

بيد أن اورسلا لم تحك لها أبدا عن وينفريد انغر . كان ذلك بمثابة عرض جانبي سري لحياتها يجب ألا يفتح أبدا . حتى أنها لا تفكر به . كان ذلك الباب المغلق الذي ليست لديها القوة لتفتحه .

وإذ تمرنت على تعليمها ، ابتدأت اورسلا تدريجا حياة جديدة خاصة بها مرة أخرى .

---

* هذا مرتبط تاريخيا بموضة انتشار الدراجات الهوائية لأن نوتنغم أصبحت مركز صناعتها ، وبالنسبة للنساء على نحو خاص ، كان اختراعها بمثابة حرية جديدة ودائرة متوسعة

إنها ستلتحق بالكلية خلال ثمانية عشر شهرا ، وعندها يجب أن تحصل وإنها ، آه... قد تغدو امرأة كبيرة ، وتقود حركة ، من يدري ؟ على أية حال بالكلية خلال ثمانية عشر شهرا ، وإن كل ما يهم الآن هو العمل ؛ العمل .

وحتى يحين موعد الكلية ، عليها أن تستمر في هذا التدريس ، في ه فيليب الذي كان يدمرها دائما ، لكن الأمر الذي تستطيع أن تتدبره الآ حياتها بأكملها ، سترضى به فترة من الزمن مادام الوقت له نهاية محددة .

أصبح تدريس الفصل في حد ذاته عملا آليا تقريبا في النهاية . وكا إجهادا مستنفدا منهكا ، غير طبيعي دائما . لكن ثمة قدراً معيناً من المت المجرد في التعليم ، الكثير من العمل الذي يجب إنجازه ، العديد من الأطف العناية بهم ، الكثير الذي يجب أن يعمل الى الحد الذي ينسى فيه المرء نفس

وعندما أصبح العمل عادة لها ، وتركت روحها المتفردة ، وأصبح ذ آخر ، عندها كان بمستطاعها أن تكون سعيدة تقريبا . لملمت نفسها ا شعثها معا ، وأصبحت أكثر تماسكا خلال سنتي التعلم هاتين أثناء الكف التعليم المدرسي . كانت المدرسة دوما بمثابة سجن لها ، بيد أنه كان س روحها المتوحشة العشوائية صلبة ومستقلة ، إذ أصبحت معافاة بما يكفي فلم تعد تكره التعليم . ولقد كانت تستمتع بانغماسها في حركة العمل الصبا طاقاتها ، محركة الأشياء . كان لها بمثابة نوع من التمرين العنيف ، وتر تستريح ، إذ كان لديها الوقت للخدر حيث ستجمع فيه شعث نفسها في ا بيد أن ساعة التدريس كانت طويلة جدا ، والمهمات ثقيلة جدا ، وكان ال للمدرسة غير طبيعي جدا لها . ولقد أصبحت هزيلة ، وتنتابها الرجفة كثيرا .

كانت تأتي الى المدرسة صباحا ، فترى أزهار الزعرور ندية ، والح الموردة تسبح في وعاء من الندى ، والقبرات تهمهم بأغانيها في ذلك الشرق الريف سعيدا جدا . وكان تدنيسا أن يغطس المرء في غبار المدينة ورماديها

وهكذا وقفت أمام صفها ، راغبة في أن تسلم نفسها لفعالية التعليم ، أ التي كانت تتحرق شوقا للريف والمتعة في الصيف المبكر الى سلطان خمسين تنقل اليهم بعض لقيمات من الرياضيات . كان ثمة انشداه ضئيل فيها ، ولم ا تجبر نفسها على النسيان . ولقد أبقتها جرة من الحوذان والشوكران الصغير بعيدا في المروج ، حيث كان اقحوان المروج شبه مغمور في العشب الأث

أزاهير الوقواق القرمرية   ومع ذلك ، كانت أمامها وجوه خمسين طفلا ، وكانت تبدو مثل أقحوانات كبيرة في عتمة العشب .

ثمة بريق على وجهها ، ولا واقعية ضئيلة في تدريسها . ولم يكن بمستطاعها أن ترى تلاميذها تماما . كانت تتصارع بين عالمين ، عالمها الخاص المتعلق بالصيف الشاب والزهور ، وعالم العمل الآخر هذا . وكان وميض ضوء شمسها بينها وبين صفها . ومن ثم ، مرَّ الصباح ببعد وهدوء غريبين ، وحان وقت الغداء ، حينها أكلت هي وماغي بمتعة ، وكانت كل النوافذ مشرعة . ومن ثمَّ ، خرجتا الى ساحة كنيسة القديس فيليب ، حيث زاوية ظليلة تحت أشجار زعرور حمر ، وهناك تحدثتا وقرأتا شيلي او براوننغ او بعض الكتابات عن المرأة والعمل

وعندما عادت الى المدرسة ، كانت اورسلا ماتزال تعيش في زاوية المقبرة المظلمة ، حيث كانت البتلات القرمزية الحمر ، تتوزع متناثرة من شجرة الزعرور ، كحشد من أصداف صغيرة على الشاطئ ، بينما كان ناقوس الكنيسة يقرع في بعض الأحيان بصوت طنان . وفي بعض الأحيان كان طير يهتف ، بينما يستمر صوت ماغي واطئا وعذبا .

هذه الأيام كانت سعيدة في سويداء روحها ؛ اوه ، لقد كانت سعيدة جدا الى الحد الذي تمنت لو أنها تستطيع أن تأخذ متعتها وتنثرها على امتداد الذراع . ولقد جعلت أطفالها سعداء أيضا بوخزات ضئيلة من المتعة ، لكن لم يكن الأطفال في تصورها فصلا مدرسيا في هذا الأصيل ، بل كانوا ازهارا وطيورا وحيوانات صغيرة براقة ، أطفالا ، أي شيء لكنهم ليسوا الفصل الخامس القياسي . لم تشعر بالمسؤولية نحوهم . كان هذا التعليم مجرد لعبة لمرة واحدة حسب ، فماذا يهم اذا كانت نتائج مسائل الحساب خطأ ؟ وهي ستقوم بقراءة ممتعة قليلا ، وبدلا من التاريخ بتواريخه ، ستحكي لهم قصة جميلة . ومحل القواعد ، فإن بإمكانها أن تعطيهم قطعة من التحليل المكتوب ليست صعبة ، ذلك لأنهم سبق أن درسوها .

ستكون رشيقة كالرشأ
تلك المتوحشة بجذل عبر العشب
او على ينابيع الجبل*

كتبت ذلك من الذاكرة لأنه كان يسرها .

---

* من قصيدة (كَثُرت ثلاث سنوات تحت الشمس وميِّزن المطر) للشاعر الإنكليزي الأشهر وليم وردزورث التي كتبها عام ١٧٩٩

وهكذا مرَّ الأصيل الذهبي ، وعادت الى البيت سعيدة لقد أنهت يومها الدراسي ، وأمست حرة في أن تنغمس في مساء كوستي المتوهج . ولقد أحبت أن تسير مشيا على الأقدام الى البيت ، بيد أنها لم نكن مدرسة بل كان لعبا في المدرسة تحت براعم الزعرور الحمر .

لم يكن بمقدورها الاستمرار على هذا المنوال ، إذ كان الامتحان الفصلي يقترب ، وصفّها لم يكن مؤهلا ، ولقد أزعجها أنها يجب أن تسحب نفسها من نفسها السعيدة ، وأن تضغط على نفسها بكل قوتها كي تجبرها ، وتكره فصل الأطفال الثقيل هذا ، كي يعمل بجد في الرياضيات لم يكونوا راغبين في العمل ، ولم تكن تريد أن تجبرهم ومع ذلك ، فإن ضميرا آخر كان يلح عليها ، مخبرا إياها ، أن العمل لم ينجز بصورة مرضية ولقد أزعجها الى حد يقترب من الجنون ، فأطلقت كل انزعاجها في الفصل ، ثم تلا ذلك يوم من المعارك والكره والعنف ، عندها عادت الى البيت فجة ، شاعرة أن المساء الذهبي قد استُلب منها ، وأن نفسها قد تجسدت في مكان مظلم موحش ، وكُبلت هناك بالضمير من أنها قد تصرفت بطريقة سيئة في العمل .

ما فائدة أن يكون الوقت صيفا ، ويبقى رائقا حتى المساء ، عندما تهتف طيور الصرد وتتسلق القبرات الى الضوء لتغني مرة أخرى قبل أن يخيم الظلام . ماذا ينفع كل هذا عندما تكون خارج التناغم ، عندما يجب عليها ، حسب ، أن تتذكر عبء المدرسة وخزيها ذلك النهار . ومع ذلك ، كرهت المدرسة وبكت ، ولم تؤمن بها . لماذا يجب أن يتعلم الأطفال ولماذا يجب أن تعلمهم . إن الأمر بأكمله جعجعة في فنجان ، فأية حماقة جعلت الحياة تكمن في هذا ؛ أداء واجب غبي مصطنع ؟ كان كل شيء مصطنعاً ، غير طبيعي تماما ؛ المدرسة مسائل الحساب ، القواعد ، الامتحانات الفصلية ، المسجلون ، كانت جميعها عَدَماً مجدباً!

لماذا يجب أن تمنح هذا العالم ولاءها ، وتدعه يسيطر عليها ، ليحول عالمها ذا الشمس الدافئة والحياة النامية الممتلئة بالحيوية الى عدم ؟ إنها لن تفعل ذلك ، ولن تكون سجينة في عالم الرجال الجاف الاستبدادي ، ولن تهتم به . وماذا يهم لو أن صفها حقق نتائج سيئة في الامتحانات الفصلية ، دعه ، فماذا يهم ؟

ومع ذلك ، وحينما أزف الموعد ، كان التقرير عن صفها سيئا ، وكانت تعيسة واستُلبت متعة الصيف منها ، وانغلقت مكتئبة إنها لا تستطيع حقا أن نهرب من عالم النظام والعمل هذا ، خارجة الى الحقول ، حيث ستكون سعيدة يجب أن تحتل مكانها في عالم

العمل ، أن تكون عضوا معترفا به ، له حقوقه الكاملة هناك . كان ذلك أكثر أهمية لها من الحقول والشمس والشعر في هذا الوقت ، بيد أن ذلك كان عدوها حسب

واكتشفت خلال ساعات الاستراحة الطويلة أثناء العطل الصيفية ، أنه لأمر صعب للغاية أن تكون نفسها ؛ نفسها السعيدة التي يسرها كثيرا أن تضطجع تحت الشمس ، وأن تمرح وتستحم وتكون سعيدة ، وفي الوقت نفسه معلمة مدرسة أيضا ، تحقق نتائج من صف أطفال وحلمت بتشوق بالوقت الذي لن تحتاج فيه الى أن تكون معلمة فترة أطول . لكنها أدركت على نحو غامض أن المسؤولية قد احتلت موقعا داخلها الى الأبد ، وأن واجبها الأساسي في الوقت الحاضر ، هو أن تعمل .

انصرم الخريف ، وكان الشتاء على الأبواب . واصبحت اورسلا على نحو متزايد من سكنة عالم العمل ومما يسمى بالحياة . لم يكن بمستطاعها أن ترى مستقبلها ، لكن الكلية كانت على مسافة قريبة منها . ولقد تعلقت بهذه الفكرة بثبات ، فهي ستذهب الى الكلية لتتدرب سنتين او ثلاثاً مجانا . ولقد قدمت مسبقا ، وحجز لها مقعد خلال السنة القادمة .

لذلك استمرت تدرس للحصول على شهادتها ، وهي ستدرس الفرنسية واللاتينية والإنكليزية والرياضيات وعلم النبات . وانخرطت في صفوف كانت تنظم في اليكستون تدرس مساء ، ذلك لأن هناك هذا العالم الذي يجب أن يهزم ، وهذه المعرفة التي يجب أن تكتسب ، وهذا المؤهل الذي يجب أن تحصل عليه . ولقد عملت بتركيز بسبب حاجة داخلية تحثها ، وأصبح كل شيء تقريبا ثانويا الآن مقارنة بهذه الرغبة الوحيدة ، وهي أن تحتل مكانا في هذا العالم . ولم تسأل نفسها عن نوع المكان ، بل قادتها الرغبة العمياء الى الأمام . يجب أن تحتل موقعها . كانت تعرف أنها لن تحقق نجاحا كبيرا كمعلمة مدرسة ابتدائية ، بيد أنها لم تفشل أيضا . ولقد كرهتها ولكنها تدبرتها .

تركت ماغي مدرسة القديس فيليب ، وعثرت على وظيفة أكثر ملاءمة لها ، وبقيت الفتاتان صديقتين . وكانتا تلتقيان أثناء الدروس المسائية ، ودرستا وشجعتا ، بطريقة ما ، أملا ثابتا في كل منهما . بيد أنهما كانتا تدركان الآن أنهما تريدان أن تتعلما ، أن تعرفا ، وأن تفعلا .

تحدثتا عن الحب والزواج ، وحول موقع المرأة في الزواج . وقالت ماغي إن الحب هو زهرة الحياة ، وإنه يبرعم بصورة غير متوقعة ، ودون قانون ويجب أن يمسك به حيثما وجد ، وأن يستمتع به خلال ساعة استمراره القصيرة .

كان ذلك في تصور اورسلا أمرا غير مرض ، إذ كانت تظن أنها ماتزال تحب أنطون سكريبينسكي ، لكنها لا تغفر له أبدا أنه لم يكن قويا بما فيه الكفاية كي يعترف بها . لقد أنكرها ، فكيف بمقدورها أن تحبه إذن ؟ وكيف كان الحب مطلقا على هذا النحو إذن ؟ لم تكن تؤمن به ، وكانت تعتقد أن الحب طريق ، وسائل ، وليس الغاية في حد ذاته ، مثل ما تعتقد ماغي . وإن طريق الحب ستوجد دوما ، لكن المهم الى أين تؤدي ؟

قالت اورسلا :

ـ أعتقد أن هناك العديد من الرجال في العالم يمكن للمرء أن يحبهم ، ولا يقتصر الأمر على رجل واحد .

كانت تفكر في سكريبينسكي وكان قلبها أجوف بسبب معرفتها بوينفريد انغر .

ـ لكن يجب أن تميزي بين الحب والهوى .

قالت ماغي مضيفة بلمسة ازدراء : إن من السهل على الرجال أن يشعروا بالهوى تجاهك دون أن يحبوك .

ـ أجل .

ردت اورسلا باحتداد ، وعلى وجهها سيماء علائم معاناة تكاد أن تكون تعصبا : الهوى جزء من الحب حسب ، وهو يبدو كثيرا بهذه الصورة لأنه لا يمكن أن يستمر ، وهذا هو الذي يجعل الهوى مفتقدا السعادة دوما .

كانت وفية للمتعة والسعادة والثبات ، على النقيض من ماغي التي كانت مخلصة للحزن وزوال الأشياء المحتم . لقد عاشت اورسلا بمرارة بين يدي الحياة . وكانت ماغي وحيدة دائما ، مكبوحة دائما ، لذلك انغمست في حزن استيلادي ثقيل كاد أن يكون قوتا لها . وخلال شتاء اورسلا الأخير في مدرسة القديس فيليب ، وصلت صداقة الفتاتين الى ذروتها . وكان خلال هذا الشتاء ، أن عانت اورسلا ، واستمتعت على نحو حميم بحزن ماغي الأساسي الناتج من الانغلاق ، بينما استمتعت ماغي وعايشت صراعات اورسلا ضد محددات حياتها . وبعدها ابتدأت الفتاتان تتباعدان ، عندما انشقت اورسلا عن نمط الحياة ذاك ، بينما كان على ماغي أن تبقى منغلقة .

الفصل الرابع عشر

الدائرة المتوسعة

كان أهل ماغي ؛ آل سكوفيلد ، يعيشون في بيت الجنائني الكبير ، ذاكَ الذي يُشبهُ الحقل ، خلف قصر بيلكوت . كان القصر أكثر رطوبة من أن يُعاش فيه ، وهكذا كان آل سكوفيلد مزارعين ونواطير حيوانات الصيد والطيور وحراسها ، كل ذلك مجتمعا . كان الوالد حارس الحيوانات وطيور الصيد ومربي الماشية ، وكان الابن الأكبر بستانيا يبيع الخضروات ، مستغلا حدائق القصر الكبير ، بينما كان الابن الثاني مزارعا وبستانيا . كانوا عائلة كبيرة ، كما هو الحال في كوستي .

كانت اورسلا تهوى الإقامة في بيلكوت ، وأن تعامل كسيدة نبيلة من قبل إخوة ماغي . وكان هؤلاء رجالاً وسيمين ، أكبرهم في السادسة والعشرين من العمر ، وهو البستاني ، ولم يكن بالرجل الطويل القامة جدا ، بيد أنه قوي ومتناسق وذو عينين بنيتين مشرقتين مسترخيتين ووجه وسيم التقاطيع بني ، وهو ذو شارب طويل أشقر كان يسحبه كلما تحدث الى اورسلا .

كانت الفتاة مثارة لأن هؤلاء الرجال يلازمونها عندما تقترب منهم . كان بمقدورها ان تجعل عيونهم تضيء وتطرف . وأن تجعل أنطوني الأكبر يفتل شاربيه باستمرار . وكانت تدرك أنها تستطيع أن تحركهم وفق إرادتها تقريبا بضحكتها الصغيرة وثرثرتها . لقد كانوا يعشقون أفكارها ويراقبونها وهي تتحدث باتقاد عن السياسة او الاقتصاد ، وكانت ، وهي تتحدث ، ترى عيني أنطوني البنيتين الذهبيتين تومضان كعيني الساطير* ، وهما تراقبانها . لم يكن بصغي الى كلماتها ، بل كان يصغي اليها ، وكان ذلك يثيرها .

---

* الساطير : إله من آلهة الغابات عند الإغريق له ذيل فرس وأذناها

كان مثل فون* يتملكه السرور عندما ترافقه الى بيوت الزراعة المدفأة كي تنظر الى النباتات الخضر الجميلة ، والى أزهار الربيع القرنفلية ، وهي تومئ وسط أوراقها وأزهار الرماد ، متباهية أرجوانية وقرمزية وبيضاً . كانت تستفسر عن كل شيء ، وكان يجيبها بتفصيل ودقة شديدتين بطريقة متحذلقة غريبة تجعلها تهم بالضحك . ومع ذلك ، كانت مهتمة حقا بما كان يفعل ، وكان له ذلك الضوء الغريب في وجهه مثل الضوء في عيني الماعز التي تمنعها بوابة الحقل .

كانت تنزل معه الى القبو الأكثر دفئا حيث درنات الراوند** الصفر الصغيرة قد نمت مسبقا في الظلام كان يُنزل الفانوس الى التربة الغامقة ، فرأت نهايات درنات الراوند المتلألئة وهي تندفع الى الأعلى على الساق الحمراء السميكة ، دافعة نفسها كعقد من اللهب خلال التربة الهشة استدار وجهه نحوها ، وأومض الضوء على عينيه وأسنانه عندما ضحك بحمحمة موسيقية ضئيلة . كان يبدو وسيما ، وسمعت صوتا جديدا في أذنيها ؛ ضحكة انطوني المحمحة الموسيقية بنبرة واهنة . وكان شاربه ملتفا الى الأعلى ، وعيناه مضيئتين بوهج بارد ثابت متعجرف ضاحك . كأن تبختراً ضئيلاً من النصر في حركته . ولم تستطع أن تخلص نفسها من حركة إذعان او لمسة رضا . ومع ذلك ، كان متواضعا جدا وصوته ملاطفا جدا ، وكان يمد يده إليها كي تصعد عندما يكون عليها أن ترتقي جدارا ، وكانت تتقدم على ثباته الحي الذي يرتجف بحزم تحت وزنها .

كانت مدركة وجوده كما لو أنها منومة مغناطيسيا . أما أثناء وعيها العادي فلم تكن لها أدنى علاقة به ، بيد أن استرخاءه الغريب وعدم ملاحظة دخوله الى البيت ، وشدة ضوئه البارد المومض عليها عندما ينظر إليها ، كان له فعل السحر . في عينيه ، كما في عيني الماعز الرماديتين الشاحبتين ، يبدو بعضٌ من نار ضوء القمر الثابتة الصلدة التي ليست لها علاقة مع النهار . ولقد كانت تلك تجعلها حذرة ، وتمر في ذهنها كشيء منطفئ . كانت كلها حواس ، وكل حواسها كانت حية

ثم رأته يوم الأحد مرتديا ملابس يوم الأحد ، محاولا أن يؤثر فيها . ولقد بدا أحمق . وتعلقت بالتأثير الأحمق لملابس يوم الأحد المتيبسة . كانت مدركة دوما لنوع من عدم الوفاء تجاه ماغي بشأن أنطوني . إذ كانت ماغي المسكينة منزوية كما لو تمت خيانتها ، فلقد كان ماغي وأنطوني عدوين بالغريزة . وكان على اورسلا أن تعود الى

---

* فون : إله روماني قديم للرعاة والفلاحين على هيئة الماعز

** نبات عشبي معمّر من الفصيلة البطاطية .

صديقتها طافحة بالتأثير وحزن الرثاء ، وهو أمر كانت ماغي تستقبله بقليل من التصلب . بعدها يحتل الشعر والكتب والتعليم محل أنطوني بحركاته التي تشبه حركات الماعز ودعابته الباردة الوامضة .

بينما كانت اورسلا في بيلكوت سقط الثلج . وفي الصباح كان فراش من الثلج يثقل شجيرات الورد .

قالت ماغي :

ـ هل نخرج ؟

كانت فقدت بعضا من طمأنينة مرشدتها ، وهي الآن تجريبية متحفظة قليلا مع صديقتها .

أخذتا مفتاح البوابة وتجولتا في المتنزه . كان عالما أبيض ، تنتصب عليه أشجار غامقة وكتل شجرية تحت سماء حميمة بالصقيع . مرت الفتاتان من أمام القصر الذي كان موصد النوافذ ، صامتا ، وكانت آثار أقدامهما تعلم في الثلج على الممر . وفي المتنزه ، على مسافة بعيدة ، كان رجل يحمل ملء ذراعيه من القش على الجليد . كان شكلا صغيرا غامقا كحيوان يتحرك في غفلته .

استمرت اورسلا وماغي تستكشفان حتى وصلتا الى غدير متجمد رنان ، ذاب الجليد في مجارف صغيرة ، وأخذ يجري غامقا بينها . ورأتا أبو الحناء* ينظر اليهما بعينيه البراقتين ، ثم يندفع قرمزيا ورماديا في اسيجة الشجيرات ، ثم تشاجرت بعض طيور القرقف** الزرق المبهرجة . وكان الجدول ينزلق ببرودة ، يضحك مع نفسه ضحكة خافتة .

تجولت الفتاتان عبر العشب المثلج حيث برك الأسماك الاصطناعية تحت غطاء رقيق من الثلج . وكانت هناك شجيرة كبيرة ذات جذع سميك التف عليه اللبلاب الذي كان يتدلى أفقيا تقريبا فوق البرك . تسلقت اورسلا بمتعة على هذه ، وجلست وسط عقد اللبلاب البراق والزعرور الكئيب ، وكانت بعض أوراق اللبلاب كرماح خضر مشرعة غطيت نهايتها بالجليد ، وكان الجليد يُرى بينها .

أخرجت ماغي كتابا وجلست في الأسفل على الجذع ، وابتدأت تقرأ في (كرستابل)

---

* أبو الحناء : طائر صغير من الجوائم ، ظهره أشهب الى سمرة وعنقه وصدره أحمران وسائره أبيض .

** القرقف : جنس طير من الجوائم مخروطية المناقير .

لكولردج* وكانت اورسلا شبه مصغية ومندهشة بتوحش . ثم رأت انطوني قادما عبر الجليد بخطوته الواثقة المتبخترة قليلا . كان وجهها يبدو بنياً صلبا في الثلج ، وهي تبتسم في نوع من الثقة المتوترة

هتفت به :

ـ مرحبا .

مرت استجابة عبر وجهه ، وارتفع رأسه في جواب ؛ ايماءة راقصة .

قال لها :

ـ مرحبا ، تبدين كالطير هناك** .

وجلجلت ضحكة اورسلا . لقد أجابت الرنين المزماري الغريب في صوته المخترق .

لم تكن تفكر في انطوني ، ومع ذلك ، كانت تحيا في نوع من الترابط معه ، في عالمه . وفي إحدى الأمسيات التقته بينما كانت قادمة عبر الطريق ، فتمشيا جنبا الى جنب وهتفت قائلة :

ـ أعتقد أن المكان رائع هنا .

فقال لها :

ـ هل تعتقدين ذلك . أنا سعيد لأنك احببتِه .

كانت ثقة غريبة في صوته .

ـ اوه ، أنا أحبه . ماذا يريد المرء أكثر من أن يعيش في هذا المكان الجميل ، ويجعل الأشياء تنمو في حديقته . إنها تشبه جنة عدن

فرد عليها بضحكة صغيرة :

ـ أهي حقا ؟ نعم ، حسن ، إنها ليست رديئة .

كان مترددا ، والومض الشاحب قويا في عينيه ، وهو ينظر إليها بثبات ، يراقبها مثل ما قد يفعل حيوان . ووثب شيء ما في روحها . كانت تعرف أنه سوف يقترح عليها أن تكون له مثل ما هو .

سألها مستكشفا :

ـ هل تريدين البقاء معي هنا ؟

---

* كولردج ، صموئيل تايلور (١٧٧٢ ـ ١٨٣٤) كاتب إنكليزي وعلم بارز من أعلام الرومانسية . من كتبه (كرستابل) و(قبلاي خان) ، نشر كلاهما عام ١٨١٦

** المشهد علامه على «تطور» الجيل الثالث من أبطال الرواية عن الجيل الثاني فيها

نكصت بخوف وبالإحساس الشديد بالعرض المقدم إليها .

كانا وصلا الى البوابة ، فسألته .

- كيف ، إنك لست وحيدا هنا ؟

- بإمكاننا أن نتزوج .

أجابها بنبرة تلميحية باردة الومض تجمد أشعة الشمس الى ضوء قمر . وبدت كل الأشياء الأساسية وقد تحولت ، فأصبحت الظلال وضوء القمر الراقص حقيقية ؛ كلها أحاسيس باردة ولاإنسانية وامضة . أدركت بما يشبه الرعب أنها ستقبل هذا . إنها ستقبل هذا على نحو محتم كانت يده تمتد قبلهما نحو البوابة . وقفت ساكنة ، وكان جسده صلبا بنياً نهائياً . وبدت كأنها في قبضة اهانة ما . فأجابت بصورة لاإرادية :

- لا أستطيع .

أصدر الضحكة الصغيرة المحمحمة المختصرة ذاتها ، حزينا جدا ، وشاعرا بالمرارة الآن . وأعاد قضيب البوابة الى مكانه ، ومع ذلك لم تنفتح . وقفا ، لحظة معا ، ينظران الى نار الغروب التي كانت ترتجف وسط الأغصان والأشجار الأرجوانية . رأت وجهه البني الصلب المنحوت جيدا يومض بالغضب والإذلال والخنوع . كان حيوانا يعرف أنه قد أُذل وتوهج قلبها بالإحساس به ؛ بالشيء المدهش الذي يُعرض عليها . وبأسى ، وبإحساس بالوحدة لا تمكن مواساته . كانت روحها رضيعا يبكي في الليل* ولم تكن عنده روح اوه ، لماذا يجب عليها ذلك ؟ وكان هو الأنظف .

استدارت بعيدا ، استدارت عنه ، ورأت الشوق يتوهج وينهض بصورة غريبة . وجاء القمر أصفر جميلا على السماء الوردية ، فوق الجليد المعتم المزرق . كان كل هذا جميلا جدا ، كان كل هذا محببا جدا ، وهو لا يراه ، بيد أنها رأته وكانت واحدة معه . ولقد فصلتها رؤيتها عنه الى الأبد** .

ظلا يسيران عبر الممر صامتين ، تابعين قدريهما المختلفين . وازدادت الأشجار عتمة ، ولم يخلق الجليد سوى عتمة في عالم لاحقيقي . ومثل ظل ، مرَّ النهار متحولا الى مساء مثلج واهن البريق ، بينما كانت تتحدث دون هدف معه ، كي تبقيه على مبعدة منها ، ومع ذلك ، كي تبقيه قريبا منها وكان يمشي بتثاقل . فتح بوابة الحديقة بهدوء لها ،

---

* اقتباس من تينسون ، قصيدة «في الذكرى» ، ١٨٥٠ .

** مقياس مضبوط آخر للمسافة بين «المرأة الحديدة» والرجال من آل برانغوين في بداية الرواية والعلاقة بين الوعي الذاتي والانفصال عن العالم الطبيعي

وكانت تدخل الى مسراتها الخاصة ، تاركة إياه خارج البوابة . ومن ثم ، وحتى عندما كانت تهرب او تحاول الهرب من إحساس الألم هذا

جاءت ماغي في اليوم التالي قائلة :

ـ لم أكن لأدع أنطوني يحبك يا اورسلا لو كنت أعرف أنك لا تريدينه ، فذلك أمر ليس لطيفا .

ـ لكنني لم أجعله يحبني قط يا ماغي .

هتفت اورسلا مرعوبة ومعانية وشاعرة كما لو أنها قد صنعت شيئا دنيئا . ومع ذلك ، فلقد اعجبت بأنطوني . وطوال حياتها ، وخلال فترات معينة ، كانت تعود الى التفكير به وفي ما عرضه عليها ، بيد أنها كانت رحالة ؛ كانت رحالة على وجه الأرض ، وهو مخلوق معزول يعيش لإشباع حواسه الخاصة .

لم يكن بمقدورها أن تمنع ذلك ، أتكف عن أن تكون رحالة . كانت تعرف أن أنطوني لم يكن وحيدا . لكن آه ، ينبغي عليها جوهريا في النهاية ، ان تظل باحثة عن الهدف الذي كانت تعرف أنها تقترب منه . كانت تستنفد دورتها الثانية والأخيرة في مدرسة القديس فيليب .

وبينما كانت الشهور تمر كانت تشطبها ، تشرين الأول في البداية ثم تشرين الثاني وكانون الأول وكانون الثاني ، وكانت حذرة من أن تطرح شهرا من الباقي من أجل عطل الصيف . رأت نفسها تسافر حول دائرة ، ولم يتبق أمامها سوى قوس عليها أن تكمله . ومن ثم ، كانت في العراء ، كطير يتمايل في كبد السماء ، طير تعلم بطريقة ما أن يطير

كانت الكلية بانتظارها ، وكان ذلك كبد سمائها ، مجهولا ، شاسعا . تعالي يا كلية ، وكانت حطمت كل تحديدات الحياة التي عرفتها ، ذلك لأن والدها كان يوشك على الانتقال أيضا . إنهم جميعا يوشكون على مغادرة كوسثي

احتفظ برانغوين بلامبالاته بشأن ظروفه . وكان يدرك أن عمله في تصميم المخرمات لا يعني إلا قليلا عنده . إذ كان يحصل على أجره من خلاله حسب ، ولم يكن يعرف ما الذي يعني كثيرا بالنسبة إليه . عائشا بالقرب من آنا برانغوين ، كان ذهنه مغمورا دائما بالحرارة الجسدية ، وكان ينتقل من غريزة لأخرى ، متلمسا ؛ متلمسا دوما .

وعندما اقتُرح عليه أن يقدم طلبا لإشغال إحدى وظائف مدربي الحرف اليدوية ، وهي

وظائف كانت على وشك أن تُعلن من قبل هيئة التعليم في نوتنغم ، بدا له الأمر كما لو أن فراغا قد عُرض عليه ، يستطيع أن ينتقل إليه من انغلاقه الساخن المعتم . أرسل استمارة التقديم السرية ، موقعة . وكان يمتلك ما يشبه الإيمان بقدره فوق الطبيعي إذ أن الإجهاد المحتم لعمله اليومي قد صلّبَ بعضا من عضلاته وخلق موتا طفيفا في وجهه المتورد اليقظ والآن ، بمقدوره أن يهرب .

كان ممتلئا بالإمكانيات الجديدة ، وكانت زوجته مذعنة ، إذ أصبحت راغبة الآن في التغيير ، إذ أنها تعبت من كوسثي أيضا وضاق البيت بالأطفال الذين ابتدأوا يكبرون ، ولأنها كانت تقترب من الأربعين ، أخذت تستيقظ من نوم أمومتها ، وتحركت طاقتها أكثر نحو الخارج . ولقد أيقظها ضجيج الحيوانات النامية من لامبالاتها ، فهي أيضا يجب أن تسهم في صنع الحياة وكانت مستعدة تماما للانتقال ، مصطحبة كل صغارها ، فسيكون الأمر أفضل الآن إذا ما أعادت زرعهم في مكان آخر ، ذلك لأنها قد وضعت طفلها الأخير ولسوف يكبر .

وهكذا ، بطريقتها المنبسطة غير المتعودة ، تحدثت عن خطط وترتيبات مع زوجها ، غير مبالية حقا بطريقة التغيير مادام التغيير قادما ، وحتى لو لم يأت بهذه الطريقة فإنه سيأتي بطريقة أخرى .

كان البيت ممتلئا بالاختمار ، واورسلا متوحشة بالإثارة . ففي النهاية ، سيصبح والدها شيئا ما على المستوى الإجتماعي فلفترة طويلة من الزمن ، كان صفرا في المجتمع دون شكل او موقف . أما الآن فإنه سيكون مدربا للفن والحرف اليدوية لمقاطعة نوتنغم ، وهذه مكانة حقا ، إنه منصب ، وسيكون متخصصا بطريقته . وكان رجلا غير مألوف . وشعرت اورسلا أنهم يحصلون جميعا على موطئ قدم في النهاية إنه يعود الى نفسه ، فمن هو الشخص الآخر الذي نعرفه ، والذي يمكن أن يخرج من بين أصابعه الأشياء الجميلة التي يستطيع والدها أن ينتجها ؟ وأحست أنه كان واثقا من هذه المهنة الجديدة .

إنهم سينتقلون ويغادرون هذا البيت في كوسثي الذي أصبح ضيقا عليهم . سيغادرون كوسثي حيث ولد الأطفال كلهم ، وحيث أبقوا في القياس ذاته . ذلك لأن الناس الذين عرفوهم كاطفال مع صبيان القرية وبناتها لن يستطيعوا أن يفهموا أبدا أنهم يجب أن يكبروا على نحو مختلف . وكانوا يعدون (ارتلر برانغوين) كواحدة منهم ، وقد أعطوها مكانها في قرية مسقط رأسها ، كما لو في عائلة . وكانت الآصرة قوية .

أما الآن ، وعندما ابتدأت تنمو الى شيء ما وراء ما يمكن أن نسمح به كوسثي او تفهمه ، فإن الآصرة بينها وبين معارفها القدامى أصبحت استرقاقا .

ـ مرحبا يا اورسلا ، كيف تتقدمين ؟

كانوا يقولون عندما يقابلونها . وكان مطلوبا منها الاستجابة القديمة ، بالصوت القديم . وإن شيئا ما في داخلها يجب أن يستجيب ويعود الى الناس الذين عرفوها . لكن شيئا آخر كان يرفض بمرارة . فما كان صحيحا لها قبل عشر سنوات ، لم يعد صحيحا الآن ، والشيء الآخر الذي كانته ، والذي يجب أن تكونه ، لا يستطيعون رؤيته او السماح به . كانوا يشعرون به هناك ، ومع ذلك ، كان شيئا يفوق استيعابهم ، ولقد آذاهم ذلك . قالوا إنها متكبرة ومغرورة ، وإنها تمد رجليها الى أبعد من غطائها . وقالوا لا داعي لأن تتظاهر ، لأنهم يعرفون ما كانت ، فلقد عرفوها منذ أن ولدت .

وكانوا يذكرون هذا وذاك بشأنها . وكانت تخجل لأنها تشعر أنها مختلفة عن الناس الذين عاشت وسطهم . ولقد آذاها أن تكون على بساطتها معهم فترة أطول . ومع ذلك ؛ ومع ذلك ، فإن طائرة المرء الورقية سترتفع الى الحد الذي يترك لها فيه الخيط على الغارب . ستشد وتشد وترتفع ويزداد سرور المرء عندما ترتفع حتى إذا كان الآخرون منزعجين من الأمر . وهكذا فان كوسثي تعوقها ، وهي تريد ان تذهب ، أن تكون حرة في أن تطيّر طائرتها الورقية الى اعلى ما تحب . كانت نريد أن تذهب بعيدا ، أن تكون حرة كي تفرد قامتها على طولها . لذلك عندما عرفت أن والدها قد حصل على الوظيفة الجديدة ، وأن العائلة ستنتقل ، أحست كما لو أنها تثب على وجه الأرض ، وتصدر ترنيمات من المتعة . إن صدفة كوسثي القديمة المقيدة سوف تُلفظ ، وسترقص في الهواء الأزرق ، وأرادت أن ترقص وتغني .

خلقت أحلاما عن المكان الجديد الذي ستعيش فيه ، حيث سيكون أصدقاؤها أناسا رسميين مثقفين ذوي إحساس عال وستعيش مع النبلاء في الأرض متنقلة الى حرية إحساس كبيرة وحلمت بصديقة غنية مزهوة بسيطة ، لم تتعرف أبدا على السيد هاربي او أشباهه ، وليس لها أبدا في صوتها نبرة ازدراء او خوف استرقاقي مثل ما كان لماغي

وأعطت نفسها لكل الذي احبته في كوسثي بوجد ، ذلك لأنها ذاهبة الآن . تجولت في بقعها المفضلة ، وكان أن ذهبت متجاوزة كي تعثر على قطرات الجليد التي تنمو متوحشة . كان الوقت مساء ، والمروج التي أعتمها الشتاء مليئة بالغموض . وعندما وصلت الى الغابات ، كانت هناك شجرة بلوط قطعت لتوها في الوهدة ، وقطرات صفر من الزهور تتلألأ

عديدة تحت البندق ، وبشظايا الخشب الذهبية الحادة التي كانت متناثرة   كانت الأنصال الخضر الرمادية لأوراق أزهار اللبن الثلجية تخز لامبالية والأزهار المتهدلة التي لم تزل صغيرة دون احتراس

قطفت اورسلا بعضها بمودة ، في نشوة . وتلألأت قطع الخشب الذهبية صفراء بلون أشعة الشمس ، وكانت أزهار اللبن الثلجية في الشفق شبيهة بأولى نجوم الليل . وكانت هي وحيدة بينها ، سعيدة بوحشية لأنها شقت طريقها في مثل هذه العتمة المتلألئة ، والى هذه الأزهار الصغيرة الحميمة . وتناثرت قطع الخشب كشعاع الشمس على شفق الأرض . وجلست على شجرة مقطوعة ، وظلت نائية ، برهة

عندما عادت الى البيت ، غادرت ظلام الأشجار الأرجواني الى الطريق المكشوف ، حيث أشرقت البرك الموحلة طويلة تشبه الجواهر في الأخاديد   واظلمت الأرض من حولها ، وكانت السماء جوهرة فوقها . اوه ، كم كان مدهشا ذلك لها . كاد ان يكون كثيرا جدا ، وأرادت أن تركض ، وأن تغني ، وأن تصرخ للتوحش والحدة ، بيد أنها لم تستطع ان تركض وتغني وتصرخ بمثل هذه الطريقة ، مثل ما تصرخ طاردة خارجا كل الأشياء الدفينة في قلبها ، لذلك كانت ساكنة ، تكاد تكون حزينة مع الوحدة .

في عيد الفصح ، ذهبت مرة أخرى الى بيت ماغي لتمضي أياماً ، ومع ذلك ، كانت خجلى وهاربة . رأت أنطوني ، واكتشفت كم كان النظر إليه موحيا ، وكيف كان لعينيه نوع من الضوء المتضرع الذي كان جميلا بعض الشيء   نظرت إليه ، ونظرت مرة أخرى ، كي يصبح حقيقة لها . بيد أن نفسها هي التي كانت منشغلة في مكان آخر ، وبدت وكأن لها كيانا آخر .

واستدارت الى الربيع ، والى البراعم المتفتحة . كانت هناك شجرة كمثرى كبيرة قرب الجدار ، ممتلئة محتشدة ببراعم خضر رمادية ضئيلة بأعداد ضخمة . وقفت أمامها منشدهة بالمتعة ، وسرى الإدراك عميقا في قلبها . كان حشد هائل في صفوف خلف سحابة الاخضرار المعتم الشاحب ، الكثير الذي سيأتي ، الكثير من شروق الشمس الذي سينسكب .

وهكذا مرت الأسابيع حبلى ، وفي ما يشبه الغيبوبة ، وتفجرت شجرة الكمثرى في كوسثي بأزهار على نهاية البيت كموجة تفجرت الى زبد .

ومن ثم ، تدريجا ظهرت الأجراس الزرق ، زرقاً كالماء تقف نحيفة في الأماكن المستوية تحت الأشجار والشجيرات ، منسابة أكثر فأكثر حتى كان هناك فيضان من

اللازورد وأوراق خضر شاحبة ملتهبة ، وطيور ضئيلة ذات أغنية نارية صغيرة وطيران وبهدوء تراجع الطوفان واختفى ، وحلّ الصيف .

لن يكون هناك ذهاب الى البحر في العطلة ، فلقد كانت العطلة هي الانتقال من كوسثي .

سوف يذهبون للعيش قرب (وايلي غرين)* الذي كان موقعها مركزيا جدا بالنسبة لبرانغوين . كانت قرية قديمة هادئة على حافة مقاطعة المناجم المزدحمة . لذلك فإنها تنفع ، في غرابتها المستطرفة ببيوتها القديمة الغريبة المتوانية في حدائقها المشمسة في ما يشبه التعريشة او المتعة المؤدية الى مدينة مناجم بيلدوفر المتمددة . جولة لطيفة لعمال المناجم صباحات الآحاد قبل أن تفتح الحانات أبوابها .

وفي وايلي غرين ، انتصبت المدرسة الثانوية ، حيث كان برانغوين مشغولا يومين في الأسبوع ، وحيث تجرى تجارب في التعليم هناك .

أرادت اورسلا أن تعيش في وايلي غرين ، على الجانب الأبعد باتجاه ساوث ويل وغابة شيرود . فالمكان هناك جميل ورومانسي جدا ، بيد أن الخروج الى العالم يعني الخروج الى العالم ، وأن ويل برانغوين يجب أن يصبح إنسانا عصريا .

اشترى ، بنقود زوجته ، بيتا كبيرا بعض الشيء في الجزء الجديد من بيلدوفر المبني بالآجر الأحمر . كانت دارة بُنيت من قبل أرملة مدير المنجم المتوفى ، وتنتصب في شارع فرعي جديد صغير هادئ قرب كنيسة كبيرة .

كانت اورسلا حزينة قليلا . فبدلا من حصولها على التميز ، وصلوا الى ضاحية جديدة ذات قرميد أحمر في مدينة صغيرة كئيبة .

كانت السيدة برانغوين سعيدة ، إذ كانت الغرف كبيرة جدا ؛ غرفة طعام رائعة وغرفة جلوس ومطبخ الى جانب غرفة مكتب لطيفة جدا في الطابق الأسفل . كان كل شيء مخصصا بطريقة تثير الإعجاب . فلقد اسكنت الأرملة نفسها بطريقة مسرفة . كانت من سكان بيلدوفر الأصليين ، وكانت تنوي أن تتوج كملكة تقريبا . كانت غرفة حمامها بيضاء وفضية ، وسلالمها من خشب السنديان ، وقطع مدخنتها ضخمة ، ومن السنديان ذات مساند عمودية بارزة .

«جيد ووطيد» كانت الملاحظة الأساسية ، بيد أن اورسلا رفضت الثراء البدين

* منطقة مورغرين قرب إيستود (بلدوفر في الرواية) ووصف البيت مطابق لمنزل وليم هوبكن صديق لورنس

المنتفخ المستعمل في كل مكان . جعلت والدها يعد بأنه سوف ينحت أجزاء المدخنة الناتئة المصنوعة من خشب السنديان ، أن ينحتها كي تصبح منبسطة . كان نوع الانتفاخ المهم ممقوتا جدا لديها وكان والدها نفسه طويلا ، رخو البنية ، فما علاقته بمثل هذه الأهمية «الجيدة والوطيدة» ؟

جلبوا أيضا قدرا لا بأس به من أثاث الأرملة ، وكان من طراز جيد مألوف ؛ سجادة الولتون الكبيرة ، والمائدة الواسعة المدورة والأرائك المغطاة بقماش براق طبعت عليه صور ورود وطيور . كان البيت مشرقا جدا ولطيفا حقا ذا نوافذ كبيرة ، ومنظر يطل مباشرة على الوادي الضحل

بعد كل شيء ، فإنهم سيكونون ، مثل ما قال أحد معارفهم ، من نخبة بيلدوفر . فهم سيمثلون الثقافة ، ولأن ليس هناك أحد ذو أهمية اجتماعية أكثر من الأطباء ومديري المناجم والصيادلة ، فإنهم سوف يشرقون بلوحاتهم . «المادونا الجميلة» لدي روبيا ومنحوتاتهم الجميلة من دوناتيلو ونسخ لوحات بوتشيلي . لا ، الصور الكبيرة للبريمافيرا وأفروديت وعيد ميلاد السيد المسيح* في غرفة الطعام ، وستخرس غرفة الاستقبال العادية فم بيلدوفر .

وبعد كل شيء ، فإن من الأفضل أن تكون أميرة في بيلدوفر من أن تكون نكرة مبتذلة في الريف .

كانت هناك استعدادات ضخمة تجري لانتقال عائلة برانغوين كلها ؛ عشرة في مجموعهم . وتم تحضير البيت في بيلدوفر ، وفكك البيت في كوسثي . وعندما تحل نهاية الفصل الدراسي ، فإن الانتقال سيبدأ .

تركت اورسلا المدرسة نهاية تموز ، عندما ابتدأت العطلة الصيفية . كان الصباح في الخارج براقا ومشمسا ، ودخلت الحرية الى غرفة المدرسة في ذلك اليوم الأخير . كان الأمر يبدو كما لو أن جدران المدرسة ستذوب ، إذ بدت مسبقا خيالية وغير حقيقية . انه صباح التفرق ، فسرعان ما يكون الطلاب والمعلمون في الخارج ، يذهب كل منهم في طريقه . فلقد حُطمت القضبان ، وانتهت المحكومية ، وكان السجن ظلا آنيا ينوقف حولهم . كان الأطفال يحملون كتبا ومحابر ويطوون الخرائط . وكل وجوههم براقة بالبشر والرضا .

---

* لوحة للرسام الفلورنسي ساندرو بوتشيلي (١٤٤٤ ـ ١٥١٠) ولوحة (ميلاد أفروديت) موجودة في فلورنسا ولوحة ميلاد السيد المسيح موجودة في المتحف الوطني في لندن ، وهي من اللوحات المحببة الى نفس لورنس

كان ثمة نشاط صاخب لتنظيف وازالة كل علامات فصل السجن الأخير هذا . كانوا جميعا يتفرقون أحرارا . وسجلت اورسلا عدد الحضور في السجل ، منشغلة ، متلهفة . وبزهو سجلت الآلاف : فلقد أعطت العديد من آلاف الأطفال دروسا فصلية أخرى . وبدا ذلك هائلا . ومرت الساعات المثارة ببطء في انتظار . وفي النهاية ، انتهى الأمر . وللمرة الأخيرة ، وقفت أمام اطفالها بينما كانوا يصلّون ويغنون ترنيمة ، ثم انتهى كل شيء .

قالت :

ـ وداعا يا أطفال ، لن أنساكم ويجب ألآ تنسوني .

وهتف الأطفال في جوقة ، وبوجوه مشرقة :

ـ لا ، يا آنسة .

وقفت مبتسمة تتفرج عليهم ، متأثرة ، وهم يخرجون في صف . ثم منحت مراقبيها ستة شلنات أجرة الفصل ، وغادروا هم أيضا أقفلت الصوانات ، وغسلت اللوحات ، وأزيحت المحابر والمنافض ، وانتصب المكان عاريا ، فارغا . لقد انتصرت عليه ، وأصبح صدفة الآن . لقد قاتلت قتالا جيدا هنا ، ولم يكن الأمر برمته ممتعا ، وهي مدينة ببعض الامتنان حتى الى هذا المكان الفارغ الصلب الذي يقف كنصب او تذكار . إن جزءا كبيرا من حياتها قد قوتل من أجله وربح وخسر هنا ، شيء منها إليه ، اعترفت به . والآن حل وقت التمتع بالإجازة

في غرفة المعلمين ، كان المعلمون يثرثرون ويتلكأون ، يتحدثون بإثارة عن الأمكنة التي يذهبون إليها ، الى جزيرة مان ، والئ خلانددنو والى يارموث . كانوا متلهفين ومرتبطين بعضهم مع بعض ، كرفاق يغادرون سفينة

ثم جاء دور السيد هاربي ليوجه كلمة الى اورسلا . كان يبدو وسيما بصدغيه الرماديين الفضيين ، وحاجبيه السوداوين ، وصلابته الذكورية التي لا تقهر .

قال

ـ حسن ، يجب أن نقول وداعا للآنسة برانغوين ، ونتمنى لها كل الحظ الطيب للمستقبل وأفترض أننا سنراها مرة أخرى في وقت ما ، ونسمع عن تقدمها .

قالت اورسلا متلعثمة ، متوردة ، ضاحكة :

ـ اوه ، نعم ، اوه ، نعم سآتي وأراكم .

ومن ثم أدركت أن ذلك بدا شخصيا جدا ، فأحست بالحمق .

ـ اقترحت الآنسة سكوفيلد هذين الكتابين .

قال ذلك وهو يضع مجلدين على المنضدة : أتمنى أن يعجباك .

التقطت اورسلا الكتابين ، شاعرة بأنها خجلى جدا . كان هناك مجلد من شعر سونبيرن* وآخر من شعر ميريدث** .

قالت .

ـ اوه ، سأحبهما ، أشكركم جميعا ، إنه..

وتمتمت متوقفة عن الكلام ومحمرة جدا . قلبت صفحات الكتب بلهفة متظاهرة بأخذ المتعة الأولى ، بيد أنها في الحقيقة لم تكن ترى شيئا . كانت عينا السيد هاربي تطرفان ، وهو الوحيد الذي كان مسترخيا ؛ سيد الموقف . كان أمرا يسره أن يقدم هدية لأورسلا ، وأن يعبر ، مرة ، عن إحساس طيب تجاه معلميه . وكقاعدة ، كان الأمر صعبا جدا ، إذ كان كل واحد منهم مجهدا جدا بامتعاض تحت رئاسته .

قال .

ـ نعم ، نتمنى أن يعجبك الاختيار .

نظر بابتسامته المتفردة المتحدية لحظة ، ثم عاد الى صواناته .

أحست اورسلا بالارتباك الشديد ، فاحتضنت كتابيها شاعرة بالحب تجاهها . وأحست أنها تحب المعلمين جميعا والسيد هاربي . كان موقفا مربكا جدا

في النهاية ، أصبحت في الخارج . ألقت نظرة عجلى على بناية المدرسة الجاثمة على الساحة الإسفلتية تحت الشمس الساخنة المتلألئة . وألقت نظرة على الطريق الذي تعرفه جيدا ، وأدارت ظهرها له بأكمله . شيء ما أُجهد في قلبها إنها مغادرة .

ـ حسنٌ ، حظا سعيدا .

قال آخر المعلمين عندما كانت تصافحه عند نهاية الطريق .

ـ نتوقع عودتك في يوم من الأيام .

تحدث بسخرية فضحكت وذهبت لقد تركت شيئا كان يعني الكثير لها .

لن تذهب الى المدرسة بعد الآن ، ولن تفعل الأشياء المألوفة . أمر غريب! كانت

---

* سوبيرن ، الغيريون تشارلس (١٨٣٧ ـ ١٩٠٩) شاعر إنكليزي معروف بمهاراته الحرفية وآرائه المتطرفة . من شعره (أغانٍ قبل شروق الشمس) الذي صدر عام ١٨٧١

** مريدث ، جورج (١٨٢٨ ـ ٩ ١٩) روائي إنكليزي يتميز بقدرة على الاستبصار النفسي ، وله أشعار أيضا عنوانها (حب عصري) صدرت عام ١٨٦٢ .

وخزة صغيرة وسط ابتهاجها ، من الخوف ، وليس من الأسف . ومع ذلك ، يا لبهجتها هذا الصباح!

كانت مُرتعشة بالزهو والمتعة . وأحبت الكتابين . إنهما تذكاران لها ، يمثلان ثمرة وتذكارات السنتين اللتين انتهتا ، حمدا لله!

«الى اورسلا برانغوين ، مع أجمل الأمنيات لمستقبلها ، كذكرى دافئة للوقت الذي قضته في مدرسة القديس فيليب» .

كان مكتوبا بخط المدير الأنيق المدقق . كان باستطاعتها أن ترى اليد المتأنية ، ممسكة بالقلم ، والأصابع السميكة ، بخصلات الشعر السود على ظهر كل واحدة منها .

ولقد وقّع ثم وقّع كل المعلمين . أحبت أن تحصل على تواقيعهم جميعا ، فلقد كانوا زملاءها ، وأحست أنها تحبهم جميعا . إذ كانوا زملاءها العاملين ، ولقد حملت من المدرسة زهوا لا يمكن أن تفقده أبدا . إذ كان لها مكانها كرفيق وشريك في عمل المدرسة ، ووقع لها زملاؤها المعلمون باعتبارها أحدهم . وكانت واحدة من كل العاملين . لقد ضمت قرميدتها الصغيرة الى نسيج الإنسان الذي كانت تبنيه ، وأهلّت نفسها كبنّاء مشارك .

ثم حلّ يوم انتقال البيت . نهضت اورسلا مبكرة كي تحزم البضائع المتبقية . وصلت العربات التي أُعيرت من قبل خالها في حقل مارش ، في الفترة الواقعة بين حصاد القش والقمح . شُدّت الأمتعة في العربة ، وامتطت اورسلا دراجتها الهوائية ، وغذّت السير نحو بيلدوفر . كان البيت لها . دخلت الى صمته المدعوك النظيف . وكانت غرفة الطعام غطيت بحصير قصبي سميك صلب ذي لون نظيف براق وجميل من القصب الذي جففته الشمس وكانت الجدران ذات لون رمادي شاحب ، والأبواب رمادية غامقة . اعجبت اورسلا به كثيرا ، بينما كانت الشمس تتسلل عبر النوافذ الكبيرة ، وتتدفق الى الداخل .

فُتحت الأبواب والنوافذ على مصراعيها لأشعة الشمس ، وكانت الأزهار براقة ومشرقة حول العشب الصغير الذي كان يشرف على الطريق ، ينظر الى الحقل البكر قبالته ، والذي سيبُنى عليه لاحقا . لم يصل أحد ، فتجولت في الحديقة الخلفية نحو الجدار . ودقت أجراس الكنيسة الثمانية معلنة الوقت ، وكان بمقدورها أن تسمع أصوات المدينة من حولها .

وفي النهاية ، شوهدت العربات تستدير حول الزاوية ، والأثاث المألوف متراكم مهان على القمة . وكان شقيقها توم وتيريزا يسيران على الأقدام قرب الكتلة ، متفاخرين بأنهما قطعا عشرة أميال او أكثر على الأقدام من محطة الترام . سكبت اورسلا الجعة ، وشرب

الرجال عطاشى عند الباب . وكانت عربة ثانية قادمة ، وظهر والدها على دراجته البخارية ، وكان هناك نقل مترنح للأثاث على درجات السلالم الى العشب الصغير ، حيث ركنت متراكبة تحت ضوء الشمس ، غريبة ، وغير مريحة جدا

كان برانغوين رجلا ودودا إذ يعمل المرء معه ، مرحاً وبسيطاً . وأحبت اورسلا أن تبتّ في المكان الذي يجب أن توضع فيه الأشياء الثقيلة وراقبت بلهفة الصراع على الدرجات وخلال الأبواب ومن ثم ، أصبحت الأشياء الكبيرة في الداخل ، ورحلت العربات مرة أخرى

شقت اورسلا وأبوها طريقهما الى الداخل حاملين كل الأشياء الخفيفة التي بقيت على العشب ، واضعين إياها في أماكنها . وحان وقت الغداء ، فتناولا الخبز والجبن في المطبخ قال برانغوين مرحا :

ـ حسنٌ ، نحن نتقدم .

وصلت حمولتان أخريان . ومرَّ الأصيل في صراع مع الأثاث في الطابق العلوي وفي نحو الساعة الخامسة ، ظهرت الشحنات الأخيرة متكونة أيضا من السيدة برانغوين والأطفال الأصغر ، يقودها الخال فريد في عربة ، ومشت غدرون مع مارغريت من المحطة . لقد وصلت العائلة بأكملها .

قال برانغوين عندما نزلت زوجته من العربة .

ـ انظري إننا الآن جميعا هنا .

قالت زوجته مسرورة :

ـ نعم .

ولقد خلق الإيجاز المجرد والصمت الناتج من الحميمية بين الإثنين بيتا في قلوب الأطفال ، الذين تجمعوا شاعرين بالغربة في المكان الجديد

كان كل شيء في حالة فوضى ، لكن أُشعلت نار في المطبخ ، وفرشت سجادة الموقد ، ووضع إبريق الشاي على رف الموقد ، وابتدأت السيدة برانغوين عند غروب الشمس تحضير الوجبة الأولى ، وكانت اورسلا وغدرون ترتبان غرف النوم ، والشموع تندفع من مكان لآخر . ومن ثم ، فاحت من المطبخ رائحة شرائح لحم الخنزير والبيض والقهوة . وفي الضوء الغازي ، ابتدأت الوجبة المقلية ، وبدت العائلة وكأنها تتجمع معا ، كمخيم صغير في مكان غريب . أحست اورسلا بعبء المسؤولية عليها ، وكانت قلقة بشأن الأفراد شبه الصغار ، فلقد أُبقي على الصغار قرب الأم .

كان الجو مظلما ، وآوى الأطفال وسنانين ، ولكن مثارين ، الى الفراش . ومر وقت طويل قبل أن يختفي الصوت ، إذ كان هناك قدر كبير من الإحساس بالمغامرة

وفي الصباح كان الجميع مستيقظا قبيل الفجر . وكان الأطفال يصرخون :

ـ عندما استيقظت لم أعرف أين أنا .

كانت هناك أصوات المدينة الغريبة والرنين المتكرر لنواقيس الكنيسة الكبيرة ، أشد الحاحا ، واكثر خشونة من النواقيس الصغيرة في كوسثي . نظروا من خلال النوافذ الى البيوت الحمر الجديدة ، والى التل المشجر عبر الوادي . وتوافر للجميع الإحساس المسر بالمكان والتحرر ، مكان وضوء وهواء .

ولكنهم شرعوا تدريجا يعملون جميعا . كانوا عائلة مهملة غير مرتبة . ومع ذلك ، ما إن قرروا أن يرتبوا البيت حتى سار الأمر في هناءة وسرعة . وعندما حل المساء ، كان المكان مؤسساً بصورة مبدئية .

لم يكن لديهم خادم يعيش في البيت ، بل مجرد امرأة يمكنها الذهاب الى بيتها في الليل ، ولم يحصلوا على هذه المرأة حتى الآن . أرادوا أن يفعلوا ما يشاؤون في بيتهم دون أن يكون هناك غريب وسطهم .

الفصل الخامس عشر

مرارة النشوة

هاجت عاصفة من الاجتهاد في البيت ، فلن تنخرط اورسلا في الكلية قبل تشرين الأول ، لذلك وبإحساس مميز بالمسؤولية ، كما لو أنها يجب أن تعبر عن نفسها في هذا البيت ، كدحت ترتب ، وتعيد الترتيب ، وتختار وتتدبر .

كان بمقدورها أن تستعمل معدات والدها العادية لكل الأعمال الخشبية والحديدية وهكذا ظلت تطرق وتلحم ، وكانت أمها سعيدة تماما ، وهي ترى الأشياء وقد أُنجزت وكان برانغوين مهتما ، إذ كان لديه إيمان مسبق بابنته ، وكان هو الآخر منشغلا ، ناصبا ورشة عمله في الحديقة .

انتهت من عملها في الوقت الحاضر وكانت غرفة الجلوس كبيرة وفارغة ، وفيها سجادة الولنون الممتازة التي كانت العائلة تفاخر بها كثيرا ، والأريكة الكبيرة والكراسي الكبيرة المغطاة بالقماش القطني البراق والبيانو وتمثال الجبس الذي صنعه برانعوين ، وليس الكثير غير ذلك . كانت كبيرة جدا ، وتمنح العائلة إحساسا بالفراغ كي تشغلها كثيرا جدا ومع ذلك ، فلقد أحبوا وجودها كبيرة وفارغة . كان البيت هو غرفة الطعام ، فهناك الحصبر الصلب الذي يغطي الأرضية جاعلا إياها مضيئة ، وينعكس الضوء على مدفأتها . وعند دكة النافذة ، كان مقعد عريض مشرق ، والمائدة صلبة حتى أن المرء لا يستطيع دفعها وكانت الكراسي قوية يستطيع المرء أن يقلبها دون أن يلحق بها أي أذى . وكان أورغن العائلة الذي صنعه برانغوين ينتصب في أحد الجوانب ، ويبدو صغيرا على نحو غريب . وقلل حجم خوان أدوات المائدة الى مقاسات عادية مريحة . كانت هذه غرفة معيشة العائلة

كانت لأورسلا غرفة نوم خاصة بها ، وهي في الأصل غرفة نوم مخصصة لخادم ، صغيرة وبسيطة . وكانت نافذتها تشرف على الحديقة الخلفية ، وعلى حدائق الآخرين الخلفية ،

بعضها قديم ولطيف جدا ، وبعضها تبعثر فيه علب الرزم ، ومن ثم تطل على مؤخرات البيوت التي تحتل مقدمتها دكاكين شارع هاي او البيوت الأنيقة لوكيل المدير او رئيس أمناء الصناديق ، قبالة الكنيسة .

كان أمامها ستة أسابيع قبل أن تذهب الى الكلية . وفي هذا الوقت ، قرأت مرة أخرى بعضا من اللغة اللاتينية وعلم النبات ، ودرست دراسة متقطعة بعضا من الرياضيات . كانت تنخرط في الجامعة بصفتها معلمة لغرض التدريب ، وبعد أن اجتازت امتحان القبول مسبقا ، فإنها أدخلت للدراسة الجامعية . وبعد انقضاء سنة ، ستدرس الآداب المتوسطة ، وسنتين بعد ذلك ، للحصول على بكالوريوس الآداب . لذلك فإن حالتها لم تكن حالة معلمة مدرسة عادية ، بل ستدرس وسط طلاب على نفقتهم الخاصة جاءوا لغرض التعلم الصرف ، وليس لمجرد التدريب المهني . ستكون من النخبة . وطوال السنين الثلاث القادمة ، ستكون مستقلة بطريقة او أخرى عن أبويها مرة أخرى . كان تدريبها مجانا ، فلقد دفعت كل أجور الكلية من قبل الحكومة ، كما أنها ستحصل على منحة قدرها بضعة جنيهات كل عام ، وهذه ستكفي فقط لدفع أجور القطار والملابس ، وما على والديها سوى إطعامها ، فهي لا تريد أن تكلفهم كثيرا ، لأنهم لن يكونوا ميسوري الحال ، فوالدها لن يكسب سوى مئتي جنيه في السنة ، وإن قدرا كبيرا من رأس مال أمها قد أنفق على شراء البيت . ومع ذلك ، كان هناك ما يكفي للتصرف به .

كانت غدرون منخرطة في مدرسة الفنون في نوتنغم ، وهي تعمل في النحت خصوصاً ، إذ كانت موهوبة في هذا . وكانت تهوى صنع نماذج صغيرة من الطين للأطفال او الحيوانات ، ولقد عرض مسبقا بعضها في معرض الطلاب في القلعة ، وأصبحت غدرون شخصية مميزة . وكانت متذمرة من مدرسة الفنون ، وتريد الذهاب الى لندن ، لكن لم يكن هناك ما يكفي من النقود ، كما أن والديها لن يدعاها تذهب بعيداً الى هذا الحد .

تركت تيريزا المدرسة الثانوية . كانت فتاة لكعة ، وقحة ، ضخمة ، كبيرة ، لامبالية بكل التوجيهات العليا . وستبقى في البيت ، وكان الآخرون في المدرسة عدا الصغار . وعندما يبدأ الفصل الدراسي ، فإنهم سينقلون جميعا الى المدرسة الثانوية في وايلي غرين

كانت اورسلا مثارة بخصوص التعرف على الناس في بيلدوفر ، وسرعان ما مرت الإثارة ، إذ تناولت الشاي في بيت القس ، وفي بيت الصيدلاني والصيدلاني الآخر والطبيب وبيت وكيل المدير . ومن ثم تعرفت عمليا على الجميع . ولم يكن بمستطاعها أن تأخذ الناس على محمل الجد كثيرا ، رغم أنها أرادت ذلك حينئذ . تجولت في الريف ، على

قدميها ، وعلى دراجتها الهوائية مكتشفة أنه مكان جميل جدا باتجاه الغابة بين مانسفيلد وساوث ويل ووركسوب ، بيد أنها كانت تناوش هنا من أجل المتعة حسب ، وسيبدأ استكشافها الحقيقي في الكلية .

بدأ الفصل الدراسي ، وكانت تذهب الى المدينة كل يوم بالقطار ، وابتدأ هدوء الكلية المنعزل يطبق عليها .

لم تكن خائبة الظن في البداية . كانت الكلية الكبيرة المبنية من الأحجار تنتصب في الشارع الهادئ ، وبحافة من العشب وأشجار الليمون المالح التي كانت ساكنة أيضا أحسّت بها أرضا سحرية نائية ، كان طرازها المعماري أخرق . لقد عرفت ذلك من والدها . ومع ذلك ، فإنها كانت مختلفة عن البنايات الأخرى جميعها . كان شكلها القوطي الجميل المرح أقرب ما يكون الى الترف في المدينة الصناعية القذرة

أحبت القاعة بكفاف موقدها الحجري الكبير ، وأقواسها القوطية التي تسند الشرفة العليا . وللتأكد من قبح الأقواس ، فإن كفاف الموقد بأحجاره المنحوتة كالورق المقوى وبزخرفته المميزة لشعار النبالة ، بدا تافها مقابل موقف الدراجة الهوائية والمدفأة تماما ، في حين بدت لوحة الإعلانات بأوراقها المرفرفة ، وكأنها تصفع كل إحساس التراجع والغموض من الجدار البعيد ومع ذلك ، فهي غير متشكلة مثل ما قد تكون . كانت فيها ذكرى من أصل التعليم التفردي المدهش . وانسابت روحها عائدة مباشرة الى القرون الوسطى ، عندما تولى قسس الرب تعليم البشر وحولوه ضمن ظل الدين . وفي هذه الروحية دخلت الكلية .

ولقد آذتها قساوة الردهات وغرف الحمامات وابتذالها في البداية لمَ لا تكون جميعها جميلة ؟ بيد أنها لم تعلن انتقادها ، إذ كانت على أرض مقدسة

أرادت أن يتمتع كل الطلبة بروح عالية نقية ، أرادتهم أن يقولوا الأشياء الحقيقية الأصلية فقط . أرادت أن تبقى وجوههم ساكنة ومضيئة كوجوه الراهبات والقسس .

لكن واحسرتاه ، فالطالبات كن يثرثرن ويكركرن ويبدون متوترات ، وكن متزينات مجعدات الشعر ، وبدا الذكور وضيعين ومهرجين .

ومع ذلك ، كان أمرا رائعا أن يجتاز المرء الممر ، وكتبه في إحدى يديه كي يدفع الباب المتأرجح المدعم بالزجاج ، ويدخل غرفة كبيرة حيث ستلقى المحاضرة الأولى .

كانت النوافذ واسعة مرتفعة ، وانتصبت مناضد الطلبة البنية الكثيرة منتظرة ، وكانت اللوحة السوداء الهائلة ناعمة خلف المنبر . جلست اورسلا قرب النافذة الى الخلف قليلا ،

وبينما كانت تنظر الى الأسفل ، رأت أشجار الزيزفون تتحول الى لون أصفر ، وصبي الحانوتي يمر صامتا عبر الشارع الساكن الذي تغمره شمس الخريف . كان العالم هناك نائيا ، نائيا

هنا داخل صدفة البحر الهامسة الهائلة التي تهمس طوال الوقت بذكرى كل القرون ، هنا زمن غابر . وملأ صدى المعرفة ، الصمت السرمدي .

أصغت ، وخربشت ملاحظاتها بمتعة بما يقرب النشوة ، لا تنتقد ولو لحظة ما تسمع . كان المحاضر لسان حال ، راهبا . وعندما وقف بردائه الأسود على المنبر ، فإن بعضا من جدائل تشوش المعرفة الهامس التي ملأت المكان بأكمله ، بدت كأنها تتفرد وتحاك معا من قِبله حتى أصبحت محاضرة .

في البداية ، منعت نفسها من النقد ، فلم تكن تعدُّ الأساتذة بشرا ، بشرا عاديين ممن يأكلون شرائح لحم الخنزير ، ويرتدون أحذيتهم الطويلة قبل أن يأتوا الى الكلية . بل هم قسس المعرفة ذوو الأردية السود ، يخدمون أبدا في معبد نائٍ ساكن ، إنهم الراسخون ، وإن بداية السر الخفي ونهايته في عهدتهم .

منحتها المحاضرات متعة غريبة ، إذ كان ممتعا أن تسمع نظرية التعلم ، وثمة قدر من الحرية والمتعة في التجوال في مادة المعرفة ذاتها ، ورؤية الكيفية التي تحركت وعاشت وتملكت كيانها بها . يا للسعادة التي منحها اياها راسين*! وكانت تجهل سبب ذلك ، لكن حين فضت سطور المسرح الكبيرة انفسها ، ثابتة جدا ، مقيسة جدا . أحست برعدة كما لو أنها في عالم الواقع . وفي اللغة اللاتينية ، كانت تدرس ليفي وهوراس** . ولقد ناسبت نبرة الدرس اللاتيني الحميمة المتلمظة هوراس .

ومع ذلك ، لم تبد اهتماما به قط ، ولا حتى بليفي إذ ثمة فقدان كلي للصرامة في غرفة الدرس الضاجة بالنميمة . ولقد بذلت قصارى جهدها كي تحتفظ بفهمها القديم للروح الرومانية ، لكن تدريجا ، أصبحت اللاتينية مادة تلمظ ، زائفة في تصورها ، مسألة سلوك وإطناب .

وكان درس الرياضيات رعبا لها ، إذ كان المحاضر يدرّس بسرعة ، وكان قلبها ينبض بلهفة ، وبدت تجهد كل عصب عندها . ولقد كافحت بشدة في أثناء المطالعة الشخصية كي تسيطر على المادة .

---

* راسين ، حان (١٦٣٩ ـ ١٦٩٩) مسرحي فرنسي كان ماده للنقاش في الفصل العاشر من رواية (عشيق الليدي تشاترلي) للورنس
** تيتيوس ليفيوس (ليفي) مؤرخ روماني وهوراتيوس (هوراس) شاعر وناقد ساخر

ثم حلت أوقات الأصيل المحببة الهادئة في مختبر النبات . وكان هناك عدد قليل من الطلبة وكم أحبت أن تجلس على كرسيها العالي أمام المنصة ، ومعها لب النبات والموسى ، ومادتها ، تحصي شرائحها ، وتضبط مجهرها بعناية ، ثم تستدير بمتعة كي تسجل ملاحظاتها ، وترسم باستمتاع في دفترها ، إذا كانت الشريحة جيدة .

وسرعان ما اتخذت لها صديقة في الجامعة ؛ فتاة كانت عاشت في مدينة البندقية ، ترتدي لفاعا فاخرا قرمزي اللون او مُرسَّماً ، يتدلى على ثوب بسيط أسود . كان اسمها دوروثي رسل ، وهي ابنة محامٍ من الريف الجنوبي . ولقد عاشت دوروثي مع عمة لها ، غريبتين في نوتنغم . وكانت تقضي لحظات فراغها تخدم في اتحاد المرأة الاجتماعي والسياسي

كانت هادئة ومجهدة ذات وجه عاجي وشعر غامق يتشكل في عقد بسيطة على أذنيها . وكانت اورسلا مغرمة بها كثيرا ، بيد أنها كانت خائفة منها ، إذ بدت كبيرة السن وقاسية تجاه نفسها ، رغم أنها كانت في الثانية والعشرين من عمرها . ولقد أحست اورسلا دائما أنها مخلوقة قدرية مثل كاساندرا* .

نشأت بين الفتاتين صداقة حميمة وصارمة . كانت دوروثي تنجز الأشياء كلها بالهوى نفسه ، دون أن ترحم نفسها أبدا . واشتد اقترابها من اورسلا في أثناء ساعات درس النبات ، ذلك لأنها لا تستطيع الرسم ولقد قامت اورسلا برسم رسومات جميلة ومدهشة للمقاطع تحت المجهر ، واقتضى الأمر من دوروثي أن تتعلم طريقة الرسم دوما .

وهكذا مرت السنة الأولى في عزلة رائعة وبفعالية التعلم ، وكانت حياتها الجامعية شاقة كمعركة . ومع ذلك ، نائية كسلام .

جاءت الى نوتنغم في الصباح مع غدرون ، وكانت الأختان مميزتين أنّى ذهبتا . فتاتان رشيقتان قويتان متلهفتان وحساستان جدا وكانت غدرون هي الأجمل بينهما ، بفتوتها الوسنانة شبه الواهنة التي تبدو رقيقة جدا ، ومع ذلك ، متوازنة وثابتة في الداخل . كانت ترتدي ملابس رقيقة بسيطة ، وقبعة تتهدل وحدها في حُسنٍ لامبال .

أما اورسلا فلقد كانت أكثر تفننا في ملبسها ، بيد أنها كانت مدركة نفسها ، مغرمة جدا بشخص آخر على الدوام ، مقلدة إياه ، وبذلك خالقة تنافرا لابد منه . وعندما كانت ترتدي ملابس لأغراض عملية ، فإنها كانت تبدو أنيقة الهندام دائما . ففي الشتاء ، كانت ترتدي تنورة

---

* في الأساطير اليونانية إبنة برياموس ملك طروادة ، أحبها أبولو لفرط جمالها فوهبها ملكة التنبؤ عندما قبلت أن يخطبها ، وعندما حنثت بوعدها جعل نبوءتها باطلة لا يثق بها أحد وهي نذير نحس دوما

وسترة من قماش التويد ، وقبعة صغيرة من الفرو الأسود مسحوبة على وجهها المتلهف النابض . وكانت تبدو وهي تمشي في الشارع في حركة مجرفة من الترقب ، وفي تقبل حساس جدا .

في نهاية السنة الأولى ، اجتازت اورسلا امتحان الآداب المتوسط ، وتلا ذلك توقف في فعالياتها المتحمسة ، فتوانت واسترخت تماما ، وأصبحت نزقة وسريعة الغضب ، بسبب التوتر الناتج عن الاستعداد للامتحان والزهو الذي عراها أثناء الأزمة نفسها ، فسقطت الآن في انخذال مرتجف ، وتراخت إرادتها تماما

ذهبت العائلة الى سكاربره مدة شهر . وكانت غدرون والأب مشغولين في مدرسة الأشغال اليدوية التي تفتح في العطلة هناك . وتركت اورسلا فترة مناسبة مع الأطفال ، وحين يقيض لها كانت تخرج وحدها .

وقفت وتأملت البحر المتألق . كان جميلا جدا في تصورها . وتدفقت الدماء ، حارة في قلبها

خارجا من البعد ، زحف الأفق البعيد ببطء الى توقها الحنون الذي لم يولد بعد ، فثمة العديد من ساعات الفجر التي لم تنبلج بعد* . كان الأمر يبدو ، من حافة البحر ، كما لو أن كل النهارات التي لم تشرق بعد تتوسل إليها ، وكل روحها التي لم تولد بعد تصرخ بحثا عن النهارات التي لم تشرق بعد

وعندما جلست متأملة البحر الرقيق ، بوميضه المحبب الرشيق ، ارتفع النشيج في صدرها ، حتى أطبقت على شفتها فجأة بأسنانها ، وتفجرت الدموع من عينيها . وفي ذروة نشيجها ضحكت ، لماذا تبكي ؟ إنها لا تريد أن تبكي . كان أمرا جميلا أن تضحك ، وكان أمرا جميلا أن تبكي نظرت من حولها مترقبة خشية أن يراها أحد . وهي في هذه الحالة .

بعدها حل وقت اضطرب فيه البحر ، وراقبت الماء وهو يسافر الى الشاطئ ، ورأت موجة كبيرة تندفع خلسة كي تنفجر في صدمة من الزبد على صخرة ، مغلفة إياها بجمال أبيض هائل لتنسكب كرّة أخرى ، تاركة الصخرة مغمورة سوداء موارة . اوه ، وكما لو أنها قد تحررت فقط عندما انفجرت الموجة متحولة الى بياض!

في بعض الأحيان ، كانت تتسكع في الميناء ، تتأمل البحارة الذين لوحهم البحر في ملابسهم المصنوعة من الجرسيه الأزرق ، وهم يسترخون على جدار الميناء ، ويضحكون منها بعيون طائشة معبرة

---

* اقتباس من كتاب (رنعميدا) الهندي ومن المؤكد تقريبا أن العبارة مأخوذة من اقتباس .

كانت ثمة علاقة طفيفة مؤسسة بينها وبينهم . ما كانت تتحدث معهم قط او أن تعرف المزيد عنهم . ومع ذلك ، عندما تمر أمامهم ويستندون على جدار البحر ، يحدث شيء ما بينهم وبينها . شيء حميم ومسر ومؤلم . ولقد أحبت أكثر من بينهم الشاب الذي كان شعره أشقر ملحياً ، يتهدل على عينيه الزرقاوين . كان جديدا وعذبا ومالحا جدا ، وليس من هذا العالم

من سكاربره ، ذهبت الى بيت خالها توم . كانت وينفريد أنجبت طفلا صغيرا ، ولد في نهاية الصيف . ولقد أصبحت غريبة وبعيدة عن اورسلا ، وثمة تحفظ غير معلن بين المرأتين . كان توم برانغوين والداً مراعيا ، وزوجا أليفا جدا ، لكن ثمة شيئاً زائفاً في هذا التدجين   ولم تعد اورسلا تحبه ، إذ ظهر شيء قبيح سمج في طبيعته الآن جاعلا إياه يحول كل شيء على أساس عاطفي . تخلى عن كونه ماديا ملحدا بأن أصبح ممتلئا بشعور إنساني ، مضيافاً ، دافئاً ، مراعياً ، وزوجاً كريماً ، ومواطناً مثالياً . وكان ذكيا الى درجة كافية لإثارة الإعجاب به في كل مكان ، ولأن يخدع زوجته تماما . ولم تكن تحبه . وكانت سعيدة أن تعيش في حالة من خداع النفس القانع معه ، وعملت وفق ما يهوى .

شعرت اورسلا بالتحرر لأنها ستعود الى البيت ، فلم تزل أمامها سنتان هادئتان ، ومستقبلها مستمر طوال السنين . وعادت الى الكلية كي تستعد لإمتحانها النهائي ، بيد أن السحر ابتدأ يغادر الكلية خلال هذه السنة* ، فالأساتذة ليسوا قسسا ملقنين غوامض الحياة والمعرفة العميقة ، فبعد كل شيء ، كانوا رجالا متوسطين ، يتداولون سلعا أصبحوا معتادين عليها حتى أنهم كانوا ينسونها   ماذا كانت اللغة اللاتينية ؟ مجرد بضاعة جافة من المعرفة ، وما درس اللغة اللاتينية بأكمله سوى نوع من دكان تحف مستعملة ، حيث يشتري المرء تحفا ، ويتعلم أسعار التحف ، تحفا كئيبة عموماً . ولقد أضجرتها التحف اللاتينية بقدر ما أضجرتها التحف الصينية واليابانية في محلات التحف . كانت كلمة «تحف» في حد ذاتها تجعل روحها تسقط مستوية ميتة .

تلاشت الحياة من دراستها ، ما السبب ؟ لم تكن تعرف ، بيد أن الأمر بأكمله ، بدا أقواسا قوطية زائفة ، زائفة ، صورية ، سلاما زائفا ، اساليب لاتينية زائفة ، جلالا فرنسيا زائفا ، سذاجة شوسير زائفة . دكان تاجر للبضائع المستعملة ، ويشتري المرء عدة للإمتحان . كان ذلك مجرد عرض جانبي لمصانع المدينة حسب . وتدريجا سُرق الإدراك في

---

* هذا ما حدث للورنس بالضبط خلال السنة الأولى من التحاقه بجامعة نوتنغم

داخلها . لم يكن تراجعا دينيا ولا عزلة من التعلم المجرد ، بل كان مجرد دكان حرف صغير حيث يدرِّب المرء ، كي يكسب نقودا ، الكلية نفسها كانت مختبرا صغيرا مهملا للعمل .

وخيّم عليها تحرر قاس قبيح من الوهم مرة أخرى . الظلام نفسه والكآبة المُرّة التي لم تعد بأمان منها الآن أبدا ، إدراكها لأساس القبح الدائم تحت كل شيء . وعندما عادت الى الكلية وقت الأصيل ، كان العشب مغطى برغوة من زهر اللؤلؤ وأشجار الزيزفون ، تتدلى غضة ومضاءة وخضر . وآه ، كانت رؤية رغوة زهر اللؤلؤ البيضاء العميقة تبريحا لها .

ذلك لأنها تعرف أنها في الداخل ، داخل الكلية ، ويجب أن تدخل الى الورشة الزائفة وطوال الوقت ، كانت مخزنا زائفا ، مخزن بضاعة زائفة ، وبحافز منفرد هو الكسب المادي دون إنتاج . إنه يتظاهر بالوجود بحكم جوهر ديني من المعرفة ، بيد أن جوهر المعرفة الديني أصبح تابعا لرب النجاح المادي

وخيّم عليها نوع من الخمول . وآليا ، وبحكم التعود ، استمرت بدراستها ، بيد أن الأمر كاد أن يكون ميؤوسا منه ، إذ لم يكن بمستطاعها أن تصغي لأي شيء إلاّ لماما وفي المحاضرة عن الأنكلو ساكسونيين ، وقت الأصيل ، جلست تنظر الى الأسفل ، خلال الشباك دون أن تسمع كلمة واحدة عن بيوولف* او عن أي شيء آخر . وفي الأسفل ، في الشارع كان الصيف الرمادي المشمس ، يمتد بجانب السياج ، وعبرت امرأة ترتدي ثوبا قرنفليا ومظلة قرمزية الشارع ، وكلب أبيض صغير كشرارة ضوء يركض من حولها وجاءت المرأة ذات المظلة في الشارع ، وثمة هزج في مشيتها ، وظل صغير من حولها . راقبتها اورسلا مفتونة ، وكانت المرأة ذات المظلة القرمزية والكلب الوامض قد اختفيا . الى أين ، الى أين ؟

في أي عالم من الواقع كانت تسير المرأة ذات الثوب القرنفلي ؟ وفي أي مخزن من لاواقع ميت كانت محصورة هي الأخرى ؟ ما نفع هذا المكان ؟ هذه الكلية ؟ ما فائدة الأنكلو ساكسونيين عندما يتعلم المرء كي يجيب عن أسئلة الإمتحان حسب ، لمجرد أن يحصل على قيمة تجارية أعلى حقا ؟ لقد ضجرت من هذا القداس الطويل عند الضريح التجاري الداخلي . ومع ذلك ، ماذا هناك أكثر ؟ هل الحياة هي كل هذا ، وهذا حسب ؟ في كل مكان ، كل شيء قد حط من قدره الى المستوى نفسه . وأخذ كل شيء ينتج أشياء مبتذلة كي يثقل الحياة المادية .

---

* ملحمة أنكلو ـ ساكسونية مجهولة المؤلف كُتبت في نحو عام ٧٠٠ ميلادية ، تدور حوادثها إما في الدنمارك أو جنوب السويد ، وتحكي قصة البطل بيوولف الذي يهزم الوحش غرنديل وأمه ، بيد أنه يُقتل في النهاية عند قتله التنين

وفجأة تخلت عن درس اللغة الفرنسية ، وقررت أنها يمكن أن تحصل على درجة شرف في النبات* . وكان ذلك هو الدرس الوحيد الذي عاشت من اجله ، إذ انها ولجت حياة النباتات ، وأدهشتها قوانين عالم النبات الغريبة ، وتوافرت لها إلماحة عن شيء ما يعمل منفصلا تماما من غرض العالم الإنساني

كانت الكلية قاحلة ، رخيصة ، معبدا حُوّل الى تجارة تافهة شديدة الابتذال ألم تذهب لتسمع صدى التعلم يرتد نابضا الى مصدر الغموض ؟ مصدر الغموض! وبطريقة عقيمة كان الأساتذة بأرديتهم الجامعية يعرضون سلعة تجارية يمكن أن تحوّل الى حساب جيد في عرفة الامتحان . مادة جاهزة الصنع أيضا ، ولا تستحق النقود التي يؤمل ان تعود بها ، وهو أمر يعرفونه جميعا .

وكانت في الكلية الآن طوال الوقت ، إلا عندما تكدح في مختبر النبات ، ذلك لأن الغموض مايزال يومض هناك . وكانت تشعر أنها إنما تبتذل نفسها في مايشبه مضاربة تجارية زائفة .

ظلت في فصلها الدراسي الأخير ، غاضبة متصلبة . كانت تفضل أن تخرج مرة أخرى كي تكسب عيشها ، بل حتى أن شارع برنسلي والسيد هاربي بدوا حقيقيين بالمقارنة ، إذ أن كرهها العنيف لمدرسة اليكستون كان لا شيء مقارنة بابتذال الكلية المجدب ، بيد أنها لن تعود الى شارع برنسلي أيضا ، بل ستأخذ شهادة البكالوريوس ، وتصبح مدرسة في مدرسة ثانوية بعض الوقت .

كانت عجلة سنتها الأخيرة في الكلية تدور ببطء ، وكان بمقدورها أن ترى أمامها امتحانها ومغادرتها ، وثمة رماد تحررها من الوهم يصرف تحت أسنانها . هل تكون حركتها القادمة مشابهة أيضا ؟ الباب البراق أمامها دوما . ومن ثم ، وعندما تقترب منه يتحول الباب المشرق بوابة تؤدي الى ساحة قبيحة أخرى قذرة وفعالة وميتة** . ودائما تومض قمة التل تحت السماء أمامها . ومن ثم ، ومن قمة التل ، ليس هناك غير واد قذر مليء بفعالية غير متشكلة وضيعة .

لا يهم! فكل قمة تل مختلفة قليلا ، وكل واد جديد بطريقة ما . كوسثي وطفولتها مع أبيها ، حقل مارش ومدرسة الكنيسة الصغيرة قربه ، وجدّتها وأخوالها والمدرسة الثانوية في

---

* تقول حيسي تشامرز صديقة لورنس في طفولته إنه تعلق بمتاة تعمل محاضرة بعلم النبات .

** يبدو أن تجارب أورسلا تقود من الأرض الموعودة الى الأرض اليباب ، كحالة معكوسة للتتابعات الإنجيلية من العالم الذي دمره الطوفان الى ميثاق قوس قزح ، ومن النفي في مصر الى الخروج الذي علامته أعمدة النار والسحابة

نوتنغم ، وأنطون سكريبنسكي ، والرقصة تحت ضوء القمر بين النيران . ومن ثم الوقت ، الذي لا تستطيع التفكير به دون أن تنفجر ؛ وينفريد انغر ، والشهور قبل أن تصبح معلمة ، ثم رعب شارع برنسلي ، تغطس في سلام نسبي ، وماغي وأخو ماغي الذي مازالت تستطيع أن تشعر بتأثيره في عروقها عندما تستحضره ، ثم الكلية ودوروثي رسل التي في فرنسا الآن ، ثم الحركة القادمة الى العالم مرة أخرى!

لقد أصبح كل شيء تاريخا ماضياً . وفي كل مرحلة كانت مختلفة تماما . ومع ذلك ، كانت على الدوام اورسلا برانغوين ، ولكن ماذا تعني اورسلا برانغوين ؟ لم تكن تعرف كنه نفسها باستثناء أنها كانت ممتلئة بالرفض والإنكار . كانت دائما وأبدا تبصق من فمها رماد وحصباء التحرر من الوهم ، الزيف . كانت تتيبس من الرفض ، من الرفض حسب . وكانت تبدو سلبية في تصرفاتها دوما .

ذلك ما كانته . كانت ، ولا شك ، مظلمة محتجبة ، لا تستطيع الظهور . كانت كبذرة دُفنت في رماد جاف ، وهذا العالم الذي تعيش فيه يشبه دائرة يضيئها مصباح . هذه المساحة المضاءة التي تضاء بوعي المرء الأكثر اكتمالا ، ظنت أنها العالم كله ، وأن كل شيء قد كشف والى الأبد . ومع ذلك ، وطوال الوقت ، وفي داخل الظلام ، كانت شاعرة بوجود نقاط من الضوء ، كعيون ضوار متوحشة ، متلألئة ، مخترقة ، مختفية . ولقد أقرت روحها في جيشان رعب بالظلام الخارجي حسب . دائرة الضوء الداخلية هذه التي عاشت وتحركت فيها ، حيث تمرق فيها القطارات ، وتطرح فيها المعامل نواتج مكائنها ، وتعمل النباتات والحيوانات بضوء العلم والمعرفة ، بدت فجأة كأنها منطقة تحت مصباح قوسي ، حيث تمرح الفراشات والأطفال في أمان الضوء المغشي للإبصار ، دون أن يعرفوا إن كان ثمة ظلام ، ذلك لأنهم بقوا في الضوء .

بيد أن بمقدورها أن ترى ومض الحركة المظلمة خارج المدى حسب . ورأت عيني الضاري المتوحش وهما تبرقان في الظلام ، تراقبان خيلاء نار المخيم والنائمين . وأحست بخيلاء المعسكر الغريبة الحنقاء التي قالت «لا شيء خارج ضوئنا ونظامنا» . ميممين وجوههم دائما نحو الداخل ، صوب نار الوعي المضيئة الغاطسة التي تضم الشمس والنجوم ونظام الحق ، مهملين دوما الظلام الشاسع الذي يدور من حولها ، بأشكال شبه متكشفة تتسكع على الحافة .

نعم ، ولم يتجرأ امرؤ على أن يرمي حطبة مشتعلة في الظلام ، فلو فعل ذلك لسخر منه الآخرون حتى الموت ، ولصرخوا به : «أحمق ، أيها الوعد اللااجتماعي ، لماذا تزعجنا

بالأشباح ؟ فليس ثمة ظلام ، إننا نتحرك ونعيش ولنا كياننا ضمن الضوء ، ومنحنا داخلنا ضوءا أزليا من المعرفة ، ونحن نكون ونفهم لب المعرفة الداخلية وجوهرها . احمق ووغد ، لماذا تستخف بنا بالظلام ؟ » .

ومع ذلك ، يظل الظلام يدور بأشكال معتمة رمادية لضوار متوحشة ، وكذلك بأشكال معتمة مظلمة من الملائكة ممن طردهم الضوء ، مثل ما يطرد وحوش الظلام الأكثر ألفة . إن بعضهم ، وقد رأى الظلام ، رآه ينتصب مع شعر الضباع والذئاب ، وقد تخلى بعضهم عن خيلائه بالضوء ، بعد أن ماتوا في غرورهم رأوا الومض في عيون الذئب والضبع ، ذلك الذي كان بريق سيف الملائكة يبرق عند الباب كي يدخل ، وكان الملائكة في الظلام وقورين ومزعجين ولا يمكن إنكارهم كبريق الأنياب .

كان ذلك قبيل عيد الفصح ، في سنتها الأخيرة في الكلية ، عندما كانت اورسلا في الثانية والعشرين من العمر ، عندما وصلتها أخبار من سكربينسكي من جديد . كان كتب لها مرة او مرتين من جنوب أفريقيا خلال الشهور الأولى من خدمة الحرب هناك ومنذئذ ، كان يرسل لها بطاقة بريدية من حين لآخر ، وفي فترات متباعدة لقد أصبح ملازما أول ، وبقي في أفريقيا ، ولم تصلها أخبار منه منذ ما يزيد على السنتين .

وغالبا ما كانت أفكارها تعود إليه ، إذ بدا لها مثل فجر وامض أصفر مشع ليوم رمادي طويل . وكانت ذكراه كذكرى ساعات الصباح الأولى المشعة وهنا رماد الأيام الأخيرة الفارغ . آه ، لو أنه بقي حقيقيا لها حسب ، لربما عرفت شروق الشمس دون كل كدح النهار الضائع وابتذاله هذا ، لكان قد أصبح ملاكها . لقد أمسك مفاتيح شروق الشمس وما زال يمسكها . ان بمقدوره ان يفتح لها بوابات الحرية والمتعة اللاحقة . لا ، لو أنه بقي حقيقيا في نظرها لكان باباً لها في سماء السعادة والانغماس التي لا حدود لها ، حرية لا تستنفد ، هي بمثابة نعيم روحها . آه ، يا للمدى الهائل الذي كان سيفتحه أمامها ، الأفق الذي بلا حدود او نهاية ، لتمييز الذات والاستمتاع الى الأبد .

الشيء الوحيد الذي آمنت به هو الحب الذي حصلت عليه منه ، إذ بقي متألقا وكاملا ، شيئا تعود لتصيخ السمع إليه . وكانت تردد لنفسها عندما تخفق أشياء حاضرها .

ـ آه ، كنت مغرمة به .

كما لو أن زهرة حياتها الرئيسية معه قد ماتت ، وهاهي تسمع منه مرة أخرى . كان الألم هو الشعور الرئيسي ، فلم تدم المتعة او السعادة التلقائية فترة أطول ، غير أن رغبتها استمتعت مرة أخرى ، فرغبتها قد ثبتت نفسها عليه ، وانتفضت إثارة أحلامها القديمة

واستيقظت . لقد عاد الرجل ذو الشفتين المدهشتين اللتين يمكن أن ترسلا قبلة تتذبذب الى نهاية الكون كله ، هل عاد إليها ؟ لم تصدق ذلك .

عزيزني اورسلا

لقد عدت الى انكلترا مرة أخرى لبضعة شهور ، قبل أن أغادرها مرّة ثانية الى الهند هذه المرة . إني أتساءل إن كنت ماتزالين تحتفظين بذكرى الأوقات التي قضيناها معا ، فأنا لاأزال أحتفظ بصورتك الصغيرة . لابد أنك تغيرت منذئذ ، إذ كان ذلك قبل ست سنوات ، وأنا الآن أكبر بست سنوات كاملة . لقد عشت حياة محتلفة منذ أن تعرفت عليك في كوسثي ، وإني أتساءل إن كنت راغبة في مقابلتي . سوف آتي الى دربي في الأسبوع القادم ، وأمرُّ على نوتنغم ، وقد نحتسي الشاي معا . هل تعلمنني بقرارك ، سأظل أنتظر جوابك .

أنطون سكربينسكي

كانت اورسلا أخذت هذه الرسالة من الرف في قاعة الكلية ، وفتحتها بينما كانت تسير صوب غرفة النساء . وابتدأ العالم يذوب من حولها ، ووقفت وحيدة في الهواء النقي

الى أين تيمم وجهها كي تختلي بنفسها ؟ هربت الى الطابق العلوي ، وعبر الممر المؤدي الى غرفة المراجع جلست ممسكة كتابا ، وتأملت الرسالة . وجب قلبها ، وارتجفت أطرافها . وكما لو أنها في حلم ، سمعت قرع جرس في الكلية ، ومن ثم صوتا آخر بطريقة غريبة لفد انقضت المحاضرة الأولى .

وباستعجال أخذت أحد دفاترها ، وطفقت تكتب :

عزيزي أنطون

نعم مازلت أحتفظ بالخاتم سأكون سعيدة جدا بلقياك مرة أخرى . بإمكانك أن توافيني الى الكلية ، او ألتقيك في مكان ما في المدينة . هل تخبرني بما يقر عليه رأيك

صديقتك المخلصة

طلبت من أمينة المكتبة التي كانت صديقتها ، مرتجفة ، أن تعطيها مظروفا ، فأغلقته وكتبت العنوان على رسالتها . وخرجت ، حاسرة الرأس ، كي ترسلها . وعندما أسقطت الرسالة في صندوق البريد ، أصبح العالم ساكنا جدا ، مكانا شاحبا دون تخوم . عادت متجولة الى الكلية ، الى حلمها الشاحب ، كأول خيط واهن من ضياء الفجر .

جاء سكربينسكي في أصيل أحد أيام الأسبوع التالي . ويوما بعد آخر ، كانت تسرع بخفة الى رف الرسائل عند وصولها الى الكلية في الصباح ، وخلال فترات الإستراحة بين المحاضرات ، وعدة مرات ، وبرشاقة وبأصابع خفية ، أمسكت رسالته عن أعين الناس ، وهربت عبر القاعة ، ممسكة إياها بسرعة وخفية ، وقرأت رسائله في مختبر النبات حيث حجزت لها زاويتها طوال الوقت .

وصلتها عدة رسائل منه ، ثم قال إنه قادم لزيارتها ، وحدّد لذلك أصيل يوم جمعة ، وعملت على المجهر بحماسة محمومة ، قادرة على أن تكرس نصف اهتمامها حسب ومع ذلك ، كانت تعمل بسرعة ودأب . كانت في شريحتها مادة خاصة وصلت من لندن ، ذلك اليوم ، وكان الأستاذ نزقا وقلقا بشأنها . وفي الوقت نفسه ، وعندما سلطت الضوء على الشريحة ، رأت الحيوان النبات يتمدد معتما في ضوء لا حدود له وكانت تتضجر من محادثة لها وقعت قبل بضعة ايام مع الدكتورة فرانكستون* ، التي كانت استاذة الفيزياء في الكلية ، إذ كانت الدكتورة فرانكستون قالت :

ـ ليس حقا ، وأنا لا أرى مبررا لأن نضفي غموضا خاصا على الحياة هل تعتقدين ذلك ؟ رغم أننا لا نفهمها مثل ما نفهم الكهربائية ، بيد أن ذلك لا يسوغ لنا أن نقول إنها شيء خاص ، شيء مختلف في النوع ومتميز عن أي شيء آخر في الكون . هل تعتقدين أنها كذلك ؟ أليس محتملا أن الحياة تتكون في فعاليات فيزيائية وكيميائية معقدة ، من مرتبة الفعاليات الأخرى التي نعرفها في العلم ؟ أنا لا أرى سببا في الحقيقة ، يجعلنا نتخيل أن ثمة نظاما معينا من الحياة ، والحياة وحدها ..

ولقد انتهت المحادثة بملاحظة عن عدم التأكد وعدم التحديد والكآبة ، لكن الهدف ، ماذا كان الهدف ؟ ليس للكهربائية روح ، وليس للضوء او الحرارة روح . أكانت هي نفسها قوة شخصية او ترابطاً قويا ، كواحدة من هذه القوى ؟ نظرت ساكنة الى الظل أحادي الخلية الذي يتمدد في حقل الضوء تحت مجهرها . كان حيا ، رأته يتحرك . رأت الضباب البراق لفعاليات سياطه ، ورأت ومض نواته بينما كان ينزلق عبر مستوى الضوء . ماذا كانت رغبته إذن ؟ اذا كان ترابطا من قوى فيزيائية وكيميائية ، وما الذي يوحد هذه القوى ، ولماذا توحدت ؟

لأي غرض تجمعت هذه الفعاليات الفيزيائية والكيميائية التي لا يمكن احتسابها في

---

* لعل في الاسم إشارة تهكمية للأفتراضات العلمية لفرانكشتاين في رواية ماري شيلي (١٨١٨)

هذه البقعة المعتمة المتحركة تحت مجهرها ؟ ما هي الإرادة التي جمعتها ، وخلقت الشيء الذي تراه ؟ ما كانت نيتها ؟ أن تكون نفسها ؟ هل كان هدفها آليا ومحصورا بنفسها ؟

قصدت أن تكون نفسها ، لكن أي نفس ؟ وفجأة ومض العالم إيماضاً غريباً في ذهنها بضوء شديد ، مثل نواة مخلوق تحت المجهر . وفجأة ، انغمست في ضوء وامض شديد من المعرفة . لم تستطع أن تفهم جلية الأمر . كانت تدرك حسب أنها ليست طاقة آلية محدودة ولا هدفا مجردا لحفظ النفس وتوكيدها ، بل كان إكمالا ، أن تكون لانهائيا ، أن تتوحد النفس مع اللانهائي ، أن تكون نفسه هو انتصار سام وامض للأبدية

جلست اورسلا مشدوهة إزاء مجهرها ، قلقة . كانت روحها مشغولة ؛ مشغولة بصورة لانهائية في العالم الجديد . في العالم الجديد ، كان سكربينسكي ينتظرها ، سيكون في انتظارها . ليس بمقدورها أن تذهب الآن لأن روحها كانت منشغلة ، بيد أنها سرعان ما ستذهب .

أمسك بتلابيبها سكون يشبه الإغماء . وفي البعد ، في الممرات ، سمعت الجرس يقرع معلنا الساعة الخامسة . إن عليها أن تذهب . ومع ذلك ، جلست ساكنة .

كان الطلبة الآخرون يدفعون كراسيهم ، ويركنون مجاهرهم . وتحول كل شيء الى فوضى . ورأت خلال النافذة طلابا يهبطون المدرجات ، وكتبهم تحت أذرعهم ، يتحدثون كلهم ، يتحدثون .

وخيّم عليها توق لأن تغادر أرادت هي أيضا أن تغادر . كانت في فزع من العالم المادي وفي فزع من تحولها الذاتي ، أرادت أن تركض كي تلتقي سكربينسكي ؛ الحياة الجديدة ، الواقع .

وبسرعة شديدة ، مسحت شرائحها ، وأعادتها الى مواضعها ، ونظفت مكانها على الطاولة ، نشيطة ؛ نشيطة ، نشيطة . أرادت أن تركض كيما تلتقي سكربينسكي ، مستعجلة ؛ مستعجلة . لم تكن تعرف ما ستقابل ، بيد أنها ستكون بداية جديدة ، عليها أن تسرع .

خفت مسرعة في الممر ، على قدمين رشيقين وشفرتها ودفتر ملاحظاتها والقلم في يدها ، ومئزرها على ذراعها . كان وجهها مرفوعا ، مشدودا باللهفة ، إذ قد لا يكون هناك .

عندما خرجت من الممر ، لمحته في الحال ، وتعرفت عليه في اللحظة ومع ذلك ، كان غريبا جدا . كان يقف بحياء ماحق للنفس ، من النوع الذي يخيفها في الشبان حسني التربية الذين عرفتهم . ورفضت أن تعترف لنفسها بالقشعريرة التي تشبه شروق الشمس على الجليد التي تملكتها . كان هذا هو المفتاح ، نواة العالم الجديد

رآها قادمة برشاقة عبر القاعة ، فتاة رشيقة في دثار من قماش الفانلة ، وتنورة غامقة اللون ، وثمة بعض من الانشداه ووميض من المجهول على محياها ، فأجفل مثارا . كان متوترا جدا ، وكان طلبة آخرون يتسكعون في القاعة

ضحكت بوجه أعمى منبهر عندما مدت يدها إليه . ولم يكن بمقدوره هو الآخر أن يعيها .

وفي لحظة ، كانت اختفت كي تجلب أشياءها التي تحتاجها في خروجها معه ومرة أخرى ، ومثل ما كانت في المدرسة ، تمشيا معا الى المدينة لاحتساء الشاي ، وذهبا الى المقهى نفسه .

لاحظت فرقا هائلا فيه ، كانت القرابة هناك القرابة القديمة ، بيد أنه قد انتمى الى عالم مختلف عن عالمها . كان الأمر كما لو أنهم قد أعلنوا حالة هدنة بينه وبينها وفي هذه الهدنة التقيا ، وعرفت بطريقة غامضة ، خلال الدقيقة الأولى أنهما عدوّان توصلا الى هدنة . وكانت كل حركة او كلمة تصدر عنه غريبة عن كيانها .

ومع ذلك ، كانت ماتزال تحب نسيج وجهه الرقيق وجلده . كان الآن أشد سمرة وأقوى جسديا . إنه رجل الآن . وفكرت : إن رجولته هي التي خلقت الغرابة فيه . فعندما كان مجرد شاب رشيق ، فإنه كان أقرب اليها واعتقدت أن من المحتم أن ينتهي به المطاف الى هذا النوع من الانفصال الغريب ، غيرية الذات الباردة . وتحدث لكن ليس إليها ، وحاولت أن تتحدث معه ، بيد أنها لم تستطع الوصول إليه .

بدا متوازنا وواثقا من نفسه جدا حتى أنه خلق مثل هذا الوجود الواثق كان فارسا ممتازا ، لذلك كان فيه بعض من ثقة فرسان الخيول وقدرتهم الفطرية على القرار ، وكذلك بعض من عتمة فرسان الخيول الحيوانية ومع ذلك ، كانت روحه مجرد غموض محلق ، وبدا أنه مخلوق من مجموعة من التصرفات والقرارات الفطرية وكان إحساس الرجل الهش المتغبر فيه لا يمكن الوصول إليه . ولم تكن تعرف شيئا عنه ، بل كان بمستطاعها فقط أن تشعر بثبات رغبته الحيوانية المظلمة الثقيلة هل هي رغبته البكماء التي أعادته إليها ؟ كانت محتارة متألمة بنوع من الثبات الميؤس منه ، وهو أمر أرعبها بإحساس بارد من اليأس . ماذا يريد ؟ كانت رغباته مخيفة جدا . لماذا لا يسمح لنفسه ؟ ماذا يريد ؟ لابد أنه يريد شيئا لا اسم له ، وانكمشت خائفة .

ومع ذلك ، برقت بالإثارة ، ففي روحه الذكورية المظلمة التحتية ، كان يركع أمامها ، كاشفا عن نفسه بإعتام . ارتجفت ، ومرّ لهب مظلم عليها . كان ينتظر عند قدميها مسلوب

الإرادة تحت رحمتها . إن بمقدورها أن تأخذ او ترفض . اذا ما رفضته ، فإن شيئا ما سيموت في داخله لأن الأمر يعني له حياة او موتاً . ومع ذلك ، فإن كل شيء يجب أن يبقى مظلما تماما ، وأن الوعي يجب ألاّ يعترف بشيء

قالت له :

ـ كم ستبقى في إنكلترا ؟

ـ لست متأكدا ، ولكن ليس الى ما بعد تموز على ما أعتقد .

ثم صمت كلاهما . كان هنا ، في إنكلترا لستة شهور ، وثمة فراغ أمده ستة شهور بينهما . وانتظر ، وتملكتها الصلابة الحديدية مرة أخرى ، كما لو أن العالم كان مصنوعا من الفولاذ . فليس ثمة فائدة من التوجه باللحم والدم صوب هذه الترتيبات من المعدن المطروق . وبسرعة كيّف خيالها نفسه بما يناسب الموقف .

سألته :

ـ هل لديك واجب في الهند ؟

ـ نعم ، ليس لدي سوى إجازة ستة شهور حسب .

ـ وهل تود أن تكون في الخارج هناك ؟

ـ أعتقد ذلك ، فإن هناك قدرا كبيرا من الحياة الاجتماعية ، والكثير من المستجدات ؛ صيد ، لعبة البولو ، وحصان جيد دائما ، والكثير من العمل ، أي مقدار من العمل .

كان يُروغ عن قصده دائما ، يروغ عن قصد روحه ذاتها . إنها تستطيع أن تراه جيدا هناك في الهند ، أحد أعضاء الطبقة الحاكمة مفروضا على حضارة قديمة ، سيد حضارة ولوردها الأكثر خرقا من خاصته . كان ذلك خياره ، سيصبح أرستقراطيا مرة أخرى ، مزودا بالسلطة والمسؤولية ، وثمة حشد كبير مسلوب الإرادة من الناس تحت امرته ، أحد أفراد الطبقة الحاكمة ، وسيمنح كيانه كله لإشباع الفكرة الأفضل للدولة وتنفيذها . وفي الهند ، سيكون هناك عمل حقيقي كيما ينجز ، فالبلاد تحتاج الى الحضارة التي يمثلها ، إنها تحتاج الى طرق وجسور والى التنوير الذي كان جزءا منه ، سوف يذهب الى الهند ، بيد أن ذلك ليس طريقها .

ومع ذلك أحبته . أحبت جسده بغض النظر عما تؤول إليه قراراته كان على ما يبدو يريد شيئا منها ، وهو ينتظر أن تقرر ما تفعله بشأنه ولقد تقرر كل شيء منذ فترة طويلة عندما قبلها للمرة الأولى ، فلقد كان حبيبها ، رغم أن الصالح والطالح يجب أن يتوقفا . إن إرادتها لن تسترخي ، رغم أن قلبها وروحها يجب أن يسجنا ويخرسا . وانتظرها ، وقد قبلته لأنه عاد إليها .

وحل التألق في وجهه ، وفي جلده الناعم الرقيق . وتوهجت عيناه الذهبيتان الرماديتان بحميمية لها . احترق ، واشتعلت فيه النيران ، وأصبح رائعا وملوكيا ، شيئا ما كالنمر . وأمسكت بفتنته المتألقة المحرقة ، وأُغلق قلبها وروحها بسرعة الى الأسفل وأُخفيا ، وتحررت منهما إن عليها أن تحصل على اكتفائها .

وأصبحت مزهوة ومنتصبة كزهرة تدفع نفسها الى الأمام بقوتها المناسبة ولقد أنعشها دفؤه وجمال شكله الذي كان يبدو أنه يتوهج على النقيض من الناس . جعلها مزهوة . كان ذلك بمثابة دفاع عنها ، وجعلها تشعر كما لو أنها مثلت أمامه كل جمال البشرية وزهورها ولم تعد اورسلا برانغوين ، بل كانت امراة ؛ كانت كل النساء في المرتبة البشرية ، شاملة كونية . فأنّى يمكن أن تتحدد بهذه الفردية ؟

كانت مبتهجة ، ولم ترد ان تبتعد عنه . فمكانها قربه ، فلماذا تبتعد عنه ؟

وخرجا من المقهى ، وقال لها :

ـ أهناك شيء تريدين أن تفعليه ، أهناك شيء يمكننا أن نفعله ؟

كانت ليلة مظلمة عاصفة من ليالي آذار ، فقالت .

ـ ليس هناك ما نفعله .

وكان هذا هو الجواب الذي يريده ، فسألها :

ـ دعينا نتمشى إذن ، أين نتمشى ؟

فاقترحت مخلوعة الفؤاد :

ـ هل نذهب الى النهر ؟

وفي لحظة ، كانا في الترام متوجهين صوب جسر ترينت . كانت سعيدة جدا ، إذ أن فكرة السير على مروج الماء البعيدة المظلمة قرب النهر المكتمل أصابتها بالنشوة ، فالماء المظلم وهو ينساب وبصمت خلال الليل الواسع المضطرب ، جعلها تشعر بالتوحش

اجتازا الجسر ، وهبطا مبتعدين عن الأضواء وفي الحال ، أمسك يدها في الظلام ، وسارا صامتين بأقدام حاذقة تطأ الليل . وكانت المدينة تدخن بعيدا على ميسرتهما ، وثمة أنوار وأصوات غريبة ، والريح تهب على الأشجار . وتحت الجسر ، تمشيا متقاربين معا ، قويين في اتحادهما .

وسحبها قريبا جدا منه ، وأمسك بها بهوى حاذق ماكر عنيف ، كما لو أن ثمة اتفاقاً سرياً ملزماً في الظلام الدامس . كان الظلام الدامس كونهما .

قالت له :

ـ إن الأمر يشبه ما كان عليه من قبل .

ومع ذلك ، لم يكن يشبه ما كان عليه من قبل قط بيد أن قلبه كان في تواؤم ، تام معها وكانا يفكران بطريقة واحدة .

قال لها بعد فترة طويلة :

ـ عرفت أني يجب أن أعود .

فارتجفت ، وسألته :

ـ هل كنت تحبني دائما ؟

وتغلبت عليه طبيعة السؤال المباشرة ، وغطسته لحظة ، وسافر الظلام مصمتا .

قال لها ، كما لو أنه كان منوما ·

ـ كان عليَّ أن أعود إليكِ ، فلقد كنتِ دوما خلف كل شيء .

وكانت صامتة بانتصار يشبه القدر .

وقالت :

ـ لقد أحببتكَ دوما .

وقفز اللهب المظلم في داخله ، يجب عليه أن يمنحها نفسه . يجب أن يمنحها أساس نفسه . سحبها قريبا جدا منه ، وسارا بصمت . ارتجفت بعنف عندما سمعت أصواتا ، وكانا يقتربان من مرقى عبر المروج المظلمة ، قال لها بلطف ·

ـ إنهم عشاق حتماً .

والتفتت كي ترى الى الأشكال المعتمة على السور ، مفكرة بأن الظلام كان مسكونا .

قال لها :

ـ العشاق فقط هم الذين يسيرون الليلة هنا .

ومن ثم ، وبصوت واطئ مرتجف ، حدثها عن أفريقيا : الظلام الغريب والخوف الدموي الغريب .

قال لها :

ـ أنا لا أخاف من الظلام في إنكلترا فهو هش وطبيعي بالنسبة إليّ ، إنه وسطي ، وخصوصا عندما تكونين هنا ، لكنه في أفريقيا يبدو مصمتا وسائلا بالرعب ، ليس الخوف من أي شيء ، بل الخوف المجرد . إن المرء يتنفسه كرائحة الدم ، والسود يعرفونه ، وهم يعبدون الظلام حقا . إن المرء يكاد يحبه ـ الخوف ـ شيء حسي .

وارتعدت فرائصها مرة أخرى من أجله . كان لها بمثابة صوت خارج من الظلام ، وكان

يتحدث إليها طوال الوقت بنبرات واطئة حول أفريقيا ، ناقلا شيئا غريبا وحسيا لها ، الزنوج ، بهواه السائب الهش الذي يمكن أن يغلف المرء كالحمام . وتدريجا ، نقل إليها الظلام الساخن الخصب الذي يتملك دمه . كان غامضا على نحو غريب . إن العالم بأكمله يجب أن يمحق وفقد صوابه بنبراته الناعمة المقنعة المتذبذبة . أرادها أن تجيب ، أن تفهم . ليل مُنْعِظٌ موّارٌ ، مثقلٌ بالخصب ، تنمو فيه كل جزيئة ، مسرعة في الخفاء ، برغبة خصبة ، تبدو أنها تمر .

ارتجفت مشدودة متذبذبة ، تكاد أن تكون متألمة . وتدريجا توقف الحديث عن أفريقيا ، وحلّ الصمت ، بينما كانا يسيران في الظلام قرب النهر المصمت . كانت أطرافها غنية متوترة ، وأحسّت أنها لابد أن تتذبذب بهزات واطئة عميقة . لم يكن بمقدورها السير إلا بجهد ، وكانت ذبذبات الظلام العميقة تُحس حسب ، وتسمع .

وفجأة ، بينما كانا يسيران ، استدارت إليه ، وأمسكته بسرعة ، كما لو أنها تحولت الى فولاذ . وهتفت بتبريح :

ـ هل تحبني ؟

ـ نعم .

قال لها بصوت غريب متلقف لا يشبه نفسه :

ـ نعم ، أنا أحبك

كان يشبه الظلام الحي المخيم عليها . وكانت بين ذراعي الظلام القوي . احتضنها هشة ، هشة على نحو لا يوصف ، وبهشاشة القدر المتوترة ، هشاشة الخصوبة الجياشة ، فارتجفت ، وارتجفت كشيء متوتر تعرض للضرب ، بيد أنه أمسك بها طوال الوقت ، ناعما ، لامتناهيا ، كظلام يطبق عليها ، كليا ، كما لو أنها قد تحطمت وتناثرت وتذبذبت الزهرية المضاءة ، وتحطمت في روحها وسقط الضوء وكافح ثم انطفأ .

كانت مظلمة تماما ، مسلوبة الإرادة ، ليس لديها سوى الإرادة المستسلمة .

قبلها قبلاته الناعمة المغلفة ، واستجابت لها تماما ، واختفى ذهنها وروحها ظلام يتعشق بظلام ، وتعلقت به بشره ، وضغطت نفسها في انسياب قبلاته الناعمة ، وضغطت نفسها الى الأسفل ، الى مصدر قبلته ولبّها . وقد تغطت نفسها ، وتغلغت في انسياب قبلاته الدافئ الخصب التي كانت ترحل فوقها ، وتنساب عليها وتغطيها ، وتجري على العصب الأخير فيها ، حتى أصبحت ساقية واحدة ، خصوبة واحدة مظلمة ، وتعلقت بلبّه ، بينما كانت شفتاها تُبقي مصدره التحتي مفتوحا .

وهكذا وقفا في القبلة المظلمة المكتملة التي انتصرت عليهما معا ، وأخضعتهما ونسجتهما معا في نواة خصبة واحدة للظلام السائل .

وكان منتهى السعادة ، ونشوة الظلام الخصب . فما أن اهتزت الزهرية حتى تحطمت وذهب ضوء الوعي ، ثم تكأكأ الظلام والرضا الذي لا يوصف . وقفا يستمتعان بالقبلة التي لا تسكن ، آخذين إياها ، مانحينها دون حدود . ومع ذلك ، لم تكن استنفدت بعد ، ونبضت عروقهما ، وجرى دمهما معا في جدول واحد ، حتى خيم عليهما نوم ثقيل ؛ نعاس ، ومن خارج النعاس ، استيقظ ضوء صغير من الوعي وابتدأت اورسلا تشعر بالليل من حولها ، والماء يُخرخر ، ويجري مكتملا قريبا منها ، والأشجار تهدر وتئنُّ في عصف الريح .

بقيت قريبة منه ، على تماس معه ، بيد أنها ابتدأت تستعيد نفسها شيئا فشيئا . وأدركت أنها يجب أن تذهب كي تلحق بقطارها ، غير أنها لم تكن راغبة في أن تنسحب من التماس معه .

بعد فترة طويلة ، نهضا وقفلا عائدين ، لم يعودا موجودين فترة أطول في الظلام الذي لا تشوبه شائبة . كان هناك تلألؤ الجسر ووميض الأضواء عبر النهر ، وتوهج المدينة الكبير أمامهما على ميمنتهما ، بيد أنهما مازالا ساكنين هشين هادئين ، ومشى جسداهما دون ان يلمسا الأضواء ، والظلام متسام ومتغطرس .

ـ الأضواء الغبية!

قالت اورسلا لنفسها ، في غطرستها الحسية المظلمة : «المدينة الغبية ، الزائفة المغالية ، تبخر أنوارها . إنها غير موجودة حقا ، إنها تستقر على ظلام لا حدود له ، كومض زيت ملون على ماء معتم . لكن ما هي ؟ عدم ، مجرد عدم»

في الترام ، وفي القطار ، أحست الإحساس نفسه ، الأضواء ، الاتساق المديني حيلة لُعبت ، والناس سواء تحركوا أم جلسوا كانوا مجرد دمى مكشوفة . كان بمقدورها أن ترى ، تحت تظاهرهم الشاحب الخشبي برباطة الجأش وتقصدهم المديني ، الجدول المظلم الذي يحتويهم جميعا . كانوا اشبه بسفن ورقية صغيرة في حركتهم ، لكن في الواقع كان كل واحد منهم موجة معتمة عمياء ، متلهفة تندفع الى الأمام ، على غير هدى ، مظلمة بالرغبة المتجانسة ذاتها ، وكل أحاديثهم وسلوكهم كانت زائفة . كانوا مجرد مخلوقات مكسوة . وتذكرت الرجل الخفي* الذي كان قطعة من الظلام لا يظهر إلاّ من خلال ملابسه .

---

* الرجل الخفي ، رواية من تأليف الكاتب الإنكليزي هـ . ج ويلز (١٨٦٦ ـ ١٩٤٦)

وخلال الأسابيع التالية ، ظلت تتجول طوال الوقت في الغنى المظلم نفسه ، وقد اتسعت عيناها وأشرقتا كعيني حيوان متوحش ، في شبه ابتسامة غريبة ، تبدو هازئة بالتظاهر المديني ، لكل الحياة الإنسانية من حولها .

«ما أنتم أيها المواطنون الشاحبون ؟» كأن وجهها يقول ذلك وامضا ، «أنتم ضوارٍ تتخفون في زي أغنام ، أنتم ظلام بدائي يُزيّف الى آلية اجتماعية» .

كانت تتجول في شبه الوعي الحسي طوال الوقت ، ساخرة مما هو جاهز الصنع ؛ ضوء النهار الاصطناعي للبقية .

قالت لنفسها ، وهي تنظر في ازدراء ساخر الى الرجال المتصلبين المحايدين . «إنهم يتخذون أنفسا مثل ما يتخذون بزات من الملابس» . «إنهم يعتقدون أن من الأفضل أن يكونوا كتبة او أساتذة بدلا من أن يكونوا أشياء مظلمة خصبة توجد في الظلام الكامن ، ماذا تظن نفسك ؟»

سألت روحها الأستاذ عندما جلست قبالته في الصف : «ماذا تظن نفسك وأنت تجلس هناك في ردائك الجامعي ونظارتك ؟ إنك مخلوق متسكع مستنشق للدماء ، بعينين تحملقان خارج ظلام الغابة ، تستنشق من اجل رغباتك ، هذا أنت ، رغم أن لا أحد يصدقه ، وانك آخر من يسمح بذلك»

سخرت نفسها من كل هذا التظاهر ، وظلت نفسها تتظاهر . ألبست نفسها ، وجعلت نفسها رائعة ، وحضرت المحاضرات ، وخربشت ملاحظاتها ، لكن كل ذلك في مزاج من البراعة الساخرة الزائفة . فهمت بما فيه الكفاية الاعيبهم المتعلقة بأثنين واثنين يساوي اربعة ، وكانت ذكية بقدر ذكائهم ، ولكن حذار! هل تهتم بحيلهم القردية المتعلقة بالمعرفة او التعلم او السلوك المديني ؟ إنها لا تهتم على الإطلاق .

كان هناك سكربينسكي كانت هناك روحه المظلمة المفعمة بالحيوية ، خارج الكلية ، الظلام الخارجي كان سكربينسكي ينتظر على حافة الليل . وكان متنبها ، هل يهتم ؟

كانت طليقة كنمر يطلق صرخته الجشاء في الليل ، وكانت عندها ساقية دمها المظلمة الفعالة ، وعندها لب الخصب المتوهج ، ولها شريكها ، مكملها ، شريكها في الثمر ؛ لذلك فهي تمتلك كل شيء .

كان سكربينسكي باقيا في نوتنغم طوال الوقت ، وكان هو الآخر طليقا . ولم يكن يعرف أحدا في هذه المدينة ، ولم تكن له روح مدينية كي يصونها . كان طليقا ، وكانت قطاراتهم وأسواقهم ومسارحهم ولقاءاتهم الجماهيرية مجرد مشكال مرتجف بالنسبة إليه

وكان يراقب مثل ما يضطجع الأسد والنمر بعينين ضيقتين ، يراقب الناس وهم يمرون أمام قفصه .

اللاواقعية المشكالية للناس . او نمر يضطجع وهو ينظر بعينين طارفتين يراقب أعمال حراسه التي لا يستطيع أن يفهمها لقد احتقر كل شيء ، إذ كانت كلها غير موجودة ، أساتذتهم الجيدين ورجال دينهم الطيبين ومتحدثيهم السياسيين الجيدين ونساءهم الجادات الصالحات . وطوال الوقت ، كان يحس أن روحه كانت تكشر ، تكشر عند مرآهم . العديد من الدمى المتحركة ، كلهم خشب وأسمال من أجل الأداء

راقب المواطن عمود المجتمع ، أنموذجا ، فرأى سيقان العنزة المتصلبة التي كادت أن تستحيل متصلبة الى خشب في الرغبة لجعلها دمية في عملها . ورأى البنطلونات معدة لتصرفات الدمية ، أرجل رجل ، بيد أن أرجل الرجل استحالت صلبة مشوهة قبيحة وآلية .

كان سعيدا على نحو غريب لأنه اصبح وحيدا الآن . وكانت التكشيرة الوامضة على وجهه . لم تعد لديه حاجة لأن يشارك في أداء حيل البقية . لقد اكتشف اللغز بمفرده ، هرب من العرض ، كحيوان متوحش عاد الى غابته فبعد أن حصل على غرفة في فندق هادئ ، أجَّر حصانا ، وركبه في الريف . وكان يقضي الليل أحيانا في بعض القرى ثم يعود في اليوم التالي .

أحسَّ أنه غني وغزير في سويداء نفسه ، وكان كل شيء فعله متعة شهوانية بالنسبة له ، سواء ركب الحصان او تجول او اضطجع في الشمس او شرب في حانة . ليست به حاجة الى الناس او الكلمات . كانت لديه متعة مسلية في كل شيء ، إحساس عظيم بالغنى الشهواني داخل نفسه ، وبخصوبة الليل الكوني الذي سكنه . أما أشكال الناس الشبيهة بالدمى وأصواتهم الخشبية الآلية ، فلقد كان بمنأى عنها .

وإذ كانت لقاءاته دائماً مع اورسلا ، وكانت في الغالب تذهب الى الكلية بعد الظهر ، وتتمشى معه بدلا من ذلك ، او أنه كان يأخذ سيارة او عربة تجرها الكلاب يقودانها عبر الريف ، ثم يتركان السيارة ويسيران وحدهما في الغابات . إنه لم يمتلكها بعد ، ففي اقتصاد غريزة حاذق ، كانا يسيران الى نهاية كل قبلة وكل عناق وكل متعة في تماس حميم ، مدركين في لاوعيهما أن الأخير كان قادما ، وأنه سيكون دخولهما النهائي الى مصدر الخلق .

أخذته الى البيت ، وبقي طوال عطلة نهاية الأسبوع مع عائلتها في بيلدوفر ، إذ أحبت أن يكون معها في البيت . ويا لغرابة وجوده في جو عائلتها ، بكياسته الماكرة الضاحكة لقد أحبوه جميعا ، وكان مقرباً منهم ، وكان مزاحه ووجوده الدافئ الشهواني الساحر ،

يمثل اللذة والمتعة لآل برانغوين ، ذلك لأن هذا البيت كان يرتجف دوما في الظلام ، لذلك خلعوا شكل الدمية عندما يأتون الى البيت كي يضطجعوا وينعسوا في الشمس .

كان ثمة إحساس بالحرية بينهم جميعا ، بتيار الظلام التحتي بينهم جميعا ومع ذلك ، فهنا في البيت ، رفصته اورسلا إذ بدا غير مستساغ لها ، وعرفت أنهم اذا فهموا العلاقة الحقيقية بينها وبين سكربينسكي ، فإن والديها ، وأباها خصوصا ، سوف يجن غضباً لذلك وبحذق ، بدت أشبه بأية فتاة أخرى يغازلها رجل بصورة او أخرى . وكانت متل أية فتاة اخرى ، لكن في داخلها كان العداء للقيود الاجتماعية الآن كاملا ونهائيا

كانت تنتظر في كل لحظة من اليوم قبلته القادمة . ولقد اعترفت بذلك لنفسها بخزي وسعادة ، وانتظرت بوعي تقريبا وانتظر . وأزف الموعد بلاوعي أكثر . وعندما حان الوقت الذي يجب أن يقبلها فيه مرة أخرى ، كان منعه حقّا . وأحس أن لحمه أصبح رماديا ، وأصبح ثقيلا في فراغ يشبه الجثة ، ولم يعد موجودا . إذ مر الوقت غير مشبع .

وجاء إليها في النهاية ، في اكتمال متسام . كانت الدنيا مظلمة جدا ، وكانت مرة اخرى ، ليلة عاصفة ثقيلة ، وقد هبطا الطريق نحو بيلدوفر الى الوادي ، وكانا في نهاية قبلاتهما ، والصمت مخيم عليهما . ووقفا عند حافة الجرف ، وثمة ظلام عظيم بينهما . خرجا من الممر ، على امتداد الظلام والفراغ المظلم ينتشر الى الريح ، وأضواء المحطة الوامضة في الأسفل ، وصلصلة قطار متحول بعيدة عاصفة ، وقعقعة العربات الضئيلة التي تنتشر في الريح ، وضوء حافة بيلدوفر وهي تومض على اسوداد التل المقابل ، وتوهج الأفران على امتداد سكة الحديد الى اليمين . وابتدأت خطواتهما تتردد ، وسرعان ما سيخرجان من الظلام الى الضوء . كان الأمر يشبه العودة ، وكان عدم إشباع . مخلوقان مرتجفان غير راغبين ، متريثان على حافة الظلام ، محدقان في الأضواء ووميض المكائن وراءهما . لم يكن بمقدورهما أن يستديرا نحو العالم ، لا يستطيعان .

وبينما كانا يتريثان وصلا الى شجرة بلوط في الممر ، وكانت تهدر في الريح بكل كتلها المبرعمة ، وجذعها يرتجف كل نسيج فيه عنيفا ، لا يقهر .

قال لها :

ـ سنجلس

وعند الدائرة الضاجة تحت الشجرة التي كادت تكون غير مرئية ومع ذلك ، استوعبهما وجودها العنيف . اضطجعا لحظة ينظران الى الأضواء الوامضة على الظلام قبالتهما ، ورأيا علامات قطارات تنزلق أمام حافة مجال رؤيتهما المعتم

ثم استدار وقبلها وانتظرته . كان ألمها هو الألم الذي أرادته ، والكرب هو الذي رعبت فيه . ولقد أمسكت ووقعت في شرك تذبذب الليل العنيف . الرجل ـ ماذا كان ؟ تذبذب مظلم عنيف يطوقها . واستغرقت كما لو على ريح مظلمة ، نائية ، نائية جدا في ظلام النعيم البدائي الى الأزلية الأصلية ، ودخلت حقول الأزلية المظلمة .

عندما نهضت أحست أنها حرة وقوية على نحو غريب لم تكن خجلى ، ولِمَ تكون كذلك ؟ كان يمشي الى جانبها ، الرجل الذي كان معها . لقد أخذته وكانا معا . الى أين ذهبا ؟ لم تعرف ولكن الأمر بدا كما لو أنها صارت لها طبيعة أخرى ، إنها تنتمي الى المكان الأزلي الثابت الذي قفزا إليه معا .

كانت روحها واثقة لامبالية برأي العالم ذي الضوء الاصطناعي . وبينما كانا يتسلقان درجات جسر المشاة على السكة الحديد ، وعندما التقيا بركاب القطار ، أحست أنها تنتمي الى عالم آخر . مرت من أمامهم محصنة ، كما لو أن الظلام بأكمله يحجزها عنهم . وعندما دخلت في غرفة الطعام المضاءة في البيت ، كانت كتيمة للأضواء ولعيون والديها . كانت نفسها اليومية ثابتة ، وأنها ، حسب ، حصلت على نفس أخرى أقوى ، تعرف الظلام ، هذه القوة الغريبة المنفصلة التي وجدت في ظلام الليل وزهوه لم تفارقها البتة . لم تكن تشبه نفسها أكثر من هذا الوقت أبدا . ولم يدر بخلدها أن أي شخص ، بل حتى رجل العالم الشاب سكربينسكي ، يجب أن تكون له أية علاقة مصير تعلق الأمر بنفسها الثابتة ، أما في ما يخص نفسها الإجتماعية المؤقتة ، فإنها تركتها تعتني بنفسها .

كانت روحها بأكملها متورطة مع سكربينسكي ، ليس رجل العالم الشاب ، بل الرجل عير المميز الذي كانه . كانت واثقة تماما من نفسها قوية تماما ، اقوى من كل العالم وكانت هي قوية ، والعالم موجود في معنى ثانوي حسب أما هي ، فموجودة على نحو متسام .

ثابرت في الكلية على حياتها التقليدية ، مجرد غطاء لحياتها التحتية المظلمة العنيفة . كانت حقيقة نفسها ، ومع سكربينسكي الذي ينتمي إليها ، قوية جدا حتى أنها كانت ترتاح في الأخرى وذهبت الى الكلية في الصباح ، وحضرت دروسها مزهوة وعصبية .

تناولت طعام الغداء معه في فندقه ، وكانت تقضي كل مساء معه ؛ أما في المدينة او في غرفته او في الريف . وقد اعتذرت لأهلها بوجود دراسة مسائية للحصول على الشهادة ، بيد أنها لم تُظهِر أدنى اهتمام بدراستها .

كان كلاهما مطلقا وسعيدا وهادئا . إن حقيقة كيانهما المكتمل ، جعلت كل شيء آخر

ثانويا تماما مقارنة بكونهما حُرّين . كان الشيء الوحيد الذي اراده بينما كانت الأيام تتصرم ، هو المزيد من الوقت لنفسيهما . أراد أن يكون الوقت لهما تماما .

كانت عطلة عيد الفصح تقترب ، ووافقا على أن يرحلا حالا . ولم يكن مهما أن لم يعودا . كانا غير مباليين بالوقائع الحقيقية .

قال لها بحزن قليلا :

ـ أفترض أننا يجب أن نتزوج .

كان الأمر حرا بصورة مدهشة ، وفي عالم أعمق مثل ما كان . إن إعلان ارتباطهما سيضعه في مدى كل الأشياء التي ستمحقه ، والتي كان منفصلا عنها كليا في تلك اللحظة . اذا تزوج فإن عليه أن يمارس حياته الاجتماعية ، والتفكير في ممارسة حياته الاجتماعية يجعله في الحال حيبيا ، ومنشدها . إذا كانت هي زوجته الاجتماعية ، كانت جزءاً من تعقيدات الواقع الميت ذاك ، إذن فما علاقة حياته التحتية بها ؟ إن زوجة المرء الاجتماعية هي مجرد رمز اجتماعي مادي ، في حين أصبحت الآن شيئا أكثر حيوية من أي شيء آخر يمكن أن يكون في الحياة التقليدية . لقد أضفت كذبة مطلقة على كل حياته التقليدية . ووقفا معا معتمين ، سائلين ، قويين بصورة مطلقة مانحين الكذبة الحية للكل الميت الذي احتواهما .

تأمل وجهها المستغرق المرتبك .

قالت له وقد تكدر جبينها :

ـ لا أعتقد أني أريد أن أتزوجك .

جرحت مشاعره قليلا فسألها :

ـ ولمَ ؟

فقالت :

ـ دعنا نفكر في الأمر حقا ، ألا ترى ذلك ؟

كان أُهمل بيد أنه أحبها بعنف .

قال لها :

ـ إن لديك خطما وليس وجها .

فهتفت وقد أضاء وجهها كلهب نقي :

ـ هل لي ذلك ؟

وظنت أنها هربت ، لكنه عاد فلم يكن اكتفى

سألها :

ـ لماذا ، لماذا لا تريدين أن تتزوجيني ؟

قالت له :

ـ أريد أن اكون مع آخرين . أريد أن أكون على هذه الحال ، وسأخبرك اذا رغبت في الزواج منك يوما .

قال لها :

ـ حسن .

كان في الحقيقة الشيء الذي تُرك غير محدد ، وقد تحملت المسؤولية .

تحدثا عن عطلة عيد الفصح ، ولم تكن تفكر إلا بالمتعة المطلقة . ذهبا الى فندق في البيكاديلي ، وافترض أنها زوجته ، واشتريا خاتم زواج بشلن من محل في منطقة فقيرة

ألغيا تماما العالم البشري العادي . وكانت ثقتهما أشبه بتملك يخيم عليهما . كانا رابطي الجأش ، وأحسا أنهما حران تماما ، وعلى نحو متسام مزهوان بما يفوق كل تساؤل ، ومتجاوزان الشروط البشرية .

كانا مكتملين ، وبذلك لم يعد لأي شيء آخر من وجود . كان العالم عالم خدم يهملهم المرء بتحضر . وحيثما ذهبا كانا الأرستقراطيين الحسيين ، دافئين براقين ، ينظران بزهو الحواس النقي . وكان تأثير ذلك على الآخرين يفوق التصور ، إذ كان السحر يفيض من الشابين على كل أولئك الذين أصبحوا على تماس معهم من الندل او أولئك الذين تعرفوا عليهم بالمصادفة .

ـ نعم أيها السيد البارون .

كانت تجيب زوجها بلطف زائف .

لذلك ابتدأ الناس يعاملونهما معاملة حملة الألقاب ، وكان هو ضابطا في صنف المهندسين ، وقد تزوجا لتوهما متوجهين الى الهند في الحال . لذلك كان ثمة نسيج من العاطفية من حولهما ، وآمنت انها كانت زوجة شابة لزوج حامل لقب في أمسية مغادرتهما الى الهند . هذه الحقيقة الاجتماعية كانت تصنعا لذيذا ، وكانت الحقيقة الحية هي أنهما كانا رجلا وامرأة مطلقين ، وخارج كل التحديدات .

وتصرّمت الأيام وبقي لديهما ثلاثة أسابيع يقضيانها معا في نجاح تام . وطوال الوقت ، كانا هما الواقع وكان الخارج بأكمله مسخراً لهما وكانا لامباليين تماما بشأن النقود ، بيد أنهما لم يسرفا كثيرا . ولقد دهش قليلا ، عندما اكتشف أنه قد أنفق عشرين جنيها في أقل

من أسبوع ، بيد أن ذلك كان ناتجا من إزعاج الذهاب الى البنك حسب ، إذ أن آلية النظام القديم استمرت لديه وليس النظام ، فالنقود لا توجد في تصوره ببساطة .

لا إلتزامات قديمة عادا الى البيت من المسرح ، وتناولا العشاء ، ثم خلعا ملابسهما وأخذا يتنقلان بملابس الراحة . كانت عندهما غرفة نوم كبيرة ، وزاوية مرتفعة تصلح كغرفة جلوس ، نائية ودافئة . وكانا يتناولان كل وجباتهما في غرفتهما ، يخدمهما شاب ألماني يدعى هانز كان يعدهما رائعين معا ، وكان يجيبهما بأدب .

ـ بالتأكيد أيها السيد البارون حسن جدا أيتها السيدة البارونة .

وغالبا ما كانا يشاهدان لون الفجر القرنفلي بعيدا ، عبر المتنزه . وكان برج كاتدرائية ويستمنستر يبزغ ، وأضواء البيكاديلي معلقة الى جانب أشجار المتنزه وهي تشحب ، وتصبح شبيهة بالعث . وكانت ضجة مرور الصباح تسير عبر الطريق الظليل الذي كان يومض طوال الليل كالمعدن في الأسفل ، وهو يجري بعيدا ، وعلى نحو مباشر ، صوب الليل ، تحت المصابيح التي أصبحت غامضة الآن ، كما لو أنها في ضباب بسبب الفجر ومن ثمَّ ، وعندما اشتد توهج الفجر ، فتحا الأبواب الزجاجية ، وخرجا الى الشرفة المسببة للدوار ، مبتهجين بالانتصار كملاكين في النعيم ، ينظران نحو الأسفل ، الى العالم الذي مايزال نائما ، والذي سيستيقظ الى فوضى اللاواقع المطيعة المدمدمة البليدة

بيد أن الهواء كان باردا ، فدخلا غرفة نومهما واستحما قبل أن يعودا الى الفراش ، تاركين أبواب الحمام الفاصلة مفتوحة حتى دخل البخار الى غرفة النوم ، وغبش المرآة قليلا . وكانت دائما أول من يدخل الى الفراش ، وراقبته بينما كان يستحم ، حركاته السريعة غير الواعية ، والضوء الكهربائي الذي يومض على كتفيه الرطبتين . وقف خارجا من الحمام ، وشعره المغسول مستوٍ فوق جبينه ، وطرد الماء من عينيه . كان رشيقا ، وفي تصورها شابا مكتملا نظيفا مشذبا دون حبة واحدة من وزن زائد . وكان الشعر البني على جسده ناعما ورقيقا ورائعا . كان كله يتوهج على نحو جميل ، بينما وقف هناك في الحمام الأبيض .

رأى وجهها الدافئ المعتم المضاء يراقبه من الوسادة رغم أنه لم يره ، فلقد كان موجودا دائما ، وكان له بمثابة عينيه . لم يكن يشعر قط أن كيانها منفصل عنه ، هي دوما كعينيه وقلبه تخفق له . توجه نحوها كي يأخذ منامته . كان الاقتراب منها مغامرة مكتملة دوما . وضعت ذراعيها حوله ، واستنشقت جلده الدافئ الناعم وقالت .

ـ عطر ؟

فأجاب :

ـ صابون!

ـ صابون ؟

أعادت القول ، وهي تنظر الى عينيه البراقتين مباشرة ، وكانا يضحكان معا ، يضحكان دوما .

وسرعان ما استغرقا في النوم ، ناما حتى منتصف النهار ، متقاربين ، نائمين نومة واحدة ، ثم استيقظا الى واقع حالهما المتغير باستمرار كانا وحدهما يسكنان عالم الواقع ، اما الآخرون ، فكانوا يسكنون على كرة اوطأ .

لقد فعلا كل ما يرغبان في فعله . رأيا القليل من الناس ـ دوروثي التي كانت ضيفتها ، واثنين من أصدقاء سكربينسكي ، شباب من خريجي اوكسفورد ، أسمياها السيدة سكربينسكي بمنتهى البساطة ، وعاملاها حقا باحترام الى حد أنها صارت تفكر أنها تنتمي حقا الى الكون بأسره ، الى العالم القديم والى الجديد أيضا . ونسيت أنها خارج شحوب العالم القديم ، وظنت أنها قد وضعته تحت تأثيرها ؛ هو العالم الحقيقي . ولقد فعلت ذلك حقا .

في مثل هذا الواقع الذي لا يني يتغير ، مرت الأسابيع . وطوال الوقت ، كانا عالمين مجهولين أحدهما في نظر الآخر كانت كل حركة يصدرها أحدهما بمثابة حقيقة ومغامرة للآخر ، ولم يكونا يريدان إثارات خارجية . ولقد ترددا على عدد قليل من المسارح ، وكانا ، غالبا ، يجلسان في غرفة جلوسهما عاليا فوق البيكاديلي ، والنوافذ مشرعة على الجانبين ، والباب مفتوح على الشرفة ، مطل على متنزه غرين بارك ، او الى الأسفل ، على سيل المرور الذي لا ينقطع .

وفجأة ، وهي تنظر الى غروب الشمس ، أرادت الذهاب . يجب أن تذهب ، يجب أن تذهب في الحال . وخلال ساعتين ، كانا في محطة جيرنك كروس ، يستقلان قطارا الى باريس . وكانت باريس هي اقتراحه ، ولم يكن يهمها المكان ، إذ كانت المتعة الكبرى تكمن في الشروع بالرحلة . وطوال بضعة أيام ، كانت سعيدة في جِدّة باريس .

ومن ثم ، ولسبب ما ، كان عليها أن تتوقف في (روان) في أثناء عودتها الى لندن . وكان ينتابه شك غريزي برغبتها في رؤية المكان ، بيد أنها أرادت بعناد أن تذهب الى هناك . كان الأمر كما لو أنها أرادت أن تجرب تأثيره عليها .

وللمرة الأولى في روان ، تملكه إحساس بارد بالموت ، ولم يكن خائفا من أي رجل

آخر ، بل منها بدت وكأنها تهجره كانت تلاحق شيئا ما لم يكن هو ، لم تكن تريده الشوارع القديمة ، الكاتدرائية ، سلام المدينة المعمِّر والتذكاري أخذها بعيدا عنه . استدارت نحوه كما نحو شيء نسيته وأرادته . هذا هو الواقع الآن ، هذه الكاتدرائية الحجرية العظيمة نهجع هناك في كتلتها ، لا تعرف زوالا ولا تسمع إنكارا . كانت عظيمة في استقرارها ، في مطلقها المدهش .

ابتدأت روحها تجري وحدها . لم يدرك ولا أدركت هي . ومع ذلك ، وفي روان ، تملكه اول كرب مميت ، الإحساس الأول بالموت الذي كانا يسيران نحوه . وأحسَّ بالحنين التقيل الأول ، ثقيلا ، حنين ثقيل لا حيلة معه ، يكاد يشبه انغماساً عميقاً قلقاً في لامبالاة ، في استلاب إرادة .

عادا الى لندن ، لكن لم يزل أمامهما يومان . وابتدأ يرتجف ، وانتابته الحمى بسبب خوفه من مغادرتها ، إذ أنها تمتلك بعضا من التوقع القدري الذي يجعلها هادئة . ماذا سيحدث ، ماذا سيحدث ؟

بقي مرتاح البال الى حد ما ، وظل في حالة من الرواء المتسامي حتى ذهبت واستدار مبتعدا عن محطة (سانت بانكرس) . وجلس في عربة الترام الصاعدة صوب محطة (بميلكو) باتجاه (انجيل) ثم الى شارع (مور غيت) مساء يوم أحد .

ومن ثم طفح الرعب البارد في داخله تدريجا . رأى رعب شارع سيتي ، وميّز قذارة عربة القطار الباردة الفظيعة التي كان يجلس فيها ، وأحاط به جدب بارد مطبق رمادي . أين إذن العالم البراق المدهش الذي ينتمي إليه كحق من حقوقه ؟ كيف انتهى به المطاف الى أن يرمى على كومة نفايات حيث كان ؟

كان أشبه بالمجنون! رعب بنايات الآجر ، وعربة الترام والناس الرماديين الترابيين في الشارع جعله مترنحا وأعمى كما لو أنه طافح بالسكر . فقد صوابه ، فلقد عاش معها في عالم حميم حي نابض حيث كان كل شيء ينبض بكيان غني . والآن وجد نفسه يتصارع وسط عالم رمادي جاف بارد من اليبوسة ، جدران ميتة وضجة مرور آلي ، وأناس شبحيون زاحفون . الحياة انقرضت ولم يبق سوى الرماد ، وهو يتحرك ويضطرب او يقف متصلبا ، ثمة فعالية مرعبة مقعقعة ، صلصلة تشبه سقوط خبث جاف بارد ومجدب . كان الأمر كما لو أن أشعة الشمس التي تسقط كانت ضوءاً اصطناعيا يكشف رماد المدينة ، كما لو أن الأضواء في الليل هي ومض التحلل الشرير .

مجنونا تماما ، متسعرا بالغيظ ، ذهب الى ناديه ، وجلس مع قدح من الويسكي ،

ساكنا ، كما لو أنه قد تحول الى طين . أحسَّ أنه كجثة مسكونة بقدر من الحياة يكفي فقط كي يجعلها تظهر مثل أي من الكائنات الشبحية غير الحية الأخرى التي نطلق عليها اسم البشر في لغتنا الميتة . كان غيابها أسوأ من الألم في نظره . لقد دمر كيانه .

ميتا ، ذهب من الغداء لاحتساء الشاي ، وكان وجهه طوال الوقت ثابتا وجامدا وعديم اللون ، وكانت حياته حركة جافة آلية ، بل إنه دهش قليلا من التعاسة التي تغلبت عليه أنّى له أن يكون شبيها بالرماد ومنقرضا ؟ وكتب لها رسالة :

«كنت أفكر في أن المفترض أن نتزوج قبل فترة طويلة . وسوف يزداد راتبي عندما أسافر الى الهند ، وبذلك يصبح بمقدورنا أن نتدبر أمورنا ، او إذا كنت لا تريدين الدهاب الى الهند ، فمن المحتمل جدا أن أستطيع البقاء هنا في انكلترا ، بيد أني أعتقد أنك ستحبين الهند ، حيث سيكون بمقدورك أن تركبي الخيول وتتعرفي على كل شخص هناك واذا أردت البقاء للحصول على شهادتك ، فإننا يمكن أن نتزوج بعد ذلك حالا . سأكتب الى والدك حالما أسمع منك» .

واستمر محاولا إقناعها ، لو أنه استطاع فقط أن يكون معها! كل ما أراده الآن هو أن يتزوجها ، أن يكون واثقا منها . ومع ذلك ، كان طوال الوقت مسلوب الإرادة تماما ، تماما ، باردا منقرضا ، دون عاطفة او رابطة

أحسَّ كما لو أن حياته قد ماتت ، وأن روحه قد انقرضت ، وأن كيانه كله اصبح مجدبا . كان شبحا ، مطلقا من الحياة ، ليس لديه امتلاء ، بل هو مجرد شكل منبسط . ويوما بعد آخر ، كان الجنون يتراكم داخله ، وتملكه رعب فقدانه كيانه

وظلَّ يتجول هنا وهناك ، وفي كل مكان . ومهما فعل ، كان يدرك أن هناك الخواء منه حسب ، وليس ثمة ما يملأ . ارتاد المسرح ، وسقط ما سمعه ورآه على سطح بارد من الوعي ، وهو ما كانه الآن فقط ليس ثمة شيء خلفه ، ولم يكن بمستطاعه أن يتعرض لأي تجربة من أي نوع . سيطر التسجيل الآلي على داخله ، لا أكثر . ليس له كيان او محتويات ، وكذلك الناس الذين التقى بهم . كانوا مجرد تبديل في كميات معلومة . ليس من استدارة او امتلاء في هذا العالم الذي يقطنه الآن . كان كل شيء شكلا ميتا لترتيب ذهني دون حياة او كيان .

وكان معظم الوقت مع أصدقاء او رفاق ، ثم نسي كل شيء ، إذ عوضت فعاليتهم عن عدمه ، وشغلوا رعبه السالب .

كان يسعد عندما يثمل حسب ، وكان يشرب كثيرا ، ثم أصبح بعد ذلك نقيض ما كان عليه ، إذ تحول الى سحابة دافئة متوهجة في عالم دافئ هوائي منتشر . كان متوحدا مع كل شيء بطريقة منتشرة عديمة الشكل . ذاب كل شيء الى توهج وردي ، وكان هو التوهج ، وكان التوهج كل شيء ، وكل شخص آخر . كان التوهج أمراً رائعا جدا ، رائعا جدا ، وكان يغني أغاني ، وكانت رائعة جدا .

عادت اورسلا الى بيلدوفر منغلقة وحازمة لقد أحبت سكربينسكي ، وتحررت من ذلك ، وهي لن تسمح بأي شيء آخر .

قرأت رسالته الطويلة المليئة بالهواجس حول الزواج والذهاب الى الهند ، دون أية استجابة محددة . بدت وكأنها تهمل ما قاله حول الزواج لم تفطن اليه ، فلقد ظهر خلال الجزء الأعظم من الرسالة أنه يتحدث دون الكثير من المعنى .

ردت عليه بلطف وارتياح ، إذ كانت نادرا ما تكتب رسائل طويلة :

«تبدو الهند رائعه ، إذ أستطيع أن أرى نفسي على فيل ، متأرجحة بين صفين من السكان المحليين الخنوعين ، لكنني لا أعرف إن كان والدي يسمح لي بالسفر يجب أن نتحقق من ذلك .

إني أعش مرة أخرى الأوقات السعيدة التي قضيناها معا ، بيد أني أعتقد أنك قد أحببتني كثيرا في الأيام الأخيرة ، أليس كذلك ؟ إنك لم تكن تحسي عدما عادرنا باريس ، لماذا لم تفعل ذلك ؟

أنا أحبك كثيرا . أحب حسدك ، إنه مشرق ورائع أنا سعيدة لأنك لا تسير عاريا وإلا لوقعت كل النساء في هواك ، وأنا أغار بسبب دلك كثيرا . أحبك كثيرا جدا »

ولقد اقتنع بهذه الرسالة قليلا ، بيد أنه يوما بعد آخر ، كان يتجول ميتاً غير موجود
لم يكن بمستطاعه العودة الى نوتنغم مرة أخرى قبل نهاية نيسان ، ثم أقنعها بعد ذلك أن تصحبه خلال عطلة نهاية الأسبوع الى بيت صديق له قرب اوكسفورد وفي تلك الأثناء ، كانا قد خطبا ، إذ كان كتب لوالدها ، وحُلّ الأمر ، وجلب لها خاتما من الزمرد ، وكانت فخورة جدا به

عاملها أهلها الآن ببعض المجافاة ، كما لو أنها قد غادرتهم مسبقا ، وتركوها وحدها قدرا كبيرا من الزمن .

أمضت بصحبته مدة ثلاثة أيام في البيت الريفي قرب اوكسفورد . وكانت عطلة لذيذة ، أحسّت أنها سعيدة جدا ، بيد أن الشيء الذي تذكرته أكثر من أي شيء آخر ، كان عندما نهضت في الصباح بعد أن عاد الى غرفته بهدوء وقد قضى الليل معها ، ووجدت نفسها غنية جدا في وجودها وحدها ، واستمتعت الى حد الاكتمال بغرفتها المنفردة ، وسحبت ستارتها ، ورأت أشجار الخوخ في الحديقة في الأسفل ، وكلها تومض مكللة بالثلج ومضيئة تحت أشعة الشمس في تورد مكتمل تحت السماء الزرقاء   كانت أخرجت براعمها ، فاندفعت تحت السماء الزرقاء ، البراعم الأكثر بياضا! كم أثارتها!

كان عليها أن تسرع في ارتداء ملابسها كي تذهب وتتجول في الحديقة تحت أشجار الخوخ قبل أن يأتي أحد ويتحدث معها . انزلقت خارجة ، وخطرت مثل ملكة في متنزه ملائكي   كانت الأزهار فضية معتمة عندما نظرت الى الأعلى تحت الشجرة الى السماء الزرقاء . كان ثمة عطر خفيف ، وضجة نحل خافتة ، واستعجال مدهش لصباح سعيد . سمعت جرس الإفطار فدخلت ، وسألها الآخرون :

ـ أين كنتِ ؟

فقالت ، وكان وجهها يتوهج كزهرة :

ـ كان عليَّ أن أخرج تحت أشجار الخوخ ، إنها لرائعة جدا .

واجتاز روح سكريبنسكي ظل من الغضب . لم ترده أن يكون هناك ، وصَلّبَ إرادته .

في الليل ، بزغ القمر ، وتوهجت الأزهار كالأشباح ، وذهبا معا كي يتفرجا عليها . رأت ضوء القمر على وجهه ، بينما كان ينتظر قربها . وكانت ملامحه كالفضة ، وعيناه في العتمة لا قرار لهما . كانت مغرمة به ، وكان هادئا جدا .

دخلا البيت ، وتظاهرت بالتعب ، وآوت مسرعة الى الفراش ، وهمست في أذنه كما لو أنها تقبله على ما يفترض قبلة ما قبل النوم :

ـ لا تتأخر في القدوم إليَّ .

وانتظر مشدودا متملكا اللحظة التي يستطيع الذهاب إليها ، واستمتعت به ، وأخذت منه الكثير . ولقد أحبت أن تضع أصابعها على جلده الناعم ؛ عند جنبيه ، او على نعومة ظهره ، عندما كان يشد عضلاته تحت ، إذ أن العضلات كانت تقوى بسبب ركوب الخيل ، وتملكتها متعة وإثارة وهوى هائل بسبب صلابة جسده التي لا تضغط ، ذلك الذي كان ناعما وهشا تحت أصابعها ، ذلك الذي أتى إليها بمثل هذه الخدمة المطلقة .

امتلكت جسده واستمتعت به بكل متعة المالك ولامبالاته ، بيد أنه طفق يخاف تدريجا

من جسدها . لقد أرادها ، أرادها الى المالانهاية ، بيد أن توترا تسرب الى رغبته ، كابحا منعه من الاستمتاع بالتقرب اللذيذ والاقتراب المحبب للعناق الذي لا ينتهي . كان خائفا ، وكانت إرادته متوترة دوما ، مثبتة

كان امتحانها النهائي أواسط الصيف ، وأصرت على دخوله ، رغم أنها أهملت عملها في الأشهر الأخيرة . ولقد أراد هو أيضا أن تذهب للحصول على شهادتها ، عندها كما ظن ، ستكون مقتنعة . وبخفاء أمل أنها ستفشل ، عندها تصبح أكثر سعادة به ، وسألها :

ـ هل تفضلين العيش في الهند أم في انكلترا عندما نتزوج ؟

قالت بفقدان مهمل للاعتبار وهو أمر أزعجه :

ـ أحبذ الهند كثيرا جدا .

ولقد قالت ذات مرة بحرارة :

ـ سأكون سعيدة بمغادرة انكلترا ، فكل شيء هزيل وتافه ، إنها لاروحانية جدا ، أنا أكره الديمقراطية .

ولقد تملكه الغضب عندما سمعها تتحدث بهذه اللهجة . ولم يكن يعرف السبب فبطريقة ما لم يكن يستطيع تحمل ذلك ، عندما كانت تهاجم الأشياء ، فكأنما كانت تهاجمه . وسألها بطريقة عدائية :

ـ ماذا تعنين ، لماذا تكرهين الديمقراطية ؟

فقالت :

ـ الناس الجشعون والقبيحون هم وحدهم الذين يصلون الى القمة في الديمقراطية ، ذلك لأنهم الناس الوحيدون الذين يدفعون أنفسهم الى هناك . إن الأجناس المنحطة هي التي تطبق الديمقراطية حسب .

فسألها مثارا :

ـ ماذا تريدين إذن ، أرستقراطية ؟

كان يحس دوما أنه بموجب حقوقه ، ينتمي الى الأرستقراطية الحاكمة . ومع ذلك ، كان يؤلمه أن يسمعها تتحدث عن طبقته ، بمتعة غريبة مؤلمة أحس أنه كان يقبل بشيء لاقانوني ، متخذا لنفسه فائدة خاطئة ، تستحق التوبيخ .

فهتفت :

ـ أنا أريد الأرستقراطية حقا ، وأفضل كثيرا منبتا أرستقراطيا على النقود . من هم الأرستقراطيون الآن ؟ من هم الذين اختيروا الأفضل كي يحكموا ؟ أولئك الذين لديهم النقود

وعقول للنقود . لا يهم ماذا يمتلكون غير ذلك ، بيد أنهم يجب أن يمتلكوا عقولا للنقود ذلك لأنهم يحكمون باسم النقود .

قال لها :

ـ الناس ينتخبون الحكومة

ـ أعرف أنهم يفعلون ، لكن من هم الناس ؟ إن كل واحد منهم هو فائدة نقدية . أنا أكره فكرة أن أي امرئ يساويني إذا كان يمتلك قدر ما أمتلك من النقود . أعرف أني أفضل منهم جميعا ، وأنا أكرههم . إنهم ليسوا أندادا لي . أكره المساواة على أساس النقود ، إنها مساواة القذارة .

قدحت عيناها ، وأحس كما لو أنها تريد أن تحطمه لقد أمسكت به ، وهي تحاول أن تحطمه ، وتفجر غضبه ضدها ، إنه على الأقل سيقاتل من أجل وجوده معها . وتملكته مقاومة صلبة عمياء .

قال لها :

ـ أنا لا أهتم بالنقود ، ولا أريد أن أضع إصبعي في الفطيرة ، فأنا حساس جدا تجاه إصبعي .

فهتفت بهوى :

ـ ماذا يعني إصبعك بالنسبة إليّ ، أنت بأصابعك الأنيقة ، وذهابك الى الهند ، لأنك ستكون أحد أولئك الذين هناك! إنه مجرد مراوغة ؛ ذهابك الى الهند .

فصرخ شاحبا بالغضب والخوف :

ـ من أية ناحية هو مراوغة ؟

قالت له :

ـ إنك تعتقد أن الهنود أبسط منا ، وبذلك تستمتع أن تكون قريبا منهم ، وسيدا عليهم ، وتشعر أنك عادل ، وتحكمهم لصالحهم ولكن من أنت كي تشعر أنك عادل ؟ وما هو العدل في حكمك ؟ قذاراتك الحاكمة ولماذا تحكم سوى أن تجعل الأشياء مميتة ووضيعة كما هي هنا!

قال لها :

ـ لا أشعر بأني عادل بأية حال من الأحوال .

ـ إذن بماذا تشعر ؟ إن كل شيء عدم ، ما تشعر به وما لا تشعر ؟

وسألها :

ـ وبماذا تشعرين أنت ؟ ألست عادلة في ذهنك ؟

فصرخت به :

ـ نعم ، أنا كذلك لأني ضدك وضد كل أشيائك القديمة الميتة

بدت بالكلمات الأخيرة متفوهة بمعرفة صلبة . إنها تسقط العالم الذي أبقاه مرفوعا أحس أنه مقطوع عند الركبتين ، شكل أُفقد قيمته . وانتابه إعياء مرعب ، كما لو أن ساقيه قد قطعتا حقا . ولم يعد بمقدوره أن يتحرك ، فبقي جذعا معوقا ، عالة ، عديم القيمة ، وجعله الإحساس المروع بانعدام الحيلة ، كما لو أنه مجرد شكل لا يوجد على نحو حيوي ، جعله مجنونا ، وسخط غاضبا

والآن ، وهو معها ، تملكه موت نفسه هذا بينما كان يتجول كجسد فارقته الحياة ولم يكن يرى او يشعر او يحس ، واستمرت آلية حياته حسب .

كرهها قدر استطاعته وهو في هذه الحالة . وأوحى له مكرهُ بكلّ الطرق التي تجعلها توقره ، فهي لا توقره . تركها ولم يكتب لها ، وغازل نساء أخريات ، منهن غدرون .

ولقد جعلها تصرفه الأخير عنيفة . كانت لم تزل غيرى غيرة عنيفة على جسده . وفي غضب مشغوف عيّرته بأنه ليس رجلا ليكفي امرأة واحدة ، بينما يدور حول الأخريات فسألها وقد شحب حد الحنجرة :

ـ ألم أشبعك ؟

قالت :

ـ لا ، إنك لم تشبعني منذ الأسبوع الأول في لندن ، وإنك لم تشبعني قط ماذا يعني أن تمتلكني..

ورفعت كتفيها ، وأدارت وجهها في حركة استخفاف باردة لامبالية ، وأحسّ أنه سيقتلها . عندما أثارته الى حد الجنون ، ورأت عينيه مظلمتين ومجنونتين بالمعاناة ، تغلبت معاناة هائلة على روحها ، معاناة هائلة لا تقهر ، وأحبته . ذلك لأنها ، اوه ، أرادت أن تحبه كان توقها لأن تكون قادرة على حبه أقوى من الحياة والموت .

وفي مثل هذه اللحظات ، عندما يكون مجنونا بسببها وهي تحطمه ، عندما يكون كل رضاه فد نحطم ، وكل حياته اليومية قد تهشمت ، ولم يتبق منه إلا الرجل العاري الأولي البدائي ، مجنونا بالعذاب ، يتحول هواها في أن تحبه الى حب ، وأخذته مرة أخرى ، وأصبحا معا في هوى متغلب ، أدرك من خلاله أنه قد أشبعها .

بيد أن كل ذلك كان يحتوي جرثومة موت في دور النمو فبعد كل تماس ، كانت

رغبتها المكروبة فيه ، او ذلك الشيء الذي لم تحصل عليه قط تصبح أقوى . كان حبها يصبح اكثر يأسا . وبعد كل تماس يتعمق اعتماده المجنون عليها ويضعف امله في الوقوف بقوة وأخذها بقوته . وأحس أنه مجرد صفة لها .

حَلَّ أسبوع العنصرة قبيل امتحاناتها . وكان عليها أن ترتاح بضعة أيام . كانت دوروثي حصلت على إرث ، واشترت لها بيتا في سيسكس ، ولقد دعتهما كي يبقيا معها .

ذهبا الى بيت دوروثي الأنيق الواطئ قرب التلال هناك ، فهناك يستطيعان أن يفعلا ما يشاءان . وكانت اورسلا تتوق دوما لتسلق قمة التلال . وكان الممر الأبيض يتلوى صاعدا نحو القمة المدورة ، وعليها أن تتسلقه .

هناك في الأعلى تستطيع ان ترى القنال ، على مبعدة بضعة أميال منها . وارتفع البحر وأومض بوهن في السماء . وكانت جزيرة (واي) ظلا ارتفع في الأفق البعيد ، وكان النهر يتلوى براقا في السهل المقسم نحو البحر ، وقلعة اروندل كتلة معتمة ، ثم تموج التلال العالية الناعمة ، خالقة أرضا مرتفعة عالية تحت السماء ، لا تقر بشيء سوى السماء ، قوتها العظيمة المتوهجة تحت أشعة الشمس ، ولا يعوقها سوى شجيرات قليلة عليها اجتيازها في أثناء الجماع بين جسدها العظيم المكتمل وجسد السماء المتقلب .

وفي الأسفل ، رأت القرى وغابات البراح ، والقطار يجري بشجاعة ؛ شيء صغير شهم يجري بكل أهمية العالم على مروج الماء ليدخل في فجوة بين التلال ، ملوحا ببخاره الأبيض . ومع ذلك ، كان صغيرا جدا طوال الوقت ، صغيرا جدا . ومع ذلك ، حملته شجاعته من نهاية الأرض الى نهايتها ، حيث لم يعد ثمة مكان لم يذهب اليه ورغم ذلك ، كانت التلال في لامبالاة رائعة ، حاملة أطراف الشمس وجسدها ، تحتسي أشعة الشمس ، وريح البحر والسحابة المخضبة بالبحر في جلدها الذهبي وبسكون رائع وهدوء الذات . ألم تكن التلال أكثر دهشة ؟ إن شجاعة القطار العمياء المحزنة النشيطة ، وهو يبخر ضئيلا ، مبتعدا خلال المستوى المرتب نحو قتامة البحر ، سريعا جدا ، ونشيطا جدا ، جعلها تبكي . الى أين يتجه ؟ إنه يذهب الى أي مكان ، بل كان يذهب حسب ، أعمى تماما ، دون هدف او غرض . ومع ذلك ، بكل هذه العجالة! جلست على نصب أرضي قديم ما قبل تاريخي ، وبكت ، وهطلت الدموع على وجهها . لقد حفر القطار الأرض كلها بعمى وقبح .

واضطجعت على وجهها على التلال التي كانت قوية جدا ، تلك التي لم تكن لتهتم إلا بجماعها مع السموات الأزلية ، وتمنت لو أنها تستطيع أن تصبح تلا قويا ناعما تحت السماء ، صدرها وأطرافها عارية لكل الرياح والسحب وتدفق ضوء الشمس .

بيد أنها يحب أن تنهض مرة أخرى ، وتبحث عن موطئ قدم في شروق الشمس الى الأسفل ، وبعيدا عن مستوى الأرض المرتب بقراه ودخانه وطاقته . ولقد بدا القطار قصير البصر جدا ، راكضا نحو البعد ، مفزعا القرى في ضآلتها ، وبمثل هذه الوضاعة في فعاليتها .

تجول سكربينسكي مصابا بالدوار ، دون أن يعرف أين كان او ماذا يفعل معها . كان كل هواها على ما يبدو هو أن تتجول على التلال هناك ، وعندما يكون عليها أن تنزل الى الأرض تكون مهمومة أما هناك ، في الأعلى ، فكانت منتعشة وحرة .

لن تحبه في بيت مرة أخرى . قالت إنها تكره البيت ، وإنها تكره الأسرّة على نحو خاص ، إذ أن ثمة شيء بغيض في مجيئه لسريرها . كانت تمضي الليل على التلال في الأعلى هناك وهو معها . كان الوقت منتصف الصيف ، وكانت الليالي طويلة على نحو رائع . فعند الساعة العاشرة والنصف تقريبا ، عندما يخيم في النهاية الظلام الأسود المزرق ، كانا يأخذان سجادات ويتسلقان الطريق المائل الى قمة التل : هو وهي .

هناك في الأعلى ، كانت النجوم كبيرة ، والأرض في الأسفل غطست في الظلام . وكانت حرة هناك في الأعلى مع النجوم . وفي البعد شاهدا الأضواء الصفر الضئيلة ، بيد أنها كانت نائية جدا . عند البحر ، او على الأرض ، كانت حرة في الأعلى ، مع النجوم .

خلعت ملابسها وجعلته يخلع كل ملابسه ، وركضا فوق المرج الناعم المعتم ، مسافة طويلة ، أكثر من ميل ، حيث تركا ملابسهما ، راكضين في الريح المظلمة الناعمة ، عاريين تماما ، عاريين كالتلال ذاتها . كان شعرها طليقا يهفهف حول كتفيها ، وركضت برشاقة ، مرتدية صندلا عندما شرعت في ركضتها الطويلة الى بركة الطل .

وفي بركة الطل ، كانت النجوم ساكنة . خوضت بنعومة في الماء ، ممسكة النجوم بيديها .

ومن ثم ، فجأة ، كرت عائدة راكضة برشاقة ، وكان هناك الى جانبها ، لكنه شقي حسب كان ستارة لمخاوفها . لقد خدمها فأخذته وعانقته ، وتعلقت به عن قرب ، بيد أن عينيها كانتا مفتوحتين تتأملان النجوم . كان الأمر يبدو كما لو أن النجوم كانت تضاجعها ، وتدخل ظلام رحمها الذي لا قرار له ، قائسة عمقها في النهاية ولم يكن هو .

انبلج الفجر ، ووقفا معا على مرتفع نصب أرضي من صنع إنسان العصر الحجري ، يراقبان ظهور الضوء ، وانتشر على الأرض ، بيد أن الأرض كانت مظلمة . وراقبت حافة شاحبة على السماء ، بعيدا عن الأرض المعتمة . وأصبح الظلام أشد زرقة ، وثمة ريح خفيفة تهب من البحر خلفها . كانت تبدو كأنها تهب على صدع الفجر الشاحب ، وكانا معا ، معتمين على مخفر الفجر الأمامي ، ينتظران الفجر .

اشتد الضوء منبجسا على ياقوت الليل الأزرق الشفاف ، واشتد الضوء ، أكثر بياضا ، ثم حلق فوقه دفق وردي ؛ دفق وردي ، ثم أصفر ؛ أصفر شاحب ، حديث التكون ، وكان الكل يرتجف ، ويتوازن في الحال ، فوق النافورة على حافة السماء .

تأرجح الوردي وارتجف ، واشتعل وانصهر متحولا الى لهب ، الى أحمر زائل ، بينما تدفق الأصفر في موجات عظيمة ، مندفعا من النافورة المتزايدة باستمرار ، موجات هائلة من الأصفر تندفع الى السماء ، نائرة رذاذها فوق الظلام الذي أصبح أشد زرقة ، وأكثر شحوبا ، سرعان ما تحول نفسه الى شعاع ، ذلك الذي كان ظلاما .

كانت الشمس قادمة ، وثمة جريان مرتجف نشيط مرعب لضوء مذاب ، ثم تدفق المصدر الذائب نفسه الى الأمام . وكانت الشمس في كبد السماء قوية جدا يصعب النظر إليها .

وكانت الأرض في الأسفل تضطجع ساكنة تماما ، مسالمة تماما ، سوى ديك يصيح بين الفينة والأخرى . باستثناء ذلك ، من التلال الصفر البعيدة الى أشجار الصنوبر ، أسفل التلال ، كان كل شيء غسل ليوجد حديثا ، في طوفان من خلق ذهبي جديد .

كانت الأرض المتميزة المضاءة بلون ذهبي ساكنة وكاملة على نحو واعد وبطريقة لا توصف حتى أنها هدهدت روح اورسلا وأبكتها . وفجأة ألقى نظرة عليها . كانت الدموع تنهمر على وجنتيها ، وفمها يتحرك بطريقة غريبة .

وسألها :

ـ ما الأمر ؟

وبعد لحظة صراع مع صوتها ، قالت وهي تتأمل الأرض المتوهجة :

ـ إنها لجميلة جدا .

كانت جميلة جدا ، ومكتملة جدا ، وغير ملطخة قط .

وأدرك هو أيضا ما ستؤول إليه انكلترا خلال بضع ساعات ، فعالية عمياء قذرة نشيطة ، كل شيء دون جدوى ، تنفث دخانا قذرا ، وقطارات تجري وتلمس أوعية الأرض كل شيء دون جدوى ، وتملكه شعور فظيع .

نظر الى اورسلا . كان وجهها مبللا بالدموع ، برّاقا جدا ، كتحول في الضوء المتألق . ولم تكن يده هي التي تمسح الدموع المحرقة البراقة ، فتنحى جانبا ، وقد تغلب عليه إحساس قاس بانعدام الجدوى

وتدريجا ، ابتدأ يأس هائل يرتفع في داخله ، بيد أنه كان يقاتله حتى تلك اللحظة ،

وكان يصارع من أجل حياته . وأصبح هادئا جدا ، وغير شاعر بالأشياء من حوله ، منتظرا ، كما لو أنها حكم عليه .

عادا الى نوتنغم ، وأزِف موعد امتحانها . وعليها أن تذهب الى لندن ، بيد أنها لن تبقى معه في فندق ، بل ستقيم في نزل صغير هادئ قرب المتحف البريطاني .

كانت تلك الأحياء السكنية الهادئة في لندن تترك أثراً هائلا في ذهنها ، إذ أنها كانت مكتملة تماما . ويبدو أن ذهنها كان سجين هدوئها ، فمن ذا الذي سيحررها ؟

في المساء ، وقد انتهى امتحانها العملي ، اصطحبها لتناول العشاء في أحد الفنادق على ضفة النهر قرب ريجموند . كان ذهبيا وجميلا ذا ماء أصفر وظلات زوارق بيض مخططة بلون قرمزي وظلال زرق تحت الأشجار .

ـ متى نتزوج ؟

سألها بهدوء وببساطة كما لو أنه مجرد سؤال عن الراحة .

راقبت سير مرور المتعة في النهر ، ونظر الى خطمها الذهبي المرتبك ، وتجمعت العقدة في حنجرته .

قالت :

ـ لا أعرف .

وأمسك أسى ساخن بحنجرته ، وسألها :

ـ لماذا لا تعرفين ، ألا تريدين أن تتزوجي ؟

استدار رأسها ببطء ، ووجهها محتار كوجه طفل ، ساكن القسمات ، إذ كانت تحاول أن تفكر . نظرت الى وجهه ولم تره ، لأنها كانت مشغولة البال ، ولم تعرف تماما ما الذي ستقوله .

ـ لا أعتقد أني أريد أن أتزوج .

قالت له ، واستقرت عيناها الساذجتان المنزعجتان المرتبكتان على عينيه لحظة ثم سافرتا بعيدا ، منشغلتين .

فسألها :

ـ أتعنين الى الأبد أم أن الوقت لم يحن بعد ؟

ازدادت العقدة في حنجرته صلابة ، وغرق وجهه كما لو أنه قد خُنق .

ـ أعني الى الأبد .

خرج ما قالت من نفس أخرى بعيدة عن متناولها .

راقبها وجهه الغاطس بانشداه بضع لحظات ، ثم صدر صوت غريب في حنجرته ، أجفلت وعادت الى وعيها ، ورأته مرعوبا . أصدر رأسه حركة غريبة ، وارتجّت الذقن على الحنجرة ، وعاوده صوت الفواق الغريب الصائح ، وتثنى وجهه كالمجنون ، وكان يصرخ ، يصرخ أعمى ومشوها كما لو أن شيئا ما كان يبقيه مسيطرا قد انكسر .

هتفت قافزة :

ـ طوني لا تفعل .

وقد مزق كل عصب لديها وهي تراه في تلك الحال . وأصدر حركات متلمسة كي يخرج من كرسيه ، بيد أنه كان يصرخ بصورة غير مسيطر عليها ، دون صوت ، ووجهه مجعد مثل قناع ، مشوه ، والدموع تنهمر في أخاديد خديه المدهشة . وبعمى ، ووجهه دوما ذلك القناع الرهيب المنفعل ، تلمس باحثا عن قبعته ، وعن طريقه هابطا الشرفة كانت الساعة الثامنة مساء ، بيد أن الجو لم يزل مضيئا براقاً . وأجفل الآخرون ، وباضطراب عظيم ، بعضه سخط ، تخلفت بعده . دفعت للنادل نصف جنيه ذهباً ، وأخذت معطفها الحريري الأصفر ، ثم تبعت سكريبينسكي .

رأته يمشي بخطوات هشة عمياء على الشارع الموازي للنهر ، وكان بمقدورها أن تقدر من تصلب هيئته الغريب وهشاشته أنه لم يزل يبكي . أسرعت خلفه جارية ، وأمسكت ذراعه ، وهتفت به :

ـ طوني ، لا تفعل! لماذا أنت في هذه الحال ؟ لماذا تفعل ذلك ؟ لا تبكِ ، ليس هذا ضروريا

سمع ، وقد محق رجولته بقسوة وبرودة ، بيد أن ذلك لم يكن لينفع ، فلم يستطع السيطرة على ملامح وجهه وصدره . كانا يبكيان بعنف ، كما لو بطريقة آلية أما إرادته ومعرفته فلم تكن لهما علاقة بالأمر ، إنه ببساطة لا يستطيع التوقف

مشت ممسكة ذراعه ، صامتة ساخطة حائرة متألمة . وخطا الخطوات المترددة لرجل أعمى ، ذلك لأن ذهنه قد أعماه البكاء .

قالت له :

ـ هل نعود الى البيت ؟ هل نستقل سيارة أجرة ؟

لم يكن بمقدوره أن يعيرها انتباها .

مرتبكة جدا ، مضطربة جدا ، لوحت بصورة غير محددة الى سيارة أجرة كانت تقترب منهما ، ودفعت سكريبينسكي داخلها ، ثم اتخذت مكانها . كان وجهها مرفوعا وفمها

مطبقاً ، وبدت صلبة باردة خجلى . وأجفلت عندما اندفع وجه السائق الأحمر المعتم ، وجه حيواني ممتلئ بالدم ذو حاجبين سوداوين وشارب سميك مقصر .

قال لها وقد ظهرت أسنانه البيض :

ـ الى أين يا سيدتي ؟

وارتبكت لحظة مرة أخرى وقالت :

ـ أربعون ساحة روتلاند .

لمس قبعته ، وبتبلد شرعت السيارة تتحرك . بدا كأنه قد عقد حلفا معها لإهمال سكربينسكي .

جلس الأخير كما لو أنه سجن في سيارة الأجرة ، ومازال وجهه منفعلا ، بينما كان يصدر بين الفينة والأخرى حركات سريعة طفيفة من رأسه كي يجفف دموعه . ولم يحرك يديه قط ، ولم تكن تطيق النظر إليه ، فجلست بوجه مرفوع أدارته نحو الشباك .

بعد فترة طويلة ، وعندما امتلكت بعض السيطرة على نفسها ، استدارت إليه مرة أخرى ، وكان أكثر هدوءا ، وكان وجهه مبللا وهو ينتفض بين الفينة والأخرى ، ولم تزل يداه ممددتين دون حراك ، بيد أن عينيه مازالتا ساكنتين أشبه بسماء مغسولة غبَّ مطر ، مملوءة بضوء شاحب ، ثابتة تماما ، تكاد تشبه شبحا .

وتوهج ألم في رحمها من أجله .

ـ لم أظن أنني سأؤذيك .

قالت واضعة يدها بخفة شديدة ، مستكشفة ، على ذراعه :

ـ لقد خرجت الكلمات مني دون معرفة ، إنها لا تعني شيئا حقا .

بقي ساكنا ، مصغيا ، بيد أنه مغسول ، كله شاحب دون مشاعر ، وانتظرت وهي تنظر إليه ، كما لو أنه مخلوق غريب لا يفهم .

ـ لن تبكي مرة أخرى أليس كذلك يا طوني ؟

وحرقه بعض الخزي والمرارة في السؤال . لحظت كيف كان شاربه مشبعا رطبا بالدموع . فأخرجت منديلها ، ومسحت وجهه ، وبقي ظهر السائق الثقيل البليد مستديرا نحوها ، كما لو أنه واع لكنه غير مبال . وجلس سكربينسكي ساكنا ، بينما مسحت اورسلا وجهه برقة وبعناية ، لكن بطريقة خرقاء ؛ ليس بالطريقة التي يمسحها بها .

كان منديلها صغيرا جدا ، وسرعان ما تبلل كليا . وبحثت في جيبه عن منديله . ومن

ثم ، وبقدرتها الأكثر وفرة ، جففت وجهه بعناية . وبقي ساكنا طوال الوقت ، ثم قربت خدها إليه وقبلته . كان وجهه باردا ، وقلبها متألما . ورأت الدموع تبزغ من عينيه مرة أخرى ، كما لو أنه طفل . ومسحت دموعه مرة أخرى ، وأصبحت الآن هي الأخرى على وشك البكاء ، وأمسكت شفتها السفلى بين أسنانها .

جلست ساكنة بسبب الخوف من دموعها . جلست قريبة منه ، ممسكة يده دافئة وقريبة ومحبة وفي هذه الأثناء ، كانت السيارة تجري . وابتدأ غسق منتصف الصيف الناعم يتجمع . جلسا ساكنين طويلاً ، غير أن يدها كانت تطبق بين الفينة والأخرى بصورة أكثر قربا وحبا على يده ، ثم تسترخي تدريجا .

بدأ الغسق يهبط ، وظهر ضوء او إثنان . وتوقف السائق ليضيء مصابيحه ، وتحرك سكربينسكي للمرة الأولى ، مطلا الى الأمام كي يراقب السائق ، وكان لوجهه دوما النظرة الساكنة الصافية نفسها التي تكاد تكون طفولية ، لاشخصية .

شاهدا وجه السائق الغريب الممتلئ المعتم يحدق الى المصابيح تحت حاجبيه المتهدلين . ارتجفت اورسلا . يكاد يكون وجه حيوان ، لكنه وجه حيوان سريع قوي حذر ، ذلك الذي ضمهم ضمن معرفته ، وضمن قدرته ، وتعلقت بسكربينسكي أكثر .

- حبيبي ؟

قالت له متسائلة ، وقد انطلقت السيارة مرة أخرى بأقصى سرعتها .

لم يصدر حركة أو صوتا ، وتركها تمسك يده ، وتركها تمد نفسها الى الأمام في العتمة المتجمعة ، وتقبل خده الساكن . لقد ذهب البكاء ، وهو لن يبكي مرة أخرى وتمالك نفسه مرة أخرى .

- حبيبي!

كررت القول محاولة أن تلفت انتباهه إليها ، بيد أنه لم يستطع حتى تلك اللحظة .

راقب الطريق . كانا يمران عندئذ بحدائق (كينكستن) ، وللمرة الأولى انفرجت شفتاه ، وسألها :

- هل ننزل وندخل الى المتنزه ؟

فردت بهدوء غير واثقة مما سيحدث .

- نعم .

وبعد لحظة أخرج أنبوب الإشارة من موضعه ، ورأت السائق البدين القوي المنضبط يحني رأسه .

ـ توقف عند زاوية الهايد بارك .

اهتز الرأس الغامق ، وظلت السيارة تسير سيرها المألوف

توقفا الآن ، ودفع سكربينسكي للرجل أجرته ، بينما تنحت اورسلا الى الخلف ، ورأت الرجل يحييه بينما استلم نفحته . ومن ثم ، وقبل أن يحرك السيارة ، استدار ونظر إليها بنظرته الحيوانية السريعة القوية . كانت عيناه مركزتين جدا ، وبياضهما يطرف ، ثم مضى مبتعدا في الزحمة . لقد تركها تذهب ، وكانت خائفة .

استدار سكربينسكي معها نحو المتنزه ، حيث كانت جوقة ماتزال تعزف ، والمكان غاصاً بالبشر . أصغيا الى الموسيقى المنحسرة ، ثم انتبذا مكانا على مقعد مظلم ، حيث جلسا متقاربين يدا بيد

وبعد فترة طويلة ، وكما لو من الصمت ، قالت له متسائلة :

ـ ما الذي آذاك الى هذا الحد ؟

لم تكن تعرف حقا في تلك اللحظة .

أجابها ببساطة طفولية :

ـ عندما قلت إنك لا تريدين أن تتزوجيني أبدا .

فردت قائلة :

ـ لكن لماذا يؤذيك هذا الى هذا الحد ، يجب ألاّ تأخذ كل ما أقوله على محمل الجد .

فقال لها متواضعا ، خجلا .

ـ لا أعرف ، لم أكن أريد أن أفعل ذلك .

ضغطت يده بدفء ، وجلسا متقاربين ، يراقبان الجنود يمرون مع حبيباتهم ، وكانت الأضواء تنتشر في حشود أسفل الشوارع الكبيرة التي تنبض على حافة المتنزه .

فقالت بتواضع أيضا .

ـ لم أكن أعرف أنك تهتم الى هذا الحد .

قال لها :

ـ لم أكن أعرف ، لقد فقدت الوعي بيد أني أهتم بك أكثر من أي شيء آخر .

كان صوته هادئا ، باهتا تماما ، جعل قلبها يشحب خوفاً

ـ حبيبي!

قالت مقتربة منه ، بيد أنها كانت تتحدث بدافع الخوف لا الحب .

قال لها بالصوت الثابت الباهت المميز للصدق الأساسي نفسه :

ـ أهتم بك أكثر من أي شيء آخر ، أنا لا أهتم بأي شيء غيرك سواء في الحياة او الممات

فتمتمت متجهمة :

ـ أكثر من ماذا ؟

ـ أكثر من أن تكوني معي .

ومرة أخرى تملكها الخوف . هل تُهزم بهذا الحديث ؟ وانكمشت الى جانبه قريبة منه جداً . وجلسا ساكنين تماما ، يصغيان الى صوت المدينة الهائل الثقيل النابض ، وهمهمة العشاق المارين ووقع أقدام الجنود . وارتجفت مستندة عليه ، فقال لها :

ـ هل تشعرين بالبرد ؟

ـ قليلا .

ـ سنذهب ونتناول العشاء .

إنه الآن هادئ ومصمم وبعيد دائما ووسيم جدا ، وبدا يمتلك قوة غريبة باردة عليها

ذهبا الى المطعم ، واحتسيا الشيانتي ، بيد أن مظهره الشاحب الباهت لم يختف .

ـ لا تتركيني الليلة .

قال لها بعد فترة طويلة ، وهو ينظر إليها متوسلا كان غريبا ولاشخصيا جدا ، وكانت خائفة ، فقالت له مرتجفة :

ـ لكن أهلي .

ـ سأشرح لهم الأمر ، إنهم يعرفون أننا مخطوبان .

جلست شاحبة بكماء ، وانتظرها وقال لها بعد فترة طويلة .

ـ هل نذهب ؟

ـ الى أين ؟

ـ الى فندق .

وتصلب قلبها ، ودون أن تجيب نهضت بإذعان ، بيد أنها أصبحت الآن باردة ولاحقيقية . ومع ذلك ، لم يكن بمقدورها أن ترد طلبه ، إذ بدا لها ذلك شبيها بقدر ، قدر لا تريده .

ذهبا الى فندق إيطالي في مكان ما ، وأخذا غرفة نوم كئيبة ذات سرير كبير جدا ، نظيفة بيد أنها كئيبة ، وكان السقف مطليا بحزمة أزهار في رصيعة كبيرة فوق السرير ، واعتقدت أنها كانت جميلة .

اقترب منها والتصق بها جيدا ، التصق بها كفولاذ وتعلق . ثار هواها وكان حادا لكنه باردا . كان حادا متطرفا رائعا هواهما تلك الليلة . ونام وقد أحكم ذراعيه من حولها . وطوال الليل ، كان يمسك بها بإحكام وكانت مستسلمة مذعنة ، بيد أن نومها لم يكن عميقا جدا و حقيقيا جدا .

استيقظت في الصباح على صوت ماء يرش في الساحة ، وعلى أشعة شمس تتدفق عبر النافذة . وظنت أنها في بلاد غريبة ، وأن سكربينسكي كان هناك بمثابة كابوس عليها .

اضطجعت ساكنة تفكر ، بينما كانت ذراعه حولها مستندة الى كتفها وجسده على جسدها ، خلفها تماما . وكان مايزال نائما . وراقبت أشعة الشمس وهي تتسلل في أشرطة عبر النوافذ ، وذاب ما يجاورها

مرة أخرى كانت في أرض أخرى ، في عالم آخر ، حيث اختفت القيود القديمة وذابت ، حيث يتحرك المرء بحرية ، لا يخاف من رفيقه الإنسان ، لا محترسا ولا متأهبا ، بل هادئا ، لامباليا ، على سجيته لقد تحطمت كل أواصر العالم ، واختفى عالم انكلترا ، وسمعت صوتا في الساحة ينادي :

ـ يا جيوفاني ، يا... يا . يا جيوفاني!

وعرفت أنها كانت في بلاد جديدة وفي حياة جديدة . وكان أمرا لذيذا أن يضطجع المرء ساكنا على هذه الشاكلة ، بينما تتجول روحه بحرية وببساطة في الضوء الفضي لعالم طبيعي آخر ، أكثر بساطة وروعة .

لكن ثمة دائما نذيراً ينتظر كي يأمرها ، وأصبحت أكثر إحساسا بوجود سكربينسكي ، وعرفت أنه استيقظ . يجب أن تُحَوِّر روحها ، وتغادر عالمها البعيد إليه

أدركت أنه كان مستيقظا ، وكان يضطجع ساكنا سكوناً صلباً ، ليس مثل ما نام . ثم ضاقت ذراعه عليها كما لو أنه يتشنج ، وقال شبه مخلوع الفؤاد :

ـ هل نمت جيدا ؟

ـ جيد جدا .

ـ وأنا كذلك

ثم حدث توقف ، وسألها .

ـ وهل تحبينني ؟

استدارت ونظرت إليه باحثة ، وكان يبدو أنه خارجها ، فقالت له :

ـ أنا كذلك .

بيد أنها قالت ذلك بسبب الرضا والرغبة في عدم المضايقة . وكان ثمة صدع من الصمت بينهما ، وهو أمر أخافه .

اضطجعا حتى وقت متأخر ، ثم قرع الجرس كي يطلب الإفطار . أرادت أن تكون قادرة على النزول مباشرة لتغادر المكان عندما نهضت من نومها كانت سعيدة في هذه الغرفة ، بيد أن علنية الصالة في الطابق الأسفل أزعجتها قليلا .

ظهر شاب ايطالي صقلي ، بشرته قاتمة وذات بثور طفيفة ، يرتدي سترة رمادية مزررة ، ويحمل صينية . كان لوجهه رباطة جأش افريقية تقريبا ، جامدا ، مبهما .

قال له سكربينسكي ملاطفا .

ـ إن المرء يمكن أن يظن نفسه في إيطاليا .

ظهرت نظرة فارغة تكاد أن تكون خوفا على وجه الفتى ، ولم يفهم

وشرح له سكربينسكي :

ـ إن المكان يشبه ايطاليا

وأومض وجه الإيطالي بابتسامة تدل على أنه لم يفهم ، وانتهى من ترتيب الصينية ثم اختفى . لن يفهم شيئا . اختفى من الباب كحيوان متوحش شبه مدجن . ولقد جعل ذلك اورسلا ترتجف قليلا ؛ حيوانية الرجل السريعة ، حادة البصر ، المتعمدة .

كان سكربينسكي جميلا في عينيها ذلك الصباح ، إذ اكتسب وجهه نعومة ، وتخللته المعاناة والحب ، وكانت حركاته ساكنة جدا ونبيلة . كان جميلا في نظرها ، بيد أنها كانت منفصلة عنه بمسافة باردة . كانت تبدو دائما وهي تتحمل المسافة التي تفصل بينهما ، بيد أنه لم يكن شاعرا بذلك . وفي هذا الصباح ، كان متخللا وجميلا ، واعجبت بحركاته ، وبالطريقة التي ينشر فيها العسل على خبزه او يصب بها القهوة .

عندما انتهى الإفطار ، اضطجعت مستندة الى الوسائد مرة أخرى ، بينما بدأ زينته راقبته وهو ينظف جسده بالإسفنجة ، ويجففه بسرعة بالمنشفة . وكان جسده جميلا ، وحركاته متعمدة وسريعة . وأعجبت به وبقدرته دون تحفظ لقد بدا أنه اكتمل الآن ، ولم يعد يثير إخصابا غير مثمر الآن ، بل بدا الآن مكتملا ومنتهيا ، وهي تعرف كل جوانبه ، وهو يؤدي الى المجهول في أي من جوانبه . وأحست بتقدير حاد يكاد يكون جنونا نحوه ، لكن ليس من التساؤل المخيف ولا أي من الخوف المفرط ، أو الارتباط بالمجهول او تبجيل الحب ومع ذلك كان غير مدرك هذا الصباح . كان جسده هادئا ومشبعا ، وعروقه مكتملة الرضا . كان سعيدا ومنتهيا .

وعادت الى البيت مرة أخرى ، لكنه ذهب معها هذه المرة أراد أن يبقى الى جوارها . أرادها أن تتزوجه كانا في شهر تموز عندئذ ، وعليه أن يبحر الى الهند في بداية أيلول ، وهو لا يستطيع تحمل فكرة أن يذهب بمفرده . يجب أن تذهب معه ، وبقي الى جانبها متوترا .

انتهى امتحانها ، وأشرفت حياتها في الكلية على الانتهاء . بقي لها الآن إما أن تتزوج او تعمل مرة أخرى . ولم تقدم طلبا لإشغال وظيفة ما ، واستنتج من ذلك أنها سوف تتزوج ، فلقد أغرتها الهند ؛ الأرض الغريبة ؛ الغريبة ، لكن عند التفكير في كلكتا او بومباي او سيملا او بالجالية الأوربية ، لم تكن الهند أكثر جاذبية بالنسبة إليها من نوتنغم .

لقد فشلت في امتحانها ، وهبطت الى الحضيض ولم تحصل على شهادتها . وكان ذلك بمثابة لطمة لها ؛ صَلّبَت روحها .

قال لها :

ـ لا يهم ، ما الفرق بين أن تكوني حاصلة على بكالوريوس الآداب من جامعة لندن أم لا ؟ كل الذي تعرفينه تعرفينه ، وإذا كنتِ السيدة سكربينسكي ، فإن شهادة البكالوريوس في الآداب لا تعني شيئا

وبدلا من أن يغريها ذلك ، جعلها أكثر تصلبا وأشد قسوة . لقد ثارت الآن ضد قدرها ، وكان متروكا لها أن تختار بين أن تكون السيدة سكربينسكي ، بل حتى البارونة سكربينسكي ، زوجة ملازم في سلك المهندسين الملكي او حافري الخنادق كما يسمونهم ، تعيش مع الجالية الأوربية في الهند ، او أن تكون اورسلا برانغوين معلمة مدرسة عانساً

كانت مؤهلة لهذه الوظيفة بموجب امتحان الآداب المتوسط ، بل قد تحصل على وظيفة بسهولة تامة كمساعدة في إحدى المدارس ذات المستوى الأرفع ، بل حتى في مدرسة وايلي غرين فأيهما تختار ؟

كرهت أكثر ما كرهت الانخراط في زمرة التعليم مرة أخرى . لقد مقتتها من كل قلبها ، ومع ذلك وعند التفكير بالزواج من سكربينسكي ، والعيش معه وسط الجالية الأوربية في الهند ، كانت روحها تقفل ولا تتزحزح كان لديها احساس ضئيل جدا تجاه الأمر . ليس ثمة شيء آخر غير مأزق .

انتظر سكربينسكي ، وانتظرت ، وانتظر الجميع قرارها . وعندما تحدث أنطون معها ، وبدا يقدم ، بمكر ، نفسه ، كزوج لها ، عرفت كم كان متمأزقا تماما من جانب آخر . وعندما رأت دوروثي وناقشت الأمر معها ، أحست أنها ستتزوجه فورا ؛ في الحال كتنصل حاد من التمسك بوجهات نظر دوروثي .

وكان الموقف بأكمله حماقة تقريبا . وسألتها دوروثي .

ـ لكن هل تحبينه ؟

فقالت اورسلا :

ـ المسألة ليست مسألة إن كنت أحبه ، فأنا أحبه بما فيه الكفاية ، أحبه ، ولا ريب ، أكثر مما أحب أي شخص آخر في العالم . وأنا لن أحب أي شخص آخر أبدا بالطريقة نفسها مرة أخرى . لقد امتلك كل منا وردة الآخر ، بيد أني لا أهتم بالحب فأنا لا أقيّمه . لا يهمني إن كنت أحب أم لا ، إن كان علي أن أحب أم لا ، ماذا جرى لي ؟

وهزت كتفيها في ازدراء حاد غاضب .

وتأملت دوروثي غاضبة وخائفة قليلا .

وسألتها ساخطة :

ـ ما الذي تهتمين به إذن ؟

قالت اورسلا :

ـ لا أعرف ، لكن شيئاً ما لاشخصياً . الحب : الحب ماذا يعني ؟ ما الذي يهدف إليه ؟ الكثير من الإرضاء الذاتي ، إنه لا يؤدي الى أي مكان .

فقالت دوروثي ساخرة :

ـ ليس مطلوبا أن يؤدي الى مكان ما ، أليس كذلك ؟

ـ كنت أعتقد أنه الشيء الوحيد الذي هو غاية في حد ذاته .

فهتفت اورسلا :

ـ إذن المهم عندي ، إذا كان غاية في حد ذاته ، هو أني أستطيع أن أحب مئة رجل ، الواحد بعد الآخر . فلماذا أنتهي مع سكربينسكي ؟ لماذا لا أستمر ، وأحب كل الأنواع التي تعجبني اذا كان الحب غاية في حد ذاته . ثمة الكثيرين من الرجال الذين لبسوا أنطون ، أستطيع أن أحبهم وسأحبهم .

قالت دوروثي :

ـ إذن فأنتِ لا تحبينه .

ـ أقول لك إني أحبه تماما ، بقدر او ربما أكثر مما يجب أن أحب أيّا من الآخرين ، لكن ثمة الكثير من المزايا التي ليست في أنطون والتي أحبها في الرجال الآخرين

ـ ما هي على سبيل المثال ؟

ـ ليس هذا مهما . لكنّ نوعا من الفهم القوي في بعض الرجال ثم الوقار والصراحة ،

شيء لا يمكن الشك فيه عند الرجال العاملين ، ثم الانفعال المرح الطائش الذي ترينه ، إنه رجل يستطيع أن ينحرر حقا...

وكان بمسنطاع دوروثي أن تشعر بأن اورسلا كانت تبحث عن شيء آخر ، شيء ما لم يعطه لها هذا الرجل

واقترحت دوروثي ·

ـ السؤال هو ماذا تريدين ، هل تريدين رجالا آخرين حسب ؟

صمتت اورسلا ، وكان ذلك مبعث فزعها هل كانت تحب حياة جنسية خليطة ؟ واستمرت دوروثي ·

ـ إذا كان الأمر كذلك فإن من الأفضل أن تتزوجي أنطون ، إذ أن الأمر الآخر لا ينتهي إلاّ نهاية سيئة .

لذلك كان على اورسلا بسبب الخوف من نفسها أن تتزوج سكربينسكي . وكان منشغلا جدا عندئذ ، يتهيأ للسفر الى الهند ، إذ كان عليه أن يزور الأقارب ، ويخول آخرين بإدارة أعماله . وكان واثقا من اورسلا الآن تقريبا ، إذ يبدو أنها أذعنت ، وبدا كأنه أصبح مرة أخرى رجلا مهما واثقا من نفسه

كان الوقت هو الأسبوع الأول من آب ، وكان واحدا من مجموعة كبيرة تعيش في سقيفة على ساحل لنكونشاير ، وكانت رحلة تنس وغولف وقيادة سيارات وزوارق ، رُتبت من قبل عمة أبيه ، وهي سيدة نبيلة ذات طموحات اجتماعية . ولقد دُعيت اورسلا كي تقضي الأسبوع مع المجموعة .

ذهبت على مضض تفربيا ، وكان زواجهما قد حُدِّد بطريقة او أخرى يوم الثامن والعشرين من الشهر . وكان مقررا أن يبحرا الى الهند يوم الخامس من أيلول . وكانت تعرف شيئا واحدا في لاوعيها ، وهو أنها لن تبحر الى الهند .

حصلت هي وأنطون ، باعتبارهما ضيفين مهمين ، بفضل الزواج الوشيك ، على غرفتين في السقيفة الكبيرة . كانت مكانا واسعا ذا صالة مركزية واسعة ، وغرفتي كتابة صغيرتين ، ومن ثم ممرين تنفتح عليهما ثمانيع غرف أو تسع . وضع سكربينسكي في غرفة بأحد الممرات ، واورسلا في الآخر ، وأحسا أنهما ضائعان جدا وسط الحشد .

ولأنهما كانا عاشقين ، فلقد سُمح لهما أن يخرجا وحدهما بقدر ما كانا يرغبان . ومع ذلك ، أحست أنها غريبة جدا في حشد الناس الغرباء هذا ، كما لو أن ليس لديها عزلة ، ولم تكن معتادة على مثل هذه الحشود المتجانسة ، وكانت خائفة .

أحست أنها مختلفة عن الآخرين ، بحميميتهم الصلبة البسيطة الضحلة التي كانت ، على ما يبدو ، لا تكلفهم إلاّ القليل . وأحست أنها لم تكن ظاهرة بما فيه الكفاية كان الأمر يشبه إنشاءك جوّك غير المألوف الخاص بك . ولم يعجبها الأمر . ففي الحشود ، في تجمع الناس ، كانت تحب الإلتزام بالشكليات أحست أنها لا تصدر التأثير المطلوب ، ولم تكن مؤثرة ولا جميلة ؛ كانت عدما وحتى أمام سكريبنسكي ، أحست أنها غير مهمة ، وضيعة تقريبا كان بمقدوره أن يؤدي دوره مع البقية أداءً ممتازاً .

خرجا معا الى الليل ، وكان قمر خلف الغيوم ، يلقي ضوءاً متناثراً وامضاً بين الفينة والأخرى بقطع من لؤلؤ مدخن . مشيا معا على الرمال الرطبة المضلعة قرب البحر ، مصيخين السمع الى جريان الأمواج الطويلة الثقيلة التي كانت تصدر بياضا شبحيا وهمسا . كان واثقا من نفسه ، وبينما كانت تسير ، كان حرير ثوبها الناعم ، وهو تنورة طويلة من قماش الشنتون الأزرق ، يطير من البحر ، ويهفهف ويلتصق بساقيها . وتمنت لو أن ذلك لا يحدث ، إذ بدا وكأن كل شيء يُسلّمها . ولم تستطع أن تُنْهِض نفسها كي تفكر . وكانت مرتبكة جدا .

قادها بعيدا ، الى فجوة بين التلال الرملية ؛ مكان خفي وسط الشجيرات الشوكية الرمادية ، والعشب الرمادي الزجاجي . احتضنها وأحسّ بقالب جسدها الصلب الشهواني تماما خلال نسيج الحرير الناعم ، الذي كان يسقط حول أطرافها . كان الحرير ينزلق محرقا على استدارة جسدها ، وصلابته الخفية والمتكشفة في الوقت نفسه . وكان حقواها يبدوان ، وكأنهما يجريان كالنار في داخله ، وجعلا مخه يحترق كالكبريت . وأحبت الأمر ، نار الحرير الكهربائية تحت يديه ، على أطرافها . وانسابت النار عليها ، بينما كان يسحبها أقرب فأقرب الى الاكتشاف ، وارتجفت كتدفق من سائل كهربائي متصلب مستجيبة . ومع ذلك ، لم تشعر أنها جميلة في نظره ، بل مثيرة حسب . تركته يمتلكها ، وبدا مجنونا ، مجنونا بهوى مثار . لكن عندما اضطجعت على الرمل البارد الناعم ، وهي تنظر الى السماء المرصعة المضيئة قليلا ، أحست أنها باردة الآن مثل ما كانت من قبل ، غير أنه بدا وهو يتنفس تنفساً متثاقلاً ، إذ أُشبع بطريقة متوحشة ، كأنه قد ثأر منها .

داعبت ريح خفيفة عشب البحر ، ومرت على وجهه أين هو الإشباع الفائق الذي لن تستمتع به أبدا ؟ لماذا هي باردة ، غير مثارة ، ولامبالية على هذا النحو ؟

في طريق عودتهما الى البيت ، وعندما رأت أضواء السقيفة العديدة الكريهة ؛ مجموعة السقائف ، قال لها بنعومة :

ـ لا تقفلي بابك

فردت قائلة

ـ أفضّل ذلك هنا .

ـ لا ، لا تفعلي ذلك ، سينتمي أحدنا الى الآخر ، فدعينا لا ننكر ذلك .

فلم تنبس ببنت شفة وعَدَّ صمتها موافقة

وكان يشترك مع رجل آخر في غرفة

قال له :

ـ أعتقد أني لن أثير الخوف في البيت إن أنا عبرت الى الأجزاء الأكثر سعادة .

فرد الرجل الآخر مستديرا كي ينام :

ـ مادمت لا تثير ضجة هائلة في الذهاب ، ولا تحاول أن تفتح الباب الخطأ .

خرج سكريبينسكي بملابس نومه المخططه خطوطاً متباعدة ، واجتاز صالة الطعام الكبيرة التي كانت تفوح من نارها الواطئة روائح السيكار والويسكي والقهوة ، ودخل الى الممر الثاني ، وعثر على غرفة اورسلا . كانت مضطجعة يقظة مفتوحة العينين ومعانية ، ولقد كانت ستسعد بمجيئه لو كان ذلك لمجرد العزاء ، إذ كان بمثابة عزاء لها أن يحضنها بين ذراعيه ، وأن تشعر بجسده على جسدها . ومع ذلك ، يا لغرابة ذراعيه وجسده الآن! لكنه لم يزل ليس غريبا ومعاديا بطريقة مخيفة ، مثل ما أحست ببقية سكان البيت .

لم تعرف كيف عاشت في هذا البيت . كانت معافاة وممتلئة بمتعة مفرطة ، فلعبت التنس ، وتعلمت الغولف ، وجدفت وسبحت في البحر العميق ، واستمتعت به كثيرا جدا ، متعة كاملة ومع ذلك ، أحست طوال الوقت بين أولئك الآخرين . إنها مصدومة ومنكمشة كما لو أن عريها الحساس كثيرا ، قد كُشِف أمام التأثير المادي الصلب القاسي لدى الآخرين

مرت الأيام دون أن تترك أثرا ، في استمتاع مكتمل نشط تقريبا لجسد المرء كان سكريبينسكي واحدا بين الآخرين حتى يحل المساء ، فيأخذها لنفسه .

كانت مُنِحَت قدرا كبيرا من الحرية ، وكانت تُعامل بقدر كبير من الاحترام كفتاة على وشك الزواج ، وتوشك على المغادرة الى قارة أخرى .

ابتدأت المشاكل عند المساء ، ثم خَيّم عليها حنين لشيء مجهول ؛ هوى لشيء لا تعرفه ، فكانت تسير وحيدة على الشاطئ بعد الغسق ، متوقعة ؛ متوقعة شيئا ما ، كما لو أنها ذهبت الى موعد .

الملح ، هوى البحر المر ، لامبالاته تجاه الأرض ، تأرجحه ، حركته المحددة ، فورته ، هجومه ، وحريق ملحه   كانت أمور تثيرها حد الجنون ، تعذبها بإيحاءات إشباع لا حدود لها . ومن ثم ، وكتجسيد لذلك ، يأتي سكريبينسكي ، سكريبينسكي الذي تعرفه ، المغرمة به ، الذي كان جذابا بيد أن روحه لا تستطيع أن تحتويها في موجات قوتها ، ولا يستطيع صدره أن يجبرها في هوى ملحي محرق .

في إحدى الأمسيات ، خرجا بعد العشاء عبر ملاعب الغولف الواطئة ، صوب الكثبان والبحر . وكان للسماء نجوم شاحبة صغيرة ، كلها ساكنة ومعتمة قليلا . تمشيا معا في صمت ، ثم شقّا طريقهما جاهدين خلال الرمل الرخو الثقيل في الفرجة بين الكثبان . وذهبا في صمت ، تحت العتمة المنتظمة الواهنة ، وفي ظل التلال الرملية الأشد عتمة

وفجأة ، وقد تسلقا الى ذروة الممر الرملي الثقيل ، رفعت اورسلا رأسها الى الأعلى ، وتمطّت الى الخلف مفزوعة بطريقة خاطفة ، فثمة بياض شاسع يواجهها . كان القمر متوهجا مثل فوّهة تنّور* ، تصدر خارجة منه هبة عالية من ضوء القمر على نصف العالم المواجه للبحر ، تَوَهجٌ مرعبٌ يثير الدوران من ضوء أبيض . انكمشا الى الوراء لحظة في صرخة معتمة عالية ، وأحسَّ أن صدره يُعرض عاريا ، حيث يختفي السر ثقيلا ، وأحسَّ أنه ينصهر الى عَدمٍ ، كخرزة تختفي بسرعة في ضوء متوهج .

وهتفت اورسلا بنبرات منخفضة داعية : يا للروعة ؛ يا للروعة ، وتقدمت الى الأمام كي تغطس فيها ، وتبعها ، وبدت هي الأخرى تذوب في التوهج صوب القمر .

كان الرمل كأرض من لُجين . وتحرك البحر في بريق صلب ، زاحفا نحوهما . وذهبت كيما تلتقي بتقدم الماء الطافي البراق . اعطت نهديها للقمر ، وبطنها للماء الثقيل البراق . ووقف خلفها مطوقا ، ظلا يذوب أبدا . وقفت على حافة الماء ، على حافة جسد البحر الصلب البراق ، واندفعت الأمواج على قدميها ، وهتفت بصوت قوي مسيطر :

ـ أريد الذهاب ، أريد الذهاب .

رأى ضوء القمر على وجهها ، فكانت أشبه بمعدن ، وسمع صوتها المعدني الرنّان كصوت عقاب في أذنيه .

وجاست متجولة على حافة المياه ، كمخلوق ممسوس . وتبعها ، ورأى زبد الموجة متبوعا بدوامة ماء صلبة براقة على قدميها وكاحليها . ومدت ذراعيها كي توازن نفسها

---

* نبوءة دانيال ، الفصل الثالث ، الآيات (٢٣-٢٨) : «حينئذ أوثق هؤلاء الرجال في سراويلهم وأقمصتهم وأرديتهم وألبستهم وألقوا في وسط أتون النار المتقدة»

وتوقع في كل لحظة ، أن يراها تسير صوب البحر بكل ملابسها كي تسبح ، بيد أنها استدارت واتجهت صوبه ، وهتفت مرة أخرى ، بالصوت المرتفع الصلب ، كصراخ النوارس :

ـ أريد الذهاب!

فسألها :

ـ الى أين ؟

ـ لا أعرف

وأمسكت ذراعه ، وتعلقت به ، كما لو أنه أسير ومشت به قليلا عند حافة الماء الدائخ البراق .

تلا ذلك توهج شديد من الضوء ، وتعلقت به كما لو أنها امتلكت فجأة القدرة على التدمير ، وضيّقت ذراعها حوله ، وأمسكت به في قبضتها ، بينما بحث فمها عن فمه في قبلة صلبة عنيفة متزايدة ، حتى أصبح جسده عديم الحيلة في قبضتها ، كقلب ذاب خوفا من قبلة النسنوس* الحاد ذي المنقار . واندفع الماء مرة أخرى على قدميها ، بيد أنها لم تلحظ ذلك . وبدت غير شاعرة وكأنها تضغط بفمها ذي المنقار حتى انتزعت قلبه ومن ثم ، وفي النهاية ، انسحبت ونظرت إليه ، نظرت إليه وعرف ما أرادت . أمسكها من يدها ، وقادها عبر مؤخرة الساحل الى التلال الرملية ، وذهبت صامتة . وأحسَّ كما لو أن محنة الدليل قد ألقيت على عاتقه ، فإما حياة او موت ، وقادها الى الفرجة المظلمة .

ـ لا ، هنا .

قالت خارجة الى المنحدر المكتمل الضوء تحت ضوء القمر ، واضطجعت ساكنة تنظر بملء عينيها الى القمر . وجاء إليها مباشرة دون مقدمات ، وثبتته على صدرها بطريقة فظيعة ، وكان القتال ؛ الصراع من أجل الاكتمال مريعا ، واستمر حتى تحول الى تبريح لروحه حتى استسلم ، حتى توقف ، كما لو أنه ميت . واضطجع ووجهه مدفون بعضه في شعرها ، وبعضه الآخر في الرمل ساكنا ، كما لو أنه سيكون ساكنا الآن والى الأبد ، مَخْفيّا في الظلام مدفونا ، مدفونا حسب ، بيد أنه أراد فقط أن يدفن في الظلام الإلهي ، ذلك فقط ، لا أكثر

بدا أنه فقد وعيه . وتصرّم وقت طويل قبل أن يستعيد وعيه . كان شاعرا بحركة نهديها غير العادية . نظر الى الأعلى ، كان وجهها ساكنا كخيال في ظل القمر ، والعينان

---

* يقول أمين المعلوف صاحب معجم (الحيوان) إن اللفظة الإنكليزية تدلُّ على طائر في شكل عجوز هرمة ، والمعنى مأخوذ من أساطير اليونان ، ويريد الإنكليز بها نوعا من الحفافيش ونوعين من العقبان .

مفتوحتين على اتساعهما ، مبتلتين . وخارجا من العينين ، وببطءٍ ، تدحرجت دمعة ، أومضت في ضوء القمر ، بينما كانت تنهمر على خدها

وأحسَّ كما لو أن نصلا قد غُرس في جسده الميت مسبقا . ورأسه مشدود الى الخلف ، راقب بإحساس منشده ، طوال بضع دقائق الوجه الصلب الثابت الذي يشبه المعدن تحت ضوء القمر ، والعينين الثابتتين اللتين لا تريان ، اللتين تجمع فيهما الدمع ببطء وارتجف في ضوء قمر متوهج ، ثم فاض وطفح وجرى مقطرا دمعة مع حمولتها من ضوء القمر نحو الظلام كي تسقط في الرمل .

انسحب تدريجا كما لو أنه كان خائفا ، انسحب مبتعدا ولم تتحرك . ألقى نظرة عليها ؛ كانت مضطجعة ساكنة . هل يستطيع الهرب ؟ استدار ورأى مقدمة الساحل خالية أمامه ، فغطس مبتعدا أكثر فأكثر ، بعيدا عن الشكل المريع ، الذي يضطجع متمددا تحت ضوء القمر على الرمال ، والدموع تتجمع وترحل على الوجه الأزلي الساكن .

وأحسَّ أنه اذا ما وجب عليه أن يراها مرة أخرى ، فإن عظامه يجب أن تتحطم ، وجسده يسحق ويشوه الى الأبد . ومع ذلك ، والى تلك اللحظة ، كان لديه حب جسده الحي . تجول طويلا ، طويلا جدا حتى أظلم مخه ، فقد الوعي بسبب التعب ، ثم جثم في دياجير الظلمة التي كان يستطيع أن يجدها تحت عشب البحر ، واضطجع هناك دون وعي .

خرجت تدريجا من تشنج كربها الشديد ، رغم أن كل حركة كانت مهماز ألم شديد وتدريجا ، رفعت جسدها الميت من الرمال ، ونهضت في النهاية ، ولم يعد هناك قمر في نظرها الآن ولا بحر . كل شيء اختفى ، وقادت جسدها الميت الى غرفتها حيث اضطجعت خاملة .

منحها الصباح قدرا جديدا من الحياة الزائفة ، بيد أن كل شيء داخلها كان باردا وميتا وخاملا . ظهر سكربينسكي عند الفطور . كان شاحبا ومتغيرا لم يتبادلا النظرات ، ولم يتبادلا الكلام . تجنبا حديث الناس المتحضرين التافه العادي ، كانا منفصلين ، ولم يتحدثا عما كان بينهما خلال اليومين المتبقيين من إقامتهما كانا مثل بشريين ميتين لم يتجرأا على التمييز ، لا يجرؤان على أن يرى أحدهما الآخر .

ثم حزمت حقيبتها ووضعت أشياءها كان هناك العديد من الضيوف الذين يغادرون معا في القطار نفسه . ولن تتوافر لديه فرصة للحديث معها طرق باب غرفتها في الدقيقة الأخيرة . وقفت ومظلتها بيدها . أغلق الباب ولم يعرف ما يقول .

سألها بعد فترة طويلة ، رافعا رأسه

ـ هل انتهيت مني ؟
قالت ·
ـ أنا ؟ لقد انتهيت مني . لقد انتهى كل منا من الآخر .
نظر إليها ، الى الوجه المغلق الذي ظَنَّهُ قاسيا جدا . وعرف أنه لن يستطيع أن يلمسها مرة أخرى أبدا . وكُسِرت إرادته لقد ذبل ، بيد أنه تعلق بحياة جسده
سألها بصوت برم قليلا ·
ـ حسنٌ ، ماذا فعلت ؟
ردت عليه بالصوت المعتم الخالي من الإحساس ذاته :
ـ لا أعرف ، لقد انتهى الأمر . كان إخفاقا .
كان صامتا ، فلم تزل الكلمات تحترق في أحشائه .
قال لها وهو ينظر إليها مليا ، متحديا الضربة الأخيرة :
ـ هل الخطأ خطأي ؟
ـ لم تستطع...
ابتدأت الكلام ، بيد أنها انهارت
استدار مبتعدا ، خائفا أن يسمع المزيد ابتدأت تجمع حقيبتها ومنديلها ومظلتها . يجب أن تذهب الآن ، وهو ينتظر أن تذهب .
في النهاية ، وصلت العربة ، وغادرت مع الآخرين . وعندما اختفت من البصر ، تملكه إحساس هائل بالارتياح ، ابتذال مسر وخلال لحظة ، مُحيَ كل شيء ، وأصبح ودودا أنيسا بشكل طفولي طوال النهار . ودهش لأن تكون الحياة بهذا اللطف ، إذ أصبحت أفضل مما كانت عليه . يا له من أمر بسيط ، أن يتخلص منها . وكم بدا كل شيء ودودا وصديقا في عنيه ، وأي شيء زائف كانت نفرضه عليه .
لكنه لم يتجرأ على أن يختلي بنفسه ليلاً ، وكان شريكه في الغرفة سافر كانت ساعات الظلام بمثابة تبريح بالنسبة إليه وراقب النافذة في معاناة ورعب متى يُرفع عنه هذا الظلام المرعب ؟ أعد كلّ أعصابه للاحتمال ، واستغرق في النوم عند الفجر
لم يفكر فيها قط ، إن رعبه من ساعات الليل حسب هو الذي نما في داخله وتملكه مثل الهوس نام نوما متقطعا مفصولا بفترات من اليقظة المبرحة ، وبلى الخوف لبه .
كانت خطته أن يستيقظ متأخرا جدا ، وأن يشرب مع جماعته حتى الساعة الواحدة او الواحدة والنصف بعد منتصف الليل ، ثم ينام ثلاث ساعات من النسيان . وكان الفجر ينبلج

عند الساعة الخامسة ، لكنه كان يصدم الى حد يقترب من الجنون إذا ما فتح عينيه في الظلام

كان على ما يرام في ساعات النهار ، منشغلا دائما بما يحدث في تلك اللحظة ، متعلقا بالحاضر المبتذل الذي كان يبدو له وافرا ومرضيا . ولم يكن يهمه كم كانت مشاغله ضئيلة وتافهة ، إذ كرّس نفسه لها كليا . وأحس أنه راض وعادي . كان دائما نشيطا مرحا سعيدا جذابا وتافها ، ولم يكن يخشى سوى ظلام غرفة النوم وصمتها ، عندما يمكن أن يتحداه الظلام في روحه ، ذلك ما لم يستطع أن يطيقه ، مثل ما لا يطيق التفكير في اورسلا ، ولم تكن له روح او خلفية . ولم يفكر في اورسلا إطلاقا ، ولا مرة واحدة . ولم يمنحها أية إشارة . كانت الظلام والتحدي والرعب فتحول الى الأشياء الآنية أراد أن يتزوج بسرعة ، أن يتستر من الظلام ، أن يتحدى روحه سيتزوج ابنة العقيد مسؤوله . وبسرعة ، ودون تردد ، مدفوعا بولعه بالنشاط ، كتب الى هذه الفتاة مخبرا إياها أن خطوبته قد فُسخت ، وأنها كانت افتتانا مؤقتا ـ وهو أقل من أي شخص آخر يمكن أن يستطيع أن يفهم أن ذلك قد انتهى الآن ، وأنه سوف يرى صديقته العزيزة جدا في الحال ، وأنه لن يكون سعيدا حتى يستلم جوابا .

ولقد استلم جوابا يدلُّ على دهشة الفتاة ، بيد أنها ستكون سعيدة بمقابلته . وكانت تعيش مع عمتها ، وذهب ليقابلها في الحال . وتقدم إليها في المساء الأول ، ولقد قُبِل ، وتم الزواج بهدوء خلال أربعة عشر يوما . ولم تعلم اورسلا بالأمر . وفي الأسبوع اللاحق ، أبحر سكربينسكي مع زوجته الجديدة الى الهند .

الفصل السادس عشر

قوس قزح

عادت أورسلا الى بيلدوفر شاحبة متجهمة ومنغلقة . ولم يكن بمستطاعها أن نتحدث ، او أن تلاحظ إلاّ لماما . كان الأمر كما لو أن طاقتها قد تجمدت . سألها أهلها عن الأمر ، فأخبرتهم أنها قد فسخت الخطوبة مع سكربينسكي ، فبدوا مذهولين وغاضبين ، بيد أنها لم تستطع أن تشعر فترة أطول .

زحفت الأسابيع كئيبة ، إذ لابد أنه قد أبحر الى الهند الآن ، ولم يكن الأمر يهمها إلاّ قليلا . كانت خاملة دون قوة او اهتمام .

وفجأة سرت فيها رجفة ، عنيفة الى الحد الذي ظنت معه أنها قد ضُرِبت . هل هي حبلى ؟ كانت نائخة تحت ألم نفسها وألمه ، ولم يدر بخلدها ذلك قط . أما الآن فلقد أمسك كاللهب بأطرافها وجسدها . هل هي حبلى ؟

في ساعات الدَهَش الملتهبة الأولى ، لم تعرف بم أحست ، إذ بدت كما لو أنها كانت مربوطة الى وتد . وكان اللهيب يلعقها ويفترسها ، غير أن اللهيب كان جيدا أيضا ، إذ أنه كان على ما يبدو يبليها الى درجة الراحة . ولم تكن تعرف كنه ما أحسّتْ به في قلبها ورحمها كان نوعا من الإغماء .

وتدريجا ، ضغط ثقل قلبها وضغط على وعيها . ما الذي كانت تفعله ؟ هل كانت تحمل طفلا ؟ الى ماذا ؟

ذهل جسدها ، بيد أن روحها كانت مريضة . كأن هذا الطفل أشبه بختم وضع على بطلانها . ومع ذلك ، كانت سعيدة في جسدها لأنها كانت حبلى بطفل . وطفقت تفكر في أنها ستكتب لسكربينسكي ، وأنها ستذهب إليه وتتزوجه ، وتعيش ببساطة كزوجة طيبة له إذ ما تهم النفس او شكل الحياة ؟ بل إن ما يهم هو العيش من يوم لآخر ، الوجود

المحبوب في الجسد ، غنيا ، مسالما ، مكتملا دون أن يكون شيء وراءه ، لا المزيد من المتاعب ، ولا المزيد من التعقيدات . لقد كانت على خطأ ، كانت متغطرسة وشريرة ، تريد الشيء الآخر ، الحرية المدهشة ، ذلك الوهم ، الإشباع المغرور الذي تخيلت أنها يمكن أن تحصل عليه مع سكريبينسكي .

من تكون حتى تريد بعض الإشباع المدهش في حياتها ؟ ألم يكن كافيا بالنسبة إليها أن يكون لديها رجلها وأطفالها ومأواها تحت الشمس ؟ ألم يكن كافيا لها ، مثل ما كان كافيا لأمها ؟ ستتزوج ، وتحب رجلها ، وتملأ مكانها ببساطة . هذا هو الأمر المثالي . فجأة رأت أمها في ضوء حقيقي ومنصف . كانت أمها بسيطة وصادقة على نحو جذري ، فلقد أخذت الحياة التي مُنحت لها ، فهي لم تصر في غرورها المتغطرس على خلق حياة تناسبها . إن أمها على صواب ، على صواب عميق ، وكانت هي زائفة تافهة مغرورة .

وتملكها إحساس هائل بالتواضع . وفي هذا التواضع ، نوع استرقاقي من السلام . سلمت أطرافها للرِّق ، وأحبته وأسمته سلاماً . وفي هذه الحالة ، جلست تكتب رسالة الى سكريبينسكي :

لقد عانيت كثيرا منذ أن تركتني ، فعدت الى نفسي . لا أستطيع أن أخبرك بالندم الذي أشعر به ، بسبب سلوكي الشرير الأحمق . لقد منحني الله أن أحبك ، وأن أعرف حبك لي ، لكن بدلا من أن آخذ حاثية على ركبتي ، شاكرة ، ما منحني إياه الله ، أصررت على أن أمتلك القمر ، وأن أصر كي يصبح لي وحدي . ولأني لم أستطع الحصول عليه فإن كل شيء آحر يجب أن يذهب .

لا أعرف إن كنتَ تستطيع أن تغفر لي ، قد أموت من الشعور بالخزي عندما أفكر بسلوكي معك في أثناء الأوقات الأخيرة التى قضيناها معا ، ولا أعرف إن كنت أطيق النطر الى وجهك مرة أخرى حما ، إن أفضل شيء لي هو أن أموت ، وأدفن خيالاني الى الأبد ، بيد أني أجد نفسي مع طفل ، لذلك فإن هذا أمر لا يمكن تحقيقه .

إنه طفلك ، ولهذا السبب يجب أن أبجله وأن أسلم جسدي كله للعناية به ، وألا أفكر بالموت ، الذي هو مرة أخرى ، عرور الى حد كبير . لذلك ، ولأنك أحببتني ذات مرة ، ولأن هذا الطفل هو طفلك ، أسألك أن تردني إليك لو أنك أرسلت

لي برقية من كلمه واحدة ، فإني سآتي إليك بأسرع ما أستطيع ، وأقسم إني سأكون زوجة مطيعة لك ، وأن أخدمك في كل أمورك لأني الآن لا أكره إلاّ نفسي وحماقتي المتعجرفة . أحبك ، وأحب التفكير فيك . فأنت طبيعي ومهذب في كل شيء ، بينما كنت زائفة جدا . وإذا صرت معك مرة أخرى ، فلن أطلب منك أكثر من أن أرتاح في حماك طوال عمري .

هذه الرسالة التي كتبتها سطرا فسطرا ، كما لو من سويداء قلب مخلص . وأحست أنها الآن ، الآن في أعماق نفسها ، وأن هذه هي نفسها الحقيقية الى الأبد ، وأنها بهذه الوثيقة ، سوف تظهر أمام الرب يوم الحساب . إذ ما لدى المرأة سوى أن تذعن ؟ وما فائدة جسدها إن لم يكن لحمل الأطفال ، وقوتها لأطفالها ولزوجها مانح الحياة ؟ لقد أصبحت امرأة في النهاية .

أرسلت الرسالة الى ناديه كي تُبعث إليه في كلكتا ، ليستلمها ، بعد وصوله الى الهند خلال ثلاثة أسابيع من وصوله الى هناك . وفي شهر ، سوف تستلم خبرا منه ، وعندها تسافر .

كانت واثقة تماما منه ، ولم تفكر إلاّ في جمع ثيابها ، والعيش بهدوء وسلام حتى يحين موعد التحاقها به مرة أخرى ، وبذلك ينتهي تاريخها الى الأبد ، وسيعم السلام مثل هدوء غريب فترة طويلة . كانت تدرك ، مع ذلك ، تجمعات من التململ والاضطراب التي تنتظر في داخلها ، وحاولت أن تهرب منها ، وتمنت لو أنها تستطيع أن تعرف جواب سكريبنسكي على رسالتها ، حتى يتحدد مسارها ، وعندها ستنشغل بالإيفاء بمتطلبات قدرها

لقد كانت عطالتها هذه ، هي التي تجعلها عرضة للتغير الذي تخشاه . وكان أمرا غريبا صآلة اهتمامها بعدم كتابته لها من قبل . وكان كافيا أنها أرسلت إليه رسالة ، وأنها ستحصل على الجواب المطلوب ، وهذا كل شيء .

وفي أصيل أحد الأيام ؛ أوائل تشرين الأول ، وقد شعرت بالاهتياج يرتفع ، حد الجنون ، في داخلها . انزلقت تحت المطر ، كي تسير في الخارج ، مخافة أن يخنقها البيت وكان كل شيء مبللا رطبا مهجورا . كانت البيوت المسخمة تتوهج بلون أحمر معتم ، والبيوت المتلاصقة تتوهج قرمزية تحت ومض الضوء ، تحت الأردواز القرمزي المسود البراق . سارت أورسلا صوب وايلي غرين ، ورفعت رأسها ، وسارت برشاقة ،

مشاهدة ممر الضوء عبر الوادي الضحل ، مشاهدة المنجم وسحب الغبار التي بدت لحظة كرؤيا في بريق معتم ، بعيدا في فوضى المطر . ثم هبط القناع مرة أخرى ، وكانت سعيدة من عُزلة المطر وحميميته

متجهة صوب الغابة ، رأت وميض (وايلي وتر) الشاحب* خلال السحابة في الأسفل ، وقطعت المسافة المفتوحة حيث كانت أشجار الزعرور تتدفق كالشعر على الريح ، وشجيرات مدورة ، كأنها مخلوقات تظهر خلال الجو . كان كل شيء رائعا حرا مشوشا .

ومع ذلك ، هرعت نحو الغابة طلبا للملجأ . وهناك كان الهدير الشاسع في الأعلى ينبض ويغلفها . وكانت جذوع الأشجار تقيس دائرة الصوت الهائل ، حشود من جذوع الأشجار ؛ هائلة ومخططة باللون الأسود مع الماء ، تندفع كدعامات قائمة بين السقف الهادر واندفاع الدائرة تحت الأقدام . انزلقت بين جذوع الأشجار ، خائفة منها ، إذ أنها قد تستدير وتنغلق عليها ، بينما تجتاز صمتها الحربي .

ومشت متنقلة ، متخيلة أنها ترى ، وأحست أنها كطير حلّق خلال نافذة قاعة حيث يجلس عدد هائل من المحاربين على المنصة . وبين قبورهم وصفوفهم الهادرة ، كانت تسير عجلى ، مفترضة أن لا أحد يلحظها ، حتى ظهرت بقلب واجب خلال النافذة البعيدة ، خارجة منها الى العراء ، على المروحة المستنقعية الخضراء المشرقة .

واستدارت تحت المأوى المشاع ، مبصرة قناع المطر الهائل يتأرجح بموجات طافية بطيئة عبر الأفق . كانت مبللة جدا ، وبعيدة عن بيتها ، مغلفة جدا في المطر والأفق المتموج . يجب أن تشق طريق عودتها خلال كل هذا التذبذب ، عائدة الى الاستقرار والأمان

كشيء متوحد** ، سلكت الطريق المباشر عبر العراء ، عائدة . وكان الطريق ممراً ضيقاً خلال التربة ، بين عشب مرتفع ذاو ومتكتل . ولم يكن أوسع من مهرب أرنب ، لذلك تحركت برشاقة ، مراقبة موطئ قدميها ، سائرة كطير في الريح دون تفكير ، منشغلة في الحركة بيد أن في قلبها ، بذرة خوف حية صغيرة وهي تمر بين طمي الفراغ المجوف

وفجأة ، أدركت أن ثمة شيئاً آخر ، فهناك خيول تلوح تحت المطر ، لم تقترب منها

* أي بحيرة (مورغن) مشهد من حملة الماء في (نساء عاشقات) رواية لورنس

** لعلها ذكرى عالقة في اللاوعي من كتاب (القرية المهجورة) لأوليفر غولد ـ سميث .

بعد ، بيد أنها ستقترب منها . ظلت في طريقها مجبرة . كانت خيول في مأوى من أجمة من الأشجار بعيدا هناك ؛ فوقها   واصلت طريقها ، وقد أطرقت رأسها . لم ترد أن ترفع وجهها لها   لم ترد أن تعرف أنها هناك ، وظلت تسير في الممر الموحش

وميزت الثقل على قلبها ؛ كان وزن الخيول . بيد أنها ستخدعها . ستحمل الوزن بثبات وبذلك تهرب ، ستمضي قدما وقدما ، وستذهب

وفجأة تعمّق الوزن ، وازداد توتر قلبها كي تطيقه . وكان تنفسها مجهدا ، بيد أن بإمكانها أن تحمل هذا الوزن أيضا . وأدركت دون أن ترفع بصرها أن الخيول كانت تقترب منها . ماذا كانت ؟ وأحست بوقع حوافرها على الأرض . ما ذلك الذي يقترب منها ، وأي ثقل يجثم على قلبها ؟ لم تعرف ، ولم تنظر .

ومع ذلك ، قُطع طريقها الآن   إنها تحتجزها في الخلف . وعرفت أنها تجمعت على جسر خشبي فوق خندق مغطى بالنجيل الأحمر ، مجموعة مظلمة ثقيلة ؛ ثقيلة جدا . ومع ذلك ، ظلت قدماها تسيران ، إنها ستتدفق أمامها ، وستتدفق خلفها   وظلت قدماها تسيران قدما ، وازداد توتر عروقها وأعصابها ، أكثر فأكثر ، وسخنت وأصبحت شاحبة ساخنة   يجب أن تذوب ، يجب أن تموت* .

بيد أن الخيول تدفقت أمامها . وسافرت حركة الخيول خلالها بما يشبه نوعا من معرفة بارقة . ارتجاف أكشاحها القوية وإجهادها واندفاعها عندما تقدمت أمامها ، مستدرجة بعيدا .

كانت تعرف أنها لم تذهب ، وكانت تدرك أنها كانت تنتظر ساكنة ، بيد أنها غذت السير على الجسر الخشبي الذي هزته حوافرها وطرقته   ومشت عارفة أشياء عنها . وكانت مدركة أن صدورها موثقة مربوطة بشدة بقبضة لا تسترخي أبدا   وكانت مدركة خياشيمها الحمر وهي تتوهج بتحمل طويل ، وأفخاذها مدورة مصمتة ضاغطة ؛ ضاغطة ؛ ضاغطة كي تنفجر القبضة على صدورها ، ضاغطة الى الأبد كي يطير صوابها   راكضة ضد جدران الزمن ، ولا تنطلق حرة قط . كانت أفخاذها الكبيرة قد نعمها المطر ، وسوّدها ، بيد أن اسوداد المطر ورطوبته لا يستطيعان أن يبعدا النار الصلبة العاجلة المصمتة المقفلة ضمن هذه الأكشاح أبدا ؛ أبدا .

ظلت تقترب أكثر . وكانت مدركة بريق الحوافر العظيم ، بريقاً مزرقاً متلوناً يحيط

* إن الزواج من النقيض ظهر في الحيل الثالث ليبدو وكأنه تدمير للذات ، وعناصر الماء والنار في المنفى ، تبدو عدمية أكثر من كونها مرشدة خلال وحشة الأرض الموعودة ، كما أن الصورة ترتبط مع العنقاء .

تجويفا من الظلام . وبدا بريق الحافر الحديدي الساطع كبيرا جدا ، كبيرا كهالة من البرق حول ظلام الأكشاح المعقود ، مثل دوائر من البرق . صدر بريق الحوافر خارجا من الأكشاح القوية .

وكانت الخيول تنتظرها مرة أخرى ، إذ تجمعت تحت شجرة سنديان ، ناسجة أكشاحها البغيضات العمياوات المنتصرات معا ، ومنتظرة ؛ منتظرة كانت تنتظر قدومها ، بينما كانت تقترب من مسافة بعيدة صوب خط أشجار السنديان ذات الأماليد ، حيث خلقت ظلامها الكثيف ، متجمعة على منحدر منفرد .

يجب أن تقترب ، بيد أنها تفرقت وخبّت من حولها ، مكوّنة دائرة كبيرة كي تتجنب ملاحظتها ، ثم خبّت عائدة الى جانب التل المكشوف خلفها .

أصبحت الخيول خلفها . وكان الطريق أمامها مفتوحا الى البوابة ، في أشجار سور الحديقة المرتفع ، في المسافة القريبة وبذلك ، فإن بمقدورها أن تعبر الى الحقل الصغير المزروع ، ومن ثم خارجا الى الطريق العام ، والى عالم الإنسان المرتب . كان طريقها خاليا . طمأنت قلبها ، بيد أنه كان مسكونا بالخوف ، مسكونا بالخوف طوال الوقت . وفجأة ترددت كما لو أن البرق أمسك بها ، وبدت وكأنها تسقط . ومع ذلك ، وجدت نفسها تترنح الى الأمام بخطوات قصيرة ، وهزها رعد الخيول ، وهي تعدو في الممر خلفها . وهبط ثقل عليها الى الأسفل الى لحظة الانطفاء . لم تكن تستطيع النظر حولها ، وأرعدت الخيول عليها .

وبقسوة انحرفت الخيول نحوها ، وارتطمت بها في ميسرتها . ورأت الأكشاح الحادة تتغضن ، ولكن ليس بما فيه الكفاية ، والحوافر العظيمة تومض برقة ، ولكن مهددة من حولها حسب . واصطدمت الخيول واحدة بعد أخرى ، متعمدات ، نشطات .

مرّت الخيول ملوحة ، هادرة من حولها ، محيطة بها ، ثم خففت من انتقالها المندفع ، وتباطأت وخبّت في مجموعة مرة أخرى ، عند الزاوية قرب البوابة والأشجار أمامها . وكانت الخيول تتحرك وتضطرب ثم أسندت أكشاحها القلقة في مجموعة واحدة وهدف واحد وكانت ضدها .

اختفى قلبها ، لم يعد لديها قلب وعرفت أنها لن تتجرأ على الاقتراب منها . إن ذلك الكشح المركز المعقود لمجموعة الخيول قد انتصر كانت تتحرك قلقة بانتظارها مدركة انتصارها ، كانت تتحرك قلقة باضطراب النصر المنتظر . لقد اختفى قلبها وذابت أطرافها . لقد ذابت كالماء ، ذابت الصلابة وقدرة الاستعراض . كانت في جسد مجموعة الخيول المصمتة

ترنح قدماها ثم توقفت . إنها الأزمة . كانت الخيول تحرك أكشاحها باضطراب . أشاحت ببصرها خائبة وعلى ميسرتها ، وعلى مبعدة مئتي ذراع على المنحدر ، كان سور الحديقة السميك يمتد موازيا وعند إحدى النقاط ، كانت شجرة سنديان . إنها قد تتسلق أغصان شجرة السنديان ، ومن ثمَّ ، تستدير وتنزل على جانب السور الآخر .

مرتجفة ، وبأطراف تشبه المياه ، خائفة من أن تسقط في كل لحظة ، ابتدأت تشق طريقها ، كما لو أنها تقوم باستدارة واسعة حول كتلة الخيول . وكانت الخيول تحرك أكشاحها في مجموعة ضدها . وارتجفت نحو الأمام كما لو أنها في غيبوبة .

ثم فجأة ، وفي لهب التبريح ، اندفعت فأمسكت بعقد شجرة السنديان المتجعدة ، وبدأت تتسلق . كان جسدها ضعيفا ، بيد أن يديها كانتا بصلابة الفولاذ . كانت تعرف أنها قوية ، وجاهدت حتى تعلقت بالغصن . وكانت تُدْرِكُ أن الخيول عارفة بوجودها . وحصلت على موطئ قدم فوق الغصن ، وابتدأت الخيول تتفرق مضطربة محاولة التمييز . وكانت تشق طريقها من حولها الى جانب الشجرة الآخر . وبينما ابتدأت الخيول تخب حولها ، سقطت ككومة على الجانب الآخر من سور الأشجار .

ولم يكن بمقدورها أن تتحرك طوال بضع لحظات . ثم رأت من خلال اسفل السور الذي نظفته الأرانب ، حوافر الخيول الهائلة الناشطة ، بينما كانت تخب مقتربة . ولم تستطع أن تطيق ذلك ، فنهضت ومشت برشاقة قطريا عبر الحقل . وهرولت الخيول على الجانب الآخر من سور الأشجار ، الى الزاوية ، حيث توقفت كان في وسعها أن تشعر بها هناك في مجموعتها المحتشدة طوال الوقت ، بينما كانت تسرع عبر الحقل البور . لقد أصبحت الخيول حزينة تقريبا الآن ، وحملتها إرادتها حسب وتسلقت السور وهي مرتجفة ، نحت شجرة الزعرور المتكئة ، التي تشرف على العشب ، عند الطريق العام . خانتها قواها فجلست على السور مستندة الى جذع شجرة الزعرور ، ساكنة .

جلست هناك ، مستنفدة ، ومرَّ الوقت ، وتدفق التغير بعيدا عنها ، واضطجعت ساكنة ، كما لو أنها فاقدة الوعي على ضفة النهر كالصخرة* ، ففاقدة الوعي ، ثابتة ، لا يمكن تغييرها ، بينما كان كل شيء يتدحرج في زوال ، تاركا إياها ، هناك صخرة مستقرة على ضفة نهر ، لا يمكن تغييرها ، مذعنة ، غاطسة الى قاع كل تغيير .

---

* أي الميصان في قصة أورسلا

اضطجعت ساكنة فترة طويلة ، بينما كان ظهرها يستند الى جذع شجرة الزعرور في عزلتها النهائية . مرَّ بعض عمال المناجم يتسكعون بتثاقل على الطريق الرطب ، وأصواتهم مرتفعة ، وأكتافهم مرفوعة الى آذانهم ، وأشكالهم ملطخة وشبحية تحت المطر لم يرها بعضهم ، وفتحت عينيها بتكاسل عندما اجتازوها ومن ثم رآها رجل كان يمر وحيدا ، وظهر بياض عينيه في وجهه الأسود ، وهو ينظر في دَهَش إليها . تردد في مشيته ، كأنما كي يتحدث إليها ، بسبب قلق مرعب عليها . وكم فزعت من حديثه معها ، وفزعت من سؤاله لها .

انزلقت من مقعدها ، وسارت بغموض على امتداد الممر ـ بغموض . كانت مسافة طويلة تفصلها عن البيت ، وخطرت ببالها فكرة أنها يجب أن تظل تسير ما تبقى من حياتها ؛ متعبة ؛ متعبة . خطوة بعد أخرى ، ودائما على امتداد الطريق الممطر الرطب بين أشجار السرو ، خطوة بعد أخرى ، خطوة بعد أخرى وسببت الرتابة إحساسا عميقا من الغثيان في داخلها . كم كان غثيانها البارد عميقا! كم كان عميقا! لقد سبر ذلك أغوارها أيضا! كان مقدرا لها على ما يبدو أن تعثر على قرارة كل الأشياء اليوم ، قرارة كل الأشياء . حسنٌ ، على أية حال ، كانت تمشي على امتداد الطبقة الأكثر عمقا ـ كانت آمنة تماما ؛ آمنة تماما ، إذا قُدِّر لها أن تغذ السير الى الأبد . إن رؤية هذا كانت القرار الأعمق ، وليس ثمة شيء أعمق منها . ليس ثمة شيء أعمق ، كما ترى ، لذلك فليس بمقدور المرء إلا أن يشعر بأنه واثق ، إنه سالب .

وصلت الى البيت في النهاية . كان تسلق التل الى بيلدوفر صعبا جدا . لماذا على المرء أن يتسلق تلا ؟* لماذا على المرء أن يتسلق ؟ لماذا لا يبقى في الأسفل ؟ لماذا يشق المرء طريقه نحو أعلى المنحدر ؟ لماذا يشق المرء طريقه أعلى فأعلى ، عندما يكون المرء في القاع ؟ اوه ، كان أمرا صعبا جدا ، متعبا جدا ، شاقا جدا . أعباء دوما ، أعباء دوما ، دوما . ومع ذلك ، يجب أن تصل الى القمة ، وتذهب الى البيت كي تنام ، يجب أن تنام .

دخلت البيت ، وصعدت الى الطابق العلوي عند الغسق ، دون أن يلحظ أحد أنها كانت مبتلة تماما كانت متعبة جدا كي تهبط الى الطابق الأسفل مرة أخرى ، فدخلت الفراش ، واضطجعت ترتجف برداً . ومع ذلك ، كانت لامبالية الى حد أنها لم تنهض ولم تطلب المساعدة ومن ثمَّ ، ازداد مرضها تدريجا .

---

* قارن مع المقرة الافتتاحية في الصمحة الأولى من الرواية وكذلك الحديث عن نساء آل برانعوبن

مرضت طوال أسبوعين ؛ هاذية ، مرتجفة ، مرهقة لكن دائما وسط وجع الهذيان ، كان لديها ثبات معتم بالوجود ، إحساس بالبقاء كانت بطريقة ما ، أشبه بصخرة في قاع النهر منيعة ، ولا يمكن تغييرها مهما عصفت بجسدها الرياح ، إذ كانت روحها تضطجع ساكنة ودائمة ، ممتلئة بالألم ، بيد أنها نفسها الى الأبد . وتحت كل مرضها ، قاومت معرفة عميقة لا تتغير .

عرفت ولم تعد تهتم . وطوال مرضها مشوهة بأشكال غامضة ، قاومت سؤال نفسها ، وسكربينسكي كوجع مزعج لما يزل سطحيا ، ولم يمسس شغاف حقيقتها المعزولة الحصينة ، بيد أن تآكله كان يحترق في داخلها حتى أحرق نفسه خارجا .

هل يجب أن تنتمي إليه ، هل يجب عليها أن تلتصق به ؟ ثمة شيء ما يحيرها ، بيد أنه لم يكن حقيقيا ـ الألم دائما ، ألم اللاواقع ، ألم الانتماء الى سكربينسكي . ما الذي يربطها به عندما لا تكون مرتبطة به ؟ لماذا يقاوم الزيف ؟ لماذا يزعجها الزيف ، يزعجها ، يزعجها . لماذا لا تستطيع أن تستيقظ الى الصفاء ، الى الواقع . لو أنها تستطيع أن تستيقظ حسب ، لو أنها تستيقظ حسب ، إن زيف الحلم ، زيف ارتباطها مع سكربينسكي سيختفي . بيد أن النوم ؛ الهذيان يثبتها نحو الأسفل ، حتى عندما تكون هادئة ومتزنة ، فإنها تكون تحت تأثير ذلك .

ومع ذلك ، فإنها لم تكن تحت تأثيره قط . أي شيء دخيل ذلك الذي يربطها به ؟ ثمة قيد وضع عليها ، لمَ لا تحطمه . وما هو ؟ ما هو ؟ في هذيانها ، كانت تحوم حول السؤال . وفي النهاية ، منحها إجهادها الجواب ، إنه الطفل . إن الطفل يربطها به . كان الطفل كالقيد حول مخها ، يشدُّ الخناق على مخها ، إنه يوثقها الى سكربينسكي .

لكن لماذا ؛ لماذا يربطها الى سكربينسكي ؟ ألا تستطيع أن تملك طفلا لنفسها ؟ ألم يكن الطفل من شأنها ؟ شأنها الخاص بها ؟ ما علاقته به ؟ لماذا يجب أن ترتبط متألمة ومقيدة بالاسترقاق الى سكربينسكي وعالم سكربينسكي ؟ عالم أنطون وتحول ذلك في مخها المحموم الى ضغط غلّفها إنْ لم تستطع التخلص من هذا الضغط ، فإنها ستفقد عقلها . كان الضغط هو أنطون وعالم أنطون ، ليس أنطون الذي امتلكته ، بل أنطون الذي لا تمتلك ، ذلك الذي يمتلكه تأثير آخر ، ذلك الذي يمتلكه العالم .

وحاربت وحاربت طوال فترة مرضها كي تتحرر منه ومن عالمه ، كي تركنه جانبا ، كي تركنه جانبا في مكانه . ومع ذلك ، كلما امتلك سطوة جديدة عليها ، وضع قبضة جديدة عليها . اوه ، إنه تعبُ جسدها الذي يجلُّ عن الوصف الذي لا تستطيع ان

تهمله او تتخلص منه لو أنها تستطيع أن تخلص نفسها حسب ، لو أنها تستطيع أن تخلص نفسها من الإحساس حسب ، من جسدها ، من عبء العالم الشاسع كله الذي كان على تماس معها ، من أبيها وأمها وحبيبها وكل معارفها .

باستمرار ، وخلال وجع التعب المطبق ، كانت تردد القول : «ليس لدي أب او أم او حبيب ، ليس لدي مكان مخصص في عالم الأشياء ، أنا لا أنتمي الى بيلدوفر ولا الى نوتنغم ولا الى انكلترا ولا إلى هذا العالم . لا أحد موجود ، بل أنا مقيدة وواقعة في شراكهم ، بيد أنهم غير حقيقيين جميعا ، ويجب أن أتحرر من هذه الحال مثل ما تتحرر الجوزة من قشرتها التي هي اللاواقع» .

ومرة أخرى ، خطر لمخها المحموم الواقع المشرق للبلوط في شباط متساقطا على أرض الغابة ، بأصدافه منفلعة ومهملة ، بينما يخرج اللب عاريا ، يدفع نفسه نحو الأمام كانت هي اللب العاري النقي دافعا الى الأمام ، العسلوج النقي القوي ، والعالم كان شتاء ماضياً مهجورا مهملا ، أمها وأبوها وأنطون والكلية وكل أصدقائها ، كلهم مهملون ، كالسنة التي انصرمت ، بينما يكون اللب حرا عاريا ، محاولا أن يتخذ جذرا جديدا كيما يخلق معرفة جديدة عن الأزلية خلال تدفق الزمن . وكان اللب هو الواقع الوحيد ، أما البقية فلقد أسقطت في النسيان .

لقد تملكها هذا شيئا فشيئا . عندما فتحت عينيها وقت الأصيل ، ورأت نافذة غرفتها والمنظر الواهن المدخن وراءه ، كان كل ذلك مجرد قشرة او صدفة مضطجعة ، كله مجرد صدفة وقشرة . إنها لا تستطيع أن ترى شيئا آخر ، إنها ماتزال مغلفة ، لكنها مغلفة على نحو سائب . ثمة مسافة بينها وبين الصدفة لقد انفلعت ؛ ثمة شق فيها ، سرعان ما سثبت جذرها في يوم جديد ، وسيتخذ عُريها لنفسه سرير سماء جديدة وهواء جديد ، وان هذه القشرة القديمة المتفسخة الخيطية سوف تتلاشى .

وبدأت تدريجا تنام نوما حقيقيا ، نامت في أمان واقعها الجديد . نامت متنفسة بروحها الهواء الجديد لعالمها الجديد . وكان السلام عميقا ومغنيا جدا . لقد مَدّت جذورها في أرض جديدة ، وانشغلت تدريجا في النمو .

وعندما استيقظت في النهاية ، بدا الأمر كما لو أن نهارا جديدا قد طلع على الأرض . يا لطول ما قاتلت خلال الغبار والظلمة من أجل هذا الفجر الجديد! وكم أحست أنها غضة ورائعة وصافية مثل أشد الزهور غضاضة ، تلك التي تتفتح عند نهاية الشتاء ، بيد أن مركز الليل قد استدار ، وكان الفجر قادما .

كانت تجربتها القديمة نائية جدا ؛ سكربينسكي وفراقها معه ، بعيدة جدا . كان بعض الأشياء حقيقياً ، تلك الأسابيع الرائعة الأولى . كانت تلك تبدو من قبل أشبه بالهلوسة أما الآن ، فإنها تبدو حقيقةً واقعة . أما البقية فقد كانت غير حقيقية عرفت أن سكربينسكي لم يصبح حقيقيا في النهاية . ففي أسابيع النشوة الملتاعة كان معها في رغبتها ، لقد خلقته في تلك اللحظة ، بيد أنها فشلت في النهاية وتحطمت .

غريب ، أي فراغ يفصلها عنه لقد أحبّته الآن مثل ما أحبت ذكرى ، نفساً أخرى ماضية . كان شيئا من الماضي ، متناهياً . كان ذلك هو ما كان معروفا . وأحسّت بتأثر حاد من أجله ، مثل ما من أجل ذلك الذي كان في الماضي . وعندما نظرت روحها نحو الإمام ، لم تستطع أن تميز سوى توهج ضوء جديد وأشجار غامضة ترتفع من الأرض كالدخان* . كان المجهول غير المستكشف ؛ غير المكتشف الذي هبطت على ساحله وحيدة ، بعد أن اجتازت الفراغ ، الظلام الذي غسل العالم الجديد والقديم .

لن يكون ثمة طفل . وكانت سعيدة . ومع ذلك ، لو كان ثمة طفل لجعل ذلك الأمر مختلفا قليلا . عندها لاحتفظت بالطفل وبنفسها ، ولما ذهبت الى سكربينسكي . إن انطون ينتمي الى الماضي .

بعدها جاءت البرقية من سكربينسكي : «أنا متزوج» ، واصطخب في داخلها الألم القديم والغضب والازدراء . هل ينتمي الى الماضي المتقشر كليا الى هذا الحد ؟ وتبرأت منه . لقد كان مثل ما كان . وكان أمرا طيبا أنه كان مثل ما كان من تكون كيما تحصل على درجة وفق رغبتها ؟ ليس المفروض أن تخلق بل أن تعترف برجل خلقه الله . إن الرجل يجب أن يأتي من اللانهاية ، وإنها يجب أن ترحب بمقدمه . وكانت سعيدة لأنها لم تستطع أن تخلق رجلها ، وكانت سعيدة لأن ليس لها علاقة بخلقه ، وسعيدة لأن هذا يقع ضمن مدى تلك القوة الأكثر اتساعا التي استقرت فيها في النهاية إن الرجل سيخرج من الأزلية التي تنتمي إليها نفسها .

وعندما تحسنت حالها ، جلست تراقب خلقا جديدا وعندما جلست إزاء نافذتها ، رأت الناس يمرون في الشارع تحت ، عمال مناجم ، نساء وأطفال يمشي كل منهم في قشرة الثمرة القديمة ، بيد أنهم ظاهرون في القشرة ، عند الحدود المنتفخة البارزة للنمو الجديد .

---

* سفر التكوين ، الفصل الثاني ، الآية السادسة : «وكان يصعد منها بخارٌ فيسقي جميع وجهها» .

وفي أشكال عمال المناجم الساكنة المخمدة ، رأت نوعا من القلق ، انتظارا في الألم لتحرر جديد ، ورأت الشيء نفسه في ثقة النساء الصلبة الزائفة كانت ثقة النساء هشة ، سرعان ما تنكسر بسرعة كي تكشف عن قوة النمو الجديد وجهده الصبور .

في كل شيء رأته ، لمحت وتلمست كي تجد خلق الإله الحي ، بدلا من شكل الحياة المندرس القديم الصلب العاري . وفي بعض الأحيان ، كان رعب فظيع يتملكها . وفي أحيان أخر ، كانت تفقد اللمس ، تفقد إحساسها ، فلا تعود تميّز سوى رعب القشرة القديم الذي يوثقها وكل الجنس البشري . كانوا جميعا في السجن ، وكانوا جميعا يفقدون رشدهم .

رأت أجساد عمال المناجم المتصلبة التي بدت مغلقة مسبقا في تابوت ، ورأت عيونهم الثابتة ، عيون أولئك الذين دفنوا أحياء ، ورأت حافات البيوت الجديدة الحادة القاطعة التي بدت كأنها تنتشر فوق الرابية في انتصارها الوحشي ، انتصار في زوايا مرعبة غير مشكلة ، وخطوط مستقيمة ، تعبير الفساد منتصر غير معارض ، فساد نقي حتى أنه صلب وهش . ورأت الجو الداكن فوق التلال المسودة قبالتها ، وبقع البيوت المظلمة ، مسقوفة بالإردواز وغير متشكلة ، برج الكنيسة القديم ينهض في تقادم بشع فوق بيوت جديدة ، فجة على قمة التل ، والبيوت الجديدة غير المتشكلة الهشة ، صلبة الحافات تتقدم من بيلدوفر كي تلتقي بالبيوت الجديدة الفاسدة من (لثلي) ، وبيوت (لثلي) تتقدم كي تختلط مع بيوت هينور . فساد جاف هش فظيع ينتشر فوق وجه الأرض . وانتابها غثيان عميق حتى أنها وهنت عندما جلست . ومن ثمّ ، وفي السحب الهابة ، رأت حزمة من ألوان شاحبة ملونة بألوان قوس قزح واهنة ، جزءاً من التل . ناسية ، مندهشة ، نظرت الى اللون المحلّق ، ورأت قوس قزح يكوّن نفسه في أحد الأمكنة ، كان يومض بحدة ، وتملك قلبها تبريح من الأمل ، وبحثت عن ظل القزحية حيث يجب أن يكون القوس . تجمعت الألوان بثبات على نحو غامض ، من لا مكان ، واتخذت وجودا لنفسها . وكان ثمة قوس قزح واسع واهن . وانحنى القوس وقوّى نفسه حتى تقوس منيعا ، خالعا قوسا عظيما من الضوء واللون وفراغ السماء ، وكانت قواعده براقة في فساد البيوت الجديدة على التل الواطئ ، وقوسه قمة السماء .

وقف قوس قزح على الأرض* ، وأدركت أن الناس القذرين الذين زحفوا بقشورهم

---

* قارن مع سفر التكوين ، الفصل التاسع ، الآيات (١١-١٧) : «تلك قوسي جعلتها في الغمام فتكون علامة عهد بيني وبين الأرض»

الصلبة منفصلين على وجه فساد العالم مازالوا يعيشون ، وأن قوس قزح كان مقوسا في دمائهم ، وسيرتجف الى الحياة في أرواحهم ، وانهم سوف يخلعون قشور تحللهم المتقرنة ، وأن أجسادا جديدة عارية ستظهر ببذار جديد ، لنمو جديد ، مرتفعة الى الضوء والريح والى مطر السماء النظيف ورأت في قوس قزح معمارية الأرض الجديدة ، خراب البيوت والمعامل القديم الهش وقد كنس بعيدا ، وبُنيَ العالم في نسيج الحقيقة الحي ، مناسبا السماء المقوسة في الأعلى .

تمت

فهرس

مـــــقـــــدمـــــة	5
الـــفـــصـــل الأول كيف تروح توم برانغوين من سيدة بولونية	11
الـفـصـل الـثـانـي الحياة في حقل مارش	55
الـفـصـل الـثـالـث طفولة آنا لينسكي	87
الـفـصـل الـرابـع. صبا آنا برانغوين	103
الـفـصـل الـخـامـس. زفاف في حقل مارش	139
الـفـصـل الـسـادس. آنا منتصرة	153
الـفـصـل الـسـابـع. الكاتدرائية	207
الـفـصـل الـثـامـن. الطفلة	221
الـفـصـل الـتـاسـع حمل مارش والفيضان	251
الـفـصـل الـعـاشـر الدائرة المتسعة	271
الفصل الحادي عشر الحب الأول	293
الفصل الثاني عشر العار	347
الفصل الثالث عشر. عالم الرجل	367
الفصل الرابع عشر الدائرة المتوسعة	431
الفصل الخامس عشر مرارة النشوة	447
الفصل السادس عشر قوس قزح	503

الدكتور **فاصل السعدوبى** حاصل على شهادة الدكتوراه في فلسفة العلوم من جامعة برسل (إنكلترا) عام ١٩٧٨، كاتب ومترجم له ما يزيد على الثلاثين كتاباً في مختلف حقول المعرفه من ترجماته. **الحالمة** (قصص قصيرة) و١٩٣٤ (رواية) لألبرتو مورافيا، **مأتم الأم الكبيره** (قصص قصيره) لغابرييل غارثيا ماركيز، **ما بعد الحياة** (دراسة) لكولن ولسون، **الخاطئ** (رواية) لـ د. هـ لورنس، **الطائرة الورقية** (قصص قصيرة) لسومرست موم، **الوعد** (رواية) للكاتبة الأمريكية دانييل ستيل، **دون كيخوته** (رواية) لترباسس. يعمل أستاذاً مساعداً في جامعه اليرموك - الأردن.

أعمال
خالدة
٤

د. هـ. لورنس

أعمال خالدة ٤

ليس لديَ وأنا في حضرة (قوس قزح) ، أقدمها للدارسين والقراء العرب ، سوى القول إن ترجمة هذه الرواية قد وفرت لي متعة ذهنية ، كالهوى الأول كما يقولون ، لا أعتقد أنها ستتكرر مرة أخرى ، وحرّكت الدماء في عشرات المعاجم التي كانت تغفو على رفوف مكتبتي .

كانت ترجمة (قوس قزح) ؛ الرواية الثانية بعد (يولسيس) في الأدب الإنكليزي ، أمنية تراودني منذ فترة طويلة ، بيد أني كنتُ أجد لنفسي الأعذار في كل مرة أقدم فيها على الشروع بالترجمة ، لكن الإغراء كان أشد ، وكان أن ابتدأتُ ، وانشغلت بها انشغالا يكاد يكون تاماً مدة سنة ونصف السنة . ولأن الرواية هي إعادة كتابة للعهد القديم من الكتاب المقدس ، وبغياب معجم عربي لآيات العهد القديم ، فإن توثيق الآيات التي أوردها لورنس أو اقتطعها استغرق وقتا إضافيا .

وبذلك تحققت أمنية العمر هذه بحمد الله ، وها أنذا أزفها ، عروسا عربية ترفل بثوب زفاف قشيب ، بعد ثلاثة أرباع القرن من صدورها بالإنكليزية إلى القراء العرب ، يراودني الأمل بأن تستقطب الاهتمام والرعاية التي تستحق ، والحمد لله رب العالمين .

لوحة الغلاف للفنان ديفيد شتيرنبرك

ISBN => 2-84305-111-8
EAN => 9782843051111